الإحسان في المنظور الإسلامي

دكتور

علي يوسف السبكى

أستاذ الدعوة والثقافة الإسلامية

كلية أصول الدين - القاهرة

جامعة الأزهر

أسماء على السبكى

مدرس مساعد

بقسم التفسير وعلوم القرآن

كلية الدراسات الإسلامية والعربية

بنات - القاهرة - جامعة الأزهر

الطبعة الأولى
١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية
٥ ٢٠٠٦/٤٧١
مطبعة رشوان

مقدمـــــة

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستهديه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، إنه من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادى له.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

اللهم صل وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد ..

فالنبى محمد ﷺ هو خير الخلق عند الله تبارك وتعالى على الإطلاق، وأحبهم إليه، وأكرمهم لديه، أيده ربه بالمعجزات، وآتاه من جوامع الكلم ما طوى به غزير المعانى فى اليسير من الألفاظ.

فعن ابن عمر رضى الله عنهما قال : حدثنى أبى عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : بينما نحن جلوس عند النبى ﷺ إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر، لا يرى عليه أثر السفر، ولا يعرفه منا أحد حتى جلس إلى النبى ﷺ، فأسند ركبتيه إلى ركبتيه، ووضع كفيه على فخذيه.

وقال : يا محمد أخبرنى عن الإسلام.

فقال : «أن تشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله، وتقيم الصلاة، وتؤتى الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً».

قال : صدقت، قال : فعجبنا له يسأله ويصدقه.

قال : فأخبرنى عن الإيمان.

قال : «أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره».

قال : صدقت، قال : فأخبرنى عن الإحسان.

قال : «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك».

قال : فأخبرنى عن الساعة،

قال : «ما المسئول عنها بأعلم من السائل».

قال : فأخبرنى عن أماراتها.

قال : «أن تلد الأمة ربتها، وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون فى البنيان».

قال : ثم انطلق فلبثت مليًا ،

ثم قال : «ياعمر أتدرى من السائل؟»

قلت : الله ورسوله أعلم،

قال : «فإنه جبريل عليه السلام، أتاكم يعلمكم دينكم».[1]

هذا حديث نبوى شريف قد صدرنا به مقدمة كتابنا، وسنختار من هذا الحديث النبوى فقرة هى قوله ﷺ : «قال : فأخبرنى عن الإحسان.

قال : أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك».

هذه الفقرة مضمومة إلى قوله ﷺ : «إن الله كتب الإحسان على كل شىء» والمتأمل فيهما يتأكد له دون شك :

أولاً : كيف أن الله تبارك وتعالى قد آتى حبيبه ومصطفاه جوامع الكلم مما أعجز الفصحاء وشهد به الأعداء.

ثانيًا : قيمة الإحسان فى المنظور الإسلامى. كخلق فاضل يجمل التخلق به، وكيف أنه جزء من عقيدة المسلم، وركن كبير من إسلامه .

هذا وبالله التوفيق...

المؤلفان

أبو محمد
دكتور
على يوسف السبكى

أسماء على السبكى

---

(١) أخرجه الخمسة إلا البخارى.

مدخل

• الإسلام دين الحب

المؤمن لا يجد حلاوة الإيمان إلا إذا أحس حرارة الحب لله ورسوله، عن ذلك يقول الرسول ﷺ : «ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان : أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار»(1).

وديننا الإسلامي أمرنا بهذا الحب، ودعانا إليه، وأغرانا به، وحضنا عليه، يقول المصطفى ﷺ : «أحبوا الله لما يغذوكم به من نعمة، وأحبوني بحب الله، وأحبوا آل بيتي لحبي»(2).

وبهذا يدعو الإسلام إلى المحبة: محبة الله، ومحبة رسول الله، ومحبة الدين والعقيدة والخلق.

فالحب سمة من سمات الحياة الروحية في عقيدة المؤمن، وعاطفة لها وزنها في الجو الإسلامي، والمحيط الديني، والمجتمع العقدي.

وما فرح المسلمون بشيء بعد فرحهم بكلمة التوحيد كما فرحوا بكلمة الحب، فقد جاء أعرابي إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله متى الساعة؟

قال عليه الصلاة والسلام: «وماذا أعددت لها؟»

قال: ما أعددت لها كثير صلاة ولا صيام ولا صدقة، إلا أني أحب الله ورسوله.

فقال عليه الصلاة والسلام: «المرء مع من أحب(3)».

قال أنس بن مالك - وهو راوي هذا الحديث الشريف - : ما رأيت المسلمين فرحوا بعد الإسلام كفرحهم بذلك.

---

(1) رواه البخاري ومسلم.

(2) رواه الترمذي من حديث ابن عباس، وقال حسن غريب.

(3) البخاري ومسلم.

كما جعل سبحانه المحبة بين الزوجين آية من آياته، ودليلاً من دلائل قدرته، قال تباركت أسماؤه: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (١).

والإيمان قائم على المحبة، ومؤسَّس على المودة، قال رسول الله ﷺ: «والذى نفسى بيده لن تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا، ولن تؤمنوا حتى تحابوا ألا أدلكم على شيء إن فعلتموه تحاببتم: أفشوا السلام بينكم» (٢).

فجعل دخول الجنة متوقفاً على الإيمان، وجعل الإيمان متوقفاً على المحبة، فالمحبة شرط فى الإيمان وركن فى العقيدة، وأساس فى الدين.

والمحبة كذلك شرط فى استكمال الإيمان وتمامه (٣): «من أحب لله وأبغض لله، فقد استكمل الإيمان» (٤).

فالإيمان أساسه الحب، وكماله الحب، وأوثق عراه الحب، قال عليه الصلاة والسلام لأبى ذر: «يا أباذر، أى عُرى الإيمان أوثق؟»

قال: الله ورسوله أعلم.

قال عليه الصلاة والسلام: «الموالاة فى الله، والحب فى الله» (٥).

الحب تقرب وعطاء، تقرب من المحب، وعطاء من المحبوب، عن هذا يقول الله تعالى فى الحديث القدسى: «من عادى لى ولياً (٦) فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلى عبدى بشيء أحب إلى مما افترضت عليه، ولا يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به، وبصره الذى يبصر به، ويده التى يبطش بها ورجله التى يمشى بها، وإن سألنى لأعطينه، ولئن استعاذنى لأعيذنه، وما ترددت عن شيء أنا فاعله كترددى عن نفس المؤمن يكره الموت وأنا أكره مساءته» (٧).

---

(١) سورة الروم الآية ٢١. (٢) رواه مسلم.

(٣) الحب فى القرآن، د. محمود بن الشريف ص٩-١١ بتصرف.

(٤) رواه البيهقى فى شعب الإيمان عن ابن عباس. (٥) رواه أبو داود عن أبى أمامة.

(٦) الولى: هو القريب من الله تعالى لتقربه إليه باتباع أوامره واجتناب نواهيه.

(٧) رواه البخارى عن أبى هريرة.

إن عـالمنا اليـوم الذى أوغل فى المادية ،وانحـدر إلى مـهـاوى القلق والأثرة والأنانيـة، إن قلبه المكدود الذى يفيض بالحقد والضـغينة وألوان الكراهيـة . . فى حاجة إلى جـرعات محبـة، ورشفات مـودة تأسوا الجراح، وتغسل السخائم، وتذيب الإحن ، وتزيل المحن، وتبدد الأثرة، وتبيد الكره والأنانية .

ولعل الإنسـانيـة اليـوم فى صـراعـهـا الحـمـوم، وتكالبـهـا المادى، وجـراحـهـا الدامية . . لعل لها فى المحبة الإسلامية ما يأخذ بيدها إلى آفاق من الأمن والأمان والإيمان، وأجـواء من الإخـاء والنقـاء والوفـاء، وبذا تعـود للإنسـانيـة حـيـاتـهـا الروحية التى فقدتها وافتقدتها من آماد طوال .

إن المدنية الحديثة بضجيجها وعجيجها وماديتها الشرسة، وأوارها الملتهب، وأنانيتها التى أورثت أمراضاً نفسيـة وجسدية عز علاجها، وندر تطبيبهـا ، وقد تحير الطب الحديث بمبضعه ومعامله وأنابيبه أمام هذه الأوصـاب، ولم تستطع عقاقيـره أن تصل إلى الأعماق لتزيل ما ترسب من آلام صبغت الحياة بلون قاتم ولونت النفس بلون أسود فاحم .

إن الحب بكل ما يحمله من معان، وبكل ما يشيعه من أمان واطمئنان، وبكل ما يشعه من رضا ومودة وسلام هو علاج للقلق المدنى، وعلاج لإنسان المدنيـة، إنسان العصر الحديث الذى فهم الحب على أنه حرية بلا حـدود، وانطلاق بلا قيود، وفوضى بهيمية، وإشباع غرائز حيوانية، فانحدر وجرفه التيار إلى مهاوى من القلق والأنانية والاكتئاب والاضطراب، يرنو إلى الخلاص، ولا خلاص إلا فى الحب، حـب الحـق . . حب النور . . حب السـلام، والله هو الحق ، وهو النـور، وهو السلام .

إن كتاب الله قد تحدث عن الحب وأشار إليه، وأشاد به، لأن الحب فى الإسلام منهج له حدود وطريق ومعالم وقيود، ومخطط تربوى إلهى، سما بالعواطف، وهذب الأخلاق، وشذب الغرائز، وقدم لكل نفس ما يعصمها من الجنوح، وما

يمنعها من الزلل والانحراف، وما يأخذ بيدها حتى تصير نفساً وضاءة، مشرقة، محبة، محبوبة»[1].

● ما هو الحب؟

عرف اللغويون الحب، فقالوا: هو المحبة والمودة.

والحُباب «بضم الحاء»: الحب والود، والحبيب: المحب والمحبوب.

والحِب «بكسر الحاء»: المحبوب.

وقالوا: حَبه، وأحبه، واستحبه كلها بمعنى واحد: أظهر المحبة له.

أما علماء الألفاظ وفقه اللغة، فقالوا: إن أصل كلمة الحب، معناها مأخوذ من حَبَب الأسنان: وهو صفاء الأسنان وبهاؤها ونقاؤها، فكأن محبة المحب هي: صفاء وقته، وضياء نفسيته، ونقاء مودته.

وقيل: أصله من الحب، وهو: القرط يهتز ويميل ويضطرب في أذن المرأة المتحلية به، وكذلك المحب قلق يخشى على حبه فلا يثبت ولا يستقر.

وقيل: الحب أصله من اللزوم والثبات من قولهم: أحب البعيرُ إذا برك فلم يقم، وكذا المحب ثابت ملازم لا يفارق ذكر محبوب قلبه.

وقيل من الحب، وهو: الخابية «أي الجرة الكبيرة» والخابية لا تسع غير ما ملأها من الماء، وكذلك القلب لا يسع غير ما ملأه من الحب.

وقيل: الحب مشتق ومأخوذ من الحَباب «بفتح الحاء» وهي الفقاقيع التي تعلو الماء عند صب ماء آخر عليه فيكون على هذا اسما لغليان القلب وفورانه عند الشوق والتطلع إلى لقاء المحبوب.

أما علماء التحليل والتعليل من اللغويين فقد قالوا: إن كلمة الحب «بضم الحاء» أكثر استعمالاً لأنها تدل على الشدة: شدة الحب، لأن حركة الضم أقوى من حركة الكسر أو الفتح.

---

(١) الحب في القرآن د. محمود بن الشريف ص ١٣، ١٤ بتصرف.

وقالوا: إن الحِب «بكسر الحاء» هو المحبوب، والكسرة أخف من الضمة، لذلك أعطوا الحِبُ الذى هو المحبوب تلك الحركة الخفيفة،وهى الكسر إشارة إلى أن المحبوب خفيف على القلوب ذكره، مطاع لديها أمره ونهيه.

أما علماء المعانى فقالوا: المحبة ميل الطبع إلى الشىء لكونه جميلاً لذيذاً عند المحب.

فإن تأكد الميل وقوى سمي: «صبابة» لانصباب القلب إليه بالكلية.

فإذا قوى سمي: غراماً» لأنه يلزم القلب كلزوم الغريم [١].

فإذا قوى سمي: «عشقاً» أى إفراطاً فى المحبة.

فإذا قوى سمي: «شغفاً» لأنه يصل إلى شغاف القلب وداخله.

فإذا قوى سمي: «تتيماً» أى تعبداً لأنه يُصَيِّرُ المحب عبداً للمحبوب، فيكون ذلك المحب متيماً مأموراً، مغرماً مأسوراً.

واللغويون وغيرهم مهما قالوا فى تبيان معنى الحب ومشتقاته، فهى محاولات منهم، محاولات فحسب، لا تصل إلى الغور والكنه والحقيقة واللب؛ لأن الحب المتدفق الصاعد مع الأنفاس، المتجدد مع النبضات، لاتفى الكلمات - مهما جلت أوقلت- فى تبيان حقيقته والإحاطة بكنهه» [٢].

• أقسام الناس بالنسبة للحب والبغض

الناس فى نظر أهل السنة والجماعة بحسب الحب والبغض ثلاثة أصناف:

الصنف الأول: من يحب جملة: وهو من آمن بالله ورسوله وقام بوظائف الإسلام ومبانيه العظام علماً واعتقاداً، وأخلص أعماله وأفعاله وأقواله لله، وانقاد لأوامره وانتهى عما نهى الله عنه ورسوله، وأحب فى الله، ووالى فى الله، وأبغض فى الله، وعادى فى الله، وقدم قول رسول الله ﷺ على قول أى أحد كائناً من كان.

---

(١) الغريم: هو صاحب الدين الذى يلازم المدين.

(٢) الحب فى القرآن - د. محمود بن الشريف - ص ٣١، ٣٢ بتصرف.

الصنف الثانى : من يحب من وجه ويبغض من وجه ، فهو المسلم الذى خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً ، فيحب ويوالى على قدر ما معه من الخير ، ويبغض ويعادى على قدر ما معه من الشر ، ومن لم يتسع قلبه لهذا كان ما يفسد أكثرمما يصلح ، وإذا أردت الدليل على ذلك فهذا عبد الله بن حمار ، وهو رجل من أصحاب رسول الله ﷺ ، كان يشرب الخمر ، فأتى به إلى رسول الله ﷺ ،فلعنه رجل وقال : ما أكثر ما يؤتى به .

فقال النبى ﷺ : «لا تلعنه فإنه يحب الله ورسوله» [1] مع أنه ﷺ لعن الخمر وشاربها وبائعها وعاصرها ومعتصرها وحاملها والمحمولة إليه [2] .

الصنف الثالث : من يبغض جملة ، وهو من كفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ،ولم يؤمن بالقدر خيره وشره ، وأنه كان بقضاء الله وقدره ، وأنكر البعث بعد الموت ، أو ترك أحد الأركان الخمسة ، أو أشرك فى عبادته أحداً من الأنبياء والأولياء والصالحين ، وصرف لهم نوعاً من أنواع العبادة والدعاء ، والخوف ، والرجاء ، والتعظيم ، والتوكل ، والاستعانة ، والاستعاذة ، والاستغاثة ، والذبح ، والنذر ، والإنابة ، والذل ، والخضوع ، والخشية ، والرغبة ، والرهبة ، والتعلق ، أو أَلْحَدَ فى أسمائه وصفاته واتبع غير سبيل المؤمنين ، وانتحل ما كان عليه أهل البدع والأهواء المضلة ، وكذلك كل من قامت به نواقض الإسلام العشرة أو أحدها [3] .

- **لا إله إلا الله**

لا وجود للمخلوقات إلا بإبداع الله وحده ، ولا صلاح للموجودات إلا بأن تكون حركاتها ومحبتها لفاطرها وبارئها وحده .

---

(١) صحيح البخارى -كتاب الحدود- باب ما يكره من لعن شارب الخمر وإنه ليس بخارج من الملة .

(٢) سنن أبى داود كتاب الأشربة ، وابن ماجة فى الأشربة . وقال الشيخ الألبانى : صحيح .

(٣) د . محمد بن سعيد القحطانى - الولاء والبراء فى الإسلام - ص ١٣٥ ،١٣٦ .

ولهذا قال تعالى: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾[1]. ولم يقل سبحانه: لما وجدتا ولكانتا معدومتين،ولا قال: لعدمتا، إذ هو سبحانه قادر أن يبقيهما على وجه الفساد، لكن لا يمكن أن يكونا على وجه الصلاح والاستقامة إلا بأن يكون الله وحده هو معبودهما، ومعبود ما حوتاه، وسكن فيهما.

فلو كان للعالم إلهان لفسد نظامه غاية الفساد، فإن كل إله كان يطلب مغالبة الآخر، والعلو عليه، وتفرده دونه بالإلهية، إذ الشركة نقص في كمال الإلهية، والإله لا يرضى لنفسه أن يكون إلهاً ناقصاً، فإن قهر أحدهما الآخر كان هو الإله وحده والمقهور ليس بإله، وإن لم يقهر أحدهما الآخر لزم عجز كل منهما ونقصه، ولم يكن تام الإلهية، فيجب أن يكون فوقهما إله قاهر لهما حاكم عليهما، وإلا ذهب كل منهما بما خلق، وطلب كل منهما العلو على الآخر، وفي ذلك فساد أمر السموات والأرض ومن فيهما، كما هو المعهود من فساد البلد إذا كان فيه ملكان متكافئان، وفساد الزوجة إذا كان لها بعلان،

و أصل فساد العالم إنما هو اختلاف الملوك والخلفاء، ولهذا لم يطمع أعداء الإسلام فيه في زمن من الأزمنة إلا في زمن تعدد ملوك المسلمين واختلافهم، وانفراد كل منهم ببلاد، وطلب بعضهم العلو على بعض[2].

فصلاح السموات والأرض، واستقامتهما، وانتظام أمر المخلوقات على أتم نظام من أظهر الأدلة على أنه لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير، وأن كل معبود من لدن عرشه إلى قرار أرضه باطل إلا وجهه الأعلى[3]، قال تعالي ﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ (٩١) عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾[4].

---

(١) سورة الأنبياء الآية ٢٢ .

(٢) فزوال الأندلس، وانهيار الخلافة في بغداد، وغير ذلك، إنما كان نتيجة انتشار الدويلات، والأمراء، وأنصاف الحكام، الذين تخاصموا فيما بينهم، فطمع فيهم أعداؤهم، فكانت نهايتهم وخيمة، وهي الزوال والهلاك.

(٣) الداء والدواء لابن القيم ص ٢٨٧-٢٨٩ .

(٤) سورة المؤمنون الآيتان ٩١، ٩٢ .

• الحب لله وحده

لا شيء أحب إلى القلوب من خالقها وفاطرها فهو إلهها ومعبودها، ووليها ومولاها، وربها ومدبرها ورازقها ومميتها ومحييها، فمحبته نعيم النفوس، وحياة الأرواح، وسرورها، وقوت القلوب، ونور العقول، وقرة العين، وعمارة الباطن.

فليس عند القلوب السليمة والأرواح الطيبة، والعقول الزاكية، أحلى ولا ألذ ولا أطيب ولا أسر ولا أنعم من محبته، والأنس به، والشوق إلى لقائه.

والحلاوة التي يجدها المؤمن في قلبه بذلك فوق كل حلاوة، والنعيم الذي يحصل له بذلك أتم من كل نعيم، واللذة التي تناله أعلى من كل لذة، فقد أخبر بعض الواجدين عن حاله بقوله: إنه ليمر بالقلب أوقات أقول فيها: إن كان أهل الجنة في مثل هذا إنهم لفي عيش طيب.

وقال آخر: إنه ليمر بالقلب أوقات يهتز فيها طربًا بأنسه بالله وحبه له.

وقال آخر: مساكين أهل الغفلة!! خرجوا من الدنيا وما ذاقوا أطيب ما فيها

فقيل له: وما هو؟

قال: محبة الله والأنس به.

ومثل هذا ما قاله آخر: أطيب ما في الدنيا معرفته ومحبته.

وأطيب ما في الآخرة رؤيته وسماع كلامه بلا واسطة.

وقال آخر: لو علم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه لجالدونا عليه بالسيوف!!.

وكلما كانت المحبة أكمل، وإدراك المحبوب أتم، والقرب منه أوفر، كانت الحلاوة واللذة والسرور والنعيم أقوى[1].

---

(١) إغاثة اللهفان لابن القيم ٢/١٩٧ بتصرف.

أسمى وأعلى منزلة .. وأكبر درجة وأكمل مقام فى الدنيا والآخرة، أن يقول الله لعبده ﴿ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي ﴾. إن ذلك القول يجل عن الوصف.

إن محبة القوى الجليل للعبد الضعيف الذليل هى جماع الرحمة وفيض اللطف وجميل العطاء، هى النعمة والمنة والتكريم والفضل ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾[1].

الله جميل جليل يلقى على وجوه أحبائه آيات الجمال وحلل الجلال .. يشع فيهم نور العلم وضياء الإيمان، على جبينهم سطور المهابة ودلائل اليقين، ملأ أهدابهم وهج النور، وملأ أفواههم بالحكمة والقول الفصل، وحصائد ألسنتهم ترانيم شكر وتراتيل ذكر، ما وقع نظر الغير عليهم إلا أحبهم وأغرم بهم .. وانقاد لهم، فهم أحباء الله .. أحبهم الله فحببهم إلى خلقه وحبب خلقه فيهم.

يقول الإمام الغزالى[2]: إن محبة الله لعبده هى أن يتولى أمره ظاهره وباطنه، سره وجهره، فيكون هو المدبر لأمره، المزين لأخلاقه ، المؤنس له بلذة المناجاة فى خلواته، الكاشف له عن الحجب بينه وبين معرفته، يقول رسول الله ﷺ : «إذا أحب الله عبداً جعل له واعظاً من نفسه وزاجراً من قلبه يأمره وينهاه[3]».

و قال الإمام القشيرى[4]: والمحبة حالة شريفة.. شهد الحق سبحانه وتعالى بها للعبد وأخبر عن محبته للعبد، فالحق سبحانه وتعالى يوصف بأنه يحب العبد، والعبد يوصف بأنه يحب الحق سبحانه.

محبة الله سبحانه للعبد مدحه له وثناؤه الجميل عليه .

وإذا أحب الله عبداً جعله عبداً ربانياً .. يكفل له العطاء والنصر، ويشمله

---

(١) سورة يونس الآية ٨٥.
(٢) إحياء علوم الدين ص ٢٦٢٩.
(٣) مسند الفردوس للديلمى من حديث أم سلمة بإسناد حسن بلفظ قريب.
(٤) الرسالة القشيرية ٢ / ٦٦١ تحقيق الدكتور عبد الحليم محمود ودكتور محمود بن الشريف.

بالولاية والحماية ،يقول المصطفى صلوات الله وسلامه عليه فى حديث قدسى رواه عن المولى عز وجل : «من عادى لى ولياً [1] فقد آذنته بالحرب ، وما تقرب إلى عبدى بشيء أحب إلى مما افترضت عليه ، ولا يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ورجله التى يمشى بها ، وإن سألنى لأعطينه ، ولئن استعاذنى لأعيذنه ... » [2].

ومن يحبه الله يحبه أهل الأرض ومن فى السماء ، روى أبو هريرة أن رسول الله ﷺ قال : «إذا أحب الله عز وجل عبداً قال لجبريل : يا جبريل إنى أحب فلاناً فأحبه ، فيحبه جبريل ، ثم ينادى جبريل فى أهل السماء : أن الله تعالى قد أحب فلاناً فأحبوه ، فيحبه أهل السماء ،ثم يوضع له القبول فى الأرض».

إن الله تبارك وتعالى إذ أحب عبدا نادى جبريل إن الله قد أحب فلانا فأحبه فيحبه جبريل ، ثم ينادى جبريل فى السماء إن الله قد أحب فلانا فأحبوه فيحبه أهل السماء ويوضع له القبول فى أهل الأرض».

وفى كتاب إحياء علوم الدين للإمام الغزالى [4] ، أن الله قال لداود عليه السلام : «يا داود ، أبلغ أهل أرضى أنى حبيب لمن أحبنى ، وجليس لمن جالسنى ، ومؤنس لمن أنس بذكرى ، ما أحبنى عبد من قلبه إلا قبلته لنفسى وأحببته حبا لا يتقدمه أحد من خلقى .. من طلبنى بالحق وجدنى ، ومن طلب غيرى لم يجدنى .. يا أهل الأرض .. هلموا إلى كرامتى .. وائتنسوا بى أؤانسكم .. وأسارع إلى محبتكم» [5].

---

(١) الولى : هو القريب من الله تعالى لتقربه إليه باتباع أوامره واجتناب نواهيه.

(٢) رواه البخارى كتاب الرقاق باب التواضع .

(٣) أخرجه البخارى فى صحيحه كتاب التوحيد.

(٤) ص ٢٦٢١ .

(٥) الحب فى القرآن : د. محمود بن الشريف ص ٦١-٦٣ .

• الله مع أحبابه

إن معية الله لمن يحبهم هى معية خاصة يخص بها أحباءه وأولياءه. وأهل حضرته وقربه .. هى معية نصر وتكريم .. معية تأييد وحفظ .. معية عناية ورعاية.

وذلك فضلاً عن المعية العامة التى هى معية العلم المحيط الشامل. والإحاطة العامة التامة الكاملة التى تعلم الحقائق والدقائق والرقائق واللطائف والخفيات والخطرات والهمسات وأحاديث النفس ونجوى القلب .. ودبيب النمل.. هذه المعية العامة تكون للكل وتشمل الجميع ملكًا وملكوتا. تعم الكون بما فيه ومن فيه ﴿ أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ (١).

ويقول الشيخ محمود شلتوت فى تفسيره، إن معية الله لخلقه جاءت فى القرآن على أنواع :

١ - جاءت معية الله للملائكة، وذلك فى قوله تعالى: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾ (٢).

٢ - جاءت معيته للمتقين المحسنين الصابرين : ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾(٣).

﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ (١٢٨) ﴾(٤).

٣ - جاءت معيته لموسى فيما يحكيه الله عز وجل عنه : ﴿ قَالَ كَلاَّ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ (٥).

٤ - جاءت معيته لموسى وهارون ﴿ قَالَ لا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴾ (٦).

٥ - جاءت معيته للناس جميعًا : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلاثَةٍ إِلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ وَلا خَمْسَةٍ إِلاَّ هُوَ سَادِسُهُمْ وَلا

---

(١) سورة الملك الآية ١٤.

(٢) سورة الأنفال الآية ١٢.

(٣) سورة البقرة الآية ١٥٣ .

(٤) سورة النحل الآية ١٢٨ .

(٥) سورة الشعراء الآية ٦٢.

(٦) سورة طه الآية ٤٦.

أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (١) .

﴿ يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ ﴾ (٢) .

فهذه المعية معية علم وإحاطة بشئون العباد .. يحصيها ، وينبئهم بها ، ويحاسبهم عليها .

ومعيته للمتقين المحسنين معية رحمة وقرب من لطفه (٣) .

• الإحسان

الإحسان خلق فاضل يجمل التخلق به ،فهو جزء من عقيدة المسلم وركن كبير من إسلامه ، إذ الدين الإسلامي مبناه على ثلاثة أمور وهي : الإيمان ، الإسلام ، الإحسان(٤) ، كما جاء ذلك في بيان رسول الله ﷺ لجبريل عليه السلام في الحديث المتفق عليه فعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، قال : بينما نحن (جلوس) عند رسول الله ﷺ ذات يوم إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب ، شديد سواد الشعر ، لا يرى عليه أثر السفر ، ولا يعرفه منا أحد ، حتي جلس إلى النبي ﷺ فأسند ركبتيه إلى ركبتيه ، ووضع كفيه على فخذيه ، وقال : يا محمد أخبرني عن الإسلام؟

فقال رسول الله ﷺ : أن تشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، وتقيم الصلاة ، وتؤتي الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا .

قال : صدقت ، قال : فتعجبنا له يسأله ويصدقه .

قال : فأخبرني عن الإيمان؟

قال : أن تؤمن بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر ، وتؤمن بالقدر خيره وشره ، قال : صدقت .

قال : فأخبرني عن الإحسان؟

---

(١) سورة المجادلة الآية ٧. (٢) سورة النساء الآية ١٠٨ .

(٣) الحب في القرآن د. محمود بن الشريف ص ٥٧ - ٥٨ .

(٤) منهاج المسلم أبو بكر جابر الجزائري ص ١٥٢ بتصرف .

قال : أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك، قال : صدقت.

قال : فأخبرنى عن الساعة؟ قال : ما المسئول عنها بأعلم من السائل.

قال: فأخبرنى عن أماراتها ؟

قال : أن تلد الأمة ربتها وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون فى البنيان ، ثم انطلق فلبث مليًا.

ثم قال : يا عمر أتدرى من السائل؟

قلت : الله ورسوله أعلم.

قال: هذا جبريل أتاكم يعلمُكم دينكم» [(١)].

ظاهر هذا الحديث أن الله كتب الإحسان على كل مخلوق، فيكون كل شيء أو كل مخلوق هوالمكتوب عليه. والمكتوب هو الإحسان.

وقيل : إن المعنى أن الله كتب الإحسان إلى كل شيء، أو فى كل شيء، أو كتب الإحسان فى الولاية على كل شيء .

وقد أمر الله تبارك وتعالى بالإحسان فى غير موضع من كتابه الكريم، فقال جل من قائل: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ (٩٠) ﴾ [(٢)].

وقال سبحانه وتعالى : ﴿ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٩٥) ﴾ [(٣)].

وقال تبارك وتعالى : ﴿ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا (٨٣) ﴾ [(٤)].

وقال تعالى : ﴿ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالاً فَخُورًا (٣٦) ﴾ [(٥)].

---

(١) أخرجه مسلم من حديث عبد الله بن عمر بن الخطاب عن أبيه رضى الله عنهما.

(٢) سورة النحل الآية ٩٠. (٣) سورة البقرة الآية ١٩٥.

(٤) سورة البقرة الآية ٨٣. (٥) سورة النساء الآية ٣٦.

والأمر بالإحسان تارة يكون للوجوب، كالإحسان إلى الوالدين والأرحام ويكون بمقدار ما يحصل به البر والصلة.

والإحسان إلى الضيف، ويكون بقدر ما يحصل به قراه،

وتارة يكون للندب كصدقة التطوع ونحوها.

ولقد جاء في القرآن الكريم في مواضع:

تارة مقرونًا بالإيمان كقوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (٩٣)﴾ [١].

وكقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً (٣٠)﴾ [٢].

وتارة مقرونًا بالإسلام كقول الله عز وجل: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (١١٢)﴾ [٣].

وكقوله تعالى: ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ (٢٢)﴾ [٤].

وتارة مقرونا بالتقوى كقول الله تبارك وتعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلا ذِلَّةٌ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٦)﴾ [٥].

وقد ثبت في صحيح مسلم عن النبي ﷺ تفسير الزيادة بالنظر إلى وجه الله تعالى في الجنة، وهذا مناسب لجعله جزاء لأهل الإحسان، ولأن الإحسان هو أن يعبد المؤمن ربه في الدنيا على وجه الحضور والمراقبة كأنه يراه بقلبه وينظر إليه في حال عبادته فكان جزاء ذلك النظر إلى وجه الله عيانًا في الآخرة.

---

(١) سورة المائدة الآية ٩٣.

(٢) سورة الكهف الآية ٣٠.

(٣) سورة البقرة الآية ١١٢.

(٤) سورة لقمان الآية ٢٢.

(٥) سورة يونس الآية ٢٦.

وعكس هذا ما أخبر الله تعالى به عن جزاء الله الكفار فى الآخرة ﴿ كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ﴾[1]. وجعل ذلك جزاءًا لحالهم فى الدنيا، وهو تراكم الران على قلوبهم حتى حجبت عن معرفته ومراقبته فى الدنيا فكان جزاؤهم على ذلك أن حجبوا عن رؤيته فى الآخرة.

و قوله ﷺ فى تفسير الإحسان : « أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك» يشير إلى أن العبد يعبد الله تعالى على هذه الصفة، وهو استحضار قربه وأنه بين يديه كأنه يراه،وذلك يوجب الخشية والخوف والهيبة والتعظيم، كما جاء فى رواية أبى هريرة رضى الله عنه «أن تخشى الله كأنك تراه، ويوجب أيضًا النصح فى العبادة وبذل الجهد فى تحسينها وإتمامها وإكمالها.

وقد وصى النبى جماعة من الصحابة بهذه الوصية، كما روى إبراهيم الهجرى عن أبى الأحوص عن أبى ذر رضى الله عنه قال : أوصانى خليلى ﷺ أن أخشى الله كأنى أراه فإن لم أكن أراه فإنه يرانى.

وروى عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : أخذ رسول الله ﷺ ببعض جسدى فقال : «أعبد الله كأنك تراه ».

وخرجه النسائى من حديث زيد بن أرقم مرفوعًا وموقوفًا «كن كأنك ترى الله فإن لم تكن تراه فإنه يراك» .

وخرج الطبرانى من حديث أنس رضى الله عنه : أن رجلاً قال : يارسول الله حدثنى بحديث واجعله موجزاً،فقال : «صل صلاة مودع، فإنك إن كنت لا تراه فإنه يراك» [2].

وفى حديث حارثة المشهور وقد روى من وجوه مرسلة وروى متصلاً والمرسل أصح : أن النبى ﷺ قال له : «يا حارثة كيف أصبحت ؟ ».

---

(١) سورة المطففين الآية ١٥.

(٢) عزاه الهيثمى فى المجمع ١٠ / ٢٢٩ للطبرانى فى الأوسط عن ابن عمر لا من حديث أنس وقال : فيه من لم أعرفهم.

قال : أصبحت مؤمنًا حقًا.

قال : «انظر ما تقول، فإن لكل قول حقيقة».

قال : يارسول الله عزفت نفسي عن الدنيا فأسهرت ليلى وأظمأت نهارى.

وكأنى أنظر إلى عرش ربى بارزًا.

وكأنى أنظر إلى أهل الجنة فى الجنة كيف يتزاورون فيها.

وكأنى أنظر إلى أهل النار كيف يتعاوون فيها.

قال : «أبصرت فالزم، عبد نَوَّرَ اللهُ الإيمانَ فى قلبه»(١).

وروى من حديث أبى أمامة رضى الله عنه (٢) أن النبى ﷺ وصى رجلاً فقال له : «استح من الله استحياءك من رجلين من صالحى عشيرتك لا يفارقانك».

ويروى من وجه آخر مرسلاً «استح من ربك».

ويروى عن معاذ أن النبى ﷺ وصاه لما بعثه إلى اليمن فقال : «استح من الله كما تستحى من رجل ذى هيبة من أهلك»(٣).

وسئل النبى ﷺ عن كشف العورة خاليًا فقال : «الله أحق أن يستحيا منه من الناس»(٤).

ووصى أبو الدرداء رجلاً فقال له : اعبد الله كأنك تراه.

وخطب عروة بن الزبير إلى ابن عمر ابنته وهما فى الطواف فلم يجبه، ثم لقيه بعد ذلك فاعتذر إليه، وقال : كنا فى الطواف نتخايل الله بين أعيننا (٥).

وأما قوله ﷺ : «فإن لم تكن تراه فإنه يراك» قيل: إنه تعليل للأول، فإن العبد إذا أمر بمراقبة الله تعالى فى العبادة واستحضار قربه من عبده حتى كأن

---

(١) الضعفاء الكبير للعقيلى.

(٢) ذكره الهيثمى فى مجمع الزوائد ٦ / ١٤٨ وقال : فيه على بن زيد وهو ضعيف.

(٣) ذكره الهيثمى فى مجمع الزوائد ٨ / ٢٣٨ وقال فيه ابن لهيعة وفيه لين وبقية رجاله ثقات.

(٤) رواه البخارى كتاب «الغسل».

(٥) أخرجه أبو نعيم وغيره.

العبد يراه فإنه قد يشق ذلك عليه فيستعين على ذلك بإيمانه بأن الله يراه ويطلع على سره وعلانيته وباطنه وظاهره ولا يخفى عليه شيء من أمره، فإذا تحقق هذا المقام سهل عليه الانتقال إلى المقام الثاني، وهو دوام التحقيق بالبصيرة إلى قرب الله من عبده ومعيته حتى كأنه يراه.

وقيل: بل هو إشارة إلى أن من شق عليه أن يعبد الله تعالى كأنه يراه فليعبد الله على أن الله يراه ويطلع عليه، فليستح من نظره إليه، كما قال بعض العارفين: اتق الله أن يكون أهون الناظرين إليك.

وقال بعضهم: خف الله على قدر قدرته عليك، واستح من الله على قدر قربه منك.

وقال بعض العارفين من السلف: من عمل لله على المشاهدة فهو عارف، ومن عمل على مشاهدة الله إياه فهو مخلص. فيه إشارة إلى المقامين اللذين تقدم ذكرهما:

أحدهما: مقام الإخلاص، وهو أن يعمل العبد على استحضار مشاهدة الله إياه واطلاعه وقربه منه، فإذا استحضر العبد هذا في عمله وعمل عليه فهو مخلص لله تعالى، لأن استحضاره ذلك في عمله يمنعه من الالتفات إلى غير الله وإرادته بالعمل.

والثاني: مقام المشاهدة، وهو أن يعمل العبد على مقتضى مشاهدته لله تعالى بقلبه، وهو أن يتنور القلب بالإيمان وتنفذ البصيرة في العرفان حتى يصير الغيب كالعيان، وهذا هو حقيقة مقام الإحسان المشار إليه في حديث جبريل عليه السلام [1].

والإحسان في باب العبادات: أن يؤدى العبادة أيا كان نوعها من صلاة أو صيام، أو حج أو غيرها أداء صحيحًا، باستكمال شروطها وأركانها واستيفاء سننها وآدابها، وهذا ما لا يتم للعبد إلا إذا كان حال أدائه للعبادة يستغرق في

---

(١) جامع العلوم والحكم لابن رجب ص ٤٩ - ٥١.

شعور قوى بمراقبة الله عز وجل حتى لكأنه يراه تعالى ويشاهده، أو على الأقل يُشْعر نفسه بأن الله تعالى مطلع عليه ناظر إليه، فبهذا وحده يمكنه أن يحسن عبادته ، ويتقنها فيأتى بها على الوجه المطلوب، والصورة الكاملة لها، وهذا ما أرشد إليه الرسول ﷺ فى قوله : «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»[1] .

وأما الإحسان فى باب المعاملات : فهو للوالدين ببرهما الذى هو طاعتهما، وإيصال الخير إليهما، وكف الأذى عنهما، والدعاء والاستغفار لهما، وإنفاذ عهدهما، وإكرام صديقهما.

و هو للأقارب ببرهم ورحمتهم، والعطف والحدب عليهم، وفعل ما يجمل فعله معهم، وترك ما يسيء إليهم، أو يقبح قوله، أو فعله معهم.

وهو لليتامى بالمحافظة على أموالهم، وصيانة حقوقهم، وتأديبهم وتربيتهم وترك أذاهم، وعدم قهرهم، وبالهش فى وجوههم، والمسح على رؤوسهم.

وهو للمساكين بسد جوعتهم، وستر عورتهم، بالحث على إطعامهم وعدم المساس بكرامتهم فلا يُحْتقرون ولا يُزْدرون، ولا يُنَالون بسوء أو يُمَسُّون بمكروه.

وهو لابن السبيل : بقضاء حاجته، وسد خلته، ورعاية ماله، وصيانة كرامته، وبإرشاده إن استرشد، وهدايته إن ضل.

وهو للخادم بإتيانه أجره قبل أن يجف عرقه، وبعدم إلزامه ما لا يلزمه أو تكليفه بما لا يطيق، وبصون كرامته، واحترام شخصيته، فإن كان من خدم البيت فبإطعامه مما يطعم أهله، وكسوته مما يكسون.

وهو لعموم الناس بالتلطف فى القول لهم ، ومجاملتهم فى المعاملة والمخاطبة بعد أمرهم بالمعروف، ونهيهم عن المنكر، وبإرشاد ضالهم، وتعليم جاهلهم، وبإنصافهم من النفس، والاعتراف بحقوقهم، وبكف الأذى عنهم بعدم ارتكاب ما يضرهم أو فعل ما يؤذيهم.

---

(١) سبق تخريج الحديث كاملاً.

وهو للحيوان بإطعامه إن جاع، ومداواته إن مرض، وبعدم تكليفه ما لا يطيق وحمله على ما لا يقدر، وبالرفق به إن عمل، وإراحته إن تعب.

وهو في الأعمال البدنية بإجادة العمل، وإتقان الصنعة، وبتخليص سائر الأعمال من الغش وقوفًا عند قول الرسول ﷺ في الصحيح: «من غشنا فليس منا»[1].

- **تعريف الإحسان**

لغة: فعل ما هو حسن مع الإجادة في الصنع «كما في المعجم الوجيز».

والإحسان: ضد الإساءة، ورجل محسن ومحسان «الأخيرة عن سيبويه».

شرعًا: أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك.

فهو فعل ما ينبغي أن يفعل من الخير فضلاً ومحبة، والأفضل أن يكون ذاتيًا دائماً دون نقص أو انقطاع؛ لأنه عمل بالفضائل؛ ولأنه قربة إلى الله تعالى.

وجاءت مادة «حسن» في القرآن الكريم بجميع صيغها ما يقرب من مائة وخمس وتسعين مرة منها اثنتا عشرة مرة بلفظ «إحسان» وهذا دليل على أهمية هذا المقام في الإسلام، حيث أمر به الله عز وجل في مثل[2] قول الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ ﴿٩٠﴾﴾[3].

وفسر النبي ﷺ الإحسان حين سأله جبريل، صلوات الله وسلامه عليهما، فقال: «هو أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك» وهو تأويل قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ ﴿٩٠﴾﴾.

وأراد بالإحسان الإشارة إلى المراقبة وحسن الطاعة، فإن من راقب الله أحسن عمله، وقد أشار إليه في الحديث بقوله ﷺ: «فإن لم تكن تراه فإنه يراك».

---

(١) رواه مسلم كتاب الإيمان باب قول النبي ﷺ: «من غشنا فليس منا»

(٢) الموسوعة الإسلامية العامة - المجلس الأعلى للشئون الإسلامية موضوع «الإحسان» د. عبد اللطيف محمد العبد ص ٥٨.

(٣) سورة النحل الآية ٩٠.

وقوله عز وجل : ﴿ هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلاَّ الإِحْسَانُ ﴿٦٠﴾ ﴾ [1]. أى ما جزاء من أحسن فى الدنيا إلا أن يُحسن إليه فى الآخرة.

وأحسن به الظن : نقيض أساءه، والفرق بين الإحسان والإنعام أن الإحسان يكون لنفس الإنسان ولغيره، تقول : « أحسنت إلى نفسى، والإنعام لا يكون إلا لغيره» [2].

ويفسر الإمام الألوسى «الإحسان» فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ ﴾ بقوله : الإحسان : أى إحسان الأعمال، والعبادة : أى الإتيان بها على الوجه اللائق، وهو :

أ - بحسب الكيفية كما يشير إليه ما رواه البخارى من قوله ﷺ : «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك ».

ب - بحسب الكمية كالتطوع بالنوافل الجابرة لما فى الواجبات من النقص، وجوز أن يراد بالإحسان : الإحسان المتعدى بنفسه، فإنه يقال : أحسنه وأحسن إليه : أى الإحسان إلى الناس والتفضل عليهم [3].

● أوجه ورود الإحسان فى القرآن الكريم ..

يقول الفيروزابادى [4] : إفعال من الحسن : وهو كل مبهج مرغوب فيه، عقلاً أو حسًا أو هوى.

والحسنة : يعبر بها عن كل ما يسر من نعمة تَنال الإنسان فى نفسه وبدنه وأحواله.

والسيئة : تضادها، وهما من الألفاظ المشتركة، كالحيوان الواقع على أنواع

---

(١) سورة الرحمن الآية ٦٠.

(٢) لسان العرب لابن منظور ١٠ / ٨٧٨، ٨٧٩.

(٣) روح المعانى للألوسى ,٤ / ٤٣١ وانظر تفسير البيضاوى ١ / ٥٦٧ ط الثانية - الحلبى.

(٤) فى البصيرة رقم ١٣ من بصائره فى كتابه «بصائر ذوى التمييز فى لطائف الكتاب العزيز» تحقيق الأستاذ محمد على النجار ٢ / ٦٧-٧٠.

مختلفة وقوله تعالى: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِندِ اللَّهِ (٧٨)﴾ [١] أى خصب وسعة وظفر.

﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ (٧٨)﴾ [٢] أى جدب وضيق وخيبة.

وقوله تعالى: ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ (٧٩)﴾ [٣] أى ثواب

﴿وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ (٧٩)﴾ [٤] أى من عذاب.

و قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ (١٨)﴾ [٥] أى الأبعد عن الشبهة.

والإحسان يقال على وجهين:

أحدهما: الإنعام على الغير: أحسن فلان إلى فلان.

الثانى: إحسان فى فعله، وذلك إذا علم علمًا حسنًا أو عمل عملاً حسنًا، ومنه قول على - رضى الله عنه - الناس أبناء ما يحسنون: أى منسوبون إلى ما يعملونه ويعلمونه من الأفعال الحسنة، والإحسان أعم من الإنعام.

• ورود الإحسان فى التنزيل

ورد الإحسان في التنزيل على أوجه منها:

الأول: بمعنى الإيمان قال تعالى: ﴿فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ (٨٥)﴾ [٦].

الثانى: بمعنى قيام الليل والتهجد قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ (١٦) كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ (١٧)﴾ [٧].

الثالث: بمعنى الإنفاق والتصدق على الفقراء قال تعالى: ﴿وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٩٥)﴾ [٨].

الرابع: بمعنى خدمة الوالدين وبرهما قال تعالى: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا (٨٣)﴾ [٩].

(١، ٢) سورة النساء الآية ٧٨.

(٣، ٤) سورة النساء الآية ٧٩.

(٥) سورة الزمر الآية ١٨.

(٦) سورة المائدة الآية ٨٥.

(٧) سورة الذاريات الآية ١٦.

(٨) سورة البقرة الآية ١٩٥.

(٩) سورة البقرة الآية ٨٣.

الخامس : بمعنى الاجتهاد فى الطاعة قال تعالى : ﴿ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٣٤) ﴾ [1] .

السادس : بمعنى أنواع الطاعة قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ (٦٩) ﴾ [2] .

الثامن : بمعنى الإخلاص فى الدين والإيمان قال تعالى : ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ (٢٦) ﴾ [3] .

التاسع : بمعنى الإحسان إلى المستحقين قال تعالى : ﴿ وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ (٧٧) ﴾ [4] .

العاشر : بمعى كلمة النجاة والفوز من النيران قال تعالى : ﴿ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ (٧) ﴾ [5] .

الحادى عشر : بمعنى كلمة الشهادة على اللسان مع الإيقان بالجنان قال تعالى : ﴿ هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ (٦٠) ﴾ [6] فالإحسان الأول هو : التوحيد وكلمة الشهادة.

الثاني عشر : بمعنى نعيم الجنان والرضوان قال تعالى : ﴿ هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ (٦٠) ﴾ [7] .

• الله كتب الإحسان على كل شيء

ومع كل هذا فالناس يخطئون فى فهم الإحسان واستعماله فى أسلوب القرآن فهم، لا يفهمون أن ما تبادر من العادة والعرف الذى يضفى على الإحسان صفة المنحة والتبرع فقط وليس هذا معناه فى شرعة القرآن ولا فى منهج الفصحى من الكلام، وإنما معناه فيهما يقابل الإساءة ، وهى محرمة محظورة فيكون واجبًا

---

(١) سورة آل عمران الآية ١٣٤.
(٢) سورة العنكبوت الآية ٦٩.
(٣) سورة يونس الآية ٢٦.
(٤) سورة القصص الآية ٧٧.
(٥) سورة الإسراء الآية ٧.
(٦، ٧) سورة الرحمن الآية ٦٠.

حيثما جاء مطلقًا أو مقرونًا بواجب، وقد يصرف إلى التبرع إذا حفته قرائن صارفة إليه [1].

قال تعالى: ﴿ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٩٥) ﴾ [2].

لقد ذكر الله عز وجل حبه لأهل هذه الصفة «الإحسان» في أكثر من مكان في كتابه، وبعد أكثر من معنى.

فمثلاً: هي مذكورة في آية البقرة بعد قوله تعالى: ﴿ وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٩٥) ﴾ [3].

ومذكورة في آل عمران بعد قوله تعالى: ﴿ الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٣٤) ﴾ [4].

ومذكورة في آل عمران كذلك بعد قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلاَّ أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (١٤٧) فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٤٨) ﴾ [5].

وقد فسر رسول الله ﷺ «الإحسان» عندما سأله جبريل عنه بقوله: «أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك» [6].

وقال تعالى: ﴿ فَبَشِّرْ عِبَادِ (١٧) الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُوْلَئِكَ هُمْ أُوْلُوا الأَلْبَابِ (١٨) ﴾ [7].

عن أبي يعلى شداد بن أوس رضي الله تعالى عنه عن رسول الله ﷺ قال: «إن الله كتب الإحسان على كل شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة، وليحد أحدكم شفرته، وليرح ذبيحته» [8].

---

(١) الموسوعة في سماحة الإسلام للشيخ محمد الصادق عرجون ٣ / ٧٠٤ .

(٢، ٣) سورة البقرة الآية ١٩٥ .

(٤) سورة آل عمران الآية ١٣٤ .

(٥) سورة آل عمران الآيتان ١٤٧، ١٤٨ .

(٦) جزء من حديث رواه مسلم عن عمر بن الخطاب.

(٧) سورة الزمر الآيتان ١٧ ، ١٨ .

(٨) هذا حديث خرجه مسلم دون البخاري، وخرجه أبو داود والترمذي والنسائي وأحمد

وقد روى نحوه من حديث سمرة عن النبى ﷺ قال: «إذا حكمتم فاعدلوا، وإذا قلتم فأحسنوا، فإن الله محسن يحب المحسنين»،

فقوله ﷺ: «إن الله كتب الإحسان على كل شيء».

وفى رواية لأبى إسحاق الفزارى فى كتاب «السير» عن خالد بن أبى قلابة عن النبى ﷺ: «إن الله كتب الإحسان على كل شيء» أو قال: «على كل خلق» هكذا خرجها مرسلة، وبالشك فى كل شيء أو كل خلق. وظاهره يقتضى أنه كتب على كل مخلوق الإحسان، فيكون كل شيء أو كل مخلوق هو المكتوب عليه، والمكتوب هو الإحسان.

وقيل: إن المعنى أن الله كتب الإحسان إلى كل شيء أو فى كل شيء، أو كتب الإحسان فى الولاية على كل شيء، فيكون المكتوب عليه غير مذكور، وإنما المذكور المحسَن إليه، ولفظ الكتابة يقتضى الوجوب عند أكثر الفقهاء والأصوليين، خلافاً لبعضهم [(١)].

وقد أمر الله تعالى بالإحسان فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ ﴿٩٠﴾﴾ [(٢)].

وقال تعالى: ﴿وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾﴾ [(٣)].

وهذا الأمر بالإحسان تارة يكون للوجوب كالإحسان إلى الوالدين والأرحام بمقدار ما يحصل به البر والصلة، والإحسان إلى الضيف بقدر ما يحصل به قراه.

وتارة يكون للندب كصدقة التطوع ونحوها - كما بينا سابقا -، وهذا الحديث يدل على وجوب الإحسان فى كل شيء من الأعمال، لكن إحسان كل شيء بحسبه، فالإحسان فى الإتيان بالواجبات الظاهرة والباطنة الإتيان بها على وجه كمال واجباتها، فهذا القدر من الإحسان فيها واجب. وأما الإحسان فيها بإكمال مستحباتها فليس بواجب.

---

(١) جامع العلوم والحكم لابن رجب في شرح خمسين حديثًا من جوامع الكلم ص ٢٠١.

(٢) سورة النحل الآية ٩٠.

(٣) سورة البقرة الآية ١٩٥.

والإحسان في ترك المحرمات : الانتهاء عنها وترك ظاهرها وباطنها كما قال الله تعالى: ﴿ وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ ﴿١٢٠﴾ ﴾ [1] فهذا القدر من الإحسان فيها واجب.

وأما الإحسان في الصبر على المقدورات : فأن يأتي بالصبر عليها على وجهه من غير تسخط ولا جزع.

والإحسان الواجب في معاملة الخلق ومعاشرتهم : القيام بما أوجب الله من حقوق ذلك كله، والإحسان الواجب في ولاية الخلق وسياستهم القيام بواجبات الولاية كلها، والقدر الزائد على الواجب في ذلك كله إحسان ليس بواجب [2].

ومما تقدم نعلم أن الإحسان ذو جانبين:

(١) عمل الحسن أو الأحسن.

(٢) الشعور أثناء العمل بأن الله يرانا أو كأننا نرى الله .

ولتوضيح هذين الجانبين نقول :

إن معنى العبادة في الإسلام واسع جداً، فالصلاة عبادة، والزكاة عبادة، والصوم عبادة، والحج عبادة، والسعي على العيال عبادة، والجهاد عبادة، ورحمة الأولاد عبادة، وتأديبهم عبادة، وإكرام المؤمن عبادة، وملاعبة الزوجة وجماعها عبادة، وكل مباح تعمله تنوى به وجه الله عبادة، فإذا نمت بقصد الاستعانة على تقوى الله بنشاط، أو أكلت بنية شكر الله والتقوى على طاعته فإن ذلك عبادة.

وعلى هذا فعندما قال لنا عليه السلام : «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك» فكأنما أراد منا أن نبقى في حالة دائمة من هذا الشعور اليقظ إذا ما أردنا أن نتخلق بالإحسان.

وأن الحسن في الإسلام يقابله السيئ والقبيح، فقد حكم الله على أعمال وأخلاق بأنها سيئة، وحكم على أعمال وأخلاق بأنها حسنة، ولم يترك شيئاً إلا وبين حسنه أو قبحه، قال تعالى : ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ ﴿٨٩﴾ ﴾ [3].

---

(١) سورة الأنعام الآية ١٢٠.

(٢) المرجع السابق ص ٢٠٢.

(٣) سورة النحل الآية ٨٩.

والحسن نفسه قسمان : حسن وأحسن، فمن اعتدى عليَّ من المسلمين يجوز أن أرد عليه بمثل ما اعتدى عليّ، ولكن العفو والصبر أحسن، ولذلك نجد أن آية آل عمران ذكرت المحسنين بعد الإنفاق وكظم الغيظ والعفو عن الناس : ﴿ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٣٤) ﴾ [1].

فالمحسن من أخذ من كل شيء أحسنه أو بقى في دائرة الحسن، ولم يتجاوزه إلى القبيح، وكان في هذا كله شاعراً بأنه يرى الله أو أن الله يراه، وهذا لا يحصله الإنسان إلا بمجاهدة النفس، وإقبال على الله بالذكر والطاعة [2].

• كلمة لابد منها

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ ﴾ فالإحسان فوق العدل، وذلك أن العدل هو أن يعطى ما عليه، ويأخذ ماله.

أما الإحسان فهو : أن يعطى أكثر مما عليه ويأخذ أقل مما له، فالإحسان زائد عليه، فتحرى العدل واجب، وتحرى الإحسان ندب وتطوع. ولذلك عظم الله ثواب أهل الإحسان قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٩٥) ﴾ [3].

والإحسان من أفضل منازل العبودية : لأنه لب الإيمان وروحه وكماله، وجميع المنازل منطوية فيها. قال تعالى : ﴿ هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلاَّ الإِحْسَانُ (٦٠) ﴾

وقال رسول الله ﷺ : «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه».

وأما الآية فقال ابن عباس والمفسرون : هل جزاء الإحسان إلا الجنة.

وقد روى عن النبي ﷺ أن قرأ ﴿ هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلاَّ الإِحْسَانُ (٦٠) ﴾ .

ثم قال : «هل تدرون ما قال ربكم؟».

قالوا : الله ورسوله أعلم.

قال : «يقول : هل جزاء من أنعمت عليه بالتوحيد إلا الجنة؟!» [4].

فالحديث إشارة إلى كمال الحضور مع الله تعالى ومراقبته، الجامع لخشيته ومحبته ومعرفته والإنابة إليه والإخلاص له ولجميع مقامات الإيمان.

---

(١) سورة آل عمران الآية ١٣٤.

(٢) سعيد حوى - جند الله ثقافة وأخلاقاً ص ٢١٧، ٢١٨.

(٣) سورة البقرة الآية ١٩٥.

(٤) رواه البيهقي في شعب الإيمان وضعفه.

والإحسان يكون فى القصد بتنقيته من شوائب الحظوظ، وتقويته بعزم لا يصحبه فتور، وبتصفيته من الأكدار الدالة على كدر قصده.

ويكون الإحسان فى الأحوال بمراعاتها وصونها غيرة عليها أن تُحول، فإنها تمر مر السحاب، فإن لم يرع حقوقها حالت.

ومراعاتها بدوام الوفاء، وتجنب الجفاء، وبإكرام نزلها [(1)] ؛ فإنه ضيف، والضيف إن لم يكن له نزل ارتحل.

ومراعاتها بسترها عن الناس ما أمكن لئلا يعلموا بها إلا لحاجة أو مصلحة راجحة. فإن فى إظهارها بدون ذلك آفات. وإظهار الحال عند الصادقين من حظوظ النفس والشيطان، وأهل الصدق أكتم وأستر لها من أرباب الكنوز لأموالهم، حتى إن منهم من يظهر أضدادها كأصحاب [(2)] الملامة.

ويكون الإحسان فى الوقت، وهو ألا تفارق حال الشهود، وهذا إنما يقدر عليها أهل التمكن وأن تعلق همتك بالحق وحده، ولا تُعلِّق بأحد غيره. فإن ذلك شرك فى طريق الصادقين، وأن تجعل هجرتك إلى الحق سرمداً.

ولله على كل قلب هجرتان فرضا لازما :

(أ) هجرة إلى الله بالتوحيد والإخلاص والتوبة والحب والخوف والرجاء والعبودية.

(ب) هجرة إلى رسول الله بالتسليم له والتفويض والانقياد لحكمه، وتلقى أحكام الظاهر والباطن من مشكاته [(3)] .

ومن لم يكن لقلبه هاتان الهجرتان فليحث على رأسه التراب ، وليراجع الإيمان من أصله [(4)] .

---

(1) هو ما يهيأ للضيف من الطعام.

(2) هم فرقة من الصوفية يرون من الإخلاص ألا يظهروا أحوالهم الكريمة، وأن يتعرضوا للوم الناس لهم فى سلوكهم إفراطًا فى البعد عن الرياء، ويسمون الملامتية.

(3) هى الطاق فى الحائط غير النافذ. وقد جاءت فى الكتاب العزيز مقرونة بالمصباح المنير فى تمثل نور الله سبحانه، ومن هذا صارت تطلق على المصباح وهو المراد هنا.

(4) بصائر ذوى التمييز فى لطائف الكتاب العزيز - للفيروزابادى تحقيق الأستاذ محمد على النجار ٢ / ٤٦٥- ٤٦٧ ، ط الثالثة ، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية .بتصرف

والمتتبع لموضوع الإحسان يجد أنه قسمان :

أ - قسم قاصر على فاعليه . ب - قسم متعد :

فالقاصر على فاعليه هو : كل من أطاع الله بفعل واجب أو مندوب، أوترك محرم أو مكروه ، فهو محسن على نفسه بتعريضها للثواب، قائم بحقها وبحق ربه فى طاعته، ويختلف أجره باختلاف مصالح ما قام به من ذلك المأمور بدليل قوله :

﴿ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ﴿٧﴾ ﴾ [1]

وقوله ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ ﴿٤٦﴾ ﴾ [2]

وقوله ﴿ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [3] .

وكذلك يختلف أجره باختلاف مفاسد ما اجتنبه من ذلك المنهى، ومن أتى مباحًا فهو محسن إلى نفسه غير مطيع ولا مثاب لأن المباح غير مأجور.

والمتعد هو : كل من فعل واجبًا متعديًا أو مندوبًا متعديًا ، واجتنب محرمًا أومكروهًا متعديين فقد قام بحق نفسه ، وحق ربه، وحق من تعدى إليه ذلك ، والكتاب مشحون فى الترغيب فى هذا النوع.

فائدة : كل مطيع لله، محسن إلى نفسه، فإن كان إحسانه متعديًا إلى غيره تعدد أجره بتعدد من تعلق به إحسانه، وكان أجره على ذلك مختلفًا باختلاف ما نسب إليه من جلب المصالح ودرء المفاسد.

فإن كان إمامًا فهومحسن إلى نفسه وإلى كل من تعلق به إحسانه من رعيته ، وأعوانه، وأنصاره،وولاته وقضاته.

وإن كان حاكمًا فهو محسن إلى نفسه بطاعة ربه، وإلى المدعى إن كانت له حجة فقد نصره بإيصال حقه إليه، وإلى المدعى عليه ظالمًا بتخليص خصمه من ظلمه، والمدعى مظلومًا. وإن كان الأمر بالعكس فقد نصر المدعى عليه مظلومًا والمدعى ظالمًا.

وإن كان شاهدًا فهومحسن إلى نفسه، وإلى الخصمين بالتحمل والأداء ؛ لأنه متسبب إلى نصر الظالم والمظلوم.

وإن كان مفتيًا فهو محسن إلى نفسه، وإلى المستفتى والمستفتى عليه »[4] .

---

(١) سورة الإسراء الآية ٧ . (٢) سورة فصلت الآية ٤٦ . (٣) سورة الروم الآية ٤٤ .

(٤) أحوال الناس وذكر الخاسرين والرابحين منهم - للإمام العز بن عبد السلام ص ٥١ ، ٥٢ .

الفصـــــل الأول

الاحسان القاصر على فاعليه

- الإحسان إلى النفس بحب الله والتزام طاعته.
- الإحسان إلى النفس بمحبة الرسول ﷺ .
- نماذج من المحبين لله ولرسوله.
- الإحسان إلى النفس بالتوبة إلى الله تعالى.
- الإحسان إلى النفس بتقوى الله.
- الإحسان إلى النفس بالجهاد فى سبيل الله.
- الإحسان إلى النفس بالتحلى بالصبر.

الإحسان إلى النفس
بحب الله والتزام طاعته

حديثنا بداية عن الإحسان القاصر على فاعليه، ومنه حب الله والتزام طاعته الذى هو من أوليات الإحسان إلى النفس، فالله هو النور، هو الحق ، هو العدل، هو السلام. فمن أحب النور والحق والعدل والسلام فقد أحب الله .

والمسلمون مأمورون بحب الله قال ﷺ : «أحبوا الله لما يغذوكم به من نعمة»[1] .

وتوعد سبحانه بالوعيد من شغلته محبة غير الله عن محبة الله ورسوله: ﴿ قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾[2] .

و أنت أيها المؤمن ما أحببت شيئاً إلا كنت له عبدا، وهو لا يرضى أن تكون لغيره عبدا، فالعبودية لا تكون إلا لله، إذ هو الإله المعبود، والعبادة له، والحب له.

ومن أحب الجمال كان حبه لله؛ لأن الله جميل يحب الجمال.

ومن أحب الجلال فقد أحب الله؛ فإنه ذو الجلال والإكرام .

والحب عبادة والعبادة تقوم على الخوف، وعلى الرجاء، وعلى المحبة.

يقول ذو النون :«إن المؤمن إذا آمن بالله واستحكم إيمانه خاف الله .

فإذا خاف الله تولدت من الخوف هيبة الله.

فإذا سكنت درجة الهيبة دامت طاعته لربه.

فإذا أطاع تولد من الطاعة الرجاء.

---

(١) رواه الترمذى من حديث ابن عباس، وقال : حسن غريب.

(٢) سورة التوبة الآية ٢٤ .

فإذا سكنت درجة الرجاء، تولد من الرجاء المحبة.

فإذا استحكمت معانى المحبة فى قلبه سكنت بعدها درجة الشوق.

فإذا اشتاق أداه الشوق إلى الأنس بالله.

فإذا أنس بالله اطمأن إلى الله،.

فإذا اطمأن إلى الله كان ليله فى نعيم ونهاره فى نعيم.

وسره فى نعيم وعلانيته فى نعيم».

قال ابن القيم [1]: «أصل العبادة محبة الله، بل إفراده بالمحبة، وأن يكون الحب كله لله، فلا يحب معه سواه، وإنما يحب لأجله وفيه».

والإمام ابن تيمية فى رسالته «العبودية» يقرر أن المحبة جزء لا يتجزأ من حقيقة العبودية مستدلاً على ذلك باللغة والشرع، قال: «ولفظ العبودية يتضمن كمال الذل وكمال الحب، فإنهم يقولون: قلب متيم إذا كان متعبداً للمحبوب، والتتيم: التعبد، وتيم الله : أى : عبد الله».

ثم يقول: إنما الدين الحق هو تحقيق العبودية لله بكل وجه، وهو تحقيق محبة الله بكل درجة، وبقدر تكميل العبودية تكمل محبة العبد لربه، وتكمل محبة الرب لعبده، وبقدر نقص هذا يكون نقص هذا، وكلما كان فى القلب حب لغير الله كانت فيه عبودية لغير الله بحسب ذلك.

وكلما كان فيه عبودية لغير الله كان فيه حب لغير الله بحسب ذلك.

وكل محبة لا تكون لله باطلة. وكل عمل لا يراد به وجه الله فهو باطل، فالدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ما كان لله، ولا يكون لله إلا ما أحبه الله ورسوله.

وكل عمل أريد به غير الله لم يكن لله، وكل عمل لا يوافق شرع الله لم يكن لله، بل لا يكون لله إلا ما جمع وصفين: أن يكون لله، وأن يكون موافقاً لمحبة الله ورسوله».

---

(١) مدارك السالكين ١ / ٩٩ .

ثم يقول الإمام ابن تيمية فى موضع آخر من كتابه العبودية مقرراً أن العبادة فى الشرع خضوع وحب : « إن العبادة المأمور بها تتضمن معنى الذل ومعنى الحب ، فهى تتضمن غاية الذل لله تعالى بغاية المحبة له ، فإن آخر مراتب الحب هو «التتيم» ،وأوله العلاقة ، لتعلق القلب بالمحبوب ، ثم الصبابة لانصباب القلب إليه ، ثم الغرام ، وهو الحب الملازم للقلب ، ثم العشق ، وآخرها : التتيم ، يقال : تيم الله ، أى : عبد الله ، فالمتيم : المعبَّد لمحبوبه» .

ثم يقول : «ومن خضع لإنسان مع بغضه له لا يكون عابداً له ، ولو أحب شيئاً ولم يخضع له لم يكن عابداً له ، يجب أن يكون الله أحب إلى العبد من كل شيء ، وأن يكون الله عنده أعظم من كل شيء ، بل لا يستحق المحبة والخضوع التام إلا الله» .

ونخلص بعد أن أوردنا هذه النصوص والأقوال إلى أن معنى حب الله : هو أن يقبل المرء على الله ويسلم وجهه وأمره ومقاليده وكيانه كله لله ، وأن يتوكل عليه ، ولا يسأل إلا إياه ، ولا يعتمد إلا عليه ، وأن يؤثر طاعته على النفس وعلى المال وعلى الولد والجاه ، وأن يكون هدفه الله وغايته الله كما قال الله : ﴿ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ (٩١) ﴾ .

حب الله تحلية وتخلية . تحلية للمؤمن بالطاعة والقيام بتكاليف الله على خير وجه ، وتخلية بها يتجرد العابد للعبادة بالتخلى عن كل ما يشينه كمؤمن ، وعن كل ما يشوب العلاقة بينه وبين ربه ، وبالتخلية والتحلية تكون الرعاية . . والعناية . . والعطاء .

والطاعة فى الوقت نفسه دليل وعلامة وأمارة على حب الله . فالمحب يطيع من أحب وينفذ أمره فى رضا وسعادة .

قال ابن المبارك :

تعصى الإله وأنت تظهر حبه   هذا لعمرى فى القياس شنيع

لو كان حبك صادقاً لأطعته   إن المحب لمن يحب مطيع

وهكذا طريق المحبة . . أوله أمر إلهى . . ونهايته طاعة إنسانية [1] .

---

(١) الحب فى القرآن د. محمود بن الشريف ، ص١٧-٢٠ .

• المحبـــة

المحبة : سقوط كل محبة من القلب إلا محبة الحبيب .

المحبـة : مـيلك إليـه بكـليتك ، ثم إيثـارك له على نفسك وروحك ومالك ، ثم موافقتك له سراً وجهراً ، ثم علمك بتقصيرك في حبه .

ولا يحد المحبـة بحد أوضح منها ، والحـدود لا تزيدها إلا خفـاء وجفـاء ، فحدها وجـودها ، ولا توصف المحبـة بوصف أظهـر من المحبـة ، وإنما يتكلم الناس عن أسبابها وموجباتها ، وعلاماتها ، وشواهدها ، وثمراتها ، وأحكامها ، فحدودهم ورسومهم دارت على هذه الستة .

وأخيراً . . . إن حقيقة المحبة : أن تهب كلك لمن أحببت فلا يبقى لك منك شيء [1] .

• أنواع المحبة

هناك أربعة أنواع من المحبـة ، يجب التـفريق بينهـا ، وإنما ضلَّ من ضلَّ بعدم التمييز بينها .

أحدها : محبة الله ، ولا تكفي وحدها في النجاة من عذاب الله والفوز بثوابه ؛ فإن المشركين ، وعباد الصليب ، واليهود ، وغيرهم يحبون الله .

الثاني : محبـة ما يحب الله ، وهذه هي التي تدخله في الإسلام وتخرجه من الكفر ، وأحب الناس إلى الله أقومهم بهذه المحبة وأشدهم فيها .

الثالث : الحب لله وفيه ، وهو من لوازم محبة ما يحب ، ولا تستقيم محبة ما يحب إلا فيه وله .

الرابع : المحبـة مع الله ، وهي المحبة الشـركية ، وكل من أحب شيئاً مع الله لا لله ، ولا من أجله ، ولا فيه ، فقد اتخذه نداً من دون الله ، وهذه محبة المشركين .

بقي قسم خامس ليس مما نحن فيه ، وهو المحبة الطَّبْعية ، وهي ميل الإنسان إلى ما يلائم طبعه ، كمحبة العطشان للماء ، والجائع للطعام ، ومحبة النوم ،

---

(٢) جند الله ثقافة وأخلاقاً - سعيد حوى - ص ٣٥٣ .

والـزوجـة ، والـولد ، فـتلك لا تـذم إلا إذا ألهت عن ذكـر الله ، وشـغلت عن محبته [1] . كما قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ [2] .

وقال تعالى : ﴿ رِجَالٌ لاَّ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ [3] .

● **مراتب المحبة**

مراتب المحبة عشرة وهى :

العلاقة والإرادة والصبابة ، والغرام : وهو الحب اللازم للقلب ملازمة الغريم ، ثم الود ، وهو : صفو المحبة وخالصها ولبها .

ثم الشغف ، ومعنى شغف بكذا هو مشغوف : أى وصل الحب شغاف قلبه ، وهو : جلدة رقيقة على القلب .

ثم العشق ، وهو : الحب المفرط الذى يُخاف على صاحبه منه ، وبه فسر ﴿ وَلا تُحَمِّلْنَا مَا لا طَاقَةَ لَنَا بِهِ ﴾ [4] .

ثم التتيم ، وهو : المحبة والتذلل ، تيمه الحب أى عبده وذلله ، وتيم الله :عبد الله .

ثم التعبد وهو فوق التتيم ، فإن العبد الذى ملك المحبوب رِقَّهُ فلم يبق له شىء من نفسه البتة ، بل كله لمحبوبه ظاهراً وباطناً . ولما كمل سيد ولد آدم هذه المرتبة وصفه الله بها فى أشرف مقاماته بقوله : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً ﴾ [5] .

وفى مقام الدعوة ﴿ وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ ﴾ .

وفى مقام التحدى :﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٢٣) ﴾ .

وبذلك استحق التقدم على الخلائق فى الدنيا والآخرة .

---

(١) الداء والدواء - لابن القيم - ص ٢٧٢ .
(٢) سورة المنافقون الآية ٩ .
(٣) سورة النور الآية ٣٧ .
(٤) سورة البقرة الآية ٢٨٦ .
(٥) أول سورة الإسراء .

العاشر : مرتبة الخلة التى انفرد بها الخليلان إبراهيم ومحمد عليهما الصلاة والسلام؛ كما صح عنه «إن الله اتخذنى خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلاً»[1].

وقال: «لو كنت متخذاً من أهل الأرض خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلا، ولكن صاحبكم خليل الله[2]».

والخلة هى المحبة التى تخللت روح (المحب) وقلبه حتى لم يبق فيه موضع لغير محبوبه [3].

• **الأسباب الجالبة للمحبة**

الأسباب الجالبة للمحبة عشرة هى:

الأول: قراءة القرآن بالتدبر والتفهم لمعانيه وتفطن مراد الله منه.

الثانى: التقرب إلى الله تعالى بالنوافل بعد الفرائض؛ فإنها توصل إلى درجة المحبوبية بعد المحبة.

الثالث: دوام ذكره على كل حال باللسان والقلب والعمل والحال، فنصيبه من المحبة على قدر نصيبه من هذا الذكر.

الرابع: إيثار محابّه على محابّك عند غلبات الهوى.

الخامس: مطالعة القلب لأسمائه وصفاته ومشاهدتها وتقلبه فى رياض هذه المعرفة، فمن عرف الله بأسمائه وصفاته وأفعاله أحبه لا محالة.

السادس: مشاهدة بره وإحسانه ونعمه الظاهرة والباطنة.

السابع: - وهو من أعجبها - انكسار القلب بكليته بين يديه.

الثامن: الخلوة به وقت النزول الإلهى لمناجاته وتلاوة كلامه، والوقوف بالقلب والقلب بين يديه، ثم خَتْم ذلك بالاستغفار والتوبة.

---

(١) ضعيف رواه ابن ماجة من حديث عبد الله بن عمرو، ورواه الحاكم فى المستدرك من حديث جندب وقال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه.

(٢) رواه البخارى فى فضائل الصحابة.

(٣) بصائر ذوى التمييز للفيروزآبادى ٢ / ٤٢٠، ٤٢١.

التاسع : مجالسة المحبين والصادقين والتقاط أطايب ثمرات كلامهم، وألا يتكلم إلا إذا ترجحت مصلحة الكلام وعلم أن فيه مزيداً لحاله.

العاشر : مباعدة كل سبب يحول بين القلب وبين الله عز وجل [(١)].

• **المحبة والخلة**

إن كمال المحبة يوصل إلى الخلة، والخلة تتضمن كمال المحبة ونهايتها، بحيث لا يبقى فى قلب المحب سعة لغير محبوبه، وهى منصب لا يقبل المشاركة بوجه ما من الوجوه.

وهذا المنصب خاص للخليلين صلوات الله وسلامه عليهما : إبراهيم ومحمد، كما قال ﷺ : «إن الله اتخذنى خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلا» [(٢)].

وفى الصحيح عنه ﷺ أنه قال : «لو كنت متخذاً من أهل الأرض خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً، ولكن صاحبكم خليل الله» [(٣)].

وفى حديث آخر : «إنى أبرأ إلى كل خليل من خلته» [(٤)].

وأما ما يظنه بعض الغالطين أن المحبة أكمل من الخلة، وأن إبراهيم خليل الله، ومحمد ﷺ، حبيب الله فمن جهله، فإن المحبة عامة، والخلة خاصة. والخلة نهاية المحبة، وقد أخبر النبى ﷺ أن الله اتخذه خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلاً، ونفى أن يكون له خليل غير ربه، مع إخباره بحبه لعائشة ولأبيها، ولعمر بن الخطاب وغيرهم [(٥)].

• **نماذج عالية فى حب الله تعالى**

من النماذج العالية فى حب الحق تبارك وتعالى أبو الأنبياء إبراهيم عليه السلام، قال تعالى : ﴿ وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِي مِن

---

(١) المرجع السابق ٢ / ٤٢١-٤٢٢ .

(٢) سبق تخريجه.

(٣) رواه البخارى فى فضائل الصحابة .

(٤) رواه مسلم فى فضائل الصحابة

(٥) الداء والدواء - لابن القيم - ص ٢٧٤ .

الصَّالِحِينَ (١٠٠) فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ (١٠١) فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ (١٠٢) فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ (١٠٣) وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ (١٠٤) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٠٥) إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ (١٠٦) وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ (١٠٧) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (١٠٨) سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴾[١].

تصرح هذه الآيات بأن إبراهيم لما هاجر من بلاد قومه سأل ربه أن يهب له ولداً صالحاً، فبشره بغلام حليم هو إسماعيل، فلما شب وصار يسعى لمصالحه كأبيه رأى في المنام أنه يذبحه: أى متهيئ لذبحه.

و قيل: رأى أنه أمر بذبحه بشرط التمكين، وهذا اختبار من الله تعالى لخليله بأن يذبح ولده العزيز عليه، والذى رآه بعد كبر.

وكان إسماعيل يعلم أن رؤيا الأنبياء وحى فامتثل لأمر مولاه، وقال: ﴿ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴾: أى من الصابرين على قضاء الله وأمره.

﴿ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴾ استسلما لأمر ربهما، وألقى الخليلُ إسماعيل على ظهره يذبحه وجعل جبينه على الأرض ومرر السكين على حلقه ليذبحه فلم تقطع شيئاً إذ جعل الله رقبة إسماعيل كالنحاس.

وقيل: سلبت من السكين خاصية القطع.

فقال إسماعيل: يا أبت كبنى على وجهى فإنك إن نظرت إلىَّ أدركتك بى رحمةٌ تحول بينك وبين أمر ربك.

ويتوجه الخليل وابنه إلى إمضاء أمر المولى عز وعلا بكل مشاعرهما وعزائمهما، ومرر السكين على قفاه فلم تقطع، وظهر علم الله فى خليله بأنه جدير بالخلة لرب العالمين؛ لأنه بسعيه لذبح ولده وإمراره السكين بعزيمة قوية ثبت خلو قلبه من محبة غير الله، وثبت نجاح الخليل وولده فى هذا الاختبار

---

(١) سورة الصافات الآيات ٩٩-١٠٩.

الإلهى الجليل، ومن ثم فدى المولى جل وعلا إسماعيل بكبش، وأكرمه بالنبوة والرسالة، واصطفى إبراهيم لخلته، وجعل جميع الأنبياء بعده من ذريته.

من المعلوم بأن بكر الأولاد بحسب الغالب يكون أحبُّ إلى الأبوين ممن بعده، ولعل إسماعيل قد استولى على شعبة من شعب قلب أبيه إبراهيم عليه السلام، خاصة وأنه البكر، وأنه جاء بعد كبر ،وأنه أصبح يسعى مع والده ويساعده ويعينه ولما كانت الخلة للمولى عز وجل تقتضى توحيد المحبوب وإفراده بالمحبة، وكان مجىء إسماعيل بمنزلة المنازع للمولى جل وعلا فى هذه الخلة.

لذا : فقد اقتضت الحكمة الإلهية اختبار إبراهيم، ومن ثم أمره الله تبارك وتعالى بذبح هذا المحبوب.

فلما أقدم الخليل على إمضاء أمر ربه بكل مشاعره وبعزيمة ثابتة ونية مؤكدة، وعلم الله منه صدق النية وتأكد العزيمة على إعلاء محبة الرحمن على كل محبة سواه لم يصبح للذبح فائدة ولا معنى.

ولذا : فدى الحق تبارك وتعالى الغلام «بالكبش» وجعله نبياً مرسلاً، وصدق الخليل الرؤيا ونجح فى الاختبار وفاز بالخلة، لأن الله أخلى قلبه مما سواه[1].

و لم يكن المقصود ذبح الولد، ولكن المقصود ذبحه من قلبه ليخلص القلب للرب، فلما بادر الخليل إلى الامتثال وقدم محبة ربه على محبة ولده، حصل المقصود، فرفع الذبح، وفدى الولد بذبح عظيم، فإن الرب تعالى ما أمر بشىء ثم أبطله رأساً، بل لابد أن يبقى بعضه أو بدله كما أبقى شريعة الفداء، وكما أبقى استحباب الصدقة بين يدى المناجاة، وكما أبقى الخمس صلوات بعد رفع الخمسين .وأبقى ثوابها، وقال :«ما يبدل القول لدى، هى خمس فى الفعل، وهى خمسون فى الأجر»[2].

---

(١) خليل الرحمن فى ضوء السنة والقرآن - د. مصطفى عثمان - ص٥٨، ٥٩ بتصرف.

(٢) انظر كتاب أحكام القرآن - لابن عربي - ٣ / ١١٩٤ .

• **لم اتخذ الله إبراهيم خليلاً ؟**

ذكر ابن كثير ما أخرجه ابن عساكر عن عبيد بن عمير أنه قال: كان إبراهيم يضيف الناس، فخرج يوماً يلتمس إنساناً يضيفه، فأبعد السير فلم يجد أحداً فعاد فوجد في فناء داره رجلاً قائماً.

فقال الخليل: يا عبد الله كيف تدخل داراً بغير إذن ربها؟

قال: دخلتها بإذن ربها الأعلى.

قال: من أنت ؟

قال: ملك أرسلني ربي إلى عبد من عباده لأبشره أن الله اتخذه خليلاً.

قال: ومن هو؟ فوالله لئن أخبرتني به ثم كان بأقصى البلاد لآتيته ثم لا أبرح أن أكون له جاراً حتى يفرق الموت بيننا.

قال: ذلك العبد هو أنت.

قال إبراهيم: أنا؟ . قال : نعم .

قال إبراهيم: فبم اتخذني ربي خليلاً ؟

قال: لأنك تعطي الناس ولا تسألهم.

فقول إبراهيم بم اتخذني ربي خليلاً ؟ أي بأي أعمالي فما أراها تؤهلني لنيل الخلة.

وفي بعض الآثار أن إبراهيم قال: يارب بم اتخذتني خليلاً ؟

قال الله تعالى: لما قدمت ولدك للقربان، ونفسك للنيران، وقلبك للرحمن، ومالك للضيفان، ولسانك للبرهان، اتخذتك خليلاً .

وهكذا نرى أن إبراهيم يستصغر جميع طاعاته وأعماله بالنسبة للخلة، ويرى أنها محض فضل من الله عليه. وهذا يدل على كمال أدبه مع الله تعالى(١).

---

(١) صفوة التفاسير - للشيخ محمد علي الصابوني - ٣/ ٤١٢ بتصرف.

نموذج ثان

ومن النماذج العالية فى محبة الله تبارك وتعالى «آسية بنت مزاحم» كما سماها المفسرون، كانت فى الدنيا تحت أعدى أعداء الله تعالى «فرعون» فلم يضرُّها اتصالها بزوجها الكافر المعادى لله تبارك وتعالى .وآمنت بموسى عليه السلام، فبلغ ذلك فرعون فأمر بقتلها فنجاها الله من شره.

قالت : ﴿ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ ﴾ فهى تطمع فى جوار الله قبل طمعها فى القصور ، وفى الآية دليل على إيمانها وتصديقها بالبعث .

﴿ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ ﴾ : أى وأنقذنى من كفر فرعون وطغيانه .

﴿ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ : أى وأنقذنى من الأقباط أتباع فرعون الطاغين.

قال الحسن : لما دعت بالنجاة نجاها الله تعالى أكرم نجاة، فرفعها إلى الجنة تأكل وتشرب وتتنعم» .

وعن هذه المحبة لله تبارك وتعالى يقول الشيخ سيد قطب : والمأثور عن امرأة فرعون أنها كانت مؤمنة - فى قصره - ولعلها كانت آسيوية من بقايا المؤمنين بدين سماوى قبل موسى، وقد ورد فى التاريخ أن أم - أمنحوتب الرابع - الذى وحد الآلهة فى مصر ورمز للإله الواحد بقرص الشمس، وسمى نفسه «إخناتون» كانت آسيوية على دين غير دين المصريين. .والله أعلم إن كانت هى المقصودة فى هذه السورة أم أنها امرأة فرعون موسى .. وهو غير «أمنحوتب» هذا .. ولا يعنينا هذا التحقيق التاريخى لشخص امرأة فرعون. فالإشارة القرآنية تعنى حقيقة دائمة مستقلة عن الأشخاص. والأشخاص مجرد أمثلة لهذه الحقيقة.

إن مبدأ التبعة الفردية يراد إبرازه هنا، بعد الأمر بوقاية النفس والأهل من النار، كما يراد أن يقال لأزواج النبى - ﷺ - وأزواج المؤمنين كذلك : إن عليهن أنفسهن بعد كل شىء، فهن مسؤولات عن ذواتهن، ولن يعفيهن من التبعة أنهن زوجات نبى أو صالح من المسلمين .

وهاهى ذى امرأة نوح، وكذلك امرأة لوط. ﴿ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ﴾.. ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾ ﴿فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾..﴿ وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ﴾.

فلا كرامة ولا شفاعة فى أمر الكفر والإيمان، وأمر الخيانة فى العقيدة حتى لأزواج الأنبياء !

وها هى ذى امرأة فرعون، لم يصدها طوفان الكفر الذى تعيش فيه.. فى قصر فرعون.. عن طلب النجاة وحدها..

وقد تبرأت من قصر فرعون طالبة من ربها بيتاً فى الجنة .

وتبرأت من صلتها بفرعون فسألت ربها النجاة منه.

وتبرأت من عمله مخافة أن يلحقها من عمله شىء وهى ألصق الناس به. ﴿وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ﴾.

وتبرأت من قوم فرعون وهى تعيش بينهم : ﴿وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾.

ودعاء امرأة فرعون وموقفها مثل للاستعلاء علي عَرَض الحياة الدنيا فى أزهى صورة، فقد كانت امرأة فرعون «أعظم ملوك الأرض» يومئذ، فى قصر فرعون أمتع مكان تجد فيه امرأة ما تشتهي.. ولكنها استعلت على هذا بالإيمان ولم تُعرض عن هذا العرَض فحسب، بل اعتبرته شرا ودنساً وبلاء تستعيذ بالله منه، وتتفلت من عقابه، وتطلب النجاة منه!

وهى امرأة واحدة فى مملكة عريضة قوية .. وهذا فضل عظيم. فالمرأة أشد شعوراً وحساسية بوطأة المجتمع وتصوراته .

ولكن هذه المرأة.. وحدها.. فى وسط ضغط المجتمع، وضغط القصر، وضغط الملك، وضغط الحاشية، والمقام الملوكى، فى وسط هذا كله رفعت رأسها إلى السماء.. وحدها.. فى خضم هذا الكفر الطاغى!

وهى نموذج عـال فى التـجـرد لله من كل هـذه المؤثرات .وكل هـذه الأواصـر ، وكل هذه المعوقات ، وكل هذه الهواتف ومن ثم استحقت هذه الإشارة فى كتاب الله الخالد . الذى تتردد كلماته فى جنبات الكون وهى تتنزل من الملأ الأعلى » [١] .

حقاً إن هذه المرأة المحبة لله تبارك - وتعالى - دون سواه ، الراغبة فيما عنده ، الطامعة فى جواره العزيز الذى لا يذل من نعم به استحقت أن يضرب بها المثل فى حب الله تعالى وفى شىء آخر مهم هو : أن اتصال المؤمن بالكافر لا يضره شيئاً إذا فارقه فى كفره وعمله ، فمعصية الغير لا تضر المؤمن المطيع شيئاً فى الآخرة ، وإن تضرر بها فى الدنيا بسبب العقوبة التى تحل بأهل الأرض إذا أضاعوا أمر الله فتأتى عامة ، فلم يضر امرأة فرعون اتصالها به وهو من أكفر الكافرين .

كما أنه لم ينفع امرأة نوح ولوط اتصالهما بهما « أى بنوح ولوط » وهما رسولا رب العالمين [٢] .

وهكذا نرى أنه متى تمكنت المحبة من القلب لم تنبعث الجوارح إلا إلى طاعة الرب ، وهذا معنى الحديث القدسى :«ولا يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ، ورجله التى يمشى بها » [٣] .

وفى بعض الروايات «فبى يسمع ، وبى يبصر» . والمعنى أن محبة الله إذا استغرق بها القلب واستولت عليه لم تنبعث الجوارح إلا إلى رضا الرب ، وصارت النفس مطمئنة حينئذ بإرادة مولاها عن مرادها وهواها .

و فى بعض الكتب السابقة : من أحب الله لم يكن شىء عنده آثر من رضاه» [٤] .

---

(١) فى ظلال القرآن ٦ / ٣٦٢١ ، ٣٦٢٢ . (٢) أعلام الموقعين عن رب العالمين - لابن القيم - ١ / ١٨٩ .

(٣) جزء من حديث قدسى رواه البخارى عن أبى هريرة .

(٤) موارد الظمآن لدروس الزمان - عبد العزيز المحمد السلمان ١ / ٧١٦ ، ٧١٧ بتصرف .

• **الإخلاص فى المحبة**

إن الإخلاص فى المحبة أمر مهم وضرورى لأن أصل الشرك بالله. الإشراكُ فى المحبة كما قال تعالى: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾[1]. فأخبر سبحانه أن من الناس من يشرك به نداً يحبه كما يحب الله، وأخبر أن الذين آمنوا أشد حباً لله من أصحاب الأنداد لأندادهم.

وقيل: بل المعنى أنهم أشد حباً لله، فإنهم وإن أحبوا الله، لكن لما شرّكوا بينه وبين أندادهم فى المحبة ضعفت محبتهم لله، والموحّدين لله لما خلصت محبتهم له كانت أشد من محبة أولئك، والعدل برب العالمين، والتسوية بين رب العالمين وبين الأنداد هو فى هذه المحبة.

ولما كان مراد الله من خلقه خلوص هذه المحبة له أنكر على من اتخذ من دونه ولياً أو شفيعاً غاية الإنكار، وجمع ذلك تارة، وأفرد أحدهما عن الآخر فقال تعالى: ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلاَّ مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلا شَفِيعٍ أَفَلا تَتَذَكَّرُونَ ﴾[3].

وقال تعالى: ﴿ وَأَنذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِ وَلِيٌّ وَلا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾[4].

وقال فى الإفراد: ﴿ أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلا يَعْقِلُونَ (٤٣) قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ ﴾[5].

وقال تعالى: ﴿ مِن وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ وَلا يُغْنِي عَنْهُم مَّا كَسَبُوا شَيْئًا وَلا مَا اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾[6].

---

(١) سورة البقرة الآية ١٦٥ .
(٢) سورة يونس الآية ٣ .
(٣) سورة السجدة الآية ٤ .
(٤) سورة الأنعام الآية ٥١ .
(٥) سورة الزمر الآيتان ٤٣ ، ٤٤ .
(٦) سورة الجاثية الآية ١٠ .

فإذا والى العبد ربه وحده أقام له الشفعاء، وعقد الموالاة بينه وبين عباده المؤمنين فصاروا أولياءه في الله، بخلاف من اتخذ مخلوقاً ولياً من دون الله.

فهذا لون وذاك لون. كما أن الشفاعة الشركية الباطلة لون، والشفاعة الثابتة التي إنما تنال بالتوحيد لون، وهذا موضع فرقان بين أهل التوحيد وأهل الإشراك، والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم.

والمقصود : أن حقيقة العبودية لا تحصل مع الإشراك بالله في المحبة، بخلاف المحبة لله، فإنها من لوازم العبودية وموجباتها،

ومحبة الرسول - بل تقديمه في الحب على الأنفس والآباء والأبناء - لا يتم الإيمان إلا بها. إذ محبته من محبة الله، وكذلك كل حب في الله ولله، كما في الصحيحين عنه ﷺ أنه قال: «لا يجد حلاوة الإيمان إلا من كان فيه ثلاث خصال: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يرجع في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه، كما يكره أن يلقى في النار»[1].

وفي الحديث الذي في السنن : «من أحب لله، وأبغض لله، وأعطى لله، ومنع لله، فقد استكمل الإيمان»[2].

وفي حديث آخر: «ما تحاب رجلان في الله إلا كان أفضلهما أشدهما حباً لصاحبه»[3].

وفي النهاية نقول إن هذه المحبة من لوازم محبة الله وموجباتها، وكلما كانت أقوى كان أصلها كذلك[4].

---

(١) رواه البخاري ومسلم.

(٢) رواه الترمذي وأحمد في المسند، والحاكم في المستدرك وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي.

(٣) رواه الحاكم في المستدرك والبخاري في الأدب المفرد.

(٤) الداء والدواء - لابن القيم- ص٢٦٩-٢٧١.

● المحبة النافعة

من المعلوم أن أنفع أنواع المحبة على الإطلاق، وأوجبها وأعلاها، وأجلها محبة من جبلت القلوب على محبته، وفطرت الخليقة على تأليهه، وبها قامت الأرض والسماوات، وعليها فطرت المخلوقات، وهى سر شهادة أن لا إله إلا الله، فإن الإله هو الذى تألهه القلوب بالمحبة والإجلال، والتعظيم والذل له والخضوع، والتعبد والعبادة لاتصلح إلا له وحده، والعبادة هى كمال الحب مع كمال الخضوع والذل، والشرك فى هذه العبودية من أظلم الظلم الذى لا يغفره الله، والله تعالى يُحَب لذاته من جميع الوجوه، وما سواه فإنما يحب تبعاً لمحبته.

وقد دل على وجود محبته سبحانه جميع كتبه المنزلة، ودعوة جميع رسله، وفطرته التى فطر عباده عليها، وما ركب فيهم من العقول، وما أسبغ عليهم من النعم، فإن القلوب مفطورة مجبولة على محبة من أنعم عليها وأحسن إليها،

فكيف بمن كل الإحسان منه؟ ما بخلقه جميعهم من نعمة فمنه وحده لا شريك له، كما قال تعالى: ﴿قُلْ إن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ (١).

وقال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾ (٢).

والولاية أصلها الحب، فلا موالاة إلا بحب، كما أن العداوة أصلها البغض، والله ولى الذين آمنوا وهم أولياؤه، فهم يوالونه بمحبتهم له، وهو يواليهم بمحبته لهم، فالله تعالى يوالى عبده بحسب محبته له.

ولهذا أنكر سبحانه على من اتخذ من دونه أولياء بخلاف من والى أولياءه،

(١) سورة آل عمران الآية ٣١ .

(٢) سورة المائدة الآيات ٥٤-٥٦ .

فإنه لم يتخذهم أولياء من دونه، بل موالاته لهم من تمام موالاته. وقد أنكر على من يسوى بينه وبين غيره في المحبة، وأخبر أن من فعل ذلك فقد اتخذ من دونه أنداداً يحبهم كحب الله، قال تعالى: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾ [1].

وأخبر عمن يسوى بينه وبين الأنداد في الحب، أنهم يقولون فى النادر لمعبوديهم ﴿ تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٩٧) إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٩٨) ﴾.

وبالتوحيدفى الحب أرسل الله سبحانه جميع رسله، وأنزل جميع كتبه، واتفقت عليه دعوة جميع الرسل من أولهم إلى آخرهم، ولأجله خلقت السماوات والأرض، والجنة والنار، فجعل الجنة لأهله، والنار للمشركين به.

وقد أقسم النبى ﷺ أنه: «لا يؤمن عبد حتى يكون هو أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين» فكيف بمحبة الرب جل جلاله؟

وقال لعمر بن الخطاب رضى الله عنه: «لا، حتى أكون أحب إليك من نفسك» أى لا تؤمن حتى تصل محبتك إلى هذه الغاية.

وإذا كان النبى ﷺ أولى بنا من أنفسنا فى المحبة ولوازمها أفليس الرب جل جلاله وتقدست أسماؤه وتبارك اسمه وتعالى جده ولا إله غيره، أولى بمحبة عباده من أنفسهم؟ وكل ما منه إلى عبده المؤمن يدعوه إلى محبته، مما يحب العبد ويكره، فعطاؤه ومنعه، ومعافاته وابتلاؤه، وقبضه وبسطه، وعدله وفضله، وإماتته وإحياؤه ولطفه، وبره، ورحمته وإحسانه، وستره وعفوه. وحلمه وصبره على عبده، وإجابته لدعائه وكشف كربه، وإغاثة لهفته، وتفريج كربته من غير حاجة منه إليه، بل مع غناه التام عنه من جميع الوجوه. كل ذلك داع للقلوب إلى تأليهه، ومحبته، بل تمكينُه عبدَه من معصيته وإعانتَه عليها، وسترُه حتى يقضى وطره منها وكلاءتُه وحراستُه له، يقضى وطره من معصيته، ويعينه، ويستعين عليها بنعمه، هذا من أقوى الدواعى إلى محبته.

(١) سورة البقرة الآية ١٦٥ .

فلو أن مخلوقاً فعل بمخلوق أدنى شيء من ذلك لم يملك قلبه عن محبته، فكيف لا يحب العبد بكل قلبه وجوارحه من يحسن إليه على الدوام بعدد الأنفاس، مع إساءته؟ فخيره إليه نازل، وشره إليه صاعد، يتحبب إليه بنعمه وهو غني عنه، والعبد يتبغض إليه بالمعاصي وهو فقير إليه، فلا إحسانه وبره وإنعامه عليه يصده عن معصيته، ولا معصية العبد ولؤمه، يقطع إحسان ربه عنه. فألأم اللؤم تخلف القلوب عن محبة مَنْ هذا شأنه، وتعلقُها بمحبة سواه .

وأيضاً، فكل من تحبه من الخلق ويحبك إنما يريدك لنفسه وغرضه منك، والله تعالى يريدك لك، كما فى الأثر الإلهى «عبدى كل يريدك لنفسه، وأنا أريدك لى» فكيف لا يستحى العبد أن يكون ربُّه له بهذه المنزلة، وهو معرض عنه مشغول بحب غيره، بل قد استغرق قلبُه بمحبة سواه.

وأيضاً، فكل من تعامله من الخلق إن لم يربح منك لم يعاملك، ولابدَّ له من نوع من أنواع الربح، والرب تعالى إنما يعاملك لتربح أنت منه أعظم الربح وأعلاه، والدرهم بعشرة أمثاله إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، والسيئة بواحدة وهى أسرع شىء محواً.

وأيضاً فهو سبحانه خلقك لنفسه، وخلق كل شىء لك فى الدنيا والآخرة، فمن أولى منه باستفراغ الوسع فى محبته وبذلك الجهد فى مرضاته؟

وأيضاً فمطالبك- بل مطالب الخلق كلِّهم جميعاً - لديه، وهو أجود الأجودين، وأكرم الأكرمين، أعطى عبده قبل أن يسأله فوق ما يؤمله، يشكر القليل من العمل وينميه، ويغفر الكثير من الزلل ويمحوه، يسأله من فى السموات والأرض، كل يوم هو فى شأن، لا يشغله سمع عن سمع، ولاتغلطه كثرة المسائل، ولا يتبرم بإلحاح الملحين، بل يحب الملحين فى الدعاء، ويحب أن يُسْأل، ويغضب إذا لم يُسأل، يستحى من عبده حيث لا يستحى العبد منه، ويستره حيث لا يستر نفسه، ويرحمه حيث لا يرحم نفسه، دعاه بنعمه وإحسانه وأياديه إلى كرامته ورضوانه فأبى، فأرسل رسله فى طلبه، وبعث إليه

معهم عهده، ثم نزل إليه سبحانه نفسه وقال: «من يسألني فأعطيه؟ من يستغفرني فأغفر له؟» كما قيل: أدعوك للوصل تأبى، أبعث رسولي في الطلب، أنزل إليك بنفسي، ألقاك في النوم.

وكيف لا تحب القلوب من لا يأتي بالحسنات إلا هو، ولا يذهب بالسيئات إلا هو، ولا يجيب الدعوات، ويقبل العثرات، ويغفر الخطيئات، ويستر العورات، ويكشف الكربات، ويغيث اللهفات، وينيل الطلبات سواه؟

فهو أحق من ذكر، وأحق من شكر، وأحق من عبد، وأحق من حمد، وأبصر من ابتغي، وأرأف من ملك، وأجود من سئل، وأوسع من أعطى، وأرحم من استرحم، وأكرم من قصد، وأعز من التجئ إليه، وأكفى من توكل العبد عليه، أرحم بعبده من الوالدة بولدها، وأشد فرحاً بتوبة التائب من الفاقد لراحلته التي عليها طعامه وشرابه في الأرض المهلكة إذا يئس من الحياة ثم وجدها.

وهو الملك لا شريك له، والفرد فلا ند له، كل شيء هالك إلا وجهه، لن يطاع إلا بإذنه، ولن يعصى إلا بعلمه، يطاع فيشكر، وبتوفيقه ونعمته أطيع، ويعصى فيغفر، ويعفو وحقه أضيع، فهو أقرب شهيد، وأجل حفيظ، وأوفى بالعهد، وأعدل قاسم بالقسط، حال دون النفوس، وأخذ بالنواصي، وكتب الآثار، ونسخ الآجال، فالقلوب له مفضية، والسر عنده علانية، والغيب لديه مكشوف، وكل أحد إليه ملهوف، وعنت الوجوه لنور وجهه، وعجزت العقول عن إدراك كنهه، ودلت الفطر والأدلة كلها على امتناع مثله وشبهه، أشرقت لنور وجهه الظلمات، واستنارت له الأرض والسماوات، وصلحت عليه جميع المخلوقات، لا ينام ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه، ويرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار، وعمل النهار قبل عمل الليل، حجابه النور، ولو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه:

ما اعتاض باذلُ حبهِ لسواه من   عوض ولو ملك الوجود بأسره [1].

(١) الداء والدواء لابن القيم ص٣٢٤-٣٢٨ بتصرف.

• الهدف الأعلى

إن الهدف الأعلى هو محبة الله، والطريق إليها هو الاتباع لرسوله، والذكر ورجاء اليوم الآخر وسيلتا الاتباع وأداتاه، والعلم والعمل شرطا التحقق. وكم مستعمل أداة فى غير طريق، وكم سالك طريقاً بضعف . وكم ناس هدفاً أمر بالوصـــل إليـــه، ولذلك لم يحقق مقام المحبة من الناس إلا قليل، ولذلك كان : ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴾ [1].

نسأل الله أن يجعل رضوانه غايتنا، وأن يجعل رسوله قدوتنا فى كل شأن من شئوننا.

• عطايا للمتحابين فى الله

قال تعالى فى الحديث القدسى: «وجبت محبتى للمتحابين فِيَّ والمتزاورين فِيَّ والمتباذلين فِيَّ » [2].

وقد وردت فى هذه المعانى نصوص كثيرة نجتزئ منها ما يلى:

أ - «إن من عباد الله ناسا ما هم بأنبياء ولا شهداء يغبطهم الأنبياء والشهداء يوم القيامة بمكانهم من الله »قالوا: يا رسول الله تخبرنا من هم ؟

قال: «هم قوم تحابوا بروح الله، على غير أرحام بينهم، ولا أموال يتعاطونها. فوالله إن وجوههم لنور، وإنهم لعلى نور، لا يخافون إذا خاف الناس، ولا يحزنون إذا حزن الناس. وقرأ: ﴿ أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [3].

ب -عن أنس عن رسول الله ﷺ : «ثلاث من كن فيه وجد بهن طعم الإيمان. من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما. ومن أحب عبداً لا يحبه إلا لله. ومن يكره أن يعود فى الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يلقى فى النار» [4].

جـ - وللترمذى عن معاذ عن رسول الله ﷺ فى الحديث القدسى: «المتحابون فى جلالى لهم منابر من نور يغبطهم النبيون والشهداء» .

---

(١) سورة سبأ الآية ١٣ . (٢) رواه مالك .

(٣) سورة يونس الآية ٦٢ . والحديث رواه أبو داود عن رسول الله ﷺ .

(٤) رواه الشيخان والترمذى والنسائى وله رواية بدل الثانية (أن يحب فى الله ويبغض فى الله).

د – عن أبى هريرة عن رسول الله ﷺ : يقول الله تعالى يوم القيامة : (أين المحابون لجلالى؟ اليوم أظلهم فى ظلى، لا ظل إلا ظلى) [١].

هـ – عن أبى ذر قال : يا رسول الله ، الرجل يحب القوم ولا يستطيع أن يعمل بعملهم قال : «أنت يا أبا ذر مع من أحببت»

قال : فإنى أحب الله ورسوله، قال : «فإنك مع من أحببت» فأعادها أبو ذر فأعادها ﷺ [٢].

و – عن يمين الرحمن وكلتا يديه يمين رجال ليسوا بأنبياء ولا شهداء يغشى بياض وجوههم نظر الناظرين يغبطهم النبيون والشهداء بمقعدهم وقربهم من الله عز وجل. قيل: من هم يا رسول الله ؟

قال : جماع من نوازع القبائل (أى أخلاط من أغراب القبائل) يجتمعون على ذكر الله فينتقون أطايب الكلام كما ينتقى آكل التمر أطايبه» [٣].

ز – عن أبى هريرة عن رسول الله ﷺ أن رجلاً زار أخاً له فى قرية أخرى فأرصد الله على مدرجته ملكاً فلما أتى عليه قال : أين تريد؟

قال : أريد أخاً لى فى هذه القرية. قال : هل لك عليه من نعمه تربها؟ [٤]،

قال : لا ، غير أنى أحببته فى الله.

قال : فإنى رسول الله إليك بأن الله قد أحبك ما أحببته فيه [٥].

ح – وعن أبى أمامة عن رسول الله ﷺ بإسناد ضعيف :«من أحب لله وأبغض لله وأعطى لله ومنع لله فقد استكمل الإيمان» [٦].

ط –عن المقدام عن رسول الله ﷺ : «إذا أحب الرجل أخاه فليخبره أنه يحبه» [٧].

---

(١) رواه مالك ومسلم.
(٢) رواه الدارمى وأبو داود عن أبى ذر مرفوعاً.
(٣) أخرجه الطبرانى ورجاله موثقون.
(٤) تحفظها وترعاها.
(٥) رواه مسلم.
(٦) رواه أبو داود.
(٧) جند الله ثقافة وأخلاقاً- سعيد حوى ٢٥٣-٢٥٥ - والحديث رواه أبو داود والترمذى.

• طرق الوصول إلى محبة الله

إن من طرق الوصول إلى محبة الله :

أ - الحب في الله ب - التزاور في الله جـ - البذل في الله .

وهي كما ترى طرق سهلة، نتائجها عظيمة وكبيرة عند الله .

هذه المحبة في الله، لا تتحقق إلا إذا كانت خالية من الغرض، إيجابية في الخير، فإذا أحببت أخاك لجمال أو مال أو متعة فليست هذه محبة في الله، وإذا أدت هذه المحبة للتعاون على معصية أو لوصول إليها. فليست هذه محبة في الله.

أما إذا كان الحب لمجرد كون المحبوب مسلماً صالحاً وأدى بالمتحابين إلى النهوض ببعضهم إلى الله، والتواصي بالحق والصبر والتعاون على الخير والذكر والدعوة والعلم، فتلك محبة في الله.

قال موسى عليه السلام: ﴿ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي (٢٥) وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي (٢٦) وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي (٢٧) يَفْقَهُوا قَوْلِي (٢٨) وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي (٢٩) هَارُونَ أَخِي (٣٠) اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي (٣١) وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي (٣٢) ﴾ [١].

ثم بين الهدف من تعاونه مع أخيه فقال: ﴿ كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا (٣٣) وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا (٣٤) إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴾ [٢].

فالتسبيح الكثير، والذكر الكثير، هو الهدف من التآخي في الله .

وقال تعالى: ﴿ وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (٣) ﴾ [٣].

فأخوة لا تحقق هذه المقاصد لا يكون أصحابها من الفائزين .

وقوله عليه السلام في وصف المتحابين في الله : «يجتمعون على ذكر الله فينتقون أطايب الكلام كما ينتقي آكل التمر أطايبه» .

---

(١) سورة طه الآيات ٢٥-٣٢ .

(٢) سورة طه الآيات ٣٣-٣٥ .

(٣) سورة العصر .

فهم يحققون في اجتماعهم سنن الاجتماع على الخير :

إن رسول الله ﷺ خرج على حلقة من أصحابه فقال : «ما أجلسكم ؟» .

قالوا : جلسنا نذكر الله ونحمده على ما هدانا للإسلام ومن به علينا .

قال : «الله ما أجلسكم إلا ذاك ؟» .

قالوا : الله ما أجلسنا إلا ذاك . قال : «أما إني لم استحلفكم تهمة لكم ولكنه أتاني جبريل فأخبرني أن الله يباهي بكم الملائكة» (١) .

وعن أنس بن مالك قال : كان عبد الله بن رواحة إذا لقى الرجل من أصحاب رسول الله ﷺ قال : تعال نؤمن بربنا ساعة ، فقال ذلك ذات يوم لرجل فغضب الرجل فجاء إلى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله ألا ترى إلى ابن رواحة يرغب عن إيمانك إلى إيمان ساعة .

فقال النبي ﷺ : «يرحم الله ابن رواحة إنه يحب المجالس التي تتباهى بها الملائكة» (٢) .

« إن لله ملائكة يطوفون في الطريق يلتمسون أهل الذكر ، فإذا وجدوا قوماً يذكرون الله ، تنادوا هلموا إلى حاجتكم ، فيحفونهم بأجنحتهم إلى السماء الدنيا ، فيسألهم ربهم وهو أعلم : ما يقول عبادي ؟

قال يقولون : يسبحونك ويكبرونك ويحمدونك ويمجدونك .

فيقول : هل رأوني ؟ فيقولون : لا والله ما رأوك ،

فيقول كيف لو رأوني ؟

قال يقولون : لو رأوك كانوا أشد لك عبادة ، وأشد لك تمجيداً . وأكثر لك تسبيحاً .

فيقول : فماذا يسألون ؟ قال يقولون : يسألونك الجنة .

قال يقول وهل رأوها ؟ قال يقولون لا والله يا رب ما رأوها .

---

(١) رواه مسلم والنسائي والترمذي .

(٢) رواه الإمام أحمد في مسنده وإسناده حسن .

قال يقول: فكيف لو رأوها؟

قال يقولون: لو أنهم رأوها كانوا أشد عليها حرصاً، وأشد لها طلباً، وأعظم فيها رغبة.

قال: فمم يتعوذون؟ قال يقولون: يتعوذون من النار.

قال فيقول: فهل رأوها؟ قال يقولون: لا والله ما رأوها.

فيقول: كيف لو رأوها؟

قال يقولون: لو رأوها كانوا أشد منها فراراً، وأشد لها مخافة.

قال فيقول: فأشهدكم أني غفرت لهم.

قال: يقول ملك من الملائكة: فيهم فلان ليس منهم إنما جاء لحاجة.

قال: هم الجلساء لا يشقى بهم جليسهم،

وفي رواية: وله غفرت، هم القوم لا يشقى جليسهم » [١].

• استمرار الأخوة في الله

الأخوة في الله لا تستمر إلا إذا كانت على تقوى وأدب ﴿ الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ﴾ [٢].

والخليل: الصديق ﴿ وَقُل لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ﴾ [٣].

« لا تمار أخاك ولا تمازحه ولا تعده موعداً فتخلفه [٤].

« ألا أدلكم على شيء إذا فعلتمون تحاببتم أفشوا السلام بينكم » [٥].

« تبسمك في وجه أخيك صدقة » [٦].

---

(١) متفق عليه عن أبي هريرة. وانظر « جند الله » ص ٢٥٥-٢٥٧.

(٢) سورة الزخرف الآية ٦٧.

(٣) سورة الإسراء الآية ٥٣.

(٤) رواه الترمذي في كتاب السير عن ابن عباس وقال الترمذي: هذا حيث حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه.

(٥) رواه مسلم وابن ماجة وأبو داود والترمذي عن أبي هريرة.

(٦) رواه الترمذي وحسنه وابن حبان.

والأخوة فى الله لا تستمر إلا إذا حفظت لأخيك سره، وحفظته فى غيبته، وأديت له حقه :عن جابر عن رسول الله ﷺ : «المجالس بالأمانة إلا ثلاثة، سفك دم حرام ، فرج حرام، واقتطاع مال بغير حق»[1].

وعن رسول الله ﷺ : «إذا حدث رجل رجلاً بحديث ثم التفت فهو أمانة»[2].

وعن معاذ بن أنس عن رسول الله ﷺ :«من حمى مؤمناً من منافق بعث الله له ملكاً يحمى لحمه يوم القيامة على جسر من جسور جهنم حتى يخرج مما قال»[3].

وروى أبو هريرة عن رسول الله ﷺ : «إياكم والظن، فإن الظن أكذب الحديث، ولا تحسسوا ولا تجسسوا ولا تنافسوا، ولا تحاسدوا ولا تباغضوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخواناً ، كما أمركم ، المسلم أخو المسلم ، لا يظلمه، ولا يخذله ، ولا يحقره، والتقوى ههنا، التقوى ههنا ، التقوى ههنا - يشير إلى صدره - حسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم. كل المسلم على المسلم حرام. دمه، وعرضه ، وماله، إن الله لا ينظر إلى أجسادكم،ولا إلى صوركم وأعمالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم»[4].

وروى أنس عن رسول الله ﷺ : « لا تقاطعوا ولا تدابروا، ولا تباغضوا، ولا تحاسدوا، وكونوا عباد الله إخواناً، ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث»[5].

وللستة إلا مالكاً وهذا لفظ النسائى عن رسول الله ﷺ : «للمؤمن على المؤمن ست خصال: يعوده إذا مرض ، ويشهده إذا مات، ويجيبه إذا دعاه، ويسلم عليه إذا لقيه، ويشمته إذا عطس، وينصح له إذا غاب أو شهد».

وإن من طبيعة المؤمن حرصه على كسب الإخوان فى الله، واستمراره فى هذه

---

(١) رواه أبو داود .

(٢) رواه أبوداود والترمذى

(٣) رواه أبو داود.

(٤) رواه أحمد ومسلم والنسائى وابن ماجة عن أبى هريرة .

(٥) رواه الشيخان عن أنس .

الأخوة: روى أحمد والطبراني في الكبير عن رسول الله ﷺ: «إن من أحبكم إلي وأقربكم مني مجلساً يوم القيامة أحسنكم أخلاقاً» وفي حديث آخر: «الموطؤون أكنافاً [1] الذين يألفون ويؤلفون[2]». هذه الطبيعة اللينة السهلة اللطيفة، تجعل المؤمن مع إخوانه في وضع لا تنفصم فيه أخوتهم.

● **من علامات محبة الله تعالى**

إن محبتنا لله تعالى تقتضي منا:

١ - الإيمان بالله عزوجل

والإيمان بالله عز وجل معناه: الاعتقاد الجازم بأن الله رب كل شيء ومليكه وخالقه، وأنه الذى يستحق وحده أن يفرد بالعبادة من صلاة وصوم ودعاء ورجاء وخوف وذل وخضوع، وأنه المتصف بصفات الكمال كلها، المنزه عن كل نقص والإيمان بالله سبحانه وتعالى يتضمن توحيده في ثلاثة:

أ - توحيد الربوبية: ومعناه: الاعتقاد بأن الله تعالى رب كل شيء ولا رب غيره. وبيانه: أن الرب في اللغة هو المالك المدبر [3].

وربوبية الله على خلقه تعني تفرده سبحانه وتعالى في خلقهم وملكهم وتدبير شئونهم. فتوحيد الله في الربوبية: هو الإقرار بأنه سبحانه هو وحده خالق الخلق ومالكهم، ومحييهم ومميتهم، ونافعهم وضارهم، ومجيب دعائهم عند الاضطرار، والقادر عليهم، ومعطيهم ومانعهم، وله الخلق وله الأمر كله، كما قال سبحانه: ﴿أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [4].

وبعبارة أخرى فإن هذا التوحيد معناه: الإقرار بأن الله عز وجل هو الفاعل

---

(١) هذا مثل، وحقيقته من التوطئة وهي التمهيد والتذليل، وفراش وطيء: لا يؤذي جنب النائم والأكناف: الجوانب. أراد الذين معالمتهم وطيئة، يرتاح منها من يصاحبهم ولا يتأذى.

(٢) رواه الطبراني في مكارم الأخلاق من حديث جابر بن عبد الله بسند ضعيف.
انظر جند الله - سعيد حوى ص ٢٥٧، ٢٥٨.

(٣) المصباح المنير.

(٤) سورة الأعراف الآية ٥٤.

المطلق فى الكون، بالخلق والتدبير والتسيير والزيادة والنقص والإحياء والإماتة وغير ذلك من الأفعال لا يشاركه أحد فى فعله سبحانه وتعالى .

ب - توحيد الألوهية : ومعناه : الاعتقاد الجازم بأن الله سبحانه وتعالى هو الإله الحق، ولا إله غيره، وإفراده سبحانه بالعبادة.

فتوحيد الألوهية مبنى على إخلاص العبادة لله وحده، فى باطنها وظاهرها، بحيث لا يكون شيء منها لغيره سبحانه وتعالى، فالمؤمن بالله يعبد الله وحده ولا يعبد غيره، فيخلص لله المحبة والخوف والرجاء والدعاء، والتوكل والطاعة ، والتذلل والخضوع، وجميع أنواع العبادة وأشكالها.

والعبادة فى اللغة : هى الانقياد والتذلل والخضوع [1]. وقد عرفها بعض العلماء: بأنها كمال الحب مع كمال الخضوع.

هذا ويستلزم توحيد الله فى ألوهيته :

أن نتوجه إليه وحده بجميع أنواع العبادة وأشكالها، ونخلص قلوبنا فيها من أية وجهة أخرى ، وهذه عبارة يدخل فيها أمور كثيرة نذكر منها :

أ - وجوب إخلاص المحبة لله عز وجل ، فلا يتخذ العبد نداً لله فى الحب، أو يقدمه على الله فى المحبة، فمن فعل ذلك كان من المشركين، قال تعالى: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾[2].

فمن الشرك الذى لا يغفره الله إلا بالتوبة منه أن يتخذ العبد من دون الله نداً يحبه كحب الله عز وجل، وإذا كان الإنسان مفطوراً على حب الذات والآباء والأبناء والأوطان والأموال، فإن إخلاص العبودية لله تعنى القضاء على هذه الفطرة، وإنما المطلوب من المؤمن أن يكون حب كل شيء فى الدنيا بعد حب الله عز وجل، وحب الله سبحانه عنده فوق كل حب، وقد توعد الله عز وجل من

(١) تقول: طريق معبد : أى مذلل «المصباح المنير».

(٢) سورة البقرة الآية ١٦٥ .

يقدمون هذه القيم الدنيوية على حب الله وحب رسوله ﷺ، فقال سبحانه : ﴿ قُلْ إن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ (1).

ب -وجوب إفراد الله تعالى في الدعاء والتوكل والرجاء فيما لا يقدر عليه إلا هو سبحانه، قال عز وجل: ﴿ وَلا تَدْعُ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنفَعُكَ وَلا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ الظَّالِمِينَ ﴾ (2).

وقال تعالى : ﴿ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ (3)،

وقال تعالى :﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ ﴾ (4).

جـ -وجوب إفراد الله عز وجل بالخوف منه، فمن اعتقد أن بعض المخلوقات تضره بمشيئتها وقدرتها فخاف منها فقد أشرك بالله، لقوله تعالى : ﴿ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ﴾ (5). ولقوله : ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ (6).

د - وجوب إفراد الله سبحانه وتعالى بجميع أنواع العبادات البدنية من صلاة وركوع وسجود وصوم وذبح وطواف، وجميع العبادات القولية من نذر واستغفار وغير ذلك.

فهذه العبادات وغيرها يجب أن تكون لله وحده، ومن صرف منها شيئاً لغير الله فقد أشرك(7)، قال تعالى:﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا ﴾(8).

---

(1) سورة التوبة الآية ٢٤ .
(2) سورة يونس الآية ١٠٦ .
(3) سورة المائدة الآية ٢٣ .
(4) سورة البقرة الآية ٢١٨ .
(5) سورة النحل الآية ٥١ .
(6) سورة يونس الآية ١٠٧ .
(7) الإيمان : أركانه، حقيقته، نواقضه د. محمد نعيم ياسين بتصرف.
(8) سورة النساء الآية ٤٨ .

هـ- توحيد الأسماء والصفات : ومعناه بعبارة إجمالية: الاعتقاد الجازم بأن الله عز وجل متصف بجميع صفات الكمال، ومنزه عن جميع صفات النقص، وأنه متفرد بهذا عن جميع الكائنات، وذلك بإثبات ما أثبته الله سبحانه وتعالى لنفسه، أو أثبته له رسوله محمد ﷺ من الأسماء والصفات الواردة في الكتاب والسنة من غير تحريف ألفاظها أو معانيها، ولا تعطيلها بنفيها، أو نفي بعضها عن الله عز وجل، ولا تكيفها بتحديد كنهها وإثبات كيفية معينة لها، ولا تشبيهها بصفات المخلوقين » [1].

٢ - امتثال أوامره

إن محبة الله سبحانه وتعالى لا تكون إلا بالامتثال لأوامره والاستجابة لما يريده سبحانه وتعالى والتنفيذ لهذا الأمر بالتطبيق العملي، لا بالتمني بالكلام، فالإيمان هو ما وقر في القلب وصدق به العمل ونطق به اللسان، وأكثر ما يتجلى هذا الموقف، بين الإيمان بالله عز جل وبين ما يريده الإنسان ويحبه، هو ما كان من أبينا إبراهيم عليه الصلاة والسلام مع ابنه إسماعيل عليه السلام: ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ (١٠٢) فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ (١٠٣) وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ (١٠٤) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٠٥) إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ (١٠٦) وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴾ [2].

وتتجلى عاطفة الإيمان مع عاطفة الأمومة في موقف أم موسى في قول الله عز وجل في سورة القصص : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ [3]. وقوله : ﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [4].

---

(١) عن كتاب الإيمان: أركانه، حقيقته، نواقضه للدكتور محمد نعيم ياسين بتصرف.

(٢) سورة الصافات الآيات ١٠٢-١٠٧ .

(٣) الآية ٧ .

(٤) الآية ١٠ .

إن إيمان أم موسى بالله عز وجل جعلها تستجيب للهاتف الإلهى، مستيقنة من وعد الله سبحانه وتعالى، فتقذف بالرضيع فى النهر الكبير.

أىُّ إيمان هذا؟ وأية طاعة؟ وأيَّةُ استجابة، وأىُّ تصديق بالله سبحانه وتعالى أكبر من هذا ؟! . لقد أرضعت هذا الطفل، فتعززت عندها عاطفة الأمومة وقويت، وتعلق قلب الأم بهذا الصغير الذى ألقى الله عز وجل محبة منه سبحانه وتعالى عليه، فكيف يكون إذن حب هذه الأم لهذا الطفل الذى يفيض عليه الحب من الله عز وجل؟! ﴿ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي ﴾ [1].

والرضاع وحده كفيل بأن ينشئ فى المرأة عاطفة الأمومة.

فأى عاطفة تلك التى ابتليت بها أم موسى؟

إنها حملت وخافت على الحمل، وولدت ثم أرضعت هذا الصغير المحبوب بامر من الله سبحانه.. ثم عليها أن تلقيه فى مياه النيل أطول الأنهار» [2].

يقول الشيخ سيد قطب: «لقد سمعت الإيحاء، وألقت بطفلها فى الماء، ولكن أين هو ياترى، وماذا فعلت به الأمواج؟ ولعلها سألت نفسها : كيف؟

كيف أمنت على فلذة كبدى أن أقذفه فى اليم ؟ .

كيف فعلت مالم تفعله من قبل أم؟

كيف طلبت له السلامة فى هذه المخافة؟

كيف استسلمت لهذا الهاتف الغريب؟

والقرآن الكريم يصور لنا فؤاد الأم المسكينة صورة حية «فَارِغًا».. لا عقل فيه، ولا وعى، ولا قدرة على نظر أو تصرف» [3].

إنه لا يدرك مدلول هذه الآية: «وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا» إلا أم سليمة الفطرة، حيث تشعر أن ابنها فى خطر ما .

---

(١) سورة طه الآية ٣٩ .

(٢) الأمومة ومكانتها فى الإسلام فى ضوء الكتاب والسنة - مها عبد الله الأبرش ٦ / ٦٨٥، ٦٨٦ .

(٣) فى ظلال القرآن ٥ / ٢٦٨٠ .

إن عاطفة الإيمان بالله تعالى تتفاوت من وقت لآخر، وبين شخص وآخر لكنها في كل الأحوال والأوقات ينبغي أن تبقى هي المالكة والمسيطرة لجميع العواطف والدوافع ولجوانب النفس كلها، وهي أحياناً تتصاعد في النفس المطمئنة إلى ربها لتحول صاحبها إلى كتلة إيمان وهاجة، وذلك حين تنمو هذه العاطفة ويقوى سلطانها، حتى تهيمن على المرء وتسيطر على جنبات نفسه فتغدو هي التي تقيمه وتقعده، وتصحبه في غدوه ورواحه، نومه ويقظته، وهناك تُكَوِّنُ الفردَ تكويناً جديداً وتنشئه خلقاً آخر، حتى يصبح أقوى ما يكون تعلقاً في الحق وإيثاراً له ودفاعاً عنه، وزهداً في كل ما سواه»[1].

ونخلص بعد أن أوردنا هذه النصوص والأقوال إلى أن معنى حب الله هو أن يقبل المرء على الله ويسلم وجهه وأمره ومقاليده وكيانه كله، وأن يتوكل عليه، ولا يسأل إلا إياه، ولا يعتمد إلا عليه، وأن يؤثر طاعته على النفس وعلى المال وعلى الولد والجاه، وأن يكون هدفه الله وغايته الله[2].، كما قال الله تعالى: ﴿ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴾[3].

● لحب الإله حقوق والتزام

قال أبو يزيد البسطامي: «كاذب من ادعى محبته ولم يحفظ حدوده» وأول هذه الحدود هي العمل بتعاليم الله .. أداء الفرائض واجتناب النواهي «ما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضته عليه».

يرسم الله سبحانه وتعالى الطريق إلى حبه، وأول خطوة في هذا الطريق أداء ما افترضه الله عليه ولن يتأتى حب الله سبحانه وتعالى دون أداء الفرائض[4].

والحب دون أداء الفرائض زيف وكذب، بل أداء الفرائض شرط لحسن الظن

(١) الأمومة ومكانتها في الإسلام في ضوء الكتاب والسنة - مها عبد الله الأبرش ٢ / ٦٨٧ .

(٢) كتاب الحب في القرآن د. محمود بن الشريف ص١٨-٢٠ .

(٣) سورة الأنعام الآية ٩١ .

(٤) كتاب لطائف المنن لابن عطاء الله السكندري هامش ص ١١٥ .

بالله، لقد ترك قوم العمل وقالوا نحسن الظن بالله، وكذبوا، مصداقاً لقول رسول الله ﷺ : «لو أحسنوا الظن لأحسنوا العمل».

لابد من أداء الفرائض، وإلا لما كان لمهملها إلى القرب من الله تعالى من سبيل. ومع أداء الفرائض الإكثار من النوافل، فإذا أكثر العبد من النوافل أحبه الله «ومايزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه». ويترتب على حب الله تعالى للعبد هذا الخير الكثير الذى ورد ذكره فى الحديث القدسى : «من عادى لى ولياً فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلى عبدى بشىء أحب إلى مما افترضته عليه، وما يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به، وبصره الذى يبصر به، ويده التى يبطش بها، ورجله التى يمشى بها، وإن سألنى أعطيته، ولئن أعاذنى لأعيذنه»[1].

● **العبادة فى الشرع خضوع وحب**

يقولون فى معنى العبادة هى : الطاعة مع غاية الخضوع.

والمتأمل لهذه العبارة يجد فيها إجمالاً وسهولة.

وإننا إذا تتبعنا آى القرآن، وأساليب اللغة، واستعمال العرب لـ «عَبَدَ» وما يماثلها ويقاربها فى المعنى - كخضع، وخنع، وأطاع، وذل - نجد أنه لا شىء من هذه الألفاظ يضاهى «عبد» ويحل محلها، ويقع موقعها.

ولذلك : قالوا إن لفظ «العباد» مأخوذ من العبادة فتكثر إضافته إلى الله تعالى، ولفظ «العبيد» تكثر إضافته إلى غير الله تعالى؛ لأنه مأخوذ من العبودية بمعنى الرق، وفرق بين العبادة والعبودية بذلك المعنى،

ومن هنا قال بعض العلماء إن العبادة لا تكون فى اللغة إلا لله تعالى»[2].

والعبادة أصل معناها : الذل أيضاً، يقال طريق معبد، إذا كان مذللا قد وطئته الأقدام.

---

(١) انظر كتاب الحب فى القرآن ص ١٠١، ١٠٢ والحديث رواه البخارى عن أبى هريرة.

(٢) العبادة فى الإسلام د. يوسف القرضاوى ص ٢٩ بتصرف.

لكن العبادة المأمور بها تتضمن معنى الذل ومعنى الحب، فهي تتضمن غاية الذل لله تعالى بغاية المحبة له. قال شيخ الإسلام ابن تيمية : «ومن خضع لإنسان مع بغضه له لا يكون عابدا له، ولو أحب شيئًا ولم يخضع له، لم يكن عابدا له»[1].

• مهمة الإنسان فى هذا الوجود

لماذا وجدتُ ؟ وما مهمتى فى هذا الوجود ؟ وما رسالتى فى هذه الحياة ؟

أسئلة واجب على الإنسان - كل إنسان - أن يسألها لنفسه، وأن يفكر مليا فى جوابها.

فإن كل جهل - مهما عظمت نتائجه - قد يغتفر، إلا أن يجهل الإنسان سر وجوده، وغاية حياته، ورسالة نوعه وشخصه فى هذه الأرض ! وأكبر العار على هذا الكائن الذى أوتى العقل والإرادة أن يعيش غافلاً، يأكل ويتمتع كما تأكل الأنعام، لا يفكر فى مصيره، ولا يدرى شيئًا عن حقيقة نفسه، وطبيعة دوره فى هذه الحياة حتى يوافيه الموت بغتة، فيواجه مصيره المجهول دون استعداد له، ويجنى ثمرة الغفلة والجهل والانحراف فى عمره الطويل أو القصير، وحينئذ يندم حين لا ينفع الندم، ويرجو الخلاص ولات حين مناص.

لهذا : كان لزامًا على كل بشر عاقل أن يبادر فيسأل نفسه بجد : لماذا خلقت ؟ وما غاية خلقى ؟[2].

الإجابة : لعبادة الله وحده، لا لعبادة بشر ولا حجر، ولا بقر ولا شجر، ولا شمس ولا قمر، وكل عبادة لغير الله إنما هى من تزيين الشيطان عدو الإنسان.

والعبادة لله وحده هى العهد القديم الذى أخذه الله على بنى الإنسان، وسجله فى فطرهم البشرية، وغرسه فى طبائعهم الأصيلة.

---

(١) المرجع السابق ص ٣١ بتصرف.

(٢) العبادة فى الإسلام د. يوسف القرضاوى ص ١٣.

● لماذا خلق الإنسان ؟

قال تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ (٥٦) مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ (٥٧) إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ (٥٨) ﴾ [(١)].

وفي بعض الآثار القدسية يقول سبحانه : «عبادى إنى ما خلقتكم لأستأنس بكم من وحشة.

ولا لأستكثر بكم من قلة.

ولا لأستعين بكم من وحدة على أمر عجزت عنه

ولا لجلب منفعة ولا لرفع مضرة

وإنما خلقتكم لتعبدونى طويلاً، وتذكرونى كثيراً ، وتسبحونى بكرة وأصيلاً»[(٢)].

والإنسان إذن بحكم الفطرة ومنطق الكون، إنما هو لله سبحانه.

عقول تعى، وفي صدورهم قلوب تخفق، وفي الكون حولهم آيات تهدى، قال تعالى : ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لاَّ تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ (٦٠) وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ (٦١) ﴾ [(٣)].

ولا عجب أن يكون المقصود الأعظم من بعثة النبيين، وإرسال المرسلين، وإنزال الكتب المقدسة هو تذكير الناس بهذا العهد ولا عجب أن تكون الأديان كلها دعوة إلى عبادة الله وحده، والأنبياء جميعاً أول العابدين لله، وعبادة الله وحده هى مهمة الإنسان الأولى فى الوجود، كما بينت ذلك كل الرسالات [(٤)].

● شمول العبادة للدين كله

سئل شيخ الإسلام ابن تيمية عن قول الله عز وجل : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٢١) ﴾ [(٥)] ما العبادة؟ وما فروعها ؟ وهل مجموع الدين داخل فيها أم لا ؟

---

(١) سورة الذاريات الآيات ٥٦-٥٨.

(٢) المرجع السابق ص ٢١.

(٣) سورة يس الآيتان ٦٠ ، ٦١.

(٤) العبادة فى الإسلام د. يوسف القرضاوى ص ٢٢-٢٤ بتصرف.

(٥) سورة البقرة الآية ٢١.

أجاب رحمه الله عن ذلك فقال : العبادة : هى اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة ، فالصلاة والزكاة والصيام والحج، وصدق الحديث، وأداء الأمانة، وبر الوالدين، وصلة الأرحام، والوفاء بالعهود، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر،و جهاد الكفار والمنافقين، والإحسان للجار واليتيم والمسكين وابن السبيل، والمملوك من الآدميين، والبهائم، والدعاء والذكر والقراءة. وأمثال ذلك من العبادة.

«وكذلك حب الله ورسوله، وخشية الله والإنابة إليه وإخلاص الدين له، والصبر لحكمه،والشكر لنعمه، والرضا بقضائه، والتوكل عليه، والرجاء لرحمته، والخوف من عذابه، وأمثال ذلك هى من العبادة لله»[1] أ.هـ

وهكذا نجد أن العبادة - كما شرحها ابن تيمية - أفقا رحبا ودائرة واسعة، فهى تشمل الفرائض والأركان الشعائرية من الصلاة والصيام والزكاة والحج.

وهى تشمل مازاد على الفرائض من ألوان التعبد التطوعى من ذكر وتلاوة ودعاء واستغفار، وتسبيح وتهليل وتكبير وتحميد.

وهى تشمل حسن المعاملة، والوفاء بحقوق العباد، كَبِرٌ الوالدين وصلة الأرحام، والإحسان لليتيم والمسكين وابن السبيل، والرحمة بالضعفاء، والرفق بالحيوان.

وهى تشمل الأخلاق والفضائل الإنسانية كلها، من صدق الحديث، وأداء الأمانة، والوفاء بالعهد،وغير ذلك من مكارم الأخلاق.

كما تشمل ما نسميه بـ«الأخلاق الربانية» من حب الله ورسوله، وخشية الله والإنابة إليه، وإخلاص الدين له، والصبر لحكمه، والشكر لنعمه، والرضا بقضائه، والتوكل عليه، والرجاء لرحمته ، والخوف من عذابه»[2].

---

(١) العبودية ص ٣٨.

(٢) العبادة فى الإسلام د. يوسف القرضاوى ص ٥٠، ٥١.

وأخيرًا : تشمل العبادة الفريضتين الكبيرتين اللتين هما سياج ذلك كله وملاكه وهما :

أ - الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

ب - جهاد الكفار والمنافقين في سبيل الله .

بل تشمل العبادة أمرًا له أهميته وخطره في الحياة المادية للناس، ذكره ابن تيمية في موضع آخر من رسالته،وهو الأخذ بالأسباب ،ومراعاة السنن التى أقام الله عليها الكون، قال : فكل ما أمر الله به عباده من الأسباب فهو عبادة »[1] .

وأكثر من ذلك ما ذكره شيخ الإسلام رحمه الله : أن الدين كله داخل فى العبادة. إذ الدين يتضمن معنى الخضوع والذل، يقال: دنته فَدَانَ ، أى : أذللته فذل. ويقال: يدين الله ويدين لله، أى : يعبد الله ويطيعه ويخضع له. فدين الله : عبادته وطاعته والخضوع له. والعبادة أصل معناها الذل أيضًا»[2].

وبهذا يلتقى معنى الدين بأصل معنى العبادة لغة وشرعًا [3] .

• تصحيح فهم خاطئ

إذا عرفنا أن الدين كله عبادة كما قال الإمام ابن تيمية، وعرفنا أن الدين قد جاء يرسم للإنسان منهج حياته الظاهرة والباطنة، ويحدد سلوكه وعلاقاته - وفقًا لما يهدى إليه هذا المنهج الإلهى - عرفنا أن عبادة الله تسع الحياة كلها، وتنتظم أمورها قاطبة:

من أدب الأكل والشرب، وقضاء الحاجة، إلى بناء الدولة، وسياسة الحكم، وسياسة المال، وشئون المعاملات والعقوبات، وأصول العلاقات الدولية فى السلم والحرب.

ولهذا نجد كتاب الله الكريم يخاطب عباده المؤمنين بأوامر تكليفية، وأحكام شرعية تتناول جوانب شتى من الحياة.

---

(١) العبودية ص ٧٣.

(٢) انظر ص ٤٣ ، ٤٤ من العبودية .

(٣) العبادة فى الإسلام د. يوسف القرضاوى ص ٥١ .

وفى سورة واحدة هى سورة البقرة نجد مجموعة من التكاليف كلها جاءت بصيغة واحدة «كتب عليكم».

قال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى (١٧٨)﴾ [١].

وقال سبحانه : ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ (١٨٠)﴾ [٢].

وقال جل شأنه : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٨٣)﴾ [٣].

وقال تعالى : ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ (٢١٦)﴾ [٤].

فهذه الأمور كلها من القصاص، والوصية، والصيام، والقتال، مكتوبة من الله على عباده : أى مفروضة عليهم، فعليهم أن يعبدوا الله بالتزامها والانقياد لها.

وبهذا البيان يتضح لنا حقيقة هامة لازال يجهلها الكثيرون من المسلمين. فبعض الناس لا يفهم من كلمة «العبادة» إذا ذكرت إلا الصلاة والصيام والصدقة والحج والعمرة، ونحو ذلك من الأدعية والأذكار، ولا يحسب أن لها علاقة بالأخلاق والآداب، أو النظم والقوانين، أو العادات والتقاليد.

إن عبادة الله ليست محصورة - إذن - فى الصلاة والصيام والحج وما يلحق بها من التلاوة والذكر والدعاء والاستغفار، كما يتبادر إلى فهم كثير من المسلمين إذا دعوا إلى عبادة الله، وكما يحسب كثير من المتدينين أنهم إذا قاموا بهذه الشعائر فقد وفوا الإلهية حقها، وقاموا بواجب العبودية لله كاملاً.

إن هذه الشعائر العظيمة والأركان فى بناء الإسلام - على منزلتها وأهميتها - إنما هى جزء من العبادة لله، وليست هى كل العبادة التى يريدها الله من عباده.

والحق أن دائرة العبادة التى خلق الله لها الإنسان، وجعلها غايته فى الحياة،

(١) سورة البقرة الآية ١٧٨.
(٢) سورة البقرة الآية ١٨٠.
(٣) سورة البقرة الآية ١٨٣.
(٤) سورة البقرة الآية ٢١٦.

ومهمته في الأرض، دائرة رحبة واسعة، إنها تشمل شئون الإنسان كلها، وتستوعب حياته جميعًا [1].

● **إفراد الله بالعبادة وإخلاصها له**

القلب الإنساني دائم الشعور بالحاجة إلى الله، وهو شعور أصيل صادق لا يملأ فراغه شيء في الوجود إلا حسن الصلة برب الوجود، وهذا ماتقوم به العبادة إذا أديت على وجهها.

يقول ابن تيمية رحمه الله : القلب فقير بالذات إلى الله من وجهتين :

أ - من جهة العبادة.

ب - من جهة الاستعانة والتوكل.

فالقلب لا يصلح ولا يفلح ولا ينعم ولا يسر، ولا يلتذ ولا يطيب، ولا يسكن ولا يطمئن إلا بعبادة ربه وحده وحبه والإنابة إليه، ولو حصل له كل ما يلتذ به من المخلوقات لم يطمئن ولم يسكن، إذ فيه فقر ذاتي إلى ربه «بالفطرة» من حيث هو معبوده ومحبوبه ومطلوبه، وبذلك يحصل له الفرح والسرور، واللذة والنعمة، والسكون والطمأنينة.

وهكذا : كلما أخلص المرء العبودية لله وجد نفسه، واهتدى إلى سر وجوده، ووجد مع ذلك سعادة روحية لا تدانيها سعادة، تتمثل فيما سماه الرسول «حلاوة الإيمان» .وإن لهذه الحلاوة لطعمًا لا يتذوقه إلا من عرف الله ، وآثره على كل ما سواه»[2].

● **العبادة المقبولة عند الله**

يرى الإسلام أن العبادة المرضية عند الله ليست هي ذلك الشبح الخالي من الروح، وإنما هي تلك التي تصاحبها النية الصادقة، ويسرى فيها روح الإخلاص

---

(١) العبادة فى الإسلام د. يوسف القرضاوى ص ٥١-٥٣.

(٢) العبادة فى الإسلام د. يوسف القرضاوى ص ٩٧، ٩٨ بتصرف.

سريان العصارة فى أغصان الشجرة الناضرة، فتؤتى فى النفس أكلها، وتثمر فى الخلق والسلوك ثمرتها، وتذكر صاحب العبادة بحق الله،وتنبهه على حقوق الناس.

وليست كل صلاة جديرة بالقبول عند الله، فإن من الصلوات ما يضرب بها وجه صاحبها، ومن هنا قال الله تعالى فى شأن الصلاة المقبولة : ﴿ وَأَقِمِ الصَّلاةَ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ (٤٥) ﴾ [١].

ومن لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر فلا صلاة له.

وما قلناه فى الصلاة نقوله فى الصيام، فليس كل صيام يحظى بدرجة الرضا عند الله، ما لم يؤد إلى التقوى التى جعلها القرآن مرجوة بحصوله ، قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٨٣) ﴾ [٢]. فإذا لم يؤد إلى هذه التقوى، وصام بطنه وفرجه، ولم يصم لسانه ولا جوارحه ولا قلبه، فحرى بصيامه أن يرد وأن يكون عملة زائفة، وأن ينطبق عليه ما قاله الرسول ﷺ : «من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة فى أن يدع طعامه وشرابه» [٣].

وقال عليه الصلاة والسلام : «رب صائم ليس له من صيامه إلا الجوع، ورب قائم ليس له من قيامه إلا السهر» [٤].

وكذلك الزكاة والصدقة إذا داخلها رياء، أو لحقها مَنٌّ أو أذى للفقير، فإن ذلك يفسدها ويحط ثوابها، فليس المهم هو المال الذى تعطيه اليد الغنية لليد المستحقة، وإنما المهم هو صدق النية، وصفاء السريرة، وإخلاص القلب، وقد قال ابن عطاء : الأعمال صور قائمة ، وروحها هو وجود سر الإخلاص فيها.

وإننا لنجد هذا المعنى واضحاً فى هذه الآيات الكريمة، قال تعالى : ﴿ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ (٢٦٣) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا

---

(١) سورة العنكبوت الآية ٤٥.
(٢) سورة البقرة الآية ١٨٣.
(٣) رواه البخارى.
(٤) رواه النسائى وابن ماجة والحاكم.

تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأَذَىٰ كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لاَّ يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (٢٦٤) وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢٦٥)﴾ [١].

وما قلناه عن الصلاة والصيام والصدقة يقال عن الحج وتلاوة القرآن والجهاد والهجرة من أجل الدين، وكل عمل شرعه الله ليتعبد به ويتقرب إليه [٢].

ونقول ما يقوله ابن تيمية في كتابه «العبودية»: «إن العبادة المأمور بها تتضمن معنى الذل ومعنى الحب، فهي تتضمن غاية الذل لله تعالى بغاية المحبة له، فإن آخر مراتب الحب هو «التتيم» وأوله «العلاقة» لتعلق القلب بالمحبوب».

يجب أن يكون الله أحب إلى العبد من كل شيء، وأن يكون الله عنده أعظم من كل شيء، بل لا يستحق المحبة والخضوع التام إلا الله» [٣].

فالصلاة صلة بين العبد وربه، تقوى بها محبة العبد لربه كلما تكررت.

قال ابن القيم: فإن المحب يتلذذ بخدمة محبوبه وتصرفه في طاعته، وكلما كانت المحبة أقوى كانت لذة الطاعة والخدمة أكمل، فليزن العبد إيمانه ومحبته بهذا الميزان ولينظر هل هو متلذذ بخدمة محبوبه أو متكره لها، يأتي بها على السآمة والكراهة، فهذا محك إيمان العبد ومحبته لله.

قال بعض السلف: إني أدخل في الصلاة فأحمل هم خروجي منها، ويضيق صدري إذا فرغت لأني خارج منها، ولهذا قال النبي ﷺ: «وجعلت قرة عيني في الصلاة» [٤] ومن كانت قرة عينه في شيء فإنه لا يود أن يفارقه ولا يخرج منه، فإن قرة عين العبد نعيمه وطيب حياته به.

---

(١) سورة البقرة الآيتان ٢٦٣- ٢٦٥.

(٢) العبادة في الإسلام د. يوسف القرضاوي ص ١٥٩- ١٦١ بتصرف.

(٣) انظر الحب في القرآن د. محمود بن الشريف ص ١٨، ١٩.

(٤) أخرجه النسائي في سننه «كتاب عشرة النساء» باب حب النساء.

وقال بعض السلف : إنى لأفرح بالليل حين يقبل لما تتلذذ به عيشتى، وتقر به عينى من مناجاة من أحب، وخلوتى بخدمته والتذلل بين يديه، وأغتم للفجر إذا طلع لما أشتغل به بالنهار عن ذلك، فلا شيء ألذ للمحب من خدمة محبوبه وطاعته .

أين هؤلاء ممن لذتهم وأنسهم فى المنكرات؟

وقال بعضهم : تعذبت بالصلاة عشرين سنة، ثم تنعمت بها عشرين سنة، وهذه اللذة والتنعم بالخدمة إنما تحصل بالمصابرة على التكره والتعب أولاً، فإذا صبر عليه وصدق فى صبره أفضى به إلى هذه اللذة.

وقال أبو زيد : سُقْتُ نفسى إلى الله وهى تبكى، فمازلت أسوقها حتى انساقت إليه وهى تضحك »[1].

٢- تقوى الله عز وجل

لقد أمر الحق تبارك وتعالى بتقواه فقال عز من قائل : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[2] .

عن أبى نجيح العرباض بن سارية رضى الله عنه قال : وعظنا رسول الله ﷺ موعظة وجلت منها القلوب، وذرفت منها العيون ،فقلنا : يا رسول الله كأنها موعظة مودع، فأوصنا، قال : «أوصيكم بتقوى الله عز وجل، والسمع والطاعة وإن تأمر عليكم عبد، فإنه من يعش منكم فسيرى اختلافاً كثيراً، فعليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، عضوا عليها بالنواجز، وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل بدعة ضلالة»[3] .

وغير ذلك من آيات القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة التى تحض على التقوى كثير وسيأتى الكلام عن التقوى والمتقين.

(١) موارد الظمآن لدروس الزمان عبد العزيز المحمد السلمان ٣ / ١٨٩، ١٩٠ .

(٢) سورة آل عمران الآية ١٠٢ .

(٣) رواه أبو داود والترمذى وقال : حديث حسن صحيح.

٣ - محبة كلام الله

إن حب الله لا ينكر ولا يذم، بل هو أحمد أنواع الحب وكذلك حب رسول الله ﷺ، وإنما نعنى المحبة الخاصة، والتى تشغل قلب المحب وفكره وذكره بمحبوبه، وإلا فكل مسلم فى قلبه محبة لله ورسوله، لا يدخل فى الإسلام إلا بها، والناس متفاوتون فى درجات هذه المحبة تفاوتاً لا يحصيه إلا الله، فبين محبة الخليلين - محمد وإبراهيم عليهما السلام - ومحبة غيرهما ما بينهما ، فهذه المحبة هى التى تلطف وتخفف أثقال التكاليف، وتسخى البخيل، وتشجع الجبان، وتصفى الذهن، وتروض النفس وتطيب الحياة على الحقيقة.

وإذا بليت السرائر يوم اللقاء، كانت سريرة صاحبها من خير سرائر العباد، كما قيل:

سيبقى لكم فى مضمر القلب والحشا　　　سريرة حب يوم تبلى السرائر

وهذه المحبة هى التى تنور الوجه، وتشرح الصدر، وتحيى القلب، وكذلك محبة كلام الله ،فإنها من علامة محبة الله، وإذا أردت أن تعلم ما عندك وعند غيرك من محبة الله، فانظر محبة القرآن من قلبك والتذاذك بسماعه أعظم من التذاذ أصحاب الملاهى والغناء المطرب بسماعهم، فإن من المعلوم أن من أحب محبوباً كان كلامه وحديثه أحب شيء إليه، كما قيل:

إن كنت تزعم حبى　　　فلـــم هجرت كتابى؟

أما تأملت ما فيـــ　　　ـــه من لذيد خطابى

وقال عثمان بن عفان رضى الله عنه : لو طهرت قلوبنا لما شبعت من كلام الله» وكيف يشبع المحب من كلام محبوبه وهو غاية مطلوبه؟

وقال النبى ﷺ يوماً لعبد الله بن مسعود رضى الله عنه: «اقرأ على ».

فقال: أقرأ عليك، وعليك أنزل؟ فقال: «إنى أحب أن أسمعه من غيرى».

فاستفتح فقرأ سورة النساء ، حتى إذا بلغ قوله : ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴾ [1] قال : «حسبك» فرفع رأسه فإذا عينا رسول الله ﷺ تذرفان من البكاء .

وكان الصحابة إذا جتمعوا وفيهم أبو موسى يقولون : يا أبا موسى ذكرنا ربنا ، فيقرأ ، وهم يستمعون ، فلمحبى القرآن من الوجد ، والذوق واللذة والحلاوة ، والسرور أضعاف ما لمحبى السماع الشيطانى ، فإذا رأيت الرجل ذوقه ووجده وطربه وتشوقه إلى سماع الأبيات دون سماع الآيات ، وفى سماع الألحان دون سماع القرآن ، كما قيل : تقرأ عليكم الختمة وأنت جامد كالحجر ، وبيت من الشعر ينشد تميل كالنشوان ! !

فهذا من أقوى الأدلة على فراغ قلبه من محبة الله وكلامه ، وتعلقه بمحبة سماع الشيطان ، والمغرور يعتقد أنه على شىء .

ففى محبة الله وكلامه ورسوله ﷺ أضعاف أضعاف ما ذكر من فوائد العشق ومنافعه ، بل لا حب على الحقيقة أنفع منه ، وكل حب سوى ذلك باطل ، إن لم يعن عليه ويسوق المحبة إليه [2] .

٤- الحب فى الله

إن من أعظم الواجبات على المؤمن محبة الله ، ومحبة ما يحبه من الأقوال . والأعمال الظاهرة والباطنة ، وكذا ما يحبه من الأشخاص كالملائكة ، وصالح بنى آدم ، وموالاتهم ، وبغض ما يبغضه الله من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة ، وبغض من فعل ذلك ، فإذا رسخ هذا الأصل فى قلب المؤمن لم يطمئن إلى عدو لله ، ولم يجالسه ولم يساكنه وساء نظره إليه [3] .

---

(١) سورة النساء الآية ٤١ .

(٢) الداء والدواء لابن القيم ص ٣٣٣، ٣٣٤ .

(٣) موارد الظمآن لدروس الزمان ١ / ٧١٢ .

٥- البغض فى الله

طبيعة التناقض في ظروف هذه الحياة الدنيا تستدعى حتما أن يقابل المؤمنون المناصرون للحق والخير، الباطل والشر بالتنكر والبغضاء، وأن يقابلوا حملة الشر في الأرض والداعين إليه والمؤيدين له بالمقاومة والعداء، وهذا مما يرضى الله تعالى، فهو إذن من قبيل البغض فى الله.

إن أنصار الحق والخير هم أنصار الله وأولياؤه وأعداء الشيطان وأعداء أوليائه.

فالبغض فى الله يسير مع الحب فى الله على خطين متوازيين، ولذلك جاء فى نصوص كثيرة التوجيه للحب فى الله والبغض فى الله .

روى البيهقى فى شعب الإيمان عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ لأبى ذر: يا أبا ذر، أى عرى الإيمان أوثق؟» قال: الله ورسوله أعلم،

قال رسول الله ﷺ :«الموالاة فى الله ، والحب فى الله والبغض فى الله»[1].

وروى الإمام أحمد عن أبى ذر قال: خرج علينا رسول الله ﷺ فقال:

«أتدورن أى الأعمال أحب إلى الله تعالى؟»

قال قائل: الصلاة والزكاة. وقال قائل: الجهاد،

قال النبى ﷺ :«إن أحب الأعمال إلى الله تعالى الحب فى الله والبغض فى الله».

والسبب فى كون الحب فى الله والبغض فى الله أفضل الأعمال حسب التوجيه الذى ورد فى هذا الحديث؛ أن عاطفتى الحب والبغض من أقوى الدوافع إلى القيام بالأعمال العظيمة الشاقة، وحينما تكونان محصنتين بضابطهما العظيم - وهو كونهما فى الله ، أى : فى طاعته ومرضاته - تكونان من أقوى الدوافع إلى فعل الخير وترك الشر، ومناصرة الحق وأهله، ومقاومة الباطل وأهله[2].

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) الأخلاق الإسلامية وأسسها للشيخ عبد الرحمن الميدانى ٢ / ٢٨٠-٢٨١ .

• السبب فى معاداة أعداء الله وعدم موالاتهم

ظهر لدينا أنه لا تعارض بين كون الأصل فى خُلُق المسلم الذى يعامل به الناس هو خلق المحبة، وبين كونه يبغض الباطل والشر والفساد والرذيلة وأنصارها، على أساس أنه يبغض فيهم هذه الصفات ولا يبغضهم لذواتهم، بل هو حريص على هدايتهم وإنقاذهم، ولكنهم أبوا، ورفضوا منهج الحق، وناصبوه العداء، وانحازوا إلى الطرف المناقض له .

وعرفنا أن المسلم يحرص بدافع خلق المحبة أن يكون الناس جميعاً شركاء له فى السعادة الخالدة، وأنه بدافع خلق المحبة يقاتل المجرمين الشريرين، ليحمى الناس من شرورهم، ولعل بمقاتلتهم ينقذهم من شرور أنفسهم، فيعتدلون ويستقيمون، ويحولون مسيرتهم إلى سبيل الهداية، فيظفرون بالسعادة الخالدة، بعد أن كانت مسيرتهم آخذة بهم إلى العذاب الأليم، والشقاء المقيم .

وعلى هذا الأساس أكدت النصوص الإسلامية ضرورة اتخاذ شياطين الجن والإنس أعداء، وضرورة اتخاذ الكافرين أعداء، لأنهم ناصبوا الله والحق والخير العداء، فلا تنافر ولاتعارض بين المحبة التى يتوجه بها قلب المؤمن نحو الشخص الذى يعاديه، مريداً بهذه المحبة إنقاذه، أو إنقاذ المجتمع البشرى من شره، وبين معرفة أنه عدو، وأخذ الحذر من مكايده وشروره، واتخاذه عدواً، لأنه غير مأمون الجانب.

وليس معنى معاملته على أساس خلق المحبة موالاته، أو عدم الحذر منه، والاستسلام لشروره ومكايده، فهذه الأمور تعتبر من الرعونة والغفلة الشديدة، وعدم التبصر بحقائق الأمور.

وبهذا تمتاز نظرة المسلمين للذين يعادونهم، عن نظرة غير المسلمين إلى أعدائهم، فغير المسلمين يعاملون أعداءهم على أساس الكراهية والحقد.

أما المسلمون فإنهم يعاملون أعداءهم على أساس المحبة وإرادة الخير لهم وللناس أجمعين.

إن نظرة المسلمين إلى أعدائهم تشبه نظرة الأخ إلى أخ مصاب بمرض خطير معد، فهو يحبه ويحب له الشفاء من مرضه الخطير المعدى، ويسعى جهده لإبعاد هذا المرض عنه، وهو مع ذلك يفر منه، ويجافيه، ولا يخالطه، حذراً من شره وضره، ومخافة انتشار الوباء الذى يحمله، وقد يسجنه ويعزله عزلاً تاماً، فإذا غدا مرضه مرضاً مخيفاً، وغدت سلامة الناس متوقفة على الخلاص منه نهائياً، فإنه يتخلص منه، أو يسلمه إلى المشرفين على الصحة العامة،وهم ينفذون فيه حكم الإتلاف وتطهير المجتمع منه، لا بغضاً له، وكراهية له لذاته، ولكن خلاصاً من شره الخطير، ووبائه المستطير [١].

● **من أحب شخصا لله فمن السنة أن يخبره بذلك**

إذا أحب المرء أخًا فى الله، فمن السنة أن يعرب له عن محبته له، لتتوثق بينهما وشائج الأخوة الإيمانية، وليرعى كل منهما حقوق هذه الأخوة القائمة على الحب فى الله.

روى أبو داود والترمذى بإسناد صحيح، عن المقداد بن معديكرب عن النبى ﷺ قال: «إذا أحب الرجل أخاه فليخبره أنه يحبه».

وروى أبو داود بإسناد صحيح، عن أنس أن رجلاً كان عند النبى ﷺ فمر رجل فقال: يا رسول الله، إنى لأحب هذا.

فقال له النبى ﷺ: «أعلمته؟» قال: لا.

قال: «أعلمه».

فلحقه فقال: إنى أحبك فى الله.

فقال: أحبك الذى أحببتنى له.

وروى أبو داود والنسائى بإسناد صحيح عن معاذ، أن رسول الله ﷺ أخذ بيده وقال: «يا معاذ والله إنى لأحبك، ثم أوصيك يا معاذ: لا تدعن فى دبر كل صلاة تقول: اللهم أعنى على ذكرك، وشكرك، وحسن عبادتك».

(١) المرجع السابق ٢ / ٢٨١-٢٨٢ .

فأعلم الرسول ﷺ معاذًا بمايجد فى قلبه من محبة له.

ولما للصداقة من تأثير قوى على سلوك الإنسان، فالصاحب إذا كان له اتجاه جر صاحبه إليه، لأن الصداقة لا تتم إلا مقترنة بتبادل الثقة، ومع الثقة يحصل الاستسلام، والانقياد، والموافقة. فإذا ارتفعت الصداقة إلى مستوى المحبة أو الخلة، كان ذلك أشد وأقوى، وكان تأثيرها على كل من الخليلين أعمق.

فعلى المسلم الواعى أن يحسن اختيار أصدقائه وأخلائه من المؤمنين المتقين الصالحين أهل الاستقامة، حتى يكونوا عونًا له على الخير، فإذا كانوا غير ذلك أثروا عليه تأثيراً عكسيًا، وكانوا له عونًا على الشر، أو موسوسين له به، وآخذين بيده إليه[1].

عن أبى ذر مرفوعاً: «أفضل الأعمال الحب فى الله والبغض فى الله»[2].

وفى الصحيحين: «المرء مع من أحب».

وعن على مرفوعاً: «لا يحب رجل قوماً إلا حشر معهم»[3].

وقد روى الإمام أحمد معناه عن عائشة بإسناد جيد أيضاً عنها مرفوعاً: «الشرك أخفى من دبيب الذر على الصفاء فى الليلة الظلماء، وأدناه أن تحب على شىء من الجور، أو تبغض على شىء من العدل، وهل الدين إلا الحب فى الله والبغض فى الله».

و قال ابن عباس رضى الله عنهما: «من أحب فى الله وعادى فى الله وأبغض فى الله ووالى فى الله، فإنما تنال ولاية الله بذلك»[4].

عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «أوحى الله إلى نبى من الأنبياء أن قل لفلان العابد: أما زهدك فى الدنيا فتعجلت راحة نفسك،

---

(١) الأخلاق الإسلامية للشيخ عبد الرحمن حسن الميدانى ٢ / ٢٧٤-٢٧٥.

(٢) رواه أبو داود.

(٣) رواه الطبرانى بإسناد جيد.

(٤) رواه أبو نعيم وغيره عن ابن مسعود.

وأما انقطاعك إلى فتعززت به، فما عملت لى عليك» .

قال : يا رب ومالك على ؟

قال : هل واليت لى ولياً، أو عاديت لى عدواً».

فالواجب على العاقل الناصح لنفسه النظر فى أمره، والتفكر فى ذنوبه، ومجاهدة نفسه على التوبة النصوح، والندم على ما فات، والعزيمة على أن لا يعود، والتبديل بالعمل الصالح، وتقديم محبة الله على جميع المحاب وإيثار مرضاته على حظوظ النفس، فإن كل شيء ضيعه ابن آدم ربما يكون له ومنه عوض، فإن ضيع حظه من الله لم يكن له عوض».

● **نموذج للحب فى الله والبغض فى الله**

أبو عبيدة بن الجراح رضى الله عنه، كان صحابياً جليلاً وبطلاً عظيماً من أبطال الإسلام المجاهدين، حرص أبوه عبد الله على قتله فى أول لقاء، لأن أبا عبيدة رضى الله عنه ترك دين أبيه، واعتنق الإسلام، وتخلف عن قافلة قريش، والتحق بقافلة محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام مؤمناً بدينه مصدقاً برسالته.

تصدى عبد الله لابنه محاولاً قتله، فى غزوة بدر، ولكن الابن ابتعد عنه، وحول سيفه عن أبيه وانطلق إلى فئة أخرى غير التى فيها أبوه، يقاتلها ويجاهدها، وافترق الرجلان ولكن الأب بحث عن ابنه حتى التقى به مرة ثانية، ورفع سيفه عليه ووجه إليه ضربة قاضية استقبلها أبو عبيدة بحركة خفيفة، جعلتها تهوى فى الفضاء.

ولكن الأب مصمم على أن لا يفلت الابن مهما كلفه ذلك من غالى الثمن فبحث عن ابنه هنا وهناك، ونقب عنه فى كل مكان حتى التقى به مرة ثالثة، ورفع الرجل سيفه ليوجه إلى ابنه ضربة قاضية مميتة تشفى كلوم قلبه، وتهدأ بها نفسه الثائرة على ابنه الصابئ - فى نظره -

وهنا وجد أبو عبيدة أن أباه يعترضه ويتصدى له، وفى اعتراضه هذا اعتراض

للإسلام، فما أبو عبيدة إلا جندى من الجنود القائمين على نصر الإسلام، وأن فى تصديه له سداً بينه وبين إقامة دين الرحمن، وانتشار كلمة الله فهل يصمت أبو عبيدة على هذا، هل يسكت على من يحول بين دعوة الله أن تقوم فى الأرض وأن تنتشر بين الناس؟ .

كلا لقد أدى ما عليه نحو أبيه وأعرض عنه مرتين. ولكن ما دام أبوه يحرص على قتله على هذه الصورة، فليكن هو أسبق من أبيه فى حرصه على قتله كذلك.

والتقى السيفان وتقابل الرجلان ووقف الخصمان، وفى لحة خاطفة رفع الرجلان سيفيهما كل يحرص على قتل صاحبه، والانتصار لدينه .

ورفع أبو عبيدة يده عالية خفاقة، وفى سرعة ومضاء أهوى بسيفه البتار على قلب والده الممتلئ حقداً وغضباً على الإسلام ودعوة الإسلام، ومزق السيف قلبه، وانفجر الدم منه بكثرة وكانت هذه الساعة من ساعات التاريخ الفاصلة.

هذا من آثار الحب فى الله، والبغض فى الله، وهذا هو الواجب على كل مسلم أن تكون أعماله كلها منطبقة على ما تأمر به الشريعة المطهرة فيحب من الناس مَنْ نَهَجَ الطريق المستقيم ويبتعد عن من حاد عن الطريق المستقيم، ولو كان أقرب قريب.

ومن اتبع هذه الطريقة انطبع فى قلبه حب الكمال والإيمان فيكون عدو الله فى نظره عدواً، وحينئذ يرى أن أعظم الناس قيمة أهل الإخلاص والطاعة وأحطهم منزلة أهل المعاصى والشناعة والفساد فى الأرض(١) .

و هكذا نرى أنه يجد حلاوة الإيمان من استجمع ثلاثة عناصر :

العنصر الأول : أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، أى أحب إليه من سائر ما يحب من مال وولد وزوج ووالدين وكل موجود سواهما، وجميع لذات الحياة ومتعها، حتى نفس المؤمن. فحب الله والرسول بموجب هذا العنصر ينبغى أن يكون غالباً على حب هذه الأشياء كلها، فضلاً عما سواهما مما هو دونها تأثيراً على الإنسان.

---

(١) موارد الظمآن لدروس الزمان ١ / ٧٠٤-٧٠٦ .

ولما كان الله هو الحق، وكل ما يأتي عنه حق، وكان الرسول هو المعرف بالحق والمبلغ عن الله ما أنزل من حق، كان حبهما من حب الحق وإيثاره. ومن كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما آثر ما يرضيهما على كل أهواء نفسه وشهواتها، وعلى كل لذات جسده ومتعه الفانية، وضحى في سبيلهما بنفسه وماله وكل محاب نفسه.

العنصر الثاني: أن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وفي تحقيق هذا العنصر تحقيق لمبدأ الترابط الجماعي الخالص بين المؤمنين، وهو الترابط النقي من شوائب المصالح الشخصية والأهواء النفسية والشهوات المادية، إذ هو حب لله خالص لوجهه.

ولما كان الحب في الله من آثار كمال الإيمان في السلوك النفسي، كان المتحابون في الله محبوبين لله تعالى، ويظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله، ويجعل لهم يوم القيامة منابر من نور يغبطهم عليها النبيون والشهداء، دل على هذا جملة من الأحاديث، منها :

ما جاء في حديث السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله، ومنهم: «رجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه»[1] .

وما جاء في الحديث القدسي : «إن الله تعالى يقول يوم القيامة : أين المتحابون بجلالي؟ اليوم أظلهم في ظلي يوم لا ظل إلا ظلي»[2] .

وما جاء في الحديث القدسي: «قال الله عز وجل: المتحابون في جلالي لهم منابر من نور يغبطهم النبيون والشهداء»[3] .

● ضابط المحبة وثمراتها

للمحبة ضابط يصونها في حدود المحبة العاقلة الحكيمة، ويلجمها حتى لاتتجاوز هذه الحدود فتغدو محبة رعناء مفسدة غير مصلحة.

إنه ضابط قصير العبارة، إلا أنه واسع الدلالة ، شامل كل صغيرة وكبيرة في

(١) رواه البخارى ومسلم عن أبى هريرة. (٢) رواه مسلم عن أبى هريرة .

(٣) رواه الترمذى عن معاذ. وانظر : الأخلاق الإسلامية وأسسها للشيخ عبد الرحمن الميدانى ٢ / ٢٦٦ .

مجال المحبة ، هذا الضابط هو أن يكون الحب في الله، أى فى طاعة الله . وفى مقابله يأتى ضابط الطرف المقابل وهو البغض، فضابطه أن يكون بغضاً فى الله .

أى : من أجل ترك طاعة الله.

فالمسلم الصادق فى إسلامه، المتأدب بآداب دينه، الملتزم لتعاليمه، هو الذى يحب فى الله ويبغض فى الله، إنه متى فعل ذلك استقام أمره، وكانت محبته عاقلة حكيمة، وكان بغضه حسناً رشيداً، فهو يحب بحبه لله ما يحبه الله، ومن يحبه الله، وما أمر الله بمحبته، ومن أمر الله بمحبته، ويبغض بحبه لله ما يبغضه الله، ومن يبغضه الله، وما أمر الله ببغضه وكراهيته، ومن أمر الله ببغضه وكراهيته.

ولذلك نلاحظ أن المحبة التى دعا إليها الإسلام تكاد لاتُذْكَر فى نصوصه إلا مقترنة بهذا الضابط. «وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله» ومن أحب لله فلابد أن يتقيد فى معاملته من يحب بموجب طاعة الله .

ويلاحظ فى الحديث الترتيب فى توجيه المحبة :

ففى المرتبة الأولى والعليا تأتى محبة الله ورسوله ،وظاهر أن بواعث الإيمان تدعو إلى إعطاء هذه المحبة أعظم نصيب.

وبهذا نرى أن الطريق الأقوم للمحبة هو ما كان عن طريق محبة الله أولاً،

ثم عن طريق محبة حامل لواء دينه ثانياً،

ثم من كانت محبته لله وعلى مرضاته، فهذا الطريق هو الذى تصان به المحبة من كل انحراف إلى ما فيه ضرر أو فساد، وهذا هو طريق محبة المتقين .

فالمحبة التى لا تكون لله، ولا يلتزم فيها بتقوى الله، ستتحول إلى عداوة يوم القيامة، عقوبة لأصحابها من جنس عملهم ، قال الله تعالى: ﴿ الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ ﴾ [١].

---

(١) سورة الزخرف الآية ٦٧ .

إن الأخلاء في الدنيا الذين لا يتعاملون فيما بينهم على أساس من تقوى الله ، سيكونون يوم القيامة أعداءً. ويتحسر يوم القيامة من يتخذ في الدنيا خليلاً يضله عن سبيل الله ، فيقول : ﴿ يَا وَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا (٢٨) ﴾ ، وقال الله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا (٢٧) يَا وَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا (٢٨) لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنسَانِ خَذُولًا ﴾[1].

● **آثار المحبة**

المحبة لها آثار ، وتوابع، ولوازم ، وأحكام، سواء كانت محمودة ، أم مذمومة ، نافعة أم ضارة : من الوجد ، والذوق ، والحلاوة ، والشوق ، والأنس ، والاتصال بالمحبوب ، والقرب منه ، والانفصال عنه ، والبعد منه ، والصد ، والهجران ، والفرح والسرور ، والبكاء والحزن ، وغير ذلك من أحكامها ولوازمها .

والمحبة المحمودة هي المحبة النافعة التي تجلب لصاحبها ما ينفعه في دنياه وآخرته ، وهذه المحبة هي عنوان السعادة . والضارة هي التي تجلب لصاحبها ما يضره في دنياه وآخرته ،وهي عنوان شقاوته .

ومعلوم أن الحي العاقل لا يختار محبة ما يضره ويشقيه ، وإنما يصدر ذلك عن جهل وظلم ؛ فإن النفس قد تهوى ما يضرها ، ولا ينفعها ، وذلك ظلم من الإنسان لنفسه . بأن تكون جاهلة بحال محبوبها فتهوى الشيء وتحبه غير عالمة بما في محبته من المضرة ، وهذا حال من اتبع هواه بغير علم ، وإما عالمة بما في محبته من المضرة لكن تؤثر هواها على علمها ، وقد تتركب محبتها من أمرين :

اعتقاد فاسد ، وهوى مذموم ، وهذا حال من اتبع الظن وما تهوى الأنفس ؛ فلا تقع المحبة الفاسدة إلا من جهل ، أو اعتقاد فاسد ، أو هوى غالب ، أو ما تركب من ذلك وأعان بعضه بعضاً فتتفق شبهة وشهوة ، شبهة يشتبه بها الحق بالباطل وتزين له أمر المحبوب ، وشهوة تدعوه إلى حصوله ، فيتساعد جيش الشبهة والشهوة على جيش العقل والإيمان والغلبة لأقواهما .

---

(١) سورة الفرقان الآيات ٢٧-٢٩ . وانظر : الأخلاق الإسلامية للشيخ عبد الرحمن الميداني ٢ / ٢٦٩، ٢٧٠ .

وإذا عرف هذا فتوابع كل نوع من أنواع المحبة له حكم متبوعه، فالمحبة النافعة المحمودة التى هى عنوان سعادة العبد توابعها كلها نافعة له، حكمها حكم متبوعها؛ فإن بكى نفعه، وإن حزن نفعه، وإن فرح نفعه، وإن انقبض نفعه، وإن انبسط نفعه؛ فهو يتقلب فى منازل المحبة وأحكامها فى مزيد وريح وقربة .

والمحبة الضارة المذمومة توابعها وآثارها كلها ضارة لصاحبها مبعدة له من ربه، كيفما تقلب فى آثارها ونزل فى منازلها فهو فى خسارة وبعد.

وهذا شأن كل فعل تولد عن طاعة ومعصية، فكل ما تولد من الطاعة فهو زيادة لصاحبها وقربة، وكل ما تولد عن المعصية فهو خسران لصاحبه وبعد، قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿١٨﴾ ﴾[1] .

فأخبر سبحانه فى الآية الأولى: أن المتولد عن طاعتهم وأفعالهم يكتب لهم به عمل صالح.

وأخبر فى الثانية : أن أعمالهم الصالحة التى باشروها تكتب لهم أنفسها، والفرق بينهما : أن الأول ليس من فعلهم، وإنما تولد عنه، فَكُتِب لهم به عمل صالح، والثانى نفس أعمالهم فَكُتِب لهم.

فليتأمل قتيل المحبة هذا الفصل حق التأمل ليعلم ماله وما عليه :

سيعلم يوم العرض أى بضاعة أضاع وعند الوزن ما كان حصلاً[2]

• من ثمرة المحبة لله

أبان الرسول ﷺ أن من ثمرات حب الله ورسوله والحب فى الله بين المؤمنين، أن يكافئ الله المحبين بالحب، فيحبهم الله، وحين يحب الله عبداً ينادى جبريلَ أن يحبه ، فيحبه جبريل، ثم ينادى جبريل فى أهل السماء : أن الله يحب فلاناً فأحبوه، فيحبه أهل السماء، ثم يوضع له القبول فى الأرض.

عن أبى هريرة ، عن النبى ﷺ قال : «إذا أحب الله تعالى عبداً نادى جبريل:

---

(١) سورة الزمر الآيتان ١٧ ، ١٨.

(٢) والدواء لابن القيم ٢٩٠، ٢٩١.

إن الله يحب فلاناً فأحببه، فيحبه جبريل، فينادى فى أهل السماء : إن الله يحب فلانا فأحبوه، فيحبه أهل السماء، ثم يوضع له القبول فى الأرض» [١].

ومن الثمرات التى يظفر بها المتحابون فى الله، أن الله تبارك وتعالى يكافؤهم على ذلك بمحبة من عنده، فيكونون من أحباب الله كما تحابوا فيه.

روى الإمام مسلم عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ : «أن رجلاً زار أخاً له فى قرية أخرى، فأرصد الله تعالى على مدرجته [٢] ملكًا، فلما أتى عليه قال : أين تريد؟ قال : أريد أخاً لى فى هذه القرية.

قال : هل لك عليه من نعمة تربها [٣]؟

قال: لا، غير أنى أحببته فى الله،

قال : فإنى رسول الله إليك بأن الله قد أحبك كما أحببته فيه».

من هذا الحديث نلاحظ، أن الحب فى الله قد بلغ من شأنه أن أنزل الله فيه ملكًا، ليخبر رجلاً صالحاً أحب أخاه فى الله بأن الله يحبه كما أحب أخاه فيه.

وروى الإمام مالك بإسناد صحيح فى كتاب «الموطأ» عن التابعى أبى إدريس الخولانى، قال : دخلت مسجد دمشق، فإذا فتى براق الثنايا [٤] وإذا الناس معه، فإذا اختلفوا فى شىء أسندوه إليه، وصدروا عن رأيه، فسألت عنه فقيل : هذا معاذ بن جبل.

فلما كان من الغد، هجرت [٥]، فوجدته قد سبقنى بالتهجير، ووجدته يصلى، فانتظرته، حتى قضى صلاته، ثم جئته من قبل وجهه، فسلمت عليه، ثم قلت : والله إنى لأحبك لله.

فقال : آلله؟ قال: فقلت : ألله.

فقال : آلله [٦]؟ فقلت : ألله.

---

(١) رواه البخارى ومسلم.

(٢) فأرصد الله تعالى على مدرجته ملكًا: أى وكل به ملكًا يترصد على طريقه مجيئه ليسأله وليخبره بما أخبره به.

(٣) أى هل لك عليه معروف أنعمت به عليه، فأنت تريد تحصيل مكافأة منه على معروفك.

(٤) أى : متلامع الأسنان كأنهن حبات اللؤلؤ.

(٥) هجرت : أى بكرت بالحضور إلى المسجد.

(٦) آلله : أى أتقسم على ما تقول، فهو يستوثق منه بالقسم مرتين.

فأخذ بحبوة ردائى، فجذبنى إليه فقال: أبشر، فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قال الله تبارك وتعالى: وجبت محبتى للمتحابين فِىَّ، والمتجالسين فِىَّ، والمتزاورين فِىَّ، والمتباذلين فى». ومن أحبه الله أدناه منه، وزاد فى إكرامه والإنعام عليه.

ومن ثمرات محبة المقصرين للسابقين، أن يكونوا معهم فى مراتبهم العلية يوم القيامة. روى البخارى ومسلم عن عبد الله بن مسعود قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يارسول الله، كيف تقول فى رجل أحب قوماً ولم يلحق بهم؟

فقال رسول الله ﷺ: «المرء مع من أحب».

روى البخارى ومسلم عن أنس، أن أعرابياً قال لرسول الله ﷺ: متى الساعة؟ قال له رسول الله ﷺ: «ما أعددت لها؟» قال: ما أعددت لها من كثير صوم ولا صلاة ولا صدقة، ولكنى أحب الله ورسوله. فقال: «أنت مع من أحببت».

قال أنس: فما رأيت المسلمين فرحوا بشىء بعد الإسلام فرحهم بها»[1].

وإذا أبغض الله عبداً لفجوره وتمرده وكِبْرِه ولكثرة شره، بغض به جبريل، ثم أهل السماء، ثم توضع له البغضاء فى الأرض.

٦- الإكثار من ذكر الله: قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا (٤١) وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾[2]. وقال تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[3].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾[4] وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾[5].

وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة: «أن رسول الله ﷺ مر على جبل يقال له جُمْدان فقال: سيروا هذا جُمْدان سبق المفردون،

قالوا: ومن المفردون يا رسول الله؟

قال: الذاكرون الله كثيراً والذاكرات».

---

(١) الأخلاق الإسلامية للشيخ عبد الرحمن الميدانى ٢ / ٢٧٢ - ٢٧٤ والحديث سبق تخريجه.

(٢) سورة الأحزاب الآيتان ٤١، ٤٢.

(٣) سورة الجمعة الآية ١٠.

(٤) سورة الأحزاب الآية ٣٥.

(٥) سورة آل عمران الآية ١٩١.

و خرج الإمام أحمد والنسائى وابن حبان فى صحيحه من حديث أبى سعيد الخدرى أن رسول الله ﷺ قال: «استكثروا من الباقيات الصالحات، قيل وما هن يا رسول الله؟

قال: التكبير والتسبيح والتهليل والحمد لله ولا حول ولاقوة إلا بالله».

وفى المسند وصحيح ابن حبان عن أبى سعيد الخدرى أيضاً عن النبى ﷺ قال :«أكثروا ذكر الله حتى يقولوا مجنون».

وروى أبو نعيم فى الحلية من حديث ابن عباس مرفوعاً: «أكثروا ذكر الله حتى يقول المنافقون إنكم تراؤون».

وخرج الإمام والترمذى من حديث أبى سعيد عن النبى ﷺ أنه سئل: «أى العباد أفضل درجة عند الله يوم القيامة ؟ قال: «الذاكرون الله كثيراً».

وقيل يا رسول الله ومَن الغازى فى سبيل الله ؟

قال: «لو ضرب بسيفه فى الكفار والمشركين حتى ينكسر ويتخضب دماً لكان الذاكرون لله أفضل منه درجة».

وخرج الإمام أحمد من حديث سهل بن معاذ عن النبى ﷺ: «أن رجلاً سأله فقال: أى الجهاد أعظم أجراً يا رسول الله ؟

قال: أكثرهم لله ذكراً.

ثم قال: أى الصائمين أعظم؟ قال: أكثرهم ذكراً.

ثم ذكر لنا الصلاة والزكاة والحج والصدقة كلاً، ورسول الله ﷺ يقول: أكثرهم لله ذكراً. فقال أبو بكر : ذهب الذاكرون بكل خير.

فقال رسول الله ﷺ: «أجل» [1].

وفى صحيح مسلم عن عائشة قالت : « كان رسول الله ﷺ يذكر الله على كل أحيانه » [2].

---

(١) خرجه ابن المبارك وابن أبى الدنيا من وجوه مرسلة بمعناه .

(٢) جامع العلوم والحكم لابن رجب ص٥٥٧، ٥٥٨ .

الإحسان إلى النفس بمحبة النبى ﷺ

ومن الإحسان إلى النفس محبة النبى ﷺ خاصة وأن محبة الله تقتضى منا أن نحب من أحبه الله ملاحظين الفضل لأهل الفضل، ولا يكتمل الإيمان إلا بهذا، فالله عز وجل يحب رسوله محمداً ﷺ، وقد فضله على جميع خلقه. فبمقتضى محبتنا لله أن نحب رسوله ﷺ أكثر من محبتنا لأى شىء آخر من المخلوقات. قال ﷺ : «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين»[1].

لقد بين الله تعالى لنا موقع النبى ﷺ منا، فقال : ﴿ النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ﴾[2]. فهو أقرب إلى قلوبهم من قلوبهم، وهو مقدم على أعز ما لديهم من نفس ومال وولد وحبيب، ولن يذوق المسلم فى شعوره ووجدانه لذة الإيمان ورسول الله ﷺ على هامش حياته، كما حدثنا عليه الصلاة والسلام فيما رواه أنس عنه :«ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان : أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود إلى الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يلقى فى النار»[3].

فلوجود أصل الإيمان، ولتذوق حلاوته، لابد من أن يكون الحب النبوى فوق كل شىء فى حياة المسلم.

ولا شك أن المسلم الحق يملأ عليه رسول الله ﷺ حياته وكيانه ووجدانه، ويعيش معه فى كل ذرة من جسده، وكل لحظة من حياته، فهو مثله الأعلى فى سلوكه.

إن محبة المصطفى ﷺ أصل عظيم من أصول الإيمان بالله عز وجل يتوقف وجود الإيمان على وجوده، فلا يدخل المسلم قائمة المؤمنين الناجين حتى يكون الرسول ﷺ أحب إليه من نفسه التى بين جنبيه ، بل ومن الناس أجمعين. قال

---

(١) رواه الشيخان عن أنس بن مالك . (٢) سورة الأحزاب الآية ٦ .

(٣) رواه أحمد والترمذى وابن ماجة وهو من الأحاديث الصحيحة . وانظر فقه السيرة منير الغضبان ص٧٠٢ .

تعـالى: ﴿ قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ [1].

ومن رحمة الله تعالى بعباده أنه لم يذم حب الأهل والأقارب والأزواج، ولا حب المال والكسب الحلال، والمساكن الطيبة، ولم ينه عن ذلك، وإنما جعل الإيمان إيثار محبة الله عز وجل ورسوله ﷺ على حب هذه الأنواع الآنفة الذكر».

إن الطريق الصحيح الذى يجب أن يسلكه المسلم الحق لينال رضا الله تعالى فى الدنيا والآخرة هو اتباع الرسول الكريم النبى الأمى محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه، وأن يكون هواه تبعاً لما جاء به ﷺ، وبذلك يكون مؤمناً حقاً، قال تعالى: ﴿ مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ﴾ [2].

وقال ﷺ : «لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به» [3].

فليس هناك من طريق يوصل إلى الله عز وجل إلا عن طريق هذا النبى الكريم. فيحب ما أمر به ويكره ما نهى عنه.

وقد ورد القرآن بمثل هذا فى غير موضع، قال تعالى: ﴿ فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [4].

وقال تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ﴾ [5].

وذم سبحانه من كره ما أحبه الله وأحب ما كرهه الله، قال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴾ [6].

---

(١) سورة التوبة الآية ٢٤ .
(٢) سورة النساء الآية ٨٠ .
(٣) السنة لابن أبى عاصم ، والإبانه الكبرى لابن بطة.
(٤) سورة النساء الآية ٦٥ .
(٥) سورة الأحزاب الآية ٣٦ .
(٦) سورة محمد الآية ٩ .

وقال تعالى: ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴾ (١).

فالواجب على كل مؤمن أن يحب ما أحبه الله محبة توجب له الإتيان بما وجب عليه منه، فإن زادت المحبة حتى أتى بما ندب إليه منه كان ذلك فضلاً.

وأن يكره ما كرهه الله تعالى كراهة توجب له الكف عما حرم عليه منه، فإن زادت الكراهة حتى أوجبت الكف عما كرهه تنزيهاً كان ذلك فضلاً.

وقد ثبت في الصحيحين عنه صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه وولده وأهله والناس أجمعين» (٢).

ولا يكون المؤمن مؤمناً حتى يقدم محبة الرسول على محبة جميع الخلق، ومحبة الرسول تابعة لمحبة مرسله.

والمحبة الصحيحة تقتضي المتابعة والموافقة في حب المحبوبات، وبغض المكروهات، قال تعالى: ﴿ قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ﴾ (٣).

وقال تعالى: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾ (٤).

وقال الحسن: قال أصحاب النبي ﷺ: «يا رسول الله إنا نحب ربنا حباً شديداً، فأحب الله أن يجعل لحبه علماً، فأنزل هذه الآية».

وفي الصحيحين عن النبي ﷺ: «ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يرجع إلى الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يلقى في النار» (٥).

---

(١) سورة محمد الآية ٢٨.

(٢) أخرجه البخاري ومسلم.

(٣) سورة التوبة الآية ٢٤.

(٤) سورة آل عمران الآية ٣١.

(٥) أخرجه البخاري ومسلم وأحمد والنسائي وابن ماجة.

فمن أحب الله ورسوله محبة صادقة من قلبه أوجب له ذلك أن يحب بقلبه ما يحبه الله ورسوله، ويكره ما يكرهه الله ورسوله، ويرضى ما يرضى الله ورسوله، ويسخط ما يسخط الله ورسوله، وأن يعمل بجوارحه بمقتضى هذا الحب والبغض، فإن عمل بجوارحه شيئاً يخالف ذلك ارتكب بعض ما يكرهه الله ورسوله، أوترك بعض ما يحبه الله ورسوله مع وجوبه والقدرة عليه دل ذلك على نقص محبته الواجبة، فعليه أن يتوب من ذلك ويرجع إلى تكميل المحبة الواجبة.

قال أبو يعقوب النهرجوري: كل من ادعى محبة الله تعالى ولم يوافق الله في أمره فدعواه باطلة، وكل محب ليس يخاف الله فهو مغرور.

وقال يحيى بن معاذ: ليس بصادق من ادعى محبة الله ولم يحفظ حدوده.

وسئل رويم عن المحبة فقال: الموافقة في جميع الأحوال، وأنشد:

ولو قلت لي متْ مُتُّ سمعاً وطاعة   وقلت لداعي الموت أهلاً ومرحباً

ولبعضهم:

تعصى الإله وأنت تزعم حبه   هذا لعمري في القياس شنيع

لو كان حبك صادقاً لأطعته   إن المحب لمن يحب مطيع [1]

أما الذين أكرمهم الله بصحبته ﷺ، فقد كانوا قمة في الإيمان الصادق. فبذلك فازوا وغنموا وكانوا في السابقين محبة وصدقاً وتأييداً، قدموا أنفسهم دون نفسه، ونحورهم دون نحره، أحبوه أكثر من أموالهم وأولادهم وأنفسهم، وكانوا مع ذلك رضوان الله عليهم رحماء بينهم أشداء على الكفار كما وصفهم الله تعالى في كتابه العزيز بقوله: ﴿ مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ﴾ [2].

فبذلك فازوا فوزاً عظيماً، ذلك أنهم جعلوا سيرته مناراً ونبراساً يضيء أمامهم الطريق، وأدركوا أهمية القدوة الحسنة، فكان ﷺ قدوتهم في كل شيء

(١) جامع العلوم والحكم لابن رجب ص ٤٩٠، ٤٩١.

(٢) سورة الفتح الآية ٢٩.

صغر أو كبر، فراحوا يغترفون من هذه القدوة الحسنة وينعمون من فضلها ويتفيئون ظلالها، ذلك أنهم أحبوه أكثر من حبهم لأولادهم وأنفسهم وأموالهم وكل شيء في حياتهم.

ومن الأحاديث الدالة على وجوب محبة النبى ﷺ ما روى عن عبد الله بن هشام قال: كنا مع النبى ﷺ وهو آخذ بيد عمر بن الخطاب، فقال عمر: يا رسول الله، لأنت أحب إلى من كل شيء إلا من نفسي.

فقال النبى ﷺ: «لا والذى نفسى بيده حتى أكون أحب إليك من نفسك».

فقال عمر: فإنه الآن، والله لأنت أحب إلى من نفسي.

فقال النبى ﷺ: «الآن يا عمر»[1].

فهذا الحديث النبوى الشريف يبين أنه لا يبلغ المسلم حقيقة الإيمان حتى يكون الرسول ﷺ أحب إليه من نفسه التى بين جنبيه.

ولا يصل العبد إلى هذه المنزلة إلا إذا سعى فى تحصيل ما يحبه الله ورسوله من الأقوال والأفعال، يقول عبد الله بن رواحة:

وفينا رسول الله يتلو كتابه ... إذا انشق معروف من الفجر ساطع

أرانا الهدى بعد العمى فقلوبنا ... به موقنات أن ما قال واقع

يبيت يجافى جنبه عن فراشه ... إذا استثقلت بالمشركين المضاجع

ويترتب على الإيمان بمحمد ﷺ ومحبته ما يلى:

١ - أن نؤمن بأنه ﷺ نبى الله ورسوله، وعبده وصفيه. لم يعبد صنماً، ولم يشرك بالله طرفة عين قط، ولم يرتكب صغيرة ولا كبيرة قط.

٢ - أن نؤمن بأنه ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين، قال تعالى: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾[2].

---

(١) أخرجه البخارى كتاب الأيمان والنذور.

(٢) سورة الأحزاب الآية ٤٠ .

وقــال ﷺ : «مثلي ومثل الأنبياء كمثل رجل بنى بنياناً فأحسنه وأجمله إلا مـوضع لبنة من زاوية من زواياه، فـجـعل الناس يطوفـون بـه ويعـجـبـون له، ويقولون: هلا وضعت هذه اللبنة، قال: فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين» (١).

و قال ﷺ: «أنا محمد، وأنا أحمد، وأنا الماحي الذي يمحي به الكفر، وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على عقبي، وأنا العاقب، والعاقب الذي ليس بعده نبي» (٢).

وفي رواية أخرى: «يحشر الناس على قدمي» (٣) ومعناها: يحشرون على إثرى وزمان نبوتي وليس بعدى نبي، وقيل: يتبعوني.

٣ - أن نعتقد اعتقاداً جازماً أنه لا نبوة بعده ﷺ، وأن كل من ادعاها بعده فهو كذاب، قال رسول الله ﷺ: «وأنه سيكون في أمتي ثلاثون كذابون، كلهم يزعم أنه نبي، وأنا خاتم النبيين لا نبي بعدي» (٤).

٤ - أن نؤمن بأنه عليه الصلاة والسلام إمام المتقين، الذي يقتدى به في الخير كله، وأنه وحده الجدير بالاقتداء والتأسي به دون غيره، قال تعالى: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ﴾ (٥).

وقال جل شأنه : ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ (٦).

وقال سبحانه : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ (٧).

٥ - أن نؤمن بأنه عليه الصلاة والسلام حبيب الرحمن ، وأن له أعلى مراتب محبة الله عز وجل. ذكر سهل بن عبد الله التسترى أن موسى عليه السلام قال: يارب أرني بعض درجات محمد وأمته.

قال الله : يا موسى إنك لن تطيق ذلك ولكني أريك منزلة من منازله جليلة عظيمة فضلته بها عليكم وعلى جميع خلقي.

---

(١) متفق عليه واللفظ لمسلم.

(٢) متفق عليه واللفظ لمسلم.

(٣) انظر شرح النووى على صحيح مسلم ١٥ / ١٠٥ .

(٤) أخرجه مسلم

(٥) سورة آل عمران الآية ٣١ .

(٦) سورة النساء الآية ٦٥ .

(٧) سورة الأحزاب الآية ٢١ .

قال: فكشف له عن ملكوت السموات فنظر إلى منزلة كادت أن تتلف نفسه عن نورها.

قال موسى عليه السلام: يارب بماذا بلغت به هذه الكرامة؟

قال: «بخُلُقٍ اختصصته به من بينهم ألا وهو الإيثار يا موسى، لا يأتينى أحد منهم عمل به وقتا من عمره إلا استحييت من محاسبته وبوأته من جنتي حيث شاء».

أما أنه صلوات الله وسلامه عليه مبعوث للناس جميعاً. فقد قال الحق تبارك وتعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً ﴾[1].

وقال جل شأنه: ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾[2].

وقال: ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً ﴾[3].

وقال ﷺ: «فضلت على الأنبياء بست: أعطيت جوامع الكلم، ونصرت بالرعب، وأحلت لى الغنائم، وجعلت لى الأرض طهوراً ومسجداً، وأرسلت إلى الخلق كافة، وختم بى النبيون»[4].

٦ - أن نقدم محبته على الوالد والولد والنفس، فعن أنس رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين»[5].

وعن عبد الله بن هشام قال: كنا مع النبى ﷺ وهو آخذ بيد عمر بن الخطاب رضى الله عنه، فقال له عمر: يا رسول الله، لأنت أحب إلى من كل شيء إلا نفسى، فقال النبى ﷺ: «لا والذى نفسى بيده حتى أكون أحب إليك من نفسك»؛ قال عمر: فأنت الآن والله أحب إلى من نفسى، فقال النبى ﷺ: «الآن ياعمر»[6].

---

(١) سورة سبأ الآية ٢٨.

(٢) سورة الأعراف الآية ١٥٨.

(٣) سورة الفرقان الآية ١.

(٤) متفق عليه واللفظ لمسلم.

(٥) متفق عليه.

(٦) أخرجه البخارى فى كتاب الأيمان والنذور.

٧ - أن نؤمن بأن الله جل وعلا قد أيده بالمعجزات الدالة بيقين على صدقه ﷺ في كل ما جاء به، وأن القرآن العظيم معجزته الباهرة، تحدى بها العالمين فعجزوا عن الإتيان بمثله، أو بمثل بعض منه، قال تعالى: ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٢٣) فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾ [١].

ومن المعجزات التى أيده الله عز وجل بها المعجزات الحسية المذكورة فى الأحاديث الصحيحة، مثل انشقاق القمر، وتسليم الحجر عليه، وحنين الجذع إليه، ونبوع الماء من بين أصابعه، وإشباع الخلق الكثير من الطعام القليل، وشهادة الشاة المشوية أمامه، وإظلال السحاب له قبل مبعثه، وما كان من شاة أم معبد حين مسح بيده المباركة على ضرعها، ورميه التراب فى وجوه المشركين عند خروجه للهجرة ونومهم وعدم رؤيتهم له ﷺ، وإخباره بالمغيبات التى وقعت كما أخبر عليه الصلاة والسلام، واستجابة الله تعالى لدعائه ﷺ، وعصمته من القتل، وغير ذلك مما ألفت فيه الكتب[٢].

٨ - أن نؤمن بأن الله تعالى قد حباه خلقة وصورة، يحكم المتفرس فيها بأنها دالة على نبوته وصدقه عليه الصلاة والسلام، وما أحسن قول حسان بن ثابت:

لو لم يكن فيه آيات مبينة ... كانت بديهته تأتيك بالخبر

٩ - أن نؤمن بأن الله تعالى حباه أخلاق القرآن كلها، مما يدل على صدقه وتأييد الله له؛ فما سمع أحد منه كذباً، لا فى أمور الدين، ولا فى أمور الدنيا، لا قبل البعثة ولا بعدها، ولو صدر عنه شيء من ذلك مرة واحدة لاجتهد أعداؤه فى نشره وإظهاره، وما فعل فعلاً قبيحاً أو منفراً، لا قبل النبوة ولا بعدها،

---

(١) سورة البقرة الآيتان ٢٣، ٢٤.

(٢) تجد هذه المعجزات وغيرها فى كتب السيرة والحديث ففى صحيح البخارى «باب علامات النبوة» وفى صحيح مسلم «معجزات الرسول ﷺ» وهناك مؤلفات خاصة مثل «دلائل النبوة» للأصبهانى، ودلائل النبوة للبيهقى، وحلية الأولياء، وأعلام النبوة للماوردى والوفا بأحوال المصطفى.

وما فر من عدو مهما عظم الخوف واشتد الأمر مثل يوم أُحد ويوم الأحزاب.

١٠ -أن نؤمن بأنه ﷺ كان عظيم الرحمة والشفقة بأمته، حتى خاطبه ربه تبارك وتعالى بالتخفيف من ذلك. كما قال تعالى: ﴿ فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ ﴾ [(١)].

وقال جل شأنه: ﴿ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [(٢)].

١١ - أن نؤمن بأنه ﷺ كان في أعظم درجات الكرم والسخاء، وكان زاهداً في الدنيا قانعاً باليسير منها، لا يدخر شيئاً، وكان حليماً صفوحاً، لا يغضب إلا لله تعالى، متواضعاً للمؤمنين، عابداً لله، مجاهداً في سبيله متوكلاً عليه.

١٢ -أن نؤمن بأنه ﷺ قد ظل على صفاته وأخلاقه الربانية من أول عمره إلى آخره، ما غير ولابدل، وهذا ما أشار إليه القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ﴾ [(٣)]. والمتكلف لا يمكنه الثبات على ذلك طول عمره، وقد كان في هذه الخصال وغيرها من الأخلاق الكريمة، في كل واحدة منها الغاية القصوى من الكمال، ولا يتفق ذلك لأحد من الخلق، غير أولئك الذين عصمهم الله تعالى، فكان اجتماع هذه الصفات والأخلاق له عليه الصلاة والسلام من أعظم دلائل نبوته ﷺ » [(٤)].

لذا.. فيترتب على حب المسلمين لله سبحانه ولرسوله ﷺ تمام الطاعة لهما ولا فرق بين طاعة الله تعالى في كتابه وطاعة رسوله في سنته من حيث المعنى، فطاعة الله طاعة لرسوله، وطاعة رسوله طاعة له، إذ لا يأمر الرسول إلا بما أمر الله عز وجل به: ﴿ مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ﴾ [(٥)].

وقد انصبت أوامر القرآن مبينة هذا المعنى حتى لا يبقى فيه لبس، قال

---

(١) سورة فاطر الآية ٨ . (٢) سورة التوبة الآية ١٢٨ .

(٣) سورة ص الآية ٨٦ .

(٤) كتاب الإيمان - أركانه - حقيقته نواقضه - د.محمد نعيم ياسين ص ٥٥-٦٠ .

(٥) سورة النساء الآية ٨٠ .

تعالى: ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾ (١).

و قال تعالى : ﴿ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (٢).

وقال تعالى: ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا ﴾ (٣).

و قال جل شأنه : ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ (٤).

وقال : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ (٥).

وحيث وردت طاعة الله فذلك طاعة كتابه، وحيثما وردت طاعة الرسول ﷺ فتلك طاعة سنته، فهما متلازمتان، قال عليه الصلاة والسلام : «تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ» (٦).

● من علامات محبة النبى (*)

١ - تصديقه فيما أخبر: من أصول الإيمان وركائزه الرئيسة، الإيمان بعصمة النبى ﷺ من الكذب أو البهتان، وتصديقه في كل ما أخبر من أمر الماضى أو الحاضر أو المستقبل ، قال الله تعالى : ﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝٤ ﴾ (٧).

والجفاء كل الجفاء، بل الكفر كل الكفر اتهامه وتكذيبه فيما أخبر، ولهذا ذم الله المشركين بقوله : ﴿ وَمَا كَانَ هَٰذَا الْقُرْآنُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ۝٣٧ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ۝٣٨ بَلْ

(١) سورة المائدة الآية ٩٢ .
(٢) سورة النور الآية ٦٣ .
(٣) سورة الحشر الآية ٧ .
(٤) سورة آل عمران الآية ١٣٢ .
(٥) سورة الأنفال الآية ٢٤ .
(٦) رواه مالك والحاكم عن ابن عباس رضى الله عنهما .
(*) العلامات رقم ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ مأخوذة عن كتاب حقوق النبى ﷺ بين الإجلال والإخلال - موضوع محبة النبى ﷺ وتعظيمه - عبد اللطيف بن محمد الحسن ص٩١-١٠٠ بتصرف.
(٧) سورة النجم الآيات ١-٤ .

كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ (٣٩) ﴾ [١].

قال الإمام ابن القيم : فرأس الأدب مع الرسول ﷺ كمال التسليم له، والانقياد لأمره، وتلقي خبره بالقبول والتصديق، دون أن يُحمله معارضة بخيال باطل يسميه معقولاً، أو يُحمله شبهة أو شكًا ، أو يقدم عليه آراء الرجال ، فيوحده بالتحكيم والتسليم، والانقياد والإذعان، كما وحد المرسِل - سبحانه وتعالى- بالعبادة والخضوع والذل والإنابة والتوكل [٢].

وانظر إلى المنزلة العالية الرفيعة التي حازها أبو بكر الصديق - رضى الله عنه - الذى آمن بالنبى ﷺ حق الإيمان؛ فصدقه حق التصديق؛ فعن عائشة - رضى الله عنها- قالت : لما أسرى بالنبى ﷺ إلى المسجد الأقصى ، أصبح يتحدث الناس بذلك، فارتد ناس ممن كانوا آمنوا به وصدقوه، وسعوا بذلك إلى أبى بكر - رضى الله عنه - فقالوا: هل لك إلى صاحبك، يزعم أنه أسرى به الليلة إلى بيت المقدس؟

قالوا : أوقال ذلك؟ قالوا : نعم!

قال : لئن كان قال ذلك لقد صدق.

قالوا: أوتصدقه أنه ذهب الليلة إلى بيت المقدس وجاء قبل أن يصبح ؟!

قال : نعم! إنى لأصدقه فيما هو أبعد من ذلك، أصدقه بخبر السماء في غدوة أو روحة. فلذلك سمى أبو بكر الصديق [٣].

ومن لطائف هذا الباب التى تدل على منزلة الشيخين الجليلة، أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه : «بينما راع في غنمه عدا عليه الذئب فأخذ منها شاة فطلبها حتى استنقذها، فالتفت إليه الذئب، فقال له : من لها يوم السبع ليس لها راع غيرى؟!

وبينما رجل يسوق بقرة قد حمل عليها، فالتفتت إليه، فكلمته فقالت : إنى

(١) سورة يونس الآيات ٣٧-٣٩. (٢) مدارج السالكين ٣ / ٣٨٧ .

(٣) أخرجه الحاكم ٣ / ٦٢،

لم أخلق لهذا، ولكنى خلقت للحرث، فقال الناس : سبحان الله !
قال النبى ﷺ : فإنى أومن بذلك وأبو بكر وعمر بن الخطاب»[1].

٢ - اتباعه وطاعته، والاهتداء بهديه

الأصل فى أفعال النبى ﷺ وأقواله أنها للاتباع والتأسى، قال تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا (٢١) ﴾[2].

قال ابن كثير : هذه الآية أصل كبير فى التأسى برسول الله ﷺ فى أقواله وأفعاله، وأحواله ، ولهذا أمر الله - تبارك وتعالى - الناس بالتأسى بالنبى ﷺ يوم الأحزاب فى صبره ومصابرته ومرابطته ومجاهدته وانتظار الفرج من ربه عز وجل[3].

وجاء أمر الله - سبحانه وتعالى - فى وجوب طاعة الرسول ﷺ فى آيات كثيرة، منها قوله - تعالى - :﴿ مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا (٨٠) ﴾[4].

وأمر بالرد عند التنازع إلى الله والرسول، فقال : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً (٥٩) ﴾[5].

وتواترت النصوص النبوية فى الحث على اتباعه وطاعته، والاهتداء بهديه والاستنان بسنته، وتعظيم أمره ونهيه، ومن ذلك قول الرسول ﷺ : «صلوا كما رأيتمونى أصلى»[6].

وقوله ﷺ : «لتأخذوا عنى مناسككم»[7].

وقوله ﷺ : «فعليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، تمسكوا بها،

---

(١) أخرجه البخارى .
(٢) سورة الأحزاب الآية ٢١ .
(٣) تفسير القرآن العظيم ٣ / ٤٧٥ .
(٤) سورة النساء الآية ٨٠ .
(٥) سورة النساء الآية ٥٩ .
(٦) أخرجه البخارى.
(٧) أخرجه مسلم .

وعضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة»[1].

قال الإمام الخطابى : إنما أراد بذلك الجد في لزوم السنة، فعل من أمسك الشيء بين أضراسه، وعض عليه منعًا له أن ينتزع، وذلك أشد ما يكون من التمسك بالشيء ، إذ كان ما يمسكه بمقاديم فمه أقرب تناولاً وأسهل انتزاعًا[2].

فطاعة الرسول ﷺ هى المثال الحى الصادق لمحبته عليه الصلاة والسلام، فكلما ازداد الحب، زادت الطاعات ، ولهذا قال الله - عز وجل - : ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٣١) ﴾ .[3]

٣ - نشر سنته :

من تمام محبة النبى ﷺ وتعظيمه الحرص على نشر السنة وتبليغها، وقد ثبت عنه أنه قال فى أحاديث كثيرة : «فليبلغ الشاهد الغائب»[4] ،وقال : «بلغوا عنى ولو آية»[5] ، وعن أبى موسى الأشعرى عن النبى ﷺ قال : «مثل ما بعثنى الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضا، فكان منها نقية قبلت الأرض فأنبتت الكلأ والعشب الكثير ،وكانت منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا وسقوا وزرعوا، وأصابت منها طائفة أخرى إنما هى قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأً ، فذلك مثل من فَقُه فى دين الله ونفعه ما بعثنى الله به فَعَلِمَ وعَلَّم، ومثل من لم يرفع بذلك رأسا ولم يقبل هدى الله الذى أرسلت به»[6].

فامتدح ﷺ من كان له قلب حافظ للعلم فنشره بين الناس فانتفعوا به، وهذه

---

(١) أخرجه أحمد وأبو داود والترمذى وابن ماجة.

(٢) معالم السنن بحاشية مختصر سنن أبي داود.

(٣) سورة آل عمران الآية ٣١.

(٤) أخرجه البخارى .

(٥) أخرجه البخارى.

(٦) أخرجه البخارى.

هى المرتبة الثانية – المشار إليها فى الحديث – ، فأما من أوتى فهما ثاقبا مع حفظه للعلم فانتفع أولاً ونفع ثانيًا فهو لاشك أكمل وأفضل، وهذه هى المرتبة الأولى.

والحرص على نشر السنة وتبليغها وتعليمها للناس باب عظيم من أبواب محبة النبي ﷺ وتعظيمه؛ لأن فى ذلك سعى لإعلاء سنته، ونشر هديه بين الناس. ومن مقتضيات ذلك : الحرص على إماتة البدع والضلالات المخالفة لأمره وهديه، ولا شك بأن الابتداع فى دينه من خوارم المحبة الصادقة[1] ؛ ولهذا قال النبى ﷺ : «من أحدث فى أمرنا هذا ما ليس فيه فهو رد»[2].

٤ - الذب عنه

إن الدفاع عن رسول الله ﷺ ونصرته، آية عظيمة من آيات المحبة والإجلال، قال الله – تعالى – : ﴿ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ (٨) ﴾[3]

ولقد سطر الصحابة – رضى الله عنهم – أروع الأمثلة وأصدق الأعمال فى الذب عن رسول الله ﷺ ، وفدائه بالأموال والأولاد والأنفس فى المنشط والمكره، فى العسر واليسر، وكتب السير عامرة بقصصهم وأخبارهم التى تدل على غاية المحبة والإيثار والتعظيم. ومن ذلك أن أبا طلحة الأنصارى – رضى الله عنه – كان يحمى الرسول ﷺ فى غزوة أحد، ويرمى بين يديه، ويقول : بأبى أنت وأمى، لا تشرف يصيبك سهم من سهام القوم، نحرى دون نحرك[4].

وعن قيس بن أبى حازم قال : رأيت يد أبى طلحة شلاء، وقى بها النبى ﷺ يوم أحد[5].

وما أجمل ماقال أنس بن النضر يوم أحد لما انكشف المسلمون : اللهم إنى أعتذر إليك مما صنع هؤلاء – يعنى أصحابه – وأبرأ إليك مما صنع هؤلاء – يعنى

---

(١) المرجع السابق ص١٠٠، ١٠١.

(٢) أخرجه البخارى.

(٣) سورة الحشر الآية ٨.

(٤) مختصر الصواعق المرسلة ٣ / ٣٥٣ .

(٥) أخرجه البخارى.

المشركين - ثم تقدم فاستقبله سعد، فقال : يا سعد بن معاذ، الجنة ورب النضر إنى أجد ريحها من دون أحد، قال سعد : فما استطعت يا رسول الله ما صنع.

قال أنس بن مالك: فوجدنا به بضعًا وثمانين ضربة بالسيف أو طعنة برمح أو رمية بسهم، ووجدناه قد قتل، وقد مثل به المشركون، فما عرفه أحد إلا أخته ببنانه [1].

٥ - الاقتداء بالنبى - ﷺ - [*]

فالاقتداء بالنبى ﷺ فى الأقوال والأفعال، وامتثال أوامره واجتناب نواهيه، والتأدب بأخلاقه الكريمة فى العادات والمباحات. فإن من أحب شيئاً آثره. وآثر موافقته، وإلا لم يكن صادقاً فى محبته، وشاهد ذلك قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [2].

فعلى المرء المحب لرسول الله - ﷺ - أن يؤثر شرع النبى على هواه، وأن يقدم حكم الله وحكم رسول الله على حكم نفسه، كما قال الله تعالى:﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [3].

وأخرج الترمذى عن أنس بن مالك قال: قال لى رسول الله ﷺ : «يابنى إن قدرت أن تصبح وتمسى ليس فى قلبك غش لأحد فافعل». ثم قال لى: «يا بنى وذلك من سنتى، ومن أحيا سنتى فقد أحبنى، ومن أحبنى كان معى فى الجنة» [4]. فمن أحيا سنة رسول الله والتزم بهديه فهو كامل المحبة لرسول الله - ﷺ - ومن خالف هديه وعصى أمره فهو ناقص المحبة، وعلى قدرالتزام المسلم بسنة النبى والاقتداء به فى كل شيء، تكون درجة محبته للنبى، وهذا ميدان فسيح يتنافس فيه المتنافسون.

---

(١) أخرجه البخارى.

(*) العلامات من ٥ إلى إلخ ماخوذة عن كتاب واجبات الأمة نحو كاشف الغمة د. حلمى عبد المنعم صابر ص ٤٠-٨٤ بتصرف.

(٢) سورة آل عمران الآية ٣١ .

(٣) سورة الحجرات الآية ١ .

(٤) أخرجه الترمذى فى الجامع الصحيح - سنن الترمذى - كتاب العلم باب ما جاء فى الأخذ بالسنة واجتناب البدع.

٦-كثرة ذكر النبى - ﷺ -

من أحب شيئاً أكثر من ذكره، وشغل فيه غالب فكره، والمسلم المحب لرسول الله، هو ذلك الذى يرتبط برسول الله دائماً فى كل قول وعمل، فتراه يقول: فعل رسول الله كذا، وترك رسول الله كذا، وحدث رسول الله بكذا، وأمر رسول الله بكذا، ونهى رسول الله عن كذا. فهو دائماً ذاكر لرسول الله عند كل فعل وترك، وعند كل حركة وسكون، فرسول الله لا يغيب له عن بال، وإنما هو فى كل لحظة يتعسس على هديه ليتبعه .

ومن شواهد ذكر النبى كثرة الصلاة عليه، فقد روى الترمذى عن أُبَى بن كعب رضى الله عنه: أن أُبَىَّ بن كعب قال: يا رسول الله، إنى أُكثرُ الصلاة عليك فكم أجعل لك من صلاتى؟ فقال: «ما شئت».

قال: قلت الربع؟، قال: «ما شئت فإن زدت فهو خير لك».

قلت: النصف، قال: «ما شئت فإن زدت فهو خير لك».

قلت : أجعل لك صلاتى كلها.

قال: «إذا تكفى همك ويغفر لك ذنبك»[1].

٧- كثرة الشوق إلى لقائه- ﷺ -

كل محب يشتاق إلى لقاء المحبوب، ويتلهف لرؤياه والجلوس إليه، وقد ثبت أن بلالاً - رضى الله عنه - لما حضرته الوفاة، نادت امرأته : وا حزناه.

فقال: وا طرباه، غداً ألقى الأحبة محمداً وحزبه.

وثبت أيضاً عن الأشعريين - قوم أبى موسى الأشعرى - لما قدموا المدينة على رسول الله - ﷺ - كانوا يرتجزون فى الطريق، فيقولون: غداً نلقى الأحبة، محمداً وصحبه.

(١) خرجه الترمذى فى الجامع الصحيح سنن الترمذى كتاب «صفة القيام» باب ماجاء فى الشفاعة وقال عنه الترمذى: هذا حديث حسن صحيح ».

وقد كان أصحاب رسول الله - ﷺ - بعد موته، لا يذكرونه إلا خشعوا واقشعرت جلودهم وذرفت أعينهم الدمع حنيناً إلى رسول الله، وشوقاً إلى لقياه - ﷺ - .

وما أكثر أن تحن القلوب المؤمنة إلى رسول الله - ﷺ - ويهزها الشوق إلى زيارته. فتبذل من أجل ذلك النفس والنفيس، وتذهب لزيارة مسجده والوقوف أمام قبره الشريف تسلم عليه وتطفئ نار الشوق إلى لقياه .

والمقصود بالزيارة هو : الزيارة الشرعية البعيدة كل البعد عن المخالفات، بل الزيارة التي بينت السنة النبوية آدابها وما ينبغي أن يفعله الزائر.

والله يشهد [1] وملائكته وحملة عرشه وأهل السماوات والأرض أننا فى زيارتنا لسيدنا رسول الله ﷺ لا نعتقد إلا أنه بشر يوحى إليه، من خيار عبيد الله يرجو رحمة ربه ويخاف عذابه ويتقرب إليه بالأعمال، بل هو أشد الناس حرصًا على ذلك، فهو أتقانا لله وأخوفنا من الله وأعلمنا بالله وأعرفنا به، لا نشبهه بالخالق ولا ننذر له ولا نسجد له، ولا ندعوه ولانجعله لله ندا ولا نسويه برب العالمين، ونحبه كما أمر أكثر من النفس المال والولد.

وقد ذكر الشيخ ابن القيم فى قصيدته المعروفة بالنونية كيف تكون الزيارة، قال :

فإذا أتينا المسجد النبوىَّ صلـ	ـينا التحية أولاً ثِنْتَان
بتمام أركان لها وخشوعها	وحضور قلب فعل ذى الإحسان
ثم انثنينا للزيارة نقصد الـ	ـقبر الشريف ولو على الأجفان
فنقوم دون القبر وقفة خاضع	متذلل فى السر والإعلان
فكأنه فى القبر حى ناطق	فالوا قفون نواكس الأذقان
ملكتهُمُ تلك المهابة فاعترت	تلك القوائم كثرة الرجفان
وتفجرت تلك العيون بمائها	ولطالما غاضت على الأزمان
وأتى المسلِّمُ بالسلام بهيبة	ووقار ذى علم وذى إيمان

(١) مفاهيم يجب أن تصحح للسيد محمد بن علوى المالكى الحسنى ص٢٧٨، ٢٧٩ .

لــم يرفع الأصوات حول ضريحه كــلا ولم يسجد على الأذقان

كــلا ولــم ير طائفا بالقبر أســـ ـــبوعًا كــأن القــبر بيت ثان

ثم انثنى بدعــائه مــتوجهـــا للــه نحـــو البيت ذى الأركان

هــذى زيــارة مـــن غدا متمسكًا بشــريعة الإســلام والإيمــان

مـــن أفضل الأعمال هاتيك الزيا رة وهـــى يوم الحشر فـــى الميزان

وإذا كــانت النفــوس تهـفـو إلى رسـول الله فى الدنـيـا وتـتـمـنى زيارة قـبــره الشـريف، فإن الشوق الأكبـر الذى يفيض به قـلب كل محب لرسـول الله هو فى لقـائه على حوضـه الشريف، والحظوة بشـرف السقـيا من حوضه بيـده الشريـفة، بل، ومرافقته فى الجنة، نسأل الله أن يكتب لنا ذلك جميعاً.

٨- محبة كل شىء يحبه رسول الله - ﷺ -

المطلوب مـحبـة كل شىء يحبــه رسـول الله - ﷺ - حـتى فى المبـاحـات وشـهوات النفس، فأخذ الإنسـان نفسه بموافقه ما كان يهواه رسول الله ويحبه فى المطعم والمشرب والملبس وغير ذلك. هو من علامات المحبة لرسول الله - ﷺ

فـأنس - رضى الله عنـه - حين رأى رسـول الله يتـتبـع الدباء (أى القـرع) من حوالى القصعة. قال: فلم أزل أحب الدباء من يومئذ»[١]. أى صار يحبـه لمحبة رسول الله له.

و كـان ابن عـمـر - رضى الله عنهـمـا - يلبـس النعال السـبتـيـة (أى النعـال المتخذة من جلود البقر ومدبوغة بالقرظ) وكان يصبغ بالصـفرة، لأنه رأى النبى يفعل ذلك[٢].

وفى الحقيقة ما أكثر الأمور المباحة فى حياة الناس، إلا أنك تجد المحب لرسول الله، حريصاً على موافقة رسـول الله فـيهـا مـثل: لبس الثـيـاب البـيض،ووضع

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه «كتاب الأطعمة» باب «من تتبع حوالى القصعة» مع صاحبه إذا لم يعرف منه كراهية.

(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه كتاب الوضوء باب غسل الرجلين فى التعليق.

الطيب وارتداء العمامة، وغير ذلك من الأمور المباحة، التي يكون التمسك بها عنواناً على محبة العبد لرسول الله - ﷺ - فيحرص على أن يقتفي أثره في كل شيء.

وإذا وجب على المسلم أن يحب ما كان يحبه رسول الله، فإنه يجب عليه أيضاً أن يبغض ما كان يبغضه رسول الله - ﷺ - فقد كان يحب العطاس ويكره التثاؤب، ويحب البيض من الثياب ويكره الأحمر والأسود. إلى غير ذلك من الأمور الكثيرة التي يجب على المسلم أن يبحث عنها في هدى رسول الله - ﷺ - وقد جمع الإمام ابن القيم - رحمه الله - في كتابه القيم «زاد المعاد» الكثير من هدى النبي - ﷺ - في كل شئونه وسائر أحواله، فليرجع إليه كل مسلم حريص على حب النبي، حتى يقتدى، ويحتذى برسول الله - ﷺ - .

٩ - محبة من أحبه النبي - ﷺ - وبغض من ابغضه.

فحب آل بيت النبي، وأزواجه، وأصحابه من المهاجرين والأنصار ومن سائر الأمصار، بل وحب كل من أحب النبي - ﷺ - هو من علامات المحبة الخالصة لله ورسوله، فقد روى الإمام الترمذي في سننه أن النبي - ﷺ - قال في الحسن والحسين: «اللهم إني أحبهما فأحبهما وأحب من يحبهما» [١].

وقال فيهما أيضاً: «من أحبهما فقد أحبني، ومن أحبني، فقد أحب الله، ومن أبغضهما فقد أبغضني، ومن أبغضني فقد أبغض الله، ومن أبغض الله فقد كفر بالله عز وجل [٢]».

وقال - ﷺ - عن فاطمة: «فإنما ابنتي بضعة مني، يريبني ما رابها ويؤذيني ما أذاها» [٣].

(١، ٢) أخرجهما الامام الترمذي في الجامع الصحيح كتاب «المناقب» باب «مناقب الحسن والحسين»، من رواية أسامة بن زيد.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه كتاب «من فضائل الصحابة» باب من «فضل فاطمة رضي الله عنها» والحديث من رواية المسور بن مخرمة.

وقال فى أسامة بن زيد لعائشة : « يا عائشة أحبيه فإنى أحبه» .

وقال فى شأن أصحابه - كما فى رواية الترمذى : «الله الله فى أصحابى، لا تتخذوهم غرضاً بعدى (أى هدفاً للطعن والسب واللمز) ، فمن أحبهم فبحبى أحبَهم، ومن بغضهم فببغضى أبغضهم ومن أذاهم فقد آذانى، ومن أذانى فقد آذى الله، ومن آذى الله فيوشك أن يأخذه »[1].

وقال - ﷺ - : «من أعطى لله، ومنع لله، وأحب لله، وأبغض لله، وأنكح لله، فقد استكمل إيمانه »[2].

وإذا كان حب من أحبهم النبى علامة من علامات المحبة للنبى - ﷺ - فإن بغض من بغضه النبى جزء أيضاً من محبته، فعلى المرء المحب لرسول الله أن يبغض من بغضهم النبى، وعلى المرء المحب لرسول الله أن يبغض كل من أبغض الله ورسوله ، أو بغضه الله ورسوله، فمن عادى الله ورسوله، أو ابتدع فى دين الله ما ليس منه، أو أعان على هدم الإسلام بالكلمة أو بالمال أو بالسلطان فهو عدو لله وعدو لرسول الله، يجب علينا أن نعاديه ونبغضه، فلن يستكمل المرء حقيقة الإيمان، حتى يوالى أولياء الله ويعادى أعداء الله، فمن أحب لله وأبغض لله فقد استكمل حقيقة الإيمان.

و قد ثبت عن أصحاب رسول الله، أنهم وقفوا من أهل الشرك والنفاق موقفاً سجله القرآن الكريم لهم، حيث قدموا موالاة الله ورسوله على موالاة ذويهم وعشيرتهم الذين عادوا الله ورسوله، فقال عز وجل: ﴿ لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُوْلَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾[3].

(١) أخرجه الترمذى فى كتاب المناقب باب «فضل من بايع تحت الشجرة» من رواية عبد الله بن مغفل.
(٢) أخرجه البخارى فى كتاب الإيمان باب «علامات الإيمان حب الأنصار».
(٣) سورة المجادلة الآية ٢٢ .

فقد قاتل أصحاب رسول الله آباءهم وأبناءهم في مرضاة الله ورسوله.

روى عن ابن عباس- رضي الله عنهما - أن الآية عَنى بها جماعة من الصحابة، فقول: ﴿ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ ﴾ يريد أبا عبيدة، فإنه قتل أباه يوم «أحد».

وقوله ﴿ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ ﴾: يريد أبا بكر الصديق، فإنه دعا ابنه البراء يوم بدر، فأمره رسول الله أن يقعد.

وقوله ﴿ أَوْ إِخْوَانَهُمْ ﴾: يريد مصعب بن عمير، لأنه قتل أخاه يوم «أحد». وقوله ﴿ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ﴾ يريد علياً ونحوه ممن قتلوا عشائرهم.

وقتل عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - خاله العاص بن هشام يوم «بدر».

وموقف عبد الله بن عبد الله بن أبي من استعداده لقتل أبيه بيده لو أمره الرسول بذلك، وكان أبوه علي النفاق، ورأس الكفر، ورئيس الشقاق في المدينة، بينما كان ابنه عبد الله من أصدق الناس إيماناً وإخلاصاً لله ورسوله.

١٠-تعظيم شأنه ﷺ وتوقيره وبره

مطلوب منا تعظيم شأنه وتوقيره وبره ﷺ، قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَىٰ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٦٢) لَّا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (١).

وقال عز وجل: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ (٢) إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُم

---

(١) سورة النور الآيتان ٦٢-٦٣.

مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [١].

لقد حوت تلك الآيات السابقة جماع الأدب مع رسول الله -ﷺ- واشتملت على وسائل التوقير له والبر به، وهى ترسم النهج العظيم فى علاقة الأمة برسولها الكريم، كما يتبين منها قدر هذا النبى وعلو شأنه، وإذا كانت الآيات بما حوته من توجيهات، يقصد منها فى المقام الأول تنبيه أصحاب رسول الله - ﷺ - إلى كيفية التعامل مع النبى فى حياته، وتحديد الإطار الذى يكون فيه هذا التعامل، فلا يتسللون من مجلسه خفية دون استئذان، ولا يسقطون التكليف فى الحديث معه والنداء عليه،فينادونه باسمه مجرداً من مثل نداء بعضهم بعضاً، لا يفتاتون عليه فى رأى ولا يقدمون حكمهم على حكمه، ولا يرفعون أصواتهم فى مجلسه،ولا يغلظون له فى القول، كما يخاطب بعضهم بعضاً مع إسقاط الكلفة.

١١ - الصلاة على النبى ﷺ

إن الصلاة على رسول الله ﷺ واجب نؤديه لنشكره لأننا اهتدينا بنور الإيمان على يديه يقول الله تعالى :﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [٢].

ندعو الله فيها لنصلى على رسول الله ﷺ وقد جاءنا بالإسلام، وبالصلاة عليه ﷺ لتصبح شخصيته ماثلة فى قلوبنا حية بنورها. يقول الله تبارك وتعالى فى كتابه العزيز: ﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [٣].

وقد اتفق العلماء من السلف والخلف فى المذاهب الأربعة كلها على وجوب

---

(١) سورة الحجرات الآيات ١-٥ .
(٢) سورة الشورى الآية ٥٢ .
(٣) سورة الأحزاب الآية ٥٦ .

الصـلاة على النبى ﷺ بناء على نص هذه الآية التى تتضـمن الأمر بـها فـقد أمر الله سبحانه عباده المؤمنين فى هذه الآية بأن يصلوا ويسلموا على النبى ﷺ بعد أن ذكر أن الله وملائكته يصلون عليه. والأمر للوجوب مع ما فى سياق الآية من الحث على المأمور به

قال الخازن فى تفسير هذه الآية: اتفق العلماء على وجوب الصلاة على النبى ﷺ، ثم اختلفوا، فقيل: تجب فى العمر مرة وهو قول الأكثر.

وقيل: تجب فى كل صلاة فى التشهد الأخير وهو مذهب الإمام الشافعى، وإحدى الروايتين عن الإمام أحمد.

وقيل: تجب كلما ذكر، واختارهاالإمام الطحاوى من الحنفية، والحلبى من الشافعية.

والواجب (اللهم صل على محمد) وما زادعلى ذلك فهو سنة..

أبو السعود يرى أن: الآية دليل على وجوب الصلاة والسلام عليه مطلقاً من غير تعرض لوجوب التكرار وعدمه.

وقيل ويجب ذلك كلما جرى اسمه لقوله ﷺ: «رغم أنف رجل ذكرت عنده فلم يصل عَلَىَّ[1]».

ثم قال أبو السعود فى تفسيره: والذى يقتضى الاحتياط ويستدعيه معرفة علو شأنه ﷺ أن يُصَلَّى عليه كلما جرى اسمه الرفيع.

ويفهم من كلام أبى السعود فيما رواه عن غيره أن الغرض من الصلاة عليه ﷺ الاعتناء والاهتمام بإظهار شرفه وتعظيم شأنه.

هذا ولعل السر فى الترغيب المذكور فى الحديث على من لم يصل عليه عند ذكر اسمه ﷺ أن فى عدم صلاته دليل على ضعف الإيمان وقلة الاهتمام بشأن رسول الله ﷺ بدليل قوله: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه وماله وولده والناس أجمعين»[2].

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) سبق تخريجه.

وبالنسبة للسنة النبوية فقد روى الإمام مسلم فى صحيحه عن أبى هريرة رضى الله عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ : «من صلى على صلاة واحدة صلى الله عليه بها عشراً». ونأخذ من هذا الحديث فضل الصلاة على النبى ﷺ لأنه يدل دلالة واضحة على أن صلاة واحدة من أى فرد من أفراد الأمة ذكراً كان أم أنثى على النبى ﷺ تجلب إليه عشر صلوات من الله عز وجل، ومن المعلوم أن الصلاة من الله سبحانه وتعالى معناها الرحمة، وأن الرحمة الواحدة من الله عز وجل تكفى لسعادة المؤمن ونيله الدرجات الرفيعة عند الله عز وجل.

فهذا فضل الله يؤتيه من يشاء.. عن أنس رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ :«من صلى علىَّ صلاة واحدة صلى الله عليه بها عشراً وحط عنه عشر خطيئات ورفعت له عشر درجات». ويلفت النظر فى هذا الحديث كبير فضل الله تعالى على من يصلى على النبى ﷺ.

وروى الإمام الترمذى فى صحيحه عن أبى طلحة رضى الله عنه - أنه قال : إن رسول الله ﷺ جاء ذات يوم والبشر فى وجهه فقلت : إنا نرى البشر فى وجهك يا رسول الله . فقال: «أتانى الملك، فقال يا محمد إن ربك يقول أما يرضيك أنه لا يصلى عليك أحد إلا صليت عليه عشراً، ولا يسلم عليك أحد إلا سلمت عليه عشراً».

وروى هذا الحديث النسائى والدارمى أيضاً بلفظ «جبريل» بدل «الملك»، وهذا الحديث يدل على عظمة شأن رسول الله ﷺ عند الله عز وجل مع فضل من صلى عليه من أمته أو سلم عليه .

وروى الإمام أحمد بن حنبل فى مسنده عن عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه أنه قال: خرج رسول الله ﷺ حتى دخل نخلاً فسجد فأطال السجود حتى خشيت أن يكون الله تعالى قد توفاه فجئت أنظر فرفع رسول الله ﷺ رأسه فقال: «مالك».فذكرت له ذلك : يعنى خشيته من إطالة السجود.

فقال: «إن جبريل قال لى: ألا أبشرك، إن الله عز وجل يقول لك: من صلى عليك صلاة صليت عليه، ومن سلم عليك سلمت عليه».

ومن هذا الحديث استنبط العلماء استحباب السجود لله عز وجل عند شعور فضله أو إحساس كرمه فى أى شأن من الشئون. فقد أوضح رسول الله ﷺ فيما أجاب به لعبد الرحمن بن عوف أن سجوده وإطالته إلى هذا الحد فى خلوة من ربه سبحانه كان شكراً له على هذا الفضل العظيم فى تعظيم شأنه وتشريف أمته.

عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن لله ملائكة سياحين فى الأرض يبلغونى عن أمتى السلام».

وفى سنن أبى داود والبيهقى عن أبى هريرة رضى الله عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من أحد يسلم علىَّ إلا رد الله علىَّ روحى حتى أرد عليه السلام»،

من هذين الحديثين نرى عناية الله سبحانه وتعالى بنبيه ورسوله محمد ﷺ كما نعلم أيضاً فضل الصلاة عليه، وتشريف من يسلم عليه من أمته بشرف رد السلام من عنده ﷺ.

و فى شعب الإيمان يروى البيهقى عن أبى هريرة رضى الله عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من صلى علىَّ عند قبرى سمعته ومن صلى علىَّ نائياً - أى بعيداً - أبلغته»

يرشدنا هذا الحديث أن كون رسول الله ﷺ فى قبره لا يمنعه عن سماع الصلاة لما لها من حياة لا يعلم حقيقتها إلا الله العلى الكبير، كما يرشدنا الحديث إلى أن المسافات البعيدة مهما كان بعدها لا تحول دون إبلاغ الصلاة والسلام إليه ﷺ وهذا فضل خاص من الله تعالى لنبيه ورسوله وأفضل خلقه محمد ﷺ.

روى الإمام الترمذى فى صحيحه عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أولى الناس بى يوم القيامة أكثرهم علىَّ صلاةً».

فكثرة الصلاة على رسول الله ﷺ سبب لتقريب صاحبها إلى رسول الله وأولويته باللحوق به والفوز بشفاعته يوم القيامة حينما يشفع للمؤمنين من الأمم كلها وحتى لا يبقى فى النار من قال: لا إله إلا الله .. ومات عليها.

أما سبب أولوية من يكثر الصلاة على النبى بذاته النبوية والفوز بشفاعته يوم القيامة فلا يخفى على المتأمل وهذا وعد الله لنبيه، ولقد روى الإمام الترمذى فى صحيحه أيضاً عن أبى هريرة رضى الله عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما جلس قوم مجلساً لم يذكروا الله تعالى فيه ولم يصلوا على نبيهم إلا كان عليهم ترة - أى ذنباً وخطيئة - فإن شاء عذبهم وإن شاء غفر لهم».

هذا الحديث يرشدنا إلى وجوب ذكر الله عز وجل والصلاة على النبى ﷺ فى كل مجلس من مجالس المؤمنين مرة واحدة على الأقل بدليل قوله ﷺ: «إلا كان عليهم تره» فعلى المؤمنين بالله ورسوله ألا يغفلوا فى المجالس عن ذكر الله والصلاة على نبيه، فإن الغفلة آفة القلوب وباعثة على ارتكاب الذنوب والابتعاد عن علام الغيوب [1].

● الصلاة على النبى أفضل العبادات

وصلاة الله على النبى ﷺ ثناء ورفع درجات، أما الصلاة من الملائكة فهى دعاء الله وتقرب من رسول الله واتصال به.

وقد أمرنا بعد ذلك أن نصلى على رسول الله ﷺ فنطلب من الله أن يزيد الصلاة عليه وهو دعاء الرب وذكر له واتصال برسوله، وكفى بصلاة الله على رسوله فضلاً عظيماً. يقول ابن كثير فى تفسيره: إن الله سبحانه وتعالى أخبر عباده بمنزلة عبده عنده فى الملأ الأعلى، ثم أمر الله الملائكة أن تصلى عليه، ثم أمر الله تعالى العالم السفلى بالصلاة والتسليم عليه ليجمع الثناء عليه من أهل العالمين العلوى والسفلى جميعاً بقول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا (٤١) وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (٤٢) هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [2].

---

(١) عن مقال للدكتور / زكريا أحمد محمد نور نشر بمجلة الحج السعودية ربيع الأول ١٤١٨هـ - أغسطس ١٩٩٧م بتصرف يسير.

(٢) سورة الأحزاب الآيات ٤١-٤٣.

ولقد قال النبى ﷺ : «إن الله وملائكته يصلون على ميامن الصفوف»[1].

وتلك سنة الله التى فطر الناس عليها، إن الله يتولى من أحبه بالصلاة عليه وملائكته. فما بالك برسول الله وقد أحبه الله .

ولقد أكرم الله رسوله وأحبه وأثنى عليه بالصلاة عليه، ولقد جعل الملائكة يصلون عليه ثم مَنَّ عليه بصفات خاصة كما مَنَّ على النبيين من قبله، ثم اختصه بصفات كمالية سامية وأطلق عليه ﷺ صفتين عظيمتين من صفاته وهما : رءوف رحيم. قال تعالى : ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾[2].

لقد كان أصحاب رسول الله ﷺ يصلون على رسول الله ﷺ وهم يعلمون أن من أفضل العبادة لله سبحانه وتعالى والقربى إليه طلب صلاته سبحانه على رسوله ﷺ بقولنا (اللهم صل على محمد) وغيرها من الصيغ الواردة عنه ﷺ .

وفى الكتاب العزيز حث على هذه الصلاة لما فيها من اتباع الله سبحانه وملائكته عليهم السلام إذ يقول تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾[3].

إن فى صلاتنا على رسول الله صلوات الله وسلامه عليه تخلقاً بأخلاق المولى عز وجل وتشبهاً بالملائكة، ثم هى طهارة لنا وتقرب إلى الله تعالى ورسوله عليه الصلاة والسلام[4].

• **محبة الرسول لأمته وقومه والناس أجمعين**

وفى إطار المحبة العاقلة نلاحظ أن مشاعر المحبة العامة التى كانت تتملك قلب خاتم المرسلين محمد صلوات الله وسلامه عليه، تجاه أمته وقومه والناس أجمعين، هى التى جعلته يتحرق ألماً، من أجل الذين رفضوا الاستجابة لدعوة الإسلام،

---

(١) رواه أبو داود وابن ماجة وابن حبان .

(٢) سورة التوبة الآية ١٢٨ .

(٣) سورة الأحزاب الآية ٥٦ .

(٤) بقية مقال الدكتور / زكريا أحمد محمد نور نفس المجلة ونفس العدد بتصرف يسير .

وهو يعلم أن إسلامهم هو سبيل سعادتهم، وأن عنادهم وإصرارهم على الكفر هو سبيل شقاوتهم الأبدية، وكان مثله صلوات الله عليه كمثل الأب الرحيم العاقل، إذ يرى ولده الذى يحبه، ويريد له الخير، يقذف نفسه فى نار حامية،وهو يظن أنها مرتع من مراتع اللذات.

لقد كانت هذه المشاعر الكريمة النابعة من أخلاقه العظيمة صلوات الله عليه، هى المحركة لكثير من عواطفه وتصرفاته، ولما زادت هذه المشاعر العظيمة فى نفسه عن الحدود التى ينبغى ألا تزيد عليها، أرشده الله إلى التخفيف منها، حتى لا تؤثر على حياة الرسول نفسه صلوات الله عليه، ولذلك قال له الله تعالى فى سورة فاطر: ﴿ فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾[1].

ففى هذه الآية يرشد الله رسوله إلى أن يخفف من مشاعر تحسره على الذين لم يستجيبوا لدعوة الإسلام من قومه، إبقاءً على نفسه، فالضال السالك سبيل الغواية بإرادته، وهو عالم غير جاهل، وقد وجهت له النصائح والبيانات والإرشادات الكافيات لإقناعه ونصحه، لا يستحق تحمل مشاعر الألم والحسرة من أجله، إنه لم يكن فيه خير لنفسه، حتى يستدر شفقة الآخرين عليه، ويستحق أن يتحملوا الآلام حسرة عليه.

وقال الله له: ﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾[2].

باخع نفسك: مهلك نفسك، وقاتل لها.

والمعنى: فلعلك يا محمد مهلك نفسك وقاتل لها من الأسف والحزن عليهم، إن لم يؤمنوا بما أنزلنا عليك من القرآن، وأنت تلاحقهم بنصحك وإرشادك، وتلح عليهم بدعوتك، متابعاً آثارهم،لتردهم إلى صراط الله المستقيم، فهون على نفسك، وخفف عنها مشاعر الحزن والأسف، فهم فى هذه الأرض وما فيها

---

(١) سورة فاطر الآية ٨.

(٢) سورة الكهف الآيتان ٦، ٧.

من زينة في دار ابتلاء، أي: في دار امتحان، وفي نتيجة الامتحان يظهر أيهم أحسن عملاً.

إذا تبصرنا حالة الرسول هذه فإننا نجدها نابعة من مشاعر المحبة المتدفقة، التي جعلت الرسول صلوات الله عليه شديد الحرص على هداية قومه والناس أجمعين، وجعلته يحزن حزناً عظيماً، من أجل الذين أصروا على سلوك سبل الشقاوة معاندين مكابرين. قال الله تعالى له في أوائل سورة الشعراء: ﴿ طسٓمٓ (١) تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (٢) لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٣) إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ﴾ [1].

ففي هذاالنص القرآني يبين الله لرسوله برفق، أن يخفف من حدة مشاعره النابعة من منابع حرصه على هداية قومه بدافع المحبة، لئلا يقتل نفسه أسفاً عليهم، ويبين له تبارك وتعالى أن الغاية امتحان إراداته، وأنه لو كانت الغاية إجبارهم على الإيمان لأنزل عليهم بمشيئته آية من السماء فأخضعتهم، وجعلتهم يؤمنون بسلطان القوة، لكن هذا غير مراد، إنما المراد أن يؤمن من يؤمن منهم بإرادته الحرة، التي لا قسر يسوقها، ولا إكراه يجبرها.

وقال الله تعالى له في أول سورة طه ﴿ طه (١) مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ (٢) إِلاَّ تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ (٣) تَنزِيلاً مِّمَّنْ خَلَقَ الأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَى ﴾ [2].

ففي قوله تعالى لرسوله: ﴿ مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ ﴾ توجيه ضمني له بأن لا يضني نفسه ويشقيها أسفاً وحزناً على الذين لم يستجيبوا لدعوة الحق، بدافع محبة الخير لهم، والشفقة عليهم من المصير الأليم الذي ينتظرهم إذا هم تمادوا في الكفر والعناد. ثم قال الله له: ﴿ إِلاَّ تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴾ أي: ليست وظيفتك يا محمد تحويلهم من الكفر إلى الإيمان، حتى تشقى نفسك في السعي وراءهم، والحسرة عليهم، وإنما وظيفتك تذكيرهم وموعظتهم وإنذارهم فقط [3].

---

(١) سورة الشعراء الآيات ١-٤.
(٢) سورة طه الآيات ١-٤.
(٣) الأخلاق الإسلامية وأسسها للشيخ عبد الرحمن الميداني ٢/٢٥٧ وما بعدها.

١ - خبيب بن عدى الأنصارى: إنه الصحابى الجليل خبيب بن عدى بن مالك ابن عامر بن مجدعة بن جحجبى بن عوف بن كلفة بن عوف بن عمرو بن عوف بن مالك بن الأوس الأنصارى الأوسى.

قدم على رسول الله ﷺ بعد أحد رهط من عضل والقارة وقالوا: يا رسول الله إن فينا إسلاماً، فابعث معنا نفراً من أصحابك يفقهوننا فى الدين ويقرؤوننا القرآن، ويعلموننا شرائع الإسلام فبعث رسول الله ﷺ معهم نفراً من أصحابه منهم الصحابى الجليل خبيب بن عدى.

وقد أسر خبيب بن عدى وبيع لعقبة بن الحارث بن عامر ليقتله بأبيه.

فما هى قصة هذا الصحابى المحب لله تعالى ولرسوله ﷺ ؟

خبيب رضى الله عنه هو أحد المعذبين فى الله الثابتين على الإيمان بالله ثبوت الجبال الراسيات، وممن حضره يوم قتله رضى الله عنه سعيد بن عامر الجمحى.

خرج إلى التنعيم فى ظاهرة مكة بدعوة من زعماء قريش ليشهد معهم مصرع خبيب بن عدى أحد صحابة محمد - ﷺ - بعد أن ظفر به الأعداء المشركون غدراً.

وسيق خبيب مكبلاً بقيوده إلى خشبة لصلبه ثابتاً هادئاً ثم قال لهم: إن شئتم أن تتركونى أصلى ركعتين قبل مصرعى فافعلوا.

ولما سمحوا له بصلاة ركعتين استقبل القبلة، وصلى ركعتين ياحسنهما ويالتمامهما، وبعد أن انتهى من صلاة الركعتين قال: لولا أن تظنوا أنى أطلت الصلاة جزعاً من الموت لاستكثرت من الصلاة.

رأى سعيد بن عامر المشركين وهم يمثلون بخبيب حياً ويقطعون منه القطعة

تلو القطعة ويقولون له أتحب أن يكن محمد مكانك وأنت ناج، فيقول والدماء تنزف منه والروح تتسلل من بدنه: والله ما أحب أن أكون آمناً وادعاً فى أهلى وولدى وأن محمداً يوخز بشوكة.

ثم أبصر سعيد بن عامر خبيباً وهو يرفع بصره إلى السماء من فوق خشبة الصلب وهو يقول: اللهم أحصهم عدداً واقتلهم بدداً ولا تبق منهم أحداً.

ثم خرجت روحه الطيبة وبه الشىء الكثير من ضربات السيوف وطعنات الرماح.

ثم إن سعيداً أخذ درساً، فعلم أن الحياة الحقة عقيدة وجهاد فى سبيل الله حتى الموت، وعلم أن الإيمان الثابت لا يزلزله شىء البتة.

وعلم أن الرجل الذى تبلغ محبته والذب عنه إلى هذا الحد إنما هو رسول مؤيد من السماء، عند ذلك شرح الله صدر سعيد بن عامر للإسلام، فقام فى مجمع من الناس وأعلن براءته مما عليه المشركون من عبادة الأصنام.

وهاجر سعيد بن عامر إلى المدينة، ولزم رسول الله ﷺ وشهد معه خيبر، وما بعدها من الغزوات.

وكان سعيد بن عامر تصيبه غشية فى بعض الأوقات فيغيب عمن فى المجلس، فسأله عمر عنها فقال إنى حضرت مصرع خبيب بن عدى، وأنا مشرك ورأيت قريشاً تقطع جسده وهى تقول أتحب أن يكون مكانك محمد،

فقال: والله ما أحب أن أكون آمناً وأهلى وولدى وأن محمداً تشوكه شوكة.

فإذا ذكرت ذلك المشهد وأنى لم أنصره ظننت أن الله لا يغفر لى فتصيبنى تلك الغشية [1].

٢ - ومن قمة المحبة لرسول الله ﷺ ما روى عن أنس بن مالك - رضى الله عنه

(١) موارد الظمآن لدروس الزمان- عبد العزيز المحمد السلمان ص ٥٤٩-٥٥٠ .

- قال : لما كان يوم أحد حاص أهل المدينة حَيْصة، قالوا : قُتل محمد، حتى كثرت الصوارخ فى ناحية المدينة، فخرجت امرأة من الأنصار متحزمة، فاستُقبِلَت بابنها وأبيها وزوجها وأخيها - أى أخبرت بمقتل أبيها، وابنها،وزوجها، وأخيها - ، لا أدى أيهم استقبلت به أولاً، فلما مرت على أحدهم قالت : من هذا؟ قالوا : أبوك، أخوك، زوجك، ابنك ! تقول : ما فعل رسول الله ﷺ ؟! يقولون : أمامك، حتى دفعت إلى رسول الله ﷺ فأخذت بناحية ثوبه،ثم قالت : بأبى أنت وأمى يا رسول الله ، لا أبالى إذ سلمت من عطب[1] . وفى رواية قلت : كل مصيبة بعدك جلل .

٣ - ومن الذين يحبون الله ورسوله الصحابى الجليل سعد بن الربيع، ففى غزوة أحد بعد أن وضعت الحرب أوزارها، وفرغ الناس لقتلاهم، قال رسول الله ﷺ :«من رجل ينظر ما فعل سعد بن الربيع؟

أفى الأحياء هو أم فى الأموات؟».

فقال رجل من الأنصار : أنا أنظر يا رسول الله ما فعل، فنظر فوجده جريحاً فى القتلى ،وبه رمق.

قال : فقلت له : إن رسول الله ﷺ أمرنى أن أنظر أفى الأحياء أنت أم فى الأموات.

فقال : أنا فى الأموات، أبلغ رسول الله عنى السلام وقل له : إن سعد بن الربيع يقول لك : جزاك الله عنا خير ما جزى نبيًا عن أمته.

وأبلغ قومك عنى السلام، وقل لهم : إن سعد بن الربيع يقول لكم : لاعذر لكم عند الله أن يُخْلَص إلى نبيكم ومنكم عين تطرف.

قال : ثم لم أبرح حتى مات.

قال : فجئت رسول الله فأخبرته خبره.

فقال رسول الله ﷺ : «رحمه الله ، نصح لله وللرسول حيًا وميتاً»[2]

---

(١) أورده الطبرانى فى الأوسط.

(٢) دلائل النبوة للبيهقى ٣ / ٢٨٥ ، وسيرة ابن هشام ٣ / ٢٧ ،والبداية والنهاية لابن كثير ٤ / ٣٩ .

• ماذا عن المحبين لو وقعوا فى معصية؟

إن المحبين لله تعالى ولرسوله ﷺ يحاولون قدر الطاقة الابتعاد عن الوقوع فى الأخطاء وارتكاب المعاصى، فإن أخطأوا وارتكبوا معصية فإنهم سرعان ما يندمون على فعلهم، ويتوبون إلى الله تعالى مستغفرين لذنوبهم، عازمين على عدم العودة إلى ذنب أبداً. قال الله عز وجل عن هؤلاء وأمثالهم فى كتابه العزيز: ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [1].

همهم الوحيد بعد صدور المعصية منهم، أن يغفر الله لهم، ولو اقتضى هذا بذل أرواحهم. وهذه حقيقة يعرفها كل من درس حياة المؤمنين وسنضرب لذلك نموذجا:

• ماعز والغامدية

نكتفى هنا بنقل رواية رواها الإمام مسلم فى صحيحه عن بريدة رضى الله عنه: أن ما عز بن مالك الأسلمى أتى رسول الله ﷺ، فقال: يارسول الله إنى قد ظلمت نفسى وزنيت، وإنى أريد أن تطهرنى، فرده.

فلما كان من الغد أتاه، فقال: يا رسول الله، إنى قد زنيت، فرده ثانية.

فأرسل رسول الله ﷺ إلى قومه، فقال: أتعلمون بعقله بأسا تذكرون منه شيئاً؟

فقالوا: ما نعلمه إلا وفى العقل من صالحينا، فيما نرى.

فأتاه ثالثة.

فأرسل إليهم أيضاً فسأل عنه فأخبروه: أنه لا بأس به، ولا بعقله.

فلما كان الرابعة حفر له حفرة ثم أمر به فرجم.

وفى رواية أخرى: فأمر به فرجم. فكان الناس فى فرقتين:

قائل يقول: لقد هلك. لقد أحاطت به خطيئته.

وقائل يقول: أتوبة أفضل من توبة ماعز، إنه جاء إلى النبى فوضع يده فى يده ثم قال: اقتلنى بالحجارة.

---

(١) سورة آل عمران الآية ١٣٥.

قال : فلبثوا بذلك يومين أو ثلاثة . ثم جاء رسول الله ﷺ وهم جلوس ، فسلم ثم جلس . فقال : «استغفروا لماعز بن مالك» .

قال : فقالوا : غفر الله لما عز بن مالك .

قال : فقال رسول الله ﷺ : « لقد تاب توبة لو قسمت بين أمة لوسعتهم » [1] .

قال : فجاءت الغامدية ، فقالت : يا رسول الله ، إنى قد زنيت فطهرنى ، وإنه ردها . فلما كان الغد قالت : يا رسول الله ،لم تردني؟ لعلك أن تردني كما رددت ماعزاً ، فوالله إني لحبلي .

قال : «إما لا فاذهبي [2] حتى تلدى» .

فلما ولدت أتته بالصبى في خرقة ، قالت : هذا قد ولدته .

قال : فاذهبي فأرضعيه حتى تفطميه» .

فلما فطمته أتته بالصبى ، في يده كسرة خبز . فقالت : هذا يا نبى الله قد فطمته ، وقد أكل الطعام .

فدفع الصبى إلى رجل من المسلمين ، ثم أمر بها فحفر إلى صدرها ، وأمر الناس فرجموها . فيقبل خالد بن الوليد بحجر فرمى رأسها ، فتنضح [3] الدم على وجه خالد . فسبها . فسمع نبى الله سبه إياها فقال :«مهلاً يا خالد ، فوالذى نفسى بيده لقد تابت توبة لو تابها صاحب مكس [4] لغفر له [5] » .

وفى رواية أخرى : ثم أمر بها فرجمت ، ثم صلى عليها ، فقال له عمر : تصلى عليها يا نبى الله وقد زنت ؟

فقال :«لقد تابت توبة لو قسمت بين سبعين من أهل المدينة لوسعتهم ، وهل وجدت توبة أفضل من أن جادت بنفسها لله تعالى » [6] .

---

(١) صحيح مسلم مجلد ٣ / ١٣٢٣-١٣٢٤ .

(٢) إما لافاذهبى : معناه : إذا أبيت أن تسترى على نفسك وتتوبى وترجعى عن قولك فاذهبى حتى تلدى ، فترجمين بعد ذلك .

(٣) فتنضح : ترشش وانصب

(٤) صاحب مكس : معنى المكس «الجباية» .

(٥) صحيح مسلم مجلد ٣ / ١٣٢٣-١٣٢٤ .

(٦) صحيح مسلم وانظر : د .فضل إلهى- التدابير الواقية من الزنا فى الفقه الإسلامى ص ٢٢٧-٢٢٩

الإحسان إلى النفس
بالتوبة إلى الله تعالى

من الإحسان إلى النفس التوبة والرجوع إلى الله تعالى فالذنوب حجاب عن الله، والانصراف عن كل ما يبعد عن الله واجب ،وإنما يتم ذلك بالعلم والندم والعزم، فإنه متى لم يعلم العبد أن الذنوب أسباب البعد عن الله لم يندم على الذنوب ولم يتوجع بسبب سلوكه طريق البعد، وإذا لم يتوجع لم يرجع[1].

وأصل تاب إلى الله : عاد إلى الله ورجع عن المعصية وأناب ،

قال تعالى: ﴿ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٣١) ﴾[2] .

وتاب الله عليه : أى وفقه للتوبة ، وقبلها منه، وعاد عليه بالمغفرة ، قال تعالى: ﴿لَقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ ﴾[3] ،

وقال تعالى: ﴿غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ ﴾[4].

والتوبة : ترك الذنب على أبلغ الوجوه ، وهو أبلغ وجوه الاعتذار، فإن الاعتذار على ثلاثة أوجه:

إما أن يقول المعتذر : لم أفعل.

أو يقول : فعلت لأجل كذا.

أو يقول : فعلت وأسأت ، وقد أقلعت.

وهذا الأخير هو : التوبة .

والتائب : يقال لباذل التوبة، ويقال - أيضاً - لقابل التوبة، فالعبد تائب إلى الله، قال تعالى: ﴿ التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ ﴾[5]. والله تائب على عبده، قال تعالى: ﴿ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ﴾[6].

---

(١) موارد الظمآن لدروس الزمان ١ / ٨ .

(٢) سورة النور الآية ٣١ .

(٣) سورة التوبة الآية ١١٧ .

(٤) سورة غافر الآية ٣ .

(٥) سورة التوبة الآية ١١٢ .

(٦) سورة التوبة الآية ١١٨ .

• الله يحب التوابين

من الذين يحبهم الله تبارك وتعالى «التوابون» : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ ﴾[1].

والتوبة من أفضل مقامات السالكين، لأنها أول المنازل، وأوسطها، وآخرها، فلا يفارقها العبد أبداً، ولا يزال فيها إلى الممات، وإن ارتحل السالك منها إلى منزل آخر ارتحل به ونزل به، فهي بداية العبد ونهايته، وحاجته إليها في النهاية ضرورية، كما أن حاجته إليها في البداية كذلك.

أمر الله بها فقال عز من قائل : ﴿ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٣١) ﴾[2] ففي هذه الآية خطاب من الله تعالى لأهل الإيمان وخيار خلقه أن يتوبوا إليه بعد إيمانهم وصبرهم وهجرتهم وجهادهم، مبيناً سبحانه لهم بأنهم إذا تابوا كانوا على رجاء الفلاح، فلا يرجو الفلاح إلا التائبون.

وتاب إلى الله توبًا وتوبة ومتابا وتابةً وتتوبةً : رجع عن المعصية.

وهو تائب، وتواب، وتاب الله عليه : وفّقه للتوبة، أو رجع به من التشديد إلى التخفيف، أو رجع عليه بفضله ،وقبوله، وهو تواب على عباده.

واستتابه : سأله أن يتوب[3].

روى الترمذي عن رسول الله ﷺ : «كل ابن آدم خطاء وخير الخطائين التوابون».

وروى مسلم عن رسول الله ﷺ : «والذي نفسي بيده لو لم تذنبوا لذهب الله بكم ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون فيغفر لهم» وذلك لأن الله لا يغفر للمشرك فإذا كان المسلمون لا يخطئون ولا يستغفرون فكيف يظهر اسم الله التواب الغفور.

وروى الترمذي عن رسول الله ﷺ : « قال الله تعالى في الحديث القدسي : يا ابن آدم : إنك ما دعوتي ورجوتني غفرت لك على ما كان فيك ولا أبالي.

---

(١) سورة البقرة الآية ٢٢٢ . (٢) سورة النور الآية ٣١.

(٣) بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز للفيروزآبادي ٢ / ٣٠٤ بتصرف.

يا ابن آدم لـو بلغت ذنـوبك عـنان السـمـاء ثم استـغفـرتني غفرت لك ما كان فيك ولا أبالي.

يا ابن آدم إنك لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئًا لأتيتك بقرابها مغفرة».

من هذه النصـوص نعلم أن الإنسـان لابد أن يخطئ ولامعصـوم إلا الأنبـيـاء صلوات الله وسـلامـه عليـهم، وإنما يطالبنا الله بالتوبة على المعصـيـة مـهـمـا تكـررت المعصـية، فقد روى الشيخان عن رسول الله ﷺ : «أذنب عبـد ذنبـا فقال : اللهم اغفر لي ذنبي.

فقال تعالى: أذنب عبدي ذنبًا فعلم أن له ربًا يغفر الذنب ويأخذ بالذنب.

ثم عاد فأذنب فقال رب اغفر لي ذنبي.

فقال تعالى : أذنب عبدي ذنبًا فعلم أن له ربا يغفر الذنب ويأخذ بالذنب، اعمل ما شئت فقد غفرت لك».

وقال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٣٥) أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴾ [١] .

ومهما عظم الجرم فإن في التوبة منه سبيلاً حتى ولو كان شركًا أو كفرًا[٢].

وإذا أحب الله عبده وفقه للخير، قال عبيد الله بن الحسن العنبري : كانت عندي جارية أعجمية وضيئة، وكنت بها معجبا، وكانت ذات ليلة نائمة إلى جنبي، فانتبهت فلم أجدها، فالتمستها فلم أجدها.

وقلت سر، فلما وجدتها، وجدتها ساجدة وهي تقول: بحبك لي اغفر لي.

(١) سورة آل عمران الآيتان ١٣٥ - ١٣٦.

(٢) جند الله ثقافة وأخلاقًا سعيد حوى ص ٢٢٦.

قلت لها : لا تقولى هكذا، قولى : بحبى لك اغفر لى.
فقالت : يا بطال حبه لى أخرجنى من الشرك إلى الإسلام.
وبحبه لى أيقظ عينى، وأنام عينك.
قلت : اذهبى فأنت حرة لوجه الله .
قالت : يا مولاى أسأت إلى، كان لى أجران صار لى أجر واحد» [1].

ومادام الأمر كذلك فلابد من التوبة إلى الله تبارك وتعالى، والتوبة عادة ما تسبقها محاسبة للنفس.

لذا وجب توضيح هذا الأمر المهم :

• محاسبة النفس

إذا علم المكلف أنه مناقش فى الحساب عن مثاقيل الذر فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة وأنه أحوج ما يكون إلى الحسنات وغفران السيئات تحقق أنه لا ينجيه من هذه الأخطار إلا اعتماده على الله ومعونته على محاسبة نفسه ومراقبتها ومطالبتها فى الأنفاس والحركات ومحاسبتها فى الخطرات واللحظات فمن حاسب نفسه قبل أن يُحَاسب خف فى القيامة حسابه، وحضر عند السؤال جوابه، وحسن منقلبه ومآبه.

قال ابن القيم رحمه الله : هلاك القلب من إهمال محاسبتها ومن موافقتها واتباع هواها، وفى الحديث قال رسول الله ﷺ : «الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله[2]».

وذكر الإمام أحمد عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه قال: حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزنوها قبل أن توزنوا فإنه أهون عليكم فى الحساب غداً أن تحاسبوا أنفسكم اليوم، وتزينوا للعرض الأكبر﴿ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾ ﴾[3] على الله.

---

(١) تاريخ بغداد ١٠ / ٣٠٩ .
(٢) أخرجه الترمذى فى سننه أبواب صفة القيامة ، وابن ماجة فى سننه كتاب الزهد .
(٣) سورة الحاقة الآية ١٨ .

وذكر أيضًا عن الحسن لا تلقى المؤمن إلا يحاسب نفسه ماذا أردت بكلمتي ماذا أردت بشربتي؟ والفاجر يمضي قدمًا لايحاسب نفسه.

وقال قتادة في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴿٢٨﴾﴾[1]، أضاع نفسه وغبن، مع ذلك تراه حافظًا لماله مضيعًا لدينه.

وقال الحسن: إن العبد لا يزال بخير ما كان له واعظ من نفسه وكانت المحاسبة من همته.

وقال ميمون بن مهران: لا يكون العبد تقيًا حتى يكون لنفسه أشد محاسبة من الشريك، ولهذا قيل النفس كالشريك الخوان إن لم تحاسبه ذهب بمالك

وقال أيضًا: إن التقي أشد محاسبة لنفسه من سلطان قاض ومن شريك شحيح.

وذكر الإمام أحمد عن وهب قال: مكتوب في حكمة داود. حق على العاقل أن لا يغفل عن أربع ساعات:

ساعة يناجي فيها ربه،

وساعة يحساب فيها نفسه،

وساعة يخلو فيها مع إخوانه الذين يخبرونه بعيوبه ويصدونه عن نفسه،

وساعة يخلو فيها بين نفسه وبين لذتها فيما يحل ويجمل،

فإن في هذه الساعة عونًا على تلك الساعات وإجمامًا للقلوب.

وقال الحسن: المؤمن قوام على نفسه لله، وإنما يخف الحساب يوم القيامة على قوم حاسبوا أنفسهم في الدنيا، وإنما يشق الحساب يوم القيامة على قوم أخذوا هذا الأمر من غير محاسبة[2].

ومحاسبة النفس نوعان:

أما الأول: فيقف عند أول همته وإرادته ولا يبادر بالعمل حتى يتبين له

---

(١) سورة الكهف الآية ٢٨.

(٢) موارد الظمآن لدروس الزمان، عبد العزيز المحمد السلمان ١ / ١٢١، ١٢٢.

رجحانه على تركه، قال الحسن : رحم الله عبداً وقف عند همه فإن كان لله مضى وإن كان لغيره تأخر.

النوع الثانى : محاسبة بعد العمل وهو ثلاثة أنواع :

أحدها محاسبتها على طاعة قصرت فيها من حق الله فلم تُوقعها على الوجه الذى ينبغى.

وحق الله فى الطاعات بمراعات ستة أمور وهى : الإخلاص فى العمل والنصيحة لله فيه، ومتابعة الرسول ﷺ فيه، وشهوده مشهد الإحسان فيه، وشهود منة الله عليه فيه، وشهود تقصيره فيه، بعد ذلك كله يحاسب نفسه هل وفَّى هذه المقامات حقها وهل أتى بها فى هذه الطاعات؟

الثانى أن يحاسب نفسه على عمل كان تَركُه خيراً له من فعله.

الثالث أن يحاسب نفسه على أمر مباح أو معتاد لِمَ فَعَله وهل أراد به الله والدار الآخرة فيكون رابحًا فيه أو أراد به الدنيا وعاجلتها فيخسر ذلك الربح ويفوته الظفر به؟ .

قال : وجماع ذلك أن يحاسب نفسه أولاً على الفرائض فإذا تذكر فيها نقصًا تداركه إما بقضاء أو إصلاح، ثم يحاسبها على المناهى فإن عرف أنه ارتكب منها شيئًا تداركه بالتوبة والاستغفار والحسنات الماحية، ثم يحاسب نفسه على الغفلة فإن كان قد غفل عما خلق له تداركه بالذكر والإقبال على الله.

ثم يحاسبها بما تكلم به لسانه أو مشت به رجلاه أو بطشته يداه أو سمعته أذناه ماذا أرادت بهذا، ولم فعلت وعلى أى وجه فعلته؟ ويعلم أنه لابد أن ينشر لكل حركة وكلمة منه ديوان لم فعلته وكيف فعلته؟

فالأول سؤال عن الإخلاص.

والثانى سؤال عن المتابعة : ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾[1]

وقال : ﴿ فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ ﴿٧﴾ ﴾[2]

---

(١) سورة الحجر الآيتان ٩٢، ٩٣.

(٢) سورة الأعراف الآيتان ٦، ٧.

وقال: ﴿لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ﴾[1] .

فإذا سئل الصادقون وحوسبوا والآخرون ماذا كنتم تعبدون وماذا أجبتم المرسلين، فيسألون عن المعبود وعن العبادة،

وقال تعالى: ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ﴿٨﴾﴾[2]. قال محمد بن جرير: يقول الله تعالى: ليسألنكم الله عز وجل عن النعيم الذى كنتم فيه فى الدنيا ماذا عملتم فيه ومن أين وصلتم إليه وفيم أصبتموه وماذا عملتم به.

قال قتاده: إن الله سائل كل عبد عما استودعه من نعمته وحقه،

والنعيم المسؤول عنه نوعان.

نوع أخذ من حله وصرف فى حقه فيسأل عن شكره.

ونوع أخذ بغير حله وصرف فى غير حقه فيسأل عن مستخرجه وعن مصرفه

وقد دل على وجوب المحاسبة قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ﴿١٨﴾﴾[3].

- **فى محاسبة النفس عدة مصالح**

أولاً: الاطلاع على عيوبها ومن لم يطلع على عيب نفسه لم يمكنه إزالته.

ومن ذلك أنه لولا أن الله وفق العبد لمحاسبتها لشقى فى القيامة.

ومن ذلك أن المحاسبة للنفس من الكياسة .

ومن ذلك استراحة المحاسبة من التعب الطويل يوم القيامة.

ومن ذلك أنه لا يتحسر المحاسب فى القيامة كالذين لم يحاسبوا أنفسهم.

ومن ذلك تمرين النفس على العبادة.

ومن ذلك المحاسبة تضعف الأعمال السيئة وتوقفها.

ومن ذلك أنها تحض الإنسان على الأعمال الصالحة.

---

(١) سورة الأحزاب الآية ٨.
(٢) سورة التكاثر الآية ٨
(٣) سورة الحشر الآية ١٨.

ومن ذلك أنها تخلص النفس من العجب ورؤية العمل.

ومن ذلك أن المحاسبة تفتح للإنسان باب الذل والانكسار والخضوع لله.

ومن ذلك أنها تدعو الإنسان إلى أن ينظر فى حق الله عليه.

ومن ذلك أنها توجب للإنسان أن يمقت نفسه ويعلم أن النجاة لا تحصل إلا بعفو الله ورحمته.

وإذا تأملت حال أكثر الناس وجدتهم بضد ذلك ينظرون فى حقهم على الله ولا ينظرون فى حق الله عليهم، ومن هنا انقطعوا عن الله وحجبت قلوبهم عن معرفته ومحبته والشوق إلى لقائه والتنعيم بذكره، وهذا غاية جهل الإنسان بربه وبنفسه ،فمحاسبة النفس هى نظر العبد فى حق الله عليه أولاً ثم نظره هل قام به كما ينبغى ثانياً.

وينبغى للإنسان أنه إذا حاسب نفسه فرآها قد قارفت معصية أن يتوب توبة نصوحًا ويتبع السيئة بالحسنات التى تمحوها فقد ورد عن النبى ﷺ أنه قال: «وأتبع السيئة الحسنة تمحها»[1]

وإن توانى عن بعض الفضائل أو فاتته نسيانًا فينبغى أن يستدرك جبر ما نقص بالنوافل فقد ورد عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه حين فاتته صلاة العصر جماعة أنه تصدق بأرض كانت له قيمتها مائتا ألف درهم.

وروى عنه أنه شغله أمر عن المغرب حتى طلع نجمان فلما صلاها أعتق رقبتين وفاتت ابن أبى ربيعة ركعتا الفجر فأعتق رقبة، وورد أن ابن عمر كان إذا فاتته صلاة فى جماعة أحيا تلك الليلة، وكان بعضهم يجعل على نفسه صوم سنة أو الحج ماشيًا أو التصدق بالشيء الكثير كل ذلك مؤاخذة لها بما فيه نجاتها[2].

---

(١) جزء من حديث رواه الترمذى فى سننه أبواب البر والصلة.

(٢) موارد الظمآن لدروس الزمان ، عبد العزيز المحمد السلمان ١ / ١٢٧، ١٣٠.

يا غافلاً عن صروف الدهر في سِنَةٍ	والدهر يوقظ بالآيات والعبـــر
كم ذا تنام وعينُ الدهر ســاهرة	له حــوادث في الغُدوات والبُكر
لا تأمن الدهر واحــذر من تقلبــه	فشيمة الدهر شوب الصفو بالكدر
وارغب بنفسك عما سوف تدركه	فعلَ اللبيب أخي التحقيق والنظر
مــاذا يغـــرك من دار الفناء ومن	عمـر يمر كمثلِ اللمح بالبـصر
فامهد لنفسك فالساعات فانية	والعمـر مُنْتَقصٌ والموت في الأثر

• **التوبة ... التوبة**

والتواب : العبد الكثير التوبة، قال تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ [(١)].

وقد يقال ذلك لله تعالى لكثرة قبوله التوبة، قال تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴾ [(٢)].

التوبة : الرجوع عن المعصية إلى الطاعة وهي واجبة من كل ذنب، فإن كانت المعصية بين العبد وبين ربه تعالى لاتتعلق بحق آدمي، فلها ثلاثة شروط :

الأول : الإقلاع عن المعصية التي هومتلبس بها، وعلامته مفارقة الذنب فوراً.

الثاني: الندم على فعلها، وعلامته طول الحزن على ما فات، فقد ورد عن ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : «الندم توبة» [(٣)].

الثالث: العزم على أن لا يعود إلى معصية أبداً، وعلامته التدارك لما فات وإصلاح ما يأتي، فإن كان الماضي تفريطا في عبادة قضاها، أو مظلمة أداها، أو خطيئة لا توجب غرامة حزن إذ تعاطاها. فإن فقد أحد الشروط الثلاثة لم تصح توبته.

وإن كانت المعصية تتعلق بآدمي، فشروطها أربعة، الثلاثة شروط المذكورة،والرابع: أن تبرأ من حق صاحبها.

---

(١) سورة البقرة الآية ٢٢٢.   (٢) سورة الحجرات الآية ١٢.

* انظر الموسوعة القرآنية المتخصصة - المجلس الأعلى للشئون الإسلامية موضوع مفردات قرآنية د. عبد الحي الفرماوي ص ٧٣٧، ٧٣٨.

(٣) أخرجه ابن ماجة في سننه، وأحمد في مسنده.

فإن كانت مالاً أو نحوه رده إليه إن كان موجوداً.

أو رد بدله عند تلفه من قيمة أو مثل.

وإن كانت حد قذف ونحوه مكنه منه أو طلب عفوه.

وإن كانت غيبة استحله منها إن كان عاقلاً حليمًا، يغلب على الظن أنه إذا جاءه أخوه المسلم نادمًا تائبًا عفا عنه وسامحه، وإلا فليستغفر له. لما ورد عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «إن من كفارة الغيبة أن تستغفر لمن اغتبته تقول: اللهم اغفر لنا وله»[1].

وروى البخارى فى صحيحه عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال: «من كانت عنده مظلمة لأخيه من عرض أو مال فليتحلله من اليوم قبل أن لايكون درهم ولا دينار».

إن كان له عمل صالح أخذ بقدر مظلمته.

وإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فحمل عليه».

وقال ابن القيم رحمه الله: والنصح فى التوبة يتضمن ثلاثة أشياء:

الأول: تعميم جميع الذنوب واستغراقها بها بحيث لا تدع ذنباً إلا تناولته.

الثانى: إجماع العزم والصدق بكليته عليها بحيث لا يبقى تردد ولا تلوم ولا انتظار بل يجمع كل إرادته وعزيمته مبادراً بها.

الثالث: تخليصها من الشوائب والعلل القادحة فى إخلاصها ووقوعها لمحض الخوف من خشية الله، والرغبة فيما لديه، والرهبة مما عنده، لا كمن يتوب لحفظ جاهه وحرمته ومنصبه ورياسته، أو لحفظ حاله، أو لحفظ قوته وماله، أو استدعاء حمد الناس أو لهرب من ذمهم، أو لئلا يتسلط عليه السفهاء، أو لقضاء نهمته من الدنيا، أو لإفلاسه وعجزه ونحو ذلك من العلل التى تقدح فى صحتها وخلوصها لله عز وجل أ.هـ.

(١) المطالب العالية للحافظ ابن حجر.

وقد أمر الله سبحانه وتعالى بالتوبة، وبين ما للتائبين من الكرامة والأجر، فقال: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ (١).

وقال تعالى: ﴿ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (٢).

وأخبر سبحانه أنه غفار لذنوب التائبين، فقال عز شأنه: ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٣٥) أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴾ (٣).

وأخبر سبحانه أنه يحب التوابين، فقال تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ ﴾ (٤).

وقال النبي ﷺ: «يا أيها الناس توبوا إلى الله واستغفروه فإني أتوب في اليوم مائة مرة»(٥).

وقال: «والله إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة»(٦)

وقال ﷺ: «لله أشد فرحا بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم كان على راحلته بأرض فلاة فانفلتت منه وعليها طعامه وشرابه فأيس منها، فأتى شجرة فاضطجع في ظلها وقد أيس من راحلته فبينما هو كذلك إذ هو بها قائمة عنده فأخذ بخطامها، ثم قال من شدة الفرح: اللهم أنت عبدي وأنا ربك، أخطأ من شدة الفرح»(٧).

وقال ﷺ: «إن الله تعالى يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها»(٨).

والأحاديث في هذا كثيرة، والإجماع منعقد على وجوب التوبة لأمر الله

---

(١) سورة التحريم الآية ٨.
(٢) سورة النور الآية ٣١.
(٣) سورة آل عمران الآيتان ١٣٥ - ١٣٦.
(٤) سورة البقرة الآية ٢٢٢.
(٥) رواه مسلم
(٦) رواه البخاري.
(٧) الحديث رواه مسلم.
(٨) رواه مسلم.

ورسوله بها، ولأن الذنوب مهلكات مبعدات عن الله فيجب الهرب منها على الفور، وليحذر الإنسان كل الحذر من الذنوب الكبائر والصغائر. ووجوب التوبة من الكبائر أهم وآكد، والإصرار على الصغيرة أيضًا كبيرة، فلا صغيرة مع الإصرار ولا كبيرة مع التوبة والاستغفار. وتواتر الصغائر عظيم التأثير فى تسويد القلب وهو كتواتر قطرات الماء على الحجر، فإنه يحدث فيه حفرة لا محالة مع لين الماء وصلابة الحجر.

فعلى العاقل أن يسترصد قلبه باستمرار، ويراقب حركاته ويسجل تصرفاته، ولا يتساهل ولا يقول إنها من التوافه الصغار[1]، وصدق رسول الله ﷺ حيث يقول: «إياكم ومحقرات الذنوب فإنهن يجتمعن على الرجل حتى يهلكنه»[2].

قال الشاعر :

لا تحقرن صغيرا فى مخاصمة ... إن البعوضة تدمى مقلة الأسد

وقال آخر :

ولا تحتقر كيد الضعيف فربما ... تموت الأفاعى من سموم العقارب

وقد هد قديمًا عرش بلقيس هدهدٌ ... وخرب حفرُ الفار سدَّ مأرب

● **التسويف فى التوبة**

أعلم أن التوبة إذا صحت بأن اجتمعت شروطها وانتفت موانعها قبلت بلا شك إذا وقعت قبل نزول الموت، لو كانت عن أى ذنب كان وقبل طلوع الشمس من مغربها كما قال تعالى : ﴿ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا (١٥٨) ﴾[3].

وأخرج الإمام أحمد والترمذى عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله تعالى يقبل توبة العبد مالم يغرغر أى ما لم تبلغ روحه حلقومه فيكون بمنزلة

---

(١) موارد الظمآن لدروس الزمان عبد العزيز المحمد السلمان ١ / ١٠ - ١٢ .

(٢) أخرجه أحمد فى مسنده.

(٣) سورة الأنعام الآية ١٥٨ .

الشيء الذى يتغرغر به المريض، والغرغرة أن يجعل المشروب فى الفم ويردد إلى أصل الحلق ولا يبلغ، فهذه الحالة حالة حضور الموت وبعد حضور الموت لا يقبل من العاصين توبة ولا من الكافرين رجوع كما قال تعالى فى فرعون : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ ﴿٩٠﴾ ﴾[1] .

ومن المعوقات الضارة التسويف بالتوبة فمن أين يعلم الإنسان، أنه يبقى إلى أن يتوب فتارك المبادرة بالتوبة بين خطرين عظيمين.

أحدهما : أن تتراكم الظلمة على قلبه من المعاصى حتى تصير رَيْنًا وطبعًا.

ثانيهما : أن يعاجله المرض فلا يجد مهلة للاشتغال بمحو ما وقع من الظلمة فى القلب فيأتى ربه بقلب غير سليم ولا ينجو إلا من أتى الله بقلب سليم.

أنا العبد الذى كسب الذنوبا ... وصدته الأمانى أن يتوبا

أنا العبد الذى أضحى حزينا ... على زلاته قلقاً كئيبا

أنا العبد الذى سُطِّرت عليه ... صحائف لم يخف فيها الرقيبا

أنا العبد المسيء عصيت سراً ... فما لى الآن لا أبدى النحيبا

أنا العبد المفرط ضاع عمرى ... فلم أرع الشبيبة والمشيبا

أنا العبد الغريق بلج بحر ... أصيح لربما ألقى مجيبا

أنا العبد السقيم من الخطايا ... وقد أقبلت ألتمس الطبيبا

أنا العبد المخلف عن أناس ... حووا من كل معروف نصيبا

أنا العبد الشريد ظلمت نفسى ... وقد وافيت بابكم منيبا

أنا العبد الفقير مددت كفى ... إليكم فادفعوا عنى الخطوبا

أنا الغدار كم عاهدت عهداً ... وكنت على الوفاء به كذوبا

أنا المقطوع فارحمنى وصلنى ... ويسر منك لى فرجاً قريبا

أنا المضطر أرجو منك عفواً ... ومن يرجو رضاك فلن يخيبا

فيا أسفى على عمر تقضى ... ولم أكسب به إلا الذنوبا

---

(١) سورة يونس الآية ٩٠ .

وأحـــذر أن يعـــاجلني ممات ... يحير هول مصرعه اللبيبا

ويا حزناه من حشري ونشري ... بيوم يجعل الولدان شيبا

تفطرت السماء به ومارت ... وأصبحت الجبال به كثيبا

إذا ما قمت حيرانا ظميئاً ... حسير الطرف عريانا سليبا

ويا خجلاه من قبح اكتسابي ... إذا ما أبدت الصحف العيوبا

وذلة موقف وحساب عدل ... أكون به على نفسي حسيبا

ويا حذراه من نار تلظى ... إذا زفرت وأقلقت القلوبا

تكاد إذا بدت تنشق غيظا ... على من كان ظلاماً مريبا

فيا من مد في كسب الخطايا ... خطاه أما يأني لك أن تتوبا

ألا فاقلع وتب واجهد فإنا ... رأينا كل مجتهد مصيبا

وأقبل صادقاً في العزم واقصد ... جنابا للمنيب له رحيبا

وكن للصالحين أخاً وخلاً ... وكن في هذه الدنيا غريبا

وكن عن كل فاحشة جبانا ... وكن في الخير مقداماً نجيبا

ولاحظ زينة الدنيا ببغض ... تكن عبدا إلى المولى حبيبا

فمن يَخْبُرْ زخارفها يجدها ... مخالبة لطالبها خلوبا

وغض عن المحارم منك طرفا ... طموحاً يفتن الرجل الأريبا

فخائنة العيون كَأُسْدِ غابٍ ... إذا ما أهملت وثبت وثوبا

ومن يغضض فضول الطرف عنها ... يجد في قلبه روحاً وطيبا

ولا تطلق لسانك في كلام ... يجر عليك أحقاداً وحوبا

ولا يبرح لسانك كل وقت ... بذكر الله ريانا رطيبا

وَصَلِّ إذا الدجى أرخى سدولاً ... ولا تضجر به وتكن هيوبا

تجد أنساً إذا أُودِعْتَ قبْراً ... وفارقت المعاشر والنسيبا

وصُمْ ما تستطيع تجده ريا ... إذا ما قُمت ظمآناً سغيبا

وكن متصدقًا سراً وجهرا ... ولا تبخل وكن سمحاً وهوبا

تجد ما قدمته يداك ظلاً ... إذا ما اشتد بالناس الكروبا

وكن حسَن السجايا وذا حياءٍ ... طليق الوجه لا شكسا غضوبا

• التوبة النصوح

التوبة النصوح الصادقة الحاسمة، التي تتضمن الرجوع عن المعاصي، لأن المعاصي مجلبة لغضب الله وعقابه والحرمان من ثوابه، ويصحبها ندم على ما فرط من ذنب واستحضار لخشية الله، وعلم بمغبة المعصية، وألم يوجع القلب، وحزن يطيل البكاء، وكراهية للذنب، وعزيمة صادقة على ألا يعاود التائب ذنبه، وطاعة لله خالصة.

فهي إذن تتميز بأنها موصولة بالماضي بالندم على ما سلف، ومتصلة بالحاضر بالإقلاع عن الذنب، ومرتبطة بالمستقبل بالعزم على اجتناب المعاصي، ولابد مع هذا من القيام بطاعات وعبادات وحسنات تكفر ما مضى، مصحوبة بالخضوع لله تعالي والتذلل إليه وطلب العفو منه.

فإن كان الذنب إهمالاً لفريضة كالصلاة أو الصوم أعادها المذنب، وإن كان مظلمة لأحد ردها [1].

أسير الخطايا عند بابك يقرع	يخاف ويرجو الفضل فالفضل أوسع
مُقِر بأثقال الذنوب ومكثر	ويرجوك في غفرانها فهو يطمع
فإنك ذو الإحسان والجود والعطا	لك المجد والإفضال والمن أجمع
فكم من قبيح قد سترت عن الورى	وكم نعم تترى علينا وتتبع
ومن ذا الذى يُرجى سواك ويُتَّقى	وأنت إله الخلق ما شئت مرجع
فيا من هو القدوس لا رب غيره	تباركت أنت الله للخلق مرجع
ويا من على العرش استوى فوق خلقه	تباركت تعطى من تشاء وتمنع
بأسمائك الحسنى وأوصافك العلى	تَوَسُّلَ عبد بائس يتضرع
أعني على الموت المريرة كأسه	إذا الروح من بين الجوانح تنزع
وكن مؤنسى فى ظلمة القبر عندما	يُرَكِّمُ من فوقي التراب وأودع
وثبت جنانى للسؤال وحجتى	إذا قيل من رب ومن كنت تتبع؟
ومن هول يوم الحشر والكرب نجنى	إذا الرسل والأملاك والناس خشع
ويا سيدى لا تخزنى فى صحيفتى	إذا الصحف بين العالمين توزع
وهب لى كتابى باليمين وثقلن	لميزان عبد فى رجائك يطمع

---

(١) التوبة والمغفرة د. أحمد محمد الحوفي، دراسات في الإسلام- المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - القاهرة العدد ١٨٩ ص ١٤.

ويا رب خلصني من النار إنها لبئس مَقَرٌّ للغواة ومرجع
أجرني أجرني يا إلهي فليس لي سواك مفر أو ملاذ ومفزع
وهب لي شفاءا منك ربي وسيدي فمن ذا الذي للضر غيرك يدفع
فأنت الذي ترجى لكشف ملمة وتسمع مضطراً لبابك يقرع
فقد أعيت الأسباب وانقطع الرجا سوى منك يا من للخلائق مَفْزَعُ
إليك إلهي قد رفعت شكايتي وأنت بما ألقاه تدري وتسمع
ففرج لنا خطبًا عظيمًا ومعضلاً وكربًا يكاد القلب منه يُصَدَّعُ
وماذا على ربي عزيز وفضله علينا مدى الأنفاس يهمي ويهمع
فكم مِنَحٍ أعطى وكم مِحَنٍ كفى له الحمد والشكران والمن أجمع
وأزكى صلاة الله ثم سلامه على المصطفى من في القيامة يشفع

● **درجات التائبين**

ذكر الإمام الغزالي أن التائبين أربع طبقات :

١ - أن يتوب العاصي، ويستقيم على توبته إلى آخر عمره، فيتدارك ما فرط من أمره، ولا يحدث نفسه بالعودة إلى ذنبه، وهذه هي التوبة النصوح، ونفس صاحبها هي النفس الساكنة المطمئنة التي ترجع إلى ربها راضية مرضية.

٢ - أن يسلك التائب طريق الاستقامة في أمهات الطاعات، ويتجنب كبائر الفواحش، لكنه لا ينفك عن ذنوب تعتريه في مجارى أحواله عن غير عمد وعزم،ثم لايلبث أن يندم ويأسف ويجدد عزمه على الابتعاد عنها، وصاحب هذه الحالة هو صاحب النفس اللوامة، وهذه رتبة عالية،لكنها نازلة عن السابقة.

وهذه أغلب أحوال التائبين، لأن الشر غلاب، قال تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلاَّ اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ (٣٢) ﴾ [١].

وقال سبحانه : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ

(١) سورة النجم الآية ٣٢ .

(١٣٥) أُوْلَئِكَ جَزَاؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ (١٣٦) ﴾[١].

وهذا القدر من الذنب لا ينقض التوبة، ولا يلحق صاحبها بدرجة المصرين.

٣ - أن يتوب ويستمر على الاستقامة، ثم تغلبه شهوته فى بعض الذنوب فيقدم عليها عن قصد، لأنه عاجز عن قمع شهوته، ولكنه مع هذا مواظب على الطاعات، ومبتعدعن جملة الذنوب مع قدرته عليها، وهو فى الوقت نفسه يود لو يقدره الله على قمع شهواته، ويندم على ذنبه بعد اقترافه، ويعتزم أن يتوب، إلا أنه يسوف يوماً بعد يوم.

وأصحاب هذه الحالة ينطبق عليهم قوله تعالى : ﴿ وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٠٢) ﴾[٢].

فإذا تداركه الله بفضله، ومن عليه بالتوبة لحق بالسابقين، وإن غلبته شقوته وقهرته شهوته فإنه يخشى عليه أن يموت قبل أن تكون توبته مقبولة ،فيكون من المخذولين.

٤ - أن يتوب ويستقيم مدة، ثم يعود إلى ذنوبه بغير أسف أو رغبة فى التوبة.

وهذا هو صاحب النفس الأمارة بالسوء الفرارة من الخير التى يخشى عليها سوء العاقبة. فإن ختم الله له بالسوء شقى شقاء لا نهاية له، وإن ختم له بالحسنى فمات على التوحيد فإنه ينتظر له الخلاص من النار ولو بعد حين، وليس من المستحيل أن يشمله عفو من الله لسبب خفى لا نعلمه.

وقد علق الغزالى على هذه الحالة الأخيرة بكلام طويل، منه قوله : إن من ينتظر المغفرة من فضل الله تعالى وهو مقصر فى الطاعة مصر على الذنوب بعيد من الاستغفار، يعد عند أرباب القلوب من المعتوهين.

والعجب من هذا المعتوه وترويجه حماقته فى صيغة حسنة إذ يقول إن الله كريم، ولن تضيق جنته على مثلى، ولاتضره معصيتى، ثم تراه يركب البحار،

---

(١) سورة آل عمران الآيتان ١٣٥-١٣٦ .
(٢) سورة التوبة الآية ١٠٢ .

ويقتحم الأوعار فى طلب الدينار، وإذا قيل له إن الله كريم، ودنانير خزائنه لن تقصر عن فقرك، وتركك للتجارة لايضرك، فاجلس فى بيتك ،فعسى أن يرزقك الله من حيث لاتحتسب، إذا قيل له هذا استحمق القائل واستهزأ به،وقال ماهذا الهوس، والسماء لا تمطر ذهبًا ولا فضة، وإنما يُنال المال بالكسب والعمل، كما قدره مسبب الأسباب، وأجرى به سنته، ولا تبديل لسنة الله.

ولا يعلم المغرور أن رب الآخرة ورب الدنيا واحد، وأن سنته لا تبديل لها فيهما جميعًا، فكيف يعتقد أنه كريم فى الآخرة وليس بكريم فى الدنيا؟

وصاحب هذه الحال جدير بأن يكون داخلاً [1] تحت قوله تعالى ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ (١٢) ﴾. [2]

● **قبول التوبة تفضل من الله لا واجب عليه**

نؤمن إيمانًا راسخًا عميقًا بأن الله سبحانه وتعالى وعد بقبول التوبة، وأكد هذا الوعد، وحض على التوبة، ورغب فيها، وأحب عباده التائبين، ووعدهم بأن يكفر عنهم سيئاتهم الأخرى.

لكن هذا لايسوغ لنا أن ندين بما دان به بعض المعتزلة إذ فهموا من ظاهر بعض الآيات أن قبول التوبة ومغفرة الذنب أو الذنوب واجب على الله تعالى لابد أن يفعله.

نجد هذه العقيدة مثلاً فى تفسير الزمخشرى لقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ [3] ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُولَٰئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (١٧) ﴾ [4].

---

(١) التوبة والمغفرة د. أحمد محمد الحوفى، دراسات فى الإسلام- المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - القاهرة العدد ١٨٩ ص ١٥ - ١٧.

(٢) سورة السجدة الآية ١٢.

(٣) بجهالة: بسفاهة وحمق وضعف أمام الشهوات.

(٤) سورة النساء الآية ١٧.

قال الزمخشرى : إن القبول والغفران واجب على الله تعالى لهؤلاء،

ثم قال «إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ» إعلام بوجوبها عليه كما يجب على العبد بعض الطاعات.

وقوله : ﴿ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ عدة بأنه وجب عليه، وإعلام بأن الغفران كائن لا محالة، كما يعد العبد الوفاء بالواجب.

وعقب ابن المنير الاسكندرى بما ملخصه أنه تقدم فى مواضع أن إطلاق مثل هذا القول، وهو : يجب على الله كذا مما نعوذ بالله منه، تعالى الله عن الإلزام وعن الإيجاب.

وقال ابن المنير : قاعدة أهل السنة أن الله تعالى يتفضل لا عن استحقاق سابق، فهو المحسن أولاً وآخراً وباطنًا وظاهراً، وليسوا مثل القدرية - المعتزلة - الذين يزعمون أن العبد خلق لنفسه التوبة بقدرته وحوله ليستوجب على ربه المغفرة، فيطلقون بلسان الجراءة هذا الإطلاق.

ثم قال : وما أبشع ما أكد الزمخشرى به هذا المعتقد الفاسد إذ قال : يجب على الله قبول التوبة كما يجب على العبد بعض الطاعات، فَنَظَّرَ المعبود بالعبد، وقاس الخالق على الخلق.

وختم تعقيبه بقوله، نقول نحن معاشر أهل السنة : قد وعدنا الله قبول التوبة المستجمعة لشرائط الصحة، ووقوع هذا الموعود واجب ضرورة صدق الخبر لا لوجوبه على الله تعالى.

وما من شك فى أن ما ذهب إليه ابن المنير الاسكندرى هو التأدب الذى يليق بجلال الألوهية، وتوجيه العبودية، ويقتضيه التفكير السليم[1].

---

(١) المرجع السابق ص ٢٠ -٢٢ .

● هل التوبة ضرورية للمغفرة ؟

إذا ارتكب المؤمن كبيرة من الكبائر، فهل يغفرها الله تعالى بالتوبة فحسب ؟

أو يصح أن يغفرها بغير توبة ؟

المفكرون المسلمون متفقون على المغفرة بعد التوبة، ومختلفون في الغفران بغير توبة.

فقد ذهب أكثر المعتزلة إلى أن الخطيئة الكبرى التى لا يتوب صاحبها لا يغفرها الله له، وقليل منهم ذهبوا إلى أنها تستحق عقوبة محددة بزمن.

وذهب أكثر المرجئة إلى أن الإيمان وحده كفيل بالظفر برحمة الله وغفرانه للخطايا مهما تكن، وقليل منهم لم يروا ذلك.

وذهب الأشاعرة إلى أن الله تعالى يغفر بعض الذنوب لبعض المؤمنين بشروط من غير أن يعينوا هذه الذنوب، ومن غير أن يحددوا صفات المؤمنين.

وقد ذكر أحد علماء السنة وهو ابن المنير الإسكندرى عند تعليقه على الزمخشرى فى تفسير قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾ ﴾ [1]. أن الآية وردت فيمن لم يتب، ولم تذكر فيها توبة، ولهذا أطلق الله تعالى نفى مغفرة الشرك، وأثبت مغفرة ما دونه مقرونة بالمشيئة.

أما القدرية - يريد المعتزلة - فيظنون التسوية بين الشرك وما دونه من الكبائر فى أن كل واحد منهما لا يغفر بدون التوبة، ولا يشاء الله أن يغفرها إلا للتائبين.

فإذا عرض الزمخشرى هذا المعتقد على هذه الآية ردته ونبت عنه، لأن المغفرة منفية فيها عن الشرك، وثابتة لما دونه مقرونة بالمشيئة [2].

---

(١) سورة النساء الآية ٤٨ .

(٢) التوبة والمغفرة د. أحمد محمد الحوفى ، دراسات فى الإسلام- المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - القاهرة العدد ١٨٩ ص ٢٢ - ٢٣ .

يجب على الإنسان أن لا يمتنع من التوبة خشية الوقوع في ذنب مرة أخرى فإن هذا ظن يدخله الشيطان في قلبه ليؤخر التوبة، ولربما يقول في نفسه سأستمر في المعاصي أيام شبابي وصحتي ثم أتوب بعد ذلك، وهكذا يسوف ويؤخر، وإذا بالموت أو المرض يفاجئه فلا يجد متسعًا للتوبة والرجوع إلى الله. نعوذ بالله من سوء الخاتمة.

ولذلك كان السلف الصالح تكاد تنخلع قلوبهم في كل مرضة يمرضونها، لاحتمال أن تكون تلك المرضة إخراجًا لهم من الدنيا قبل أن يتمكنوا من تدارك ما فات من الهفوات بالتوبة النصوح والاستكثار من الباقيات الصالحات.

مرض مرة بعض الصالحين فدخل عليه أصحابه يعودونه فقالوا له : كيف تجدك ؟

قال : مقراً بالذنوب.

فقالوا : هل تشتهي شيئًا؟

قال: نعم ! أن يمن على ربي بالتوبة عن كل ما يكره قبل موتي.

وقد قال العلماء : ما مثال المسوف بالتوبة إلا مثال من احتاج إلى قلع شجرة فرآها قوية لا تنقلع إلا بمشقة شديدة فقال : أؤخرها سنة ثم أعود إليها وهو يعلم أن الشجرة كلما بقيت ازدادت قوة لرسوخها وكلما طال عمره ازداد ضعفه، فلا حماقة في الدنيا أعظم من حماقته إذ عجز مع قوته عن مقاومة ضعيف فأخذ ينتظر الغلبة عليه إذا ضعف هو في نفسه وقوى الضعيف.

قال ابن القيم رحمه الله : إذا أراد الله بعبده خيراً فتح له أبواب التوبة والندم والانكسار والذل والافتقار والاستعانة به وصدق الملجأ إليه ودوام التضرع والدعاء والتقرب إليه بما أمكن من الحسنات ما تكون تلك السيئة به سبب رحمته حتى يقول: عدو الله يا ليتني تركته ولم أوقعه.

وهذا معنى قول بعض السلف إن العبد ليعمل الذنب يدخل به الجنة، ويعمل الحسنة يدخل بها النار، قالوا: كيف ؟

قال : يعمل الذنب فلا يزال نصب عينيه خائفًا منه مشفقًا وجلاً باكيًا نادمًا مستحييًا من ربه تعالى ناكس الرأس بين يديه منكسر القلب له فيكون ذلك الذنب أنفع له من طاعات كثيرة بما ترتب عليه من هذه الأمور التى بها سعادة العبد وفلاحه حتى يكون ذلك الذنب سبب دخول الجنة.

ويفعل الحسنة فلا يزال يمن بها على ربه ويتكبر بها ويرى نفسه شيئًا، ويعجب بها ويستطيل ويقول فعلت وفعلت، فيورثه من العجب والكبر والفخر والاستطالة ما يكون سبب هلاكه.

فإذا أراد الله تعالى بهذا المسكين خيرًا ابتلاه بأمر يذل به عنقه ويصغر به نفسه عنده، وإذا أراد به غير ذلك خلاه وعجبه وكبره وهذا هو الخذلان الموجب لهلاكه، فإن العارفين كلهم مجمعون على أن التوفيق هو أن لا يكلك الله تعالى إلى نفسك، والذل أن يكلك الله إلى نفسك [1] . قال الشاعر :

إلى م أرى يا قلب منك التراخيا ... وقد حل وخط الشيب بالرأس ثاويا
وأخبر عن قرب الرحيل نصيحة ... فدونك طاعات وخل المساويا
وعض على ما فات منك أناملاً ... وفجر من العين الدموع الهواميا
فكم مرة وافقت نفسًا مريدة ... فقد حملت شرًا عليك الرواسيا
وكم مرة أحدثت بدعًا لشهوة ... وغادرت هديًا مستقيمًا توانيا
وكم مرة أمْرَ الإله نبذته ... وطاوعت شيطانًا عدوًا مداجيا
وكم مرة قد خضت بحر غواية ... وأسخطت ربًا باكتساب المعاصيا
وكم مرة بِرَّ الإله غمصته ... وقد صرت فى كفرانه متماديا
ولازلت بالدنيا حريصًا ومولعًا ... وقد كنت عن يوم القيامة ساهيا
فمالك فى بيت البلا إذ نزلته ... عن الأهل والأحباب والمال نائيا
فَتُسْألُ عن رب ودين محمد ... فإن قلت هاه فادر أن كنت هاويا
ويأتيك من نار سموم أليمة ... وتبصر فيها عقربًا وأفاعيا
وياليت شعرى كيف حالك إذ نصب ... صراط وميزان يبين المطاويا
فمن ناقش الرحمن نوقش بتة ... وألقى فى نار وإن كان واليا
هنالك لا تجزيه نفس عن الردى ... فكل امرئ فى غمه كان جاثيا

---

(١) انظر كتابنا ثقافة إسلامية ص ٤٧٥، ٤٧٦ .

قال ابن القيم رحمه الله : للتوبة المقبولة علامات.

منها أن يكون التائب بعد التوبة خيراً مما قبلها.

ومنها أنه لا يزال الخوف مصاحبًا له لا يأمن مكر الله طرفة عين، فخوفه مستمر إلى أن يسمع قول الرسل لقبض روحه : ﴿أَلاَّ تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ (٣٠)﴾[١] فهناك يزول الخوف.

ومنها انخلاع القلب وتقطعه ندمًا وخوفًا وهذا على قدر عظيم الجناية وصغرها. وهذا تأويل ابن عيينة لقوله تعالى : ﴿لا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلاَّ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١١٠)﴾[٢].قال : تقطعها بالتوبة.

ولا ريب أن الخوف الشديد من العقوبة العظيمة يوجب انصداع القلب وانخلاعه. وهذا هو تقطعه وهذه حقيقة التوبة لأنه ينقطع قلبه حسرة على ما فرط منه وخوفًا من سوء عاقبته، فمن لم ينقطع قلبه فى الدنيا على ما فرط حسرة وخوفًا تقطع فى الآخرة إذا حقت الحقائق وعاين ثواب المطيعين وعقاب العاصين، فلابد من تقطع القلب إما فى الدنيا وإما فى الآخرة.

ومن موجبات التوبة الصحيحة أيضًا كسرة خاصة تحصل للقلب لا يشبهها شيء، ولاتكون لغير المذنب، لا تحصل بجوع ولا رياضة ولا حب مجرد وإنما هى أمر وراء هذا كله، تكسر القلب بين يدى الرب كسرة تامة قد أحاطت به من جميع جهاته وألقته بين يدى ربه طريحًا ذليلاً خاشعًا كحال عبد جان أبق من سيده فأخذ فأحضر بين يديه ولم يجد من ينجيه من سطوته ولم يجد منه بدًا ولا عنه غناء ولا منه مهربًا، وعلم أن حياته وسعادته وفلاحه ونجاحه فى رضاه عنه، وقد علم إحاطة سيده بتفاصيل جناياته، هذا مع حبه لسيده وشدة حاجته إليه وعلمه بضعفه وعجزه وذله، وقوة سيده وعزته. فيجتمع فى هذه الأحوال كسرة وذل وخضوع ما أنفعها للعبد وما أجدى عائدتها عليه، وما أعظم جبره

(١) سورة فصلت الآية ٣٠.
(٢) سورة التوبة الآية ١١٠.

بها وما أقربه بها من سيده، فليس شيء أحب إلى سيده من هذه الكسرة والخضوع والتذلل والإخبات والانطراح بين يديه والاستسلام له.

فلله ما أحلى قوله في هذه الحال أسألك بعزك وذلي إلا رحمتني.

أسألك بقوتك وضعفي، وبغناك عني وفقري إليك.

هذه ناصيتي الكاذبة الخاطئة بين يديك.

عبيدك سواي كثير وليس لي سيد سواك، لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك.

أسألك مسألة المسكين، وابتهل إليك ابتهال الخاضع الذليل،

وأدعوك دعاء الخائف الضرير. سؤال من خضعت لك رقبته.

ورغم لك أنفه. وفاضت لك عيناه. وذل لك قلبه.

فهذا وأمثاله من آثار التوبة المقبولة.

فمن لم يجد ذلك في قلبه فليتهم توبته وليرجع إلى تصحيحها، فما أصعب التوبة الصحيحة بالحقيقة وما أسهلها باللسان والدعوى[1].

● وعد الله عباده بالمغفرة

١ - من نعم الله سبحانه وتعالى على عباده، ومن رحمته بهم، أنه حبب إليهم طاعته، وبغض اليهم معصيته، ثم فسح أمامهم سبيل الإنابة إليه، فأمرهم بالتوبة من ذنوبهم التي اقترفوها، ووعدهم - وإن وعده لصدق وحق - أن يكفر عنهم سيئاتهم إذا ما تابوا من ذنوبهم، وأنابوا إلى ربهم. ومن ذا الذي لا يسارع إلى التوبة النصوح حينما يسمع أو يقرأ قول الله تعالى: ﴿ الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلاً وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٢٦٨) ﴾[2].

إن الذي يفهم هذه الآية الكريمة يستيقن أن الشيطان لا يوسوس الا بشر، فهو مثلاً يزين للناس ارتكاب المعاصي، ويغريهم بالبخل بمالهم في سبيل الله،

(١) موارد الظمآن لدروس الزمان ١ / ٣٢، ٣٣.

(٢) سورة البقرة ٢٦٨.

ويخوفهم الفقر، على حين أن الله تعالى يأمرهم بالطاعة والخير، ويعدهم بأن يكافئهم على إنفاقهم فى سبيله بالمغفرة وبالثواب وبنماء الأموال، لأنه سبحانه وتعالى يقول : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ (٩) ﴾ (١)

ويقول : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٢٦١) ﴾ (٢).

ولقد تكرر هذا الوعد الكريم فى القرآن المجيد، ليكون تكريره أوكد لوقوعه، وأدعى إلى الإصغاء إليه والاستجابة له.

قال تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ (٢٥) ﴾ (٣).

وقال سبحانه : ﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ (٨٢) ﴾ (٤).

وقال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ (١٥٩) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١٦٠) ﴾ (٥).

ومعنى هذا أن أحبار اليهود الذين ضللوا الناس فكتموا ما أنزل الله تعالى فى التوراة من بينات عن بعثة محمد ﷺ وهدايته للبشر والدعوة إلى اتباعه.

هؤلاء منبوذون مطرودون من رحمة الله تعالى، تلعنهم الملائكة، ويلعنهم المؤمنون، لكن الذين تابوا منهم وآمنوا بمحمد ورسالته، وتداركوا ما فرط منهم فأصلحوه، وأطاعوا الله، وبينوا للناس ما فى التوراة مما يتصل بمجد الإسلام، هؤلاء وعدهم الله تعالى بالتوبة، وهو الكثير التوبة الرحيم. قال تعالى : ﴿ وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ (١٣٣) الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ

---

(١) سورة المائدة الآية ٩ .
(٢) سورة البقرة الآية ٢٦١ .
(٣) سورة الشورى الآية ٢٥ .
(٤) سورة طه الآية ٨٢ .
(٥) سورة البقرة الآيتان ١٥٩، ١٦٠ .

يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٣٤) وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٣٥) أُوْلَٰئِكَ جَزَاؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ (١٣٦) ﴾ (١) .

ويتبين من هذا أن الجنة معدة للمتقين، الذين من صفاتهم أنهم ينفقون مالهم فى سبيل الله فى الشدة والرخاء وفى الصحة والمرض، وأنهم يكتمون غيظهم ،ويعفون عمن أساء إليهم، وإذا ارتكبوا فعلة شديدة القبح أوكبيرة من الكبائر لم يستمرئوا المعصية، بل يتوبون عنها نادمين، عازمين على ألا يعودوا، طالبين الغفران من الله تعالى، لأنه هو الواسع الرحمة القريب المغفرة، الذى يعد التائب من الذنب كمن لا ذنب له ،ومهما تضخمت الذنوب فإن عفوه أجل وأكبر .

وقد عقب الزمخشرى على تفسير الآية الكريمة بأن الله وصف ذاته بسعة الرحمة وقرب المغفرة، وأنه لا مفزع للمذنبين إلا فضله وكرمه، وأن عدله يكفل المغفرة للتائب، لأن العبد إذا كان جادا فى الاعتذار والتنصل بأقصى ما يقدر كان العفو والتجاوز.

وفى هذا تطييب لنفوس العباد، وتنشيط إلى التوبة، وحث عليها، وردع عن اليأس والقنوط، لأن الذنوب وإن جَلَّتْ فإن عفو الله أجل وأكرم وأعظم.

وربط سبحانه وتعالى بين رحمته وقبوله التوبة وبين استغفار المؤمنين فى قوله: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا (٦٤) ﴾ (٢) .

وذلك أنهم ظلموا أنفسهم بالتحاكم إلى الطاغوت، فلو جاءوا إليك يا محمد تائبين من نفاقهم متنصلين مما ارتكبوا مستغفرين الله تعالى من ذنوبهم، معتذرين إليك من عدوانهم عليك، لو أنهم فعلوا هذا لعفا الله عنهم.

وقال سبحانه وتعالى للنبى ﷺ عندما لعن بعض الكفار، وذكرأسماءهم يوم

---

(١) سورة آل عمران الآيات ١٢٣ - ١٣٦ .

(٢) سورة النساء الآية ٦٤ .

أحد بعد أن آذوه وأسالوا دمه، مرشداً له إلى أن يدع أمرهم لله، فإنه ربما يتوب بعضهم، فيقبل الله توبته، كما حدث إذ تاب بعضهم وأسلم وحسن أسلامه، أما الذى لا يتوب منهم فسيعذبه الله يوم القيامة عذابًا شديداً ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ (١٢٨) وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٢٩) ﴾ (١).

٢ - لقد جاء الوعد الإلهى الكريم بمغفرة الجرائم فى صور عدة.

فجاء فى أسلوب شرطي في قوله تعالى: ﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا (١١٠) ﴾ (٢).

وجاء فى وعد التائبين الذين يعملون الصالحات بأن يمحو الله سيئاتهم التى ارتكبوها، قال سبحانه وتعالى: ﴿ وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا (٦٨) يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا (٦٩) إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (٧٠) ﴾ (٣).

وقال سبحانه وتعالى - بعد أن وصف بعض عباده بالإيمان والاستقامة وشكر نعمه وبالتوبة والاستغفار -: ﴿ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ (١٦) ﴾ (٤).

وقال عز وجل: ﴿ إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلاً كَرِيمًا (٣١) ﴾ (٥).

وهذا وعد صريح بالمغفرة للذين يحسنون عبادة الله، ويجتنبون الذنوب الكبار، وهى التى لا يسقط عقابها إلا بالتوبة، ولا يقعون إلا فى صغار الذنوب، وهى التى لم يعين لها الخالق سبحانه عذابًا ولاحداً.

(١) سورة آل عمران الآيتان ١٢٨، ١٢٩.
(٢) سورة النساء الآية ١١٠.
(٣) سورة الفرقان الآيات ٦٨ - ٧١.
(٤) سورة الاحقاف الآية ١٦.
(٥) سورة النساء الآية ٣١.

بل إن الوعد الكريم أضاف إلى المغفرة أن يكفر الصغائر باجتناب الكبائر ،كما يكفر الكبائر بالتوبة : ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاؤُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى (٣١) الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلاَّ اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى (٣٢) ﴾ (١).

ووعد الله سبحانه وتعالى الذين ينفقون أموالهم برغبة صادقة في وجوه البر والخير أن يضاعف لهم ثوابهم. وأن يتجاوز عن سيئاتهم : ﴿ إِن تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ (١٧) ﴾ (٢).

وفى تسميته هذا الإنفاق في الخير قرضا لله سبحانه وتعالى ما فيه من بلاغة وحض على الإنفاق وترغيب فيه.

٣ - الذنوب التى فيها حق لله تعالى وحق للعبد، وعد الله بمغفرة حقه إذا تاب مرتكبها، فلا يعاقبه عليها في الآخرة، فالذى يسرق مثلاً إذا تاب أسقط الله عنه عذاب السرقة. أما قطع يده فلا تسقطه التوبة عند أبى حنيفة وأصحابه، ولا عند الشافعى فى أحد قوليه ،وفى قوله الآخر تسقطه، وقال أبو حنيفة إذا كانت يد السارق قطعت فلا يرد بدل المال المسروق، أما إذا لم تكن قطعت فلابد من رد المال المسروق أو رد بدله. قال تعالى : ﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٣٨) فَمَن تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٣٩) أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٤٠) ﴾ (٣).

والذى يتوب عن الربا ليس له إلا رأس ماله، قال سبحانه : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٢٧٨) فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لا تَظْلِمُونَ وَلا تُظْلَمُونَ (٢٧٩) ﴾ (٤).

(١) سورة النجم الآيتان ٣١، ٣٢ .
(٢)
(٣) سورة المائدة ٣٨ - ٤٠ .
(٤) سورة البقرة الآيتان ٢٧٨، ٢٧٩ .

٤ - ووعد الكفار الذين يسلمون، ويكفون عن عنادهم، ويطيعون ربهم، بأن يتجاوز عما سلف من كفرهم ومن أوزارهم ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ (٣٨)﴾ (١).

كما قال ﷺ : «من أحسن في الإسلام لم يؤاخذ بما عمل في الجاهلية، ومن أساء في الإسلام أخذ بالأول والآخر» (٢).

وقال ﷺ : «الإسلام يجب ما قبله، والتوبة تجب ما قبلها» (٣).

٥ - ومن رحمة الله تعالى بعباده، ومن استجابته للاستغفار أنه يتقبل دعاء المستغفرين فيقيهم، الدمار، ويقي من يخالطونهم من المشركين، قال تعالى : ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٢) وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (٣٣)﴾ (٤).

ودلت هذه الآية على أن العذاب لم يقع، لأن رسول الله ﷺ يحيا بينهم، ودل أيضاً على أن العذاب لم يقع لأن بين المشركين مسلمين يستغفرون ربهم وهم الذين تخلفوا عن الهجرة. وقد روى عن ابن عباس أنه كان فيهم نوعان من الأمان النبي ﷺ، والاستغفار، فذهب النبي وبقي الاستغفار. وهو مثل قوله تعالى : ﴿ هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِّيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (٢٥)﴾ (٥).

٦ - ولقد ذكر سبحانه وتعالى أنبياء وأمما، وقال إن قرونا خلفتهم، ترك أهلوها

---

(١) سورة الانفال الآية ٣٨ .

(٢) أخرجه البخارى في صحيحه - كتاب استتابة المرتدين - باب إثم من أشرك بالله وعقوبته فى الدنيا والآخرة، وأخرجه مسلم في صحيحه - كتاب الإيمان - باب هل يؤاخذ بأعمال الجاهلية.

(٣) رواه أحمد .

(٤) سورة الأنفال الآيتان ٣٢، ٣٣ .

(٥) سورة الفتح الآية ٢٥ .

الصلاة، وأقبلوا على الشهوات، وتوعدهم بأنهم سيصلون ناراً حامية، ولكنه استثنى منهم الذين تابوا، ووعدهم بقبول توبتهم وبالإنعام عليهم بالجنة: ﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا (٥٩) إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلا يُظْلَمُونَ شَيْئًا (٦٠) ﴾ [١].

كذلك قال في شأن عُبّاد العجل في غيبة موسى عليه السلام: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ (١٥٢) وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٥٣) ﴾ [٢].

ثم وعد الله عز وجل بني إسرائيل حينما أمرهم بدخول بيت المقدس أو أريحا أن يغفر لهم ذنوبهم إذا ما دخلوا باب القرية أو باب القبة التي كانوا يصلون فيها راكعين خاضعين: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ (٥٨) ﴾ [٣].

وقال تعالى: ﴿ وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ (١٦١) ﴾ [٤].

٧ - لقد أضاف الخالق سبحانه وتعالى إلى رحمته التي وسعت كل شيء، وإلى كرمه الذي لا حدود له، وإلى حضه عباده على التوبة، ووعوده بتقبلها، وإلى تقبلها الواقع في مواضع ومناسبات، أضاف إلى هذا كله نهي عباده التائبين عن اليأس من رحمته وغفرانه، إن عظمت ذنوبهم. قال تعالى: ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٥٣) ﴾ [٥].

وقال سبحانه: ﴿ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلاَّ الضَّالُّونَ (٥٦) ﴾ [٦].

---

(١) سورة مريم الآيتان ٥٩، ٦٠.
(٢) سورة الأعراف الآيتان ١٥٢، ١٥٣
(٣) سورة البقرة الآية ٥٨.
(٤) سورة الأعراف الآية ١٦١.
(٥) سورة الزمر الآية ٥٣.
(٦) سورة الحجر الآية ٥٦.

وإذا كان ذكر التوبة قد تردد في كثير من الآيات فإن الاستغناء عن ذكرها في بعض آيات لا يدل على أنها غير مطلوبة، لأن القرآن الكريم كلام واحد متصل بعضه ببعض، لا يختلف ولا يتناقض [1].

• نماذج للتائبين

ومما يحسن سياقه ويحلو ذكره قصص بعض التائبين والتي منها قصة توبة الجلاس التي تتخلص فيما يلي:

كان عمير بن سعد يتيمًا مات أبوه ولم يترك له مالاً ولا معيلاً لكن أمه لم تلبث إلا مدة يسيرة ثم تزوجت بالجلاس بن سويد فكفل ابنها عميراً وضمه إليه.

وقد لقي عمير من بر الجلاس ورعايته وجميل عطفه به ما جعله ينسى أنه يتيم فأحب عميرُ الجلاسَ حب الابن لأبيه، وكذلك الجلاس ولع بعمير وأحبه حب الوالد لولده فيما ذكر عنه.

وكان كلما شب عمير ازداد الجلاس له حبًا وازداد به إعجابا لما يتخيل فيه من أمارات الفطنة والنجابة التي تبدو في كل عمل من أعماله وتبدو في شمائله وتصرفاته.

وقد أسلم عمير بن سعد وهو صغير لم يجاوز العاشرة من عمره إلا قليلاً فوجد الإيمان في قلبه الغض مكانًا خاليًا فتمكن منه وألفي الإسلام في نفس عمير الصافية تربة خصبة فتغلغل فيها.

فكان على صغر سنه لا يتأخر عن الصلاة خلف رسول الله ﷺ، وكانت أمه تسر وتغمرها الفرحة إذا رأته ذاهبًا إلى المسجد أو راجعًا منه.

وسارت حياته على هذا النحو هانئة هادئة وادعة لا يعكر صفوها معكر إلى أن قدر الله على عمير محنة من أشد المحن قلما مرت على فتى مثله في السن.

---

(١) التوبة والمغفرة د. أحمد محمد الحوفي، دراسات في الإسلام- المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - القاهرة العدد ١٨٩ ص ٥٤ - ٦٤.

ففى غزوة تبوك لما رأى بذل المسلمين أموالهم عندما حثهم صلوات الله عليه وسلامه على الجهاد وأمرهم بالصدقة وحثهم على النفقة ورغب أهل الثروة فى الخير.

حث الموسرين على تجهيز المعسرين، وأبصر أبا بكر يجيء بما عنده، وعمر يأتى بنصف ماله، وعثمان يأتى بجراب فيه ألف دينار ذهبًا ويقدمه للنبى ﷺ، وعبد الرحمن بن عوف يحمل على عاتقه مائى أوقية من الذهب ويلقيها بين يدى النبى ﷺ

ونساء المهاجرين والأنصار ينزعن حليهن ويلقينه بين يدى النبى ﷺ ليجهز بثمنه الجيش الغازى فى سبيل الله، بل رأى رجلاً يعرض فراشه للبيع ليشترى بثمنه سيفًا يجاهد به فى سبيل الله.

فتعجب عمير من تأخر الجلاس وتباطئه عن الاستعداد للرحيل مع النبى ﷺ، وتأخره عن البذل فى سبيل الله على الرغم من قدرته وغناه.

وأراد عمير أن يستثير همة الجلاس ويبعث الحمية والمروءة فى نفسه فشرع يقص على الجلاس أخبار ما رأى وما سمع وخاصة البكائين الذين قدموا على رسول الله ﷺ وسألوه أن يحملهم واعتذر ﷺ بأنه لا يجد ما يحملهم عليه تولوا وأعينهم تفيض من الدمع. حزنًا ألا يجدوا ما يبلغهم أمنيتهم فى الجهاد فى سبيل الله.

لكن الجلاس ما كاد أن يسمع من عمير ما سمع حتى تكلم بكلمة أطارت عقل الفتى عمير من كبرها، إذ سمعه يقول والعياذ بالله : إن كان محمد صادقًا فيما يدعيه من النبوة فنحن أشر من الحمير .

لقد اندهش عمير مما سمع فما كان يظن أن رجلاً عاقلاً كبير السن ينطق بمثل هذه الكلمة التى تخرج قائلها عن الإيمان دفعة واحدة وتدخله فى الكفر.

ذهب عمير بن سعد يفكر فى هذه الحادثة الفظيعة الموبقة، فرأى أن السكوت عن الجلاس والستر عليه خيانة لله ورسوله، وإضرار بالإسلام الذى يكيد له المنافقون.

ورأى أن فى إخباره فيما سمع من الجلاس عقوقًا بالرجل الذى ينزله من نفسه منزلة الوالد لولده، فالجلاس هو الذى كفله يتيمًا ورباه وعوضه عن فقد أبيه.

فاختار النصيحة لله ولرسوله، والتفت إلى الجلاس وقال والله يا جلاس ما كان على ظهر الأرض أحد بعد محمد ﷺ أحب إلى منك، فأنت أقرب الناس إلى وأجلهم إلى يدا وأعظمهم نعمة على.

ولقد قلت مقالة إن ذكرتُها فضحتك، وإن أخفيتُها خنت أمانتى وأهلكت نفسى ودينى، وقد عزمت على أن أمضى إلى رسول الله ﷺ وأخبره بما قلتَ فكن على بينة من أمرك،

ثم مضى عمير بن سعد إلى المسجد وأخبر النبى ﷺ بما سمع من الجلاس بن سويد فأقعده النبى ﷺ عنده وأرسل أحد الصحابة إلى الجلاس يدعوه أن يأتى.

وما هو إلا قليل حتى جاء الجلاس فحيا رسول الله ﷺ وجلس بين يديه،

فقال له النبى ﷺ ماقالة سمعها منك عمير بن سعد، وذكر له ما قاله.

فقال كذب على يا رسول الله وافترى، فما تفوهت بشىء من ذلك .

وجعل الصحابة يديرون أبصارهم فى الجلاس وعمير بن سعد، إنهم يريدون أن يقرأوا على صحيفتى وجهيهما ما يكنه صدراهما فجعلوا يتهامسون.

فقال واحد من الذين فى قلوبهم مرض فتى عاق أبى إلا أن يسىء لمن أحسن إليه.

وقال آخرون بل إنه غلام نشأ فى طاعة الله ورسوله وإن ملامح وجهه لتنطق بصدقه.

والتفت النبى ﷺإلى عمير فرأى وجهه قد احتقن بالدم، والدموع تنحدر مدراراً من عينيه فتتساقط على خديه وصدره وهو يقول اللهم أنزل على نبيك بيان ما تكلمت به، ويكررها.

فانبرى الجلاس وقال إن ما ذكرته لك يا رسول الله هو الحق وإن شئت تحالفنا بين يديك، وإنى أحلف بالله أنى ما قلت شيئًا مما نقله لك عمير .

فما أن انتهى من حلفه وأخذت عيون الناس تنتقل عنه إلى عمير بن سعد حتى غشيت رسول الله ﷺ السكينة.

فعرف الصحابة أنه الوحي فلزموا أماكنهم وسكنت جوارحهم ولاذوا بالصمت، وتعلقت أبصارهم بالنبى ﷺ، وهنا ظهر الخوف والوجل على الجلاس وبدا التلهف والتشوق على عمير، ثم سرى عن رسول الله ﷺ فتلا قول الله تعالى: ﴿ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلاَّ أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِن فَضْلِهِ فَإِن يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ وَإِن يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ ﴾ (١).

فارتعد الجلاس من هول ما سمع وكاد ينعقد لسانه من الجزع والروعة، ثم التفت إلى رسول الله ﷺ وقال: بل أتوب يا رسول الله بل أتوب، صدق عمير يا رسول الله وكنت من الكاذبين.

اسأل الله أن يقبل توبتي، جُعِلت فداك يا رسول الله.

وهنا توجه رسول الله ﷺ إلى عمير بن سعد فمد يده الشريفة إلى أذنه وأمسكها برفق وقال: «وفت أذنك يا غلام ما سمعت وصدقك ربك».

- **كعب بن مالك**

عن عبد الله بن كعب بن مالك، وكان قائد كعب رضى الله عنه من بنيه حين عمي قال: سمعت كعب بن مالك رضي الله عنه يحدث بحديثه حين تخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك.

قال كعب: لم أتخلف عن رسول الله ﷺ فى غزوة غزاها قط إلا فى غزوة تبوك، غير أنى قد تخلفت فى غزوة بدر، ولم يُعاقب أحداً تخلف عنه، إنما خرج رسول الله ﷺ والمسلمون يريدون عير قريش حتى جمع الله تعالى بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد.

---

(١) سورة التوبة الآية ٧٤ .

ولقد شهدت مع رسول الله ﷺ ليلة العقبة حين تواثقنا على الإسلام، وما أحب أن لى بها مشهد بدر، وإن كانت بدر أذْكَر فى الناس منها.

وكان من خبرى حين تخلفت عن رسول الله ﷺ فى غزوة تبوك أنى لم أكن قط أقوى ولا أيسر منى حين تخلفت عنه فى تلك الغزوة، والله ما جمعت قبلها راحلتين قط حتى جمعتهما فى تلك الغزوة، ولم يكن رسول الله ﷺ يريد غزوة إلا ورَّى بغيرها حتى كانت تلك الغزوة، فغزاها رسول الله ﷺ فى حر شديد، واستقبل سفراً بعيداً ومفازا[1]،واستقبل عدداً كثيراً، فجلى للمسلمين أمرهم ليتأهبوا[2] أهبة غزوهم، فأخبرهم بوجههم الذى يريد، والمسلمون مع رسول الله كثير ولا يجمعهم كتاب حافظ «يريد بذلك الديوان».

قال كعب : فقل رجل يريد أن يتغيب إلا ظن أن ذلك سيخفى به ما لم ينزل فيه وحى من الله.

وغزا رسول الله ﷺ تلك الغزوة حتى طابت الثمار والظلال فأنا إليها أصعر[3]، فتجهز رسول الله ﷺ والمسلمون معه.

وطفقت أغدو لكى أتجهز معه، فأرجع ولم أقض شيئًا، وأقول فى نفسى : أنا قادر على ذلك إذا أردت.

فلم يزل يتمادى بى حتى استمر بالناس الجد، فأصبح رسول الله ﷺ غاديا والمسلمون معه، ولم أقض فى جهازى شيئًا. ثم غدوت فرجعت ولم أقض شيئًا، فلم يزل يتمادى بى حتى أسرعوا وتفارط الغزو[4]. فهممت أن أرتحل فأدركهم، فياليتنى فعلت، ثم لم يقدر ذلك لى.

فطفقت إذا خرجت فى الناس بعد خروج رسول الله ﷺ يحزننى أنى لا أرى لى أسوة إلا رجلاً مغموصاً عليه النفاق، أو رجلاً ممن عذر الله تعالى من الضعفاء.

---

(١) مفازاً : بفتح الميم : أى : بريةطويلة قليلة الماء، سميت بذلك تفاؤلاً، كما سمى اللديغ سليما.

(٢) الأهبة : بضم الهمزة وسكون الهاء : ما يحتاج إليه فى السفر والحرب

(٣) أصعر : أى أميل.

(٤) أى : فات وسبق،والفرط السابق.

ولم يذكرني رسول الله ﷺ حتى بلغ تبوك، فقال وهو جالس في القوم بتبوك : ما فعل كعب بن مالك؟

فقال رجل من بني سلمة : يا رسول الله حبسه برداه، والنظر في عطفيه.

فقال معاذ بن جبل رضي الله عنه : بئس ما قلت! والله يارسول الله ما علمنا عليه إلا خيرا، فسكت رسول الله ﷺ.

فبينا هو على ذلك رأى رجلاً مبيضا [1] يزول به السراب، فقال رسول الله ﷺ : كن أبا خيثمة، فإذا هو أبو خيثمة الأنصاري وهو الذي تصدق بصاع التمر حين لمزه [2] المنافقون.

قال كعب : فلما بلغني أن رسول الله ﷺ قد توجه قافلاً من تبوك حضرني بثي [3]، فطفقت أتذكر الكذب وأقول : بم أخرج من سخطه غدا؟ وأستعين على ذلك بكل ذي رأي من أهلي، فلما قيل: إن رسول الله ﷺ قد أظل قادما زاح عني الباطل حتى عرفت أني لم أنج منه بشيء أبدا، فأجمعت صدقه.

وأصبح رسول الله ﷺ قادما، وكان إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد فركع فيه ركعتين ثم جلس للناس.

فلما فعل ذلك جاء المخلفون يعتذرون إليه ويحلفون له، وكانوا بضعا وثمانين رجلاً، فقبل منهم علانيتهم وبايعهم واستغفر لهم ووكل سرائرهم إلى الله تعالى حتى جئت، فلما سلمت تبسم تبسم المغضوب ثم قال : تعال،

فجئت أمشي حتى جلست بين يديه، فقال لي : ما خلفك؟ ألم تكن ابتعت ظهرك [3]؟

قال: قلت : يارسول الله إني والله لوجلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أني سأخرج من سخطه بعذر؛ لقد أعطيتُ جدلا، ولكنني والله لقد

---

(١) مبيضاً : بكسر الباء التحتية : أي لابسا البياض،
والسراب : هو ما يظهر للإنسان في الهواجر في البراري كأنه ماء.

(٢) لمزه المنافقون : أي عابوه وطعنوه،وقالوا : إن الله غني عن صاع هذا.

(٣) قافلاً : راجعًا ،والبث : الحزن الشديد.

علمت لئن حدثتك اليوم حديث كذب ترضى به عنى ليوشكن الله يسخطك علي، وإن حدثتك حديث صدق تجد [١] علي فيه إني لأرجو فيه عقبى الله عز وجل، والله ما كان لي من عذر، والله ما كنت قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنك.

قال: فقال رسول الله ﷺ: «أما هذا فقد صدق، فقم حتى يقضي الله فيك».

وسار رجال من بني سلمة فاتبعوني، فقالوا لي: والله ما علمناك أذنبت ذنبًا قبل هذا، لقد عجزت في أن لا تكون اعتذرت إلى رسول الله ﷺ بما اعتذر إليه المخلفون، فقد كان كافي ذنبك استغفارُ رسول الله ﷺ لك.

قال: فوالله ما زالوا يؤنبونني حتى أردت أن أرجع إلى رسول الله فأكذب نفسي، ثم قلت لهم: هل لقي هذا معي من أحد؟

قالوا: نعم، لقيه معك رجلان قالا مثل ما قلت، وقيل لهما مثل ما قيل لك.

قال: قلت: من هما؟

قالوا: مرارة بن الربيع العمري، وهلال بن أمية الواقفي.

قال: فذكروا لي رجلين صالحين قد شهدا بدرًا[٢] فيهما أسوة.

قال: فمضيت حين ذكروهما لي.

ونهى رسول الله ﷺ عن كلامنا أيها الثلاثة من بين من تخلف عنه.

قال: فاجتنبنا الناس - أو قال: تغيروا لنا - حتي تنكرت لي في نفسي الأرض فما هي بالأرض التي أعرف، فلبثنا على ذلك خمسين ليلة.

فأما صاحباي فاستكانا وقعدا في بيوتهما يبكيان، وأما أنا فكنت أشب القوم وأجلدهم، فكنت أخرج فأشهد الصلاة مع المسلمين، وأطوف في الأسواق ولا يكلمني أحد، آتي رسول الله ﷺ فأسلم عليه، وهو في مجلسه بعد الصلاة، فأقول في نفسي: هل حرك شفتيه برد السلام أم لا؟

---

(٤) عرفت أنه لا ينجيني إلا الصدق وجزمت بذلك.

(١) هذا وهم من الزهري، فكلاهما لم يكونا من أهل بدر كما نبه عليه ابن قيم الجوزية في زاد المعاد ٣ / ٥٧٧ تحقيق شعيب الأرناؤوط.

ثم أصلي قريبًا منه وأسارقه النظر، فإذا أقبلت على صلاتى نظر إلى، وإذا التفت نحوه أعرض عنى، حتى إذا طال ذلك على من جفوة المسلمين مشيت حتى تسورت جدار حائط أبى قتادة، وهو ابن عمي وأحب الناس إلى، فسلمت عليه فوالله ما رد على السلام.

فقلت له : يا أبا قتادة أنشدك بالله هل تَعْلَمُنى أحب الله ورسوله ﷺ؟ فسكت. فعدت فناشدته، فسكت.

فعدت فناشدته، فقال : الله ورسوله أعلم.

● **امتحان لكعب**

يقول : ففاضت عيناى، وتوليت حتى تسورت الجدار.

فبينا أنا أمشي في سوق المدينة إذا نبطى من نبط أهل الشام ممن قدم بالطعام يبيعه بالمدينة يقول: من يدل على كعب بن مالك؟

فطفق الناس يشيرون له إلى حتى جاءنى فدفع إلى كتابًا من ملك غسان وكنت كاتبًا فقرأته، فإذا فيه :

أما بعد : فإنه قد بلغنا أن صاحبك قد جفاك، ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيعة، فالحق بنا نواسك».

فقلت حين قرأتها: وهذه أيضًا من البلاء، فتيممت بها التنور فسجرتها[1].

حتى إذا مضت أربعون من الخمسين، واستلبث[2] الوحى، إذا رسولُ رسولِ الله ﷺ يأتينى، فقال : إن رسول الله ﷺ يأمرك أن تعتزل امرأتك.

فقلت : أطلقها، أم ماذا أفعل؟

قال : لا، بل اعتزلها فلا تقربنها . وأرسل إلى صَاحِبَّى بمثل ذلك.

فقلت لامرأتى : الحقى بأهلك فكونى عندهم حتى يقضى الله فى هذا الأمر.

---

(١) أى : أوقدتها. (٢) أى : أبطأ

فجاءت امرأة هلال بن أمية رسول الله ﷺ ، فقالت له : يا رسول الله إن هلال بن أمية شيخ ضائع ليس له خادم، فهل تكره أن أخدمه ؟

قال : لا ، ولكن لا يقربنك.

فقالت : إنه والله ما به من حركة إلى شيء، والله ما زال يبكى منذ كان من أمره ما كان إلى يومه هذا.

فقال لى بعض أهلى : لو استأذنتَ رسول الله ﷺ فى امرأتك، فقد أذن لامرأة هلال بن أمية أن تخدمه؟

فقلت : لا أستأذن فيها رسول الله ﷺ ، وما يدرينى ماذا يقول رسول الله ﷺ إذا استأذنته فيها وأنا رجل شاب!

فلبثت بذلك عشر ليال، فكمل لنا خمسون ليلة من حين نهى عن كلامنا.

• وجاء الفرج

ثم صليت صلاة الفجر صباح خمسين ليلة على ظهر بيت من بيوتنا، فبينا أنا جالس على الحال التى ذكر الله تعالى منا، قد ضاقت علىَّ نفسى وضاقت علىَّ الأرض بما رحبت، سمعت صوت صارخٍ أوفى على سلع[1]، يقول بأعلى صوته :

يا كعب بن مالك أبشر، فخررت ساجداً وعرفت أنه قد جاء فرج.

فآذن رسول الله ﷺ الناس بتوبة الله عز وجل علينا حين صلى صلاة الفجر، فذهب الناس يبشروننا، فذهب قبل صَاحِبَى مبشرون. ورَكَضَ[2] رجل إلى فرسا، وسعى ساع من أسلم قِبَلى وأوفى على الجبل، وكان الصوت أسرع من الفرس، فلما جاءنى الذى سمعت صوته يبشرنى نزعت له ثَوْبَىَّ فكسوتهما إياه ببشارته، والله ما أملك غيرهما يومئذ ،واستعرت ثوبين فلبستهما ،

---

(١) أوفى : أى صعد، وسلع : جبل بالمدينة

(٢) الجرى الشديد.

وانطلقت أتأمم [1] رسول الله ﷺ يتلقاني الناس فوجًا فوجا يهنؤونني بالتوبة ويقولون لي : لتُهنَّكَ توبة الله عليك، حتى دخلت المسجد فإذا رسول الله ﷺ جالس حوله الناس، فقام طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه يهرول حتى صافحني وهنأني، والله ما قام رجل من المهاجرين غيره، فكان كعب لا ينساها لطلحة.

قال كعب : فلما سلمت على رسول الله ﷺ وهو يبرق وجهه من السرور، قال : أبشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك.

فقلت : أمن عندك يا رسول الله أم من عند الله؟

قال : لا ، بل من عند الله عز وجل.

وكان رسول الله ﷺ إذا سُرَّ استنار وجهه حتى كأن وجهه قطعة قمر، وكنا نعرف ذلك منه.

فلما جلست بين يديه قلت : يا رسول الله إن من توبتي أن أنخلع [2] من مالي صدقة إلى الله وإلى رسوله.

فقال رسول الله ﷺ : أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك.

فقلت : إني أمسك سهمي الذي بخيبر.

وقلت : يا رسول الله إن الله تعالى إنما أنجاني بالصدق، وإن من توبتي أن لا أحدِّث إلا صدقا فوالله ما علمت أحداً من المسلمين أبلاه الله تعالى في صدق الحديث منذ ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ أحسن مما أبلاني الله تعالى، والله ما تعمدت كذبة منذ قلت ذلك لرسول الله ﷺ إلى يومي هذا، وإني لأرجو أن يحفظني الله تعالى فيما بقي.

قال : فأنزل الله تعالى : ﴿لَقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ

---

(١) أي : أقصد ،والفوج: الجماعة.

(٢) أنخلع من مالي: أي أخرجَ منه جميعه وأتصدق به وأعرَى منه كما يَعْرى الإنسان إذا خلع ثوبه.

رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١١٧) وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لاَّ مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلاَّ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١١٨) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ (١) .

قال كعب : والله ما أنعم الله على من نعمة قط بعد إذ هدانى الله للإسلام أعظم فى نفسى من صدقى رسول الله ﷺ أن لا أكون كذبته، فأهلك كما هلك الذين كذبوا ؛ إن الله تعالى قال للذين كذبوا حين أنزل الوحى شر ما قال لأحد، فقال الله تعالى :﴿ سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٩٥) يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ (٢) .

قال كعب كنا خُلِّفْنَا أيها الثلاثة عن أمر أولئك الذين قبل منهم رسول الله ﷺ حين حلفوا له، فبايعهم واستغفر لهم،وأرجأ رسول الله ﷺ أمرنا حتى قضى الله تعالى فيه بذلك، قال تعالى : ﴿ وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا ﴾ وليس الذى ذكر مما خلفنا تخلفنا عن الغزو، وإنما هو تخليفه إيانا وإرجاؤه أمرنا عمن حلف له واعتذر له فقبل منه.

وفى رواية : « أن النبى ﷺ خرج فى غزوة تبوك يوم الخميس، وكان يحب أن يخرج يوم الخميس» .

وفى رواية : « وكان لا يقدم من سفر إلا نهارًا فى الضحى، فإذا قدم بدأ بالمسجد فصلى فيه ركعتين ثم جلس فيه .

قال الشاعر فى توبة كعب :

هل سمعتم عن غزوة فى (تبوك)	قصة تبعث المفاخر فينا؟
يوم نادى داعى الجهاد أعدوا	يوم قاد الرسول نصرًا مبينًا
يوم طاب الثمار والظل والنخـ	ـل فخفوا إلى الوغى صادقينا

---

(١) سورة التوبة الآيات ١١٧ - ١١٩ .

(٢) سورة التوبة الآيتان ٩٥ ، ٩٦ .

كان حر الصحراء يشوى ويغلى ... الرأس منه كان فيه أتونا
ما تخلفت عن رسولي سواها ... غير أني في (بدر) كنت مدينا
كنت والله أيسر القوم طرا ... إذ تخلفت في (تبوك) ضنينا
فأنا للظلال أطرب شوقا ... فاسكبي يا عيون مني عيونا
لَهْفي الحزن لا أرى أسوة لى ... غير مغموص في النفاق مهينا
أتنزَّى أسى وأمسى كئيبا ... كاسف البال شارداً محزونا
يا لحزني ولوعتي وشجوني ... ليتني كنت للغزاة قرينا!
عصر الحزن مهجتي إذ تخلفـ ... ـت وهاج الحنين دمعا سخينا
وتولى جيش النبى عزيزا ... يتخطى الردى ويطوى الحزونا
راح يطوى الصحراء وهي جحيم ... تتلظى وتلهب السالكينا
فإذا ما أتى (تبوكا) وألقى ... سأل المصطفى عن الغائبينا
(أين كعب)وهل تخلف عنا ... ما أراه الغداة إلا أمينا؟
ماله في الكماة كفء أيخشى ... شرَّة الحرب أو يهاب المنونا؟
فانبرى من (بنى سليمة)شخص ... هَزئا ساخرا مع الشامتينا
إن برديه طالما حبباه ... نشوة التيه سكرة المترفينا
بئس ما قلت قد أجاب (معاذ) ... ما عهدنا عليه سوءا ولينا
شامخ الروح رابط الجأش قرنٌ ... لا يهاب الردى يبز القرونا
يا لكعب، ويا ندامة كعب ... حركت في الضلوع منه الشجونا
عادني البَثُّ حين عاد إلينا ... فطفقنا نصوغ عذرا مبينا
غير أني صدقت فيها نبيي ... إن في الصدق راحة ومعينا
يا لصدق الإيمان ينبث في الأ ... عماق نارا تزكو ونورا مبينا
واستفاق الضمير حيا قويا ... يعلن الحق واضحا مستبينا
وأتاه المخلفون حيارى ... يحلفون الأيمان معتذرينا
غير أن الكذوب ليس بخاف ... يفضح الحق خطة الكاذبينا
والرسول الكريم يقبل عذرا ... تاركا أمرهم إلى الله حينا
وأتى كعب صادقا لا يبالى ... بمصير، وهل يخون الأمينا؟
إنما الصدق معقل وضياء ... إنما الصدق آية المؤمنينا

يا رســـول الإله مـــا لى عـــذر كنت أقـوى وأيســر الموســرينا
بأبى أنت يا حـــبــــيـــبى وأمى أنت أغلى من نفـــسنا والبنينا
أنا أخـــشى لئن كـــذبتك ألا أرضى الله وأكـــون خـــؤونا
قال : حقا صدقت يا كعب فانظر يقضى الله فيك أمـرا مـبـينا
مـا علمناك (كـعب) أذنبت يومـا أفـلا كـان فى اعـتــذارك هونا ؟
قـد أتوه بعـذرهم غـيـر (كـعب) صـدق المصطفى وكـان أمـينا
ونهى عن كـلامنا فـتـحـاشى الزوج والولد كم أثاروا الحنينا ! !
كل شىء يضـاعف الهم فى النفـــ ــس مـشـيـرا فى داء دفـينا
ضـاقت الأرض فى رحـابة وسع كـادت النفس أن تذوب أنينا
لكأنى أرى الحـيـاة جـحـيـمـا وأرانى من فـرط همى سـجـينا
وكـأنى فى خـاطر الهم مـعنى دق أوصـافـه فـذاب حنينا
رحت أمشى فى وهدة الكرب وحدى فلعلى أرى لبـشى مـعـينا
يا إلهى قـد تبت فـاغـفـر ذنوبى واقـبل توبتى وهب لى يقـينا
يـا إلهـى وعـدتى ومـلاذى كنت للمـؤمنين حـصنا حـصـينا
وتسـورت حـائطا لابن عـمى لا أرى غـيـره لبـثى خـدينا
ثم سلمت لم يرد سـلامى فـاستـفـاضت عيناى دمعا هتـونا
ابن عـمى لا يرد سـلامى يا لحـزن يشـيـر داء كـمـينا
وتواريت كـاسف البـال أسـوا ن أدارى همى وأطفى الشـجـونا
وكـأنى حـجـارة من جـمـاد فـيـخـال الرائى بنفـسى جنونا
رب قـد ضـاقت الحـيـاة وضـاقت بى نفس حتى اشتـهيت المنونا
وأتاه من ملك (غـسـان) داع ويح نفسى حتى اشتـهيت المنونا
أين (كـعب بن مـالك) أعلمـونى فـيـشـيرون ذلك يلقى الهـونا
قـد سـمعنا بجـفـوة من صديق فـإلى العـز والندى فـاتبـعـونا

مثل (كعب) لا يضاع وإني ... كافل أن تعيش عيشا مصونا

شهد الله ليست الأرض أرضا ... لا ولا هذه الحصون حصونا

فتيممت بالرسالة تنو ... را وأحرقتها وعدت حزينا

تلك أيضا من المصائب حقا ... كم أثاروا حول شخصي الظنونا

أي حزن قد هزني، أي حزن ... مستثيرا بين الحنايا الشجونا

ليت أرضي تنشق دون قرار ... عدت في هذه الحياة سجينا

ثم جاء الرسول يأمر (كعبا) ... باعتزال النساء حتى يبينا

موقف مؤلم وخطب جليل ... يالرزء بهوله قد دهينا

ومضى للفراق خمسون يوما ... وأتى الوحي فلتقروا عيونا

إيه (يا كعب يا ابن مالك) أبشر ... قبل الله توبة التائبينا

فلقد عدت بالقبول نقيا ... ومن الذنب طاهرا مأمونا

يغفر الله للذي تاب حقا ... يقبل الله توبة الصادقينا

خير يوم قد مر يا كعب أبشر ... ومن الله أحكم الحاكمينا

إن بعد العسر يسرا ونصرا ... إن عقبى الأمور للمؤمنينا

نشوة أي نشوة غمرته ... راح يبكي من السرور حنينا

إلى الله أن أقدم مبالي ... قال: أمسك عليك واخش السنينا

(كعب) أمسك عليك بعضا فخير ... أن تُرى دائنا ولست مدينا

فرحة خالطت بشاشة قلبي ... وأثارت في النفس حبا كمينا

يتجلى الإيمان في شأن كعب ... وتشيع الذرات فيه يقينا

رضي الله عنهم ورضوا عنـ ... ـه فنالوارضوانه أجمعينا

إنها توبة نصوح لعمري ... إنه من عبادنا المخلصينا

فهنيئا يا (كعب) توبة ربي ... بكتاب يتلى على العالمينا

الإحسان إلى النفس
بتقوى الله

من الإحسان إلى النفس تقوى الله عز وجل، والمتقون من الذين يحبهم الله تبارك وتعالى، قال جل شأنه : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴾ (١).

وقال تعالى : ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴾ (٢).

والتقوى لغة : قلة الكلام

وقد استعملت التقوى - بمعنى عام - في الصيانة والحذر والوقاية واجتناب ما هو مكروه أو قبيح أو ضار.

واصطلاحًا : هي التحرز من عقوبة الله تعالى وعذابه بطاعته واتباع أوامره واجتناب نواهيه.

وقد سأل عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - أبيًا عن التقوى، فقال : هل أخذت طريقًا ذاك شوك؟ قال : نعم . قال: فما عملت فيه ؟

قال : تشمرت وحذرت. قال : فذاك هو التقوى (٣).

وتنسب مثل هذه الإجابة إلى أبي هريرة عند الشوكاني (٤).

وتقوم التقوى - في جوهرها - على استحضار القلب لعظمة الله تعالى واستشعار هيبته وجلاله وكبريائه، والخشية لمقامه، والخوف من حسابه وعقابه (٥).

---

(١) سورة التوبة الآية ٤.

(٢) سورة آل عمران الآية ٧٦.

(٣) تفسير القرطبي ١ / ١٤٠.

(٤) فتح القدير للشوكاني ١ / ٣٤.

(٥) الموسوعة الإسلامية العامة - المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - موضوع التقوى د. عبد الحميد مدكور ص ٤١٢.

• نطاق التقوى

وإذا كان هذا هو معنى التقوى فإن نطاقها لا ينحصر في اجتناب الكبائر فحسب، بل إنه يمتد ليشمل كل ما فيه معنى المخالفة حتى لو كان من اللممَ أو الصغائر، وقد فُهِمَت التقوى هذا الفهم منذ عهد الصحابة الذين قال قائلهم: لا تنظر إلى صغر الذنب، ولكن انظر من عصيت.

بل إنهم جعلوا من تمام معناها أن تتضمن الورع عن بعض ما هو طيب أو حلال حذراً من مقاربة الحرام، وفي ذلك يقول أبو الدرداء: «تمام التقوى: أن يتقي اللهَ العبدُ حتى يتقيه من مثقال ذرة، وحتى يترك بعض ما يرى أنه حلال، خشية أن يكون حرامًا ....».

وهذا المعنى له أصل في سنة رسول الله ﷺ، فعن عطية السعدي قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يبلغ العبد أن يكون من المتقين حتى يدع ما لابأس به حذراً مما به بأس»(١).

وليست التقوى - كما يفهم من معناها اللغوي وبعض استعمالاتها الشرعية - مقصورة على الحذر والاجتناب للمعاصي والرذائل، بل إنها تتضمن - كذلك - جانب الفضائل والطاعات العملية الإيجابية، ويظهر هذا في عديد من الآيات القرآنية ولعل أكثرها دلالة على هذا التكامل آية البر المشهورة، وهي قوله تعالى: ﴿ لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾ (٢).

---

(١) أخرجه أحمد والبخاري في تاريخه.

(٢) سورة البقرة الآية ١٧٧.

وقد أمر الحق تبارك وتعالى بتقواه فقال عز من قائل : ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ ﴾ (١).

وقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ (٢).

وقال جل شأنه : ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنفِقُوا خَيْرًا لأَنفُسِكُمْ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (٣).

وقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهًا (٦٩) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ (٤).

وقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾ (٥).

وقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴾ (٦).

وقال سبحانه : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ (٧).

وقال جل شأنه : ﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾ (٨).

وقال سبحانه : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلائِكَةٌ غِلاظٌ شِدَادٌ لاَّ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ (٩) .

---

(١) سورة النساء الآية ١٣١.
(٢) سورة آل عمران الآية ١٠٢.
(٣) سورة التغابن الآية ١٦.
(٤) سورة الأحزاب الآيات ٦٩ - ٧١.
(٥) سورة التوبة الآية ١١٩.
(٦) سورج الحج الآية ١.
(٧) سورة الحشر الآية ١٨.
(٨) سورة البقرة الآية ٢٤.
(٩) سورة التحريم الآية ٦.

وقال سبحانه : ﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ ﴾ (١).

وقال تعالى : ﴿ يُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنذِرُوا أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاتَّقُونِ ﴾ (٢).

وقال تعالى : ﴿ وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ ﴾ (٣).

وقال جل جلاله : ﴿ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الأَلْبَابِ ﴾ (٤).

وقال سبحانه وتعالى : ﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلا تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ (٥).

وقال تبارك وتعالى : ﴿ فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾ (٦).

وقال تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴾ (٧).

وقال سبحانه : ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ (٨).

وهكذا يتبين لنا أن أول وصايا الله بالتقوى كانت لبني آدم، قال تعالى : ﴿ يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَلِكَ خَيْرٌ ﴾ (٩).

---

(١) سورة البقرة الآية ٢٨١.
(٢) سورة النحل الآية ٢.
(٣) سورة المؤمنون الآية ٥٢.
(٤) سورة البقرة الآية ١٩٧.
(٥) سورة المائدة الآية ٢.
(٦) سورة الفتح الآية ٢٦.
(٧) سورة البقرة الآية ٢٠٦.
(٨) سورة الحشر الآية ٧.
(٩) سورة الأعراف الآية ٢٦.

وهى وصية الله للمسلمين وللأمم من قبلهم، قال تعالى :﴿ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ ﴾ (١).

وقد جعل الله التقوى من أعظم أسباب البركة فى الأرزاق، ومن أعظم أسباب تفريج الكروبات، وتكفير السيئات، وزيادة الحسنات،والخروج من المضايق والأزمات.

وإذا كان القرآن الكريم قد تحدث عن التقوى وعن المتقين وما أعده الله تبارك وتعالى لهم فإن السنة أيضاً قد تحدثت عنها وحثت عليها.

فعن أبى ذر جندب بن جنادة وأبى عبد الرحمن معاذ بن جبل رضى الله عنهما، عن رسول الله ﷺ أنه قال : «اتق الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن» (٢).

وعن أبى نجيح العرباض بن سارية رضى الله عنه قال : وعظنا رسول الله ﷺ موعظة وجلت منها القلوب، وذرفت منها العيون، فقلنا : يا رسول الله كأنها موعظة مودع، فأوصنا.

قال : « أوصيكم بتقوى الله عز وجل، والسمع والطاعة وإن تأمر عليكم عبد، فإنه من يعش منكم فسيرى اختلافًا كثيراً، فعليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، عضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل بدعة ضلالة» (٣).

وقال رجل ليونس بن عبيد : أوصنى . فقال : أوصيك بتقوى الله والإحسان، فإن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون.

وقيل لرجل من التابعين عند موته أوصنا ، فقال : أوصيكم بخاتمة سورة النحل : ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾ (٤).

(١) سورة النساء الآية ١٣١. (٢) رواه الترمذى وقال : حديث حسن.

(٣) رواه أبو داود والترمذى وقال : حديث حسن صحيح.

(٤) سورة النحل الآية ١٢٨ .

وكتب رجل منهم إلى أخ له : أوصيك ونفسى بالتقوى فإنها خير زاد الآخرة والأولى، واجعلها إلى كل خير سبيلك، ومن كل شر مهربك، فقد تكفل الله عز وجل لأهلها بالنجاة مما يحذرون والرزق من حيث لا يحتسبون.

وقال شعبة : كنت إذا أردت الخروج قلت للحكم : ألك حاجة؟

فقال : أوصيك بما أوصى به النبى ﷺ أباد ذر : «اتق الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن»[1].

وقد ثبت عن النبى ﷺ أنه كان يقول فى دعائه : «اللهم إنى أسألك الهدى والتقى والعفة والغنى».

وقال أبو ذر : «قرأ رسول الله ﷺ هذه الآية ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ۝٢﴾ ثم قال : « يا أبا ذر لو أن الناس كلهم أخذوا بها لكفتهم».

فقوله ﷺ : «اتق الله حيثما كنت» مراده فى السر والعلانية حيث يراه الناس وحيث لا يرونه.

ومن حديث أبى ذر أن النبى ﷺ قال له : «أوصيك بتقوى الله فى سر أمرك وعلانيته».

وكان النبى ﷺ يقول فى دعائه : «أسألك خشيتك فى الغيب والشهادة» وخشية الله فى الغيب والشهادة من المنجيات.

ومن حديث أبى الطفيل عن معاذ أن النبى ﷺ قال له : «استح من الله استحياء رجل ذى هيبة من أهلك»[2] وهذا هو السبب الموجب لخشية الله فى السر فإن من علم أن الله يراه حيث كان وأنه مطلع على باطنه وظاهره وسره

(١) أخرجه الترمذى فى سننه - أبواب البر والصلة - باب ماجاء فى معاشرة الناس. وقال عنه :هذا حديث حسن صحيح .

(٢) سبق تخريجه.

وعلانيته، واستحضر ذلك في خلوته أوجب له ذلك ترك المعاصي في السر، وإلى هذا المعنى الإشارة في القرآن بقوله تعالى : ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ (1).

كان بعض السلف يقول لأصحابه : زهدنا الله وإياكم في الحرام زهد من قدر عليه في الخلوة فعلم أن الله يراه فتركه من خشيته أو كما قال.

وقال الشافعي: أعز الأشياء ثلاثة : الجود من قلة، والورع في خلوة، وكلمة الحق عند من يُرْجى أو يُخَاف.

وكتب ابن السماك الواعظ إلى أخ له: أما بعد :

أوصيك بتقوى الله الذي هو نجيك في سريرتك ورقيبك في علانيتك، فاجعل الله في بالك على كل حال في ليلك ونهارك، وخف الله بقدر قربه منك وقدرته عليك، واعلم أنك بعينه ليس تخرج من سلطانه إلى سلطان غيره ولا من ملكه إلى ملك غيره فليعظم منه حذرك وليكثر منه وجلك والسلام.

قال أبو الجلد : أوحى الله تعالى إلى نبي من الأنبياء: قل لقومك ما بالكم تسترون الذنوب من خلقي وتظهرونها لي! إن كنتم ترون أني لا أراكم فأنتم مشركون بي، وإن كنتم ترون أني أراكم فَلِمَ تجعلوني أهون الناظرين إليكم؟

وكان وهب بن الورد يقول: خف الله على قدر قدرته عليك واستح منه على قدر قربه منك.

وقال له رجل عظني، فقال له : اتق الله أن يكن أهون الناظرين إليك.

وكان بعض السلف يقول: أتراك ترحم من لم يقر عينيه بمعصيتك حتى علم أن لا عين تراه غيرك ؟

وقال بعضهم : ابن آدم إن كنت حيث ركبت المعصية لم تصف لك من عين

(1) سورة النساء الآية 1 .

ناظرة إليك، فلما خلوت بالله وحده صفت لك معصيته ولم تستح منه حياءك من بعض خلقه،ما أنت إلا أحد رجلين.

إن كنت ظننت أنه لا يراك فقد كفرت.

وإن كنت علمت أنه يراك فلم يمنعك منه ما منعك من أضعف خلقه فقد اجترأت.

دخل بعضهم غيضة [1] ذات شجر فقال: لو خلوت ههنا بمعصية : من كان يراني؟ فسمع هاتفاً بصوت ملأ الغيضة ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير.

و راود بعضهم أعرابية وقال لها : ما يرانا إلا الكواكب، قالت: أين مكوكبها؟

رأى محمد بن المنكدر رجلاً واقفاً مع امرأة يكلمها فقال:

إن الله يراكما سترنا الله وإياكما.

وقال الحارث المحاسبي: المراقبة على القلب بقرب الرب.

وسئل الجنيد بم يستعان على غض البصر؟

قال: بعلمك أن نظر الله إليك أسبق إلى ما تنظره،

وكان الإمام أحمد ينشد:

إذا ما خلوت الدهر يوماً فلا تقل	خلوت ولكن قل على رقيب
ولا تحسبن الله يغفل ساعة	ولا أن ما يخفى عليه يغيب

وكان ابن السماك ينشد:

يا مدمن الذنب أما تستحي	والله في الخلوة ثانيكا
غرك من بك إمهاله	وستره طول مساويكا

(١) الغيضة : مغيض ماء يجتمع فينبت فيه الشجر «اللسان».

وأن النبى ﷺ لما أوصى معاذ بتقوى الله سراً وعلانية أرشده إلى ما يعينه على ذلك وهو أن يستحى من الله كما يستحى من رجل ذى هيبة من قومه.

ومعنى ذلك أن يستشعر دائماً بقلبه قرب الله منه واطلاعه عليه فيستحى من نظره إليه، وقد امتثل معاذ ما وصاه به النبى ﷺ . وكان عمر قد بعثه على عمل فقدم وليس معه شيء فعاتبته امرأته.

فقال: كان معى ضاغط: يعنى من يضيق على ويمنعنى من أخذ شيء، وإنما أراد معاذ ربه عز وجل، فظنت امرأته أن عمر بعث معه رقيباً، فقامت تشكوه إلى الناس.

ومن صار له هذا المقام حالا دائماً أو غالباً فهو من المحسنين الذين يعبدون الله كأنهم يرونه، ومن المحسنين الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم.

وفى الجملة فتقوى الله فى السر هو علامة كمال الإيمان وله تأثير عظيم فى إلقاء الله لصاحبه الثناء فى قلوب المؤمنين. وفى الحديث«ما أسَرَّ عبد سريرة إلا ألبسه الله رداءها علانية إن خيرا فخير، وإن شراً فشر» روى هذا مرفوعاً.

وروى عن ابن مسعود من قوله وقال أبو الدرداء : ليتق أحدكم أن تلعنه قلوب المؤمنين، وهو لا يشعر ، يخلو بمعاصى الله فيلقى الله له البغض فى قلوب المؤمنين.

وقال سليمان التيمى: إن الرجل ليصيب الذنب فى السر فيصبح وعليه مذلته.

وقال غيره: إن العبد ليذهب الذنب فيما بينه وبين الله ثم يجيء إلى إخوانه فيرون أثر ذلك عليه وهذا من أعظم الأدلة على وجود الإله الحق المجازى بذرات الأعمال فى الدنيا قبل الآخرة، ولا يضيع عنده عمل عامل، ولاينفع من قدرته حجاب ولا استتار، فالسعيد من أصلح ما بينه وبين الله، فإنه من أصلح ما بينه

وبين الله أصلح الله ما بينه وبين الخلق. ومن التمس محامد الناس بسخط الله عاد حامده من الناس ذاماً له .

قال أبو سليمان : إن الخاسر من أبدى للناس صالح عمله وبارز بالقبيح من هو أقرب إليه من حبل الوريد .

ومن أعجب ما روى فى هذا ما روى عن أبى جعفر السائح قال : كان حبيب أبو محمد تاجراً يكرى الدراهم ، فمر ذات يوم بصبيان فإذا هم يلعبون ، فقال بعضهم لبعض : قد جاء آكل الربا ، فنكس رأسه وقال : يا رب أفشيت سرى إلى الصبيان .

فرجع فجمع ماله كله وقال : يا رب إنى أسير وإنى قد اشتريت نفسى منك بهذا المال فأعتقنى ، فلما أصبح تصدق بالمال كله وأخذ فى العبادة ، ثم مر ذات يوم بأولئك : الصبيان ، فلما رأوه قال بعضهم لبعض : اسكتوا فقد جاء حبيب العباد ، فبكى وقال : يا رب أنت تذم مرة وتحمد مرة وكله من عندك .

وقوله ﷺ : «وأتبع السيئة الحسنة تمحها» لما كان العبد مأموراً بالتقوى فى السر والعلانية مع أنه لابد أن يقع منه أحياناً تفريط فى التقوى إما بترك بعض المأمورات أو بارتكاب بعض المحظورات ، فأمره بأن يفعل ما يمحو به هذه السيئة وهو أن يتبعها بالحسنة ، قال الله عز وجل : ﴿ وَأَقِمِ الصَّلاَةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِينَ ﴾ (١) .

وفى الصحيحين عن ابن مسعود أن رجلاً أصاب من امرأة قبلة ثم أتى النبى ، فذكر ذلك له فسكت النبى ﷺ حتى نزلت هذه الآية فدعاه فقرأها عليه ،

فقال رجل هذا له خاص ؟ قال : بل للناس عامة .

وقد وصف الله المتقين فى كتابه بمثل ما وصى به النبى ﷺ فى هذه الوصية فى قوله عز وجل : ﴿ وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ

---

(١) سورة هود الآية ١١٤ .

أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُوْلَئِكَ جَزَاؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴾ [١].

فوصف المتقين بمعاملة الخلق بالإحسان إليهم بالإنفاق وكظم الغيظ والعفو عنهم، فجمع بين وصفهم ببذل الندى واحتمال الأذى، وهذا هو غاية حسن الخلق الذى وصى به النبى ﷺ معاذ بن جبل، ثم وصفهم بأنهم - إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم - ولم يصروا عليها، فدل على أن المتقين قد يقع منهم أحياناً كبائر وهى الفواحش، وصغائر وهى ظلم النفس، لكنهم لا يصرون عليها بل يذكرون الله عقب وقوعها ويستغفرونه ويتوبون إليه منها، والتوبة: هى ترك الإصرار.

ومعنى قوله : ذكروا الله : ذكروا عظمته وشدة بطشه وانتقامه وما يوعد به على المعصية من العقاب، فيوجب ذلك لهم الرجوع فى الحال والاستغفار وترك الإصرار قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴾ [٢].

وفى الصحيحين عن النبى ﷺ قال :«إذا أذنب عبد ذنباً فقال: رب إنى عملت ذنباً فاغفر لى، فقال الله علم عبدى أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ بالذنب قد غفرت لعبدى. ثم إذا أذنب ذنباً آخر، إلى أن قال فى الرابعة :فليعمل ما شاء » يعنى مادام على هذه الحال كلما أذنب ذنباً استغفر منه.

---

(١) سورة آل عمران الآيات ١٣٣-١٣٦ .

(٢) سورة الأعراف الآية ٢٠١ .

قال الشاعر :

أجـــل ذنــوبى عــند عفــوك سيدى　　حقير وإن كانت ذنوبى عظائما

ومـــازلتَ غفـــارا ومـــازلتَ راحمـــا　　ومـــازلتَ ستارا علىَّ الجـــرائما

لئن كنت قد تابعتُ جهلى فى الهوى　　وقضيتُ أوتـــار البطـــالة هائما

فهـــا أنا قـــد أقررت يا رب بالـــذى　　جنيت وقد أصبحتُ حيران نادما

وفى حديث أبى بكر الصديق رضى الله عنه، عن النبى ﷺ قال: «ما أصر من استغفر ولو عاد فى اليوم سبعين مرة» [١].

وخـــرج الحـــاكم مـــن حـــديث عقبة بن عامر : أن رجلاً أتى النبى ﷺ قـــال : يا رسول الله أحدنا يذنب؟

قال: «يكتب عليه» .

قال : ثم يستغفر منه ويتوب،

قال: «يغفر له ويثاب عليه، ولا يمل الله حتى تملوا» [٢].

● من هم المتقون ؟

المتقون كما عرفهم الإمام على - كرم الله وجهه - :

هم أهل الفـضـائل، منطقـهم الصـواب، وملبـسـهم الاقـتـصـاد، ومشـيـهم التـواضـع، غـضوا أبـصارهم عـمـا حرم الله عليـهم، ووقفوا أسـمـاعـهم على العلم النافع لهم، نـزلت أنفسـهـم منهم فى البـلاء كـمـا نزلت فى الرخـاء، ولولا الأجل الذى كتب الله لهم لم تستقر أرواحهم فى أجسادهم طرفة عين شوقًا إلى الثواب وخوفًا من العقاب، عظم الخالق فى أنفسـهـم فـصـغر ما دونـه فى أعـينهم، فـهـم والجنة كـمن قـد رآها، فـهـم فـيـهـا منعـمـون، وهم والنار كـمن رآها فـهم فـيـهـا معذبون، قلوبهم محزونة، وشرورهم مأمونة، وأجسـادهم نحيفة، وحاجاتهم

(١) رواه الترمذى .

(٢) جامع العلوم والحكم لابن رجب ص ٢١٤ : ٢١٧ .

خفيفة، وأنفسهم عفيفة، صبروا أيامًا قصيرة، أعقبتهم راحة طويلة، وتجارة مربحة يسرها لهم ربهم، أرادتهم الدنيا فلم يريدوها، وأسرتهم ففدوا أنفسهم منها.

أما الليل فصافون أقدامهم، تالين لأجزاء القرآن الكريم يرتلونه ترتيلا، يحزنون به أنفسهم ويستثيرون به دواء دائهم.

فإذا مروا بآية فيها تشويق ركنوا إليها طمعا، وتطلعت نفوسهم إليها شوقا، وظنوا أنها نصب أعينهم، وإذا مروا بآية فيها تخويف أصغوا إليها مسامع قلوبهم، وظنوا أن زئير جهنم وشهيقها فى أصول آذانهم، فهم حانون على أوساطهم، مفترشون لجباههم وأكفهم وركبهم وأطراف أقدامهم، يطلبون إلى الله تعالى فكاك رقابهم.

وأما النهار فحلماء علماء أبرار، قد براهم الخوف برى القداح، ينظر إليهم الناظر فيحسبهم مرضى وما بالقوم من مرض، ويقول قد خولطوا ولقد خالطهم أمر عظيم، لا يرضون من أعمالهم القليل، ولا يستكثرون الكثير، فهم لأنفسهم متهمون، ومن أعمالهم مشفقون، إذا زكى أحدهم خاف مما يقال، فيقول: أنا أعلم بنفسى من غيرى وربى أعلم بى من نفسى، اللهم لا تؤاخذنى بما يقولون، واجعلنى أفضل مما يظنون، واغفر لى ما لا يعلمون.

فمن علامة أحدهم أنك ترى له قوة فى دين، وحزمًا فى لين، وإيمانًا فى يقين، وحرصًا فى علم، وعلمًا فى حلم، وقصداً فى غنى، وخشوعًا فى عبادة، وتجملاً فى فاقة، وصبراً فى شدة، وطلبًا فى حلال، ونشاطًا فى هدى، وتحرجًا عن طمع.

يعمل الأعمال الصالحة وهو على وجل، يمسى وهمه الشكر، ويصبح وهمه الذكر، يبيت حذرا، ويصبح فرحا، حذرا لما حذر من الغفلة، وفرحا بما أصاب

من الفضل والرحمة، إن استصعبت عليه نفسه بما تكره لم يعطها سؤلها فيما تحب.

قوة عينه فيما لا يزول، وزهادته فيما لا يبقى، يمزج الحلم بالعلم، والقول بالعمل، تراه قريبا أمله، قليلاً زلله، خاشعًا قلبه، قانعة نفسه، منزورا أكله، سهلاً أمره، حريزا دينه، ميتة شهوته، مكظوما غيظه، الخير منه مأمول، والشر منه مأمون.

إن كان في الغافلين كتب في الذاكرين، وإن كان في الذاكرين لم يكتب في الغافلين، يعفو عمن ظلمه، ويعطي من حرمه، ويصل من قطعه، بعيداً فحشه، لينا قوله، غائبا منكره، حاضرا معروفه، مقبلا خيره، مدبراً شره، في الزلازل وقور، وفي المكاره صبور، وفي الرخاء شكور.

لا يحيف على من يبغض، ولا يأثم فيمن يحب، يعترف بالحق قبل أن يشهد عليه، لا يضيع ما استحفظ، ولا ينسى ما ذكر، ولا ينابز بالألقاب، ولا يضار بالجار، ولا يشمت بالمصاب، ولا يدخل في الباطل، ولا يخرج من الحق.

إن صمت لم يغمه صمته، وإن ضحك لم يعل صوته، وإن بغى عليه صبر حتى يكون الله هو الذى ينتقم له. نفسه منه في عناء ، والناس منه في راحة، أتعب نفسه لآخرته، وأراح الناس من نفسه (1).

● **نماذج من المتقين**

١ - دخل مسلمة بن عبد الملك على عمر بن عبد العزيز في المرضة التي مات فيها، فقال له : يا أمير المؤمنين إنك فطمت أفواه ولدك عن هذا المال، وتركتهم عالة، ولابد لهم من شيء يصلحهم، فلو أوصيت بهم إلي أو إلى نظرائك من أهل بيتك لكفيتك مؤونتهم إن شاء الله .

---

(1) انظر : موارد الظمآن لدروس الزمان ١ / ٤٧٢، ٤٧٣

فقال عمر : أجلسونى فأجلسوه.

فقال : الحمد لله، أبالله تخوفني يا مسلمة؟ . أما ما ذكرت أنى فطمت أفواه ولدى عن هذا المال، وتركتهم عالة، فإنى لم أمنعهم حقًا هو لهم، ولم أعطهم حقا هو لغيرهم.

وأما ما سألت من الوصاة إليك، أو إلى نظرائك من أهل بيتى، فإن وصيتى بهم إلى الله الذى نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين.

وإنما بنو عمر أحد رجلين :

رجل اتقى الله فجعل له من أمره يسرا، ورزقه من حيث لايحتسب.

ورجل غير وفجر، فلا يكون عمر أول من أعانه على ارتكابه الآثام.

أدعوا إلىّ بَنِيّ.

فدعوهم وهم يومئذ اثنا عشر غلاما، فجعل يصعد بصره فيهم ويصوبه حتى اغرورقت عيناه بالدمع، ثم قال: بنفسى فِتْيَة تركتهم ولا مال لهم !!

يا بنى : إنى قد تركتكم من الله بخير، إنكم لا تمرون على مسلم ولا معاهد إلا ولكم عليه حق واجب إن شاء الله.

يابنى : لقد أدرت رأيى بين أن تفتقروا فى الدنيا، وبين أن يدخل أبوكم النار، فكان أن تفتقروا إلى آخر الأبد خيراً من دخولكم وأبيكم يومًا واحداً فى النار.

قوموا يا بنى عصمكم الله ورزقكم.

قال: فما احتاج أحد من أولاد عمر ولا افتقر [١].

وكأنى بعمر رضى الله عنه يتمثل قول الحق تبارك وتعالى : ﴿ وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً ﴿٩﴾ ﴾ [٢].

---

(١) مع الله للشيخ محمد الغزالى ص ٤٦٨، ٤٦٩ .

(٢) سورة النساء الآية ٩ .

٢ - تزوج رجل على امرأته زوجة ثانية دون علمها، فبقي على هذا ثمانية أشهر، فأنكرت ابنة عمه أحواله، فقالت لجارية لها: إذا خرج فانظرى أين يمضي.

فتبعته الجارية، فجاء إلى الدكان، فلما جاء الظهر قام وتبعته الجارية وهو لا يدرى، إلى أن دخل بيت تلك المرأة «الزوجة الثانية».

فجاءت الجارية إلى الجيران فسألتهم لمن هذه الدار؟

فقالوا: لصبية قد تزوجت برجل تاجر بزاز، فعادت إلى سيدتها فأخبرتها، فقالت لها: إياك أن يعلم بهذا أحد، ولم تظهر لزوجها شيئًا.

فأقام الرجل تمام السنة، ثم مرض ومات، وخلف ثمانية آلاف دينار، فعمدت المرأة «الزوجة الأولى» إلى ما يستحقه الولد من الشركة وهو سبعة آلاف دينار فأفردتها، وقسمت الألف الباقية نصفين «لأن للزوجة أو الزوجات الثمن في وجود الولد، وهذا له ولد وزوجتان، فللزوجتين الثمن وهو ألف يقسم بينهما»، وتركت النصف في كيس، وقالت للجارية: خذى هذا الكيس واذهبى إلى بيت المرأة «تقصد ضرتها»، وأعلميها أن الرجل مات وخلف ثمانية آلاف دينار، وقد أخذ الابن سبعة آلاف بحقه، وبقيت ألف فقسمتها بيني وبينك، وهذا حقك وسلميه إليها.

فمضت الجارية فطرقت عليها الباب ودخلت، وأخبرتها خبر الرجل، وحدثتها بموته وأعلمتها الحال.

فبكت الجارية، وفتحت صندوقها وأخرجت منه رقعة، وقالت للجارية: عودى إلى سيدتك وسلمى عليها عنى، وأعلميها أن الرجل طلقني وكتب لي براءة، وردى عليها هذا المال، فإني لا استحق من تركته شيئًا.

فخرجت الجارية وأخبرتها بهذا الحديث [١] أ. هـ.

---

(١) ابن الجوزى - صفة الصفوة ٢ / ٥٣٢.

فأى تقوى هذه؟

الزوجة الأولى اتقت الله فى الزوجة الثانية وأرسلت لها نصيبها فى الميراث الذى لاتدرى عنه شيئًا، والثانية اتقت الله ولم تأخذ مالاً ليس من حقها.

٣ - روى فى سيرة الخليفة عمر بن الخطاب رضى الله عنه: أنه سمع بكاء صبى فتوجه نحوه، فقال لأمه: اتقى الله وأحسنى إلى صبيك، ثم عاد إلى مكانه،

ثم سمع بكاءه فعاد إلى أمه فقال لها ذلك، ثم عاد إلى مكانه.

فلما كان من آخر الليل سمع بكاءه، فقال ويحك إنى لأراك أم سوء،

مالى أرى ابنك لا يرقد الليلة؟

قالت: يا عبد الله قد أبرمتى [١] هذه الليلة، إنى أربعه [٢] عن الفطام فيأبى عليه.

قال: ولم؟ قالت: لأن عمر لا يفرض إلا للفطيم.

فسألها عن عمره، ثم قال لها: ويحك لا تعجليه.

فصلى رضى الله عنه الفجر وما يستبين الناس قراءته من غلبة البكاء، فلما سلم قال: يا بؤسا لعمر، كم قتل من أولاد المسلمين!، ثم أمر مناديًا فنادى أن لا تعجلوا صبيانكم عن الفطام فإنه نفرض لكل مولود فى الإسلام،وكتب بذلك إلى الآفاق [٣]

٤ - عن عبد الله بن عمر عن رسول الله ﷺ أنه قال: بينما ثلاثة نفر يتمشون أخذهم المطر فأووا إلى غار فى جبل فانحطت على فم غارهم صخرة من الجبل فانطبقت عليهم، فقال بعضهم لبعض: انظروا أعمالاً عملتموها صالحة لله فادعوا الله تعالى بها لعل الله يفرجها عنكم.

---

(١) أبرمتنى: يقال أبرمه فلان إبراما: أى أمله وأضجره «اللسان: برم».

(٢) أربعه: أى توقفه وتقصره عن الرضاع «اللسان: أربع» تريد أعوده على الفطام.

(٣) انظر ابن الجوزى، وتاريخ عمر بن الخطاب، قدم له وعلق عليه أسامة عبد الكريم الرفاعى ص٨٤، ٨٥.

فقال أحدهم : اللهم إنه كان لى والدان شيخان كبيران ، وامرأتى ولى صبية صغار أرعى عليهم ، فإذا أرحت عليهم حلبت فبدأت بِوَالِدَىَّ فسقيتهما قبل بَنِيَّ ، وأنه نأى بى ذات يوم الشجر فلم آت حتى أمسيت فوجدتهما قد ناما ،فحلبت كما كنت أحلب ، فجئت بالحلاب فقمت عند رؤوسهما أكره أن أوقظهما من نومها وأكره أن أسقى الصبية قبلهما ، والصبية يتضاغون عند قدمى ، فلم يزل ذلك دأبى ودأبهم حتى طلع الفجر ، فإن كنت تعلم أنى فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج لنا منها نرى السماء ، ففرج الله منها فرجة ، فرأوا منها السماء .

وقال الآخر : اللهم إنه كانت لى ابنة عم أحببتها كأشد ما يحب الرجال النساء ، وطلبت إليها نفسها فأبت حتى آتيها بمائة دينار فتعبت حتى جمعت فجئتها بها ، فلما وقعت بين رجليها ، قالت : يا عبد الله اتق الله ولا تفتح الخاتم إلا بحقه ، فقمت عنها ، فإن كنت تعلم أنى فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج لنا منها فرجة ، ففرج لهم .

وقال الآخر : اللهم إنى كنت استأجرت أجيراً بفرق أرز[1] ، فلما قضى عمله قال : أعطنى حقى فعرضت عليه فرقه فرغب عنه ، فلم أزل أزرعه حتى جمعت منه بقراً ورعاءها ، فجاءنى فقال : اتق الله ولا تظلمنى حقى .

قلت : اذهب إلى تلك البقر ورعائها فخذها .

فقال : اتق الله ولاتستهزئ بى .

فقلت : إنى لا أستهزئ بك خذ هذه البقر ورعاءها ، فأخذه فذهب به ، فإن كنت تعلم أنــى فعــلت ذلك ابتغــاء وجهــك ، فافرج لنا ما بقى ، ففرج الله ما بقى [2] .

---

(١) الفرق : بفتح الراء وإسكانها ، لغتان ،الفتح أجود وأشهر ، وهو إناء يسع ثلاثة آصع .

(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه - كتاب الحرث والمزارعة .

• من ثمرات التقوى

ومن ثمرات التقوى التي يجنيها المتقون :

(١) الانتفاع بالقرآن الكريم والهداية به، قال تعالى : ﴿ ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ (١).

(٢) المكانة العالية عند الله، قال تعالى : ﴿ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ (٢).

(٣) تعليم الحق تبارك وتعالى للمتقين، قال تعالى : ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (٣).

(٤) الجنات والأنهار والخلود والأزواج المطهرة ورضوان الله، قال تعالى : ﴿ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴾ (٤).

وقال سبحانه : ﴿ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (٥).

(٥) محبة الله عز وجل، قال تعالى : ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴾ (٦).

وقال جل شأنه : ﴿ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴾ (٧).

(٦) معية الله سبحانه ،قال تعالى : ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾ (٨).وقال جل وعلا :﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ (١٢٨) ﴾ (٩).

(٧) الفلاح، قال تعالى: ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٠٠) ﴾ (١٠).

(٨) انتفاء الخوف والحزن وحصول الفوز والبشارة، قال تعالى: ﴿ فَمَنِ اتَّقَىٰ

---

(١) سورة البقرة الآية ٢ .

(٢) سورة البقرة الآية ٢١٢ .

(٣) سورة البقرة الآية ٢٨٢ .

(٤) سورة آل عمران الآية ١٥ .

(٥) سورة آل عمران الآية ١٣٣ .

(٦) سورة آل عمران الآية ٧٦ .

(٧) سورة التوبة الآية ٧ .

(٨) سورة البقرة الآية ١٩٤ .

(٩) سورة النحل الآية ١٢٨ .

(١٠) سورة المائدة الآية ١٠٠ .

وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ (١). وقال سبحانه : ﴿ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴿٦٢﴾ الذين آمنوا وكانوا يتقون ﴿٦٣﴾ لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة لا تبديل لكلمات الله ذلك هو الفوز العظيم ﴿٦٤﴾ ﴾(٢).

(٩) فتح البركات من السماء والأرض، قال تعالى : ﴿ ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون ﴿٩٦﴾ ﴾ (٣).

(١٠) الحفظ من وساوس الشيطان، قال تعالى : ﴿ إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون ﴿٢٠١﴾ ﴾ (٤).

(١١) الفرق بين الحق والباطل قال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقانا ويكفر عنكم سيئاتكم ويغفر لكم والله ذو الفضل العظيم ﴿٢٩﴾ ﴾ (٥) .

(١٢) ولاية الله سبحانه وتعالى، قال تعالى : ﴿ وإن الظالمين بعضهم أولياء بعض والله ولي المتقين ﴿١٩﴾ ﴾ (٦).

(١٣) النجاة من النار والهلاك، قال تعالى : ﴿ وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتما مقضيا ﴿٧١﴾ ثم ننجي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثيا ﴿٧٢﴾ ﴾ (٧) ، وقال سبحانه : ﴿ ونجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون ﴿١٨﴾ ﴾ (٨).

(١٤) الانضمام لوفد الرحمن، قال تعالى : ﴿ يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفدا ﴿٨٥﴾ ﴾ (٩).

(١٥) حسن العاقبة قال تعالى : ﴿ وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها لا نسألك رزقا نحن نرزقك والعاقبة للتقوى ﴿١٣٢﴾ ﴾ (١٠). وقال جل شأنه : ﴿ تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا في الأرض ولا فسادا والعاقبة للمتقين ﴿٨٣﴾ ﴾ (١١).

(١٦) الفوز والنجاة، قال تعالى : ﴿ ومن يطع الله ورسوله ويخش الله ويتقه فأولئك هم الفائزون ﴿٥٢﴾ ﴾ (١٢).

---

(١) سورة الأعراف الآية ٣٥. (٢) سورة يونس الآيات ٦٢ - ٦٤. (٣) سورة الأعراف الآية ٩٦.
(٤) سورة الأعراف الآية ٢٠١. (٥) سورة الأنفال الآية ٢٩. (٦) سورة الجاثية الآية ١٩.
(٧) سورة مريم الآيتان ٧١، ٧٢. (٨) سورة فصلت الآية ١٨. (٩) سورة مريم الآية ٨٥.
(١٠) سورة طه الآية ١٣٢. (١١) سورة القصص الآية ٨٣. (١٢) سورة النور الآية ٥٢.

(١٧) إصلاح العمل وغفران الذنوب، قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا (٧١) ﴾ (١).

(١٨) حسن المآب، قال تعالى: ﴿ هَذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ (٤٩) ﴾ (٢).

(١٩) الغرف التي فوقها غرف، قال تعالى : ﴿ لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَعْدَ اللَّهِ لا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ (٢٠) ﴾ (٣).

(٢٠) أجر الآخرة، قال تعالى : ﴿ وَالآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ (٣٥) ﴾ (٤). وقال سبحانه: ﴿ وَلأَجْرُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٥٧) ﴾ (٥).

(٢١) الصداقة الرابحة، قال تعالى: ﴿ الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ (٦٧) ﴾ (٦).

(٢٢) المقام الأمين، قال تعالى : ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ (٥١) ﴾ (٧).

(٢٣) الكرامة عند الله، قال تعالى : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (١٣) ﴾ (٨)

(٢٤) مقعد صدق، قال تعالى : ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ (٥٤) فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ (٥٥) ﴾ (٩).

(٢٥) لهم كفلين من الرحمة والنور والمغفرة، قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٢٨) ﴾ (١٠).

(٢٦) المخرج من الضيق والرزق دون حساب، قال تعالى : ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ ﴾ (١١).

---

(١) سورة الأحزاب الآيتان ٧٠، ٧١.
(٢) سورة ص الآية ٤٩.
(٣) سورة الزمر الآية ٢٠.
(٤) سورة الزخرف الآية ٣٥.
(٥) سورة يوسف الآية ٥٧.
(٦) سورة الزخرف الآية ٦٧.
(٧) سورة الدخان الآية ٥١.
(٨) سورة الحجرات الآية ١٣.
(٩) سورة القمر الآيتان ٢، ٣.
(١٠) سورة الحديد الآية ٢٨.
(١١) سورة الطلاق الآيتان ٢، ٣.

(٢٧) تيسير الأمر وتكفير السيئات وعظيم الأجر ، قال تعالى : ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا ﴿٤﴾ ذَٰلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنزَلَهُ إِلَيْكُمْ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا ﴿٥﴾ ﴾ (١).

(٢٨) النجاة من الكيد والضر ، قال تعالى : ﴿ وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾ ﴾ (٢) .

(٢٩) الإمداد بالملائكة ،قال تعالى : ﴿ بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ ﴾ (٣).

(٣٠) قبول العمل ، قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾ (٤).

(٣١) إستقبال الملائكة وسلامهم ، قال تعالى : ﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴿٧٣﴾ ﴾ (٥).

(٣٢) الاهتداء والاتعاظ والاعتبار ، قال تعالى : ﴿ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾ ﴾ (٦) . (٧)

● **ويقول الشاعر :**

عليكم بتقوى الله لا تتركونها ... فإن التقي أقوى وأولى وأعدل
لباس التقى خير الملابس كلها ... وأبهي لباسا في الوجود وأجمل
فما أحسن التقوى وأهدى سبيلها ... بها ينفع الإنسان ما كان يعمل
فيا أيها الإنسان بادر إلى التقى ... وسارع إلى الخيرات ما دمت ممهل
وأكثر من التقوى لتحمد غبها ... بدار الجزاء دار بها سوف تنزل
وقدم لما تقدم عليه فإنما ... غداً سوف تجزى بالذى سوف تفعل
وأحسن ولا تهمل إذا كنت قادراً ... فدار بني الدنيا مكان الترحل
وأد فروض الدين وأتقن أداءها ... كوامل في أوقاتها والتنفل
وسارع إلى الخيرات لا تهملنها ... فإنك إن أهملت ما أنت مهمل
ولكن ستجزى بالذى أنت عامل ... وعن ما مضى عن كل شيء ستسأل

---

(١) سورة الطلاق الآيتان ٤ ، ٥.
(٢) سورة آل عمران الآية ١٢٠ .
(٣) سورة آل عمران الآية ١٢٥ .
(٤) سورة المائدة الآية ٢٧ .
(٥) سورة الزمر الآية ٧٣ .
(٦) سورة آل عمران الآية ١٣٨ .
(٧) انظر كتابنا ثقافة إسلامية للدعاة ص ٥٤٥ : ٥٤٨ .

ولا تلهك الدنيا فربك ضامن ... لرزق البرايا ضامن متكفل
ودنياك فاعبرها وأخراك زد لها ... عمارا وإيثارا إذا كنت تعقل
فمن آثر الدنيا جهول ومن يبع ... لأخراه بالدنيا أضل وأجهل
ولذاتها والجاه والعز والغنى ... بأضدادها عما قليل تبدل
فمن عاش فى الدنيا وإن طال عمره ... فلا بد عنها راغما سوف ينقل
وينزل دارا لا أنيس له بها ... لكل الورى منهم معاد وموئل
ويبقى رهينا بالتراب بما جنى ... إلى بعثه من أرضه حين ينسل
يهال بأهوال يشيب ببعضها ... ولا هول إلا بعده الهول أهول
وفى البعث بعد الموت نشر صحائف ... وميزان قسط طائش أو مثقل
وحشر يشيب الطفل منه لهوله ... ومنه الجبال الراسيات تزلزل
ونار تلظى فى لظاها سلاسل ... يغل بها الفجار ثم يسلسل
شراب ذوى الإجرام فيها حميمها ... وزقومها مطعومهم حين يؤكل
حميم وغساق وآخر مثله ... من المهل يغلى فى البطون ويشعل
يزيد هوانا ولا يزل ... إلى قعرها يهوى دواما وينزل
وفى ناره يبقى دواما معذبا ... يصيح ثبورا ويحه يتولول
عليها صراط مدحض ومزلة ... عليه البرايا فى القيامة تحمل
وفيه كلاليب تعلق بالورى ... فهذا نجا منها وهذا مخردل
فلا مذنب يفديه ما يفتدى به ... وإن يعتذر يوما فلا العذر يقبل
فهذا جزاء المجرمين على الردى ... وهذا الذى يوم القيامة يحصل
أعوذ بربى من لظى وعذابها ... ومن حال من يهوى بها يتجلجل
ومن حال من فى زمهرير معذب ... ومن كان فى الأغلال فيها مكبل
وجنات عدن زخرفت ثم أزلفتها كل ... لقوم على التقوى دواما تبتل
ما تهوى النفوس وتشتهى ... وقرة عين ليس عنها ترحل
ملابسهم فيها حرير وسندس ... وإستبرق لا يعتريه التحلل
ومأكولهم من كل ما يشتهون ... ومن سلسبيل شربهم يتسلسل
وأزواجهم حور حسان كواعب ... على مثل شكل الشمس بل هو أشكل
يطاف عليهم بالذى يشتهون ... إذا أكلوا نوعا بآخر بدلوا
فواكهها تدنوا إلى من يريدها ... وسكانها مهما تمنوه يحصل
وأنهارها الألبان تجرى وأعسل ... تناولها عند الإرادة يسهل
بها كل أنواع الفواكه كلها ... وخمر وماء سلسبيل معسل

يقال لهم طبتم سلمتم من الأذى ... سلام عليكم بالسلامة فادخلوا
بأسباب تقوى الله والعمل الذى ... يحب إلى جنات عدن توصلوا
إذا كان هذا والذى قبله الجزاء ... فحق على العينين بالدمع تهمل
وحق على من كان بالله مؤمنا ... يقدم له خيراً ولا يتعلل
وأن يأخذ الإنسان زاداً من التقى ... ولا يسأم التقوي ولا يتململ
وإن أمام الناس حشر وموقف ... ويوم طويل ألف عام وأطول
فيالك من يوم على كل مبطل ... فظيع وأهوال القيامة تعضل
تكون به الأطواد كالعهن أوتكن ... كثيبا مهيلاً أهيلاً يتهلهل
به ملة الإسلام تقبل وحدها ... ولا غيرها من أى دين فيبطل
به يسألون الناس ماذا عبدتموا ... وماذا أجبتم من دعاوهو مرسل
حساب الذى ينقاد عرض مخفف ... ومن ليس منقاداً حساب مثقل
ومن قبل ذاك الموت يأتيك بغتة ... وهيهات لاتدرى متى الموت ينزل
كؤوس المنايا سوف يشربها الورى ... على الرغم شبان وشيب وأكهل
حنانيك بادرها بخير فإنما إذا كنت ... على الآلة الحدبا سريعاً
قد أيقنت بالموت والفنا ... ستحملوبالبعث عما بعده كيف تغفل
أيصلح إيمان المعاد لمنصف ... وينسى مقام الحشر من كان يعقل
إذا أنت لم ترحل بزاد من التقى ... أبن لى أبن يوم الجزا كيف تفعل
أترضى بأن تأتى القيامة مفلسا ... على ظهرك الأوزار بالحشر تحمل
إلهى لك الفضل الذى عم الورى ... وجود على كل الخليقة مسبل
وغيرك لو يملك خزائنك التى ... تزيد من الإنفاق لابد يبخل
وإنى بك اللهم ربى لواثق ... وما لى بباب غير بابك مدخل
وإنى لك اللهم بالدين مخلصا ... وهمى وحاجاتى بجودك أنزل
أعوذ بك اللهم من سوء صنعنا ... وأسألك التثبيت أخرى وأول
إلهى فثبتنى على دينك الذى ... رضيت به ديناً وإياه تقبل
وهب لى من الفردوس قصراً مشيداً ... ومن بخيرات بها أتعجل
ولله حمد دائم بدوامه ... مدى الدهر لا يفنى ولا الحمد يكمل
يزيد على وزن الخلائق كلها ... وأرجح من وزن الجميع وأثقل
وإنى بحمد الله فى الحمد أبتدى ... وأنهى بحمد الله قولى وابتدى
صلاة وتسليما وأزكى تحية ... تعم جميع المرسلين وتشمل
وأزكى صلاة الله ثم سلامه ... على المصطفى أزكى البرية تنزل [1]

---

(١) موارد الظمآن ١ / ٤٧٥ - ٤٨١.

الاحسان إلى النفس
بالجهاد في سبيل الله

من الإحسان إلى النفس القتال فى سبيل الله، ومن المفروغ منه أن نقول إن للعقيدة الإسلامية أعداء يضمرون لها الشر ويبيتون لها المؤامرات والمناورات بليل، محاولين أن يزلزلوها فى نفوس معتنقيها ، وأن يشككوا المؤمن فى إيمانه، وأن يصرفوا الخلق عن الخالق، وأن يبعدوا الناس عن دين رب الناس : ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ ﴿١٩﴾ ﴾ (١).

وكما أن للعقيدة أعداء فلها أنصار ، وللدين حماة ودعاة يجاهدون الباطل ويجابهون أعداء الله فى قوة وشجاعة وبسالة وإقدام، فى وحدة واحدة ، فى صف واحد لا ينهزم ولا ينهدم ولا ينهار، لا يعرف الجبن ولا يعرف الفرار، صف تربطه القوة وتدعمه الشجاعة وتشده البسالة والإقدام.

والشجاعة والبسالة والإقدام كلها فضائل يحمدها الله، والقوة فضيلة يحبها الله. ورسول الله ﷺ يقول: «المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف»(٢).

فالله يحب المؤمن القوى، ويكره الضعيف، ويمقت الذى يهرب من الميدان. ويخاف المجابهة ويهاب المواجهة واللقاء؟

إذ الضعف والخور والجبن ولين العزم دليل على ضعف الإيمان وعلى وهن اليقين.

فالمؤمن : قوة فى دين، وحزم فى لين، وإيمان فى يقين، قال تعالى : ﴿ مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ﴿٢٩﴾ ﴾ (٣).

---

(١) سورة آل عمران الآية ١٩.

(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه- كتاب القدر - باب الأمر بالقوة وترك العجز والاستعانة بالله.

(٣) سورة الفتح الآية ٢٩.

وقال تعالى : ﴿ وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلاَّ إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾ ﴾[1].

هؤلاء الذين يقاتلون فى سبيل نشر دين الله وإعلاء كلمته وتوحيد الكلمة على كلمة التوحيد.

هؤلاء الذين يجابهون الموت فى سبيل حياة العقيدة ونشر الدين.

هؤلاء الذين استرخصوا الروح وباعوا النفس ليمكنوا للعقيدة فى الأرض ويرسخوا أصولها فى الأفئدة .

هؤلاء الذين اعتقدوا - في حق - أن الإقدام لا يقصر الأجل وأن الجبن لا يطيل العمر.

هؤلاء هم أولياء الله وأنصاره ،ودعاته وحملة رسالته بعد أنبيائه.

هؤلاء المقاتلون الموحدون ، هؤلاء يحبهم الله[2] ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ ﴿٤﴾ ﴾[3] .

• الإسلام يدخل الحرب مضطرا

مع أن الله تبارك وتعالى يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص. إلا إن الإسلام لايشتهى القتال، ولا يريده حبًا فيه،ولكن يفرضه الواقع ويحتمه، ولأن الهدف الذى وراءه كبير، فالإسلام يواجه البشرية بالمنهج الإلهى فى صورته الأخيرة المستقرة، وهذا المنهج - ولو أنه يلبى الفطرة المستقيمة - إلا أنه يكلف النفوس جهداً لتسموَ إلى مستواه، ولتستقر على هذا المستوى الرفيع.

وهناك قُوىً كثيرة فى هذه الأرض لاتحب لهذه المنهج أن يستقر فى حياة البشر.

---

(١) سورة الأحزاب الآية ٢٢ .

(٢) الحب فى القرآن ، د.محمود بن الشريف ص ٦٧ ، ٦٨ .

(٣) سورة الصف الآية ٤ .

هذه القوى تقف فى طريق - الإسلام - والشر عارم، والباطل متبجح، والشيطان لئيم !! ومن ثم يتعين على حملة الإيمان وحراس المنهج أن يكونوا أقوياء ليغلبوا عملاء الشر وأعوان الشيطان، أقوياء فى أخلاقهم، وأقوياء فى قتال خصومهم على السواء.

عليهم أن يقاتلوا عندما يصبح القتال هو الأداة الوحيدة لضمان حرية الدعوة للمنهج الجديد، وحرية الاعتقاد به، وحرية العمل وفق نظامه المرسوم.

يقاتلون فى سبيل الله لا فى سبيل ذواتهم أو عصبيتهم من أى لون، عصبية الجنس،وعصبية الأرض، وعصبية العشيرة، وعصبية البيت.

فى سبيل الله وحده، لتكون كلمة الله هى العليا[1]، والرسول ﷺ يقول: «من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا، فهو فى سبيل الله»[2].

وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة يضحك الله إليهم: الرجل يقوم من الليل، والقوم إذا صُفُّوا للصلاة، والقوم إذا صفوا للقتال»[3].

وقال مطرف: كان يبلغنى عن أبى ذر حديث، كنت اشتهى لقاءه فلقيته.

فقلت يا أبا ذر: كان يبلغنى عنك حديث فكنت اشتهى لقاءك.

فقال لله أبوك فقد لقيت فهات.

فقلت: كان يبلغنى عنك أنك تزعم أن رسول الله ﷺ حدثكم أن الله يبغض ثلاثة ويحب ثلاثة، قال: أجل، فلا إخالنى أكذب على خليلى ﷺ..

قلت: فمن هؤلاء الثلاثة الذين يحبهم الله عز وجل ؟

قال: رجل غزا في سبيل الله خرج محتسبًا مجاهدًا فلقى العدو فقتل،

---

(١) فى ظلال القرآن الكريم للشيخ سيد قطب ٦ / ٣٥٥٤ بتصرف.

(٢) أخرجه الخمسة. (٣) رواه أحمد.

وأنتم تجدونه فى كتاب الله المنزل ثم قرأ ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ (٤) ﴾ [١]

أى أن الله يحب الذين يصفون أنفسهم حين القتال ولا يكون بينهم فُرَجُ فيه كأنهم بنيان متلاحم الأجزاء، كأنه قطعة واحدة قد صبت صبا، وعلى هذه الطريقة تسير الجيوش فى العصر الحاضر.

وسر هذا أنهم إذا كانوا كذلك زادت قوتهم المعنوية، وتنافسوا فى الطعان والنزال، والكر والفر، إلى ما فى ذلك من إدخال الروع والفزع فى نفوس العدو، إلى ما لحسن النظام من إمضاء العمل بالدقة والإحكام.

وهكذا تراعى الأمم فى عصرنا الحاضر النظام فى كل أعمالها [٢].

● **البشرى للمجاهدين**

جَاهد العدو مُجاهَدة وجِهاداً: قاتله وجاهد فى سبيل الله ...

فالجهاد والمجاهدة. استفراغ الوسع فى مدافعة العدو [٣].

وقد وردت البشرى للمجاهدين فى ثلاثة مواضع هى:

قوله تعالى: ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ (٢٠) يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ (٢١) خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ [٤].

وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ

---

(١) سورة الصف الآية ٤ . (٢) تفسير المراغى ٢٨ / ٨١ بتصرف يسير.

(٣) راجع لسان العرب- للعلامة ابن منظور ١ / ٤٧٧ / والقاموس المحيط - للعلامة الفيروزآبادى ١ / ٢٩٦ / والمفردات- للعلامة الراغب الأصفهانى - ص١٠١ / وبصائر ذوى التمييز- للعلامة الفيروزآبادى ٢ / ٤٠١، ٤٠٢ .

(٤) سورة التوبة الآيات ٢٠-٢٢ .

وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١١١) التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [(١)].

وقوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (١٠) تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (١١) يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٢) وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [(٢)].

وفى هذه الآيات الكريمة بُشّر المجاهدون بالرحمة، والرضوان، والجنة ومافيها من الأنهار التى تجرى من تحتها، والمساكن الطيبة، والنعيم المقيم الخالدين فيه، وبالنصر والفتح من الله تعالى.

• سبب النزول

أما عن سبب نزول قوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ ﴾ [(٣)] الآية. فقد « قال محمد بن كعب القرظى: لما بايعت الأنصارُ رسولَ الله ﷺ ليلة العقبة بمكة، وهم سبعون نفساً، قال عبد الله بن رواحة [رضى الله عنه]: يارسول الله! اشترط لربك ولنفسك ما شئت.

فقال: «أشترط لربى أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً.

وأشترط لنفسى أن تمنعونى مما تمنعون منه أنفسكم».

قالوا: فإذا فعلنا ذلك فماذا لنا؟. قال: «الجنة».

قالوا: ربح البيع لا نقيل ولا نستقيل. فنزلت الآية» [(٤)].

---

(١) سورة التوبة الآيتان ١١١، ١١٢.

(٢) سورة الصف الآيات ١٠-١٣.

(٣) سورة التوبة الآية ١١١.

(٤) أسباب النزول - للإمام الواحدى - ص١٧٦

المؤمن الحق الكامل الإيمان هو من يتاجر مع الله تعالى ليفوز بالصفقة الرابحة. ولكن هل هناك تجارة مع الله تعالى؟!

نعم. هناك تجارة مع الله تعالى، أوضحها الله تعالى فى قوله سبحانه: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [1].

فالتجارة مع الله بالجهاد فى سبيل الله تعالى بالمال والنفس.

وبيّن الله تعالى أركان هذه البيعة والتجارة بقوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ [2].

فالمشترى: هو الله عز وجل.

والبائع: المؤمن المجاهد يبيع نفسه وماله فى سبيل الله. مع أنه لا يملك نفسه وماله، والله تعالى هو المالك الحقيقي ويشترى ما يملك كرماً منه وفضلاً، «ولهذا قال الإمام الحسن: اشترى أنفساً هو خلقها وأموالاً هو رزقها» [3].

والعوض: أحد العوضين: هى نفس المؤمن وماله. أما العوض الآخر أو الثمن: فهو الجنة. «قال قتادة: ثامنهم الله فأغلى لهم الثمن» [4].

يقول الشيخ سيد قطب عن هذ النص: إنه نص رهيب، إنه يكشف عن حقيقة العلاقة التى تربط المؤمنين بالله، وعن حقيقة البيعة التى أعطوها - بإسلامهم - طوال الحياة. فمن بايع هذه البيعة ووفى بها فهو المؤمن الحق الذى

---

(١) سورة الصف الآيتان ١٠، ١١. (٢) سورة التوبة الآية ١١١.

(٣) مفاتيح الغيب- للإمام الرازى- المجلد الثامن ١٦ / ١٥٨.

(٤) جامع البيان - للإمام الطبرى ١١ / ٣٥.

ينطبق عليه وصف (المؤمن) وتتمثل فيه حقيقة الإيمان، وإلا فهي دعوى تحتاج إلى التصديق والتحقيق!

حقيقة هذه البيعة - أو هذه المبايعة كما سماها الله كرمًا منه وفضلاً وسماحة - أن الله - سبحانه - قد استخلص لنفسه أنفس المؤمنين وأموالهم؛ فلم يعد لهم منها شيء.. لم يعد لهم أن يستبقوا منها بقية لا ينفقونها في سبيله.

لم يعد لهم خيار في أن يبذلوا أو يمسكوا.. كلا.. إنها صفقة مشتراة، لشاريها أن يتصرف بها كما يشاء، وفق ما يفرض ووفق ما يحدد، وليس للبائع فيها من شيء سوى أن يمضي في الطريق المرسوم، لا يتلفت ولا يتخير، ولا يناقش ولا يجادل، ولا يقول إلا الطاعة والعمل والاستسلام.. والثمن: هو الجنة.. والطريق هو: الجهاد والقتل والقتال.. والنهاية: هي النصر أو الاستشهاد:

﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ﴾ من بايع على هذا. من أمضى عقد الصفقة. من ارتضى الثمن ووفى. فهو المؤمن.. فالمؤمنون هم الذين اشترى الله منهم فباعوا.. ورحمة الله أن جعل للصفقة ثمنًا، وإلا فهو واهب الأنفس والأموال، وهو مالك الأنفس والأموال.

ولكنه كرم هذا الإنسان فجعله مريداً؛ وكرمه فجعل له أن يعقد العقود ويمضيها - حتى مع الله - وكرمه فقيده بعقوده وعهوده؛ وجعل وفاءه بها مقياس إنسانيته الكريمة؛ ونقضه لها هو مقياس ارتكاسه إلى عالم البهيمة: شر البهيمة.. ﴿ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾ الَّذِينَ عَاهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾..

كما جعل مناط الحساب والجزاء هو النقض أو الوفاء.

وإنها لبيعة رهيبة - بلا شك - ولكنها في عنق كل مؤمن - قادر عليها - لا تسقط عنه إلا بسقوط إيمانه. ومن هنا تلك الرهبة التي أستشعرها اللحظة وأنا أخط هذه الكلمات[1].

---

(1) في ظلال القرآن للشيخ سيد قطب ٣/١٧١٦.

اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة وزادهم الله فى الثمن : بالرحمة والرضوان والمغفرة والنصر على الأعداء قال تعالى : ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ (١).

وقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٢).

وأكد الله تعالى للمؤمنين المجاهدين فى سبيله - وعده الذى وعدهم بأن ثمن شرائه تعالى لأنفسهم وأموالهم هو الجنة وبشارته لهم بذلك بعدة مؤكدات ذكرها فى قوله تعالى : ﴿ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ ﴾ (٣). فقال : ﴿ وَعْدًا ﴾ فهو وعد منه تعالى، ثم زاد بحرف الإيجاب فقال : ﴿ عَلَيْهِ ﴾، وأتم التأكيد بقوله ﴿ حَقًّا ﴾. ثم زاد بأن ذكر أن ذلك فى جميع كتبه ﴿ فِي التَّوْرَاةِ ﴾ كتاب موسى عليه السلام، ﴿ وَالْإِنجِيلِ ﴾ كتاب عيسى عليه السلام، ﴿ وَالْقُرْآنِ ﴾ كتاب محمد ﷺ وهو الكتاب الجامع لكل ما قبل.

ثم قال : ﴿ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ ﴾ الذى له جميع صفات الكمال والجلال.

والله إنها لتجارة رابحة، غالية الثمن، السبيل إليها الجهاد والقتال فى سبيل الله بالنفس والمال.

«إن الجهاد فى سبيل الله تعالى بيعة معقودة بعنق كل مؤمن - قادر عليها- لا تسقط عنه إلا بسقوط وزوال إيمانه. فهى سنة الله فى جميع الأزمان. فمن بايع ومضى فى البيعة، ورضى بالثمن ووفى فهو المؤمن.

(١) سورة التوبة الآيات ٢٠-٢٢.
(٢) سورة الصف الآيات ١٠-١٣.
(٣) سورة التوبة الآية ١١١.

فالمؤمنون هم الذين اشترى الله منهم فباعوا» [1].

عن أبى هريرة - رضى الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: «تكفل الله لمن جاهد فى سبيله لا يخرجه إلا الجهاد فى سبيله وتصديق كلماته، بأن يدخله الجنة أو يرجعه إلى مسكنه الذى خرج منه مع ما نال من أجر وغنيمة» [2].

وعن أبى هريرة - رضى الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «... والذى نفس محمد بيده! ما من كَلْم [3]يُكْلَم فى سبيل الله إلا جاء يوم القيامة كهيئته حين كُلِم، لونه لون دم، وريحه مسك.

والذى نفس محمد بيده! لولا أن يشق على المسلمين ما قعدت خلاف سرية تغزو فى سبيل الله أبدا. ولكن لا أجد سَعَة فأحملهم، ولا يجدون سعة. ويشق عليهم أن يتخلفوا عنى.

والذى نفس محمد بيده! لوددت أنى أغزو فى سبيل الله فأُقتل، ثم أغزو فأقتل، ثم أغزو فأقتل» [4].

وعن أبى هريرة - رضى الله عنه- قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: دُلنى على عمل يعدل الجهاد. قال: «لا أجده».

قال: «هل تستطيع إذا خرج المجاهد أن تدخل مسجدك فتقوم ولا تفتر، وتصوم ولا تفطر».

قال: ومن يستطيع ذلك؟

---

(١) فى ظلال القرآن- للشيخ سيد قطب ٣ / ١٧١٦، ١٧١٧.

(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه - كتاب التوحيد- باب «٢٨» فى «﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴾ ٨ / ١٨٨ واللفظ له/ وأخرجه مسلم فى صحيحه - كتاب الإمارة- باب «٢٨» فى فضل الجهاد والخروج فى سبيل الله - حديث رقم «١٠٤» -٣ / ١٤٩٦.

(٣) «الكلْم»: الجرح. [شرح النووى - للإمام النووى ١٣ / ٢١].

(٤) أخرجه مسلم فى صحيحه - كتاب الإمارة- باب «٢٨» فى فضل الجهاد والخروج فى سبيل الله- حديث رقم «١٠٣» - ٣ / ١٤٩٥، ١٤٩٦.

قال أبوهريرة [رضى الله عنه]: إن فرس المجاهد لَيَسْتَنُّ فى طوله[1] فيُكتب له حسنات» [2].

فلا شيء يعدل الجهاد فى سبيل الله تعالى. فهو والله التجارة الرابحة.

وبعد بيان الله تعالى للتجارة الرابحة وشرائه من المؤمنين أنفسهم وأموالهم، وعوضهم بالجنة. ذكر صفات هؤلاء المؤمنين المجاهدين فقال تعالى: ﴿ التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [3].

• أناس عرفوا قيمة الجهاد فى سبيل الله

حكاية أبى قدامة مع المرأة التى ضفرت شعرها شكالاً للفرس فى سبيل الله مشهورة، حكى أنه كان بمدينة رسول الله ﷺ رجل يقال له: أبو قدامة الشامى، وكان قد حبب الله إليه الجهاد فى سبيل الله تعالى والغزو إلى بلاد الروم، فجلس يومًا فى مسجد رسول الله ﷺ يتحدث مع أصحابه فقالوا له:

يا أبا قدامة، حدثنا بأعجب ما رأيته فى الجهاد.

قال: نعم، إنى دخلت فى بعض السنين، الرقة [4] أطلب جملاً اشتريه ليحمل سلاحى، فبينما أنا يومًا جالس، إذ دَخَلَتْ علىَّ امرأة فقالت:

يا أبا قدامة سمعتك وأنت تحدث عن الجهاد وتحث عليه وقد رزقت من الشَّعر ما لم يرزقه غيرى من النساء، وقد قصصته وأصلحت منه شكالاً للفرس

(١) «ليستنُّ فى طوله»: استنَّ الفرس يستنُّ استناناً أى عدا لمرحه ونشاطه شوطا أو شوطين ولا راكب عليه. [النهاية فى غريب الحديث والأثر - للإمام ابن الأثير ٢/٣٦٩].

(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه - كتاب الجهاد والسير - باب ٤٦ «فى فضل الجهاد والسير ٣/٢٠٠.

(٣) سورة التوبة الآية ١١٢.

انظر: البشرى فى القرآن رسالة ماجستير مخطوطة بكلية الدراسات الإسلامية والعربية بنات القاهرة إعداد أسماء على السبكى ص ٣١٣ - ٣١٦.

(٤) الرقة: بفتح أوله وثانيه، وتشديده، مدينة مشهورة على الفرات. انظر معجم البلدان ٣/٥٨، ٥٩.

وعفرته بالتراب لئلا ينظر إليه أحد، وقد أحببت أن تأخذه معك فإذا صرت في بلاد الكفار وجالت الأبطال ورُميت النبال وَجُرِّدت السيوف وَشُرِعت الأَسِنَّة، فإن احتجت إليه وإلا فادفعه إلى من يحتاج إليه ليحضر شعرى ويصيبه الغبار فى سبيل الله فأنا امرأة أرملة[1] كان لى زوج وعصبة [2] كلهم قتلوا فى سبيل الله.

ولو كان عَلَىَّ الجهادُ لجاهدت، قال : وناولتنى الشكال.

وقالت : اعلم يا أبا قدامة أن زوجى لما قتل خلف لى غلامًا من أحسن الشباب وقد تعلم القرآن والفروسية والرمى عن القوس، وهو قَوَّام بالليل صوّام بالنهار، له من العمر خمس عشرة سنة، وهو غائب فى ضيعة خَلَّفَها له أبوه، فلعله يقدم قبل مسيرك فأوجهه معك هدية إلى الله عز وجل، وأنا أسألك بحرمة الإسلام لا تحرمنى ما طلبت من الثواب.

قال فأخذت الشكال منها فإذا هو مضفور من شعر رأسها، فقالت : ألقه فى بعض رحلك وأنا أنظر إليه ليطمئن قلبى.

قال : فطرحته فى رحلى وخرجت من الرقة ومعى أصحابى، فلما صرنا عند حصن مسلمة بن عبد الملك إذا بفارس يهتف من ورائى : يا أبا قدامة، قف علىَّ قليلاً يرحمك الله، فوقفت وقلت لأصحابى : تقدموا أنتم حتى أنظر من هذا، وإذا بالفارس قد دنا منى وعانقنى.

وقال : الحمد لله الذى لم يحرمنى صحبتك ولم يردنى خائبًا.

قلت : حبيبى، أسفر لى عن وجهك، فإذا كان يلزم مثلك غزو أمرتك بالمسير، وإن لم يلزمك غزو رددتك.

فأسفر عن وجهه فإذا غلام كأنه القمر ليلة البدر وعليه آثار النعمة.

---

(١) يقال للمرأة التى لازوج لها : أرملة، لافتقارها إلى من ينفق عليها، قال الأزهرى : لا يقال لها : أرملة، إلا إذا كانت فقيرة فإن كانت موسرة، فليست بأرملة. انظر : المصباح ص٢٣٩ .

(٢) العصبة من الرجال : نحو العشرة، إلى الأربعين. انظر : المصباح ص٤١٣ .

قلت : حبيبى : لك والد ؟

قال : لا ، بل أنا خارج معك أطلب ثأر والدى ، لأنه استشهد ، فلعل الله أن يرزقنى الشهادة كما رزق أبى .

قلت : حبيبى ، لك والدة ؟ قال : نعم .

قلت : اذهب إليها واستأذنها فإن أذنت وإلا فأقم عندها ، فإن طاعتك لها أفضل من الجهاد .

قال : يا أبا قدامة ، أما تعرفنى ؟ قلت : لا .

قال : أنا ابن صاحبة الوديعة ، ما أسرع ما نسيت وصية أمى صاحبة الشكال ، وأنا إن شاء الله الشهيد ابن الشهيد ، سألتك بالله لا تحرمنى الغزو معك فى سبيل الله ، فإنى حافظ لكتاب الله ، عارف بسنة رسول الله ﷺ ، عارف بالفروسية والرمى ، وما خلفت ورائى أفرس منى ، فلا تحقرنى لصغر سنى ، وإن أمى قد أقسمت على ألا أرجع . وقالت : يا بنى إذا لقيت الكفار فلا تولهم الدبر ، وهب نفسك لله واطلب مجاورة الله ، مجاورة أبيك مع أخوالك الصالحين فى الجنة ، فإذا رزقك الله الشهادة فاشفع فىَّ ، فإنه قد بلغنى أن الشهيد يشفع فى سبعين من أهله ، وسبعين من جيرانه ، ثم ضمتنى إلى صدرها ، ورفعت رأسها إلى السماء ، وقالت : إلهى وسيدى ومولاى ، هذا ولدى ، وريحانة قلبى ، وثمرة فؤادى ، سلمته إليك فقربه من أبيه .

قال : فلما سَمْعتُ كلام الغلام ، بكيت بكاءً شديداً أسفًا على حسنه ، وجمال شبابه ، ورحمة لقلب والدته ، وتعجباً من صبرها عنه .

فقال : يا عم مم بكاؤك ؟ إن كنت تبكى لصغر سنى ، فإن الله يعذب من هو أصغر منى إذا عصاه .

قلت : لم أبك لصغر سنك ، ولكن أبكى لقلب والدتك ، كيف تكون بعدك !.

قال : فسرنا ونزلنا تلك الليلة. فلما كان الغداة رحلنا، والغلام لا يفتر من ذكر الله تعالى، فتأملته، فإذا هو أفرس منا إذا ركب، وخادمنا إذا نزلنا منزلاً، وصار كلما سرنا يقوى عزمُه، ويزداد نشاطُه، ويصفو قلبهُ، وتظهر علاماتُ الفرح عليه.

قال : فلم نزل سائرين حتى أشرفنا على ديار المشركين عند غروب الشمس، فنزلنا فجلس الغلام يطبخ لنا طعامًا لإفطارنا، وكنا صيامًا فغلبه النعاس فنام نومة طويلة فبينا هو نائم إذ تبسم فى نومه.

فقلت لأصحابى : ألا ترون إلى ضحك هذا الغلام فى نومه؟

فلما استيقظ ، قلت: حبيبى رأيتك الساعة تبتسم فى منامك ضاحكاً.

قال : رأيت رؤيا فأعجبتنى وأضحكتنى.

قلت : ما هى؟

قال : رأيت كأنى فى روضة خضراء أنيقة [1] ، فبينما أنا أجول فيها، إذ رأيت قصراً من فضة شُرَفه من الدر والجوهر، وأبوابه من الذهب، وستوره مرخية، وإذا الجوارى يرفعن الستور،وجوههن كالأقمار، فلما رأيننى، قلن لى : مرحبًا بك، فأردت أن أمد يدى إلى إحداهن، فقالت : لاتعجل، ما آن لك، ثم سمعت بعضهن يقول لبعض : هذا زوج المرضية، فقلن لى : تقدم يرحمك الله ، فتقدمت أمامى،فإذا فى أعلى القصر غرفة من الذهب الأحمر عليها سرير من الزبرجد الأخضر، قوائمه من الفضة البيضاء عليه جارية وجهها كأنه الشمس، لولا أن الله ثبت على بصرى لذهب، وذهب عقلى، من حسن الغرفة وبهاء الجارية.

قال : فلما رأتنى الجارية ، قالت : مرحبًا وأهلاً وسهلاً يا ولى الله وحبيبه،

---

(١) أى عجيبة. المصباح ص ٢٦ ،

أنت لى وأنا لك ، فأردت أن أضمها إلى صدرى ، فقالت : مهلاً ، لا تعجل ، فإنك بعيد من الخنا [١] ، وإن الميعاد بينى وبينك غداً عند صلاة الظهر ، فأبشر .

قال أبو قدامة فقلت له : حبيبى رأيت خيراً وخيراً يكون .

ثم بتنا متعجبين من منام الغلام ، فلما أصبحنا تبادرنا فركبنا خيولنا ، فإ المنادى ينادى يا خيل الله اركبى [٢] ، وبالجنة أبشرى : ﴿ انفِرُوا خِفافًا وَثِقَالاً ﴾ [٣] ، فما كان إلا ساعة وإذا جيش الكُفر - خذله الله - قد أقبل كالجراد المنتشر فكان أول من تحمل منا فيهم الغلام ، فبدد شملهم وفرق جمعهم وغاص في وسطهم ، فقتل منهم رجالاً وجندل أبطالاً ، فلما رأيته كذلك ، لحقته فأخذت بعنان فرسه ، وقلت : يا حبيبى ارجع فأنت صبى ولا تعرف خدع الحرب .

فقال : يا عم : ألم تسمع قول الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلا تُوَلُّوهُمُ الأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ ﴾ [٤] أتريد أن أدخل النار ؟

فبينما هو يكلمنى إذ حمل علينا المشركون حملة رجل واحد ، فحالوا بينى وبين الغلام ومنعونى منه ، واشتغل كل واحد بنفسه ، وقتل خلق كثير من المسلمين ، فلما افترق الجمعان ، إذا القتلى لا يحصون عدداً ، فجعلت أجول بفرسي بين القتلى ، ودماؤهم تسيل على الأرض ، ووجوههم لا تعرف من كثرة الغبار والدماء .

فبينا أنا أجول بين القتلى ، إذا أنا بالغلام بين سنابك الخيل ، قد علاه التراب وهو يتقلب فى دمه ويقول : يا معشر المسلمين ، بالله ابعثوا لى عمى أبا قدامة ،

---

(١) وخنا خنواً : أفحش . القاموس المحيط ٤ / ٣٢٦ الطبعة الثالثة ، المطبعة المصرية .

(٢) هذا على حذف المضاف ، أراد : يا فرسان خيل الله اركبى ، النهاية ٢ / ٩٤ .

(٣) سورة التوبة الآية ٤١ .

(٤) سورة الأنفال الآية ١٥ .

فأقبلت إليه عندما سمعت صياحه، فلم أعرف وجهه لكثرة الدماء والغبار ودوس [1] الدواب.

فقلت: ها أنا أبو قدامة.

قال: يا عم صدقت الرؤيا ورب الكعبة، أنا ابن صاحبة الشكال.

فعندها رميت بنفسي عليه فقبلت بين عينيه، ومسحت التراب والدم عن محاسنه، قلت: يا حبيبي، لا تنس عمك أبا قدامة، اجعله في شفاعتك يوم القيامة.

فقال: مثلك لا يُنسى، تمسح وجهي بثوبك؟ ثوبي أحق به من ثوبك، دعه يا عم حتى ألقى الله تعالى به، يا عم هذه الحور التي وصفتها لك قائمة على رأسي، تنتظر خروج روحي، وتقول لي: عجل فأنا مشتاقة إليك.

بالله ياعم إن ردك الله سالمًا، فتحمل ثيابي هذه المضمخة بالدم لوالدتي المسكينة الثكلى الحزينة، وتسلمها إليها، لتعلم أني لم أضيع وصيتها، ولم أجبن عند لقاء المشركين، واقرأ مني السلام عليها، وقل لها: إن الله قد قبل الهدية التي أهديتها، ولي يا عم أخت صغيرة، لها من العمر عشر سنين، كنت كلما دخلت استقبلتني تسلم علي، وإذا خرجت تكون آخر من يودعني، وإنها ودعتني عند مخرجي هذا، وقالت لي: بالله يا أخي لا تبطئ عنا، فإذا لقيتها فاقرأ عليها مني السلام، وقل لها: يقول لك أخوك: الله خليفتي عليك إلى يوم القيامة.

ثم تبسم وقال: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، صدق وعده، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، هذا ما وعدنا الله ورسوله، وصدق الله ورسوله.

ثم خرجت روحه، فكفناه في ثيابه، وواريناه رضي الله عنه وعنا به.

قال أبو قدامة: فلما رجعنا من غزوتنا تلك ودخلنا الرقة، لم تكن لي همة إلا دار أم الغلام، فإذا جارية تشبه الغلام في حسنه وجماله، وهي قائمة بالباب، وكل من يمر بها تقول له: يا عم، من أين جئت؟

---

(1) الدوس: الوطء بالرجل، القاموس المحيط: ٢/٢١٧ ط٣.

فيقول : من الغزاة، فتقول : أما رجع معكم أخي؟ فيقولون : لا نعرفه.

فلما سمعتها تقدمت إليها، فقالت لى : يا عم من أين جئت؟

قلت : من الغزو.

قالت : أما رجع معكم أخي، ثم بكت وقالت : ما بالى أرى الناس يرجعون، وأخي لم يرجع؟ فغلبتنى العَبرة، ثم تجلدت خشية على الجارية.

ثم قلت لها : يا جارية، قولى لصاحبة المنزل : كلمى أبا قدامة فإنه على الباب، فسمعت المرأة كلامى، فخرجت إلىَّ وقد تغير لونها ،فسلمت عليها، فردت السلام.

وقالت : أمبشراً أنت يا أبا قدامة أم معزيًا؟.

قلت : بينى لى البشارة من التعزية رحمك الله.

قالت : إن كان ولدى رجع سالمًا فأنت معزٍ.

وإن كان قتل فى سبيل الله فأنت مبشر.

فقلت : أبشرى فقد قبل الله هديتك، فبكت.

وقالت : قبلها؟ قلت : نعم.

فقالت : الحمد لله الذى جعله ذخيرة لى يوم القيامة.

قلت : فما فعلت الجارية أخت الغلام؟

قالت : هى التى كانت تكلمك الساعة، فتقدمت إِلَىَّ،

فقلت لها : إن أخاك يسلم عليك ويقول لك : الله خليفتى عليك إلى يوم القيامة.

فصرخت وخرت على وجهها مغشياً عليها، فحركتها بعد ساعة، فإذا هى ميتة.

فتعجبت من ذلك ثم سلمت ثياب الغلام التى كانت معى لأمه، وودعتها، وانصرفت حزينًا على الغلام والجارية، ومتعجبًا من صبر أمهما.[1]

---

(١) استراتيجيات التربية الإسلامية فى الإسلام، إعداد لجنة البحوث والدراسات، إشراف أ.د توفيق يوسف الواعى، دار البحوث العلمية - الكويت.

الإحسان إلى النفس
بالتحلي بالصبر

من الإحسان إلى النفس التحلي بصفة الصبر عند نزول المكروه وإبداء نوع من الرضا والتسليم . والصبر هو حبس النفس على ما تكره . أو احتمال المكروه بنوع من الرضا والتسليم.

ومن محاسن أخلاق المسلم التي يتحلى بها : الصبر ، واحتمال الأذى في ذات الله تبارك وتعالى.

فالمسلم يحبس نفسه على ما تكرهه من عبادة الله وطاعته، ويلزمها بذلك إلزامًا، ويحبسها دون معاصي الله عز وجل فلا يسمح لها باقترابها، ولا يأذن لها في فعلها مهما تاقت لذلك بطبعها وهشت له، ويحبسها على البلاء إذا نزل بها فلا يتركها تجزع، ولا تسخط، إذ الجزع كما قال الحكماء على الفائت آفة، وعلى المتوقع سخافة، والسخط على الأقدار معاتبة لله الواحد القهار، وهو في كل ذلك مستعين بذكر الله تعالى على الطاعات، وما أعد لأهلها من جزيل الأجر، وعظيم المثوبات.

يذكر وعيده تعالى لأهل بغضته وأصحاب معصيته، من أليم العذاب وشديد العقاب، ويتذكر أن أقدار الله جارية، وأن قضاءه تعالى عدل، وأن حكمه نافذ، صبر العبد أم جزع ، غير أنه مع الصبر الأجر ،ومع الجزع الوزر.

ولما كان الصبر وعدم الجزع من الأخلاق التي تكتسب وتنال بنوع من الرياضة والمجاهدة، فالمسلم بعد افتقاره إلى الله تعالى أن يرزقه الصبر، فإنه يستلهم الصبر بذكر ما ورد فيه من أمر ،وما وعد عليه من أجر.

وها هي آيات القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة تحث المسلم على الصبر وعدم الجزع ففي ذلك كل الخير له في دينه ودنياه.

وذلك كقوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٢٠٠) ﴾ [١]

وقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (١٥٣) ﴾ [٢].

وقوله تعالى : ﴿ وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللَّهِ (١٢٧) ﴾ [٣].

وقوله تعالى : ﴿ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ (١٧) ﴾ [٤].

وقوله تعالى : ﴿ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١٥٥) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (١٥٦) ﴾ [٥].

و قوله تعالى : ﴿ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩٦) ﴾ [٦].

وقوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ (٢٤) ﴾ [٧].

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ (١٠) ﴾ [٨].

وقول الرسول ﷺ : «الصبر ضياء» [٩].

وقوله ﷺ : «من يستعفف يعفه الله ومن يستغن يغنه الله، ومن يصبر يصبره الله وما أعطى أحد عطاء خيراً وأوسع من الصبر» [١٠].

وقوله ﷺ : «عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله خير وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له ، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له» [١١].

---

(١) سورة آل عمران الآية ٢٠٠.
(٢) سورة البقرة الآية ١٥٣.
(٣) سورة النحل الآية ١٢٧.
(٤) سورة لقمان الآية ١٧.
(٥) سورة البقرة الآيتان ١٥٥، ١٥٦.
(٦) سورة النحل الآية ٩٦.
(٧) سورة السجدة الآية ٢٤.
(٨) سورة الزمر الآية ١٠.
(٩) رواه مسلم.
(١٠) رواه البخاري.
(١١) رواه مسلم.

وقوله ﷺ لابنته وقد أرسلت إليه تطلب حضوره، إذ ولدها قد احتضر .

فقال لرسولها : «أقرأها السلام، وقل لها : إن لله ما أخذ وله ما أعطى، كل شيء عنده بأجل مسمى، فلتصبر ولتحتسب» [1].

وقوله ﷺ : « يقول الله عز وجل : إذا ابتليت عبدى بحبيبتيه (عينيه) فصبر عوضته منهما الجنة» [2].

وقوله : «من يرد الله به خيراً يصب منه» [3].

وقوله : «إن أعظم الجزاء على معظم البلاء، وإن الله تعالى إذا أحب قومًا ابتلاهم فمن رضى فله الرضا، ومن سخط فله السخط» [4].

● معنى الصبر وأسماؤه

فى اللغة :« أصل الصبر : الحبس. وكل من حبس شيئاً فقد صبره.

والصبر : نقيض الجزع. صبر يصبر صبراً فهو صابر وصبار وصبير وصبور وجمعه صُبُر.

الجوهرى : الصبر : حبس النفس عند الجزع.... »[5] قال تعالى :﴿ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾[6] الآية، أى احبس نفسك معهم.

فى الاصطلاح : ذُكر للصبر عدة تعريفات منها :

تعريف العلامة الراغب الأصفهانى [7] بأنه :«حبس النفس على ما يقتضيه العقل والشرع، أو عما يقتضيان حبسها عنه».

---

(١) رواه البخارى. (٢) أخرجه البخارى فى صحيحه .

(٣) رواه البخارى (٤) رواه البخارى.

(٥) لسان العرب- للعلامة ابن منظور ٤ / ١٠ / وراجع القاموس المحيط - للعلامة الفيروزآبادى ٢ / ٦٨ ومختار الصحاح- للعلامة الرازى- ص٢٦٥ .

(٦) سورة الكهف الآية ٢٨ .

(٧) المفردات - ص٢٧٣ .

تعريف الإمام الغزالى [1] بأنه: «ثبات باعث الدين فى مقاومة باعث الهوى».

تعريف الإمامين ابن القيم [2] والفيروزآبادى [3] بأنه: «حبس النفس عن الجزع والتسخط، وحبس اللسان عن الشكوي، وحبس الجوارح عن التشويش».

والصبر لفظ عام. وربما خُولف بين أسمائه بحسب اختلاف مواقعه

فإن كان حبس النفس لمصيبة سُمي صبراً لاغير. ويضاده الجزع.

وإن كان فى محاربة وقتال سُمي شجاعة. ويضاده الجبن.

وإن كان فى نائبة من نوائب الزمان مضجرة سمى سعة الصدر. ويضاده الضجر والتبرم وضيق الصدر.

وإن كان فى إمساك الكلام وإخفائه سمى كتماناً. ويضاده المَذل [4] أى الإفشاء.

وإن كان فى فضول العيش سمى زهدا. ويضاده الحرص.

وإن كان على قدر يسير من الحظوظ سمى قناعة. ويضاده الشره.

وإن كان فى كظم الغيظ والغضب سمى حلما. ويضاده التذمر.

[إلى غير ذلك] فأكثر أخلاق الإيمان داخل فى الصبر» [5].

• مكانة الصبر ومنزلة الصابرين

ذُكر الصبر فى القرآن الكريم وماتفرع منه فوق المائة مرة [6]. مما يدل على عظم أمره وفضله، وأنه أساس لكثير من الفضائل.

---

(١) إحياء علوم الدين ١٢ / ٢١٧٦ .

(٢) مدارج السالكين ١ / ٥٥٥ . (٣) بصائر ذوى التمييز ٣ / ٣٧١ .

(٤) المَذل: الباذل لما عنده من مال أوسر. وكذلك إذا لم يقدر على ضبط نفسه. ومَذِل بسرِّه- بالكسر- مذلاً ومذالاً فهو مَذِل ومذيل، ومَذَل يمذُل - كلاهما- : قلق بسرِّه فأفشاه. [لسان العرب- للعلامة ابن منظور ٦ / ٣٢].

(٥) راجع المفردات - للعلامة الراغب الأصفهانى- ص٢٧٣ / وإحياء علوم الدين - للإمام الغزالى ١٢ / ٢١٧٩ .

(٦) راجع المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم- مادة صبر .

ولقد أضاف الله جل وعلا أكثر الدرجات والخيرات إلى الصبر، وجعلها ثمرة له، قال تعالى: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمْوَالِ وَالأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١٥٥) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (١٥٦) أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴾ [١]. وقال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ (٢٤) ﴾ [٢]
وقال تعالى: ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا ﴾ [٣]

وقال تعالى: ﴿ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [٤]

وقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [٥] .... إلخ الآيات.

وأخبر النبى ﷺ عن منزلة الصبر فى الحديث الصحيح المروى عن أبى مالك الأشعرى - رضى الله عنه- أنه ﷺ قال: «... والصبر ضياء...» [٦] الحديث.

وعن أبى سعيد- رضى الله عنه-: أن أناساً من الأنصار سألوا رسول الله ﷺ، فلم يسأله أحد منهم إلا أعطاه حتى نفد ما عنده. فقال لهم حين نفد كل شيء أنفق بيديه: «ما يكن عندى من خير لا أدّخره عنكم وإنه من يستعفف يُعفه الله، ومن يتصبر يصبره الله، ومن يستغن يُغنه الله. ولن تُعطوا عطاءً خيراً وأوسع من الصبر» [٧].

ولذلك قال رسول الله ﷺ: «عجباً لأمر المؤمن! إن أمره كله خير. وليس

---

(١) سورة البقرة الآيات ١٥٥-١٥٧.

(٢) سورة السجدة الآية ٢٤.

(٣) سورة الأعراف الآية ١٣٧.

(٤) سورة النحل الآية ٩٦.

(٥) سورة الزمر الآية ١٠.

(٦) أخرجه مسلم فى صحيحه - كتاب الطهارة- باب «١» فى فضل الوضوء- حديث رقم «١»- ١/ ٢٠٣/ وأخرجه الترمذى فى سننه - أبواب الدعوات- باب «٩١» - حديث رقم «٣٥٨٣»- ٥/ ١٩٦، ١٩٧. قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح.

(٧) أخرجه البخارى في صحيحه - كتاب الرقاق- باب «٢٠» فى الصبر عن محارم الله... ٧/ ١٨٣ واللفظ له/ وأخرجه مسلم فى صحيحه - كتاب الزكاة- باب «٤٢» فى فضل التعفف والصبر - حديث رقم «١٢٤»- ٢/ ٧٢٩.

ذاك لأحد إلا المؤمن، إن أصابته سراء شكر، فكان خيراً له. وإن أصابته ضراء صبر، فكان خيراً له» [1].

وقال عمر - رضى الله عنه- : «وجدنا خيرعيشنا بالصبر» [2].

« وقال الإمام على- كرم الله وجهه- : «الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، ولاجسد لمن لا رأس له، ولا إيمان لمن لا صبر له» [3].

«فالصبر من أعظم الفضائل الروحية التى جاء بها الإسلام، وهو نفحة روحية يعتصم بها المؤمن، فيقوى عنده روح الجلد والتضحية والإقدام. وقوة من قوى النفس التى بها صلاح شأنها وقوام أمرها ... هذه القوة تمكنها من احتمال الآلام والمكاره بغير تبرم يحملها على ترك أواتباع الباطل... قوة تتسلل إلى قلب المؤمن فتمنحه السكينة والأمن والاطمئنان... وتكون بلسماً لجراحاته.

وبدون الصبر تنهار نفس المؤمن، وتصبح عاجزة عن السير فى ركاب الحياة بسبب ما قد ينزل بها من المحن والنوازل.

والصبر ثمرة من ثمار الفهم عن الله سبحانه، وتدبر حِكَمه العظيمة فى تصريف الأمور، وامتحان عباده المؤمنين فى هذه الحياة. كما أنه أكرم وسيلة لنيل رضا الله عز وجل، والحصول على الآمال الطيبة، والوصول إلى السعادة.

ويتأتى فضل الصبر من أنه يعبر عن قوة إرادة المؤمن، وكمال عقله، وحكمته فى معالجة مشكلات الحياة بطمأنينة وثبات، ولذلك كان الصبر ضياءاً للمؤمن كما أخبر بذلك الرسولﷺ [4]...

والضياء: شدة النور- أى بالصبر تنكشف الظلمات والكربات عن المؤمن» [5].

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه - كتاب الزهد والرقائق - باب «١٣» فى المؤمن أمره كله خير - حديث رقم «٦٤»- ٤ / ٢٢٩٥ :

(٢) أخرجه البخارى في صحيحه معلقاً - كتاب الرقاق- باب «٢٠» فى الصبر عن محارم الله... ٧ / ١٨٣ .

(٣) إحياء علوم الدين - للإمام الغزالى ١٢ / ٢١٧١ .

(٤) الحديث سبق ذكره وتخريجه .

(٥) خصائص النفس الإنسانية فى القرآن الكريم- «النفس المطمئنة».د/ جبر عز الرجال - ص٢٨٢، ٢٨٣ .

ومما يدل على عظم منزلة الصابرين، ما وعدهم الله عز وجل به من خير الدنيا والآخرة ومن ذلك:

ظفرهم بمعية الله تعالى. قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ (١).

محبة الله تعالى لهم: قال تعالى: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴾ (٢).

رفع جزائهم وتوفيتهم الأجر بغير حساب. قال تعالى: ﴿ قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ (٣).

تبشيرهم والجمع لهم بين أمور لم تجمع لغيرهم. قال تعالى: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمْوَالِ وَالأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١٥٥) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (١٥٦) أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴾ (٤). فقد جمع الله لهم الصلوات والرحمة والهداية.

● الصبر نصف الإيمان

« الإيمان تارة يختص في إطلاقه بالتصديقات بأصول الدين، وتارة يختص بالأعمال الصالحة الصادرة منها، وتارة يطلق عليهما جميعاً.....

والصبر نصف الإيمان باعتبارين، وعلى مقتضى إطلاقين:

أحدهما: أن يطلق على التصديقات والأعمال جميعاً. فيكون للإيمان ركنان: أحدهما: اليقين، والآخر: الصبر.

والمراد باليقين: المعارف القطعية الحاصلة بهداية الله تعالى عبده إلي أصول

---

(١) سورة البقرة الآية ١٥٣.
(٢) سورة آل عمران الآية ١٤٦.
(٣) سورة الزمر الآية ١٠.
(٤) سورة البقرة الآيات ١٥٥-١٥٧.

الدين. والمراد بالصبر: العمل بمقتضى اليقين. إذ اليقين يُعرفه أن المعصية ضارة، والطاعة نافعة. ولا يمكن ترك المعصية والمواظبة على الطاعة إلا بالصبر، وهو استعمال باعث الدين في قهر باعث الهوى والكسل. فيكون الصبر نصف الإيمان بهذا الاعتبار...

الثاني: أن يُطلق على الأحوال المثمرة للأعمال لاعلى المعارف. وعند ذلك ينقسم جميع ما يلاقيه العبد إلى ما ينفعه في الدنيا والآخرة، أو يضره فيهما. وله بالإضافة إلى ما يضره حال الصبر، وبالإضافة إلى ما ينفعه حال الشكر... وبهذا النظر قال ابن مسعود -رضي الله عنه-: الإيمان نصفان: نصف صبر ،ونصف شكر» [1].

• أقسام الصبر

ينقسم الصبر إلى ثلاثة أقسام:

١ - الصبر على أداء الطاعة. ٢- الصبر على الكف عن المعصية.

٣ - الصبر على البلاء.

• ١ - الصبر على أداء الطاعة

يحتاج العبد إلى الصبر على الطاعة؛ لأن النفس بطبعها تنفر من العبودية وهي شاقة عليها [ولهذا قال الله تعالى: ﴿فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ﴾ [2]]. فأمر بالعبادة مصحوبة بالصبر الزائد.

ثم من العبادات ما يكره بسبب الكسل كالصلاة.

ومنها ما يكره بسبب البخل كالزكاة.

ومنها ما يكره بسببهما جميعاً كالحج والجهاد.

ويحتاج المطيع إلى الصبر على طاعته في ثلاثة أحوال:

---

(١) إحياء علوم الدين - للإمام الغزالي ١٢ / ٢١٧٧، ٢١٧٨ بتصرف.

(٢) سورة مريم الآية ٦٥ .

الأولى: قبل الطاعة. وذلك بتصحيح النية، والإخلاص والصبر عن شوائب الرياء ودواعي الآفات. وذلك من الصبر الشديد لمن يعرف حقيقة النية والإخلاص وآفات الرياء. قال تعالى: ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ ﴾ [1]. وروى عن عمر بن الخطاب - رضى الله عنه- قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى. فمن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه» [2].

الثانية: حال الطاعة والعمل. كي لا يغفل عن الله في أثناء عمله، ولايتكاسل عن تحقيق آدابه وسننه. فيلازم الصبر عن دواعي الفتور إلى الفراغ.

الثالثة: بعد الفراغ من الطاعة والعمل. إذ يحتاج إلى الصبر عن إفشائه والتظاهر به للسمعة والرياء. والصبر عن النظر إليه بعين العجب، وعن كل ما يبطل العمل ويحبط أثره. كما قال تعالى: ﴿ وَلا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ ﴾ [3] وكما قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأَذَىٰ ﴾ [4]. فمن لم يصبر بعد الصدقة عن المن والأذى فقد أبطل عمله [5].

ومن الصبر على الطاعة الصوم الذى يعود الإنسان الخشية من ربه فى السر والعلن، إذ أن الصائم لا رقيب عليه إلا ربه، فإذا ترك الشهوات التى تعرض له من أكل نفيس، وشراب عذب، وفاكهة يانعة، وزوجة جميلة، امتثالاً لأمر ربه، وخضوعًا لإرشاده الحكيم مدة الصيام شهراً كاملاً، ولولا ذلك لما صبر عليها وهو فى أشد الشوق إليها.

---

(١) سورة البينة الآية ٥ .

(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه - كتاب بدء الوحى- باب «١» كيف كان بدء الوحى إلى الرسول ﷺ ١ / ٢ واللفظ له / وأخرجه مسلم فى صحيحه - كتاب الإمارة- باب «٤٥» فى قوله ﷺ :«إنما الأعمال بالنية» .. - حديث رقم «١٥٥»-٣ / ١٥١٥ ، ١٥١٦ .

(٣) سورة محمد الآية ٣٣ .

(٤) سورة البقرة الآية ٢٦٤ .

(٥) انظر البشرى فى القرآن الكريم - أسماء على السبكى ص ٣١٧ - ٣٢٢ .

الصائم عندما يمتنع عن طعامه وشرابه وهما لازمان لحفظ النفس، وحفظها آخر ما يحرص الإنسان عليه، وعندما يمتنع عن شهوة الفرج عن طريقها الشرعي وفيها بقاء النوع وحفظ النسل، وليس الإنسان أقل حرصاً على هذا من حرصه على نفسه، عندما يمتنع عن شهوتي البطن والفرج استجابة لأمر الله، فإنه بذلك يكون قد أسلم الله قياده، وتعود الصبر والمصابرة، وكان جديراً بتكريم الله له : ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ⑩ ﴾[1] .

ونحن في كل أمور ديننا وفي واقع حياتنا محتاجون إلى الصبر بكل أنواعه، فنحن محتاجون إلى الصبر على طاعة الله ، فقد حفت الجنة بالمكاره، ولابد من الصبر على هذه المكاره لنحظى برضوان الله.

والشريعة الإسلامية وإن كان الله قد جعلها سهلة ميسرة، وراعى سبحانه فيها التخفيف والتسهيل رحمة منه وفضلاً، إلا أنها في واقع الأمر تكليف، والتكليف مهما كان خفيفاً فإنه شاق على النفس، ولابد لتنفيذه من الصبر.

تصوروا معي إنساناً كلف بزيارة جاره يوماً من كل أسبوع لمدة دقائق معدودة أَبَعْدَ هذا سهولة في التكليف ؟ ومع هذا تراه بعد أسبوع أو أسابيع قليلة يأنف هذه الزيارة ويود أن يتخلص منها، ولن يستطيع المداومة عليها إلا إذا رزقه الله الصبر على أدائها.

وإذا استعرضنا أوامر الشريعة وجدناها مع قلتها وسهولتها تحتاج إلى الصبر.

فالجهاد طاعة بل هو واجب مقدس شرعه الله للدفاع عن العقيدة والوطن، وهذه الطاعة لابد في تنفيذها من الصبر، بل والكثير من هذا الصبر ؛ لأن المؤمن في الجهاد يبذل ماله، ويبذل نفسه ودمه، ويبذل روحه رخيصة في سبيل الله منتظراً ما وعده الله به إما النصر وإما الشهادة.

---

(١) سورة الزمر الآية ١٠.

والشيطان عدو للإنسان يزين له طيبات الحياة، ويهول أمامه ما يلقاه من ويلات وأخطار، فهو يعلم أن الصبر سبب لإمداد الله عباده بجند من عنده : ﴿ بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ (١٢٥) ﴾ [١].

والله سبحانه ولى المؤمنين زرع فى قلوبهم الإيمان، وزين لهم الشهادة فالمسلم يجاهد ضمن الفئة المؤمنة المصلحة ، والكافر يقاتل ضمن الفئة المفسدة، وهذا يحبب الصبر إلى قلب المسلم ،ويشجعه عليه ما عند الله من الأجر والمثوبة» [٢].

٢ - الصبر على الكف عن المعصية

وما أحوج العبد إلى الصبر عن المعصية. وقد جمع الله تعالى أنواع المعاصى فى قوله تعالى :﴿ ...وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ ﴾ [٣].

وأشد أنواع الصبر عن المعاصى : الصبر عن المعاصى التى صارت مألوفة بالعادة. فإذا أضيفت العادة إلى الشهوة تظاهر جندان من جنود الشيطان على جند الله تعالى. ثم إن كان ذلك الفعل مما يتيسر فعله، كان الصبر عنه أثقل على النفس، كالصبر عن معاصى اللسان من الغيبة، والكذب، والمراء، والثناء على النفس تعريضاً وتصريحاً ... إلخ. فترى الإنسان يطلق لسانه طول النهار فى أعراض الناس ولا يستنكر ذلك» [٤].

وأما الصبر على ما حرم الله، فإذا كان لازمًا فى حياة الرخاء واليسر فهو فى أحوال الشدة والعسر ألزم.

---

(١) سورة آل عمران الآية ١٢٥ .

(٢) مباحث العبادات فى الفقه الإسلامى، د.نصر فريد واصل، د. عبد العزيز عزام - دار البيان للنشر ص ٣٣١ - ٣٣٣ بتصرف.

(٣) سورة النحل الآية ٩٠ .

(٤) إحياء علوم الدين - للإمام الغزالى ١٢ / ٢١٨٤-٢١٨٦ باختصار.

وقد حرم الله على المسلم العمل لحساب العدو والإفضاء إليه بأسرار الجيش ونهى عن هذا وبين عاقبته فقال : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُم مِّنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ① إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ ② ﴾ [1] .

والصبر على هذا من صفات المؤمن القوى، لأن العدو يغرى بالمال والشهوات ويحاول أن يوقع بمن يستطيع الإيقاع به من المسلمين، ولكنه لن يستطيع الوصول إلى قلب المؤمن الصابر، ولا يقع فى حبائله إلا صاحب النفس الضعيفة.

ومما حرم الله تعالى تخذيل المسلمين وبث كراهية الجهاد بينهم، فالمؤمن الصابر لا يضره تخذيل، ولا يفت فى عضده شائعات، وإنما هو حريص كل الحرص على لقاء عدوه لينتقم لدينه ووطنه.

ومما حرم الله - ويلزمه الكثير من الصبر للبعد عنه - التولى يوم الزحف فالسعيد من يلزم نفسه الجهاد، ويبتعد حتى عن مجرد خطور الفرار على قلبه، والشقى من تحدثه نفسه بالفرار ويبخل بنفسه عن البذل فى سبيل الله فهذا ومن ماثله يقول الله فى شأنهم : ﴿ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلاَّ مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ⑯ ﴾ [2] .

وحرم الله إذاعة ما يدعو إلى الفرقة والاختلاف ، لأنه يؤدى إلى الضعف والوهن والهزيمة، ولهذا حذر الله منه وأمر بالصبر عنه منبهاً بهذا إلى أن الصبر لازم للمؤمن فى هذه المواطن فيقول سبحانه ﴿ ولا تنازعوا فتفشلوا ﴾ .

---

(١) سورة الممتحنة الآيتان ١ ، ٢.

(٢) سورة الأنفال الآية ١٦.

وأما الصبر على ما قدر الله، من المصائب فهو لازم لزومًا مؤكدًا فى حالات الجهاد، فالمجاهد يضحى بنفسه، تتطاير منه يده أو رجله، أو يتلقى طعنة قاتلة أو ضربة مهلكة، فيقابل هذا بالصبر على ما قدر الله له محتسبًا ذلك عند الله، يعلم أن الموت آت لاريب فيه ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ (٧٨) ﴾ [١]، وخير له أن يضع هذا الموت موضعه والذى يربح منه أعظم الربح، وأى ربح أعظم مما وعد الله به عباده المجاهدين : ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ (١١١) ﴾ [٢].

والجهاد يموت فيه الولد ولكن المؤمن الصابر يعلم أن الولد عارية مستردة يطلبها الله متى أراد، فإذا فاضت روحه وهو يجاهد عن دينه وعقيدته ووطنه ذهب بعز الدنيا وشرف الآخرة، وكان لأهله الفخر كله، والمجد كله، والثواب العظيم عند الله ﴿ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (١٥٦) ﴾ [٣]،

وثواب الصابرين لايعدله ثواب فقد عبر الله عنه بقوله: ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ (١٠) ﴾ [٤].

هذا واجب من الواجبات التى أوجبها الله علينا، وقد رأينا حاجة المسلم إلى الصبر فى كل مرحلة من مراحل تنفيذه، ويقاس عليه غيره من الواجبات فالصبر لازم للمؤمن حتى يكون المؤمن القوى فى المجتمع القوى فيحقق به ما أراده الله لهذه الأمة[٥] ﴿ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ (٨) ﴾ [٦].

٣ - الصبر على البلاء

الإنسان فى حياته معرض للبلايا ونوائب الدهر التى قد تصيبه فى نفسه، أو ولده، أو أهله، أو ماله. وأفضل سلاح يتسلح به لمواجهة هذه البلايا والنوازل

---

(١) سورة النساء الآية ٧٨.
(٢) سورة التوبة الآية ١١١.
(٣) سورة البقرة الآية ١٥٦.
(٤) سورة الزمر الآية ١٠.
(٥) من أركان الإسلام صيام رمضان - للدكتور على أحمد مرعى ص ١٦ وما بعدها.
(٦) سورة المنافقون الآية ٨.

هو سلاح الصبر. قال تعالى: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمْوَالِ وَالأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴾ (1).

يخبر الله عز وجل أنه يمتحن عباده ويختبر إيمانهم بشيء قليل من الخوف من الأعداء أو من نزول أى ضرر، والجوع بسبب الجدب، والقحط، ونقص الأموال بسبب الجوائح المهلكة للأموال وغيرها، ونقص الأنفس بالموت أو القتل فى الجهاد أوالمرض، ونقص الثمرات بسبب ما يصيبها من الآفات.

وقيل: المراد بالثمرات الأولاد فهم ثمرة القلب، وأن المراد بنقصهم أى موتهم. ثم بين سبحانه وتعالى كيفية مواجهة هذه البلايا بطريق غير مباشر وذلك بقوله ﴿ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴾.

ثم بَينَّ الله سبحانه صفة هؤلاء الصابرين على البلايا والمصائب بقوله تعالى: ﴿ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾ (2).

فهذه الكلمات ﴿ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾ هى ملجأ الصابرين لتسكين نفوسهم، لما فيها من المعانى العظيمة.

فقول « إِنَّا لِلَّهِ » إقرار بالعبودية والملك له تعالى،

وقول ﴿ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾ إقرار بالموت والرجوع إليه تعالى فى الآخرة.

فهذه الكلمات دليل اليقين بأن الأمر كله بيده تعالى. ليس نطقاً فقط باللسان، ولكن تصديقاً ويقيناً بالقلب أيضاً.

«بأن يتصور ما خُلق له، وأنه راجع إلى ربه، ويتذكر نعم الله تعالى عليه. ويرى أن ما أبقى عليه أضعاف ما استرد منه. فيهون ذلك على نفسه ويستسلم» (3).

« قال سعيد بن جبير: لقد أُعطيت هذه الأمة عند المصيبة شيئاً لم يعطه الأنبياء قبلهم ﴿ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾.

---

(1) سورة البقرة الآية ١٥٥.
(2) سورة البقرة الآية ١٥٦.
(3) إرشاد العقل السليم - للإمام أبى السعود ١ / ٢٢١.

ولو أعطيها الأنبياء لأعطيها يعقوب - عليه السلام- ألم تسمع إلى قوله : ﴿ يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ ﴾ [(1)] » [(2)].

ومن ثَمَّ حق لهؤلاء الصابرين أن يبشرهم الله تعالى ويجزيهم الجزاء الأوفى.

قال تعالى :﴿ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴾ [(3)]

وقال تعالى : ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [(4)].

وقد ورد في ثواب الصبر على البلايا والاسترجاع [(5)] أحاديث كثيرة منها :

عن عائشة - رضى الله عنها- زوج النبى ﷺ . قالت :قال رسول الله ﷺ :«مامن مصيبة تصيب المسلم إلا كفر الله بها عنه حتى الشوكة يشاكها» [(6)].

وعن أنس بن مالك - رضى الله عنه- قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول :«إن الله تعالى قال : إذا ابتَليتُ عبدى بحبيبتيه فصبر عوضته منهما الجنة» يريد عينيه» [(7)].

وعن أم سلمة - زوج النبى ﷺ - رضى الله عنها- قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول :«ما من عبد تصيبه مصيبة فيقول : إنا لله وإنا إليه راجعون. اللهم أْجُرنى فى مصيبتى وأخلف لى خيراً منها ، إلا أجَره الله فى مصيبته ، وأخلف له خيراً منها» . قالت : فلما توفى أبو سلمة ،قلت كما أمرنى رسول الله ﷺ ، فخلف الله لى خيراً منه. رسول الله ﷺ » [(8)].

---

(1) سورة يوسف الآية ٨٤ .

(2) زاد المسير - للإمام ابن الجوزى ١ / ١٦٢ .

(3) سورة البقرة الآية ١٥٧ .

(4) سورة الزمر الآية ١٠ .

(5) الاسترجاع : أى قول «إنا لله وإنا إليه راجعون».

(6) أخرجه البخارى فى صحيحه - كتاب المرض- باب «١» فى كفارة المرض ٧ / ٢ واللفظ له / وأخرجه مسلم فى صحيحه - كتاب البر والصلة والآداب- باب «١٤» فى ثواب المؤمن من فيما يصيبه من مرض أو حزن أو نحو ذلك حتى الشوكة يشاكها - حديث رقم «٤٩»- ٤ / ١٩٩٢ .

(7) أخرجه البخارى فى صحيحه - كتاب المرض- باب «٧» فى فضل من ذهب بصره ٧ / ٤ .

(8) أخرجه مسلم فى صحيحه - كتاب الجنائز- باب «٢» فى ما يُقال عند المصيبة - حديث رقم «٤»- ٢ / ٦٣٣ .

وعن أبي موسى الأشعري - رضى الله عنه- : أن رسول الله ﷺ قال: «إذا مات ولد العبد، قال الله لملائكته: «قبضتم ولد عبدى؟ . فيقولون: نعم.

فيقول: قبضتم ثمرة فؤاده؟. فيقولون: نعم.

فيقول: ماذا قال عبدى؟. فيقولون: حمدك واسترجع.

فيقول الله: ابنوا لعبدى بيتاً في الجنة وسموه بيت الحمد» [١].

وعن أبي هريرة - رضى الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «ما يزال البلاء بالمؤمن والمؤمنة في نفسه وولده وماله حتى يلقى الله وما عليه من خطيئة» [٢].

● الصبر عند الصدمة الأولى

وكما سبق أن الله عز وجل يختبر إيمان عباده بابتلائهم ببعض ألوان الابتلاء والمصائب. ولما كان مصير كل مصاب أن ينسى مصيبته بعد حين، أو يخف أثرها ووقعها في النفس بمرور الزمن، كان حساب قيمة الصبر مقدراً عند الصدمة الأولى كما بين ذلك رسول الله ﷺ. فعن أنس بن مالك - رضى الله عنه- قال: مر النبي ﷺ بامرأة تبكي عند قبر. فقال: «اتقى الله واصبرى».

قالت: إليك عنى، فإنك لم تُصب مصيبتى. ولم تعرفه.

فقيل لها: إنه النبي ﷺ. فأتت باب النبي ﷺ، فلم تجد عنده بوّابين.

فقالت: لم أعرفك. فقال: «إنما الصبر عند الصدمة الأولى» [٣].

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه الترمذى في سننه - أبواب الزهد- باب «٥٤» في الصبر على البلاء- حديث رقم «٢٥١٠»- ٤ / ٢٨ . قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح. وفي الباب عن أبي هريرة وأخت حذيفة بن اليمان.

(٣) أخرجه البخارى في صحيحه- كتاب الجنائز - باب «٣٢» في زيارة القبور ٢ / ٧٩ واللفظ له / وأخرجه مسلم في صحيحه - كتاب الجنائز- باب «٨» في الصبر على المصيبة عند الصدمة الأولى- حديث رقم «١٥»- ٢ / ٦٣٧، ٦٣٨ .

• الحزن والشكوى لاتنافى الصبر

لاينافى الصبر ما يكون من حزن الإنسان عند نزول المصيبة بلا جزع، وذرف الدموع، فإن ذلك من الرقة والرحمة.

عن أنس بن مالك - رضى الله عنه- قال: دخلنا مع رسول الله ﷺ على أبى سيف القَيْن [(١)]، وكان ظئراً [(٢)] لإبراهيم، فأخذ رسول الله ﷺ إبراهيم فقَبَّله وشَمَّه. ثم دخلنا عليه بعد ذلك وإبراهيم يجود بنفسه، فجعلت عينا رسول الله ﷺ تذرفان. فقال له عبد الرحمن بن عوف - رضى الله عنه- : وأنت يارسول الله!.

فقال: «يا ابن عوف إنها رحمة». ثم أتبعها بأخرى. فقال ﷺ: «إن العين تدمع والقلب يحزن ولا نقول إلا ما يُرضى ربنا، وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون» [(٣)].

وعن أسامة بن زيد رضى الله عنه قال: كنا عند النبى ﷺ فأرسلت إليه إحدى بناته تدعوه، وتخبره أن صبياً لها، أو ابناً لها، فى الموت.

فقال للرسول: «ارجع إليها، فأخبرها: أن لله ما أخذ، وله ما أعطى. وكل شيء عنده بأجل مسمى. فُمرها فلتصبر ولتحتسب».

فعاد الرسول فقال: «إنها قد أقسمت لتأتينَها.

---

(١) «القَيْن»: أى الحداد والصائغ. [النهاية فى غريب الحديث والأثر- للإمام ابن الأثير ٤ / ١١٩].

(٢) «وكان ظئراً لإبراهيم»: الظِّئر: المرضعة غير ولدها. ويقع على الذكر والأنثى. والمراد أنه زوج مرضعته. [النهاية فى غريب الحديث والأثر- للإمام ابن الأثير ٣ / ١٤٠].

(٣) أخرجه البخارى فى صحيحه- كتاب الجنائز- باب «٤٤» فى قول النبى ﷺ: «إنا بك لمحزونون».. ٢ / ٨٤، ٨٥ واللفظ له/ وأخرجه مسلم فى صحيحه - كتاب الفضائل- باب «١٥» فى رحمته ﷺ الصبيان والعيال، وتواضعه، وفضل ذلك - حديث رقم «٦٢»- ٤ / ١٨٠٧، ١٨٠٨ .

قال : فقام النبى ﷺ ،وقام معه سعد بن عبادة ومعاذ بن جبل. وانطلقت معهم .فرفع إليه الصبى ونفسه تقعقع [1] كأنها فى شَنَّة [2]. ففاضت عيناه.

فقال له سعد : ما هذا يارسول الله !.

قال :«هذه رحمة جعلها الله فى قلوب عباده. وإنما يرحم الله من عباده الرحماء» [3].

أما الحزن الذى ينافى الصبر ، فهو المصحوب بالجزع والسخط وعدم الرضا بقضاء الله وقدره. وهو الذى يجعل صاحبه يفعل ماينهى عنه الشرع من دعوى الجاهلية ، ووضع التراب على الرأس ، ولطم الخدود ، وشق الجيوب .... إلخ من المنهى عنه.

عن عبد الله - رضى الله عنه- قال : قال النبى ﷺ : «ليس منا من لطم الخدود ، وشق الجيوب ، ودعا بدعوى الجاهلية» [4].

« أما الشكوى فإنها لا تنافى الصبر عندما تكون الشكوى إلى الله عز وجل. فإن يعقوب - عليه السلام- وعد بالصبر الجميل فقال - كما جاء فى القرآن الكريم- لأبنائه عندما رجعوا بدون أخيهم يوسف - عليه السلام- وادعوا أن الذئب أكله :« قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ» [5].

---

(١) «ونفسه تقعقع» : أى تضطرب وتتحرك. والمراد : أنه كلما صار إلى حال لم يلبث أن ينتقل إلى أخرى تقربه من الموت. والقعقعة : حكاية حركة الشىء يسمع له صوت .[النهاية فى غريب الحديث والأثر- للإمام ابن الأثير ٤ / ٧٨].

(٢) «كأنها فى شنة» : الشنة : واحدة الشنان وهى : الأسقية الخَلِقة. (أى القربة) وهى أشد تبريداً للماء من الجدد [المرجع السابق ٢ / ٤٥٢].

(٣) أخرجه البخارى فى صحيحه - كتاب الجنائز- باب «٣٣» فى قول النبى ﷺ : «يعذب الميت ببعض بكاء أهله عليه ٢ / ٨٠ / وأخرجه مسلم فى صحيحه - كتاب الجنائز- باب «٦» فى البكاء على الميت- حديث رقم «١١» - ٢ / ٦٣٥،٦٣٦ واللفظ له .

(٤) أخرجه البخارى فى صحيحه - كتاب الجنائز- باب «٣٦» فى ليس منا من شق الجيوب ٢ / ٨٢ .

(٥) سورة يوسف الآية ١٨ .

والنبى إذا وعد لا يخلف. ثم قال: « إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ »[1].

وكـذلك أيـوب - عليه السلام- أخبر الله عنه أنه وجده صابراً قال تعالى: ﴿إنا وَجَدْنَاهُ صَابِراً نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾[2] مع قوله ﴿ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾[3].

وإنما ينافي الصبر شكوى الله، لا الشكوى إلى الله. كما رأى بعضهم رجلاً يشكو إلى آخر فاقة وضرورة.

فقال: يا هذا ! تشكو من يرحمك إلى من لا يرحمك؟!. ثم أنشد:

وإذا عرتك بلية فاصبر لها　　صبر الكريم فإنه بك أعلم

وإذا شكوت إلى ابن آدم إنما　　تشكو الرحيم إلى الذى لايرحم »[4].

• أقسام الصابرين بحسب قوة صبرهم وضعفه

ينقسم الصابرون بحسب قوة صبرهم وضعفه إلى ثلاثة أقسام:

« أحدها: أن يقهر داعي الهوى فلا تبقى له قوة المنازعة. ويتوصل إليه بدوام الصبر. وعند هذا يقال: من صبر ظفر. والواصلون إلى هذه الرتبة هم الأقلون. فلا جرم هم الصديقون المقربون.

ثانيها: أن تغلب دواعي الهوى، وتسقط بالكلية منازعة باعث الدين، فيسلم نفسه إلى جند الشياطين، ولا يجاهد ليأسه من المجاهدة. وهؤلاء هم الغافلون. وهم الأكثرون. وهم الذين استرقتهم شهواتهم، وغلبت عليهم شقوتهم. وإليهم الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾[5].

---

(١) سورة يوسف الآية ٨٦.　(٢) سورة ص الآية ٤٤.

(٣) سورة الأنبياء الآية ٨٣.

(٤) مدارج السالكين - للإمام ابن القيم ١ / ٥٥٩ / وراجع بصائر ذوى التمييز- للعلامة الفيروزآبادى ٣ / ٣٨٠، ٣٨١.

(٥) سورة السجدة الآية ١٣.

وهؤلاء هم الذين اشترو الحياة الدنيا بالآخرة فخسرت صفقتهم.

عن أبى يعلى شداد بن أوس رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الكيس من دان نفسه، وعمل لما بعد الموت. والعاجز من أتبع نفسه هواها، ثم تمنى على الله»[1].

ثالثها: أن يكون الحرب سجالاً بين الجندين. فتارة له اليد عليها، وتارة لها عليه. وهؤلاء من المجاهدين. وهم الذين خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً».

● مراتب الصابرين

مراتب الصابرين خمسة وهى:

«الصابر: أعمها.

المصطبر: المكتسب للصبر، المبتلى به.

المتصبر: متكلف الصبر حامل نفسه عليه.

الصبور: العظيم الصبر الذى صبره أشد من صبر غيره.

الصبار: الشديد الصبر. فهذا فى القدر والكم»[2].

فالصبر من أعظم الفضائل التى يمن الله بها على الإنسان؛ لأنه ما من شيء فى هذه الحياة إلا ويحتاج إلى صبر. ولذلك جعل الله - جل وعلا - للصابرين مكانة عالية ومنزلة رفيعة، وبشرهم بأمور لم تجمع لغيرهم.

---

(١) أخرجه ابن ماجة فى سننه - كتاب الزهد- باب «٣١» فى ذكر الموت والاستعداد له- حديث رقم«٤٢٦٠»- ٢ / ١٤٢٣ واللفظ له / وأخرجه أحمد فى مسنده ٤ / ١٢٤ . قال الإمام الساعاتى: [أخرجه] الترمذى وابن ماجة والحاكم في المستدرك. وقال الحاكم: صحيح على شرط البخارى. وتعقبه الذهبى فقال: لا والله أبو بكر واه - يعنى أبا بكر بن أبى مريم، أحد رجال السند ضعيف». [الفتح الربانى - كتاب الترغيب فى صالح الأعمال- باب فى الترغيب فى أعمال البر والطاعة مطلقاً ١٩ / ٢٢].

(٢) إحياء علوم الدين - للإمام الغزالى ١٢ / ٢١٨٠، ٢١٨١ باختصار.

قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - : «نعم العدلان [1] ونعمت العلاوة[2] ﴿ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴾[3] » [4].

وعن أبى سعيد رضى الله عنه : « أن أناساً من الأنصار سألوا رسول الله ﷺ . فلم يسأله أحد منهم إلا أعطاه، حتى نَفِد ما عنده، فقال لهم حين نفد كل شىء أنْفَقَ بيديه :« ما يكن عندى من خير لا أدخره عنكم. وإنه من يستعفَّ يُعفَّه الله، ومن يتصبر يُصبره الله، ومن يستغن يُغنه الله. ولن تُعطوا عطاءً خيراً وأوسع من الصبر» [5].

● احتمال الأذى

وأما احتمال الأذى فهو الصبر ولكنه أشق، وهو بضاعة الصديقين، وشعار الصالحين، وحقيقته أن يؤذى المسلم فى ذات الله تعالى فيصبر ويتحمل، فلا يرد السيئة بغير الحسنة، لا ينتقم لذاته ،ولا يتأثر لشخصيته مادام ذلك فى سبيل الله، ومؤديًا إلى مرضات الله، وأسوته فى ذلك المرسلون والصالحون إذ يندر من لم يؤذ منهم فى ذات الله، ولم يبتل في طريقه إلى الوصول إلى الله.

قال عبد الله بن مسعود رضى الله عنه : كأنى أنظر إلى رسول الله ﷺ يحكى نبيا من الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم ضربه قومه فأدموه وهو يمسح الدم عن وجهه ويقول: «اللهم اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون» .

هذه صورة من صور احتمال الأذى كانت لرسول الله ﷺ .

وصورة أخرى له : «قسم يومًا مالاً، فقال أحد الأعراب : قسمة ما أريد بها

---

(١) العدلان : المثلان والمراد بهما هنا الصلاة والرحمة.

(٢) العلاوة : علاوة كل شىء مازاد عليه، والمراد بها هنا : الإهتداء. فهولاء أعطوا ثوابهم وزيادة

(٣) سورة البقرة الآية ١٥٧ .

(٤) أخرجه البخارى فى صحيحه معلقًا - كتاب الجنائز.

(٥) متفق عليه .

وجه الله، فبلغ ذلك رسول الله فاحمرت وجنتاه، ثم قال : «يرحم الله أخى موسى لقد أوذى بأكثر من هذا فصبر»[1].

وقال خباب بن الأرت رضى الله عنه : شكونا إلى رسول الله ﷺ وهومتوسد بردة له في ظل الكعبة، فقلنا : ألا تنتصر لنا، ألا تدعو لنا !

فقال : «قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له في الأرض فيجعل فيها، ثم يؤتى بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعل نصفين، ويمشط بأمشاط الحديد مادون لحمه وعظمه ما يصده ذلك عن دين الله»[2].

وقص الله لنا عن المرسلين وحكى عنهم قولهم وهو يتحملون الأذى فقال سبحانه : ﴿ وَمَا لَنَا أَلاَّ نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ (١٢) ﴾[3].

و كان عيسى ابن مريم عليه السلام يقول لبنى إسرائيل : «لقد قيل لكم من قبل إن السن بالسن والأنف بالأنف، وأنا أقول لكم : لا تقاوموا الشر بالشر بل من ضرب خدك الأيمن فحول إليه الخد الأيسر، ومن أخذ منك رداءك فأعطه إزارك».

وكان بعض أصحاب رسول الله ﷺ يقولون : ما كنا نعد إيمان الرجل إيمانًا إذا لم يصبرعلى الأذى !!.

على ضوء هذه الصورالناطقة ،والأسئلة الحية من الصبر والتحمل يعيش المسلم صابراً محتسبًا متحملاً ،لا يشكو ولا يتسخط، ولا يدفع المكروه بالمكروه، ولكن يدفع السيئة بالحسنة ويعفو ويصبر ويغفر[4] : ﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (٤٣) ﴾[5].

---

(١) رواه البخارى.
(٢) الغزالى فى الإحياء.
(٣) سورة إبراهيم الآية ١٢.
(٤) منهاج - المسلم أبو بكر جابر الجزائرى ص ١٣٨ - ١٤٠.
(٥) سورة الشورى الآية ٣٤.

الفصل الثانى

الإحسان إلى النفس المتعدى إلى الغير

- الإحسان إلى الوالدين.
- الإحسان إلى النفس بصلة الرحم
- الإحسان إلى الزوج.
- الإحسان إلى الزوجة.
- الإحسان إلى الأبناء.
- الإحسان إلى اليتامى.
- الإحسان إلى الجار.
- الإحسان إلى المساكين.
- الإحسان إلى الخدم والعبيد.
- الإحسان إلى الحاكم.

من الإحسان إلى النفس المتعدى إلى الغير
الإحسان إلى الوالدين

من الإحسان إلى النفس المتعدى إلى الغير الإحسان إلى الوالدين والبر بهما.

والمراد بالوالد من انتسب إليه الإنسان بالولادة المباشرة أو غير المباشرة، فيشمل الأب والجد ومن فوقهم، ويغلب إطلاق اسم الوالدين على الأب والأم؛ لأنهما السببان المباشران للولادة.

قال تعالى: ﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالاً فَخُورًا (٣٦) ﴾ [١]

وقال تعالى: ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاهُمَا فَلا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا (٢٣) وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا (٢٤) ﴾ [٢].

البر: الصلة والحسنة والخير، وقيل: البر اسم جامع للخير.

وفى المصباح المنير: بررت وَالِدِى أبره برا، وبرورا أحسنت الطاعة إليه ورفقت به، وتحريت محابه، وتوقيت مكارهه.

قال القرطبى: بر الوالدين موافقتهما على أغراضهما، وعلى هذا إذا أمر أحدهما ولده بأمر وجبت طاعته فيه إذا لم يكن ذلك الأمر معصية، وإن كان المأمور به من قبيل المباح فى أصله، كذلك إذا كان من قبيل المندوب، وقد ذهب بعض الناس إلى أن أمرهما بالمباح يصيره فى حق الولد مندوبا إليه، وأمرهما بالمندوب يزيده تأكيداً فى ندبيته [٣].

وقد جاء تفسير البر فى حديث النبى ﷺ جوابًا عن سؤال وجه إليه عن البر

(١) سورة النساء الآية ٣٦.   (٢) سورة الإسراء الآيتان ٢٣، ٢٤.

(٣) تفسير القرطبى ١٠/٢٣٨.

والإثم حيث قال : «البر حُسْنُ الخلق، والإثم ما حاك فى صدرك وكرهت أن يطلع عليه الناس»[1].

قال النووى : قال العلماء : البر يكون بمعنى الصلة، وبمعنى اللطف والمبرة وحسن الصحبة والعشرة، وبمعنى الطاعة، وهذه الأمور هى مجامع حسن الخلق.

وعلى هذا : فالبر اسم جامع لكل خير، ويقصد به هنا فى هذا الباب ما يقصد بكلمة الإحسان الواردة فى قوله تعالى : «وبِالْوالِدَيْنِ إِحْسَانًا»

وبكلمة المعروف الواردة فى قوله تعالى : ﴿ وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا ﴾ .

والمعروف كل ما يعرفه العقل والشرع : «أى يأمر به ويقره»

ولاحصر لأنواع البر والإحسان والمعروف ،فكل المعاملات الحسنة التى تكون بين الإخوان فى الإسلام لابد أن تتوافر هنا فى بر الوالدين، وقد ركزها الإمام الغزالى فى كتابه «الإحياء» فى ثمانية أصول هى :

- المواساة بالمال. - المعونة بالنفس فى قضاء المصالح وغيرها.
- الإمساك عن ذكر العيوب وكل ما يكره.
- ذكر المحامد والإرشاد إلى الخير. - العفو عن الزلات، والدعاء له.
- الوفاء والإخلاص،وعدم تكليفه ما يشق عليه »[2].

و بر الوالدين حق مقدس، قال تعالى : ﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴿٣٦﴾ ﴾[3].

وقال سبحانه وتعالى : ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴿١٥١﴾ ﴾[4].

وقوله عز وجل : ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ

---

(١) رواه مسلم عن النواس بن سمعان.

(٢) موسوعة الأسرة تحت رعاية الإسلام للشيخ عطية صقر ٥/ ٩، ١٠.

(٣) سورة النساء الآية ٣٦. (٤) سورة الأنعام الآية ١٥١.

عندكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاهُمَا فَلا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا (٢٣) وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا (٢٤) ﴾[١].

وقال تعالى : ﴿ وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٨) ﴾[٢].

وقوله تعالى : ﴿ وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ (١٤) وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (١٥) ﴾[٣].

وقوله جل شأنه : ﴿ وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاثُونَ شَهْرًا (١٥) ﴾[٤].

● حديث القرآن الكريم عن الإحسان إلى الوالدين

لقد تحدث القرآن الكريم في كثير من سوره عن الإحسان إلى الوالدين وبرهما، قال تعالى : ﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا (٣٦) ﴾[٥].

ففى هذا النص القرآنى الكريم نلاحظ أن الله تبارك وتعالى أمر بعبادته ونهى سبحانه عن الإشراك به.

والمتأمل يجد أن الآية بدأت بالأساس الأقوم الذى لا اعتبار لأى عمل من الأعمال إلا إذا كان معتمداً عليه، ذلك هو : الإخلاص فى العبادة لله وحده.

ثم ثنى بأهم العناصر وأولاها بالرعاية والتقديم والإحسان إلى الوالدين، وقد قرن الله تعالى الإحسان إليهما بعبادته وحده، ولم يجعل لمخلوق قط غيرهما - حاشا رسول الله ﷺ - هذا الحق، فهما أحق الناس بالإحسان إليهما، والشكر لهما، والتزام برهما، وطاعتهما فى غير معصية فإنه لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق[٦].

---

(١) سورة الإسراء الآيتان ٢٣، ٢٤.
(٢) سورة العنكبوت الآية ٨.
(٣) سورة لقمان الآيتان ١٤، ١٥.
(٤) سورة الأحقاف الآية ١٥.
(٥) سورة النساء الآية ٣٦.
(٦) الموسوعة فى سماحة الإسلام للشيخ محمد الصادق العرجون ٢ / ٧٠٤ بتصرف.

وقوله تعالى : ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا (١٥١) ﴾[1] .

وقوله جل شانه : ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاهُمَا فَلا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا (٢٣) وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا (٢٤) ﴾[2] .

هذه الآيات الكريمة جامعة ومشتملة على جميع الحالات التى يكون عليها الآباء والأبناء، فالبر لازم سواء أكان الأولاد أغنياء أم فقراء، صعاليك أم كبراء، وسواء أكانوا فى حالة نفسية حسنة أم سيئة تجعلهم يتبرمون ويتضجرون ويظهرون ذلك مما توضحه كلمة «أف» أم فى حالة هياج عصبى تجعل الإبن يخرج عن طوره «ولا تنهرهما» ثم يؤكد الله تعالى الموقف كله فلا يترك الإبن يتصرف وهو فى حالة هياج نفسى من شأنها أن تغضب الأبوين وتؤثر عليهما بل يقول له « وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا » فيه اعتذار وتلطف ولين كى يذهب كل ما فى نفوسهما من شعور بالألم والحزن[3] . علمًا بأن الإنسان متى كبرت سنه وبلغ مبلغ العجز كثرت مطالبه، وضاق صدره، وكثرت تدخلاته فى كل صغيرة وكبيرة، ومنهم من يرد إلى أرذل العمر، ومع ذلك فالولد مطالب شرعًا بأن يقول لكل من والديه مهما كانت حالهما قولاً كريمًا، وبأن لا يواجههما بأى قول يؤذيهما، وأدنى ذلك كلمة «أف» التى تشعر بالضجر.

والإنسان مهما عمل فلا يكاد يفى والديه حقهما عليه مهما أحسن إليهما، لأنهما كانا يحسنان إليه حينما كان صغيراً وهما يتمنيان له كل خير، ويخشيان عليه من كل سوء، ويسألان الله له السلامة وطول العمر، ويهون عليهما من أجله كل بذل مهما عظم، ويسهران على راحته دون أن يشعرا بأى تضجر من مطالبه، ويحزنان عليه إذا آلمه شىء .

---

(١) سورة الأنعام الآية ١٥١ . (٢) سورة الإسراء الآيتان ٢٣ ، ٢٤ .

(٣) السلوك الاجتماعى فى الإسلام الشيخ حسن أيوب ص ٢١ بتصرف.

أما الولد إذا قام بما يجب عليه من الإحسان لوالديه فإن مشاعره النفسية نحوهما لا تصل إلى مثل مشاعرهما التي كانت نحوه، ولا تصل إلى مثل مشاعره هو نحو أولاده إلا في حالات نادرة جداً [1].

وعما تتعرض له الأم من متاعب الحمل والوضع والرضاع قال تعالى: ﴿ وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ (١٥) ﴾ [2].

والمسلم البار بوالديه مطالب بأن يسأل الله تعالى دوام التوفيق في شكر نعمة الله عليه وعلى والديه، وأن يعمل صالحًا يرضى الحق تبارك وتعالى كما أن عليه أن يدعوه سبحانه بأن يصلح له في ذريته.

● منزلة البر والإحسان إلى الوالدين

لقد أعلى الإسلام منزلة البر، وبين فضله، ويظهر ذلك فيما يلي:

١ - الإشادة به حتى جعل التوفيق له من أكبر النعم التي امتن الله بها على خاصة خلقه من الأنبياء، فقال عن يحيى ﴿ وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا (١٤) ﴾ [3]. وقال عن عيسى ﴿ وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا (٣٢) ﴾ [4].

٢ - بعد الأمر بتوحيد الله سبحانه كان الأمر ببر الوالدين كما هو واضح في الآيات المتقدمة من سورة النساء، وسورة الأنعام، وسورة الإسراء، وفي آية البقرة في أخذ الميثاق على بني إسرائيل، وكذلك وصية لقمان لابنه في قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ (١٣) وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ (١٤) ﴾ [5] فالوصية بدأت بنهي لقمان

---

(١) الأخلاق الإسلامية وأسسها للشيخ عبد الرحمن الميداني ٢ / ٢٤.

(٢) سورة الأحقاف الآية ١٥. (٣) سورة مريم الآية ١٤. (٤) سورة مريم الآية ٣٢.

(٥) سورة لقمان الآيتان ١٣، ١٤.

ابنه عن الشرك، وثنت بقوله : ﴿ يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ (١٦) ﴾ ولكن الله وضع بين الوصية الأولى والثانية الوصية بالوالدين بأسلوب يدل على أن الوصية بهما هي من الله لا من لقمان.

وقيل : إن الوصية بهما من لقمان، ولكن الله أسندها هي بالذات إلى نفسه ليدل على شرفها وعلو منزلتها [١].

• الإحسان إلى الوالدين من صفات الأنبياء والمرسلين

الإحسان إلى الوالدين ببرهما وطاعتهما فيما يرضى الله تبارك وتعالى صفة من صفات الأنبياء والمرسلين، فقد كانوا صلوات الله وسلامه عليهم من أعظم الناس براً بوالديهم فى حياتهم وبعد مماتهم.

وقد أخبر المولى سبحانه وتعالى عن بر أبى الأنبياء إبراهيم عليه السلام بوالده والإحسان إليه بتقديم النصيحة له ورقته معه، والتلطف والاحترام الزائدين تجاهه، قال تعالى : ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا (٤١) إِذْ قَالَ لأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ وَلا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا (٤٢) يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا (٤٣) يَا أَبَتِ لا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا (٤٤) يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا (٤٥) قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا (٤٦) قَالَ سَلامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا (٤٧) وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَى أَلاَّ أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا (٤٨) ﴾ [٢].

وعن يحيى عليه السلام يقول الله تبارك وتعالى : ﴿ وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا (١٤) ﴾ [٣].

---

(١) موسوعة الأسرة تحت رعاية الإسلام للشيخ عطية صقر ٥ / ١٦ بتصرف.

(٢) سورة مريم الآيات ٤١ - ٤٨ .

(٣) سورة مريم الآية ١٤ .

وعن نطق عيسى في المهد وما قال في شأن والدته قال الله تعالى : ﴿ وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا (٣٢) ﴾ [١].

ولما للوالدين من حقوق كثيرة على الأبناء لا يستطيع إنسان أن يحصيها أو أن يقدرها، فالأب يعمل ويكد ويكدح ويتعب ليوفر للأسرة حاجتها من طعام وشراب وكساء ومسكن وأمان وغير ذلك من ضروريات الحياة، والأم تحمل وتضع وترضع وتعمل طول النهار وتسهر الليل رعاية لوليدها وحماية له من كل ما يضره من حر وبرد ومرض، تفرح لفرحه وتحزن لحزنه، وتذرف الدموع إن مرض أوتوعك، وتمتنع عن الطعام لو صام عن لبنها أو ضعفت شهيته عن الطعام، ولاتسعها الفرحة إن لعب مع أقرانه، ويمتلئ قلبها بالسعادة كلما حقق نجاحًا [٢].

ومن المعروف المألوف أن الأم الرؤوم حينما يثيرها بكاء طفلها الرضيع الذى يؤلمه الجوع، يمتلى ثديها لبنا، ويدفعها حنانها على طفلها للتدفق فإذا لم ترضعه احتقن اللبن فى ثديها فآلمها وأوجعها احتقانه !!.

كذلك إن لم يكن رضيعًا وجاع تألمت، فعن عائشة قالت : دخلت امرأة ومعها ابنتان لها تسأل فلم تجد عندى شيئًا غير تمرة واحدة، فأعطيتها إياها، فقسمتها بين ابنتيها ولم تأكل، ثم قامت فخرجت، فدخل النبى ﷺ علينا فأخبرته فقال : «من ابتلى من هذه البنات بشىء فأحسن إليهن كن له سترًا من النار» [٣].

وعنها رضى الله عنها قالت : جاءتنى مسكين تحمل ابنتين لها فأطعمتها ثلاث تمرات فأعطت كل واحدة منهما تمرة، ورفعت إلى فيها [٤] تمرة لتأكلها، فاستطعمتها ابنتاها، فشقت التمرة التى كانت تريد أن تأكلها بينهما، فأعجبنى شأنها، فذكرت الذى صنعت لرسول الله ﷺ فقال : «إن الله قد أوجب لها بها الجنة، أو أعتقها بها من النار» [٥].

لهذا كله أمر الحق تبارك وتعالى ببرهما والإحسان إليهما.

---

(١) سورة مريم الآية ٣٢.

(٢) السلوك الاجتماعى فى الإسلام ص ٢٥١ بتصرف.

(٣) رواه البخارى ومسلم. (٤) أى فمها. (٥) رواه مسلم.

● الإحسان إلى الوالدين فى الأديان السابقة

إن بر الوالدين والإحسان إليهما شريعة من شرائع الله تبارك وتعالى الأديان السابقة التى أنزلها على رسله السابقين، قال تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لا تَعْبُدُونَ إِلاَّ اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ [(1)].

وقال جل شأنه في مجال الثناء على نبى الله يحيى عليه السلام : ﴿ وَكَانَ تَقِيًّا (١٣) وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا (١٤) ﴾ [(2)].

كما حكى الحق تبارك وتعالى فى كتابه الكريم ما حدث به عيسى عن نفسه وهو طفل في المهد، قال تعالى : ﴿ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا (٣٠) وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا (٣١) وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا (٣٢) ﴾ [(3)].

والمتأمل لجملة النصوص القرآنية يدرك أن الأمر بالإحسان إلى الوالدين مما وصى الله به الإنسان، وهذا يدل على أن الأمر شريعة ربانية منذ أول الشرائع التى أنزلها الله للناس وأن الله أخذ الميثاق على بنى إسرائيل بالمحافظة على هذا الواجب وجعله مقارنًا لأخذ الميثاق عليهم بأن لا يشركوا بالله شيئًا [(4)].

● الإحسان إلى الوالدين حال حياتهما

لقد أمر الحق تبارك وتعالى بالإحسان إلى الوالدين حال حياتهما وشدد على ذلك رسول الله ﷺ والتزم بهذا الصالحون.

فعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «لا يجزى ولد والدا إلا أن يجده مملوكا فيشتريه فيعتقه».

وفى رواية ابن أبى شيبة : «ولد والده» [(5)].

---

(١) سورة البقرة الآية ٨٣ .

(٢) سورة مريم الآيتان ١٣ ، ١٤ .

(٣) سورة مريم الآيات ٣٠ - ٣٢ .

(٤) المرجع السابق ص ٢٧ .

(٥) رواه مسلم والترمذى والنسائى

وعن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : «رضا الله فى رضا الوالد وسخط الله فى سخط الوالد»[1].

وعن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما قال : جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال : يا رسول الله : إن أبى أخذ مالى.

فقال النبى : «فأتنى بأبيك».

فنزل جبريل عليه السلام على النبى ﷺ فقال : إن الله عز وجل يقرؤك السلام ويقول لك إذا جاءك الشيخ فاسأله عن شىء قاله فى نفسه ما سمعته أذناه.

فلما جاء الشيخ قال له النبى ﷺ : «ما بال ابنك يشكوك أتريد أن تأخذ ماله ؟»

فقال : سله يا رسول الله، هل أنفقه إلا على إحدى عماته أو خالاته أو على نفسى؟

فقال رسول الله ﷺ : «إيه، دعنا من هذا ، أخبرنى عن شىء قلته فى نفسك ما سمعته أذناك».

فقال الشيخ : والله يا رسول الله ما زال الله عز وجل يزيدنا بك يقينا ، لقد قلت فى نفسى شيئًا ما سمعته أذناى.

قال : «قل وأنا أسمع».

قال : قلت:

غدوتك مولودًا ومنتك يافعا ... تعل بما أجنى عليك وتنهل

إذا ليلة ضاقتك بالسقم لم أبت ... لسقمك إلا ساهرا أتململ

كأنى أنا المطروق دونك بالأذى ... طرقت به دونى فعينى تهمل[1]

تخاف الردى نفسى عليك وإنها ... تعلم أن الموت وقت مؤجل

فلما بلغت السن والغاية التى ... إليها مدى ماكنت فيك أؤمل

---

(١) رواه الترمذى ورجح وقفه، وابن حبان فى صحيحه والحاكم وقالا : صحيح على شرط مسلم.

(٢) تهمل : تبكى لأجلك.

جعـــلت جزائى غلظة وفظاظة   كـــأنك أنت المنعم المتفضل

فليتك إذ لـم ترع حـق أبوتى   فعلت كما الجار المصاقب يفعل

فأوليتنى حـق الجـوار ولم تكن   علـى بمـال دون مـالك تبخل

قال فحينئذ أخذ النبى ﷺ بتلابيب الإبن وقال : «أنت ومالك لأبيك».

قال الطبرانى : اللخمى لا يروى - يعنى هذا الحديث - عن ابن المنكدر بهذا التمام والشعر إلا بهذا الإسناد، وتفرد به عبيد الله بن خلصة،والله أعلم [1].

و ومن لطيف ما يروى فى بر الوالد أن "الفضل بن يحيى - كان هو وأبوه من رجال الرشيد - وكان الفضل كثير البر بأبيه، وكان أبوه يتألم من استعمال الماء البارد فى الشتاء، فلما دخلا السجن معًا لم يقدرا على تسخين الماء، فكان الفضل يأخذ الإبريق النحاس وفيه الماء ويضعه على بطنه مدة لتنكسر البرودة بحرارة بطنه حتى يستعمله أبوه [2].

وقال الأبشيهى [3] : إنه أدنى الإبريق من المصباح حى طلع الصباح.

وأخرج البيهقى وابن السنى أن أبا هريرة رضى الله عنه أبصر رجلين فقال لأحدهما : ما هذا منك ؟ فقال : أبى.

فقال أبو هريرة : لا تسمه باسمه، ولا تمش أمامه، ولا تجلس قبله [4].

وسئل الفضيل بن عياض عن بر الوالدين فقال : ألا تقوم إلى خدمتهما وأنت كسلان.

وقيل : ألا ترفع صوتك عليهما، ولا تنظر إليهما شزرا، ولا يريا منك مخالفة فى ظاهر أو باطن، وأن تترحم عليهما ما عاشا، وتدعو لهما إذا ماتا.

---

(١) القرطبى ١٠ / ٢٤٦ ، والحديث ظاهر عليه التلفيق وبعضه جاء فى الصحاح ولكن الشعر يشك فى كونه من الحديث.

(٢) حياة الحيوان الكبرى للدميرى ١ / ٥٦٧ .

(٣) المستطرف فى كل فن مستظرف للأبشيهى ٢ / ٨ .

(٤) البخارى فى الأدب المفرد .

ومن البر الإنفاق عليهما إذا احتاجا إلى نفقة، والتوسعة عليهما إن كانت حال ابنهما أوسع من حالهما، وأن ترحمهما من الأعمال الوضيعة، وأن تكفيهما النفقة.

قال ابن القيم : ليس من البر للوالدين أن يدع أباه يكنس الكنيف، ويكارى على الحمير، ويوقد أتون الحمام، ويحمل للناس على رأسه ما يتقوت بأجرته وهو فى غاية الغنى واليسار وسعة ذات اليد.

وليس من بر أمه أن يدعها تخدم الناس وتغسل ثيابهم وتسقى لهم الماء، ولا يصونها بما ينفقه عليها [1].

روى عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه رأى رجلاً يطوف بالبيت الحرام وعلى كاهله امرأة ضعيفه فى داخل زنبيل، فقال له: ما هذا ؟

قال : هذه أمى رغبت فى الحج وهى على ما ترى من الضعف فأحببت أن أبرها بتحقيق رغبتها، فحملتها منذ خرجنا، أفترانى أديت لها حقها الذى لها على من البر ؟

قال ابن عباس : لا، ولا حق طلقة واحدة من طلقاتها يوم ولدتك.

ومع ما يبذله الولد من الجهد فإنه لا يبلغ مدى البر اللائق بما قدمه له الوالدان، فقد جاء رجل إلى عبد الله بن عمر رضى الله عنهما، وقال له : إن أمى خرفت عندى، وأنا أطعمها بيدى، وأسقيها بيدى، وأصب لها وَضُوءها، وأحملها على عاتقى، فهل جزيتها ؟

قال: لا، ولا بطلقة واحدة، ولكنك أحسنت، والله يثيبك على القليل كثيراً.

ومعنى خرفت : هَذَت ولم يستقم فكرها ولا كلامها.

وقد ورد فى بر الوالدين أحاديث كثيرة، منها ما روى عن ابن مسعود قال : سألت رسول الله ﷺ : أى العمل أحب إلى الله ورسوله ؟

---

(١) زاد المعاد.

قال : «الصلاة في وقتها».

قلت : ثم أى . قال : «بر الوالدين».

قلت : ثم أى . قال : «الجهاد في سبيل الله» [1].

و عن عائشة قالت : قال رسول الله ﷺ : «دخلتُ الجنة فسمعت فيها قراءة ، فقلت : من هذا ؟

قالوا : حارثة بن النعمان ، «كذلكم البر» وكان أبر الناس بأمه.

ولما ماتت أم إياس الذكى القاضى المشهور بكى عليها ، فقيل له فى ذلك .

فقال : كان لى بابان مفتوحان إلى الجنة فأغلق أحدهما .

وكان رجل من المتعبدين يقبل كل يوم قدم أمه ، فأبطأ يومًا على أصحابه فسألوه ، فقال : كنت أتمرغ فى رياض الجنة ، فقد بلغنا أن الجنة تحت أقدام الأمهات .

وقيل لعلى بن الحسين : «إنك من أبر الناس ولا تأكل مع أمك فى صحفة».

فقال : أخاف أن تسبق يدى يدها إلى ما تسبق إليه عيناها فأكون قد عققتها [2]

و قد شهد ابن عمر رجلاً يمانيًا يطوف بالبيت حاملاً أمه وراء ظهره ويقول :

إنى لها بعيرها المذلل إن أذْعِرت ركابها لم أذعر

ثم قال : يا ابن عمر أتراني جزيتها ؟

قال : لا ، ولا بزفرة واحدة [3].

وحمل أعرابى أمه فى الطواف ، وكان يقول :

إنـــى لها مطية لا أذعر [4] إذا الركاب نفرت لا أنفر

ما حملت وأرضعتنى أكثر الله ربى ذو الجلال أكبر

---

(١) رواه البخارى ومسلم.

(٢) موارد الظمآن لدروس الزمان عبد العزيز المحمد السلمان ٢ / ٣٢٤ .

(٣) البخارى فى الأدب المفرد (٤) أذعر : أخاف

ثم التفت إلى ابن عباس، وقال له : أتراني قضيتها حقها؟

قال : لا، ولا بطلقة من طلقاتها [1].

وسُمع أعرابي يطوف بأمه، وهي على عاتقه ويقول :

إن تركبي على قَذالي [2] فاركبي ... فطالما حملتني وسرت بي

فـي بطنك المطـهر المطـيب ... كم بين هذاك وهذا المركب [3]

● **هل من طاعة الوالدين النزول على رغبتهما في تطليق زوجته؟**

تجب طاعة الوالدين في ذلك إن كان أمرهما له بذلك لغرض شرعي كسوء سلوكها، أو إلهائها له عن واجب مثلاً، أما إن كان لغرض شخصي لاتقره العقول السليمة، ولا يقبله الدين فلا طاعة لهما. وقد صح أن ابن عمر قال : كانت تحتي امرأة، وكنت أحبها، وكان عمر يكرهها، فقال لي : طلقها.

فأبيت ، فأتى عمر رسول الله ﷺ فذكر ذلك .

فقال عليه الصلاة والسلام : «طلقها» [4].

وعن أبي الدرداء أن رجلاً أتاه فقال : إن لي امرأة،وإن أمي تأمرني بطلاقها.

فقال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «الوالد أوسط أبواب الجنة، فإن شئت فأضِعْ ذلك الباب أو احفظه» [5].

ورواه ابن حبان في صحيحه بلفظ : أن رجلاً أتى أبا الدرداء فقال : إن أبي لم يزل بي حتى زوجني، وإنه الآن يأمرني بطلاقها.

قال : ما أنا بالذي آمرك أن تعق والديك، ولا بالذي آمرك أن تطلق امرأتك، غير أنك إن شئت حدثتك ما سمعت عن رسول الله ﷺ ، سمعته يقول : «الوالد أوسط أبواب الجنة، فحافظ على ذلك إن شئت، أو دع» .

---

(١) البيهقي «المحاسن والمساوئ» ٢ / ١٩٣ .　(٢) القذال : جماع مؤخر الرأس.

(٣) الأسرة تحت رعاية الإسلام للشيخ عطية صقر ٥ / ٥٥ .

(٤) رواه أبو داود والترمذي وقال : حسن صحيح.　(٥) رواه الترمذي وقال حسن صحيح.

قال : فأحسب عطاء وهو الرواى، قال : فَطَلِّقْهَا.

وقد ورد فى الصحيح : فى قصة إبراهيم وهاجر، أن إبراهيم أمر ولده إسماعيل أن يطلق زوجته الأولى، مكنيًا عن ذلك بتغيير عتبة الباب [1].

وأخرج أحمد وغيره عن معاذ بن جبل قال : أوصانى رسول الله ﷺ بعشر كلمات. ذكر منها «ولا تعصى والديك، وإن أمراك أن تخرج من أهلك ومالك».

فالأمر فى هذه الأحاديث بطاعة الوالدين فى تطليق الزوجة محمول على أنه لغرض دينى صحيح،وهذا لا يكون إلا من والد عاقل، لا يؤثر هواه على هوى ابنه، وقد صرح بذلك الإمام أحمد عندما سأله رجل، وقال له : إن أبى يأمرنى أن أطلق امرأتى.

قال : لاتطلقها.

فقال الرجل : أليس عمر أمر ابنه عبد الله أن يطلق امرأته؟

قال : حتى يكون أبوك مثل عمر رضى الله عنه.

قال الإمام الغزالى بعد ذكر حديث ابن عمر : فهذا يدل على أن حق الوالد مقدم، ولكن وَالِدٌ يَكْرَهُهَا لا لغرض مثل عمر.

وهذا واضح فى قصة إبراهيم، فإنه وجد زوجة ابنه تتأفف من عشرته، ولا تحمد عيشها المتواضع، ومثل هذه لا يقوم بها بيت سعيد، وقد تكون فتنة لزوجها.

وقد أمر أبو بكر الصديق ابنه عبد الله أن يطلق زوجته عاتكة، عندما غلبته على عقله، وشغلته عن السوق، فطلقها طلقة واحدة، ولكن لما وجده يهيم بها أمره بردها.

وذهب جماعة إلى أنه تجب طاعتهما مطلقا، لنص الحديث.وهو رأى أبى بكر من أصحاب أحمد بن حنبل.

وفى رواية عن أحمد بن حنبل أن ذلك خاص بالأب لوروده فى الحديث، أما الأم إذا أمرت بالطلاق فلا يعجبنى أن تطلق.

---

(١) رواه البخارى عن ابن عباس.

ورأى أحمد فى التطليق لأمر الأب محمول على ما كان لعرض شرعى يقدره مثل عمر رضى الله عنه، وذلك حتى يتفق كلامه هنا مع ما سبق عنه إذ قال : فإن أمره الأب بالطلاق طلق إذا كان عدلاً.

قال ابن تيمية فيمن تأمره أمه بطلاق امرأته : لا يحل له أن يطلقها، بل عليه أن يبرها، وليس تطليق امرأته من برها.

وأرى أن طلاقها إن ضره هو، أو ضرها هى، وهو الغالب، لا تجوز طاعة الوالدين فيه، اعتباراً لحديث «لا ضرر ولا ضرار» ودرء المفاسد مقدم على جلب المصالح كما هو مقرر[1].

● هل من بر الوالدين قبوله الزواج من امرأة معينة أرغماه عليها

يحدث أحيانًا أن الوالدين يختاران لولدهما زوجة بمقاييس من وجهة نظرهما ويرغمانه على الزواج منها، واضعين له أمام الأمر الواقع أحيانًا، عندما لا تكون له رغبة فى الزواج، أو لم يشركهما فى الاختيار، فهل من البر أن يطيعهما فى ذلك؟

ونقول : إن كان الولد لا يكره هذه الزوجة أطاعهما، وإن كان لا يحبها لا يطيعهما ؛ لأن طاعتهما ستسبب له حياة تعيسة مليئة بالمنازعات، والإسلام لا يرضى الضرر، خصوصًا فى أمر يطول أمده، قال ابن تيمية فى تعليل ذلك : وإذا لم يكن لأحد أن يلزمه بأكل ما ينفر طبعه عنه مع قدرته على أكل ما تشتهيه نفسه، كان النكاح بذلك أولى، فإن أكل المكروه ساعة،وعشرة المكروه من الزوجين على طول يؤذى صاحبه، ولا يمكن فراقه.

هذا : وإذا كان ما أمر به الوالد ولده أمراً لم يتبين رشده، أو كان من المتشابه فهل يطيعه؟

اختلف الرأى فى ذلك، وهذا الاختلاف مبنى على تعاطى المشتبه فيه، فمال الكثيرون إلى تعاطيه، وعليه تجب الطاعة فيه كما قال النووى، وغير الكثيرين مال إلى عدم تعاطيه[2].

---

(١) موسوعة الأسرة تحت رعاية الإسلام للشيخ عطية صقر ٥ / ٣٨-٤٠ .

(٢) المرجع السابق ٥ / ٤٠، ٤١ .

- **الإحسان إلى الوالدين مقدم على الجهاد**

من الإحسان إلى الوالدين والبر بهما إن لم يتعين الجهاد ألا يجاهد إلا بإذنهما[1] فعن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما قال : جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فاستأذنه فى الجهاد.

فقال : «أحى والداك؟ » قال : نعم .

قال : «ففيهما فجاهد»[2] .

وعن أبى سعيد رضى الله عنه أن رجلاً من أهل اليمن هاجر إلى رسول الله ﷺ فقال : «هل لك أحد باليمن؟» قال : أبواى

قال : «أذنا لك ؟ » ، قال : لا .

قال : «فارجع إليهما فاستأذنهما ، فإن أذنا لك فجاهد وإلا فبرهما»[3] .

وعن أنس رضى الله عنه قال : أتى رجل رسول الله ﷺ فقال : إنى أشتهى الجهاد ولا أقدر عليه.

قال : «بقى من والديك أحد؟»، قال : أمى ،

قال : «قابل الله فى برها ، فإن فعلت ذلك فأنت حاج ومعتمر ومجاهد»[4] .

وعن طلحة بن معاوية السلمى رضى الله عنه قال : أتيت النبى ﷺ فقلت : يا رسول الله إنى أريد الجهاد فى سبيل الله.

قال : «أمك حية؟». قلت : نعم.

قال النبى ﷺ : «إلزم رجلها فثم الجنة»[5] .

وعن معاوية بن جاهمة أن جاهمة جاء إلى النبى ﷺ فقال : يا رسول الله أردت أن أغزو ، وقد جئت أستشيرك ، فقال :«هل لك من أم؟» ، قال : نعم .

---

(١) القرطبى ١٠/ ٢٤٠ . (٢) رواه البخارى ومسلم.

(٣) رواه أبو داود .

(٤) رواه أبو يعلى والطبرانى فى الصغير والأوسط وإسنادهما جيد.

(٥) رواه الطبرانى .

قال : «فالزمها فإن الجنة عند رجليها»[1].

ورواه الطبراني بإسناد جيد، ولفظه، قال : أتيت النبي ﷺ أستشيره في الجهاد، فقال النبي ﷺ : «ألك والدان؟» قلت : نعم.

قال : «الزمهما فإن الجنة تحت أرجلهما».

قال الجصاص في أحكام القرآن قال أصحابنا : لا يجوز أن يجاهد إلا بإذن الأبوين إذا قام بإزاء العدو من قد كفاه الخروج.

قالوا : فإن لم يكن بإزاء العدو من قام بغرض الخروج فعليه الخروج بغير إذن الوالدين، لأن الجهاد حينئذ فرض عين على كل قادر، وليس فرض كفاية بحيث إذا قام به البعض سقط عن الباقين.

وأما الخروج للتجارة ونحوها فقالوا فيه : لا بأس به بغير إذنهما لأن النبي ﷺ إنما منعه من الجهاد بغير إذن الأبوين لما فيه من التعرض للقتل وفجيعة الأبوين به.

أما التجارات والتصرفات في المباحات التي ليس فيها تعرض للقتل - عادة - فلا يحتاج إلى استئذانهما»[2].

• الإحسان إلى الوالدين المشركين

لقد بلغ الإسلام في تقرير حق الوالدين قدراً رفيعًا من الرحمة والكرامة والوفاء، من ذلك إيجاب الإحسان إليهما ولو كانا مشركين، ولو بلغا مرحلة الدعوة إلى الكفر ومحاولة حمل الابن عليه، فلا يمنع كفرهما من الإحسان إليهما في الوقت الذي لا تجب طاعتهما في الكفر بالله سبحانه وتعالى، قال تعالى : ﴿ وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا ﴾[3].

---

(١) رواه ابن ماجة والنسائي واللفظ له والحاكم وقال صحيح الإسناد

(٢) أحكام القرآن للجصاص ٤ / ٢٣٥ والسلوك الاجتماعي في الإسلام ص ٢٥٩ : ٢٦٠.

(٣) سورة لقمان الآية ١٥.

والقرآن الكريم يحكى لنا تلطف إبراهيم عليه السلام فى دعوته لأبيه آزر وحرصه على إيمانه.قال تعالى : ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا (41) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا (42) يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا (43) يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا (44) يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا (45) قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا (46) ﴾ [1].

ولما يئس إبراهيم من أبيه وعده بالاستغفار له على الرغم من تهديد والده له بقوله ﴿ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا (46) ﴾ [2] قال تعالى على لسان إبراهيم ﴿ قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا (47) ﴾ [3] ثم تبرأ منه كما قال تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ (114) ﴾ [4].

والنبى محمد ﷺ كان باراً بعمه أبى طالب، وكان بمنزلة والده عنده، لأنه عاش فى كفالته بعد موت جده عبد المطلب، وكان حريصا على إسلامه حتى آخر لحظة من حياته، وقد طلب له المغفرة من الله، كما طلب إبراهيم لأبيه آزر، ولكن الله لم يقبل منه ذلك بقوله : ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (113) وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ (114) ﴾ [5].

وكان أبوهريرة باراً بأمه على الرغم من عدم إسلامها ،وكان كلما عرض عليها الإسلام أسمعته ما يكره، ولما شكا للنبى ﷺ ما يلقاه منها وطلب منه أن يدعو لها، دعا لها، فاستجاب الله الدعاء.

(١) سورة مريم الآيات ٤١ - ٤٦ .
(٢) سورة مريم الآية ٤٦ .
(٣) سورة مريم الآية ٤٧ .
(٤) سورة التوبة الآية ١١٤ .
(٥) سورة التوبة الآيتان ١١٣ ، ١١٤ .

فرجع أبو هريرة فوجدها تغتسل استعداداً للإسلام، وأسلمت [1].

وقال السيوطي في أسباب نزول قوله تعالى : ﴿ لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ⑧ ﴾ [2] فقد أخرج أحمد والبزار والحاكم في صحيحه عن عبد الله بن الزبير قال : قدمت قتيلة على ابنتها أسماء بنت أبي بكر وكان أبو بكر طلقها في الجاهلية، فقدمت على بنتها بهدايا، فأبت أسماء أن تقبل منها أو تدخلها منزلها حتى أرسلت إلى عائشة أن تسأل عن هذا رسول الله ﷺ فأخبرته، فأمرها أن تقبل هداياها وتدخلها منزلها، فأنزل الله تعالى : ﴿ لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ ﴾ الآية.

وهذه الآية من دعائم سماحة الإسلام في معاملة غير أهله من سائر الملل والأديان، فهم ماداموا مسالمين لا يعالنوننا الحرب ولا يكيدون لنا في الخفاء ولا يتربصون بنا الدوائر، فلهم العدل والبر تخلقاً بمعالي الأمور واستئلافاً لقلوبهم وعملاً بما يحب الله ورسوله من أخلاق المؤمنين.

أخرج البخاري ومسلم عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما، قالت : قَدِمَتْ عَلَيَّ أمي وهي مشركة في عهد رسول الله ﷺ ، فاستفتيت رسول الله ﷺ .

قلت : قدمت على أمي وهي راغبة، أفأصل أمي؟

قال : «نعم صِلِي أمك».

وبناء على ذلك فبر الوالدين الكافرين أو الفاسقين واجب في غير معصية، وذلك أن البر كما ذكر في القرآن الكريم في مقابل ما فعل الوالدان بالابن من معروف، وقدما له من خير، وقاما به من تربية، والكافران في ذلك كالمسلمين، غير أنه لا يستغفر لهما ولا يدعو لهما بعد موتهما على الكفر [3].

---

(١) الأسرة تحت رعاية الإسلام للشيخ عطية صقر ٥ / ٢٢، ٢٣ .

(٢) سورة الممتحنة الآية ٨.

(٣) السلوك الاجتماعي في الإسلام ص ٢٧.

ومن خلال تتبع القرآن المكى نجد أنه رغم قطع الولاء سواء فى الحب أم فى النصرة بين المسلم وأقاربه الكفار فإن القرآن الكريم أمر بعدم قطع صلة الوالدين المشركين وبرهما والإحسان إليهما ومع ذلك فلا ولاء بينهم، قال تعالى : ﴿ وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ ﴾ [1].

قال البغوى [2] : إن هذه الآية وآية ١٥ من سورة لقمان وهى قوله تعالى : ﴿ وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ نزلت فى سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه وأمه حمنة بنت أبى سفيان، فقد كان سعد من السابقين الأولين للإسلام، وكان بارًا بأمه.

قالت له أمه : ما هذا الدين الذى أحدثت؟ والله لا آكل ولا أشرب حتى ترجع إلى ما كنت عليه، أو أموت فتعير بذلك أبد الدهر ، يقال : يا قاتل أمه.

ثم إنها مكثت يومًا آخر وليلة لم تأكل ولم تشرب ولم تستظل، فأصبحت وقد جهدت ثم مكثت يوما آخر وليلة لم تأكل ولم تشرب،

فجاء سعد إليها وقال : يا أماه: لو كانت لك مائة نفس فخرجت نفسًا نفسًا ما تركت دينى، فكلى، وإن شئت فلا تأكلى،

فلما أيست منه أكلت وشربت، فأنزل الله هذه الآية، وأمره ببر والديه والإحسان إليهما وعدم طاعتهما فى الشرك لأنه لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق [3].

---

(١) سورة العنكبوت الآية ٨.

(٢) تفسير البغوى ٥ / ١٨٨ وانظر أسباب النزول للواحدى ص ١٩ فقد ذكر نحو هذا.

(٣) الولاء والبراء فى الإسلام د. محمد سعيد القحطانى ص ١٧٤ وحديث : «لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق» حديث صحيح انظر مشكاة المصابيح ٢ / ١٠٩٢ .

رواية ثانية

قيل إنها نزلت فى مصعب بن عمير، وملخصها :

لما عاد مصعب بن عمير من المدينة المنورة إلى مكة المكرمة، جعل أول شيء يفعله هو نزوله على النبى ﷺ . فلما علمت أمه غضبت عليه غضباً عظيماً، وقالت : ويلك يا عاق، لقد غبت عنى ستة أشهر، ثم جعلت أول نزولك على ذلك الصابئ (تقصد النبى ﷺ) الذى فرق بين الآباء والأبناء، وبين المرء وزوجه، فقد عاب آباءنا، وسفه عقولنا،

والله لن أذوق الطعام والشراب، ولن أجلس فى الظل حتى أموت أو تعود عن دين محمد إلى دين آبائك وأجدادك.

فتركها وانصرف وجلس عند النبى ﷺ ، ومر اليوم الأول فلم تذق ماءاً ولا طعامًا وألقت بنفسها فى حر الشمس المحرق.

وجاء إخوته وزعماء عشيرته وأرحامه يطلبون منه الرجوع عن دينه والعودة إلى أمه، ولكنه رفض وأبى، فلما أوشكت على الهلاك، وقف وقال : يا أماه، والله لو كان لك مائه نفس، فخرجت نفسا نفسا، ما تركت دين محمد إلى دينكم، كُلِى أو لا تأكلى، ثم تركها وانصرف، فلما رأت ثباته وصبره، عادت وأكلت وشربت وجلست فى الظل وضربت كفا بكف.

والمتأمل لقصة سعد مع أمه وقصة مصعب مع أمه يجد تشابهًا كبيرًا، ولا تعارض فربما تكررت الواقعة وتشابهت.

بر الوالدين الكافرين لا يرقى إلى درجة الحب القلبى

يجب أن تعلم أن بر الوالدين الكافرين لا يرقى إلى درجة الحب القلبى، فذلك ممنوع، قال تعالى : ﴿ لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ (٢٢) ﴾[1] .

---

(١) سورة المجادلة الآية ٢٢.

وقال سبحانه : ﴿ قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [1].

فالبر المسموح به للكفار لا يعدو أن يكون معاملة ظاهرية، وفاء بحق التربية التى أداها الوالدان للولد.

نماذج فى هذا الموضوع

السيدة أم حبيبة زوج النبى ﷺ وأم المؤمنين لم تقبل أن يجلس أبوها على فراش النبى قبل أن يسلم.

فقال لها : لا أدرى أرغبت بالفراش عني، أم رغبت بى عنه؟

قالت : كلا، ولكن فراش الرسول ﷺ طاهر، وأنت نجس مشرك.

فقال : أصابك شر بعدى يا بنية [2].

كما اختار زيد بن حارثة رسول الله ﷺ على أهله، فعندما قال له أبوه : يا زيد ، أتختار العبودية على أبيك وأمك وبلدك وقومك ؟

قال : إنى رأيت من هذا الرجل شيئاً، وما أنا بالذى أفارقه أبدا [3].

واختارت جويرية بنت الحارث المصطلقية رسول الله ﷺ عندما سبيت فى غزوة بنى المصطلق، وجاء أبوها - كما فى رواية ابن سعد بسند صحيح - وقال: إن ابنتى لا يسبى مثلها، فخل سبيلها.

فقال : «أرأيت إن خيرتها أليس قد أحسنت؟»

قال : بلى

فأتاها أبوها وقال : إن هذا الرجل قد خيرك فلا تفضحينا.

قالت : فإنى اختار الله ورسوله [4].

وأبو عبيدة عامر بن الجراح قتل أباه عبد الله فى غزوة بدر الكبرى واستأذن

---

(١) سورة التوبة الآية ٢٤.

(٢) الروض الأنف ٢ / ٢٦٥ ، وزاد المعاد ٢ / ١٦١ بتصرف.

(٣) الروض الأنف ١ / ١٦٤ .

(٤) المواهب للزرقانى ٣ / ٢٥٥ .

عبد الله بن عبد الله بن أبى ابن سلول الرسول ﷺ فى قتل أبيه عندما قال [1] : «لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ» [2] .

● الإحسان إلى الوالدين بعد وفاتهما

ليس بر الوالدين والإحسان إليهما مقصوراً على حال حياتهما فقط بل إن البر والإحسان ممتد إلى ما بعد الوفاة، فقد ورد عن أبى أسيد مالك بن ربيعة الساعدى رضى الله عنه قال : بينما نحن جلوس عند رسول الله ﷺ إذ جاءه رجل من بنى سلمة فقال : يا رسول الله هل بقى من بر أبوى شيء أبرهما به بعد موتهما ؟

قال : «نعم، الصلاة عليهما، والاستغفار لهما، وإنفاذ عهدهما من بعدهما، وصلة الرحم التى لا توصل إلا بهما، وإكرام صديقهما» [3] .

وعن عبد الله بن دينار أن عبد الله بن عمر بن الخطاب رضى الله عنهما كان إذا خرج إلى مكة كان له حمار يتروح عليه إذا مل ركوب الراحلة، وكانت له عمامة يشد بها رأسه، فبينما هو يوماً على ذلك الحمار إذ مر به أعرابى فقال : ألست فلان ابن فلان،

قال : بلى،

فأعطاه الحمار، فقال اركب هذا، وأعطاه العمامة وقال : أشدد بها رأسك،

فقال له بعض أصحابه: غفر الله لك !! أعطيت هذا الأعرابى حماراً كنت تروح عليه وعمامة كنت تشد بها رأسك ! وهم الأعراب يرضون باليسير.

فقال ابن عمر لأصحابه : إن أبا هذا كان صديقاً لعمر رضى الله عنه وإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : إن من أبر البر أن يصل الرجل أهل ود أبيه بعد أن يولى [4] .

وعن أبى بردة قال : قدمت المدينة فأتانى عبد الله بن عمر فقال أتدرى لم أتيتك ؟

قال : قلت لا،

قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «من أحب أن يصل أباه فى قبره فليصل إخوان أبيه بعده، وإنه كان بين أبى عمر وبين أبيك إخاء وود فأحببت أن أصل ذلك» [5] .

(١) الروض الأنف ٢ / ٢١٧ انظر الأسرة تحت رعاية الإسلام ٥ / ٢٥، ٢٦ .

(٢) سورة المنافقون الآية ٨.

(٣) رواه أبو داود وابن حبان فى صحيحه ، وزاد فى آخره : قال الرجل ما أكثر هذا يا رسول الله وأطيبه، قال : «فاعمل به».

(٤) الموسوعة فى سماحة الإسلام للشيخ عرجون ٢ / ٧٠٧ .

(٥) متفق عليه من حديث عائشة .

وكذا لو كان عليهما حج فمن برهما الحج عنهما، فقد جاءت امرأة من جهينة إلى النبي ﷺ، فقالت : إن أمي نذرت أن تحج، فلم تحج حتى ماتت ، أفأحج عنها ؟

قال : «حجي عنها، أرأيت لو كان على أمك دين أكنت قاضيته ؟ اقضوا فالله أحق بالقضاء»[1].

وأمر النبي ﷺ أبا رزين أن يحج عن أبيه ويعتمر.

وسألت امرأة رسول الله ﷺ عن أبيها مات ولم يحج.

فقال : «حجي عن أبيك».

وقد رغب النبي ﷺ في ذلك ، فعن زيد بن أرقم عن النبي ﷺ أنه قال :

«إذا حج الرجل عن والديه تقبل منه ومنهما ، واستبشرت أرواحهما في السماء ، وكتب عند الله بارا»

وعن ابن عباس عن النبي ﷺ : «من حج عن أبويه، أو قضى عنهما مغرما بعث يوم القيامة مع الأبرار».

قال رسول الله ﷺ : «من حج عن أبيه أو أمه فقد قضى عنه حجته، وكان له فضل عشر حجج»[2].

وأما عن الصدقة عن الميت فهو أمر مشروع ، ففي الحديث أن رجلاً قال للنبي ﷺ : إن أبي مات وترك مالاً ولم يوص، فهل يكفر عنه أن أتصدق عنه؟ قال : «نعم»[3].

وعن أنس رضي الله عنه أن سعداً أتى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله إن أمي توفيت ولم توص، أفينفعها أن أتصدق عنها ؟

قال : «نعم. وعليك بالماء»[4]

وعن سعد بن عبادة قال : قلت : يا رسول الله إن أمي ماتت، فأي الصدقة أفضل؟

قال : «الماء» .

فحفرت بئراً وقلت : «هذه لأم سعد »[5].

---

(١) رواه البخاري عن ابن عباس. (٢) روى هذه الأحاديث الدارقطني.

(٣) رواه مسلم وأحمد وغيرهما عن أبي هريرة. (٤) رواه الطبراني في الأوسط ورواته محتج بهم.

(٥) رواه أبو داود وابن ماجة وابن خزيمة في صحيحه إلا أنه قال إن صح الخبر.

ومن بر الوالدين والإحسان إليهما بعد موتهما الدعاء لهما، فقد قال النبى ﷺ فى حديث عن انقطاع عمل ابن آدم بعد موته إلا من ثلاث وجاء فيه : «أو ولد صالح يدعو له» وليس الدعاء المشروع مقصوراً على الولد، بل دعاء الغير نافع إن شاء الله، قال ﷺ : «إذا صليتم على الميت فأخلصوا له الدعاء» [1].

وكان ﷺ إذا فرغ من دفع الميت وقف عليه وقال : «استغفروا لأخيكم، وسلوا التثبيت، فإنه الآن يسأل» [2].

إلى جانب ما قاله الله تعالى : ﴿ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا (٢٤) ﴾ [3].

هذا : وقد قال العلماء فى نفع الميت بالدعاء وطلب المغفرة له، معناه حصول المدعو له به إذا استجيب، واستجابته محض فضل منه، ولا يسمى فى العرف ثواباً.

أما نفس الدعاء وثوابه فللداعى، لأنه شفاعة أجرها للشافع، ومقصودها للمشفوع له [4].

وغير ذلك كثير وكثيرمن أعمال البر والإحسان.

• الإحسان إلى الأم مقدم على الإحسان إلى الأب

إن حق الأم من البر والإحسان أكثر من حق الأب ومقدم عليه وذلك لما تنفرد به من مشقة الحمل والوضع والرضاع والخدمة وكثرة الشفقة وشدة الحنو، فعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : «جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله من أحق الناس بحسن صحابتى ؟ قال : «أمك».

قال : ثم من ؟، قال : أمك، قال : ثم من ؟ قال : «أمك».

قال : ثم من ؟ قال : «أبوك» [5].

قال القرطبى : فهذا الحديث يدل على أن محبة الأم والشفقة عليها ينبغى أن تكون ثلاثة أمثال محبة الأب وذلك أن صعوبة الحمل، وصعوبة الوضع،

---

(١) رواه أبو داود والبيهقى وابن حبان فى صحيحه.

(٢) رواه أبو داود عن عثمان بن عفان.

(٣) سورة الإسراء الآية ٢٤.

(٤) الأسرة تحت رعاية الإسلام ٥ / ٦٢ ، ٦٣.

(٥) رواه البخارى ومسلم.

وصعوبة الرضاع، والتربية تنفرد بها الأم دون الأب، فهذه ثلاث مشقات يخلو منها الأب».

وحديث أبى هريرة يدل على أن لها ثلاثة أرباع البر، وهو الحجة على من خالف، وقد زعم المحاسبى فى «كتاب الرعاية» أنه لا خلاف بين العلماء على أن للأم ثلاثة أرباع البر وللأب الربع على مقتضى حديث أبى هريرة رضى الله عنه [1] والله أعلم.

وقد اختلف العلماء فى تقديم حق الأم فى البر على الأب فذهب الجمهور إلى أن للأم ثلاثة أمثال ما للأب من البر، أخذاً من هذا الحديث الصحيح.

ومن الحديث أيضًا أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله يوصيكم بأمهاتكم، ثم يوصيكم بأمهاتكم، ثم يوصيكم بآبائكم بالأقرب فالأقرب».

قال الجمهور: وكان ذلك لصعوبة الحمل، ثم الوضع، ثم الرضاع، فهذه تنفرد بها الأم وتشقى بها، ثم تشارك الأب فى التربية. وقد وقعت الإشارة إلى ذلك فى قوله تعالى: ﴿ وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاثُونَ شَهْرًا ﴾ [2].

فسوى بينهما فى الوصاية وخص الأم بالأمور الثلاثة.

ونقل بعضهم عن مالك أنهما فى البر سواء، أخذاً مما روى عنه أنه سأله رجل قال: طلبنى أبى فمنعتنى أمى.

قال مالك: أطع أباك ولا تعص أمك

قال ابن بطال: هذا يدل على أنه يرى أن برهما سواء،

وقال الليث حين سئل عن المسألة بعينها قال: أطع أمك فإن لها ثلثى البر.

قال الحافظ ابن حجر: والصواب رأى الجمهور

وعندى أن بعض الأمهات فى بعض البلاد متخلفات العقل قاصرات فى التفكير قد تأمر ابنها بما يضر دينه ودنياه وتنهاه عما يصلح حاله، قد تأمره

---

(١) تفسير القرطبى ١٠ / ٢٣٩.   (٢) سورة الاحقاف الآية ١٥.

بزواج قريبتها وهو لا يهواها وليست بكفء لحاله، وقد تنهاه عن الزواج لمجرد حرصها على إبقائه فى أحضانها.

فطاعة الأم، وكذا طاعة الأب - بعد كمال رشد الابن - ليست على الإطلاق.

ومع هذا ينبغى على الابن أن يعمل على إرضائهما، مع المحافظة على مايصلحه فى الدين والدنيا.

ولا يتعارض هذا الرأى مع بر الوالدين، ولا مع توقف الجهاد على إذن الأبوين لأن الجهاد الذى يتوقف على إذن الوالدين هو فرض الكفاية والذى يصير غير واجب على من له أبوان إذا قام به غيره.

وبر الوالدين واجب عينى، فصح توقف هذا الجهاد على إذنهما. على أن هذا الجهاد يحرم الأبوين من البر زمنا قد يطول بخلاف عصيان أوامرهما لمصلحته فإنه لا يحرمهما من البر والإحسان ولا من طاعته فى تعليماتهما الأخرى [1].

ثمرة الإحسان إلى الوالدين

بر الوالدين له آثار دينية ودنيوية، تظهر عاجلاً فى الدنيا، كما تظهر آجلا فى الآخرة، منها:

(١) تشرف الإنسان بامتثال أمر الله فى بر الوالدين، وهذا يحق فيه وصف المطيع لله تشرفه باتصافه بما وصف به يحيى وعيسى وغيرهما من الأنبياء الذين بروا والديهم.

(٢) ارتياح ضميره بأداء الواجب، ورد الجميل إلى الوالدين. مع تمتعه بالانسجام مع الأسرة، وتبادل التقدير والعطف بينه وبين والديه.

(٣) سيرته العطرة على ألسُن الناس وتقديرهم له. وقد ورد فى الصحيح أن أويسا القرنى كانت الناس تسعى إليه، وتطلب منه الدعاء والاستغفار، تنفيذاً لوصية رسول الله ﷺ، وذلك لأنه كان يبر أمه.

(٤) البركة فى العمر، كما ورد فى الحديث «من سره أن يُمَدّ له فى عمره، ويزاد فى رزقه، فليبر والديه، وليصل رحمه [2]»

---

(١) فتح المنعم شرح صحيح مسلم د. موسى شاهين لاشين ١ / ٤٣٥-٤٣٦.

(٢) رواه أحمد فى مسنده.

وروى الحاكم بإسناد صحيح عن معاذ بن أنس أن النبى ﷺ قال : «من بر والديه طوبى له، زاد الله فى عمره» لكن الألبانى حكم بضعف هذا الحديث فى تخريجه أحاديث الجامع الصغير.

قال النووى فى شرح صحيح مسلم :ومعنى بسط الرزق توسيعه وكثرته، وقيل البركة فيه،.

وأما التأخير فى الأجل ففيه سؤال مشهور،وهو أن الآجال والأرزاق مقدرة، لا تزيد ولا تنقص ﴿ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ (٣٤) ﴾ [١] . فما رأى العلماء فى ذلك :

أجاب العلماء بأجوبة، منها، وهو أصحها، أن هذه الزيادة بالبركة فى عمره، والتوفيق للطاعات، وعمارة أوقاته بما ينفعه فى الآخرة، وصيانتها عن الضياع فى غير ذلك.

أو بالنسبة إلى ما يظهر للملائكة فى اللوح المحفوظ ونحوه. فيظهر لهم أن عمره ستون سنة مثلاً، إلا أن يصل رحمه، فإن وصلها يزاد له أربعون. وقد علم الله تبارك وتعالى ما سيقع من ذلك، وهو معنى ﴿ يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ (٣٩) ﴾ [٢] .

وأما بالنسبة إلى علم الله ما سبق به قدره فلا زيادة، بل هى مستحيلة.

وأما بالنسبة إلى ما ظهر للمخلوقين فتنعقد الزيادة، وهو مراد الحديث .

وقد يكون من ذلك ما روى فى البقرة التى أُمِرَ بنو إسرائيل بذبحها ليضرب ببعضها القتيل، فقد كانت عجلة لشيخ كبير أطلقها فى الغابة، مستودعا الله إياها لولده الصغير، وكان برا بوالديه، وبعد وفاته شبت وكبرت، وكانت على الصفة المطلوبة للذبح، فباعها بملء جلدها ذهباً.

---

(١) سورة الأعراف الآية ٣٤.

(٢) رواه الطبرانى بإسناد حسن عن ابن عمر، ورواه غيره عن عائشة أيضاً، والآية ٣٩ من سورة الرعد.

ورواية القصة يعرف من تفاصيلها أثر بر والدته في ارتفاع ثمنها. «ذكر هذه القصة الدميرى فى كتابه حياة الحيوان «عجل» بدون سند أو تخريج».

(٥) بر ولده به، جزاء بالمثل. ففى الحديث: «بروا آباءكم تبركم أبناؤكم، وعفوا تعف نساؤكم» [١].

(٦) كفارة الذنوب. ففى الحديث أن رجلاً قال للنبى ﷺ: إنى أذنبت ذنباً عظيماً، فهل لى من توبة؟

قال: «هل لك من أم؟» قال: لا

قال «فهل لك من خالة؟» قال: نعم، قال: «فبرها» [٢].

وروى عن الإمام أحمد بن حنبل أن بر الوالدين يكفر الذنوب الكبائر، وكذا ذكر ابن عبد البر عن مكحول، ويشهد لهما هذا الحديث، حيث جاء التعبير بلفظ «ذنباً عظيماً».

(٧) البر سبب رضوان الله، كما فى الحديث «رضا الله فى رضا الوالد، وسخط الله فى سخط الوالد» [٣].

(٨) مفتاح دخول الجنة، فقد ورد أن رجلاً قال: يارسول الله، ما حق الوالدين على ولدهما؟

قال: «هما جنتك ونارك» [٤].

وعن معاوية بن جاهمة، أن جاهمة جاء إلى النبى ﷺ فقال: يا رسول الله، أردت أن أغزو، وقد جئت استشيرك، فقال: «هل لك من أم». قال: نعم

قال: «فالزمها، فإن الجنة تحت رجلها» [٥].

ورواه الطبرانى بلفظ جاء فيه «ألك والدان؟» قال: «فالزمهما فإن الجنة تحت أرجلهما»

وورد عن أبى الدرداء عن النبى ﷺ قال: «الوالد أوسط أبواب الجنة، فإن شئت فأضع هذا الباب أواحفظه» [٦].

---

(١) رواه الترمذى عن ابن حبان فى صحيحه، والحاكم إلا إنهما قالا «هل لك والدان» بالتثنية.

(٢) رواه الترمذى عن عبد الله بن عمرو بن العاص ورجح وقفه، ورفعه غيره.

(٣) رواه ابن ماجة عن أبى أمامة.

(٤) رواه ابن ماجة والنسائى والحاكم وصححه.

(٥) رواه ابن ماجة والترمذى.

(٦) رواه البغوى فى مصابيح السنة فى باب البر.

(٩) رفع الدرجات عند الله فقد ورد فى الحديث «دخلت الجنة، فسمعت فيها قراءة. فقلت : من هذا ؟ فقالوا : حارثة بن النعمان.

قال النبى ﷺ : «كذلكم البر، كذلكم البر» وكان أبر الناس بأمه [١].

(١٠) من آثار البر النجاة من خطر دعاء الوالدين عليه، فإن دعاءهما لا يرد.

جاء فى الحديث «ثلاث دعوات لا شك فى إجابتهن، دعوة المظلوم، ودعوة المسافر، ودعوة الوالد على الولد» [٢].

ورواية عن عقبة بن عامر الجهنى «الوالد والمسافر والمظلوم» [٣].

ويستشهد لهذا ما حدث لجريج حين دعت عليه أمه بقولها «اللهم لا تمته حتى تريه وجوه المومسات» يقول النبى ﷺ «ولو دعت عليه أن يفتن لفتن» وقد أجيبت دعوتها، فاتهم بالزنى، ثم ظهرت براءته.

• من ثمرات بر الوالدين والإحسان إليهما استجابة الدعاء

أ - من أمثلة ذلك قصة أحد الثلاثة الذين أووا إلى غار فى ليلة ممطرة، فانحطت على فم الغار صخرة من الجبل فانطبقت عليهم، فدعا كل منهم ربه متوسلاً بصالح عمله، وكان عمل أحدهم بر والديه والإحسان إليهما، فاستجاب الله دعاء كل منهم، ففرج لهم فخرجوا من الغار.

عن عبد الله بن عمر عن النبى ﷺ قال : «بينما ثلاثة نفر يتماشون أخذهم المطر، فمالوا إلى غار فى الجبل، فانحطت على فم الغار صخرة من الجبل، فانطبقت عليهم، فقال بعضهم لبعض : انظروا أعمالا عملتموها لله صالحة، فادعوا الله بها لعله يفرجها.

فقال أحدهم : اللهم إنه كان لى والدان شيخان كبيران، ولى صبية صغار

---

(١) رواه الترمذى وحسنه عن أبى هريرة.

(٢) رواه مسلم فى صحيحه.

(٣) رواه الطبرانى بإسناد صحيح.

كنت أرعى عليهم، فإذا رحت [١] عليهم فحلبت بدأت بوالدى أسقيهما قبل ولدى، وإنه نأى بى الشجر [٢] ، فما أتيت حتى أمسيت ، فوجدتهما قد ناما، فحلبت كما كنت أحلب، فجئت بالحلاب، فقمت عند رؤوسهما أكره أن أوقظهما، وأكره أن أبدأ بالصبية قبلهما، والصبية يتضاغون [٣] عند قدمى، فلم يزل ذلك دأبى ودأبهم حتى طلع الفجر، فإن كنت تعلم أنى فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج لنا فرجة نرى منها السماء، ففرج الله لهم حتى يرون السماء » [٤].

ثانيًا : قصة أويس القرنى

أويس تابعى لم ير رسول الله ﷺ، ولكن الرسول ﷺ قد أخبر عنه وعن صفته قبل أن يأتى، ثم جاء مع أمداد أهل اليمن كما أخبر الرسول فهى إحدى معجزاته صلوات الله وسلامه عليه.

ولما كان أويس هذا عظيم الإيمان عظيم الإخلاص لله كثير التقوى والبر والإحسان كان خير التابعين، وقد شهد له الرسول ﷺ، كما جاء فى رواية عن مسلم أن رسول الله ﷺ قال : «إن خير التابعين رجل يقال له أويس، وله والدة، وكان به بياض، فمروه فليستغفر لكم».

عن أسير بن عمرو أو هو أسير بن جابرقال : كان عمر بن الخطاب إذا أتى عليه أمداد أهل اليمن سألهم : أفيكم أويس بن عامر ؟

حتى أتى على أويس فقال : أنت أويس بن عامر ؟ قال : نعم

قال : من مراد ثم من قرن ؟ قال : نعم.

قال : فكان بك برص فبرأت منه إلا موضع درهم ؟ قال : نعم

قال عمر : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «يأتى عليكم أويس بن عامر مع

---

(١) رحت : رجعت عشية.
(٢) نأى بى الشجر : أى بعد بى طلب المرعى.
(٣) يتضاغون : يتصايحون من الجوع.
(٤) رواه البخارى ومسلم.

أمـداد أهل اليـمن [1]، من مراد ثم من قرن، كان به برص فبرأ منه إلا موضع درهم، له والدة هو بهـا بـر، لو أقـسم على الله لأبره [2]، فـإن اسـتطعت أن يستغفر لك فافعل» فاستغفر لي، فاستغفر له.

قال له عمر : أين تريد ؟ قال : الكوفة.

قال : ألا أكتب لك إلى عاملها؟

قال : أكون في غبراء الناس أحب إلي.

فلمـا كان من العام المقبل حج رجل من أشـرافهم، فوافق عمـر، فسأله عن أويس، فقال : تركته رث البيت [3]، قليل المتاع.

قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «يأتي عليكم أويس بن عامر مع أمداد أهل اليـمـن، من مراد ثم من قـرن، كـان به برص فبـرأ منه إلا مـوضـع درهم، له والدة هو بها بر لو أقسم على الله لأبره، فإن استطعت أن يستغفر لك فافعل».

فأتى الرجل أويس، فقال : استغفر لي.

قال : أنت أحدث عهد بسفر صالح، فاستغفر لي.

لقيتَ عمر ؟ قال : نعم.

فاستغفر له ففطن له الناس، فانطلق على وجهه [4].

و المتأمل لقصة أويس القرني يجد أنه كان يتمتع بميزتين عظيمتين [5] :

الأولى : أنه كان باراً بأمه، فكان من ثمرة بره بها أن منحه الله تبارك وتعالى

---

(١) أمداد أهل اليمن : هم متطوعة الجهاد الذين كانوا يأتون مدداً لجيوش الفتح الإسلامي من مختلف الجهات، وكان اليمانيون عنصراً مهماً يمد الجيش بالأعداد الكثيرة من المقاتلين.

(٢) أي لوحلف يميناً قال فيه : والله ليفعلن الله هذا الأمر لأبر الله قسمه ففعل الله ما حلف عليه.

(٣) الرث : هو الخلق البالي المهترئ الخسيس من كل شيء، تقول : ثوب رث، ورجل رث الهيئة، ومتاع رث، والجمع رثاث.

(٤) فانطلق على وجهه : أي ذهب ثم لم يعرف مكانه، إخفاء لنفسه وبعداً عن التظاهر مخافة أن يدخل إلى قلبه الرياء.

(٥) انظر الأخلاق الإسلامية وأسسها عبد الرحمن الميداني ٢ / ٣٤- ٣٦.

الدعوة المستجابة، فهو امرؤ كما أخبر الرسول ﷺ عنه : لو أقسم على الله لأبر الله قسمه.

الثانية : تواضعه وإخلاصه لله تعالى، وزهده فى الدنيا، وقد ظهر ذلك بإيثاره البعد عن كل ما فيه ظهور وشهرة، حرصًا على مرتبة الصدق والإخلاص لله عز وجل، ظهر ذلك جلياً برفضه أن يكتب أمير المؤمنين عمر إلى عامله فى الكوفة يوصيه به، وفضل أن يكون فى غبراء الناس فذلك أحب إلى نفسه.

جـ - تكفر الذنوب حتى الكبائر فقد خرج الإمام أحمد والترمذى من حديث ابن عمر : «أن رجلاً أتى النبى ﷺ فقال : يا رسول الله إنى أصبت ذنبًا عظيمًا فهل لى من توبة ؟

قال : «فهل لك من أم ؟» قال : لا

قال : «فهل لك من خالة ؟» قال : نعم قال : «فبرها ؟»[1].

وروى عن عمر أن رجلاً قال له : قتلت نفسًا، قال : أمك حية؟ قال : لا.

قال : فأبوك ؟ قال : نعم، قال : فبره وأحسن إليه،

ثم قال عمر : لو كانت أمه حية فبرها وأحسن إليها رجوت أن لاتطعمه النار أبدًا، وعن ابن عباس معناه أيضًا.

وكذلك المرأة التى عملت بالسحر بدومة الجندل وقدمت المدينة تسأل عن توبتها، فوجدت النبى ﷺ قد توفى،

فقال لها أصحابه : لو كان أبواك حيين أو أحدهما يكفيانك،[2]

- **عقوق الوالدين**

العقوق مشتق من العق، والمراد به : صدور ما يتأذى به الوالد من ولده من قول أو فعل إلا فى شرك أو معصية مالم يتعنت الوالد.

(١) خرجه ابن حبان فى صحيحه والحاكم وقال على شرط الشيخين، لكن خرجه الترمذى من وجه آخر مرسلاً وذكر أن المرسل أصح من الموصول، وكذا قال على بن المدينى والدارقطنى.

(٢) خرجه الحاكم وقال فيه اجتماع الصحابة حدثان وفاة الرسول ﷺ ، على أن بر الأبوين الوالدين يكفيانها. وقال مكحول والإمام أحمد: بر الوالدين كفارة الكبائر.

وضبطه ابن عطية بوجوب طاعتهما في المباحات فعلاً وتركا، واستجابتهما في المندوبات وفروض الكفاية كذلك.

وقال بعضهم ضابط العقوق: هو أن يحصل للوالدين أو لأحدهما إيذاء ليس بالهيِّن عرفا، فسبهما وعصيانها والتلكؤ في قضاء شؤونهما، ومد اليد بالسوء إليهما، ولعنهما وعيبتهما والكذب عليهما، كل ذلك عقوق ونكران للجميل، كذلك نهرهما وقهرهما وتوبيخهما والتأفف منهما والدعاء عليهما، والتكبر عليهما. فعن ابن عباس رضى الله عنهما قال، قال رسول الله ﷺ: «شر الناس ثلاثة: متكبر على والديه يحقرهما.

رجل سعى بين الناس بالكذب حتى يتباغضوا ويتباعدوا.

رجل سعى بين رجل وامرأته بالكذب حتى يغيره بغيرحق حتى فرق بينهما ثم يخلفه عليها من بعد»[1].

ومما جاء في العقوق وإثمه وجرمه ما رواه البخارى عن المغيرة بن شعبة رضى الله عنه عن النبى ﷺ أنه قال: «إن الله حرم عليكم عقوق الأمهات، ومنعاوهات، ووأد البنات، وكره لكم قيل وقال، وكثرة السؤال، وإضاعة المال»[2].

وروى البخارى ومسلم في صحيحيهما عن أبى بكرة رضى الله عنه قال، قال النبى ﷺ: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟ (ثلاثاً)»

قالوا بلى يا رسول الله

قال: «الإشراك بالله، وعقوق الوالدين وكان متكئًا فجلس فقال:

«ألا وقول الزور» فمازال يكررها حتى قلنا ليته سكت»[3].

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما عن النبى ﷺ قال: «الكبائر، الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، وقتل النفس، واليمين الغموس»[4].

---

(١) رواه أبو نعيم. (٢) البخارى: أدب، باب عقوق الوالدين من الكبائر.

(٣) رواه البخارى، أدب، باب عقوق الوالدين، مسلم كتاب: الإيمان، باب بيان الكبائر وأكبرها.

(٤) رواه البخارى.

وعن أنس رضى الله عنه قال : ذكر رسول الله ﷺ الكبائر فقال : «الشرك بالله وعقوق الوالدين»[١].

وعن ابن عمر رضى الله عنهما عن رسول الله ﷺ قال : «ثلاثة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة، العاق لوالديه، والديوث، والرجلة من النساء»[٢].

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص - رضى الله عنهما - أن رسول الله ﷺ قال : «ثلاثة حرم الله تبارك وتعالى عليهم الجنة، مدمن الخمر، والعاق، والديوث الذى يقر الخبث فى أهله»[٣].

وعن أبى أمامة - رضى الله عنه قال ، قال رسول الله ﷺ : «ثلاثة لا يقبل الله عز وجل منهم صرفا ولا عدلاً، عاق ومنان ومكذب بقدر»[٤].

وعن ثوبان - رضى الله عنه- قال : قال رسول الله ﷺ : «ثلاثة لا ينفع معهن عمل : الشرك بالله ، وعقوق الوالدين، والفرار يوم الزحف»[٥].

وعن عمر بن مرة الجهنى قال : جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله أرأيت إذا صليت الصلوات الخمس، وصمت رمضان، وأديت الزكاة، وحججت البيت. فماذا لى؟

قال رسول الله ﷺ : «من فعل ذلك كان مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين إلا أن يعق والديه»[٦].

وعن ابن عباس رضى الله عنهما ، عن النبى ﷺ قال :

لعن الله من ذبح لغير الله.

لعن الله من غير تخوم الأرض.

---

(١) متفق عليه.

(٢) النسائى والبزار واللفظ له بإسنادين جيدين والحاكم وقال صحيح الإسنادوالرجلة : هى المتشبه بالرجال.

(٣) رواه أحمد واللفظ له والنسائى والبزار والحاكم وقال صحيح الإسناد.

(٤) رواه ابن أبى عاصم فى كتاب السنة بإسناد حسن .

(٥) رواه الطبرانى فى الكبير.

(٦) رواه أحمد والطبرانى بإسنادين أحدهما صحيح ورواه ابن خزيمة وابن حبان فى صحيحيهما.

لعن الله من كمه الأعمى عن السبيل.

لعن الله من سب والديه.

ولعن الله من تولى غير مواليه.

ولعن الله من عمل عمل قوم لوط »[1].

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تقبل صلاة الساخط عليه أبواه غير ظالمين له»[2].

وعن أبى بكر رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «كل الذنوب يؤخر الله منها ماشاء إلى يوم القيامة إلا عقوق الوالدين، فإن الله يعجل لصاحبه فى الحياة قبل الممات»[3].

وعن معاذ بن جبل رضى الله عنه قال: أوصانى رسول الله ﷺ بعشر كلمات قال: «لا تشرك بالله شيئًا وإن قُتِلْتَ وحُرِّقْتَ.

ولاتعق والديك وإن أمراك أن تخرج من أهلك ومالك.

ولا تتركن صلاة مكتوبة متعمداً فإن من ترك صلاة مكتوبة متعمداً فقد برئت منه ذمة الله.

ولاتشربن الخمر فإنه رأس كل فاحشة، وإياك والمعصية فإن بالمعصية يحل سخط الله.

وإياك والفرار من الزحف وإن هلك الناس، وإذا أصاب الناس موت وأنت فيهم فاثبت.

وأنفق على عيالك من طولك، ولا ترفع عنهم عصاك أدبًا، وأخفهم فى الله»[4].

---

(١) رواه الحاكم فى المستدرك ٤ / ٣٦ وابن حبان فى الصحيح ٦٠ / ٣٩٧ - ٢٩٩.

(٢) رواه أبو الحسن بن معروف فى كتاب فضائل بنى هاشم.

(٣) رواه البخارى فى الأدب المفرد والطبرانى فى الكبير والحاكم فى المستدرك والأصبهانى فى الترغيب.

(٤) رواه أحمد والطبرانى فى الكبير وإسناد أحمد صحيح إلا أن فيه انقطاعاً لأنه من رواية عبد الرحمن ابن جبيرعن معاذ وهو من لم يسمع به.

وعن عمرو بن ميمون قال : رأى عليه السلام رجلاً عند العرش فغبطه بمكانه، فسأل عنه، فقالوا : نخبرك بعمله، لا يحسد الناس على ما آتاهم الله من فضله، ولا يمشي بالنميمة، ولا يعق والديه.

قال : أى رب ومن يعق والديه؟ قال : يتسبب لهما حتى يسبا» [١].

وفيما ذكرنا من الأدلة على تحريم العقوق كفاية ولو لم يكن للعاق من العقوبة إلا ما يُرى من سوء حاله لكفى فإنك تراه غالبًا فى أشد الحالات بؤسًا، تراه بعيدًا عن عطف القلوب عند من علموا حاله، لا يحنو عليه صديق ولا قريب ولا شفيق، ولا يأخذ بيده كريم فى كربة ولا يرغب أحد فى مصاهرته خشية أن يكون أولاده عاقين مثله [٢].

وكان يقال : كدر العيش فى ثلاث : الولد العاق، والجار السوء، والمرأة السيئة الخلق، لأنك لا تنفك فى عناء وشغب وتعب، فإن سكن العاق برهة من الزمن، ما سكن الجار السوء وأهله وأولاده، وإن سكنا لم تسكن العلة الداخلية - المرأة السوء - سيئة الخلق فأنت فى هذه الحال غرض لثلاثة سهام موجهة إليك فى كل وقت من ساعات الليل والنهار نسأل الله العافية من كل ذلك [٣].

وعن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : «رغم أنف ثم رغم أنف ثم رغم أنف من أدرك أبويه عند الكبر أحدهما أو كلاهما فلم يدخل الجنة» [٤].

وأخرج ابن ماجة عن أبى أمامة رضى الله عنه أن رجلاً قال : يا رسول الله ما حق الوالدين على ولدهما؟ قال : «هما جنتك ونارك».

وعن أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «ومن سره أن يمد فى عمره ويزاد فى رزقه فليبر والديه وليصل رحمه» [٥].

وعن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما قال : جاء رجل إلى رسول الله ﷺ

---

(١) رواه أحمد فى الزهد.
(٢) موارد الظمآن ٢ / ٤٣٧ بتصرف.
(٣) المرجع السابق ٢ / ٤٣٦ بتصرف.
(٤) رواه مسلم.
(٥) رواه أحمد والبيهقى بسند رجاله الصحيح، وأصله فى الصحيحين باختصار.

فقال : جئت أبايعك على الهجرة وتركت أبواى يبكيان .

فقال : «ارجع إليهما فأضحكهما كما أبكيتهما»[1] .

وعن وهب بن منبه قال : إن الله تعالى أوحى إلى موسى صلوات الله وسلامه عليه ، يا موسى وقر والديك ، فإن من وقر والديه مددت فى عمره ووهبت له ولداً يوقره ، ومن عق والديه قصرت فى عمره ووهبت له ولداً يعقه .

وقد أهمل أكثر الناس هذه الحقوق ، فعق الأولاد والديهم ، وجفا الأبناء أمهاتهم ، وأساؤوا عشرتهم من أجل زوجاتهم ، وتناسوا سهر الليالى وشقاء أيام العمر التى قضتها الأمهات فى تربية الأبناء بعد مهالك الحمل والوضع ، والله تعالى لم يقبل فى تعظيم حق الوالدين استثناء .

روى الترمذى عن عبد الله بن عمر بن الخطاب رضى الله عنهما قال : كان تحتى امرأة أحبها ، وكان أبى يكرهها ، فأمرنى أن أطلقها فأبيت ، فذكرت ذلك للنبى ﷺ

فقال : يا عبد الله بن عمر طلق امرأتك .

وفى حديث ابن عباس رضى الله عنهما أن النبى ﷺ قال : «من أمسى وأصبح مرضياً لوالديه أمسى وأصبح وله بابان مفتوحان فى الجنة ، وإن واحدا فواحدا ،ومن أمسى وأصبح مسخطا لوالديه أمسى وأصبح وله بابان مفتوحان إلى النار ، وإن واحداً فواحدا» .

فقال رجل : يا رسول الله وإن ظلماه؟

قال النبى ﷺ : «وإن ظلماه ، وإن ظلماه ، وإن ظلماه» .

- **آثار عقوق الوالدين**

لعقوق الوالدين آثار سيئة كثيرة منها :

١ - عدم راحة العاق في عيشه مع والديه ، وفساد جو الأسرة من أجله .

---

(٦) رواه أبو داود .

٢ - احتقار الناس له، وعدم رجاء الخير منه، لأنه لم يكن فيه رجاء لأخص الناس، وهم الوالدان اللذان هما أولى بخيره،

قال عمر بن عبد العزيز لابن مهران : لا تأتين أبواب السلاطين وإن أمرتهم بمعروف أونهيتهم عن منكر، ولا تخلون بامرأة وإن علمتها سورة من القرآن، ولا تصحبن عاقًا، فإنه لن يقبلك وقد عق والديه [١].

٣ - القصاص منه في الدنيا، وذلك بمجازاته بالمثل عن طريق عقوق ولده له، والجزاء من جنس العمل، وهذا أمر واقع مشاهد، ويفهم من قوله ﷺ «بروا آباءكم تبركم أبناؤكم».

٤ - عدم توفيقه فى نشاطه، وبخاصة الاجتماعى منه،وذلك لقسوة قلبه، ونكرانه الجميل ، وعدم اهتامه بمصالح الغير، والناس فى معاملاتهم ينظرون إلى تبادل الخدمات والمنافع، ويكرهون الأنانية والأثرة، ومن كانت فيه تلك القسوة وتجاهل خدمات الغير لا يهنأ له عيش فى المجتمع.

٥ - تعجيل عقوبته فى الدنيا قبل الآخرة، وذلك بغير عقوق ولده له، الذى تقدم ذكره، ولله عقوبات كثيرة لا يفطن لها الكثيرون، فقد تكون أمراضاً أو فقرا أو إخفاقا فى تعليم أو نحو ذلك، ويدل عليه قول النبى ﷺ :«كل الذنوب يؤخر الله منها ما يشاء إلى يوم القيامة، إلا عقوق الوالدين، فإن الله يعجله لصاحبه فى الحياة قبل الممات» [٢]

٦ - التعرض لخطر دعاء الوالدين عليه، ودعاؤهما مستجاب، كما مر فى حديث جريج، الذى جاء فيه «لَوْ دَعَتْ عليه أن يفتن لفتن» [٣]

وفى تاريخ ابن خلكان وغيره أن الزمخشرى كان مقطوع الرجل، ولما سئل عن سبب ذلك قال : دعاء الوالدة. وذلك أنى كنت فى صباى قد أمسكت عصفوراً، وربطته بخيط فى رجله، فانقطعت رجله بالخيط، فتألمت والدتى

(١) المستظرف ٢/٢٦٦ .

(٢) رواه الحاكم وصححه عن أبى بكرة.

(٣) رواه مسلم.

لذلك، وقالت : قطع الله رجلك كما قطعت رجله ! ! فلما وصلت إلى سن الطلب، أى طلب العلم، رحلت إلى بخارى لطلب العلم، فسقطت عن الدابة، فكسرت رجلى.

٧ - شؤمه على من حوله من أصدقائه ومعاشريه والمتصلين به، ففى مصابيح السنة للبغوى حديث «لاتنزل الرحمة على قوم فيهم قاطع رحم»

وفى رواية «لا تنزل الملائكة على قوم فيهم قاطع رحم» [(١)]

وروى عن عبد الله بن أبى أوفى أنه قال : كنا عند النبى ﷺ فأتاه آت، فقال : شاب يجود بنفسه، فقيل له : قل لا إله إلا الله ، فلم يستطع.

فقال النبى ﷺ : «كان يصلى ؟». فقال : نعم.

فنهض رسول الله ﷺ ونهضنا معه. فدخل على الشاب،

فقال له : «قل لا إله إلا الله» فقال : لا أستطيع.

قال : «ولِمَ؟» . قال : كان يعق والدته.

فقال النبى ﷺ : «أحية والدته؟» . قالوا : نعم

قال : «ادعوها». فدعاها ، فجاءت .

فقال : «هذا ابنك؟ » . فقالت : نعم

فقال لها : «أرأيت لو أججت ناراً ضخمة فقيل لك : إن شفعت له خلينا عنه، وإلا أحرقناه بهذه النار، أكنت تشفعين له ؟»

قالت : يا رسول الله إذاً أشفع .

قال : «فأشهدى الله وأشهدينى قد رضيت عنه» .

قالت : اللهم إنى أشهدك ، وأشهد رسولك أنى قد رضيت عن ابنى .

فقال له رسول الله ﷺ : «يا غلام ، قل : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله» فقالها.

فقال رسول الله ﷺ : «الحمد لله الذى أنقذه بى من النار» .

---

(١) رواه الأصبهانى والطبرانى عن عبد الله بن أبى أوفى.

٩ - حرمانه من فضل الله ومنته على العباد فى المواسم المفضلة، كليلة القدر، فقد روى عن ابن عباس عن النبى ﷺ أنه تحدث عن ليلة القدر، ونزول جبريل والملائكة، وتسليمهم على الذين يحيون ليلة القدر، وقولهم عند رحيلهم : ما صنع الله فى حوائج المؤمنين من أمة محمد ؟

فيقول : نظر الله إليهم فى هذه الليلة، فعفا عنهم إلا أربعة.

فقلنا - الصحابة - : يا رسول الله من هم ؟

فقال : «رجل مدمن خمر، وعاق لوالديه، وقاطع رحم،ومشاحن»

وكذلك حرمانه من فضل الله فى ليلة النصف من شعبان، روى البيهقى عن عائشة أن رسول الله ﷺ قال : «أتانى جبريل عليه السلام، فقال : هذه ليلة النصف من شعبان، ولله فيها عتقاء من النار بعدد شعورغنم بنى كلب، لاينظر الله فيها إلى مشرك، ولا إلى مشاحن، ولا إلى قاطع رحم، ولا إلى مسبل، ولا إلى عاق لوالديه، ولا إلى مدمن خمر».

١٠ - حرمانه من رحمة الله ومن دخول الجنة، وقد وردت فى هذا عدة أحاديث منها :

أ - «ثلاثة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة، العاق لوالديه، ومدمن الخمر، والمنان عطاءه. وثلاثة لا يدخلون الجنة ، العاق لوالديه، والديوث، والرجلة»[١].

ب - «يراح ريح الجنة من مسيرة خمسمائة عام، ولا يجد ريحها منان بعمله، ولاعاق ، ولا مدمن الخمر» .

جـ - «ثلاثة لا ينفع معهن عمل، الشرك بالله وعقوق الوالدين ، والفرار من الزحف».

د - «أربع حق على الله ألا يدخلهم الجنة، ولا يذيقهم نعيمها، مدمن الخمر، وآكل الربا، وآكل مال اليتم بغيرحق، والعاق لوالديه»[٢].

---

(١) رواه النسائى والبزار عن ابن عمر بإسنادين جيدين.ورواه الحاكم وقال : صحيح الإسناد . وروى ابن حبان فى صحيحه شطره الأول.وروى أحمد والنسائى والبزار والحاكم نحوه أو قريبًا منه عن عبد الله ابن عمرو بن العاص. قال المنذرى : الديوث هو الذى يقرأهله على الزنى مع علمه بهم.والرجلة بكسر الجيم مع فتح الراء هى المترجلة المتشبهة بالرجال.

(٢) موسوعة الأسرة تحت رعاية الإسلام للشيخ عطية صقر (الوالدان والأقربون) ص ٨٧- ٩٠.

• وفى النهاية نقول

دلت النصوص على أن حق الوالدين قائم ولو كانا كافرين، فعلى الولد أن يحسن صحبتهما، دون أن يطيعهما فى معصية الله عز وجل، فطاعة الله لا تقدم عليها طاعة لأحد مهما كان ذا حق.

وحينما يكون الوالدان بحاجة إلى مساعدة وإحسان، ومعونة وخدمة، لا سيما فى كبرهما وعجزهما، فإن خلق الرحمة يفرض الإحسان إليهما، فكيف وهما أقرب الناس إليه، ولهما عليه حق التربية والخدمة والعطاء، وسوابق الفضل الجسيم.

والوالدان حينما يكبران ويصيبهما ما يصيب الإنسان فى شيخوخته من عجز وضيق صدر وتدخل فى الصغائر من الأمور، حتى يردان إلى أرذل العمر، فإنهما يحتاجان إلى من يصبر عليهما، ومن أولى بالصبر عليهما من ولدهما؟!!

وبر الوالدين والإحسان إليهما ومصاحبتهما بالمعروف تتطلب بذلاً، ورحمة وحناناً، وخدمة، ومخالفة لأهواء النفس، وصبرا وتسامحًا، وتغاضيًا، وطاعة فى المعروف، وكل ذلك يحتاج إلى مخزون جم من جملة فضائل الأخلاق.

ومن عظيم فضل الله أنه تعالى جعل لمن يقوم بواجب الشكر لوالديه أن يدخله الجنة ويكفر عنه من سيئاته إذا كان من أهل الإيمان، فمن تهيأت له فرصة خدمة والديه أو أحدهما والإحسان إليهما، وبرهما وهما كبيران عاجزان عن القيام بخدمة أنفسهما، ففوت على نفسه هذه الفرصة الذهبية العظيمة، فلم يبرهما، فهو لا شك خائب خاسر. لقد أتته سوق التجارة الرابحة فلم يظفر بها، وهبت عليه رياح المغانم العظيمة فلم يغتنمها.

ولقد أبان الرسول الكريم محمد ﷺ أن من الكبائر أن يتسبب الإنسان فى شتم والديه أو أحدهما، وأن من أبر البر أن يصل الإنسان أهل ود أبيه بعد موته، وكذلك أهل ود أمه قياساً، وأن من البر بالوالدين أن يصل الولد الرحم التى لاتوصل إلا بهما، وأن من البر إكرام صديقهما [1].

(١) الأخلاق الإسلامية وأسسها للشيخ عبد الرحمن الميدانى ٢ / ٣٢ .

الإحسان إلى النفس
بصلة الأرحام

إن القرابة من عوامل القوة للإنسان في حياته، يُعرف أثرها واضحًا في المواقف الحرجة والأزمات الشديدة.

وإذا كانت الصداقة والمعرفة تنفع في مثل هذه الأحوال، فكيف بصلة الدم، ورابطة الأسرة؟

وإذاكانت المعرفة بين الناس بعضهم مع بعض بصداقة أو مودة لا تصل إلى درجة القرابة تفيد، فكيف بالقرابة التي تدعو غالبًا، أو ينبغي أن تدعو إلى العطف والحنو، رعاية لصلة الدم وحرمة الأسرة؟

يقول الإمام علي كرم الله وجهه : عشيرة للرجل خير للرجل من غير العشيرة، إن كف عنهم يداً واحدة كفوا عنه أيديًا كثيرة، مع مودتهم وحفاظهم ونصرتهم.

إن الرجل ليغضب للرجل لا يعرفه إلا بنسبه، وفي القرآن الكريم آيات تتحدث عن دعم القرابة لصاحبها، قال الله تعالى حكاية عن لوط : ﴿ قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾ ﴾ [1] يعني العشيرة، ولم يكن للوط عشيرة، فوالذي نفسي بيده ما بعث الله نبيًا بعده إلا في ثروة من قومه ومنعة من عشيرته.

ثم ذكر شعيبًا إذ قال له قومه : ﴿ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ ﴾ [2] والله ما هابوا إلا عشيرته.

وقيل لبُزُرْجَمِهْر : ماقولك في ابن العم ؟

قال : هو عدوك، وعدو عدوك» [3].

وأثر القرابة مقرر في جميع الشرائع ولا ينكره أي إنسان عاقل، والعرب في جاهليتهم كانوا يقدسون هذه الرابطة تقديسًا قَلَّ أن يكون له نظير في المجتمعات الأخرى. فعندهم نظام العاقلة وتحمل الدية واشتراك القرابة فيها.

---

(١) سورة هود الآية ٨٠. (٢) سورة هود الآية ٩١.

(٣) العقد الفريد لابن عبد ربه ١ / ١٧٥.

وكانت الحاجة عندهم تشتد إلى الأقارب إذا عدم الولد أوالوالد، فهم يحلون محلهما في العطف والرعاية والنصرة، فينزل العم منزلة الوالد، وينزل الأخ أيضًا على أخيه وأخته فهو الرافد بعد الوالد، كما قالت سفَانة للنبي ﷺ عن أخيها عدي بن حاتم.

ولأهمية صلة الرحم أُمِرْنا بتعلم الأنساب، فعن ابن عباس قال: احفظوا أنسابكم تصلوا أرحامكم، فإنه لابُعْد بالرحم إذا قربت وإن كانت بعيدة، ولاقرب بها إذا بعدت وإن كانت قريبة، وكل رحم آتية يوم القيامة أمام صاحبها تشهد له بصلة إن كان وصلها، وعليه بقطيعة إن كان قطعها.

وإذا كانت القرابة بهذه الأهمية فلا عجب إذا أوصى الإسلام بصلتها، وشدد في النكير على قاطعها، والنصوص في ذلك كثيرة [1].

ومن المحسنين الذين يحبهم الله تبارك وتعالى في دائرة قوله تعالى: ﴿إن الله يحب المحسنين﴾ هؤلاء الذين يحسنون إلى الرحم بصلتها.

ومعنى صلة الرحم: وصلها، والوصل ضد القطع والهجران، والإحسان إلى الأقارب: هو وصل للإنسان بهم.

يقول ابن الأثير: صلة الرحم كناية عن الإحسان إلى الأقربين من ذوي النسب والأصهار، والتعطف عليهم والرفق بهم والرعاية لأحوالهم.

لذا فمن الإحسان إلى النفس الإحسان إلى ذوي الأرحام بالصلة، قال تعالى: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا (٣٦)﴾ [2].

والمتأمل لهذه الآية من القرآن الكريم يدرك أن الحق تبارك وتعالى قد عظم شأن هذه الرابطة الروحية التي تربط الناس جميعًا أفرادًا وجماعات برباط الإخاء والمحبة حتى جعل اتقاءها والتحذير من قطيعتها رديفًا لاتقائه تعالى وداخلاً معه في مآله وعاقبته فقال: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ﴾ [3].

---

(١) انظر موسوعة الأسرة تحت رعاية الإسلام للشيخ عطية صقر ٥ / ١١٧ وما بعدها بتصرف.

(٢) سورة النساء الآية ٣٦.

(٣) سورة النساء الآية ١.

هكذا بالعطف والإفراد دون إعادة الفعل فى جانب الأرحام ليكون اتقاء قطيعة الأرحام مستمداً من اتقاء الله بالتزام طاعته وتجنب معاصيه، وهذا يدل على أن صلة الرحم العامة بين أبناء الإنسانية من أَجَلِّ طاعات الله تعالى، وأن قطيعة هذه الرحم العامة من أكبر معاصى الله ومساخطه.

بل جعل سبحانه قطيعة الرحم الإنسانية قريناً للإعراض عن قبول الهداية والسعى فى الأرض بالفساد، فقال تعالى فى سورة محمد توبيخاً للطغاة المستبدين من أهل النفاق وعتاة المشركين : ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ (٢٢) ﴾ [(١)].

فهذا خطاب عام لجميع المفسدين فى الأرض وتحذير من قطيعة الرحم العامة وهو الأنسب بعموم دعوة الإسلام وإنسانيته الخالدة.

ومن هنا كانت رابطة الإخاء الإنسانى هى الأساس الذى بنيت عليه سائر أحكام سورة النساء الكريمة من القرآن الحكيم، وهى أحكام تكاد تجمع شرائع الإسلام كلها.

ولذلك جاءت الآية الكريمة مبينة لعناصر الترابط بين أصول الإنسانية التى تتجمع فيها دوافع الإخاء والمودة وتتشابك فيها وشائج التعاطف والمحبة بأوصافها الباعثة على الوفاء بحق هذا الترابط الودود [(٢)].

كذلك فى الآية الكريمة من عناصر الترابط الإنسانى الإحسان إلى ذوى القربى، والمراد بهم من تربطهم بك قرابة رحم من جهتى الأب والأم، فيشمل الإخوة والأخوات والأعمام والعمات، والأخوال والخالات، وفروع كل منهم، فهى عامة شاملة ، لم تترك قريباً ذا رحم إلا وجعلت له فى البر والإحسان حقاً واجباً أو مندوباً إليه [(٣)].

والرحم : بفتح الراء وكسر الحاء فى اللغة هو منبت الولد ووعاؤه فى البطن،

---

(١) سورة محمد الآية ٢٢.

(٢) الموسوعة فى سماحة الإسلام للشيخ محمد الصادق عرجون ٢ / ٧٠١- ٧٠٢ بتصرف.

(٣) المرجع السابق ٢ / ٧٠٨ .

وهو يطلق على الأقارب، وهم مَنْ بينهم وبين الشخص نسب، كأنهم جميعًا من رحم واحدة، قال ابن الأثير : ذوو الرحم هم الأقارب، ويقع على كل من يجمع بينك وبينه نسب،

ويطلق في الفرائض على الأقارب من جهة النساء، ويقال : ذو رحم مَحْرَم وَ مُحَرَّم ، وهو من لا يحق نكاحه، كالأم والبنت والأخت والعمة والخالة .

وتطلق الرحم في باب النفقة والصلة على كل الأقارب،وهم كل من بينه وبين الآخر نسب، سواء كان يرثه أم لا، وسواء كان ذا محرم «يعني لا يجوز التزاوج بينهم» أم لا.

وقيل : هم المحارم فقط، والأول هو المرجح؛ لأن الثاني يستلزم خروج أولاد الأعمام وأولاد الأخوال من ذوي الأرحام، وليس كذلك [1] .

وقال القاضي عياض : الرحم التي تقطع وتوصل وتبر إنما هي معنى من المعاني ليست بجسم إنما هي قرابة ونسب تجمعه رحم امرأة والدة، ويتصل بعضه ببعض، فسمي ذلك الاتصال رحمًا»

وهكذا نرى اختلاف العلماء في تحديد الرحم التي تجب صلتها :

فقيل : هي الرحم التي يحرم النكاح بينها، بحيث لو كان أحدهما ذكرًا، حرم على الآخر، فعلى هذا لا يدخل أولاد الأعمام، ولا أولاد الأخوال، لجواز النكاح بابنة العم وابنة الخال، واحتج صاحب هذا القول بتحريم الجمع بين المرأة وعمتها، وبين المرأة وخالتها في النكاح، لما يؤدي إيه من التقاطع.

وقيل : هو من كان مرتبطًا بميراث، ويدل عليه قول النبي ﷺ : «بر أمك ثم أباك، وأختك ثم أخاك، ثم أدناك فأدناك».

وقيل : هو من كان بينه وبين الآخر قرابة سواء أكان يرثه أم لا.

وصلة الرحم كما قال القاضي عياض : درجات بعضها أرفع من بعض، وأدناها : ترك المهاجرة ، وصلتها بالكلام، ولو بالسلام، ويختلف ذلك باختلاف القدرة والحاجة، فمنها : ما هو واجب، ومنها : ما هو مستحب، فلو

---

(١) فتح الباري ١٠ / ٣٤٧ .

وصل بعض الصلة، ولم يصل إلى غايتها، لم يسم قاطعًا. ولو قصر عما يقدر عليه وينبغي له لم يسم واصلاً.

والأسرة في مجالها الواسع تشمل ذوى القربى، وهم غير الأصول والفروع، أو هم الحواشي بتعبير الفقهاء.

ومن مبادئ الإسلام الاجتماعية الأولى تسبيك جماعات المسلمين في وحدة جسدية جماعية عامة، وأولى الناس بذلك الأقرب رحمًا، فلهم حق أخوة الإسلام، ولهم حق قرابة الرحم.

• المراد بصلة الرحم

كما هو واضح، رحم الإنسان: أقاربه، وهم أولى الناس بالرعاية، وأحقهم بالعناية، وأجدرهم بالشفقة والحماية، وصلتهم: إنما تكون بملاطفتهم، والدفاع عن أعراضهم، والذود عن حاجتهم، وتفريج همومهم، وكشف غمومهم، وقضاء حاجاتهم إن كانوا محتاجين، ومد يد المساعدة والعون لهم إن كانوا معوزين، وسداد ديونهم إن كانوا مدينين، وإطعامهم من جوع، وإيمانهم من خوف، وتوقير كبيرهم، والعطف على صغيرهم، وتهنئتهم إذا لحقهم خير، ومواساتهم إذا أصابهم شر، والتودد إليهم بالزيارة والهدية، جبرا لخاطرهم، وتطييبًا لنفوسهم، وإطفاءً لنار الحسد والبغضاء من صدورهم... وبذل غاية الجهد في كل ما يجلب محبتهم من إلانة الجانب، وإظهار البشاشة عند اللقاء، ومبادأتهم بالسلام، ومخاطبتهم بلين الكلام، والإحسان إليهم وإن كانوا يجهلون.

قال رجل لابنه في بعض وصاياه: يا بني لا تقطع القريب وإن أساء، فإن المرء لا يأكل لحمه وإن جاع[1].

كما تكون صلة الرحم بزيارتهم، وتفقد أحوالهم، وإكرامهم، والإهداء إليهم، والتصدق على فقيرهم باعتباره أحق من الفقير البعيد.

(١) صلة الأرحام من مقال للشيخ عبد المنصف محمود عبد الفتاح منشور بمجلة الأزهر شعبان ١٤٢٢ هـ نوفمبر ٢٠٠١م.

وتكون بتعهد مرضاهم، ومشاركتهم في مسراتهم، ومواساتهم في أحزانهم، وتقديمهم على غيرهم في كل أمر هم أحق به من غيرهم بسبب قرابتهم.

أما قطيعتهم فتكون بهجرهم والإعراض عن زياراتهم المستطاعة، وعدم مشاركتهم في مسراتهم، وعدم مواساتهم في أحزانهم، وتكون بتفضيل غيرهم عليهم في الصلات والعطاءات الخاصة التي هم أحق بها من غيرهم.

قال ابن أبي حمزة : تكون صلة الرحم بالمال وبالعون على الحاجة، وبدفع الضرر، وبطلاقة الوجه، وبالدعاء.

والمعنى الجامع : إيصال ما أمكن من الخير، ودفع ما أمكن من الشر بحسب الطاقة.

قال البلباني : والمراد بصلة الرحم موالاتهم ومحبتهم أكثر من غيرهم لأجل قرابتهم، وتأكيد المبادرة إلى صلحهم عند عداوتهم، والاجتهاد في إيصال كفايتهم بطيب نفس عند فقرهم والإسراع إلى مساعدتهم ومعاونتهم عند حاجتهم، ومراعاة جبر قلوبهم مع التعطف والتلطف بهم، وتقديمهم في إجابة دعوتهم، والتواضع معهم في غناهم وفقرهم، وقوتهم وضعفهم، ومداومة مودتهم ونصحهم في كل شئونهم، والبداءة بهم في الدعوة والضيافة قبل غيرهم، وإيثارهم في الإحسان والصدقة والهدية على من سواهم، لأن الصدقة عليهم صدقة وصلة [1].

• حكم صلة الرحم

قال القاضي عياض : لا خلاف أن صلة الرحم واجبة في الجملة وقطيعتها معصية كبيرة. فقد شكا رجل إلى رسول الله ﷺ قطيعة قرابة له على الرغم من أنه يصلهم، ويحسن إليهم، ويحلم عنهم، فأبان له رسول الله ﷺ مبلغ عقوبتهم عند الله على قطيعتهم وإساءتهم له إن كان صادقًا فيما يقول.

روى مسلم عن أبي هريرة أن رجلاً قال : يا رسول الله، إن لي قرابة أصلهم ويقطعوني، وأحسن إليهم ويسيئون إلي، وأحلم عنهم ويجهلون علي، فقال له الرسول ﷺ : «لئن كنت كما قلت فكأنما تسفهم المَلَّ [2] ولا يزال معك من الله ظهير عليهم مادمت على ذلك».

---

(١) عبد العزيز آل محمد السلمان موارد الظمآن لدروس الزمان ٢ / ٤٤٢ .

(٢) المل : هو الرماد الحار.

• هل تكون المعاملة بالمثل ..؟

ليس الواصل لرحمه هو الذى يعامل أرحامه بالمثل، فإن وصلوه وصلهم، وإن قطعوه قطعهم، ولكن الواصل هو الذى إذا قطعته رحمه وصلها.

روى البخارى عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : قال رسول الله ﷺ : «ليس الواصل بالمكافئ ، ولكن الواصل الذى إذا قطعت رحمه وصلها».

وبعد : فالعلماء متفقون على أن صلة الرحم واجبة، وأن القطيعة حرام من الكبائر ، وأن أقل درجات الصلة الكلام، وأن الحكم بالوجوب يرجع إلى الحاجة والحالة، فمن كان له أخ وعم مثلاً وأخوه غنى وعمه فقير معدم، فإن صلة الأخ يكفى فيها الكلام والمجاملات العادية، أما العم فلا يعتبر واصلا له إلا إذا أعطاه من ماله إن كان قادراً، فالصلة هنا روعى فيها حالة الموصول والواصل.

وكما تكون الصلة بالمال والزيارة تكون بعيادة المريض، وإجابة الدعوة والتهنئة بما يسر ، والعزاء فى المصائب، وسداد الدين أو المساعدة فى سداده، وإغاثة اللهفان، وتمريض المريض ... إلخ. فإن كثيراً من الناس لا يفقه دين الله، ولا يستطيع التغلب على شح نفسه وحقدها، فتراه يظن أن الصلة تكفى فيها الكلمة والسلام والزيارة، ولو كان المريض فى حاجة إلى مساعدة مالية [1].

• الأمر بصلة الرحم من أوائل ما نزل من التشريع

والذى يدل على أن صلة الرحم من أوائل ما نزل من التشريع فى الإسلام آيات مكية وأحاديث نبوية شريفة : فقد روى مسلم عن عمرو بن عبسة السلمى فى حديث طويل، قال : كنت وأنا فى الجاهلية أظن الناس على ضلالة، وأنهم ليسوا على شىء وهم يعبدون الأوثان، فسمعت برجل بمكة يخبر أخبارا فعدت على راحلتى فقدمت عليه، فإذا رسول الله ﷺ مستخفيا ، جُراء عليه قومه، فتلطفت حتى دخلت عليه بمكة.

فقلت له : ما أنت ؟

---

(١) حسن أيوب السلوك الاجتماعى فى الإسلام ص ٢٢٦ بتصرف.

قال : «أنا نبى». فقلت : وما نبى ؟

قال : «أرسلنى الله» . فقلت : بأى شيء أرسلك ؟

قال : «أرسلنى بصلة الأرحام، وكسر الأوثان، وأن يُوَحَّدَ الله لا يشرك به» .

قلت : فمن معك على هذا؟

قال : «حر وعبد» - ومعه يومئذ أبو بكر وبلال

فقلت : «إنى متبعك»

قال : إنك لن تستطيع ذلك يومك هذا، ألا ترى حالى وحال الناس، ولكن ارجع إلى أهلك فإذا سمعت بى ظهرت فأتنى» .

وروى مسلم عن أبى هريرة قال : لما نزلت ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾ دعا رسول اله ﷺ قريشًا فاجتمعوا، فعم وخص فقال :

« يا بنى كعب بن لؤى : أنقذوا أنفسكم من النار.

يابنى مرة بن كعب : أنقذوا أنفسكم من النار.

يا بنى عبد شمس : أنقذوا أنفسكم من النار.

يا بنى عبد مناف : أنقذوا أنفسكم من النار.

يا بنى هاشم : أنقذوا أنفسكم من النار.

يا بنى عبد المطلب : أنقذوا أنفسكم من النار.

يا فاطمة : أنقذى نفسك من النار.

فإنى لا أملك لكم من الله شيئًا، غير أن لكم رحمًا سأبلها ببلالها» [1] .

وروى البخارى ومسلم واللفظ للبخارى، عن عمرو بن العاص قال : سمعت النبى ﷺ جهارًا غير سر يقول : «إن آل أبى فلان ليسوا بأوليائى، إنما وليى الله وصالح المؤمنين، ولكن لهم رحم أبلها ببلالها» .

---

(١) ببلالها : البلال : مصدر بله بالماء إذا نداه به، والعرب يطلقون النداوة على الصلة وليس على القطيعة.

وفي حديث أبي سفيان مع هرقل في قصته المشهورة، من حديث طويل عند البخاري ومسلم، قال هرقل لأبي سفيان عن محمد ﷺ : فماذا يأمركم به؟

قال أبو سفيان قلت : اعبدوا الله وحده ولاتشركوا به شيئًا، واتركوا ما يقول آباؤكم، ويأمرنا بالصلاة، والصدق، والعفاف، والصلة : أي وصلة الأرحام.

• مسئولية الأقارب عن النفقة على الفقير

لكي لا تترك المرأة الفقيرة تموت جوعًا أوتضطر إلى اختيار الطرق المحرمة لسد جوعها، ألزمت الشريعة الإسلامية الأقارب بالإنفاق على الفقير، قال الله تعالى : ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ﴾ [1]

وقال تعالى : ﴿وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ﴾ [2].

وروى الإمام أبو داود في سننه عن كليب بن منفعة الحنفي عن جده أنه أتى النبي ﷺ : فقال : يا رسول الله من أبر؟ قال : «أمك وأباك ، وأختك وأخاك، ومولاك الذي يلي ذاك، حق واجب ورحم موصولة» [3].

كما روى الإمام النسائي عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : «أبدأ بنفسك ، فتصدق عليها، فإن فضل شيء فلأهلك، فإن فضل عن أهلك شيء فلذوي قربتك، فإن فضل عن ذوي قرابتك فكهذا وهكذا» [4].

وروى الإمام مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رجل : يا رسول الله من أحق بحسن الصحبة ؟

قال : أمك .ثم أمك . ثم أبوك .ثم أدناك أدناك» [5]

ويقول الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى في شرح الأحاديث المذكورة : وهذا كله تفسير لقوله تعالى : ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ﴾ [6] وقوله تعالى : ﴿وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ﴾ [7] فجعل سبحانه حق

---

(١) سورة النساء الآية ٣٦.
(٢) سورة الإسراء الآية ٢٦.
(٣) سنن أبي داود مع عون المعبود ٤ / ٤٨- ٤٩ (المكتبة السلفية).
(٤) نقلاً عن زاد المعاد ٤ / ١٦٤ .
(٥) صحيح مسلم .
(٦) سورة النساء الآية ٣٦.
(٧) سورة الإسراء الآية ٢٦.

ذى القربى يلى حق الوالدين، كما جعله النبى ﷺ سواء بسواء، وأخبر سبحانه أن لذى القربى حقًا على قرابته، وأمر بإتيانه إياه، فإن لم يكن ذلك حق النفقة فلا ندرى أى حق هو؟

وأمر تعالى بالإحسان إلى ذى القربة ومن أعظم الإساءة أن يراه يموت جوعًا وعريًا وهو قادر على سد خلته وسترعورته ولا يطعمه لقمة ولا يستر له عورة إلا بأن يقرضه ذلك على ذمته وهذا الحكم من النبى ﷺ مطابق لكتاب الله تعالى: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلاَّ وُسْعَهَا لا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلا مَوْلُودٌ لَّهُ بِوَلَدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ﴾ [1].

فأوجب سبحانه وتعالى على الوارث مثل ما أوجب على المولود له، وبمثل ذلك حكم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه، فروى سفيان بن عيينة أن عمر رضى الله عنه حبس عصبة صبى على أن ينفقوا عليه الرجال دون النساء.

وروى ابن أبى شيبة عن سعيد بن المسيب قال: جاء ولى يتيم إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه، فقال: أنفقْ عليه، ثم قال: ولو لم أجد إلا أقصى عشيرته لفرضت عليهم. وحكم مثل ذلك زيد بن ثابت رضى الله عنه، ولا يعرف لعمر وزيد مخالف فى الصحابة [2].

• **فضل صلة الرحم**

صلة الرحم: خلة من أجمل الخلال، وخصلة من أفضل الخصال، بها يزول التباغض والتحاسد، ويكثر التراحم والتواد، وبمراعاتها تستمال القلوب، وتغفر الذنوب، ولذا حث الشارع الحكيم عليها، وبالغ فى التمسك بها، حتى إننا لنجد الرسول ﷺ يرتب السعة فى الرزق، والبركة فى العمر، وحسن الذكرى فى العقب، على برالأقارب فيقول: «مَن أحب أن يبسط له فى رزقه، وأن ينسأ له فى أثره فليصل رحمه» [3].

---

(١) سورة البقرة الآية ٢٣٣.

(٢) زاد المعاد ٤ / ١٦٤ وانظر التدابير الواقية من الزنا فى الفقه الإسلامى د. فضل إلهى ص ٢٣٠- ٢٣١

(٣) رواه البخارى ومسلم عن أنس.

وعن أبى هريرة - رضى الله عنه - عن النبى ﷺ أنه قال : «إن صلة الرحم محبة فى الأهل ، مثراة فى المال ، منسأة فى الأجل».

وعن عائشة - رضى الله عنها - مرفوعًا : صلة الرحم ، وحسن الجوار يعمران الديار ، ويزيدان فى الأعمار»[1].

وجاء فى الأثر : إن أعجل البر ثوابًا لصلةُ الرحم ، حتى إن أهل البيت ليكونون فجرة ، فتنمو أموالهم ، ويكثر عددهم ، إذا تواصلوا[2].

والصلة ، نوع من الإحسان ، كما فسرها بذلك غير واحد ، والقطيعة ، ضدها ، وهى ترك الإحسان ؛ فعن أبى هريرة - رضى الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال : «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليصل رحمه ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت»[3].

وقد عدد العلماء كثيراً من أفضال صلة الرحم منها :

أ - من موجبات دخول الجنة. عن أبى أيوب خالد بن زيد الأنصارى رضى الله عنه أن أعرابيًا عرض لرسول الله ﷺ وهو فى سفر فأخذ بخطام ناقته أو بزمامها ثم قال : يا رسول الله ﷺ ، أو يا محمد : أخبرنى بما يقربنى من الجنة ويباعدنى من النار ، قال : فكف النبى ﷺ ثم نظر إلى أصحابه ثم قال : «لقد وفق أو لقد هدى».

قال : كيف قلت ؟ قال : فأعادها

فقال النبى ﷺ : «تعبد الله ولا تشرك به شيئًا ، وتقيم الصلاة ، وتؤتى الزكاة ، وتصل الرحم[4] وفى رواية : تصل ذا رحمك.

فلما أدبر قال رسول الله ﷺ : «إن تمسك بما أمرته دخل الجنة».

---

(١) رواه أحمد

(٢) رواه الطبرانى عن أبى بكرة ، ورواه ابن حبان فى صحيحه.

(٣) رواه البخارى ومسلم.

(٤) رواه البخارى ومسلم وغيرهما.

ب - من أحب الأعمال إلى الله ، عن رجل من خثعم قال : أتيت النبى ﷺ وهو في نفر من أصحابه، فقلت : أنت الذى تزعم أنك رسول الله ؟

قال : نعم.

قلت : يا رسول الله ، أى الأعمال أحب إلى الله ؟

قال : «الإيمان بالله».

قلت : يا رسول الله ، أى الأعمال أبغض إلى الله ؟

قال : «الإشراك بالله».

قلت : يارسول الله ، ثم مه؟

قال : «ثم قطيعة الرحم»

قال : قلت ثم مه ؟

قال : «الأمر بالمنكر والنهى عن المعروف »[١].

جـ - باب من أبواب رفع الدرجات .. روى البزار عن عبادة بن الصامت مرفوعًا باللفظ : «ألا أدلكم على ما يرفع الله به الدرجات؟ »، قالوا : نعم يا رسول الله.

قال : «تحلم على من جهل عليك، وتعفو عمن ظلمك، وتعطى من حرمك، وتصل من قطعك».

وعن أبى ذر رضى الله عنه قال : أوصانى خليلى ﷺ بخصال من الخير :

أوصانى بحب المساكين والدنو منهم.

وأوصانى أن أصل رحمى وإن أدبرت.

وأوصانى أن لا أخاف فى الله لومة لائم.

وأوصانى أن أقول الحق وإن كان مراً.

وأوصانى أن أكثر من قول لا حول ولا قوة إلا بالله فإنها كنز من كنوز الجنة [٢].

---

(١) أخرجه أبو يعلى بإسناد جيد عن رجل من خثعم.

(٢) رواه الطبرانى وابن حبان فى صحيحه.

د - سبب في مد العمر وتوسعة الرزق ... عن على بن أبى طالب رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : «من سره أن يمد له في عمره، ويوسع له في رزقه، ويدفع عنه ميتة السوء، فليتق الله وليصل رحمه »[1].

وعن أنس رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : «من سره أن يبسط له فى رزقه، وينسأ له[2] فى أثره، فليصل رحمه»[3].

عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : «مكتوب فى التوراة من أحب أن يزاد في عمره، ويزاد فى رزقه، فليصل رحمه »[4].

وعن ثوبان رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «إن الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه، ولا يرد القدر إلا الدعاء، ولا يزيد من العمر إلا البر»[5].

• تساؤل مثار

بعض الآثار يثير تساؤلاً هو :

إذاكان الرزق محدودا، والأجل معلوما عند الله ، فكيف يزاد الرزق على ما هو مكتوب، وكيف يزيد الأجل على ما هو معلوم ؟

وأجاب العلماء على ذلك فقالوا :

قال ابن القيم : ظاهر حديث البخارى من سره أن يبسط له فى رزقه... » يتعارض مع قول الله - تعالى - : ﴿ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾[6].

قال : والجمع بينهما من جهتين :

أحدهما : أن الزيادة كناية عن البركة فى العمر، بسبب التوفيق إلى الطاعة، وعمارة وقته بما ينفعه فى الآخرة، وصيانته عن تضييعه فى غير ذلك، ومثل هذا ماجاء أن النبى ﷺ تقاصر أعمار أمته بالنسبة إلى أعمار من مضى من الأمم، فأعطاه الله ليلة القدر،خيراً من ألف شهر .

---

(١) رواه الطبرانى.
(٢) يزاد أجله .
(٣) رواه البخارى ومسلم.
(٤) رواه البزار والحاكم.
(٥) رواه ابن ماجة وابن حبان.
(٦) سورة الأعراف الآية ٣٤ .

وحاصله : أن صلة الرحم تكون سببا للتوفيق للطاعة والعبادة، والصيانة من المعصية، فيبقى بعده الذكر الجميل، فكأنه لم يمت، ومن جملة ما يحصل له من التوفيق العلم الذى ينتفع به من بعده بتأليف ونحوه، والصدقة الجارية عليه، والذرية الصالحة.

ثانيهما : أن الزيادة على حقيقتها ، وذلك بالنسبة إلى علم الملك الموكل بقبض الأرواح، والذى فى الآية بالنسبة إلى علم الله - تبارك وتعالى - .

كأن يقال للملك مثلاً : إن عمر فلان مائة سنة إن وصل رحمه،وإن قطعها فستون، وقد سبق علم الله أن يصل أو يقطع، فالذى فى علم الله لا يتقدم ولا يتأخر، والذى فى علم الملك هو الذى يمكن فيه الزيادة أو النقصان ، وإليه الإشارة بقول الله تعالى : ﴿ يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴿٣٩﴾ ﴾ [1] .

والمحو والإثبات بالنسبة إلى ما فى علم الملك، وما فى أم الكتاب، وأما الذى فى علم الله فلا محو فيه البتة، ويقال له : القضاء المبرم، ويقال للأول : القضاء المعلق.

والوجه الأول : أليق ، فإن الأثر ما يتبع الشيء فإذا أخر : حسن أن يحمل على الذكر الحسن، بعد فقد المذكور، ورجحه الطيبى وأشار إليه فى «الفائق» ويؤيده ما روى عن أبى الدرداء - رضى الله عنه - قال : ذكر عند رسول الله ﷺ : «من وصل رحمه أنسئ له فى أجله »

فقال : إنه ليس زيادة فى عمره،قال تعالى :﴿ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾ [2] . ولكن الرجل تكون له الذرية الصالحة يدعون له من بعده [3] .

وجزم ابن فورك : بأن المراد بزيادة العمر نفى الآفات عن صاحب البر فى فهمه وعقله.

وقال غيره : فى أعم من ذلك وفى عمله ورزقه [4] .

---

(١) سورة الرعد الآية ٣٩.

(٢) سورة الأعراف الآية ٣٤.

(٣) رواه الطبرانى فى الصغير .

(٤) سبل السلام.

ولابن القيم فى كتاب «الداء والدواء» كلام يقضى بأن مدة حياة العبد وعمره هى : مها كان قلبه مقبلاً على الله، ذاكرا له ، مطيعًا غير عاص، فهذه هى عمره، ومتى أعرض القلب عن الله - تعالى - واشتغل بالمعاصى ضاعت عليه أيام حياة عمره، فعلى هذا معنى : «أن ينسأ فى أجله» أن يعمر الله قلبه بذكره وأوقاته بطاعته».

ثم إن صلة الرحم سبب فى إقبال الله - عز وجل - على الواصل : باللطف والإكرام ، والرحمة والإنعام وقطيعتها سبب فى الحرمان من كل ذلك [1] .

● **وخلاصة القول :**

فبالنسبة للزيادة فى الرزق : المراد منها البركة فى الصحة والعافية وطاعة الله تعالى.

أو المراد أن الله يجعل الزيادة والتوسعة فى الرزق سببها صلة الرحم، فتحقق التوسعة حين تتحقق الصلة، كما هو الشأن فى الأسباب والمسببات.

وأما الزيادة فى العمر فقالوا فيها :

إما أن يكون المراد بها البركة فى العمر بسبب التوفيق للطاعة والصيانة عن المعصية والبعد عما نهى الله عنه. وابن القيم يرى أن هذا هو المراد.

وإما أن يكون المراد منها بقاء ذكره الجميل بعده، فكأنه لم يمت ويكون ذلك بالتوفيق للعلم النافع والصدقة الجارية والولد الصالح الذى يدعو له » [2] .

وإنما رتبت البركة فى العمر على صلة الرحم ، لأن المرء إذا وصل رحمه أرضى ربه ، فَأَجلَّهُ أقرباؤه واحترموه، فامتلأت نفسه سرورا وشعر بمكانة عالية من أجل ما وفقه الله له من صنعه الذى صنع ، والسرور منشط ، كما أن الحزن مثبط ، والشعور بالتعظيم عن أعمال مجيدة داع للإكثار منها ، وبَذْلَ الجهد فى سبيلها.

وكما أن الصحة وطيب الهواء، وطيب الغذاء، واستعمال الأمور المقوية للأبدان والقلوب من أسباب طول العمر ، فكذلك صلة الرحم جعلها الله سببا ربانيًا من أسباب طول العمر .

---

(١) صلة الأرحام من مقال للشيخ عبد المنصف محمود عبد الفتاح منشور بمجلة الأزهر السابق ذكرها.

(٢) انظر السلوك الاجتماعى فى الإسلام : حسن أيوب ص ٢٦٩- ٢٧٠ .

وبسط الرزق وإطالة العمر مما يكافئ الله عليه في الدنيا فهو ثواب معجل يتسابق إليه معظم الناس، ومن فضل الله تبارك وتعالى على عباده أنه زائد على ثواب الآخرة الذى ادخر للمؤمنين الذين يعملون الصالحات ابتغاء مرضاته سبحانه وتعالى.

ومن لطائف الشريعة الإسلامية أن الصدقة على المسكين تحسب بصدقة.

أما الصدقة على ذى الرحم فتحسب باثنين، صدقة وصلة. فقد روى الترمذى باسناد حسن عن سلمان بن عامر، أن النبى ﷺ قال: «الصدقة على المسكين صدقة، وعلى ذى الرحم صدقة وصلة».

بل إن الشريعة الإسلامية تحث على الصدقة والإحسان والهدية مع ذى الرحم الكاشح: أى الذى يضمر العداوة عساه أن يعود ويرجع عن بغضه إلى مودة قريبه ومحبته. فعن أم كلثوم بنت عقبة رضى الله عنها، أن النبى ﷺ قال: «أفضل الصدقة، الصدقة على ذى الرحم الكاشح»[1].

- **التزام الصحابة بفضيلة صلة الرحم**

أفضل الصدقة وأفضل أعمال البر هو ما كان منها على الأرحام والأقربين ما وجد فيهم ذو حاجة، وقد التزم أصحاب رسول الله ﷺ فضيلة صلة الرحم إيمانا منهم بثوابها العظيم عند الله تبارك وتعالى. فعن أنس قال: كان أبو طلحة أكثر الأنصار بالمدينة مالا من نخل، وكان أحب أمواله إليه بيرحاء اسم لحديقة من نخل وكانت مستقبلة المسجد، وكان رسول الله ﷺ يدخلها ويشرب من ماء فيها طيب، فلما نزلت هذه الآية ﴿لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنفِقُوا﴾ قام أبو طلحة إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله إن الله تبارك وتعالى يقول: ﴿لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنفِقُوا﴾ وإن أحب مالى إلى بيرحاء.

إنها صدقة لله تعالى أرجو برها وذخرها عند الله. فضعها يا رسول الله حيث أراك الله.

---

(١) رواه الطبرانى وابن خزيمة فى صحيحه والحاكم وقال صحيح على شرط مسلم.

فقال رسول الله ﷺ : «بخ بخ ، ذلك مال رابح ، ذلك مال رابح ، وقد سمعت ما قلت ، وإنى أرى أن تجعلها فى الأقربين» .

فقال أبو طلحة : أفعل يا رسول الله ، فقسم حديقته هذه فى أقاربه وبنى عمه .

وروى البخارى ومسلم عن زينب الثقفية امرأة عبد الله بن مسعود قالت : قال رسول الله ﷺ : «تصدقن يا معشر النساء ولو من حليكن» .

قالت : فرجعت إلى عبد الله بن مسعود فقلت : إنك رجل خفيف ذات اليد ، وإن رسول الله ﷺ قد أمرنا بالصدقة ، فأته فاسأله ، فإن كان ذلك يجزى عنى ، وإلا صرفتها إلى غيركم «تريد بذلك إعطاء صدقتها إلى زوجها إذا كان هذا جائزاً» .

فقال عبد الله بن مسعود : بل ائته أنت .

قالت زينب : فانطلقت فإذا امرأة من الأنصار بباب رسول الله ﷺ حاجتى حاجتها أى : تريد أن تسأل الرسول بمثل السؤال الذى جاءت زينب من أجله .

قالت زينب : وكان رسول الله ﷺ قد ألقيت عليه المهابة ، فخرج علينا بلال ، فقلنا له : أئت رسول الله ﷺ فأخبره أن امرأتين بالباب تسألانه : اتجزئ الصدقة عنهما على أزواجهما ، وعلى أيتام حجورهما ؟ ولا تخبرنه من نحن .

فدخل بلال على رسول الله ﷺ فسأله ، فقال له رسول الله ﷺ : «من هما»

قال : امرأة من الأنصار وزينب .

فقال رسول الله ﷺ : «أى الزيانب ؟»

قال بلال : امرأة عبد الله .

فقال رسول الله ﷺ : لهما أجران ، أجر القرابة ، وأجر الصدقة .

وعن أم المؤمنين ميمونة بنت الحارث رضى الله عنها أنها أعتقت وليدة ولم تستأذن النبى ﷺ ، فلما كان يومها الذى يدور عليها فيه ، قالت :

أشعرت يا رسول الله أنى أعتقت وليدتى ؟

قال : أو فعلت ؟ قلت : نعم

قال : «أما إنك لو أعطيتها أخوالك كان أعظم لأجرك»

ويظهر من هذا الحديث أن صلة الرحم قد تكون مقدمة على عتق الرقاب في بعض الأحوال.

كما يظهر أن أخوال أم المؤمنين ميمونة كانوا ذا حاجة، أو أن صلتها لهم تؤلف قلوبهم وتجبر خواطرهم.

ومن لطيف ما يروى أنه جرت بين محمد بن الحنفية وأخيه الحسن بن علي - رضى الله عنهما - أجمعين جفوة، فانصرفا متغاضبين ، فلما وصل محمد إلى بيته أخذ ورقة وكتب فيها «بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد بن علي بن أبى طالب إلى أخيه الحسن بن علي بن أبى طالب أما بعد :

فإن لك شرفا لا أبلغه، وفضلا لا أدركه، فإذا قرأت رقعتى هذه فالبس رداءك ونعليك، وسر إلى فترضنى، وإياك أن أكون سابقك إلى الفضل الذى أنت أولى به مني والسلام ».

فلما قرأ الحسن الرقعة لبس رداءه ونعليه ثم جاء إلى أخيه محمد فترضاه».

وفي رواية أخرى : ما يفيد بأنه وقع بين محمد بن الحنفية وأخيه الحسن بن علي بن أبى طالب - رضى الله عنهم - جفوة.

فكتب محمد إلى أخيه الحسن يقول : أما بعد .. فإن أبى وأباك علي بن أبى طالب لا تفضلنى فيه ولا أفضلك، وإن أمك فاطمة الزهراء بنت رسول الله ﷺ ، وأمي امرأة من بني حنيفة، فوالله لو أن ملء الأرض من مثل أمي ما عدلن أمك، فإذا بلغك كتابى هذا فاحضر إلى لتترضانى فإنك أحق بالفضل منى .. فما أن بلغ الكتاب إلى الحسن ، حتى بادر إلى أخيه وترضاه ..»

- **أمور يجب التنبه إليها**

١ - جعل الله صلة الرحم في الأهمية تالية لأهمية توحيد الله سبحانه، كما مر ذكره في بر الوالدين، والوالدان هما قمة ذوى الرحم، وقد صح أن الخالة بمنزلة الأم، كما رواه البراء بن عازب عن النبى ﷺ وأخرجه الترمذى وقال حديث صحيح .

وقد تذكر القرابة مع الوالدين لإبراز أهمية كل من عداهما، في وجود البر والصلة وعدم القطيعة والعقوق، فلا يظن أحد أن الرحم هي الوالدان فقط، أو يكتفي بالوالدين عن بقية الأرحام قال تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لا تَعْبُدُونَ إِلاَّ اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ ﴾ وقال : ﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ ﴾ .

ومر قوله تعالى : ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ ﴾.

٢ - قدم صلة الرحم على كل المصارف عند الأمر بالصدقة على الناس، قال تعالى ﴿ وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُوْلُوا الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلاً مَّعْرُوفًا ⑧ ﴾ أى أطعموا من لا يستحق الميراث من أقاربكم شيئاً عند حضورهم القسمة، إن كان هناك مال كثير، وإلا فاعتذروا إليهم. قال ابن عباس : إن الآية محكمة، وعليه جماعة من التابعين، كعروة بن الزبير، وغيره، وروى عن ابن عباس أنها منسوخة بآية المواريث . والأصح الأول، فيندب إعطاؤهم.

وقال تعالى : ﴿ وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ﴾ .

وقال : ﴿ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ ﴾

وقال : ﴿ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ ﴾

وعندما نزل قوله تعالى : ﴿ لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾ أراد أبو طلحة أن يتصدق بحائط، أى بستان، له كان يعجبه ويسمى «بيرحاء» فقال يا رسول الله هى فى سبيل الله وللفقراء والمساكين. فقال له ﷺ «وجب أجرك على الله، فأقمه فى أقاربك»[١] .

وكذلك ميمونة بنت الحارث، أعتقت وليدة فى زمان رسول الله ﷺ، فذكرت له ذلك.

فقال «لو أعطيتها أخوالك كان أعظم لأجرك»[٢] .

وفى الحديث «ابدأ بنفسك فتصدق عليها، فإن فَضُل شىء فلأهلك، فإن فضل عن أهلك شىء فلذوى قرابتك، فإن فضل عن ذى قرابتك فهكذا وهكذا»[٣] .

---

(١) رواه البخارى ومسلم. (٢) رواه البخارى ومسلم.

(٣) رواه مسلم والنسائى عن جابر بن عبد الله.

وعن كليب بن منفعة قال، قال جدى : يا رسول الله من أبر ؟

قال : «أمك وأباك وأختك وأخاك ومولاك الذى يلى ذلك، حق واجب ورحم موصولة»(١) .

٣ - جعل الإسلام صلة الرحم من الأصول الإسلامية الأولى قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ ﴾(٢) .

٤ - كانت صلة الرحم من أبرز ما دعا إليه النبى ﷺ فى مكة، مع توحيد الله تعالى، وقد أشاد بذلك مهاجرو الحبشة أمام النجاشى، وهو يسألهم عن دعوته، حيث قالوا : إنه يأمر بصلة الأرحام ، وجاء مثل ذلك فى حديث هرقل مع أبى سفيان.

وعن عمرو بن عبسة أنه لما جاء إلى النبى ﷺ وهو مستخف بمكة بدعوته، وسأله : ماذا أرسلك الله به ؟ فقال : «أرسلنى بصلة الأرحام، وكسر الأوثان، وأن يوحد الله لا يشرك به شيء»(٣) .

٥ - جعل صلة الرحم قربتين لا قربة واحدة : صدقة وصلة، ففى الحديث «الصدقة على المسكين صدقة، وعلى الرحم صدقة وصلة»(٤) .

وفيه حديث زينب الثقفية، عندما سألت النبى ﷺ عن تصدقها على زوجها لينفق على نفسه وأولاده ، حيث قال : «لها أجران، أجر القرابة وأجر الصدقة » رواه مسلم .

٦ - جعل صلة الأرحام من صفات الصفوة الممتازة من العباد ، قال تعالى :﴿ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الأَلْبَابِ ﴿١٩﴾ الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلا يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ ﴿٢٠﴾ ﴾ .

٧ - جعل النبى ﷺ صلة رحمه وقرباه مكافأة من الناس على هدايتهم، وتبليغه رسالة ربه إليهم إن كان يريد منهم أجراً على ذلك . قال تعالى : ﴿ قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ ﴾ فقد قيل فى معنى الآية : لا أسألكم على التبليغ أجراً، إلا أن تودوا قرابتى ولا تؤذوهم. وهو يدل على اهتمامه بهم.

٨ - اهتمام النبى ﷺ عمليا بصلة الرحم، ليكون قدوة للناس فى تنفيذ ما يوصى

---

(١) رواه البخارى فى الأدب المفرد.

(٢) سورة النحل الآية ٩٠.

(٣) رواه مسلم.

(٤) رواه الترمذى عن سلمان بن عامر وقال : حديث حسن .

به، وليس أدل على ذلك من حرصه على هداية قومه، وتأسفه لضلالهم، فقد حاول جهد طاقته أن يصنع معروفاً لعمه أبي طالب بدخوله في الإسلام آخر حياته، كما جاء في صحيح مسلم، ووعده بالاستغفار له، وفي ذلك نزل قوله تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (113) ﴾ [1].

وقال تعالى: ﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا (6) ﴾ [2]

وقال تعالى ﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (3) ﴾ [3].

وحزن النبي ﷺ على عمه حمزة كثيراً عندما قتل شهيداً في أحد.

وأحب حبا شديداً أولاد بناته، وبخاصة الحسن والحسين، وأمر الناس بحبهم جميعاً.

وأكرم النبي ﷺ أخته من الرضاعة الشيماء في غزوة حنين، واسمها جدامة، «بضم الجيم وفتح الدال» أو خذامة «بكسر الخاء وفتح الذال المعجمة» أو حذافة «بضم الحاء المهملة وبفتح الذال المعجمة والفاء» بنت الحارث بن عبد العزى.

روى ابن سعد أن خيلا للنبي ﷺ أغارت على هوازن لما بعث النبيُّ أبا عامر الأشعري في طلب الفارين منهم يوم حنين، فهزموهم، وسبوا النساء والذرية، فاخذوا الشيماء في جملة السبي، فقالت: أنا أخت صاحبكم، فلم يصدقوها.

فلما قدموا على رسول الله ﷺ قالت له: يا محمد، أنا أختك من الرضاعة.

قال: «وما علامة ذلك؟» قالت: عضة عضضتنيها في ظهري، وأنا متوركتك.

قال: فعرف رسول الله ﷺ العلامة، فبسط لها رداءه، وأجلسها عليه، وخيرها، فقال: «إن أحببت الإقامة فعندي محببة مكرمة.

وإن أحببت أن أمتعك فترجعي إلى قومك»

قالت: بل تمتعني، وترجعني إلى قومي، ففعل.

فزعمت بنو سعد أنه أعطاها غلاماً يقال له: مكحول، وجارية. فزوجت أحدهما من الآخر. فلم يزل من نسلهما بقية.

وقال أبو عمر: فأسلمت، فأعطاها رسول الله ﷺ ثلاثة أعبد وجارية ونعماً وشاء، وسماها خدامة، وقال: والشيماء لقب[4].

---

(1) سورة التوبة الآية ١١٣. (2) سورة الكهف الآية ٦. (3) سورة الشعراء الآية ٣.

(4) موسوعة الأسرة تحت رعاية الإسلام للشيخ عطية صقر (الوالدان والأقربون).

- **جزاء قطيعة الرحم**

إذا كان الحق تبارك وتعالى وصف المؤمنين أهل الجنة بأنهم يصلون ما أمر الله به أن يوصل، ويدخل في ضمن ذلك صلة الرحم، قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ ﴾[1].

فإنه جلت قدرته وصف من لهم اللعنة ولهم سوء الدار بأنهم يقطعون ما أمر الله به أن يوصل، ويدخل في ضمن ذلك قطيعة الرحم.

قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَٰئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ (٢٥) ﴾[2].

ومن وصل الرحم وصله الله، ومن قطع الرحم قطعه الله، روى البخارى ومسلم عن عائشة، عن النبى ﷺ أنه قال: «الرحم متعلقة بالعرش تقول: من وصلنى وصله الله، ومن قطعنى قطعه الله»[3].

وهذا كناية عن أن حق الأرحام حق ثابت، وأن الله يصل من وصل الرحم، ويقطع من قطع الرحم، نظراً إلى أن الرحم مستجيرة برحمة الله.

روى البخارى عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «الرحم شجنة[4] من الرحمن. فقال الله: من وصلك وصلته، ومن قطعك قطعته».

وروى الأصبهانى قال: كنا جلوسا عند رسول الله ﷺ، فقال: «لا يجالسنا اليوم قاطع رحم، فقام فتى من الحلقة فأتى خالته، قد كان بينهما بعض الشيء فاستغفرها، فاستغفرت له، ثم عاد إلى المجلس.

فقال النبى ﷺ: «إن الرحمة لا تنزل على قوم فيهم قاطع رحم».

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى خلق الخلق حتى فرغ منهم قامت الرحم فقالت: هذا مقام العائذ[5] بك من القطيعة.

---

(١) سورة الرعد الآية ٢١.
(٢) سورة الرعد الآية ٢٥.
(٣) رواه البخارى ومسلم عن عائشة.
(٤) الشجنة: بالشين المشددة المضمومة، فى اللغة العروق المشتبكة والمتداخله بعضها فى بعض، ولا شك أن الرحم متداخلة متشابكة بعضها فى بعض كتداخل عروق الشجر المشتبكة.
(٥) العائذ بك: المستجير بك.

قال : نعم ، أما ترضين أن أصل من وصلك وأقطع من قطعك .

قالت : بلى ، قال : فذاك لك .

ثم قال رسول الله ﷺ : « اقرأوا إن شئتم « فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ (٢٢) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ (٢٣) »[١] .

وعن أبي هريرة رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «إن أعمال بني آدم تعرض كل خميس ليلة الجمعة فلا يقبل عمل قاطع رحم»[٢] .

وعن أبي بكر رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «ما من ذنب يعجل الله لصاحبه العقوبة في الدنيا مع ما يدخر له في الآخرة من البغي وقطيعة الرحم»[٣] .

وعن سعيد بن زيد رضى الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : «إن من أربى الربا الاستطالة في عرض المسلم بغير حق، وإن هذه الرحم شجنة من الرحمن عز وجل، من قطعها حرم الله عليه الجنة »[٤] .

وعن أنس رضى الله عنه ، عن النبي ﷺ أنه قال : «الرحم شجنة متمسكة بالعرش تكلم بلسان ذلق : اللهم صل من وصلني واقطع من قطعني، فيقول الله تبارك وتعالى : «أنا الرحمن الرحيم وإني شققت الرحم من اسمي فمن وصلها وصلته،ومن بتكها بتكته»[٥] .

وعن عائشة رضى الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : «أسرع الخير ثوابًا ، البر وصلة الرحم، وأسر الشر عقوبة البغي وقطيعة الرحم»[٦] .

وروى عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما قال : خرج علينا رسول الله ﷺ ونحن مجتمعون فقال : يا معشر المسلمين اتقوا الله وصلوا أرحامكم فإنه

---

(١) رواه البخاري ومسلم. (٢) رواه أحمد ورواته ثقات.

(٣) رواه ابن ماجة والترمذي وقال حديث حسن صحيح .

(٤) رواه أحمد ورواته ثقات. (٥) رواه البزار بإسناد حسن .

(٦) رواه ابن ماجة .

ليس ثواب أسرع من صلة الرحم وإياكم والبغى فإنه ليس من عقوبة أسرع من عقوبة بغى. وإياكم وعقوق الوالدين، فإن ريح الجنة يوجد مسيرة ألف عام، والله لا يجدها عاق، ولا قاطع رحم، ولا شيخ زان، ولا جار إزاره خيلاء إنما الكبرياء لله رب العالمين »[1].

وها هو سبحانه وتعالى يهدد الذين يقطعون أرحامهم بالوعيد الشديد، وهو الطرد من رحمته، والمصير إلى دار عقوبته، قال الله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَٰئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ (٢٥) ﴾[2].

وقال جل شأنه : ﴿ الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٢٧) ﴾[3].

وعن جبير بن مطعم - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : «لا يدخل الجنة قاطع» يعنى : قاطع رحم[4].

وعن أبى بكر مرفوعاً : « ما من ذنب أجدر أن يعجل الله لصاحبه العقوبة فى الدنيا مع ما ادخره له فى الآخرة : من قطيعة الرحم »[5].

وعن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : «والذى بعثنى بالحق ، لا يعذب الله يوم القيامة من رحم اليتيم، ولم يتطاول على جاره بفضل ما آتاه الله، وقال : يا أمة محمد، والذى بعثنى بالحق لا يقبل الله صدقة من رجل وله قرابة محتاجون إلى صدقته، ويصرفها إلى غيرهم، والذى نفسى بيده : لا ينظر الله إليه يوم القيامة»[6].

- **بم تكون قطيعة الرحم ؟**

اختلف العلماء أيضاً بأى شىء تكون قطيعة الرحم ؟

---

(١) رواه أحمد.

(٢) سورة الرعد الآية ٢٥.

(٣) سورة البقرة الآية ٢٧.

(٤) متفق عليه

(٥) متفق عليه.

(٦) رواه الطبرانى بسند رجاله ثقات.

ولعل ترغيب الشارع الحكيم فى صلة الرحم، وتشديده فى أمرها وتحذيره من قطعها، حتى جعلها من أكبر الكبائر لأن أقارب الإنسان أشد نصرة له بعد الأبوين، وأعظمهم محبة له، وأكثرهم رغبة فى الخير له... بهم يشتد ساعده، وتقوى شوكته، ويعظم جاهه، ويرتفع ذكره، ولاعجب فهم أكثر الناس به اختلاطًا، فإذا قطعهم تكدر صفوه، وتنغص عيشه، وتحير لبه، وكثر همه، وعظم شره، وقل خيره... وهذا كله يحتم على الإنسان أن يصلهم، وأن يعمد إلى إيصال الخير إليهم، فهم أولى بالبر من غيرهم.

ألم يجعل الله الأمر بصلتهم عقب الأمر بتقواه : ﴿ وَأُوْلُوا الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٧٥) ﴾[١].

وهكذا نرى أن الله تبارك وتعالى قد عظم شأن هذه الرابطة التى تربط الناس جميعًا أفرادًا وجماعات برباط الإخاء والمحبة حتى جعل اتقاءها والتحذير من قطيعتها رديفًا لاتقائه تعالى وداخلاً معه فى مآله وعاقبته فقال : ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ ﴾ هكذا بالعطف الإفرادى دون إعادة الفعل فى جانب الأرحام ليكون اتقاء قطيعة الأرحام مستمداً من اتقاء الله بالتزام طاعته وتجنب معاصيه وهذا يدل على أن صلة الرحم العامة بين أبناء الإنسانية من أجل طاعات الله تعالى وأن قطيعة هذه الرحم العامة من أكبر معاصى الله ومساخطه.

بل جعل سبحانه قطيعة الرحم الإنسانية قرينًا للإعراض عن قبول الهداية والسعى فى الأرض بالفساد ، فقال تعالى توبيخًا للطغاة المستبدين من أهل النفاق وعتاة المشركين : ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ (٢٢) ﴾[٢].

فهذا خطاب عام لجميع المفسدين فى الأرض وتحذير من قطيعة الرحم العامة. وهو الأنسب بعموم دعوة الإسلام وإنسانيته الخالدة.

ومن هنا كانت رابطة الإخاء الإنسانى هى الأساس الذى بنيت عليه سائر أحكام سورة النساء من القرآن الحكيم، وهى أحكام تكاد تجمع شرائع الإسلام كلها[٣].

---

(١) سورة الأنفال الآية ٧٥.
(٢) سورة محمد الآية ٢٢.
(٣) الموسوعة فى سماحة الإسلام للشيخ محمد الصادق عرجون ٢ / ٧٠٢ بتصرف.

وفى النهاية نخلص إلى ما يلى :

تحصل صلة الأرحام بأمور عديدة منها :

١ - الزيارة ، والمعاونة، وقضاء الحوائج، والسلام.

٢ - تحصل الصلة بالكتابة إن كان غائباً، نص على ذلك الحنفية والمالكية والشافعية، وهذا فى غير الأبوين (الاتصال بالهاتف).

٣ - المال للأقارب، فإنه يعتبر صلة لهم لقول ﷺ : «الصدقة على المساكين صدقة، وعلى ذى الرحم ثنتان : صدقة وصلة».

وظاهر عبارة الحنفية والشافعية أن الغنى لاتحصل صلته بالزيارة لقريبه المحتاج إن كان قادراً على بذل المال له، ويدخل فى الصلة جميع الإحسان مما تتأتى به الصلة. [1]

● **من فضائل صلة الرحم**

١ - البركة فى الرزق لحديث رسول الله ﷺ : «من سره أن يبسط له فى رزقه، وأن ينسأ له فى أثره، فليصل رحمه». [2]

٢ - رضا الله سبحانه وتعالى لأنه أمر بصلة الرحم، وإدخال السرور على الأرحام .

٣ - زيادة المروءة وزيادة الأجر بعد الموت؛ لأنهم يدعون له بعد موته كلما ذكروا إحسانه. [3]

وقطع الرحم المأمور بوصلها حرام باتفاق، لقوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ (٢٥) ﴾ [4،5].

---

(١) كشاف القناع ٤ / ٢٥٢ .
(٢) رواه البخارى.
(٣) حاشية ابن عابدين ٥ / ٢٦٤ .
(٤) سورة الرعد الآية ٢٥ .
(٥) عن بحث بعنوان صله الأرحام - هيئة التحرير - الموسوعة الإسلامية العامة نشر المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ص ٨٧٨ .

الإحسان إلى النفس
بالإحسان إلى الزوج

من الإحسان إلى النفس إحسان الزوجة إلى زوجها بإعطائه كامل حقوقه قال تعالى : ﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالاً فَخُورًا (٣٦) ﴾ (١)

ففى الآية الكريمة من عناصر الترابط الإنسانى الإحسان إلى الصاحب الملاصق، والمراد به ما يشمل الزوج والزوجة والرفيق فى السفر، والصديق الصدوق.

لقد فرض الإسلام للزوج على زوجته حقوقاً مقابل وفائه بحقوقها. وحق الزوج يتمثل فى طاعته واحترام إرادته، وتحقيق الحياة الهادئة الهانئة التى يبتغيها.

فرض الإسلام للزوج حقوقاً تتمثل فى إسعاده بمعانى الزوجية ومشاعرها، وبعده عن الشقاء والبغض، وتجنيبه مغبة العداء والكراهية، فلا يغدو البيت أمامه جحيماً، فالرجل يشقى فى العمل، ويبذل الجهد، ويتمنى أن يجد فى بيته السعادة والاطمئنان !!!.

إن على الزوجة أن تشعر زوجها بالتقدير والاحترام،وأن تبادله البذل والعطاء، وتحميه من المنغصات والأكدار، ولا تحاول رد قوله، وإهانة إرادته، وتسفيه رأيه، وإشعاره بالجحود والنكران.

وحقوق الزوج على زوجته أوجبها الإسلام ليمكن المرأة من القيام بمسئولياتها الأساسية فى البيت والمجتمع ويتيح للرجل أن يقوم على بيته وأهله.

وأهم هذه الحقوق :

---

(١) سورة النساء الآية ٣٦ .

١ - القوامة

أعطى الإسلام الرجل حق القوامة باعتباره الأقدر والأوفق للقيام بمسئولياتها بحكم طبيعته، وباعتبارها التكليف الذى يتفق مع طبيعته وتكوينه العضلى والحيوى، فالرجل أقدر على الكفاح ومواجهة مصاعب الحياة الطبيعية والاجتماعية[١].

والقوامة مسئولية لا تنقطع ولا تتوقف، يحتاج إليها تدبير المعاش، وتوفير الحماية والأمن للبيت، ثم إنها تتطلب مظهراً خاصاً للقيام بتبعات تدبير المعاش ووسائل الحماية والأمن، كما تتطلب مشاعر نفسية خاصة تنبه الإحساس بمسئوليات القوامة، وتبعاتها، مما لا يمكن منحه إلا للرجولة بكل عناصرها.

ولأن المرأة محل حمل الجنين للرجل، يجب عليه حمايتها من التعرض لاعتداء الآخرين، ومن التبذل، ولا يتم ذلك إلا بالصيانة، وإعطائها فى المجتمع حق الحماية بالرجل فى بيته وتحت رعايته[٢].

ولهذا جاء نص القرآن: ﴿ الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيراً ﴾[٣].

ويرى الشيخ محمود شلتوت أن القاعدة التى قرر القرآن الكريم بها المماثلة بين الزوجين فى الحقوق والواجبات هى: مسئولية الهيمنة والقوامة وجعله المكلف بحق المرأة فيما يصل إلى الخير ويدفع بها عن الشر فقال تعالى: ﴿ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ﴾، وهذه الدرجة ليست درجة السلطان ولا درجة القهر وإنما هى درجة القوامة التى كُلِّفَها الرجل، وهى درجة تزيد فى مسئوليته عن مسئوليتها.

والقوامة واقع عرفته الدنيا من فجر التاريخ إلى اليوم، ولا تحس المرأة بالأمن إلا فى ظل رجل، ولا تهدأ مشاعرها، ويستقيم كيانها إلا فى حماه، ومهما حازت المرأة من ذخائر وحققت من رغبات فإن حنينها إلى حماية الرجل وقوامته أمر فطرى لا يغالب.[٤]

---

(١) د. عمارة نجيب، الأسرة المثلى فى ضوء الكتاب والسنة، ص ١٨٢.

(٢) المرجع السابق، ص ١٨٣.

(٣) سورة النساء الآية ٣٤.

(٤) الأسرة المثلى، د. عمارة نجيب، ص ١٨٩.

● **ماذا لو فقد الرجل القوامة؟**

لقد حذر النبى (ﷺ) من التفريط فى الواجب، فى الحق، وحذر أيضاً من التهاون فى مسئوليات القوامة مشيراً إلى الآثار التى سوف تترتب على التهاون ،ومنها خروج المرأة كاسية عارية... إلخ .

عن ابن عمر قال: سمعت رسول الله (ﷺ) يقول: «يكون فى آخر أمتى رجال يركبون على سرج كأشباه الرجال ينزلون على أبواب المساجد نساؤهم كاسيات عاريات على رؤوسهن كأسنمة البخت العجاف العنوهن فإنهن ملعونات، لو كان وراءكم أمة من الأمم خدمتهن نساؤكم كما خدمكم نساء الأمم قبلكم»[1] .

وفى هذه الأيام فرط كثير من الرجال فى حقهم فى القوامة فكان من نتيجة ذلك خروج النساء من بيوتهن غير ملتزمات، تجدهن متزينات بشتى أنواع الزينة من لباس براق شفاف ضيق يظهر مفاتن الجسد، وحلى تلمع لمعاناً يأخذ بالأبصار، وتعطر نفاذ يثير غرائز الرجال، ومن دهان تدهن به وجهها وأطرافها وحاجبيها - إن كانا باقيين - وناهيك عما تضعه فى الشفتين وبذلك تنقلب فتنة للناظرين، بعد أن كانت قبل ذلك يشق على العيون رؤيتها، وعلى الآذان سماع صوتها.

٢ - الطاعة فى غير معصية

طاعة الزوج فى غير معصية الله تجلب للأسرة الهناء، والمخالفة تولد الشحناء والبغضاء، وتوجب النفور وتفسد عواطف الزوجين، وتنشئ القسوة فى قلبيهما وبالتالى فى قلوب الأبناء. فعن ابن أبى أوفى رضى الله عنه قال: لما قدم معاذ بن جبل من الشام سجد للنبى (ﷺ)، فقال رسول الله (ﷺ): ما هذا؟

قال: يا رسول الله قدمت الشام فوجدتهم يسجدون لبطارقتهم وأساقفتهم، فأردت أن أفعل ذلك بك.

قال: فلا تفعل، فإنى لو أمرت أحداً أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها، والذى نفسى بيده لا تؤدى المرأة حق ربها حتى تؤدى حق زوجها»[2] .

وقال (ﷺ): «لو كنت آمراً أحداً أن يسجد لأحد لأمرت النساء أن يسجدن لأزواجهن لما جعل الله عليهن من الحق»[3] .

---

(١) رواه ابن حبان فى صحيحه واللفظ له ،والحاكم وقال صحيح.

(٢) رواه ابن ماجة وابن حبان فى صحيحه . (٣) رواه أبو داود.

وعن عائشة رضى الله عنها قالت : سألت رسول الله (ﷺ) : أى الناس أعظم حقاً على المرأة ؟ قال : زوجها .

قالت : فأى الناس أعظم حقاً على الرجل؟ قال : أمه [١] .

وعن ابن عمر رضى الله عنهما قال : قال رسول الله (ﷺ) : اثنان لا تجاوز صلاتهما رؤوسهما . عبد أبق من مواليه حتى يرجع . وامرأة عصت زوجها حتى ترجع .

وعنه رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله (ﷺ) يقول : « إن المرأة إذا خرجت من بيتها وزوجها كاره لعنها كل ملك فى السماء ، وكل شيء مرت عليه غير الجن والإنس حتى ترجع » [٢] .

● **فضل المرأة المطيعة لزوجها**

ورد فى فضل المرأة المطيعة لزوجها ، ما روى عن أم سلمة رضى الله عنها قالت : قال رسول الله (ﷺ) : « أيما امرأة ماتت وزوجها عنها راض دخلت الجنة » [٣] .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله (ﷺ) : « إذا صلت المرأة خمسها ، وحصنت فرجها ، وأطاعت بعلها . دخلت الجنة من أى الأبواب شاءت » [٤] .

وروى عنه (ﷺ) أنه قال : « يستغفر للمرأة المطيعة لزوجها الطير فى الهواء ، والحيتان فى الماء ، والملائكة فى السماء ، والشمس والقمر ما دامت فى رضا زوجها » . وأيما امرأة عصت زوجها فعليها لعنة الله والملائكة أجمعين ، وأيما امرأة كلحت فى وجه زوجها فهى فى سخط الله إلى أن تضاحكه وتسترضيه ، وأيما امرأة خرجت من دارها بغير إذن زوجها لعنتها الملائكة حتى ترجع .

والمرأة المطيعة لزوجها لن تمسها النار ، قال (ﷺ) : « ثلاثة لا تمسهم النار :

المرأة المطيعة لزوجها .

والولد البار بوالديه .

والعبد القاضى حق الله وحق مولاه » [٥] .

---

(١) رواه البزار والحاكم .

(٢) رواه الطبرانى فى الأوسط .

(٣) رواه ابن ماجة والترمذى وحسنه .

(٤) رواه ابن حبان فى صحيحه .

(٥) سبق تخريجه .

والمراد بطاعة المرأة لزوجها إنما هى فى حدود الشريعة ، قال (ﷺ) «لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق».

فلو أمرها زوجها بمعصية كإتيانها فى الدبر فلايجوز لها الموافقة ويحرم عليها ذلك ، وكذا لو أمرها بترك صيام رمضان ، أو حج البيت ، أو أمرها بترك الزكاة ، فلا يجوز لها طاعته ، وكذا لو أراد جماعها وهى حائض حرم عليها طاعته فى ذلك[1] .

وفى رد على إحدى الآخوات : احذرى أن تطيعى زوجك فيما يأمرك به مما نهى الله عنه وحرمه إرضاء له فإنه لا يغنى عنك من الله شيئاً . ففى حديث عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها الذى بعثت به إلى معاوية : « من أرضى الله بسخط الناس رضى الله عنه ، ومن أرضى الناس بسخط الله لم يغنوا عنه من الله شيئاً ».

وانتهزى فرصة صفو زوجك وانصحى له أن يكون معك فى طاعة الله واجتناب معاصيه وليكن ذلك منك بالحكمة وحسن التصرف ولين القول واذكرى له أنه بأمره لك بما جاء فى كتابك من طلبه منك التكشف أمام الأجانب والأقارب لأن ذلك يعجبه- إنما يأمرك بالمنكر وليس هذا من شأن المؤمنين بل هذا شأن المنافقين كما قال الله تعالى فى سورة التوبة : ﴿ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٦٧) وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾[2] أعاذ الله زوجك من النفاق ووقاه شر المنافقين ووفقه إلى أن يكون من المؤمنين الذين ذكرهم الله في قوله في هذه السورة: ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٧١) وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾[3]

---

(١) موارد الظمآن ٢ / ٧١ .

(٢) الآيتان ٦٧، ٦٨ .

(٣) سورة التوبة الآيتان ٧١، ٧٢ .

فإذا ذكرت له هذا وكان مهذباً مثقفاً وذا دين كما جاء بكتابك لم يرض لنفسه إلا أن يكون من المؤمنين الذين يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر .

أسأل الله سبحانه وتعالى أن يجعل بينك وبين زوجك من الألفة والمودة والرحمة ما به تقيمان حدود الله تعالى، وأن يصلح لكما شأنكما وأن يسعدكما وذريتكما في الدنيا والآخرة إنه سميع الدعاء، وهو ولينا ونعم المولى ونعم النصير [١] .

٣ - التزام المرأة القرار البيتى

الأصل في الإسلام أن تقر المرأة في البيت، لقول الله تعالى: ﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الأُولَىٰ ﴾ [٢]. يقول الحافظ ابن كثير في تفسير هذه الآية: "الْزمْن بيوتكن فلا تخرجن لغير حاجة"[٣] .

ويقول أبو بكر الجصاص: وفيه الدلالة على أن النساء مأمورات بلزوم البيوت منهيات عن الخروج.

وأمام ما وجب على الزوج من التزامات مادية لصالح زوجته، فقد ألزم المشرع هذه المرأة بالقرار في بيت الزوجية، واعتبر هذا الالتزام حقاً من حقوق الرجل الزوج يُطْلَب من المرأة تنفيذه وعدم الإخلال به وهو - التزام القرار البيتى- أحد الأسباب التى بنيت عليها النفقة الزوجية، إن لم تقل هو السبب الرئيسى والعمود الفقرى لقيام ودوام التأمين المادى لها من قبل الزوج.

فيجب على الزوجة أن تلتزم القرار البيتى لكونه حقاً من حقوق الزوج عليها. مطالبة بتنفيذه والسهر عليه نظير التزامه بكفاية حاجاتها والسهر عليها.

وإذا أخلت المرأة بهذا الواجب دون رضا زوجها أو عذر شرعى فإنها تعرض نفسها لتحمل المسئولية قضاء وديانة، قضاء بإسقاط النفقة، وديانة بتحمل الآثام والأوزار في الآخرة.

وقد ذهب الفقهاء إلى أن خروج المرأة من بيت زوجها دون إذنه أو عذر شرعى معتبر، سقطت تبعاً لذلك نفقتها.

وخالف الظاهرية نظراً لاعتبارهم ارتباط النفقة بوجود العقد [٤] .

---

(١) مختصر فتاوى دار الإفتاء المصرية - جمع الشيخ صفوت الشوادفى ص٢٧٣.

(٢) سورة الأحزاب، الآية ٣٣ .

(٣) تفسير ابن كثير ٣ / ٤٨٢ .

(٤) مسائل فى الحياة الزوجية، د. كامل مرسى، ص٤١ ، ٤٢ بتصرف يسير.

- **الأمر بالقرار فى البيوت ليس خاصًا بأزواج النبى (ﷺ)**

يرى البعض الأمر بالقرار فى البيوت خاص بنساء النبى (ﷺ)دون غيرهن من النساء .

ويرد على هذا بأنه إذا كانت أزواج النبى (ﷺ) وهن أمهات المؤمنين أمرن بالقرار فى البيوت مع تقواهن وطهارتهن فما بال غيرهن من النساء؟

إنهن أولى من أزواج النبى (ﷺ) بأن يؤمرن بالقرار فى البيوت .

وقد صرح المفسرون بأن الأمر بالقرار فى البيوت لجميع النساء ، فيقول الإمام القرطبى فى تفسير الآية المذكورة : معنى هذه الآية الأمر بلزوم البيت ، وإن كان الخطاب لنساء النبى (ﷺ) ، فقد دخل غيرهن فيه بالمعنى .

هذا لو لم يرد دليل يخص جميع النساء. كيف والشريعة مملوءة بلزوم النساء بيوتهن والانكفاف عن الخروج منها إلا لضرورة[1] .

وكما يقول أبو بكر الجصاص فى تفسير الآية : "فهذه الأمور كلها مما أدب الله تعالى به نساء النبى(ﷺ)صيانة لهن وسائر نساء المؤمنين مرادات بها"[2] .

وقد وردت أحاديث كثيرة تدل على أن الأصل للنساء هو القرار فى البيوت لأجل هذا ، فليس على النساء حضور المسجد ، لا لصلاة الجماعة ولا لإقامة الجمعة مع أهميتهما القصوى فى الشريعة الإسلامية [3] .

وأكثر من هذا فقد قرر النبى (ﷺ) أن صلاة المرأة فى بيتها أفضل من صلاتها فى المسجد مع الجماعة ، وليس ذلك إلا حرصا من الشريعة الإسلامية

---

(٢) تفسير القرطبى ١٤ / ١٧٩ .

(١) أحكام القرآن للجصاص ٣ / ٣٦٠ .

(٢) وبالإمكان تصور أهمية صلاة الجماعة من الحديث الذى رواه الإمام البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « والذى نفسى بيده ، لقد هممت أن آمر بحطب فيحط ، ثم آمر بالصلاة ، فيؤذن لها ، ثم آمر رجلاً فيؤم الناس ثم أخالف إلى رجال فأحرق عليهم بيوتهم ، والذى نفسى بيده لو يعلم أحدهم أنه يجد عرقاً سميناً أو مرماتين حسنتين لشهد العشاء ». صحيح البخارى مع فتح البارى ٢ / ١٢٥٥ (عرق) بفتح العين وسكون الراء وهو (قطعة لحم) أما أهمية إقامة الجمعة فقد روى الإمام مسلم عن عبد الله بن عمر وأبى هريرة رضى الله عنهم أنهما سمعا رسول الله ﷺ يقول على أعواد منبره : «لينتهين أقوام عن ودعهم الجمعات أو ليختمن الله على قلوبهم ثم ليكونن من الغافلين»(صحيح مسلم ٢ / ٥٩١) (ودعهم) أى (تركهم) . وروى الإمام أبو داود عن أبى الجعد الضمرى رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : مَن ترك ثلاث جمعٍ تهاوناً بها طبع الله على قلبه » ، سنن أبى داود مع شرح عون المعبود ١ / ٤٠٧ .

على إبقاء المرأة في البيت .يروى الإمام أحمد عن أم حميد الساعدية رضي الله عنها أنها جاءت النبي (ﷺ) فقالت : يا رسول الله إني أحب الصلاة معك .

قال :« وقد علمت أنك تحبين الصلاة معي وصلاتك في بيتك خير لك من صلاتك في حجرتك ، وصلاتك في حجرتك خير من صلاتك في دارك ، وصلاتك في دارك ، خير من صلاتك في مسجد قومك ، وصلاتك في مسجد قومك خير من صلاتك في مسجدي»[1] .

وأما عدم حضور المرأة للجمعة ، فقد روى الإمام الدارقطني عن جابر رضي الله عنه أن رسول الله (ﷺ) قال : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فعليه الجمعة يوم الجمعة إلا مريض أو مسافر أو امرأة أو صبي أو مملوك. فمن استغنى بلهو أو تجارة استغنى الله عنه. والله غني حميد»[2] .

يتبين من هذا كله أن الأمر بلزوم البيت ليس خاصاً بأزواج النبي (ﷺ) بل هو لجميع نساء المؤمنين وإنما خص الله تعالى أزواج النبي (ﷺ) في الخطاب ، تشريفاً لهن[3] .

٤ - ألا تصوم تطوعاً إلا بإذنه

لا يحل للمرأة الصوم في حال حضور الزوج في بلد إقامتهما إلا بإذنه ، لأن حقه مقدم على صوم التطوع ، ومن حقه الاستمتاع بها في أي وقت ، أما الصوم في رمضان فإنه فرض الله تعالى ، يتقدم حقه فيه على حق الزوج فلا يحتاج إلى إذنه ، فإذا كان الزوج قادماً من سفر وهي صائمة فإن له أن يبطل لها صوم التطوع من غير كراهة ، ويشهد له ما في حديث أبي هريرة مرفوعاً :"ومن حق الزوج على زوجته ألا تصوم تطوعاً إلا بإذنه فإن فعلت لم يقبل منها" ، وهو يدل على تحريم الصوم المذكور عليها ، وهو قول الجمهور.

وقال النووي في المجموع : فلو صامت بغير إذنه صح وأثمت ، وأمر قبوله إلى الله تعالى ، ومقتضاه عدم الثواب على هذا الصوم[4] . فعن ابن عباس أن امرأة

---

(١) مسند الإمام أحمد ٦ / ٣٧١ .

(٢) سنن الدارقطني مع التعليق المغني ٢ /٣ ، طبعة دار المحاسن للطباعة ، القاهرة سنة ١٣٨٦ هـ.

(٣) انظر : التدابير الواقية من الزنا ، د. فضل إلهي ، ص٢٥٦ :٢٥٨ .

(٤) كتاب توجيهات من السنة في مجال الأخلاق والأسرة ، د. محمد رشاد خليفة ، ص٢٦٨ .

من خثعم أتت رسول الله (ﷺ) فقالت: يا رسول الله أخبرني ما حق الزوج على الزوجة فإني أيم فإن استطعت وإلا جلست أيماً.

قال: إن حق الزوج على زوجته إن سألها نفسها وهي على ظهر قتب أن لا تمنعه نفسها.

ومن حقوق الزوج على زوجته أن لا تصوم تطوعاً إلا بإذنه، فإن فعلت جاعت وعطشت ولا يقبل منها. ولا تخرج من بيتها إلا بإذنه، فإن فعلت لعنتها ملائكة السماء وملائكة الرحمة وملائكة العذاب حتى ترجع.

قالت: لا جرم ولا أتزوج أبداً [1].

٥ - عدم الإذن بالدخول لأحد يكرهه

من حقوق الزوج على زوجته ألا تأذن لأحد يكرهه الزوج بالدخول درءاً للمفاسد وإبعاداً للشبهات التي تكون سبباً في تنغيص الحياة الزوجية وربما في إنهائها على وجه غير مقبول، قال(ﷺ): «لا يحل لامرأة تؤمن بالله أن تأذن في بيت زوجها وهو كاره، ولا تخرج وهو كاره ولا تطيع فيه أحداً ولا تعزل فراشه ولا تضربه، فإن كان هو أظلم فلتأته حتى ترضيه، فإن قبل منها فبها ونعمت وقبل الله عذرها، وأفلح حجتها ولا إثم عليها، وإن هو لم يرض فقد أبلغت عند الله عذرها»[2].

وسماح المرأة بدخول البيت دون إذن الزوج لا يحل سواء أكان الداخل رجلاً أم امرأة، قريباً لها أم غريباً عنها، إلا إذا كانت تعلم رضا زوجها بذلك.

والحكمة في ذلك أن إدخال الزوجة من لا يرضاه زوجها إلى بيت الزوجية يبعث على الغيرة وسوء الظن، وهما من أسباب القطيعة والشقاق بينهما.

وفي حالة غيبة الزوج يتحتم على المرأة ألا تأذن بدخول البيت إلا لمن رضيه الزوج وأذن في دخوله، لأن الأحاديث الصحيحة أكدت منع الدخول على النساء المغيبات، أما إذا كان الدخول لضرورة أو لمكان منعزل عن بيت الزوجية معد للضيفان فلا حرج في ذلك، فإن الضرورة مستثناة في الشريعة[3].

---

(١) رواه الحاكم وقال صحيح الأسناد.

(٢) المرجع السابق، د. محمد رشاد خليفة، ص٢٦٨، ٢٦٩.

(٣) رواه الطبراني.

ومن خطبة النبى (ﷺ) فى حجة الوداع قوله عليه الصلاة والسلام :

« ألا إن لكم على نسائكم حقاً ، ولنسائكم عليكم حقاً ، فحقكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم من تكرهون ، ولا يأذن فى بيوتكم لمن تكرهون » .

٦ - حفظ مال الزوج وعدم الإنفاق منه إلا بإذنه

الزوجة أصبحت شريكة للزوج ، يتقاسمان معاً هموم الحياة ويواجهان مطالبها ، والرجل يتحمل العبء الأكبر فى هذه الشركة ، وذلك بالمال على وجه خاص . والمرأة تسهم بجهدها أكثر من إسهامها بأى شىء آخر ، وعلى الشريكين أن يرعيا الأمانة حتى يبارك الله لهما .

فالمرأة ملزمة من جهتها بالمحافظة على مال الشركة التى تقوم عليها حياتها ، والمال إن لم يكن نقوداً فهو أثاث ومتاع وأشياء كثيرة يتركها الرجل أمانة عندها ، ويشركها وحدها فى المنزل وهو خارج يكسب العيش ويكافح من أجل الأسرة ، والأمانة مطلب دينى من كل مسلم ،والحديث الشريف جعل المرأة راعية فى مال زوجها وبيته ، فقد كلفها بمهمة صيانته ، وقد مدح النبى ﷺ نساء قريش لأنهن يحافظن على مال أزواجهن ، ففى الحديث « نساء قريش خير نساء ركبن الإبل ، أحناه على طفل وأرعاه على زوج فى ذات يده »[1] .

٧ - عدم الإسراف فى ما تحت يديها من ماله

ويتمثل عدم إسراف الزوجة فى مال زوجها ما يلى :

١ - عدم إرهاق الزوج بطلب الكماليات التى تؤثر على الميزانية تأثيراً سيئاً ، والاهتمام بما هو أهم من الأمور ، سواء فى ذلك ما يتصل بالمأكل والملبس والأثاث أم ما إلى ذلك ، والحذر من تقليد الغير فى الكماليات ، فإنها تؤدى إلى الاستدانة أو الاختلاس - أو الرشوة - إن استجاب الزوج إلى ما تطلبه الزوجة ،وإلا تغير قلبها وكان له أثره السيئ فى حياتهما ، ويجب أن ننظر فى مثل هذه الأمور إلى من هو دوننا وأقل منا ، ولا ننظر إلى من هو فوقنا ، والكماليات لا حدود لها ، وهل تفى الواردات المحدودة ، بمطالب غير محدودة ؟

---

(١) رواه مسلم عن أبى هريرة.

إن الكماليات التي تصر الزوجة على اقتنائها تعد سرقة مقنعة، ولها في الحصول عليها أساليبها الفعالة،يقول المثل الحكيم : إن المرأة مخلوق عجيب، تطلب الفراء زاعمة أنه يقيها البرد، مع أنها تخرج في جورب شفاف وحذاء مكشوف.

ويُذم الإسراف أكثر في اقتناء الحلي، لتأثيره البالغ على الاقتصاد العام للدولة، فهو مال مجمد غير سائل، وتنوع (الموضات) في هذه الأمور يصيب المرأة بسعار المبادرة في الحصول عليها حتى تكون سابقة لغيرها في مضمار التمدن الذي يملأ دماغها. وهذا المسلك هدد كثيراً من الأسر بالإفلاس.

٢ - محاولة الزوجة في إعداد الطعام أن تجعله كافياً لا زيادة فيه كماً ولا كيفاً، فإن الإكثارمنه إما ضار بالصحة إن أكل،وإما صائر إلى الفساد إن ترك دون حفظه وزاد على الحاجة ،وهو لا شك خسارة كان ينبغي أن يعمل حسابها.

٣ - إتقان بعض الأعمال المنزلية الخفيفة، التي توفر أجرها إذا عهد بها إلى غيرها، مثل كي الملابس وحياكتها وزخرفة البيت، وعدم استنكافها من ذلك، وحرصها على تكليف غيرها بأدائها كصورة من حب الظهور أمر يكسر الظهور كما يقولون، ومن هنا ندرك قيمة الوصية العربية : اصحبيه بالقناعة[١] .

٨ - معونة الزوج على الخير

من حقوق الزوج على زوجته معونته على الخير، وأقصد بالمعونة هنا مساعدته على أموره الخاصة، كمساعدته على طلب العلم والاستزادة منه، أو على العبادة، يقول النبي (ﷺ) : «رحم الله رجلاً قام في الليل يصلي وأيقظ امرأته فإن أبت نضح في وجهها الماء، ورحم الله امرأة قامت في الليل فصلت وأيقظت زوجها، فإن أبى نضحت في وجهه الماء»[٢] .

ومن خير الأمثلة على ذلك خبر أم الدحداح التي شجعت زوجها على التصدق بالبستان على الرغم من حاجتهم إليه.

---

(١) الأسرة تحت رعاية الإسلام للشيخ عطية صقر ص ٣٩٠، ٣٩١.

(٢) رواه أبو داود والنسائي وابن ماجة وابن خزيمة وابن حبان في صحيحيهما والحاكم وصححه عن أبي هريرة.

ذكر القرطبي[1] في تفسيره: عن عبد الله بن مسعود قال: لما نزلت ﴿ مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ﴾[2]، قال أبو الدحداح: يا رسول الله، أو إن الله تعالى يريد منا القرض؟

قال: «نعم يا أبا الدحداح».

قال: أرنى يدك، فناوله، قال: فإنى أقرضت الله حائطاً فيه ستمائة نخلة.

ثم جاء يمشى حتى أتى الحائط وأم الدحداح وعياله فيه، فناداها: يا أم الدحداح.

قالت: لبيك. قال: اخرجى، قد أقرضت ربى عز وجل حائطاً فيه ستمائة نخلة.

وفى رواية زيد بن أسلم أن أبا الدحداح عندما سمع هذه الآية أراد أن يتصدق بالحديقتين اللتين لا يملك غيرهما، فأمره رسول الله (ﷺ) أن يجعل أحداهما لله والأخرى له ولأولاده، فجعل خيرهما لله[3].

٩ - المحافظة على شعور الزوج

من محافظة الزوجة على شعور زوجها تنسيق البيت وتعهده بالنظام، بحيث يوحى إلى الزوج بالبهجة والسرور، وذلك بمثل تغيير الأثاث أو تبديل مواضعه أو إضافة زينات تجذب الانتباه وتجدد الشعور بالحياة، فإن الوضع الواحد الرتيب الذى يراه الزوج كل يوم فى المنزل يبعث على السأم كأن الحياة فى نظره شكل واحد وذلك يورث الركود. فلتجدد له الزوجة فترة الشباب ولتشعره عن طريق التغيير والتنسيق أنه بدأ فترة جديدة، وهذا له أثره النفسى الذى لا يخفى.

توفير الجو الهادى له ليستريح ،ويستأنف عمله بنشاط، وبخاصة فى أيام الإجازات وأوقات الراحة ، وينبغى التحكم ، ولو إلى حد ما، فى مرح الأطفال عندما يريد أبوهم الراحة من عناء العمل.

كذلك من المحافظة على شعوره مشاركته وجدانياً فى أفراحه وأحزانه، ومسايرته فيما يحس به إن كان ذلك يسره، ومحاولة إبعاد الهم عنه ما أمكن، كما فعلت السيدة خديجة رضى الله عنها مع الرسول ﷺ حين جاء الوحى لأول مرة، حيث طمأنته بأن الله لا يخزيه أبداً، وذكرت له المؤهلات لذلك، من أنه

(١) ٣ / ٢٣٧ .   (٢) سورة البقرة الآية ٢٤٥

(٣) موسوعة الأسرة للشيخ عطية صقر ٣ / ٤٠٥ .

يصل الرحم ويصدق الحديث ويحمل الكل ويقرى الضيف ويعين على نوائب الحق. ثم أخذته إلى ورقة بن نوفل. وذلك كله حتى تبعد الهم عنه ويسكن قلبه. وكتب السيرة قد وضحت كل ذلك[1].

١٠ - الوفاء للزوج

الوفاء صفة جميلة تظهر من يتحلى بها فى أبهى صورة، والزوجة الوفية حلم جميل وعزيز يراود كل الرجال ويتمنى من عاش هذا الحلم أن لا يصحو منه، ومن وفاء الزوجة لزوجها ألا تفارقه إن أصابته ضراء فى ماله أو بدنه، وأن تظل إلى جانبه تقاسمه مر الحياة كما قاسمته حلوها، وقد قيل: خير النساء المبقية على بعلها، فهى تؤثر راحة زوجها على راحة نفسها.

ومن الوفاء تخليص الزوجة زوجها من ورطة يقع فيها، وتقديم أعز ما تملك لتدخل السرور على قلبه، وتزيح عنه همه، ومن أحسن الأمثلة على ذلك زينب بنت النبى محمد (ﷺ)، فقد ذكرت كتب السيرة أنها كانت زوجة لابن خالتها العاص بن الربيع، ولم تستطع أن تهاجر من مكة مع أبيها، وبقيت عند زوجها وهو مشرك حتى وقع أسيراً فى غزوة بدر، فأرسلت زينب لفدائه، وكان فى الفداء قلادة كانت قد دخلت بها عليه عند الزفاف، ويقال إنها كانت لأمها خديجة رضى الله عنها، فلما رآها النبى (ﷺ) رق لها رقة شديدة، وقال: «إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها وتردوا عليها مالها فافعلوا»،

فقالوا: نعم، فأطلقوه وردوا عليها الذى لها، وشرط عليه رسول الله (ﷺ) أن يخلى سبيل زينب، فهاجرت إلى والدها ثم أسلم بعد ذلك زوجها ولحق بها.

إن زينب كانت تقدر زوجها على الرغم من شركه قبل أن يسلم، لأنه وقف منها موقفاً طيباً حينما أغراه الناس أن يطلقها، لأنها اتبعت قول أبيها وآمنت به، ولكنه قدر قرابتها وحسن خلقها معه وطيب عشرتها له، فكان النبى (ﷺ) يثنى عليه بسبب هذا الموقف، وإذا كان أبو العاص وفياً فزينب ليست بأقل منه وفاء[2].

---

(١) المرجع السابق ٣ / ٣٦٤.

(٢) المرجع السابق ٣ / ٤٠٧ بتصرف.

١١ - عدم التحدث معه أو أمامه عن أشخاص لا يحب ذكرهم

عدم التحدث أمامه عن أشخاص لا يحب ذكرهم ، خصوصاً إذا كان بينها وبينهم صلة ما ، كزواج سابق ، أو اتصال مماثل كخطبة أو صداقة أو غير ذلك ، وألا تكون كبنت ذى الجدين (قيس بن مسعود الشيبانى) التى تزوجها لقيط بن زرارة بن عدس ، ثم مات عنها فتزوجت ابن عمها ، فكانت لا تسلو عن ذكر لقيط .

فقال لها زوجها : أى يوم رأيت فيه لقيطاً أحسن فى عينيك ؟

قالت : خرج يوماً يصطاد ، فطرد البقر ، فصرع منها ، ثم أتانى مختضباً بالدماء ، فضمنى ضمة ، ولثمنى لثمة ، فليتنى مت ثمة .

فخرج زوجها ففعل مثل ما فعل ، ثم أتاها فضمها وقبلها ،ثم قال لها : من أحسن ؟ أنا أم لقيط ؟ قالت : مرعى ولاكالسعدان ، أى لم يعجبها[١] .

١٢- الفراغ إلى نفسه

ومن حقوق الزوج على زوجته أن تترك له وقتاً يتفرغ فيه لنفسه ولفكره ، فإن كان عابداً تركت له وقتاً تطمئن فيه نفسه إلى عبادة ربه بخشوع وخضوع وحضور قلب ، وإن كان عالماً تركت له وقتاً يطالع فيه ، يقرأ الكتب أويؤلف أو يفكر ، وكم سمعنا عن نساء فضليات وفرن لأزواجهن وقتاً للقراءة والبحث والاطلاع مما كان له الأثر الحميد الطيب .

وهنا يجدر بنا أن نبين نقطة مهمة فى هذا المعنى وهى :

إذا كنا نطلب من المرأة أن تترك لزوجها وقتاً للقراءة والاطلاع أو العبادة فإنه على الرجل ألا يضيع حق المرأة عليه بمعنى أن يجهد نفسه فى العبادة ، أو يشغل كل وقته فى القراءة والمطالعة فيحرم زوجته حق الاستمتاع به فللمرأة غريزة كما للرجل غريزة ، فقد روى البخارى عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : قال رسول الله (ﷺ) : «ياعبد الله ألم أخبر أنك تصوم النهار وتقوم الليل»؟

قلت : بلى يا رسول الله .

---

(٢) الأسرة تحت رعاية الإسلام للشيخ عطية صقر ٣ / ٣٦٦ .

قال: « فلا تفعل، صم وأفطر، وقم ونم، فإن لجسدك عليك حقا وإن لعينك عليك حقا، وإن لزوجك عليك حقا»[1].

١٣ - احترام من يجب احترامهم

احترام من يجب احترامهم كالأقارب والأصدقاء ومن يتصل بهم، وبالأخص هؤلاء الثلاثة: والداه (الحم والحماة) وزوجته الأخرى، وأولاده من غيرها.

أ - فالحماة نفسيتها تتغير بعد زواج ابنها الذى كانت تود أن تستأثر بحبه، ولا يتعلق قلبه أو يشغل عنها بغيرها، وقد جاءت الزوجة فاستولت على قلبه وماله، أو على الأقل شاركت والدته فيه. والواجب على الزوجة أن تعرف هذا المعنى، وتقدر موقف الأم، فتحترمها.

ب - الزوجة الأخرى لها مكانتها أيضاً عند زوجها، فلا تحاول أن تصرف قلبه عنها، وهى تعلم مظاهرة عائشة وحفصة زوجتى النبى ﷺ ضد زينب بنت جحش، وتهديد الله لهما بذلك، وكذلك محاولة عائشة صرف قلبه ﷺ عن خديجة. ومحاولتهن صرف قلبه عن عائشة وتوسيط فاطمة فى الموضوع، ونهى النبى ﷺ عن إيذائه فيها.

جـ - أولاد الزوج من زوجة أخرى هم قطعة منه، فإكرامهم إكرام له، وهو لا يحب -مهما كانت علاقته بأمهم- أن يؤذى فيهم، وقد أصبحوا كأولادك فى الحرمة، وأنت مسئولة عنهم أيضاً، فلا تحاولى أن تصرفى قلب أبيهم عنهم، فذلك مستحيل طبعاً، لا يشذ عنه إلا قلة نادرة تنكرت لطبيعتها الإنسانية، وجفوتك لهم تحملهم على الانحراف فى السلوك، ويكونون بذلك مصدر شقاء لوالدهم، وبالتالى لك، فمن عمل صالحاً فلنفسه، ومن أساء فعليها، وما ربك بظلام للعبيد[2].

١٤ - حسن التبعل

إن حسن تبعل المرأة لزوجها خلق حميد، وعمل رشيد، تثاب عليه المرأة ثواباً عظيماً من الله تبارك وتعالى.

---

(١) رواه البخارى.

(٢) الاسرة تحت رعاية الإسلام ٣ / ٣٧٠ - ٣٧١ .

وقد جعل الرسول (ﷺ) (حسن التبعل) بالنسبة للمرأة يعدل شهود الجمع والجماعة، وعيادة المرضى، وشهود الجنائز، والحج بعد الحج، والجهاد فى سبيل الله بالنسبة للرجال،ويتضح ذلك جلياً فى حديث رسول الله (ﷺ) مع وافدة النساءَ إليه وهى : أسماء بنت يزيد بن السكن ابنة عم معاذ بن جبل فقد بايعت الرسول (ﷺ)

في نسوة من نساء الأنصار «وكان يقال لها خطيبة النساء» وروت عن رسول الله (ﷺ) وكانت مجاهدة شهدت اليرموك وقتلت يومئذ تسعة من الروم وعاشت عمراً طويلاً.

كانت فصيحة بليغة فى وسط النساء وكانت تحمل رأيهن إلى رسول الله (ﷺ)بغير وجل أو تردد وكان الرسول يستحسن مقالها ويعجب منه، وكانت من ذوات العقل والدين ورعة تقية. روى عنها أنها أتت النبى (ﷺ)فقالت : إنى رسول من ورائى من جماعة نساء المسلمين كلهن يقلن بقولي وعلى مثل رأيى، إن الله بعثك إلى الرجال والنساء، فآمنا بك واتبعناك ونحن معشر النساء مقصورات مخدرات قواعد بيوت، ومواضع شهوات الرجال، وحاملات أولادهم، وإن الرجال فضلوا بالجماعات وشهود الجنائز والجهاد، وإذا خرجوا للجهاد حفظنا لهم أموالهم وربينا لهم أولادهم، أفنشاركهم فى الأجر يا رسول الله؟

فالتفت الرسول (ﷺ)بوجهه إلى أصحابه فقال: «هل سمعتم مقالة امرأة أحسن سؤالاً عن دينها من هذه». فقالوا: لا والله يا رسول الله .

فقال رسول الله (ﷺ): « انصرفى يا أسماء وأعلمى من وراءك من النساء أن حسن تبعل إحداكن لزوجها وطلبها لمرضاته واتباعها لموافقته يعدل كل ما ذكرت للرجال».

فانصرفت أسماء وهى تهلل وتكبر استبشاراً بما قال لها رسول الله (ﷺ)[1].

---

(١) الاستيعاب على الإصابة، ٤ / ٢٣٣ .

الإحسان إلى النفس
بالإحسان إلى الزوجة

ومن الإحسان إلى النفس الإحسان إلى الزوجة قال تعالى : ﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالاً فَخُورًا (٣٦) ﴾ [١]

ففى هذه الآية الكريمة من عناصر الترابط الإنسانى الإحسان إلى الصاحب الملاصق، والمراد به ما يشمل الزوجة.

إن الإحسان إلى الزوجة خلق كريم، وعمل طيب، يدل على كريم أصل، وعالى همة، يقوم به ذوو القلوب الرحيمة، والعقول الكبيرة الواعية من الأزواج.

وقبل أن نتحدث عن هذا النوع من الإحسان وعن كيفيته، يجدر بنا أن ننبه إلى النقاط التالية :

١ - التعامل مع الزوجة هو تعامل مع مخلوق خلق من ضلع أعوج كما أخبر بذلك المصطفى ﷺ ، فيجدر بالزوج العاقل الحاذق أن يتفهم هذه الحقيقة جيداً، وأن يتعامل مع زوجته من هذا المنطلق ، وعلى هذا الأساس ، وأن يرفق بها، وأن يلتمس لها الأعذار، وأن يحسن عشرتها ،وأن يصبر عليها، وأن يتحمل ما يصدر منها من أفعال وأقوال قد يكرهها، فعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «استوصوا بالنساء خيراً ، فإن المرأة خلقت من ضلع ، وإن أعوج ما فى الضلع أعلاه، فإن ذهبتَ تقيمه كسرته، وإن تركته لم يزل أعوج فاستوصوا بالنساء خيراً» [٢] .

وفى رواية فى الصحيحين : «المرأة كالضلع إن أقمتها كسرتها، وإن استمتعت بها استمتعت بها وفيها عَوَج» [٣] .

---

(١) سورة النساء الآية ٣٦.

(٢) صحيح مسلم ،كتاب الرضاع، باب الوصية بالنساء ٢ / ١٠٩١ .

(٣) عوج : بفتح العين والواو

وفى رواية لمسلم : «إن المرأة خلقت من ضلع ، لن تستقيم لك على طريقة ، فإن استمتعت بها استمتعت بها وفيها عوج ، وإن ذهبت تقيمها كسرتها ، وكسرها طلاقها».

وقوله ﷺ : «فإن المرأة خلقت من ضلع» الكلام هنا على التمثيل والتشبيه كما هو مصرح به فى الرواية الثابتة «المرأة كالضلع» لا أن المرأة خلقت من ضلع آدم كما توهمه بعضهم ، وليس فى السنة الصحيحة شيء من ذلك وإنما هو منقول عن الفصل الثاني من سفر التكوين ،وتأويل قوله تعالى في سورة النساء : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ أى خلق من نوعها زوجها ، وهو كقوله تعالى : ﴿ ومن أياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجًا لتسكنوا إليها ﴾ وقوله : ﴿ والله جعل لكم من أنفسكم أزواجًا ﴾ وقوله : ﴿ فاطر السموات والأرض جعل لكم من أنفسكم أزواجًا ﴾ [1].

والمعنى أنها لا يتهيأ الانتفاع بها إلا بالصبر على عوجها ، وتحمل ما يصدر منها من أقوال وأفعال : قال ﷺ : «لا يفرك [2] مؤمن مؤمنة إن كره منها خلقًا رضى منها آخر ، أو قال غيره» [3] والمطلوب المعاشرة بالمعروف لضمان استمرار العشرة الزوجية ، وحفاظًا على رباط الزوجية ، قال الله تعالى : ﴿ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا (١٩) ﴾ [4].

٢ - إن المرأة تغار والغيرة صفة غالبة فى النساء وهى أشد ما تكون بين الزوجين ، والغيرة بين الزوجين واردة ومطلوبة بحكم طبيعة البشر ، وهى محمودة فى الحالات العادية التى لا يترتب عليها ضرر أو اتهام بالباطل أو اختلاق للأكاذيب فالشرط فيها أن لا تتجاوز الحدود وتصل إلى مرحلة الشك والريبة فتصبح مذمومة «وهى الغيرة العمياء الحمقاء». وقد ورد فى غيرة النساء كثير ، فقد أفرد لهن الإمام البخارى بابًا اسمه «باب غيرة النساء ووجدهن» وذلك لأن صفة الغيرة غالبة فى النساء بحكم تأثرهن وسرعة انفعالهن.

---

(١) رياض الصالحين هامش ص ١٦١ .　　(٢) الفرك : البغض.

(٣) صحيح مسلم كتاب الرضاع باب الوصية بالنساء ٢ / ١٠٩١ .

(٤) سورة النساء الآية ١٩ .

والأحاديث النبوية الشريفة تبين لنا وتوضح غيرة السيدة عائشة رضى الله عنها على رسول الله ﷺ لشدة حبها له ووجدا منها عليه، تقول رضى الله عنها : ما غرت على امرأة لرسول الله ﷺ كما غرت على خديجة لكثرة ذكر رسول الله ﷺ إياها وثنائه عليها، وقد أوحى إلى رسول الله ﷺ أن يبشرها ببيت لها فى الجنة من قصب [1].

إذن فصفة الغيرة صفة ملازمة للمرأة، وهى دليل صحة إن كانت فى حدود المعقول بحيث تحفظ العلاقة بين الزوج وزوجته، علاقة المحبة والمودة التى تشيع الرحمة والسكون والطمأنينة فى محيط الأسرة.

أما إن تجاوزت الحد المعقول فإنها تنقلب إلى غيرة حمقاء ضارة مفسدة مذمومة تعمى صاحبها، وتثير الشك والظنون بين الزوجين ،فيؤدى ذلك إلى فساد الهناءة العائلية ،والشقاء الدائم، وتصبح الحياة جحيماً لا يطاق، وربما أدت إلى انهيار الأسرة، وتشتيت الأفراد، فلابد من التوسط فى كل الأمور وعدم المغالاة أو التطرف فى الغيرة.

٣ - حب الزينة : إن المرأة مفطورة على حب الزينة فى كل بيئة وعصرمنذ القدم بحكم أنوثتها وميلها النفسى، لإظهار فتنتها وجمالها، فنراها تتخذ جميع الوسائل التى تبرز مفاتنها وتزيد من جمالها، وتقف الساعات الطوال أمام المرآة تتجمل وتعتنى بنفسها، وقد أباح الله للمرأة أن تتزين وتتحلى بشتى أنواع الزينة والحلى من ذهب وفضة ولؤلؤ ومرجان على شرط أن يكون تزينها وتجملها لزوجها لا لغيره من الرجال الأجانب، وذلك سدا لذرائع الفتنة والفساد، قال تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ [2].

والمقصود بالحلية : هى اللؤلؤ والمرجان ،والمراد بلبسهم : لبس نسائهم، لأنهن من جملتهم، ولأنهن إنما يتزين بها من أجلهم ،فكأنها زينتهم ولباسهم [3].

كما أباح الله سبحانه وتعالى لبس الحرير والتحلى بالذهب للمرأة دون الرجال، فقد قال ﷺ : «أحل الذهب والحرير لإناث أمتى، وحرم على ذكورها» [4].

---

(١) صحيح البخارى ، كتاب النكاح، باب غيرة النساء ووجدهن ٧ / ٤٧ .

(٢) سورة النحل الآية ١٤ . (٣) الكشاف للزمخشرى ٢ / ٤٠٤ .

(٤) مسند الإمام أحمد بن حنبل، وبهامشه كنز العمال ٣ / ٣٤ .

فالزينة ولبس الحلى صفة مرغوبة ومطلوبة فى المرأة، يحبها الرجل، ويرغب فيها، فعلى الزوجة أن تتزين لزوجها وتلبى ما يرغبه، فى الوقت الذى تشبع غريزتها فى حب التزين وإظهار الجمال والفتنة.

٤ - الضعف فى الخصومة: عرف عن النساء بأنهن سريعات الانفعال بحكم طبيعتهن الحساسة والعاطفية، وتَغلُّب صفة الحنان والتأثر.

لذا: فإنهن يضعفن عند الخصومة ويفقدن الحجة ولايستطعن مجاراة الخصوم وهذه الصفات لازمة لهن بحكم وظيفتهن «الأمومة والزوجية» التى يقمن بها، وهى صفة محبوبة عند الرجل لأنها تبعث فى نفسه الزهو والفخر بقوته، وعجزها وضعفها وحاجتها إليه، فى الوقت نفسه فإنها تسعد بركونها إلى الرجل، والتجائها إليه، وذلك لب قانون القوامة، فالمرأة برهافة حسها، وشدة عاطفتها، تدرك جانب البأس فى الرجل، فتذوق منه طعما يملأ وجدانها بالإعجاب والرضى، ويقابل ذلك من الرجل بارتياح ورضاً بامتيازه، وهو طعم يرضى طموحه، ويؤكد ثقته بنفسه، ويجدد عناصر القوة والعزيمة فيه، وهو من عوامل السكن الذى قرره القرآن [(١)].

٥ - قوة الاندفاع وسرعة الانفعال: نظراً لتكوين المرأة النفسى فإنها تمتاز بشدة التأثير فى الناحية النفسية، وبشدة الحساسية، وقوة الانفعال، وعدم التريث، وقد ورد بيان ذلك فى السنة النبوية الشريفة، فعن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما أنه قال: خسفت الشمس على عهد النبى ﷺ، فصلى الناس معه .... إلى أن قال: قال رسول الله ﷺ: «رأيت النار فلم أر كاليوم منظرا قط، ورأيت أكثر أهلها النساء

قالوا: لم يا رسول الله؟

قال: «بكفرهن»

قيل: يكفرن بالله؟

قال: «يكفرن [(٢)] العشير [(٣)] ويكفرن الإحسان لو أحسنت إلى إحداهن الدهر ثم رأت منك شيئاً قالت: ما رأيت منه خيرا قط» [(٤)].

---

(١) الإسلام وقضايا المرأة المعاصرة للبهى الخولى ص ٢٣٦ ط٣.

(٢) أراد بالكفران: ضد الشكر، وهو جحود النعمة والإحسان.

(٣) العشير: الزوج. وهو من الاختلاط والمعاشرة.

(٤) صحيح البخارى، كتاب النكاح، باب كفران العشير ٧/ ٤١، ٤٢.

فسرعة الانفعال والحساسية المرهفة تجعل من المرأة متسرعة فى إصدار الحكم، وجحود النعمة، ونكران الجميل، وهو أمر ملاحظ واقع فى مجتمع النساء، لذلك ورد التحذيروالتهديد لمثل هؤلاء النسوة اللاتى ينكرن الجميل،ويجحدن الإحسان، ونص الحديث يظهر أن معظم النساء يتصفن بهذه الصفة.

لكننا لا ننكر أن من النساء من تغلبن على الهوى والشيطان فكن مثاليات زكاهن العقل والإيمان، واندفعن وراء الحق، وقد قدم القرآن الكريم لنا نماذج طيبة لمثل هذا النوع من النساء الصالحات.

● استنتاج

مما تقدم نستنتج أن تكوين المرأة النفسى والوجدانى يختلف تماما عن الرجل وإن كان الرجل يشاركها فى بعض الصفات، إلا أن المرأة تغلب عليها عاطفة الرحمة والحنان، نجدها عاطفية، حساسة، نموذجا للرقة والدعة، تحب التضحية والإيثار والبذل فى سبيل غيرها.

كذلك : نجدها سريعة التأثر، متقلبة المزاج بين السرور والألم، والفرح والترح. زودها الله تبارك وتعالى بخصائص تجعلها أقدر وأصبر على أعمال البيت، والقيام بوظيفتى «الزوجية والأمومة»، ولو كانت غير ذلك لأدى هذا الأمر إلى الصدام بينها وبين الرجل الذى زود بخصائص تؤهله للكفاح والعمل ساعات طويلة.

لذا : اقتضت الحكمة الإلهية أن تزود المرأة بخصائص أنثوية رقيقة، وهى لا تعدو أن تكون بنت الرجل وزوجته وأخته وأمه، له القوامة وتحمل المسئولية، وهى المأمورة المطيعة »[1] .فسبحان الخلاق العظيم الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى .

● حقوق الزوجة على زوجها

بعد أن بينا ووضحنا طبيعة المرأة وتكوينها النفسى والوجدانى وكيف أنها تختلف تماما عن الرجل نبدأ بعون الله تعالى فى الحديث عن حقوها على زوجها[2] :

---

(١) هذا القدر من كتاب مشكلات المرأة المسلمة المعاصرة وحلها فى ضوء الكتاب والسنة للدكتورة مكية مرزا بتصرف.

(٢) هذا الجزء من هذا المبحث من ص٣٧٨ :٣٩٣ مأخوذ باختصار وإيجاز عن كتابنا نظام الأسرة فى الإسلام فمن أراد التوسع فعليه بالرجوع إلى الأصل.

١ - الصداق

الصداق شرعاً هو : « ما وجب بنكاح أووطء أو تفويت بضع قهراً كإرضاع ورجوع شهود».

فالصداق لإعزاز المرأة ورفعة قدرها وليبين أن هذا العقد له مكانة عالية، فقد جعله الله على الرجل دون المرأة لأنه أقدر على الاكتساب، فكان الصداق عليه ككل التكاليف المالية، ولأن الزوجة تنفق عادة فى إعداد نفسها وجهازها مالاً يعاونها فيه أبوها وأقاربها، والمنفعة فى هذا تعود على الزوج أيضاً، فكان من المناسب أن يساهم الرجل فى ذلك بصداق يدفعه لها، ثم إن الصداق فى أحوال كثيرة سبب يمنع الزوج من التسرع فى الطلاق، لما يترتب عليه من دفع مؤخر الصداق، ودفع صداق للمرأة التى يتزوجها بعد ذلك، إلى جانب كونه ضمانا للمرأة عند الطلاق[١] .

● مشروعية الصداق وأدلته

لقد تضافرت الأدلة على مشروعية الصداق وعلى أنه واجب، فلا يملك الزوج ولا الزوجة، ولا أولياؤها الاشتراط فى العقد على أن يكون الزواج بدون صداق. والدليل على وجوب الصداق: من الكتاب قوله تعالى: ﴿ وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً ﴾.

والخطاب فى الآية موجه إلى الأزواج كما قال ابن عباس وقتادة وابن زيد وابن جريج - والأمر فيها للوجوب لعدم وجود قرينة تصرفه عنه، فالمهر واجب على الزوج لزوجته - وكذلك قوله تعالى:﴿ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً ﴾.

والدليل من السنة قوله (ﷺ)لمريد الزواج:« التمس ولو خاتماً من حديد». فدل ذلك على وجوب الصداق حتى ولو كان شيئاً قليلاً.

كذلك لم يثبت عن النبى (ﷺ)أنه ترك المهر فى أى زواج. ولو كان غير واجب لتركه ولو مرة فى العمر ليدل على عدم وجوبه. لكن لم يتركه فدل هذا على وجوبه.

---

(١) أحكام عقد الزواج فى الفقة الإسلامى، د. عبد العزيز عزام وآخر ص ١٨٠ .

وأما الإجماع: فقد انعقد منذ بعثة الرسول (ﷺ) حتى يومنا هذا على مشروعية الصداق، وأنه واجب.

ومع الاتفاق على أن المهر واجب، فهل يجب بالعقد أم بالدخول فيه اختلاف مشهور على قولين أصحهما بالدخول، وهو ظاهر الآية[1].

• الصداق نحلة وعطية

فرضت الشريعة للزوجة منحة تقدير تحفظ عليها حياء ها، يتقدم بها الزوج معبراً عن تقديره إياها وعن رغبته في إتمام الزواج بها.

فالصداق ليس ثمناً للمرأة وإنما هو منحة ونحلة وعطية قال الله تبارك وتعالى: ﴿ وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَّرِيئًا ﴾[2].

والصداق حق من حقوق الزوجة على زوجها، قال ابن العربي[3] رحمه الله: النكاح عقد معاوضة انعقد بين الزوجين فكل واحد منهما يدل عن صاحبه، ومنفعة كل واحد منهما لصاحبه عوض عن منفعة الآخر، والصداق زيادة فرضه الله تعالى على الزوج لما جعل له في النكاح من الدرجة، ولأجل خروجه عن اسم العوضية جاز إخلاء النكاح عنه، والسكوت عن ذكره ثم يفرض بعد ذلك بالقول أويجب بالوطء.

ولم تقيد الشريعة الإسلامية الصداق بحد أدنى ولا بحد أعلى بل تركت ذلك لاتفاق الطرفين ورضا المرأة صاحبة المنفعة وقصرت تدخلها على التيسير ومراعاة حال الزوج والنظر إليه على أنه حق المرأة لا يصح هضمه مهما كانت قيمته[4].

٢- النفقة

النفقة حق من حقوق الزوجة على زوجها منذ قيام الحياة الزوجية، بهذا قضت الشريعة الإسلامية سواء أكانت الزوجة غنية أم فقيرة ومن النصوص القرآنية الشاهدة على ذلك قول الحق تبارك وتعالى: ﴿ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ

---

(١) المرجع السابق، ص ١٨٢ ، ١٨٣ .

(٢) سورة النساء: الآية ٤ .

(٣) أحكام القرآن ١ / ٣٧١ .

(٤) الأسرة المثلى، د. عمارة نجيب ص ٧٨ .

ومن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴾ [١].

وقوله تعالى: ﴿ نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ﴾ [٢].

وقوله سبحانه: ﴿ أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ وَإِن كُنَّ أُولاتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَىٰ ﴾ [٣].

ومن السنة قوله (ﷺ) في حجة الوداع: « استوصوا بالنساء خيراً فإنما هن عندكم عوان ليس تملكون منهم شيئاً غير ذلك، إلا أن يأتين بفاحشة مبينة فإن فعلن فاهجروهن فى المضاجع واضربوهن ضرباً غير مبرح، فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا. إن لكم على نسائكم حقاً، ولنسائكم عليكم حقا، فأما حقكم على نسائكم ألا يوطئن فرشكم من تكرهون، ولا يأذن فى بيوتكم لمن تكرهون، ألا وحقهن عليكم أن تحسنوا إليهن فى كسوتهن وطعامهن».

روى معاوية القشيرى، أن النبى (ﷺ) سأله رجل: ما حق المرأة على الزوج؟

قال: «تطعمها إذا طعمت، وتكسوها إذا اكتسيت، ولا تضرب الوجه ولا تقبح، ولا تهجر إلا فى البيت»[٤].

ونفقة المرأة تشمل الطعام والشراب والكسوة وما تسلتزمه الحياة الطبيعية اللائقة بالزوجين دون سرف ولا تقتير.

والإسلام يجنح دائماً إلى الوسط ولا يوصى بالتعلق بالترف أو الحرص على التنعم، بل يؤثر عنصرالمجاهدة والتحمل على الاستماتة فى المناعم وتكلف ألوان المتاع.

وإليك نموذجاً راقياً لحسن تحمل المرأة ظروف زوجها فقد جاءت فاطمة ابنة الرسول (ﷺ) تطلب من أبيها خادماً يعينها على عمل البيت فنصحها بالإكثار من الذكر والتسبيح والتيقظ للعبادات فذلك خير لها من خادم[٥].

---

(١) سورة الطلاق الآية ٧.

(٢) سورة البقرة الآية ٢٢٣.

(٣) سورة الطلاق الآية ٦.

(٤) رواه أحمد وابن ماجة وأبو داود، وصححه الحاكم وا بن حبان.

(٥) القصة مروية فى البخارى.

وليس هنا بأس فى اتخاذ خادم، ولكن الأولى بذل الطاقة الممكنة بدلاً من العبث وصرف الجهد فيما لا يفيد [1].

٣ - التعلم

يحرص الإسلام على رفع المستوى العلمي والديني للرجل والمرأة على السواء، فطلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة، ولا يسوغ للرجل أن يحول بين المرأةوبين الثقافة الدينية والعلمية والاجتماعية فثقافتها أعون لها على أداء رسالتها فى الحياة أكمل أداء ، وآمن لها من الزلل والزيغ والانحراف[2].

لذا كان من حق المرأة على زوجها أن يعلمها أحكام الصلاة، وأحكام الحيض، وأن يلقنها ما يذهب عن قلبها البدع والمنكرات، بأن يبين لها سلامة الاعتقاد، وإلا خرجت لسؤال العلماء، إن لم يسأل لها، وليس له منعها إن أرادت معرفة ضروريات الدين وأساسياته، إلا إذا قام بها أو سأل لها، وعليه أن يخرج معها كى تتعلم حاجيات دينها، فإن رفض ومانع كان شريكاً فى الإثم [3].

وقد حرصت المرأة المسلمة فى العصور الأولى على التعلم والتفقه فى أمور الدين ولم يكن الحياء الذى تتصف به يمنعها من السؤال عن أمور دينها.

تقول السيدة عائشة رضى الله عنها: نعم النساء نساء الأنصار، لم يمنعهن الحياء أن يتفقهن فى الدين»[4]. فقد كن يسألن رسول الله (ﷺ) وأصحابه عما جهلن منه ولم تكن رعايتهن لحقوق الزوج والأولاد البالغة تحول بينهن وبين التلقي والتعلم والمنافسة فى مجال الخير، والمسارعة لاكتساب المعارف ابتغاء رضوان الله وثوابه، فقد كانت كل واحدة منهن تسارع إلى زوجها أو أبيها أو أخيها عندما يعود إلى البيت فتسأله عما نزل على رسول الله من القرآن وما صدر عنه من أحكام فى أمور الدين والحياة فيخبرها بذلك فتسمع منه وتحفظ، وتعلم بالتالى نسوة المسلمين شئون دينهن بالإضافة إلى حرصهن البالغ على حضور مجالس العلم لدرجة أنهن طلبن من رسول الله (ﷺ)أن يخصص لهن

---

(١) د. مصطفى عبد الواحد، الأسرة فى الإسلام، ص٥٧ .

(٢) منهج السنة فى الزواج، د. محمد الأحمدى أبو النور، ص٤١٢

(٣) إحياء علوم الدين، ٤ / ٧٣٠ .

(٤) صحيح البخارى، كتاب العلم، باب الحياء فى العلم، ١ / ٤٤ .

يوماً، فعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال: قالت النساء للنبى (ﷺ) غلبنا عليك الرجال فاجعل لنا يوماً من نفسك، فوعدهن يوماً لقيهن فيه فوعظهن، وأمرهن[1].

٤ - العدل فى المعاشرة

من حق الزوجة على زوجها العدل فى النفقة والبيتوتة إذا كان له أكثر من زوجة، إذ هو مقتضى المعاشرة بالمعروف التي أمر الله سبحانه وتعالى بها في قوله جل شأنه: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا وَلا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلاَّ أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾[2].

أن يعدل الزوج بين زوجاته عند التعدد، وهذا ما بينته السنة المطهرة، فقد قال رسول الله (ﷺ): « من كان له امرأتان فمال إلى إحداهما جاء يوم القيامة وشقه مائل»[3].

وروى عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت: كان رسول الله (ﷺ) يقسم بيننا فيعدل. ثم يقول: « اللهم هذا قَسْمى فيما أملك، فلا تلمنى فيما لا أملك»[4].

كان (ﷺ) يعدل بين نسائه، وإذا أراد السفر لغزو أو غيره أقرع بين نسائه. فمن خرجت لها القرعة أخذها.

والعدل فى القسم هو ما عليه الأئمة بالاتفاق ولا نعلم بينهم خلافاً فى وجوب التسوية بين الزوجات[5].

ولا ريب أن الذى لا يعدل بين نسائه يحرم إحداهن من شهواتها وقد يضطرها إلى الانحراف فيبوء بإثمها وإثمه.

٥ - الترفيه البرىء

ولما كان حق الزوج على زوجته القرار فى البيت، وألا تخرج منه إلا لعذر مقبول، كان من حقها عليه أن يهيئ لها الترفيه البرىء، ترفيه لا يصل إلى حد فساد خلقها وإسقاط هيبته من نفسها، بل عليه أن يكون معتدلاً متوسطاً[6].

---

(١) د. مصطفى عبد الواحد الأسرة فى الإسلام ص٦٣.
(٢) سورة النساء الآية ١٩.
(٣) أخرجه أصحاب السنن واللفظ لأبى داود.
(٤) فتح القدير، ٣ / ٤٣٢.
(٥) يرجع فى هذا إلى كتب الفقه.
(٦) مسائل فى الحياة الزوجية، د. كامل مرسى، ص٨٠.

روى عن عائشة رضى الله عنها، قالت: سمعت أصوات أناس من الحبشة، وغيرهم يلعبون في يوم عشوراء، فقال لى رسول الله (ﷺ): «أتحبين أن ترى لعبهم»؟ قالت: قلت نعم.

فأرسل إليهم فجاءوا، وقام رسول الله (ﷺ) بين البابين، فوضع كفه على الباب، ومد يده، فوضعت ذقنى على يده، وجعلوا يلعبون وأنظر وجعل رسول الله (ﷺ) يقول: حسبك؟ وأقول: اسكت. مرتين أو ثلاثة.

ثم قال: يا عائشة حسبك؟ فقلت: نعم، فأشار إليهم فانصرفوا.

فقال رسول الله (ﷺ): «أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً وألطفهم بأهله»[1].

وعنها أن حبشاً كانوا يلعبون بحراب لهم، قالت فكنت أنظر من بين أذنى رسول الله (ﷺ) وعاتقه حتى كنت الذى صددت. وفى رواية: انصرفت.

قالت: قال رسول الله (ﷺ): «العبوا يابنى أرفدة[2]، ليعلم اليهود والنصارى أن فى ديننا فسحة، إنى بعثت بحنيفية سمحة».

فالنبى (ﷺ) قد صرح بالقصد إلى الفسحة والتوسعة والسهولة مشيراً إلى ما كانت عليه شرائع اليهود والنصارى من الأغلال والآصار التى منبعها تشديدهم على أنفسهم وتعنتهم على أنبيائهم، أما نحن فعلى الملة الحنيفية فى التوحيد، السمحة فى العمل.

وليكن ترفيهها البرىء بعيداً عن المحاذير الشرعية، فلا يعصى الله بها، وبالإمكان الخروج إلى أمكنة النزهة ذات الهواء الطلق، والمناظر الحسنة. أو إلى أمكنة الترفيه البرىء المحافظ على العفة والأخلاق والفضيلة كما فى تفرج أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها، على لعب أناس الحبشة، ولا يقاس عليه ما يوجد اليوم من مسارح وسينيمات ونحوها، نظراً للاختلاط المحظور، ونظراً لفساد برامجها، ولعدم العفة والبراءة فيها[3].

ويوم يلتزم الإعلام المنهج الإسلامى المربى المثمر، يومئذ يكون وسيلة ترفيه بريئة تساعد على نشر المثل الفاضلة والقيم العالية التى يحرص الجميع على متابعتها والإفادة منها.

---

(١) رواه الترمذى والنسائى واللفظ له، والحاكم وقال: رواته ثقات على شرط الشيخين.

(٢) بنو أرفدة: لقب للأحباش.

(٣) مسائل فى الحياة الزوجية، د. كامل مرسى، ص ٨١.

٦ - الاعتدال فى الغيرة

لما كانت الغيرة من طابع العبد، كان من حق الزوجة على زوجها أن يكون معتدلاً فى غيرته، فلا يتغافل عن مبادئ الأمور التى تخشى غوائلها، ولا يبالغ فى إساءة الظن والتعنت وتجسس البواطن، لنهى النبى (ﷺ) عن تتبع عورات النساء، وفى هذا الشأن يقول الرسول (ﷺ): «من الغيرة ما يحب الله ومنها ما يبغض الله فأما التي يحبها الله فالغيرة فى الريبة، وأما الغيرة التى يبغضها الله فالغيرة فى غير ريبة»[١].

فهذه الغيرة الزائدة من سوء الظن الذى نهينا عنه، فإن بعض الظن إثم[٢].

فالمسلم بطبيعة الحال يغار فى غير غلو والرسول (ﷺ) يغار ورب العزة يغار.

روى أن معاذاً رضى الله عنه رأى امرأة تطلع فى الكوة فضربها.

وروى أنه رأى امرأته وقد دفعت إلى غلامه تفاحة قد أكلت منها فضربها ،وذلك سداً للذرائع وأبواب الفسق قبل أن يتسع الخرق على الراقع.

فإهداء التفاحة للغلام صدقة، ولكن أن تعطيه تفاحة قضمت منها قطعة يكون فيها احتمال إثارة الغلام جنسياً حين يسبح بخياله إلى موضع القضم فى التفاحة ويمتد إلى تخيل فمها . . .ثم. . . ثم، والمحروم من شيء يعدو فى خياله نحوه عدواً لا يستطيع الغارقون فيه أن يلاحقوه. فالغيرة هنا واجبة[٣].

ومن أجل ذلك كان أصحاب رسول الله (ﷺ)يسدون الكوى والثقب فى الحيطان ،لئلا تطلع نساؤهم إلى من لا يحل لهن النظر إليهم.

ومن الحرص على عفاف الرجال وبخاصة الشباب، وعلى نفس الزوج من أن تلتهب بالغيرة: ما عليه المحافظات من بناتنا وأخواتنا المسلمات، حين يحرصن على ألا يوجدن فى غرفة الاستقبال. أو المكان الذى ينام فيه الضيف أى آثار من خصائص استعمال المرأة ولبسها، ويقظتها لدورة المياه حين يطلبها الضيف، إذ تكون نظيفة من ثيابها الخاصة، كما هى نظيفة من الأدران. وحرصهن كذلك على ألاتنشر الثياب، وبخاصة الملابس الداخلية لهن فى مكان واضح يجتمع فى

---

(١) رواة أبو داود والنسائى وابن ماجة. (٢) مسائل فى الحياة الزوجية، ص ٨٣ .

(٣) المرأة فى التصور الإسلامى، عبد المتعال الجابرى، ص١٧٢ .

مواجهته الشباب أو يلعبون. وإذا لزم الأمر وارت ذلك بالملاءات المغسولة أو بملابس الرجال وغير ذلك، وحرصهن على عدم الظهور فى الشرفات بدون خمار[1].

٧ - إحسان الظن بالزوجة

من حق الزوجة على زوجها أن يحسن الظن بها وأن لا يتتبع عوراتها لنهى النبى (ﷺ) عن ذلك فضلاً عن كونه لا يتلاءم مع المعاشرة بالمعروف.

روى عن جابر رضى الله عنه أنه قال: نهى الرسول (ﷺ) أن يطرق الرجل أهله ليلاً يتخونهم أو يطلب عثراتهم[2].

وفى رواية: كان النبى (ﷺ) يكره أن يأتى الرجل أهله طروقاً[3].

وفى رواية: إذا أطال أحدكم الغيبة فلا يطرق أهله ليلاً[4].

وروى أيضاً: «لا تلجوا[5] على المغيبات فإن الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم»[6].

وفى هذه الروايات من الأدب النبوى ما فيها، فالنبى (ﷺ) ينهى الرجل عن أن يطرق باب بيته على أهله ليلاً يتخونهم أو يحاول أن يقف على عثرة.

وقد ثبت أن النبى (ﷺ) وهو القدوة والأسوة قدم المدينة نهاراً فأناخ بظاهرها رغم إحساسه (ﷺ) بلهفة أصحابه رضوان الله عليهم فى العودة إلى الزوجة والولد، وقال (ﷺ): «انتظروا حتى ندخل عشاء - يعنى آخر النهار - حتى تمتشط الشعثة وتستحد المغيبة».

وقد لزم أصحابه رضوان الله عليهم منهجه (ﷺ) وطبقوه حتى إن بعضهم كان لا يدخل بيته إلا إذا تنحنح وبزق. فعن زينت امرأة عبد الله بن مسعود رضى الله عنها قالت: كان عبد الله إذا جاء من حاجة فانتهى إلى الباب، تنحنح وبزق كراهة أن يهجم منا على أمر نكرهه.

والرجل يجب أن يرى زوجته فى أجمل صورة، مستعدة لاستقباله دائماً. فلو أن الرجل دخل بيته دون سابق علم أو طرق طروقاً فقد يجد ما يكره.

(١) المرجع السابق، ص ١٧٣.
(٢) رواه مسلم
(٣) رواه البخارى
(٤) رواية البخارى أيضاً.
(٥) لا تلجوا: أى لا تدخلوا
(٦) رواه أحمد والترمذى.

عن ابن عمر قال: نهى رسول الله (ﷺ) أن تطرق النساء ليلا فطرق رجلان كلاهما وجد مع امرأته ما يكره.

وفي حديث ابن محارب عن جابر: أن عبد الله بن رواحة أتى امرأته ليلاً وعندها امرأة تمشطها فظنها رجلا فأشار إليها بالسيف فلما ذكر للنبي (ﷺ) نهى أن يطرق الرجل أهله ليلاً[1].

٨ - عدم غياب الزوج مدة طويلة

يغادر كثير من الأزواج بلادهم غير مبالين بمسئوليتهم تجاه زوجاتهم، ولا يعودون إلا بعد مدة طويلة، تاركين زوجاتهم معلقات، لا ذوات أزواج فيحظين بحقوقهن الزوجية ولا هن أيامى فيتزوجن من آخرين، وفي هذا هضم لحقوقهن، لهذا بين الفقهاء أنه لا يجوز للزوج الغياب عن أهله بغير عذر لمدة غير محددة، واستدلوا على هذا بقصة عمر بن الخطاب رضى الله عنه. فقد نقل الإمام ابن القيم عن سعيد بن جبير قال: كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه إذا أمسى أخذ درته ثم طاف بالمدينة، فإذا رأى شيئاً ينكره أنكره، فبينما هو ذات ليلة يعس إذ مر بامرأة على سطح وهي تقول:

تطاول هذا الليل واخضل جانبه ... وأرقنى أن لا خليل ألاعبه

فوالله لولا الله لا رب غيره ... لحرك من هذا السرير جوانبه

مخافة ربى والحياء يصدنى ... وأكرم بعلى أن تنال مراكبه

ثم تنفست الصعداء وقالت: لهان على عمر بن الخطاب ما لقيت الليلة.

فضرب باب الدار فقالت: من هذا الذى يأتي إلى امرأة مغيبة هذه الساعة؟

فقال: افتحى فأبت،فلما أكثر عليها قالت: أما والله لو بلغ أمير المؤمنين لعاقبك،

فلما رأى عفافها قال: افتحى فأنا أمير المؤمنين.

قالت: كذبت ما أنت بأمير المؤمنين،

فرفع صوته وجهر لها فعرفت أنه هو،ففتحت له.

فقال: هيه كيف قلت؟

---

(١) فتح البارى، ٩ / ٣٤١.

فأعادت عليه ما قالت ،

فقال : أين زوجك ؟

قالت : بعث كذا وكذا .

فبعث إلى عامل ذلك الجند أن سرح فلان بن فلان ،

فلما قدم عليه قال : اذهب إلى أهلك ، ثم دخل على حفصة ابنته .

فقال : أى بنية ... كم تصبر المرأة عن زوجها ؟

قالت : شهراً واثنين وثلاثة ، وفى الرابع ينفد الصبر ، فجعل ذلك أجلاً للبعث[1] .

ويقول الإمام ابن القيم تعليقاً على هذه القصة : وهذا مطابق لجعل الله سبحانه وتعالى مدة الإيلاء أربعة أشهر ؛ فإنه سبحانه وتعالى علم أن صبر المرأة يضعف بعد الأربعة ولاتحتمل قوة صبرها أكثر من هذه المدة ، فجعلها أجلاً للمُولى ، وخيرها بعد الأربعة إن شاءت أقامت معه وإن شاءت فسخت نكاحه ، فإذا مضت الأربعة أشهر عيل صبرها[2] .

فإذا كان المجاهد لا يجوز له أن يغيب عن أهله لمدة أكثر من أربعة أو ستة أشهر (على اختلاف الروايتين) فكيف يجوز الغياب لأكثرمن هذه المدة لغير غرض الجهاد .

وقد ذكر ابن قدامة : قيل للإمام أحمد بن حنبل ، كم يغيب الرجل عن زوجته ؟

قال : ستة أشهر ، يكتب إليه فإن أبى أن يرجع فرق الحاكم بينهما[3] .

• الحقوق المشتركة بين الزوجين

من إحسان كل من الزوجين إلى الآخر أن تؤدى الحقوق المشتركة بينهما والواجب على كل واحد منهما أن يؤدى ما عليه تجاه الآخر ، ومن أهم هذه الحقوق ما يلى :

• حسن العشرة

لقد حث النبى (ﷺ) على الإحسان إلى النساء وحسن عشرتهن ، فقد روى

---

(١) روضة المحبين ونزهة المشتاقين ، ص٢٢٦ ، ٢٢٧ . (٢) المرجع السابق ، ص٢٢٧ .

(٣) المغنى ، ٧ / ٣١ ، وغنى عن الذكر أن تفريق الحاكم بين الزوجين فى حالة غياب الزوج رهن بطلب الزوجة التفريق . (التدابير الواقية من الزنا فى الفقة الإسلامى ، د. فضل إلهى ص١٨٠ : ١٨١) .

ابن ماجة والترمذى من حديث عمر بن الأحوص الجشمى أنه سمع رسول الله (ﷺ) يقول فى حجة الوداع: «استوصوا بالنساء ألا إن لكم على نسائكم حقاً، ولنسائكم عليكم حقاً، فحقهن عليكم أن تحسنوا إليهن فى كسوتهن وطعامهن، وحقكم عليهن ألا يوطئن فرشكم من تكرهون، ولا يأذن فى بيوتكم لمن تكرهون».

وروى البخارى فى صحيحه عن أبى هريرة عن رسول الله (ﷺ) أنه قال: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذى جاره واستوصوا بالنساء خيراً فإنهن خلقن من ضلع أعوج وإن أعوج شىء فى الضلع أعلاه، فإن ذهبت تقيمه كسرته، وإن تركته لم يزل أعوج فاستوصوا بالنساء خيراً».

وقال ابن عباس رضى الله عنهما: إنى أحب أن أتزين لامرأتى كما أحب أن تتزين لى[1].

على أن المرأة ذات الدين تكون حريصة دائماً على إحسان العشرة لزوجها إرضاء لربها، فلا تفعل ما يكرهه أو يسىء إليه، ولا تحدثه بما يغضبه أو يثير نفسه. وغالباً ما تعرف المرأة مداخل زوجها النفسية وتتحسس الطريق إلى قلبه وتهتدى إلى مفتاح شخصيته فهى بمعاشرته أصبحت تدرك بخبرتها ما يحزنه وما يسره، وما يفتح قلبه لها وما يغفله عليها، وتستطيع إذا ما عرفت ذلك أن تبادر إلى إدخال السرور عليه عندما تحس أن هناك ما يغضبه أو يعكر صفوه أو يكدر خاطره، فلمسة حنان قد تذهب عن الزوج ما ألم به من شكاة، وكلمة إطراء وتمجيد قد تطلقه من قيد الهم أو الحزن وتدفعه لتفكير جاد يصل به إلى حل حاسم لمشكلاته وعلاج ناجح لآلامه، وابتسامة مشرقة قد تضىء أمام عينيه الطريق بعد أن اختلطت معالمه وتوعرت مسالكه وتعذر السير فيه.

٢ - علاقة الغريزة الجنسية

لم يهمل الإسلام التعرض لعلاقة الغريزة بين الزوجين، فهى هدف من أهداف الزواج، لا ينبغى إغفاله أو تجاهله.

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبى، ٥ / ٩٧، ٩٨.

وقد صور القرآن الكريم علاقة الغريزة تصويراً مجملاً يدل على جدوى هذه العلاقة في الاستجابة لرغائب الفطرة. قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ﴾ [1]. ليشعر المرء أنه لا حجر ولا تقييد، فهو قد حبس نفسه عن الخطيئة وكفها عن الفاحشة، وابتغى الحلال الطيب بالزواج، فلا حائل بينه وبين ما يملك ويحوز، وهذا كقوله تعالى: ﴿ والذين هم لفروجهم حافظون إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴾ [2]. فهنا لا لوم ولا كبت ولا تضييق.

وأيضاً صور القرآن الكريم علاقة الغريزة وأثرها بين الزوجين في قوله تعالى ﴿ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ ﴾ [3]، وهذا أوسع مدى للامتزاج والائتلاف.

أما الحق والواجب فى هذا المجال فقد بينه الإسلام، وعلى الزوجة أن تستجيب لزوجها مادامت فى حال لا تمنع من ذلك شرعاً، قال رسول الله (ﷺ): «إذا باتت المرأة هاجرة فراش زوجها لعنتها الملائكة» [4].

ولا يحل لها أن تفوت على زوجها قصده وتحول بينه وبين رغبته فتزج بنفسها فيما يمنعه منها، بلا ضرورة. حتى فى مجال العبادة النافلة إلا بإذنه، قال (ﷺ): «لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تصوم وزوجها شاهد إلا بإذنه» [5].

وربط الأمر بالإيمان بالله واليوم الآخر يدل على مدى اهتمام الإسلام بتنظيم العلاقة بين الزوجين [6].

والإعفاف هو أحد أسباب وجوب النفقة، بحيث يترتب على فقدانه بامتناعها عن التلبية سقوط نفقتها، إن لم يكن هناك عذر معتبر.

وعلى الرجل لزوجته فى هذا المجال حق، فعليه إعفاف زوجته وتلبية رغائبها فإنه يعجبها منه ما يعجبه منها، وللمرأة غريزة كما للرجل، وليس له أن يضارها بالحرمان، ففيه تضييع حقها.

---

(١) سورة البقرة الآية ٢٢٣.
(٢) سورة المؤمنون الآيتان ٥، ٦.
(٣) سورة البقرة الآية ١٨٧.
(٤) رواه الشيخان.
(٥) رواه الشيخان وأحمد.
(٦) د. مصطفى عبد الواحد، الأسرة فى الإسلام، ص ٦٥، ٦٦.

روى البخارى عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: قال رسول الله (ﷺ): «ياعبد الله ألم أخبر أنك تصوم النهار وتقوم الليل».

قلت: بلى يا رسول الله .

قال: « فلا تفعل، صم وأفطر، وقم ونم، فإن لجسدك عليك حقاً. وإن لعينك عليك حقاً، وإن لزوجك عليك حقاً»

● **رواية ثانية**

عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما يقول: قال لى رسول الله (ﷺ): « يا عبد الله ألم أخبر أنك تصوم النهار وتقوم الليل؟

فقلت : بلى يا رسول الله.

قال: «فلا تفعل، صم وأفطر، وقم ونم فإن لجسدك عليك حقا، وإن لعينك عليك حقا، وإن لزوجك عليك حقاً، وإن لزورك [1] عليك حقاً، وإن بحسبك أن تصوم كل شهر ثلاثة أيام، فإن لك بكل حسنة عشر أمثالها، فإن ذلك صيام الدهر كله. فشددتَ فشدد الله عليك».

قلت: يارسول الله إنى أجد قوة.

قال: فصم صيام نبى الله داود عليه السلام ولا تزد عليه.

قلت: ما كان صيام نبى الله داود عليه السلام؟ قال: نصف الدهر.

فكان عبد الله يقول بعدما كبر ياليتى قبلت رخصة النبى (ﷺ) [2].

فقد ذكر فى هذا حق الزوجة، وأنه لا ينبغى له أن يجهد نفسه فى العبادة حتى يضعف عن القيام بحقها.

٣ - حفظ أسرار الزوجية

أثنى القرآن علي الزوجات الصالحات قال تعالى : ﴿ الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴾ [3].

(١) الزور: يعنى الزائر من ضيف وغيره. (٢) رواه البخارى.

(٣) سورة النساء الآية ٦.

ومن جملة الغيب الذى ينبغي أن يحفظ ما كان بين الزوجة وزوجها من علاقة خاصة، فلا يصح أن تكون حديثاً فى المجالس أو سمراً فى الندوات مع الأصدقاء أو الصديقات - كما يفعل كثير من الناس فى أيامنا هذه ولايجدون لهم حديثاً سوى هذا- ففى الحديث الشريف: «إن من شر الناس منزلة عند الله يوم القيامة الرجل يفضى إلى المرأة وتفضى إليه ثم ينشر سرها»[1].

وعن أبى هريرة قال: صلى بنا رسول الله (ﷺ) فلما سلم أقبل علينا بوجهه فقال: مجالسكم. هل منكم الرجل إذا أتى أهله أغلق بابه وأرخى ستره، ثم يخرج فيحدث فيقول: فعلت بأهلى كذا وفعلت بأهلى كذا؟ فسكتوا...

فأقبل على النساء فقال: هل منكن من تحدث؟ فجثت فتاة كعاب على إحدى ركبتيها وتطاولت ليراها رسول الله (ﷺ) ويسمع كلامها؟ فقالت: إى والله... إنهم يتحدثون وإنهن ليتحدثن.

فقال عليه السلام: «هل تدرون ما مثل من فعل ذلك؟»

إن مثل من فعل ذلك مثل شيطان وشيطانة لقى أحدهما صاحبه بالسكة فقضى حاجته منها والناس ينظرون إليه[2].

وكفى بهذا التشبيه تنفيراً للمسلم من ارتكاب هذه الحماقة، وذلك الإسفاف، فلا يرضى مسلم لنفسه أن يكون شيطاناً أو كالشيطان[3].

٤ - التجمل والتشبه

وإن تجمل الرجل لزوجته وحسن اهتمامه بالنظافة والاعتناء بحسن هندامه شيء ضرورى ومهم وله أثر طيب فى جذب قلبها إليه، وقد يكون غريباً عند بعض الناس أن يكلف الرجل بالتجمل لزوجته. ولكن هل تناسى هؤلاء طبيعة النفس البشرية فى تقديرها للجمال وتأثرها به؟

إن المرأة فى عاطفتها وإحساسها بالجمال قد تفوق الرجل، وقد رأيت حث الإسلام على التجمل عامة وكراهته للقذارة، ولنا فى طلب تجمل الزوج لزوجته،

---

(١) رواه مسلم وأبو داود. (٢) رواه مسلم وأبو داود والبزار.

(٣) د. يوسف القرضاوى، الحلال والحرام فى الإسلام، ص ١٨٧، ١٨٨.

مستند من قاعدة الإسلام العامة (لا ضرر ولا ضرار)[1] . «ولا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»[2]، إلى جانب قوله تعالى: ﴿ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ﴾[3].

كما يحرم على المرأة أن تتزين لغير زوجها، وأن تبرز مفاتنها لغير من يحل له ذلك منها فإنه يحرم عليها أيضاً أن تتمرد على خلقتها وطبيعتها والتشبه بالرجال، سواء كان هذا التشبه بما تلبس، أو بما تفعل أو تقول، فإن لكل من الجنسين رسالة خلق لأدائها، وإن قدرة الله وإرادته قد هيأته لذلك، وأعدته إعداداً نفسياً وجسمياً ليحقق الغرض من وجوده بما يتم به عمران الكون وانتظام الحياة، وأى خروج على ما رسم لكل منهما يعتبر بغياً وعدواناً ومجاوزة للحدود، وكما أن المرأة مختصة بما هيأها الله له مما لا يستطيع الرجل أداءه من الحمل والولادة والرضاع والحضانة، فإن الرجل مختص بما ينوء به كاهل المرأة وما تعجز عن حمله من مجابهة الأعداء فى حرب، وملاقاة الخصوم فى طعان أو نزال، ومقارعة الحجة بالحجة فى النقاش أو الجدال، وفى الصبر على العمل واحتماله فى مجالات كثيرة لا تناسب طبيعة المرأة،وتقصر طاقتها المحدودة عن بلوغ إجادته وإتقانه.

وكذلك الرجل ليس له أن يتشبه بالنساء بما يلبس من لبسهن، أو بما يمشى من مشيتهن، أو بما يقول من حديثهن، فإن فى ذلك ما يخرج به عما أعد له من القوامة وتحمل الأعباء، ما يدفع به إلى حال لا يصلح معها وجوده بين الرجال ولا بين النساء.

وقد لعن الله ورسوله من تكلف ذلك من الفريقين فيما ورد من الأحاديث : ففى مجال تشبه المرأة بالرجل روت عائشة رضى الله عنها أنها قالت: أومأت امرأة من وراء ستر بيدها كتاب إلى النبى (ﷺ)فقبض النبى (ﷺ)يده فقال: ما أدرى أيد رجل أم يد امرأة؟

قالت: بل امرأة، قال: لو كنت امرأة لغيرت أظفارك – يعنى بالحناء»[4].

---

(١) المرأة فى التصور الإسلامى، ص ١٢٠ .

(٢) رواه مالك وأخرجه ابن ماجة والدارقطنى، وقال النووى إنه حسن .

(٣) سورة النساء الآية ١٩ .

(٤) أخرجه النسائى وأبو داود .

وفي مجال تشبه الرجال بالنساء ما رواه أبو هريرة : أن النبى (ﷺ)أتى بمخنث[1] قد خضب يديه ورجليه بالحناء فقال رسول الله (ﷺ) : «ما بال هذا؟».

قالوا : يتشبه بالنساء، فأمر به فنفى إلى النقيع..»[2].

وما أورده البيهقى من أن أبا بكر أخرج مخنثاً، وأن عمر أخرج واحداً.

وفي مجال النهى لكل من الفريقين عن التشبه بالفريق الآخر ما رواه أنس بن مالك رضى الله عنه، قال : لعن رسول الله (ﷺ)المتشبهين من الرجال بالنساء، والمتشبهات من النساء بالرجال.

وفي رواية له أيضاً : لعن رسول الله المخنثين من الرجال، والمترجلات من النساء، وقال : أخرجوهم من بيوتكم [3].

وينبغى أن يعلم أن التحريم واللعن إنما ينصبان على من يفعل ذلك تكلفاً دون أن يكون فى أصل خلقته، فأما إذا لم يتكلفه بأن كان ذلك من طبعه فإنه معذور فيه،ويتعين الاحتياط فى مخالطته، فيعامل مع الرجال كامرأة، ومع النساء كرجل حتى يتبين أمره،وهو من باب سد الذرائع، والله المستعان [4].

٥ - حقوق موزعة على الزوجين :

الإرضاع على الزوجة، والنفقة على الزوج، دون إرهاق ولامشقة،ودون مضارة وإيذاء. ثم تشاور فى الرأى وتراض من جهة الرضاع أو الفطام.

وإذا كان للزوجة حق إبداء الرأى فى نظام تربية الولد وإرضاعه، واشترط القرآن فى ذلك إرادتها مع إرادة الرجل، ورضاها مع رضاه فإن تلك يكون شأنها معه فى كل ما يعترضهما من شئون تحتاج إلى التشاور وإلى تبادل الرأى.

كيف والمشورة بينهما مما يشعر المرأة بأنها ذات مسئولية مشتركة وأنها تعيش فى جو حياة مشتركة، يهمها صلاحها، ويوغر صدرها فسادها، فتكتل قواها، وتجمع أمرها على الحفظ والصيانة،وكمال الإشراف والرعاية.

---

(١) المخنث : هو الذى فى كلامه لين وفى أعضائه تكسر،مأخوذ من الانخناث وهو الثنى والتكسر.

(٢) من حديث أخرجه أبو داود. (٣) من حديث رواه أحمد كما رواه البخارى عن ابن عباس.

(٤) توجيهات من السنة، د. محمد رشاد خليفة، ص٣٠٣:٣٠٤ .

وهذا من أقوى ما يوثق العرى بين الزوجين، ويجعل منها قلباً واحداً، وعينا واحدة، فيلطف جوهما، وتنعم حياتهما.

أما ذلك الزوج الذى يمنح نفسه السلطان المستقل، والأمر النافذ القاهر، تاركاً زوجهُ وراء ظهره، متاعاً لا ينظر إليه إلا حيث يريده، فهو زوج دخيل على الحياة الزوجية التى رسمها الإسلام، لا يمثلها ولا يكون مرآة لها.

الإحسان إلى النفس
بالإحسان إلـى الأبناء

• مدخل

إن منهج الإسلام التربوى يُعْنَى بتربية الإنسان منذ ولادته وحتى يغادر هذه الدنيا إلى الدار الآخرة.

ولما كانت رعاية الطفولة من مقاصد المنهج الإسلامى فى التربية، فقد حَمَّل الإسلام الآباء والأمهات مسئولية كبرى فى تربية الأبناء، وإعدادهم الإعداد الكامل لحمل أعباء الحياة، وتَهدَّدَهم بالعذاب الأكبر إذا هم قصروا فى أداء هذه الأمانة، قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلائِكَةٌ غِلاظٌ شِدَادٌ لاَّ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾[1].

وقال عليه الصلاة والسلام: «أدبوا أولادكم وأحسنوا أدبهم»[2].

وبهذه الرعاية والتربية الناجحة استطاع الإسلام أن يقدم للإنسانية رجالاً صنعوا لنا حضارة وتاريخاً نفاخر بهما على مر الزمان.

وفى العصر الحديث تزايد الاهتمام عند العلماء والباحثين بهذه المرحلة من حياة الإنسان، وظهرت أبحاث ودراسات كثيرة تعالج موضوع الطفولة بل والمراهقة، وتقوم هذه الأبحاث والدراسات على دراسة مظاهر النمو المتتابعة عند الأبناء، والتعرف على المشكلات السلوكية التى يعانون منها، والقصد من ذلك كله هو إسعاد الأبناء ومساعدتهم على تكوين شخصيتهم الإنسانية.

ورغم هذا الاهتمام المتزايد لدى المؤسسات التربوية فى العالم العربى وغير العربى برعاية الأبناء، ورغم كثرة الأبحاث والدراسات والتجارب المخبرية التى

---

(١) سورة التحريم الآية ٦.

قام بها فلاسفة التربية الحديثة فإن الأبناء فى المجتمع العصرى مازالوا يفتقرون إلى السعادة الحقة.

وهل استطاعت هذه المؤسسات وتلك الدراسات أن تمنع الانحراف عند الأحداث؟

إن علماء النفس والتربية والاجتماع يحارون فى تفسير ظاهرة الفشل التى منيت به التربية الحديثة فى إصلاح المجتمع، إذ تتزايد سنوياً نسبة الجرائم كالقتل والسرقة وحوادث الخطف، والانحراف الجنسى، وتناول المسكرات والمخدرات والاعتداء والانتحار، وفى يقينى أن هذا الفشل يرجع فى أسبابه إلى خلل فى المناهج التربوية ، فإن هذه المناهج استطاعت أن تيسر للإنسان مأكله ومشربه ومسكنه، كما استطاعت أن تيسر للإنسان مأكله ومشربه ومسكنه، كما استطاعت أن تيسر له قضاء الشهوات، ولكنها أغفلت من كيانه جانب الروح ، أغفلت العقيدة فى الله وما يشع منها من مُثُل وأخلاق، فكانت النتيجة خواء الروح من الإيمان، وخواء الحياة من العقيدة، فانهارت الأخلاق، وخلت الحياة من القيم.

والدين وحده هو الذى يصون الإنسان ويحفظه من الانحراف والسقوط، وما انتشرت الجريمة واستفحلت إلا بعد أن قل الوازع الدينى.

ومن ثم تتأكد لنا حاجتنا الماسة إلى المنهج الإسلامى فى التربية لكى يتم إنقاذ أبنائنا فى عالمنا الإسلامى [١].

والدارس للمنهج الإسلامى بعمق يجد أنه لم تقتصر تربية الأبناء فيه على التلقين للتعاليم الإسلامية فى الجانب الاعتقادى وكفى، أو المعاملات وكفى، أو تعليم الناشئة المبادئ الأخلاقية وكفى، ولكن المنهج الإسلامى منهج كامل متكامل للحياة ،وللنظام التعليمى بكامل مكوناته.

---

(١) بتصرف عن بحث بعنوان تربية الطفل فى ضوء السنة ، للدكتور العبد خليل أبو عبيد نشر ضمن كتاب المؤتمر العالمى الرابع للسيرة والسنة النبوية والمؤتمر العاشر لمجمع البحوث الإسلامى ص ٥٧٠ ، ٥٧١ .

• **الإحسان إلى الأبناء**

ومن الإحسان إلى النفس الإحسان إلى الأبناء قال تعالى : ﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالاً فَخُورًا (٣٦) ﴾ [١]

ففى الآية الكريمة من عناصر الترابط الإنسانى الإحسان إلى الصاحب الملاصق، والمراد به ما يشمل الزوج والزوجة والرفيق فى السفر، والصديق الصدوق.

ومما هو وثيق الصلة بالزوجين - الأبناء - لكونهم الثمرة المترتبة على زواجهما ونحاول بعون الله تعالى وتوفيقه الحديث عن الإحسان إلى الأبناء.

• **النهى عن التلهى بالأموال والأولاد**

لقد نهى الله سبحانه وتعالى المؤمنين عن التلهى بالأموال والأولاد والانشغال بهم عن أداء حق الله تعالى وَذِكْره، قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٩) ﴾ [٢]

كما أخبر حبيبه المصطفى ﷺ بأن لا يغتر بكثرة الأموال والأولاد التى عند الكافرين، فقال سبحانه : ﴿ فَلا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ (٥٥) ﴾ [٣].

ومع أن الكافرين يشقون بحفظ المال وجمعه، والاستكثار من الأولاد، إلا أنهم لاحظ لهم فى السعادة الدنيوية والفلاح الأخروى، لأن الأولاد لا يردون عن آبائهم شيئًا من عذاب الآخرة، قال تعالى : ﴿ يَوْمَ لا يَنفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ (٨٨) إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨٩) ﴾ [٤].

أما المؤمنون الموحدون الملتزمون فإن أولادهم معهم يسعدون بهم فى الدنيا، وينعمون معهم فى الآخرة، قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴾ [٥].

---

(١) سورة النساء الآية ٣٦.
(٢) سورة المنافقون الآية ٩ .
(٣) سورة التوبة الآية ٥٥ .
(٤) سورة الشعراء الآيتان ٨٨، ٨٩ .
(٥) سورة الطور الآية ٢١ .

ومن المعلوم أن الأولاد هم الثمرة البشرية التى نشأت من اجتماع الرجل والمرأة اجتماعًا جنسيًا.

ولفظ الأولاد: جمع يطلق على الذكور والإناث، كما قال تعالى: ﴿ يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين ﴾ [1]، ومفرده ولد، ولفظ ولد يطلق على الفرد والجمع من الذكور والإناث، قال تعالى: ﴿ ولكم نصف ما ترك أزواجكم إن لم يكن لهن ولد فإن كان لهن ولد ﴾ [2]، والإجماع على أن المراد به هنا ما يشمل الواحد وغيره من الذكور والإناث، صغاراً كانوا أم كباراً.

والوليد: هو الصبى، وجمعه ولدان، والوليدة: هى الصبية والأمة، وجمعها ولائد.

ويطلق على الأولاد اسم «الذرية»، قال ابن الأثير فى النهاية: الذرية اسم يجمع نسل الإنسان ذكراً وأنثى، ويُجمع على ذريات وذرارى، ويطلق عليهم أيضًا اسم «النسل»، يقال: تناسل القوم: أى ولد بعضهم من بعض، كما يطلق عليهم اسم «النشء» جمع ناشئ، كصاحب وصَحْب، وقيل بفتح الشين كطالب وطَلَب، وراصد ورصد.

والناشئ قيل: هو الذى فوق المحتلم، وقيل: هو الحدث الذى جاوز حد الصغر، والأنثى أيضًا يقال لها: ناشئ، بغير هاء.

ومن معانيه: ربًا وشبَّ، يقال: نشأ فى بنى فلان: أى تربى وشب، وقال الليث: النشء أحداث الناس، يقال للواحد أيضًا هو نشء سوء، وهؤلاء نشء سوء، وعلى هذا فالنشء بمعنى الذرية والنسل، وهم الأحداث فى سنيهم الأولى إلى أن يبلغوا سن العاشرة كما قيل، أو إلى ما دون البلوغ أو بعده بقليل.

والعرب تطلق أوصافًا على الإنسان بحسب سنه وأحوال نشأته، فمن ذلك قولهم: الإنسان مادام فى بطن أمه جنين، فإذا خرج فهو: وليد.

ومالم يتم سبعة أيام: فهو صديغ؛ لأنه لم يشتد صدغه.

ومادام يرضع: فهو رضيع.

---

(1) سورة النساء الآية 11.

(2) سورة النساء الآية 12.

وإذا فطم عن اللبن : فهو فطيم.

وإذا دب ودرج : فهو دارج.

وإذا بلغ خمسة أشبار : فهو خماسي.

وإذا بلغ سبعًا وما قاربها : فهو مميز.

وإذا بلغ العشر : فهو مترعرع وناشئ.

وإذا بلغ الحلم : فهو يافع.

وإذا اجتمعت قوته : حزور.

والصبى فى جميع ذلك غلام مالم يخضر شاربه.

فإذا اخضر شاربه وأخذ عذاره فى الطلوع : فهو باقل.

ثم هو ما بين ذلك وبين تكامل لحيته فتى وشارخ.

ومهما يكن من شيء فإن مرادنا بالحديث عن الأولاد هو : الحديث عنهم حتى يبلغوا ويستقلوا بأمور معاشهم وينفصلوا عن أسرهم الأولى ليكونوا أسراً جديدة أو يفكرون فى ذلك[1].

• المراد بالرعاية

الرعاية مصدر رعى، يقال :رعى الأمير رعيته رعاية، وكذا رعى عليه حرمته رعاية - حفظ الأولاد من كل سوء، ووقايتهم من كل ما يضرهم فى الجسم والعقل والخلق.

والحفظ الوقاية يقومان على دفع الشر وجلب الخير، وعلى هذا يجب أن تكون الرعاية شاملة لكل هذه الأبعاد، ممتدة إلى آماد طويلة، تستقبل الجنين وهو فى بطن أمه، بل قبل أن يكون جنينًا، عندما كان مجرد فكرة فى عقل أبويه وهما يفكران فى الزواج، وتلازمه تلك الرعاية حتى يكون إنسانًا سويًا صالحًا ليستقل بنفسه عن والديه[2].

---

(١) موسوعة الأسرة تحت رعاية الإسلام للشيخ عطية صقر ٤/ ١١، ١٢.

(٢) المرجع السابق ٤/ ١٢.

• الأولاد نعمة

هناك غرضان للإنجاب :

الأول : تحقيق شهوة النفس المباحة، وهى : أن يرى الإنسان له ولداً من ذريته يرغب أن يخلفه فى الحياة، ويحمل اسمه ويكون صلة لعمله وثوابه. قال تعالى : ﴿ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا (٥) يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا (٦) ﴾[1].

الثانى : الأولاد زينة قال تعالى : ﴿ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلاً (٤٦) ﴾[2].

والتمتع بهذه الزينه مباح مدام فى طاعة الله سبحانه وتعالى.[3]

والنسل هدف أصيل من أهداف الزوجية، وهو رغبة لها جذورها فى نفس الرجل وفى نفس المرأة على السواء، فكل إنسان يرغب فى بقاء اسمه ودوام أثره.

والقرآن يجعل المباشرة معللة بقصد النسل، إذ هو أثرها اللازم فى الغالب : ﴿ نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ﴾[4] والحرث هو موضع البذور والإنبات.

وقد عد الإسلام النسل من النعم التى تبهج الحياة وتحقق السعادة : ﴿ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾[5].

والأولاد نعمة من نعم الله على عباده، وهم زينة الحياة الدنيا وبهجتها، وروح الأمل فيها، بهم ولأجلهم تهون المصائب.

هم الشمس المشرقة فى حاضر الوالدين والأمل الباسم لغدهم.

لذا : كان التعلق بهم شديداً إلى درجة أن يتبنى الرجل الولد الذى ليس من صلبه، يقص علينا القرآن الكريم قصة «عزيز مصر» بعد أن اشترى يوسف عليه

(١) سورة مريم الآيتان ٥، ٦.
(٢) سورة الكهف الآية ٤٦.
(٣) استراتيجيات التربية الأسرية فى الإسلام إشراف أ.د. توفيق الواعى ص ٥٨.
(٤) سورة البقرة الآية ٢٢٣.
(٥) سورة الكهف الآية ٤٦.

السلام وهو يقول لامرأته : ﴿ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا ﴾ [1] .

كما أن امرأة فرعون تقول لزوجها بشأن موسى عليه السلام وبعد استخراجه من اليم : ﴿ لا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا ﴾ [2] .

وكان التبنى سائداً في المجتمع الإنساني ... ذلك لأن قلوب الرجال والنساء تتشوق إلى من يلتصق بهم، وتهفوا آذانهم إلى سماع من يناديهم بكلمة (أبي - أمي).

وظل هذا التبني سائداً حتى أبطله الإسلام على لسان النبي ﷺ الذي كان متبنياً لزيد بن حارثة في أول الأمر، وكان يدعى «زيد بن محمد».

ولما نزل قول الحق تبارك وتعالى : ﴿ ادْعُوهُمْ لآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ وَلَكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (٥) ﴾ [3] أصبح يدعى زيد بن حارثة نسبة إلى والده الأصلي.

ولا عجب إذا كانت العاطفة الإنسانية بهذا الشغف لإيجاد نسل يحمل اسمها من بعدها، ويكون امتداداً لذكرها.

والمتأمل لآيات القرآن الكريم يجد أنه يصور المشاعر الأبوية الصادقة، فيجعل الأبناء زينة الحياة الدنيا ، قال تعالى : ﴿ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ [4] .

ويجعلهم قرة أعين للوالدين ، قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا (٧٤) ﴾ [5] .

ويعتبرهم نعمة تستحق شكر الواهب ، قال تعالى : ﴿ وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا (٦) ﴾ [6] . إنهم إن عاشوا جنى الوالدان ثمرة ما قدماه إليهم من توجيه إلى الخير برا وإكراما وصلة.

---

(١) سورة يوسف الاية ٢١ .

(٢) سورة القصص الآية ٩ .

(٣) سورة الأحزاب الآية ٥ .

(٤) سورة الكهف الآية ١٦ .

(٥) سورة الفرقان الآية ٧٤ .

(٦) سورة الإسراء الآية ٦ .

وإن ماتوا كانوا لآبائهم شفعاء، يرفعهم الله بهم درجات ودرجات [1]. روى مسلم في صحيحه عن أبي حسان قال: توفي ابنان لي، فقلت لأبي هريرة: أسمعتَ من رسول الله ﷺ حديثًا تطيب به أنفسنا عن موتانا؟

قال أبو هريرة: نعم: «صغارهم دَعَاميص [2] الجنة، يلقى أحدهم أباه - أو قال: أبويه - فيأخذ بناحية ثوبه - أو يده - كما آخذ بصِنْفَةِ [3] ثوبك هذا فلا يفارقه حتى يدخل الجنة».

وهم نعمة تستحق الحمد، ومنة توجب التقدير، ولذا توعد القرآن من أعطيها فجحد ورزقها فلم يشكر: ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً (١١) وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَّمْدُوداً (١٢) وَبَنِينَ شُهُوداً (١٣) ﴾ [4].

ومهما قاسى الناس المتاعب والمصاعب في كفالة الأولاد، وتعهدهم، فلن تجف في نفوسهم الرغبة نحوهم والحنين إليهم.

لهذا اهتم الإسلام برعاية النسل وإعداد العدة له، كي ينشأ سليما من الآفات بعيداً عن المعاطب [5].

جاء رجل إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه يشكو عقوق ابنه.

فأحضر عمر بن الخطاب رضي الله عنه الابن وأنبه على عقوقه لأبيه.

فقال الابن: يا أمير المؤمنين، أليس للولد حقوق على أبيه؟

قال: بلى

قال: فما هي يا أمير المؤمنين؟

---

(١) توجيهات من السنة في مجال الأخلاق والأسرة د. محمد رشاد خليفه ص ٣٣٩، ٣٤٠.

(٢) الدعاميص: جمع دعموص، وهي دويبة تكون في مستنقع الماء، والدعموص: الدخال في الأمور، ودعاميص الجنة: أي سياحون فيها، دخالون في منازلها لا يمنعون من موضع، كما أن الصبيان في الدنيا لا يمنعون من الدخول على الحرم، ولا يحتجب عنهم أحد، قاله في النهاية.

(٣) صنفة الثوب: طرفه وحاشيته.

(٤) سورة المدثر الآيات ١١- ١٣.

(٥) د. مصطفى عبد الواحد نظام الأسرة في الإسلام ص ٧٢.

قال : أن ينتقى أمه، ويحسن اسمه، ويعلمه الكتاب «القرآن»

فقال الابن : يا أمير المؤمنين، إنه لم يفعل شيئًا من ذلك :

أما أمي فإنها زنجية كانت لمجوسي.

وقد سماني جعلاً «جعرانا».

ولم يعلمني من الكتاب حرفًا واحداً.

فالتفت أمير المؤمنين إلى الرجل، وقال له : أجئت إلى تشكو عقوق ابنك، وقد عققته قبل أن يعقك، وأسأت إليه قبل أن يسيء إليك.

ففي هذا النص وغيره نعرف جيداً أن لأبنائنا علينا حقوقًا كثيرة، وهو ما ننصح به الآباء ليلتزموه التزامًا ، وننصح به كل عاقل يريد أن يربى أبناءه تربية إسلامية صحيحة.

و نبدأ بعون الله تعالى فى الكتابة عن الإحسان إلى الأبناء وكيف يكون ذلك ومتى يكون ؟

يكون بداية قبل مجيئهم إلى الدنيا ، وذلك :

أ - كلمة عن الأم ومنزلتها.

ب - اختيار كل من الزوجين للآخر.

جـ - رعاية الأم الحامل.

د - رعاية الجنين فى بطن أمه.

• مكانة الأم

إن الأم هى المحضن الأول فى سلسلة المحاضن التربوية والاجتماعية التى يتم من خلالها تنشئة الإنسان خلال أطوار حياته المختلفة، وإعداده للدور الذى أراده الله سبحانه وتعالى له حين أنزله منزلة مكرمة بين المخلوقات.

ولن يتأهل الإنسان لهذه المنزلة إلا إذا أحسنت محاضن تنشئته، ومؤسسات

تربيته، وأساليب هذه التنشئة والتربية، وزودت بالمربين المؤهلين للقيام بالدور التربوى المنشود.

والأم: هى المربى الأول الذى أعدته العناية الإلهية، وزودته بالقدرات والاستعدادات التى تؤهلها للقيام بالدور الأول فى فترة الطور الأول من حياة الإنسان، وهى فترة اكتشف علم النفس الإنسانى ومازال يكتشف أهميتها وآثارها الخطيرة فى حياة الإنسان ومستقبله حتى نهاية ابتلائه خلال عمره المقدر له.

فالإنسان كما يقرر علم النفس تتكون كثير من اتجاهاته، وتتشكل إرادته إيجابًا أو سلبًا فى السنوات الأولى من عمره، وبمقدار ما يتلقى خلال هذه السنوات المبكرة من معانى الرحمة والعطاء والإنسانية والمودة ويختزنها فى ضميره وخبراته بمقدار ما يكون عطاؤه من هذه الفضائل عندما يبلغ طور النضج ويقوم بأدوار التكليف.

وأى نقص فى هذه الفضائل يعانى منه الإنسان طفلاً فإنه سوف يتكرر هذا النقص فى سلوكه وأخلاقه وشبكة علاقاته الاجتماعية كبيرًا أينما كان موقعه فى المجتمع والعالم.

وتزودنا الدراسات الاجتماعية والسياسية والعسكرية والاقتصادية بالأمثلة التى تعز على الحصر لسير قادة ورجال نفوذ أثّروا فى مجتمعاتهم وفى مجتمعات العالم الأخرى تأثيرًا متأثرًا بالخبرات التى عرفوها خلال طفولتهم وتنشئهم الأولى.

فالذين عرفوا الحنان والرحمة والعطاء الإنسانى من أمهات رحيمات عطوفات، وأباء رحماء عطوفين هم الذين أعطوا هذه الفضائل وأسهموا فى نشرها ونصرتها والجهاد فى سبيلها.

والذين حرموا الرحمة والحنان الأسرى، وذاقوا آلام التشريد فى طفولتهم هم الذين شردوا الملايين، وفتكوا بالعزل من المدنيين والضعفاء والمساكين، وهدموا العمران ودمروا مظاهر الحضارة.

لذلك كله كانت عناية الإسلام الكبرى، واهتمامه الفائق بالأمومة والتوصية بإعداد الأم ورعايتها وتمكينها من أداء واجبها في العطاء والرحمة والمودة لجميع أعضاء الأسرة التي ترعاها وتشرف على شئونها وإدارة أمورها»[1].

ولقد ورد ذكر الأم في القرآن الكريم في مواضع كثيرة تدل على ما للأمومة من كبير التقدير والعناية، قال تعالى: ﴿ وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاثُونَ شَهْرًا ﴾[2].

أي قاست بسببه في حال حمله مشقة وتعبًا من وحم وغثيان وثقل وكرب إلى غير ذلك مما ينال الحوامل من التعب والمشقة، ووضعته كرها: أي بمشقة أيضًا من الطلق وشدته[3]، وتكرر ذلك في القرآن الكريم في عدة آيات كريمة.

وتُذكر الأم في قصة موسى عليه السلام، يقول الله تعالى: ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلا تَخَافِي وَلا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٧) ﴾[4].

والمتأمل يجد أن القصة كلها تدور حول جهود أم موسى، ولم يرد ذكر لوالده مع أنه من ضرورات القصة.

ويلاحظ أن هارون عليه السلام ينادي أخاه موسى عليه السلام بقوله «ابن أم»[5] استجاشة لعواطفه وشفقته واستلال غضبه عليه السلام.

وهذه خوله بنت مالك بن ثعلبة حينما ظاهر منها زوجها بقوله: أنت عليَّ كظهر أمي، ذهبت إلى رسول الله ﷺ وسألته عما قال زوجها، فقال رسول الله ﷺ: «حرمت عليه»[6]، قال: وفي كل مرة يقول - ﷺ -: «حرمت عليه» قالت: فقلت إلى الله أشكو فاقتي ووحدتي ووحشتي وفراق زوجي وابن عمي وقد نفضت له بطني.

---

(١) الأمومة ومكانتها في الإسلام في ضوء الكتاب والسنة - مها عبد الله الأبرش ١ / ١٨، ١٩.

(٢) سورة الأحقاف الآية ١٥.

(٣) تفسير ابن كثير ٤ / ١٥٧ ط. دار المعرفة بيروت.

(٤) سورة القصص الآية ٧.

(٥) سورة الأعراف الآية ١٥٠.

(٦) قال لها النبي ﷺ: «حرمت عليه» لأن الظهار لم يكن قد شرع بعد.

ثم رفعت المرأة الطاهرة يديها إلى السماء وقالت : اللهم إنك تعلم أن زوجى شيخ كبير، وأنا امرأة عجوز، ولا غنى له عنى، ولا غنى لى عنه، وإن لى منه أولادا إن تركتهم معه ضاعوا، وإن أخذتهم معى جاعوا، اللهم ففرج كربتى وأحلل عقدتى.

وصعدت تلك الدعوات الخاشعات من تلك المرأة الطاهرة إلى السماء، وأجاب الله دعوتها قبل أن تقوم من مكانها بجانب النبى ﷺ، فقد نزل الوحى على الرسول ﷺ ليبين حكم الله فى الظهار، قال تعالى : ﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ① الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَائِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ② وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا ذَلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ③ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ④ ﴾ [(١)] أرأيت كيف استجاب الله دعاء هذه المرأة الطاهرة المخلصة الحريصة على كرامة زوجها وأولادها وحل قضيتها وقضية كل مسلمة تتعرض لمثل ظروفها إلى يوم القيامة [(٢)].

ولقد أسقط الإسلام بعض الفرائض عن المرأة مثل الصلاة، ولم يكلفها بصلاة الجماعة مراعاة لأمومتها ودورها فى الحياة.

وهل تفجر ماء زمزم إلا فيض من نبع الأمومة، ذلك النبع الذى يسقى الحجيج حتى قيام الساعة، فما أعظمه من حدث أن يكون دعاء الأمومة من أمنا هاجر ولهفتها على إسماعيل عليه السلام ريًا للظمأى، وطعامًا للجياع، وشفاء للأسقام، وإن كان يدل ذلك على شيء فإنما يدل علي تفجر العطاء الأمومى الذى لا ينضب معينه مهما بعد العمر حنانًا وحبًا وريًا ودفئًا، فهؤلاء الحجيج يرتوون بماء زمزم ويسعون سعى أمنا هاجر وهى تستروح الماء لنفسها ولطفلها

---

(١) سورة المجادلة الآيات ١-٤.

(٢) راجع القصة فى سيرة ابن هشام ٣ / ١٦٠ والدعاء لفضيلة الإمام الأكبر د. محمد سيد طنطاوى ص١٤٣ - ١٤٧.

الرضيع فى تلك الحرة الملتهبة حول البيت، وهى تهرول بين الصفا والمروة وقد أنهكها العطش وهدها الجهد، وأضناها الإشفاق على الطفل، ثم ترجع فى الجولة السابعة وقد حطمها اليأس لتجد النبع يتدفق بين يدى الرضيع الوضىء، وإذا هى زمزم ينبوع الرحمة فى صحراء اليأس والجدب [1].

وقد أثنى الرسول ﷺ على نساء قريش وجعل صالحهن صالح النساء عامة لرعايتهن للزوج والولد بقوله ﷺ : «خير نساء ركبن الإبل صالحو نساء قريش؛ أحناه على ولد فى صغره، وأرعاه على زوج فى ذات يده» [2].

وفى حديث آخر يبين ﷺ أن أسمى نماذج البشر رحمة وحبًا وعطاءً هى الأم حيث قدم على النبى ﷺ سبى فإذا امرأة من السبى أخذت صبيًا فألصقته ببطنها فأرضعته، فقال ﷺ لأصحابه : «أترون هذه طارحة ولدها فى النار».

قلنا :لا، وهى تقدر على أن لا تطرحه.

فقال ﷺ : «الله أرحم بعباده من هذه بولدها» [3].

ويبلغ تقدير الأم فى سنته ﷺ الرحيم بأمته، فيقول : «إنى لأدخل فى الصلاة فأريد إطالتها، فأسمع بكاء الصبى فأتجوز مما أعلم من شدة وجد أمه من بكائه» [4].

تقدير من رسول الله ﷺ للأم وإحساس بمشاعرها وحبها وحنانها، فيخفف ﷺ عن جميع المصلين الصلاة من أجلها.

بل إن رحمته ﷺ بالأم تتجاوز الإنسان والشعور به إلى عالم البهائم حين اشتكت إليه الحمرة [5] عندما أخذ منها فراخها، فقال ﷺ : «من فجع هذه بولدها؟ ردوا ولدها إليها» [6]، [7].

---

(١) فى ظلال القرآن للشيخ سيد قطب ٤ / ٢٤١٩ ط ٢١ دار الشروق بيروت.

(٢) رواه البخارى كتاب «النكاح» ورواه مسلم كتاب «فضائل الصحابة».

(٣) رواه البخارى كتاب «الأدب». (٤) رواه البخارى ومسلم.

(٥) الحمرة : بضم الحاء وتشديد الميم المفتوحة وقد تخفف : طائر صغير كالعصفور «ابن الأثير النهاية فى غريب الحديث».

(٦) رواه أبو داود وصححه الألبانى، وفى مسند الإمام أحمد بنحوه.

(٧) الأمومة ومكانتها فى الإسلام إعداد مها عبد الله الأبراش ١ / ٤٨-٥٢ بتصرف.

ولقد احتذى السلف الصالح برسول الله ﷺ فى تقدير الأم، فمن ذلك ما كان من أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه حين فرض لأبناء المهاجرين والأنصار ألفين، فمر به عمر بن أبى سلمة، فقال : زيدوه ألفا.

فقالِ عمر بن عبد الله بن جحش : ما كان لأبيه أبى سلمة مالم يكن لآبائنا، وما كان له ما لم يكن لنا؟

فقال الخليفة رضى الله عنه : إنى فرضت له بأبيه أبى سلمة ألفين، وزدته بأمه أم سلمة ألفا، فإن كان لك أم مثل أم سلمة زدتك ألفا.

ومرة أخرى يعظم الخليفة أمير المؤمنين عمر - رضى الله عنه - شأن الأمومة، فى صورة إنسانية فذة ما سجلها التاريخ إلا لعمر، وذلك أنه كان مرة على عادته يتفقد الناس، فمر برحبة من رحاب المدينة، فإذا ببيت من الشعر ينبعث منه أنين امرأة وعلى بابه رجل قاعد، فسلم عليه عمر وسأله من هو ؟

فأجابه بأنه رجل من البادية جاء يصيب من فضل أمير المؤمنين.

فقال عمر : ما هذا الصوت الذى أسمعه فى البيت ؟

قال الرجل : وهو لا يدرى أنه عمر أمير المؤمنين، انطلق - رحمك الله - لحاجتك ولا تسأل عما لا يعنيك.

فألح عليه عمر يريد معرفة الأمر.

فأجابه : امرأة تمخض على وشك الولادة، وليس عندها أحد.

فعاد عمر إلى منزله، وقال لامرأته أم كلثوم بنت على رضى الله عنها : هل لك فى أجر ساقه الله إليك؟

قالت : وما هو ؟

فأخبرها، وأمرها أن تأخذ معها ما يحتاج إليه الوليد الجديد من ثياب، وما تحتاج إليه المرأة من دهن،وأن تأخذ معها قِدْرًا، وتضع فيه حبوبًا وسمنا.

فجاءت به، فحمل القدر، ومشت خلفه حتى انتهى إلى البيت وقال لامرأته ادخلى إلى المرأة، وجلس - رضى الله عنه - مع الرجل، وأوقد النار، وطبخ ما جاء به، والرجل جالس لا يعلم من الرجل.

وولدت المرأة، فقالت زوجة عمر من داخل البيت : يا أمير المؤمنين بشر صاحبك بغلام.

فلما سمع الأعرابى ذلك علم أنه أمير المؤمنين فكأنه هابه، فأخذ يبتعد عنه وعمر يقول له : مكانك كما أنت.

ثم حمل القدر وأمر زوجته أن تأخذه، وتطعم المرأة.

فلما أكلت ناول الرجل القدر وقال له : كل ويحك فإنك سهرت الليل كله.

ثم خرجت زوجته، وقال للرجل : إذا كان غدا فأتنا نأمر لك بما يصلحك.

فلما أصبح أتاه ففرض لابنه فى الذرية، وأعطاه [١].

«لا أعلم فى كل ما قرأت من تاريخ العظماء أروع ولا أنبل ولا أسمى إنسانية من مثل هذه الحادثة [٢].

إن الطفل فى المراحل الأولى من العمر - لاسيما السنوات الثلاث- يكون محتاجًا إلى رعاية أمه وعطفها، ولذا فقد امتن الله سبحانه وتعالى على موسى عليه السلام وأمه بأن جمع بينهما ثانية، قال تعالى : ﴿ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ﴾ [٣]

فالرجعة لموسى عليه السلام وقرار العين لأمه وله نعمة وتفضل من الله سبحانه.

لذا : فإنه لا يمكن للمحاضن أن توفر للطفل من الحاجات النفسية والروحية ما يوفره له قربه من أمه من الأمن والثقة والطمأنينة، وهذا لا يكون إلا بوجود الأم معه.

«فالأم المسلمة عليها أن تدرك أنه لا شىء على الإطلاق ينبغى أن يحول بينها وبين منح الطفل حاجته الطبيعية من الحب والحنان والرعاية، وأنها تفسد كيانه كله إن هى حرمته حقه من هذه المشاعر التى أودعها الله برحمته وحكمته فى كيانها بحيث تتفجر تلقائيًا لتفى بحاجة الطفل حين تسير الأمور فى مسارها السوى» [٤].

---

(١) انظر ابن الجوزى، تاريخ عمر بن الخطاب ص ١٠٢، ١٠٣.

(٢) مصطفى السباعى من روائع حضارتنا ص ٦٩.

(٣) سورة طه الآية ٤٠.

(٤) منهج التربية الإسلامية للشيخ محمد قطب ٢ / ١١١.

عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : جاءتنى مسكينة تحمل ابنتين لها، فأطعمتها ثلاث تمرات فأعطت كل واحدة منهما تمرة ورفعت إلى فيها تمرة لتأكلها فاستطعمتها ابنتاها، فشقت التمرة التى كانت تريد أن تأكلها بينهما، فأعجبنى شأنها فذكرت الذى صنعت لرسول الله ﷺ فقال :«إن الله قد أوجب لها الجنة، أو أعتقها بها من النار»[1].

إنه درس فى الإيثار والرحمة والعطاء مستحيل أن تنساه البنتان [2].

وبعد : فالأم هى النافذة التي يطل منها الطفل على العالم سواء عالمه الصغير في داخله، أو العالم المحيط به، وعلى قدر اشراقها ونورها، يكون ما يملكه الطفل من ملكات نفسية وخلقية وعقلية.

إن الإسلام قد أعطى الأم مسئولية كبرى فى إعداد الأطفال، وما سيرة الأنبياء والصالحين إلا نبراس ومعلم لهذا، فمحمد بن عبد الله ﷺ تربى في حضانة أمه دون أبيه، وموسى عليه السلام ربته أمه، وعيسى عليه السلام، ومريم بنت عمران التى كان لأمها الأثر الأكبر في تنشئتها، وكثير من صالحى الأمة الإسلامية وعلمائها تفردت الأم بتربيتهم، كالخليفة عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه»[3].

فعلى الأم المسلمة أن تدرك أن الإسلام جهاد دائم في الأرض ... جهاد لتكون كلمة الله هى العليا ... جهاد يشترك فيه الرجل والمرأة كلاهما، كل فى دوره ووظيفته وما هو مهيأ له، وأن الطفل الذى ينشأ اليوم - فتى كان أو فتاة - هو رجل الغد أو امرأة الغد، وكلاهما - فى الإسلام - يؤدى دوره فى الجهاد لتكون كلمة الله هى العليا، فينبغى أن يؤهل لهذا الجهاد منذ اللحظة الأولى ... منذ مولده ... بأن يعطى القدر الكافى من الحب والحنان والرعاية، بغير نقص مفسد ولا زيادة مفسدة، وأن كل نقص أو زيادة فى ذلك العنصر الحيوى إنما تفسد بقدرها من كيان هذا الطفل الذى هو رجل الغد أو امرأة الغد، ونحن

(١) رواه مسلم - كتاب البر والصلة - باب فضل الإحسان إلى البنات، وأخرجه البخارى بنحوه - كتاب الزكاة - باب اتقوا النار ولو بشق تمرة.

(٢) الأمومة ومكانتها فى الإسلام - مها عبد الله الأبرش ١/١٠٣، ١٠٤ بتصرف.

(٣) المرجع السابق ١/١٠٦.

محاسبون أمام الله عن كل فساد نحدثه فى الفطرة السوية، وعن كل تضييع لطاقة كان يمكن أن تبذل في الجهاد في سبيل الله [(١)].

وعلى هذا وبناء على ذلك فعلى الزوج أن يحسن اختيار زوجته التي هي أم أولاده إن شاء الله كنوع من أنواع الإحسان إلى الأبناء.

● **حسن اختيار الأم والأب**

من حق الطفل [(٢)] المسلم ومن الإحسان إليه حسن اختيار أمه وأبيه؛ لأن تربيه الطفل تبدأ من نقطة سابقة كثيراً على مولده وهذا يستلزم إن أردنا الخير والسعادة لأبنائنا وجود أبوين مسلمين، هما ذاتهما قد تربيا على الإسلام، فمن الأب والأم تتكون الأسرة، والطفل ثمرة من ثمراتها، ومن حق هذه الثمرة أن تتهيأ لها أفضل الظروف للنمو والنضج، وكم أساء أحد الزوجين إلى أبنائه وبناته حين أخطأ في اختيار شريكه في الحياة الزوجية خداعاً بجمال، أو غنى مادى عارض دون تأكيد أولي حاسم للدين ومايتصل به من خلق أصيل، ومن ثم فقد وضع الإسلام بتشريعه السامى أمام كل من الخاطب والمخطوبة جملة من القواعد والأحكام إن اهتدى الناس بهديها فقد حققوا لأنفسهم ولأولادهم السعادة والأمن والاستقرار [(٣)].

● **المرحلة الأولى**

[أ] اختيار الزوجة (أم الأبناء)

المرأة زوجة أو أماً دعامة قوية فى كيان الأسرة، وعامل استقرار أساسى فى البيت، بل إن البيت هو مملكتها كما يقولون، وعلى عاتقها يقع العبء الكبير في تربية الأبناء وصناعة الرجال، ولاتتحقق الأسرة المسلمة القدوة إذا توافرت الصفات المطلوبة فى رب الأسرة فقط دون أن تتوافر الصفات المطلوبة فى الزوجة أيضاً.

---

(١) منهج التربية الإسلامية للشيخ محمد قطب ٢ / ١١١ .

(٢) الطفل والطفلة : الصغيران، والطفل : هوالصغير من كل شيء، والصبى يدعى طفلاً حين يسقط من بطن أمه إلى أن يحتلم «لسان العرب».

(٣) بتصرف عن بحث بعنوان تربية الطفل فى ضوء السنة د. العبد خليل أبو عيد مرجع سابق ص٥٧٣ .

ولقد فطن الأعداء إلى دور المرأة المؤثر فى الأسرة والمجتمع فاتخذوا منها وسيلة لنشر الرذيلة.

لذا: وجب على العاملين للإسلام أن يهتموا بالمرأة المسلمة وأن يجعلوا منها وسيلة لنشر الفضيلة ودعم كيان الأسرة والمجتمع وتنشئة الأجيال الملتزمة بالإسلام [1].

ويبدأ اهتمام الشريعة بالابن من قبل أن يولد، حيث يحض رسول الله ﷺ المسلمين عند اختيار أحد الزوجين للآخر أن يكون الانتقاء لشريك الحياة على أساس التقي والصلاح والأصالة والشرف، فذلك أدعى أن يكون الإنجاب من هذا الزواج أولاداً مفطورين على معالى الأمور، ومتطبعين بالأخلاق الإسلامية الكريمة، والعادات الأسرية الأصيلة، فهم يرضعون من والديهم الكريمين ألبان المكارم والفضائل ويكتسبون بشكل عفوى خصال الخير ومكارم الأخلاق [2].

وأول ما تجب مراعاته قبل الإقدام على الزواج أن يتعرف الطرفان، كلاهما على صاحبه، فلا يتركان الأمر للمصادفة الخابطة.

والإسلام فى هذه الناحية يوصى باختيار من له دين وخلق، ويحذر الاعتماد على مجرد الجمال أوالحسب، أو المال، وإن لصاحب الدين والخلق، من دينه وخلقه، أقوى مرشد وأهدى سبيل إلى تقدير هذه الرابطة تقديراً يدفع إلى القيام بمقتضاها، والمحافظة على حقوقها، وقديماً قيل: «إذا تزوج الرجل المرأة ،وقال: أى شيء لها؟ فاعلموا أنه لص».

ومن كلام الرسول عليه السلام فى هذا المقام «من تزوج امرأة لعزها لم يزده الله إلا ذلاً، ومن تزوجها لمالها، لم يزده الله إلا فقراً، ومن تزوجها لحسبها، لم يزده الله إلا دناءة، ومن تزوج امرأة، لم يرد بها إلا أن يغض بصره، ويحصن فرجه، أو يصل رحمه، بارك الله له فيها، وبارك لها فيه» وليس معنى هذا إهمال جانب الجمال، كيف وهو من بواعث الألفة والمحبة، وإنما القصد أن الإنسان لا يخضع فى الزواج لمجرد الجمال، أو أحد أخويه: المال أو الحسب، وإن كان مقترناً بسوء الخلق.

(١) استراتيجيات التربية الأسرية فى الإسلام ص ٧٩ .

(٢) محمود الصباغ ،السعادة الزوجية فى الإسلام ص ١٣٨ .

وليس من ريب فى أن سوء الخلق، يقضى على كل خير ويبعث الريبة فى كل مظهر وعندئذ لا ينفع جمال ولا مال فى إنشاء هذه الرابطة الشريفة [1] .

إن الزواج لا تقتصر ثمرته على إشباع الغريزة وتلبية الرغائب المادية بل إن له وظائف نفسية وروحية واجتماعية لابد من رعايتها واعتبارها إلى جانب مطالب الغريزة.

ومن هنا فلا يجوز الاقتصار فى اختيار الزوجة على اعتبار جانب الجسد وحده وإهمال ما عداه، بل لابد من رعاية الأهداف جميعاً وضمان الوفاء لها بما تحتاج.

إن كفاية الغريزة يكفى فيه الجمال والنضارة، ولكنه لن يغنى وحده فى إشباع أشواق الروح ورغائب النفس من السكينة والحب والأمان [2].

وعن قواعد الاختيار فقد تحدث القرآن الكريم فى كثير من آياته. قال الله تعالى: ﴿ وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلاً أَن يَنكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ فَانكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ فَإِذَا أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنكُمْ وَأَن تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَّكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [3].

وقال تعالى: ﴿ وَلا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ وَلأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُولَٰئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ [4]

وقال سبحانه: ﴿ وَأَنكِحُوا الأَيَامَىٰ مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [5] .

ومن أسمى الصفات التى تتحلى بها الزوجة، ويجب على راغب الزواج أن

---

(١) الإسلام عقيدة وشريعة للشيخ محمود شلتوت ص ١٤٩ .

(٢) د. مصطفى عبد الواحد الأسرة فى الإسلام ص ٢٢ .

(٣) سورة النساء الآية ٢٥ .

(٤) سورة البقرة الآية ٢٢١ .

(٥) سورة النور الآية ٣٢ .

يضعها نصب عينيه وأن يتحراها ويبحث عن المتصفة بها حينما يريد اختيار زوجته ما قاله الله تعالى: ﴿ عَسَىٰ رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُّؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا ﴾ [(١)].

فقد جمعت الآية كل الصفات المطلوبة والمرغوبة في إقامة بيت هادئ آمن مستقر يستطيع أن ينهض بما يسند إليه من تبعات فيؤدى رسالته فى المجتمع.

ويأتى فى مقدمة هذه الصفات:

الإسلام: بمعنى الطاعة والانقياد لله، فالزوجة التى لها نصيب من الطاعة لله ولرسوله، والزوجة المحافظة على أوامر دينها يسهل عليها طاعة زوجها ومتابعته فى كل شيء إلا أن يأمرها بمعصية الله ورسوله، فلا طاعة له إذن، لأنه لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق.

وتأتى صفة الإيمان بالله: الذى يعمر القلب بالنور واليقين، وفيه تتأصل الطاعة والانقياد لأمر الله سبحانه وتصدر الأعمال والقلب راض هادئ مطمئن، فلارياء ولا تظاهر بالطاعة. ويكسب قنوت القلب أعمال الزوجة وتصرفاتها جمالاً وحسناً.

وتأتى صفة التوبة: وهى الندم على ماوقع من معصية والاتجاه إلى الطاعة، فالزوجة التى تتحلى بهذه الصفة يمكنها أن تتدارك ما فاتها، وأن تفعل ما كان يجب عليها من خصال الخير النفسى والحسى لزوجها ولأفراد أسرتها ومجتمعها.

وتأتى صفة العبادة: فى قوله تعالى: ﴿عابدات﴾، وهى أداة الاتصال بالله سبحانه والتقرب إليه وإسلام الوجه له.

وتأتى صفة السياحة: وهى التأمل فى آيات الله سبحانه المبثوثة فى الكون والتفكير فى دلائلها وموحياتها [(٢)].

وقد اهتمت السنة النبوية باختيار الزوجة، فعن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ، قال: « تنكح المرأة لأربع، لمالها ولحسبها وجمالها ولدينها، فاظفر بذات الدين تربت يداك» [(٣)].

---

(١) سورة التحريم الآية ٥.

(٢) الأمومة فى القرآن الكريم والسنة النبوية، د. محمد السيد الزعبلاوى ص١٢٩، ١٣٠ بتصرف.

(٣) رواه الستة عدا الترمذى.

اشتمل الحديث الشريف على المرغبات المادية والمعنوية، وهى : تديُّنُ الزوجة، وقد اعتبرها رسول الله ﷺ حجر الزاوية فى أسس الاختيار، وذلك أن المرأة المتدينة وإن خلت من الجمال الحسى وهو أمر اعتبارى يختلف تقديره من فرد إلى فرد، فإن ذات الدين لها نصيب من جمال النفس، ونضارة القلب. والسلوك المستقيم، ولذلك فإن رسول الله ﷺ شدد على لزومها « فاظفر بذات الدين تربت يداك » بمعنى الزم ذات الدين وإن خلت من كل ما تقدم، فإن الصفات الثلاثة الأولى عرضة للتغير والتبدل»[1].

وقوله ﷺ : «تربت يداك» أكثر العلماء على أن هذا اللفظ إنما يقال فى الدعاء بالخير والتعجب فى الغالب، كما يقال : لله درك، ولله أبوك. وفى كلام العرب، وأكثر ما يراد بها الدعاء والتعجب، وإن كان أصلها خلاف ذلك ؛ لأن ترب الرجل إذا افتقر ،كأنه لصق بالتراب .- قال البغوى : معناه الحث والتحريض[2]،

واعتبار الدين والحرص عليه، يعنى رغبة الإسلام فى استقرار الأسرة ورخاء ريحها، فإن زوجة لادين لها وبال على زوجها وذريتها. ومثلها لا تغنى فى ملمة، ولا تثبت فى نازلة، ولا تسعد فى حياة.

إن جمالها وفتنتها ومالها وحسبها، لن يقر عينها، أو يقر عين أسرتها بها، بل ربما انقلبت مزاياها هذه إلى أخطار مدمرة وريح عاصفة.

أما إيمانها وتقواها، فإنه يجعلها ثمرة مباركة، ورحمة سابغة، ومتاعاً نافعاً. وزاداً معيناً .وفى هذا يقول الرسول ﷺ : « إن الدنيا كلها متاع، وخير متاعها المرأة الصالحة»[3].

وهذه المرأة الصالحة لا يفترض فيها أن تكون خالية من كل حلية سوى الصلاح، ولكن صلاحها هو الذى يمكنها من إسعاد أسرتها وبسط جناح الحب والرحمة عليها.

---

(١) تربية المراهق بين الإسلام وعلم النفس د/ محمد السيد الزعبلاوى ص ٤١٦ .

(٢) منال الطالب فى شرح طوال الغرائب لابن الأثير بتحقيق د.محمود الطناحى ص٣٤ .

(٣) رواه مسلم والنسائي

ونستطيع أن نرى صورة للزوجة المثلى من خلال إجابة النبى ﷺ لمن سأله : أى النساء خير ؟

قال : « التى تسره إذا نظر ، وتطيعه إذا أمر ، ولا تخالفه فى نفسها ولا ماله بما يكره »[1].

فهناك مجموع صفات : بعضها يتصل بجانب الجسد وجماله ، وبعضها يدل على شرف النفس وطهارة السريرة ونضج الخلق ، مما يدل على تكامل نظرة الإسلام إلى الزوجة الصالحة وشمولها لكل الآفاق[2] .

وإذا كان على الزوج أن يختار زوجته التى هى أم أولاده اختياراً صحيحًا كما قدمنا ، فعلى الزوجة أن تدقق فيمن توافق عليه زوجًا لها وأبا لأبنائها كنوع من أنواع الإحسان إلى الأبناء .

ولقد حث الإسلام على اختيار الأم من بيت شريف ، ومنبت كريم ، وأصل طيب ، وجعل تدينها أساس اختيارها ، وصلاحها سبب الزواج منها ، لأنها الأرض الطيبة التى تنبت الثمرة الطيبة .

لذا : نجد عثمان بن أبى العاص يوصى ولده حينما أراد أن يتزوج ، قال : يابنى الناكح مغترس ، فلينظر امرؤ حيث يضع غرسه ، والعرق السوء قلما ينجب ، فتخيروا ولو بعد حين .

والفاروق عمر رضى الله عنه عندما زوج ولده ابنة بائعة اللبن بعد أن استمع إلى الحوار الذى دار بينها وبين أمها ، ووجد فيها حسن المراقبة لله تبارك وتعالى ، وشعورها بأن الله تبارك وتعالى معها ، فى الوقت الذى كان فيه عمر بن الخطاب هو أمير المؤمنين وحاكم الدولة الإسلامية ، يخطب وده الجميع وتتمنى ولده كل فتاة ، لم يجد عمر غضاضة فى أن يزوج ولده من فتاة بسيطة لكنها متمسكة بالدين ، والتمسك بالدين هو عامل الاستقرار فى البيت والنجاح فى المجتمع .

وهكذا يتبين لنا أن السنة المطهرة حثت أن تكون الزوجة من ذوات :

---

(١) أصحاب السنن

(٢) د. مصطفى عبد الواحد ، الأسرة فى الإسلام ، ص ٢٤ ، ٢٥ .

١ - الدين والخلق :

حثت السنة المطهرة الأب أن يختار الأم ذات الدين لتكون وعاءً صالحاً لأولادها .

عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : «تنكح المرأة لأربع لمالها ولحسبها ولجمالها ولدينها فاظفر بذات الدين تربت يداك» [١] .

وفى الحديث : من الفقه مراعاة الكفاءة فى المناكح وأن الدين أولى ما اعتبر فيها [٢] .

وفيه الحث على مصاحبة أهل الدين فى كل شئ لأن صاحبهم يستفيد من أخلاقهم وبركتهم وحسن طرائقهم ويأمن من المفسدة من جهتهم [٣] .

والكفاءة فى الدين ، وأهل الإسلام كلهم بعضهم لبعض أكفاء [٤] .

وحضت السنة ورغبت أعظم الترغيب فى الاقتران بالمرأة الصالحة ذات الدين مبينة أنها خير متاع الدنيا ، وخير كنز يدخره المرء ، وضمن أمور أربعة لو تحققت للمرء لأصاب خير الدارين ،وخير ما يستفاد بعد تقوى الله عز وجل أنها من علامات السعادة للأسرة وللجيران وللمجتمع وللإنسانية جمعاء .

عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما عن رسول الله ﷺ قال : «الدنيا متاع وخير متاعها المرأة الصالحة» [٥] .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال لعمر رضى الله عنه : «ألا أخبرك بخير ما يكنزه المرء : المرأة الصالحة إذا نظر إليها سرته وإذا أمرها أطاعته وإذا غاب عنها حفظته » [٦] .

وعن سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «أربع من السعادة - منها - المرأة الصالحة . . . » [٧] .

---

(١) أخرجه البخارى كتاب النكاح باب الأكفاء فى الدين ، ومسلم .

(٢) الخطابى ٢ / ٥٣٩ معالم.

(٣) النووى شرح مسلم ١٠ / ٥٢ .

(٤) الخطابى ٢ / ٥٤٠ نقلاً عن مالك.

(٥) أخرجه مسلم فى الرضاع باب استحباب نكاح البكر ، والنسائى كتاب النكاح باب المرأة الصالحة.

(٦) أخرجه أبو داود ، وابن ماجة والحاكم وصححه ووافقه الذهبى ، وأحمد .

(٧) أخرجه ابن حبان فى صحيحه ، والخطيب فى التاريخ ، وأحمد .

عن ابن عباس رضى الله عنهما أن النبى ﷺ قال : «أربع من أعطيهن فقد أعطى خير الدنيا والآخرة - منها - زوجة لاتبغيه حوباً فى نفسها وماله» [(١)].

وعن أنس بن مالك رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : «ومن رزقه الله امرأة صالحة فقد أعانه على شطر دينه فليتق الله في الشطر الثانى» [(٢)].

فإذا تم اختيار على أساس الدين والخلق والصلاح جنب الزوج أطفاله الكثير من الصفات والأخلاق المذمومة التى يتعلمها الطفل من أمه ويتصف بها فيما بعد.

والذى لايمكن إنكاره واقعياً أن الزوجة غير ذات الدين تصبغ بيتها وأطفالها بصبغتها وتخرج جيلاً أبعد ما يكون عن الإسلام.

٢ - سلامة البدن والنفس

عن زيد بن كعب بن عجرة أن رسول الله ﷺ تزوج امرأة من بنى غفار فلما دخل عليها فوضع ثوبه وقعد على الفراش أبصر بكَشْحِها بياضاً فانحاز عن الفراش ثم قال : «خذى عليك ثيابك ولم يأخذ مما أتاها شيئًا. [(٣)]

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «لا عدوى ولاطيرة ولاهامة ولا صفر، وفر من المجذوم كما تفر من الأسد» [(٤)]

وعن عمرو بن الشريد الثقفى قال : «كانفى وفد ثقيف رجل مجذوم فأرسل إليه رسول الله ﷺ إنا قد بايعناك فارجع » [(٥)].

وعن عمر رضى الله عنه قال : أيما امرأة غُر بها رجل، بها جنون أو جذام أو برص فلها مهرها بما أصاب منها وصداق الرجل على من غره . [(٦)]

---

(١) أخرجه الطبرانى فى الكبيروالأوسط كما فى الترغيب. والحوب : الإثم العظيم اللسان ص١٠٣٦ .

(٢) أخرجه الطبرانى فى الأوسط، والحاكم وصححه ووافقه الذهبى.

(٣) أخرجه أحمد ٣ / ١٥والكشح قبل الخصر .

(٤) أخرجه البخارى. (٥) أخرجه مسلم.

(٦) أخرجه مالك فى الموطأ ٢ / ٥٢٦، والدارقطنى فى السنن ٣ / ٢٢٦، والبغوى فى شرح السنن ٩ / ٢١٢ وقال الحافظ فى بلوغ المرام ص ٢٥١ ورجاله ثقات.

وقد استدل بهذه الأحاديث على أن البرص والجنون والجذام عيوب يفسخ بها النكاح وقد ذهب جمهور أهل العلم من الصحابة فمن بعدهم إلى أنه يفسخ النكاح بالعيوب [1]، ويفسخ النكاح أيضاً بكل داء عضال [2] ويدخل في ذلك السل والزهري والإيدز وكل ما من شأنه أن يعدي والمصابون بالأمراض النفسية الخطيرة، لأن الأولاد ثمرة الزواج، وربما تنتقل بعض الأمراض إلى الأولاد عن طريق العدوى أو عن طريق المحاكاة والتعايش.

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : أربع لا يجزن في البيع ولاالزواج : المجنونة، والمجذومة، والبرصاء، والعفلاء . [3]

وعن علي رضي الله عنه قال : إذا تزوج المرأة فوجد بها جنوناً أو برصاً ،أو جذاماً أو قرنا فدخل فهي امرأته، إن شاء أمسك وإن شاء طلق. [4]

وفي حديث المجذوم وما في معناه دليل على أنه يثبت للمرأة الخيار في فسخ النكاح إذا وجدت زوجاً مجذوماً أو حدث به جذام.

عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال : «لا تديموا النظر إلى المجذومين [5] وهل يتأتى هذا بين الزوجين؟».

و إثبات العدوى في الجذام ونحوه مخصوص من عموم نفي العدوى فيكون معني قوله «لاعدوى» أي إلا من الجذام والبرص مثلاً فكأنه قال : لايعدى شيء شيئًا إلا ما تقدم تبييني له أن فيه العدوى. [6]

وقيل إن الأمر بالفرار من المجذوم ليس من باب العدوى في شيء بل هو لأمر طبيعي وهذا انتقال الداء من جسد لجسد بواسطة الملامسة والمخالطة وشم

---

(١) الشوكاني في نيل الأوطار ٦ / ١٧٧ .

(٢) أورده الشوكاني في نيل الأوطار ٦ / ١٧٧ نقلاً عن الزهري.

(٣) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى ,٧ / ٢١٥ ، والدارقطني . والعفلاء : العفل نبات لحم ينبت في قبل المرأة وهو القرن ولا يصيب المرأة إلا بعدما تلد، وهو شيء يخرج من قبل النساء . لسان العرب .

(٤) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى ٧ / ٢١٥ ، والدارقطني في السنن ٣ / ٢٦٧ .

(٥) أخرجه أحمد ، وابن ماجة في الطب باب الجذام وقال الزوائد رجال إسناده ثقات.

(٦) أورده الحافظ في الفتح ١٠ / ٦٩ نقلاً عن القاضي أبي بكر الباقلاني.

الرائحة، ولذلك يقع فى كثير من الأمراض فى العادة انتقال الداء من المريض إلى الصحيح بكثرة المخالطة.

ويقول ابن قتيبة : المجذوم تشتد رائحته حتى يسقم من أطال مجالسته ومحادثته ومضاجعته وكذا يقع كثيراً بالمرأة من الرجل وعكسه، وينزع الولد إليه، ولهذا يأمر الأطباء بترك مخالطة المجذوم لا عن طريق العدوى بل على طريق التأثر بالرائحة لأنها تسقم من واظب اشتمامها.(١)

والمراد بنفى العدوى أن شيئًا لا يعدى بطبعه، نفياً لما كانت الجاهلية تعتقده أن الأمراض تعدى بطبعها من غير إضافة إلى الله، فأبطل النبى ﷺ اعتقادهم ذلك وأكل مع المجذوم ليبين لهم أن الله هو الذى يمرض ويشفى ونهاهم عن الدنو منه ليبين لهم أن هذا من الأسباب التى أجرى الله عز وجل العادة بأنهاتفضى إلى مسبباتها، ففى نهى إثبات الأسباب، وفى فعله إشارة إلى أنها لاتستقل، بل الله - عز وجل - هو الذى إن شاء سلبها قواها فلا تؤثر شيئًا وإن شاء أبقاها فأثرت .(٢)

٣ - الشرف والأصل(٣)

عن عائشة رضى الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : «تخيروا لنطفكم فانكحوا الأكفاء وأنكحوا إليهم».(٤)

والتخير هو : أن تكون نسيبة أعنى أن تكون من أهل بيت الدين والصلاح فإنها ستربى بناتها وبنيها فإذا لم تكن مؤدبة لم تحسن التأديب والتربية.

فالطفل يكتسب صفات أبوية الخلقية والجسمية والعقلية منذ الولادة، فعندما يكون انتقاء الزوج أو اختيار الزوجة على أساس الأصل والشرف والصلاح فلا شك أن الأولاد ينشأون على خير ما ينشأون من العفة والطهر والاستقامة، فعلى راغبى الزواج أن يحسنوا الاختيار إن أرادوا أن تكون لهم ذرية صالحة وسلالة طاهرة، وأبناء مؤمنون وبنات مؤمنات.(٥)

---

(١) الفتح ١٠ / ١٧٠ . (٢) المرجع السابق .

(٣) الشرف : الحسب بالآباء ، والشرف والمجد لا يكونان إلا بالآباء ، وكل ما فضل عليه شيء فقد شرف

(٤) أخرجه ابن ماجة، فى النكاح باب الأكفاء، والدارقطنى فى السنن ٣ / ٢٩٩ .

(٥) منهج السنة النبوية فى تربية الإنسان د. بديرمحمد بدير، ص ٢٢-٢٧ .

إن تربية الأولاد مسئولية كبيرة وخطيرة، يجب الاهتمام بها والعناية بأمرها، لأن هدف التربية الإسلامية كما يقول الإمام الغزالى : يرمى إلى تحقيق الكمال الإنسانى بغايتيه : التقرب إلى الله ، وسعادة الدنيا والآخرة.[1]

و لكى تنهض الزوجة والأم المسلمة برسالتها على أنها قدوة نوصيها بما يلى :

١ - أن تؤمن فى قرارة نفسها بدورها الكبير، وأثرها الفعال فى جو الأسرة وحياتها، وأنها بسلوكها وحكمتها ويقظتها وحسن مراقبتها لله تعالى يمكنها أن تجعل من بيت الزوجية جنة يأوى إليها ويحن إليها الزوج والأولاد، يستروحون فيه من لفح الحياة ومتاعبها خارج البيت.

٢ - على الأم أن تقوم بواجبها ودورها الأساسى فى تربية الأولاد ورعايتهم، فهى أشد احتكاكاً بهم،وهم أشد حاجة إليها فى مرحلة بناء شخصيتهم ونموهم، ويلزم التنسيق بينها وبين الأب فى أسلوب التربية بحيث يتكامل البناء والتكوين ولايحدث تعارض أو تضاد بين الأسلوبين، فأحياناً نرى عاطفة الأم نحو أولادها إذا لم تكن منضبطة تكون سبباً فى تدليل الأولاد وتمردهم على سياسة والدهم وأسلوبه معهم، كما نرى بعض الآباء والأمهات يعطون الاهتمام الأكبر بصحة أبنائهم ولا يحظى تدينهم بمثل هذا الاهتمام فى حين أنه أولى.

وعلى الأم أن تتعرف العادات والأخلاق السيئة التى قد يتعرض لها الأبناء خارج البيت لتحميهم من التأثر بها وأن تتابع أصدقاء أولادها ونوعياتهم بحيث تجنبهم - بمعاونة الوالد - صداقة قرناء السوء ، وتطبق آداب الإسلام وتعاليمه عليهم، من بث التوجيه الدينى، وتعليم الصلاة لسبع والضرب عليها لعشر، ومن حيث التفريق بينهم فى المضاجع، وتعويد البنات على الحياء، وتقبل الزى الإسلامى عندما يبلغن سن الحيض أو قبله بقليل.

---

(١) الشيخ منصور الرفاعى عبيد فى بحث له بعنوان : تربية الناشئة فى ضوء السيرة مرجع سابق ص ٢٠٨.

وعلى الأم ألا تعتمد على المربيات إلا لضرورة ملحة، كما لاتعتمد على الرضاعة الصناعية إلا لضرورة صحية.

٣ - على الزوجة المسلمة أن تتحرى الحلال في كل ما يتصل بالمنزل من طعام وشراب وأثاث ولباس وغير ذلك، وأن تتحرز تماماً من الحرام وكذا ما فيه شبهة، كما يجب عليها أن يكون بيتها نموذجاً للنظافة والنظام، وتعود أولادها على ذلك.

٤ - عليها أن تحافظ على القواعد الصحية وعدم تعرض الطعام للتلوث، كذلك عدم جعل الأمور الخطيرة في متناول يد الأولاد كالأدوية والكبريت والأدوات الحادة وغير ذلك.

٥ - يلزم اتباع سنة رسول الله ﷺ وهديه في أعمال اليوم والليلة التي تمارس في المنزل كآداب الطعام والشراب واللباس والنوم والسلام والاستئذان وقضاء الحاجة ودخول المنزل والخروج منه والنظر إلى المرآة والأدعية المصاحبة لهذه الأمور وغيرها، وأن تتجنب العادات والتقاليد الجاهلية أو المستقاة من الغرب وما فيها من مخالفة لتعاليم الإسلام.

٦ - أن تحرص هي والزوج على إحياء المناسبات الإسلامية وتحبيبها لنفوس الأبناء كشهر رمضان وما فيه من صيام وقيام في المسجد والبيت، والبعد عما اعتاده الناس من أمور مخالفة كالسمر ومتابعة المسلسلات وحل الفوازير وترك قراءة القرآن الكريم، وكالتخمة وكثرة ألوان الطعام .[(١)]

• اختيار الزوج (والد الأبناء)

إن الزواج أحد أهم ثلاثة أحداث في حياة الإنسان وهي: الولادة والزواج والموت، والولادة والموت يحدثان دون إرادة منا، أما الزواج فقراره مرتبط بإرادتنا، ولا شك أن أهم القرارات المتعلقة بالزواج هي اختيار الزوج.

---

(١) بتصرف وتنظيم واختيار عن استراتيجيات الأسرة المسلمة من إعداد لجنة بإشراف أ.د. توفيق الواعي ص ٧٩-٨١ .

والاختيار الناجح للزوج سبب فى العشرة الصالحة، التى يقطع بها الزوجان رحلة الحياة بهدوء واطمئنان. فمتى كان الاختيار سليماً أقمنا البيت على أساس وطيد، فتملؤه السعادة، وتغمره المودة، وبعكس ذلك إذا أسأنا الاختيار كان الفشل والشقاء.

ومسألة اختيار الأزواج من المسائل الصعبة المعقدة فى عصرنا، وذلك كنتيجة لاختلاط الأمور على الناس بسبب سيطرة الجاهلية على المجتمع فى تصوراته وفكره وأخلاقه وتشريعه.

والتشريع الإسلامى قد أعطى للفتاة حرية قبول الزوج أو رفضه، ويجب على المرأة أن تختار الزوج الذى ترى فيه صلاحاً وتدينا؛ فإن ذلك فيه ضمان لمستقبل حياتها معه، فالشاب المتدين يلتزم فى سلوكه بما يرضى الله ورسوله ﷺ إن أحب أو كره فيعاشر بالمعروف أو يفارق بإحسان»[1].

لذا يحسن تجنب الخضوع لحكم الهوى، والنزوات العابرة، إذ لما كان الزواج من الأمور الخطيرة فى آثاره، وكان التوفيق فيه سبب فى سعادة الدارين، اقتضى ذلك أن يتم الاقدام عليه بحكمة وروية.

والزوج المحمود فى نظر الإسلام هو الذى تجتمع فيه صفات الإنسانية الفاضلة، وأخلاق الرجولة المكتملة، فينظر إلى الحياة نظرة صادقة، ويسلك فيها السبيل القويم.

وليس هو الذى يمتلك الثروة، أو يكلف بحسن المظهر والجاه دون أن يشفع ذلك بموهبة فضل أو عنصر خير[2].

وعلى الفتاة أن تحرص على الأول، فإن عنده سعادتها وأمنها، وألا تتطلع إلى الثانى، أو تنخدع بمظهره.

ولما كان للزواج آثار عظيمة استدعى تحقيقها أن يتم الزواج بصورة مدروسة واعية، وهذا لايتأتى إلا بسلامة الاختيار للزوج، ومن هنا تأتى أهمية هذا الاختيار.

---

(١) تربية المراهق بين الإسلام وعلم النفس د. محمد السيد الزعبلاوى ص٤١٦

(٢) الأسرة فى الإسلام، د. مصطفى عبد الواحد، ص ٢٦ .

وقد ركز النبى ﷺ على من تميز بالدين والخلق، قال ﷺ : « إذا أتاكم من ترضون دينه وخلقه فأنكحوه، إلا تفعلوا تكن فتنة فى الأرض وفساد كبير.

قالوا : يا رسول الله وإن كان فيه؟[1]

قال : إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فأنكحوه». ثلاث مرات[2] .

وجه الاستدلال بالحديث ما تضمنه من أمره ﷺ الأولياء بتزويج من خطب إليهم، فرضوا دينه وخلقه. ولم يذكر لهم ﷺ سوى الدين والخلق، ثم حذرهم من نتائج مخالفة أمره ﷺ بالامتناع عن تزويج صاحب الدين والخلق، بحثاً عما سواهما من النسب والمال وشرف المهنة، فبين لهم أن العاقبة وخيمة : وهى وقوع الفتنة والفساد الكبير فى الأرض التى تقع فيها مخالفة إرشاداته ﷺ وهو الناصح لأمته الرحيم بهم.

والحقيقة الكبرى التى يؤكدها الإسلام - فى هذا المجال - والتى ينبغى على كل من يريد الزواج أن يطبعها على سويداء قلبه هى : أن العنصر الأساسى فى الاختيار، والذى من شأن مراعاته وتحكيمه أن يكتب للأسرة السعادة والنجاح والديمومة هو التقاء الرجل والمرأة على الدين والتقوى والعقيدة والإيمان، أما الاقتصار على جمال المرأة أو مالها أو نسبها مع إهمال الدين والخلق وسائر المعانى الإنسانية فهو مدعاة الفشل وتعريض العلاقة الزوجية لخطر الانهيار السريع، وذلك لأن الأمور الحسية تتناقص وتفقد رصيدها فى النفس، ويتجدد الإعجاب بها على الأيام.

● وننبه الوالد إلى مايلى :

١ - أن يستشعر مسئوليته العظيمة والثقيلة أمام الله عن رعايته للأسرة، وأنه مسئول عن كل فرد فيها، وعن كل ما يتعلق به بدنياً وروحياً وعقلياً، وأساسها وأهمها الجانب الروحى : أى ما يتصل بالعقيدة والتربية الإسلامية التى يترتب عليها الحياة المصيرية فى الآخرة، فالله تعالى يقول :﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلائِكَةٌ غِلاظٌ شِدَادٌ لاَّ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾ ﴾[3]

---

(١) أى فقر وخسة أصل.

(٢) رواه الترمذى وحسنه.

(٣) سورة التحريم الآية ٦ .

وكذا حديث رسول الله ﷺ : «كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته».

٢ - عليه أن يكون قدوة حسنة لزوجته وأبنائه من حيث تمسكه بتعاليم الإسلام، وقيامه بتكاليفه والتخلق بأخلاقه، فذلك خير له، ويجعله أقوى تأثيراً في توجيهه ورعايته لأفراد أسرته، بخلاف ما إذا كان مقصراً في شيء من ذلك فإنه يفقد بذلك صلاحيته للتوجيه؛ حيث إن فاقد الشيء لايعطيه.

٣ - على الوالد أن يتعاون مع زوجته في حسن تربية الأبناء وتنشئتهم تنشئة إسلامية ليكونوا حقا قرة أعين لهما وعناصر بناءة في المجتمع الإسلامي، وإن أي إهمال في تربيتهم سيجعل منهم مصدر شقاء وإعنات لوالديهم، وعناصر هدم وفساد في المجتمع، والآيات والأحاديث تحث على هذا المعنى : ﴿ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا (٧٤) ﴾ [(١)].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له» [(٢)]

وعن النعمان بن بشير رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : «قاربوا بين أبنائكم» (يعني سووا بينهم).

وفي لفظ : «أعدلوا بين أبنائكم، اعدلوا بين أبنائكم، اعدلوا بين أبنائكم» [(٣)] (يعني في العطية).

وعن عائشة رضي الله عنها أن امرأة دخلت عليها ومعها ابنتان لها، قالت : فأعطيتها تمرة فشقتها بينهما، فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ ، فقال : «من ابتلى (أي اختبر) بشيء من هذه البنات فأحسن إليهن كن له ستراً من النار» [(٤)]

٤ - على الأب أن يضفي جو البهجة على الأسرة ويحقق لهم ألواناً من التسرية والترويح الخالية من الإثم، حتى لا يلجأ الأولاد إلى التسرية في مجالات آثمة، وأن يدربهم على العمل في الحديقة إن وجدت وتعليم بعض الأمور

---

(١) سورة الفرقان الآية ٧٤ .
(٢) رواه مسلم وغيره .
(٣) متفق عليه.
(٤) متفق عليه.

كالإسعافات الأولية، ومبادئ فى السباكة أو النجارة أو الكهرباء أو غير ذلك ففى ذلك ترفيه وتعليم.

كما يراعى الحرص على جو الحب والمودة بين الأبناء وعدم تنازعهم وسريان روح العداء والبغضاء بينهم، وتعويد المخطئ على الاعتذار لمن أخطأ فى حقه، وتعويد الآخر على التسامح وقبول الاعتذار.

٥ - على الأب رب الأسرة أن يكن يقظ الضمير حذراً مما تُحذّرُ منه الآيات الكريمة : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِن تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنفِقُوا خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ [(١)].

وقوله تعالى تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [(٢)].

٦ - على الأب الزوج المسلم أن يعمل على الارتقاء بمستوى أفراد أسرته الإيمانى وما يمليه هذا الإيمان من واجبات العمل والجهاد والتضحية فى سبيل تحرير الوطن الإسلامى ، والتمكين لدين الله فى الأرض.

٧ -على الوالد أن يكن معتدلاً فى أسلوب حياة الأسرة، فلايجنح إلى القسوة والشدة، ولا إلى اللين والتساهل ، ومعتدلاً كذلك بين الإسراف والتقتير، وبين التضييق والتسيب. [(٣)]

٨ - وعلى الزوج والزوجة إحسان المعاملة مع الخدم الذين يخدمونهم حتى يتأسى الأبناء بالآباء فى هذا الخلق الكريم وقد وضحنا ذلك فى بحث لاحق إلى جانب الاهتمام باليتامى وسيأتى بحثهم بعد.

---

(١) سورة التغابن الآيات ١٤-١٦ .

(٢) سورة المنافقون الآية ٩.

(٣) بتصرف عن كتاب استراتيجيات التربية الأسرية فى الإسلام إشراف أ.د. توفيق الواعى ص ٧٤-٧٧

ومن الإحسان إلي الأبناء اختيار أمهم بحيث لاتكون من القرابة القريبة حتى لا ينشأ الولد ضعيفاً ، وتنحدر الأمراض والعاهات من أبويه وأجداده ، لهذا يقول عليه الصلاة والسلام : «تخيرُوا لنطفكم فإن العرق دساس» (١)

وقد روى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال لبنى السائب ، وقد رأى ضعف ذريتهم : قد ضويتم فأنكحوا الغرائب . (٢)

وقد أكد علم الوراثة الحقيقة التى أقرها الإسلام ، فإن علماء الوراثة يقولون : إن نمو الطفل يكاد يتأثر فى بعض مظاهره تأثراً كلياً بالوراثة وأن العوامل الوراثية لها دور كبير فى تحديد لون البشرة والذكاء والمواهب العقلية المختلفة ، وسمات الشخصية والقدرة على التحصيل المدرسى .

ويعتقد علماء الوراثة نتيجة لما أجروه من دراسات وأبحاث علمية أن الطفل يرث نصف صفاته الوراثية من والديه ، كما يرث ربع صفاته الوراثية من أجداده المباشرين . (٣)

لذا : «يجب أن يهتم الشاب المقبل على الزواج بأن يحسن الاختيار الظاهرى ، وأن يحسب فى نفس الوقت حساب العوامل الوراثية لما لها من أثر فى انتقال صفة معينة من الأجداد والوالدين إلى الأولاد ، وهذه الصفات قد تكون مرغوبة مثل الذكاء ، أو غير مرغوبة مثل الضعف العقلى ، أو عمى الألوان . (٤)

اختيار الزوجة من الأسرة الصالحة التى عرفت بالصلاح والخلق ، وأصالة الشرف وأرومة الأصل ، فإن الطفل كما يتأثر بأبويه فإنه يتأثر كذلك بأعمامه وأخواله وأقارب أمه وأبيه ، وإلى هذا المعنى يشير النبى ﷺ بقوله : «تزوجوا فى الحجر الصالح فإن العرق دساس» (٥) .

---

(١) رواه ابن ماجة فى سننه والبيهقى فى السنن الكبرى ،ورواه ابن حبان فى صحيحه بإسناد آخر .

(٢) رواه ابن ماجة والدارقطنى عن عائشة ، قال ابن حجر : مداره على أناس ضعفاء .

(٣) الأسس النفسية للنمو د. فؤاد البهى ص ٤١ .

(٤) علم نفس النمو د. حامد زهران ص ٩١ ، عن بحث بعنوان : تربية الطفل فى ضوء السنة د. العبد خليل أبو عبيد نشر بكتاب المؤتمر العالمى الرابع للسيرة والسنة النبوية والمؤتمر العاشر لمجمع البحوث الإسلامية ص ٥٧٤- ٥٧٦ .

(٥) رواه أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث أنس.

وطبيعة الأصل الكريم أن يتفرع عنه مثله، وهذا ما أكده النبى ﷺ بقوله : «الناس معادن كمعادن الذهب والفضة، خيارهم فى الجاهلية خيارهم فى الإسلام إذا فقهوا»[1]

كما أنه تفضل البكر الولود، فإن البكر أقرب إلى التأدب والرضا، وحبها لزوجها ألصق بقلبها، إلا إذا كانت الحاجة تدعو إلى الثيب ،كأن يكون عنده أطفال فى حاجة إلى التربية ممن مارست ذلك، رؤى أن النبى ﷺ - قال يوماً لجابر رضى الله عنه - :

يا جابر : هل تزوجت بعد ؟

قلت : نعم يارسول الله .

قال : أثيبا أم بكرا؟

قلت : لا ، بل ثيبا .

قال : أفلا جارية تلاعبها وتلاعبك؟

قلت : يا رسول الله : إن أبى أصيب يوم أحد وترك لنا بنات سبعاً، فنكحت امرأة جامعة تجمع رؤوسهن، وتقوم عليهن .

قال : أصبت إن شاء الله »[1]

كما أن التزوج بالمرأة الولود يحقق المقصود من الزواج وهو الإنجاب، وغالباً ما تكون المرأة المنجبة ذات جسم قوى سليم من الأمراض، وذلك يمكنها من أداء واجباتها البيتية والتربوية على أكمل وجه.

يروى أن رجلاً خطب امرأة عقيما لاتلد، فقال : يا رسول الله إنى خطبت امرأة ذات حسب وجمال وأنها لاتلد .

فنهاه النبى ﷺ وقال : «تزوجوا الودود[2] الولود فإنى مكاثر بكم الأمم يوم القيامة .[3]

---

(١) رواه البخارى ومسلم وأصحاب السنن وغيرهم.

(٢) الودود : المرأة التى تتودد إلى وجها وتحبب إليه وتبذل ما فى وسعها لمرضاته.

(٣) رواه أبو داود والنسائى وابن ماجة بلفظ آخر.

• **التعوذ بالله من الشيطان والتسمية قبل الجماع**

ومن الإحسان إلى الأبناء التعوذ بالله من الشيطان الرجيم فالشيطان للإنسان عدو مبين، يحاول دائمًا أن يفسد عليه دينه ودنياه وآخرته، والحصيف هو الذى لا يترك مجالاً يحاربه فيه الشيطان إلا واستعاذ بالله تعالى منه ليغلق عليه جميع الأبواب ويفسد عليه جميع حيله وألاعيبه، وحتى لا يشارك الشيطان الرجيم فى نطفة الولد، كما تشير الآية الكريمة التى يقول الله تبارك وتعالى فيها للشيطان الرجيم : ﴿ وَشَارِكْهُمْ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُورًا (٦٤) ﴾ [(١)].

يقول القرطبى فى تفسير هذه الآية [(٢)] : روى عن مجاهد قال : إذا جامع الرجل ولم يسم انطوى الجان على إحليله فجامع معه، فذلك قوله تعالى : ﴿ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلا جَانٌّ (٥٦) ﴾ [(٣)] . وهو وصف الحور العين.

وعن ابن عباس رضى الله عنهما، عن النبى ﷺ قال : «لو أن أحدكم إذا أتى أهله، قال : بسم الله، اللهم جنبنا الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتنا فقضى بينهما ولد لم يضره» [(٤)].

وقال ابن دقيق العيد، فى معنى الضرر : يحتمل أن لا يضره فى دينه أيضًا، ولكن يبعده انتفاء العصمة لاختصاصها بالأنبياء.

وقال الدودى : معنى لم يضره : أى لم يفتنه عن دينه إلى الكفر، وليس المراد عصمته منه عن المعصية.

وقيل : يضره بمشاركة أبيه فى جماع أمه، كما جاء عن مجاهد أن الذى يجامع ولا يسمى يلتف الشيطان على إحليله فيجامع معه.

فعلى الزوج أن يلاحظ هذا عند الشروع فى مجامعة الزوجة الصالحة التى يسن لها كذلك أن تستعيذ بالله من الشيطان الرجيم وأن تسمى.

---

(١) سورة الإسراء الآية ٦٤.
(٢) تفسير القرطبى ١٠ / ٢٨٩ .
(٣) سورة الرحمن الآية ٥٦.
(٤) رواه البخارى ومسلم .

● **الاستتار**

عن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده قال : قلت يا رسول الله عوراتنا، ما نأتى منها وما نذر؟ قال : «احفظ عورتك إلا من زوجتك أو ما ملكت يمينك» قلت : يا رسول الله أرأيت إن كان القوم بعضهم فى بعض؟ قال : «إن استطعت أن لا تريها أحداً، فلا ترينها» قلت : يا رسول الله فإن كان أحدنا خالياً؟

قال : «فالله أحق أن يستحى منه من الناس» [1].

و عن عتبة بن عبد السلمى قال : قال رسول الله ﷺ : «إذا أتى أحدكم أهله فليستتر ولا يتجرد تجرد العيرين» [2]

وعن عائشة رضى الله عنها قالت : ما نظرت أو ما رأيت فرج رسول الله ﷺ قط. [3]

وبذلك يظهر لكل عقلية سليمة واعية امتياز السنة بالتشريع الذى يرقى بالإسلام عن مستوى الحيوان ويكفل له معنى الكرامة، ويحقق له معنى قيمة الإنسان ويوضح للإنسان قيمة نفسه.

لقد أحاطت السنة طلب الولد بسياج رفيع من السلوك والقيم، فقد حددت أسلوباً خاصاً فى اللقاءات الزوجية بما ينبئ ويبعد العلاقات عن السلوك البهيمى ويضعها فى موضعها الإنسانى الكريم الرفيع المتزن.

ولا شك أن الولد الذى سينحدر فى هذا الجو الإيمانى الربانى سيكون ولداً مباركاً طيباً إن شاء الله تعالى. [4]

وعن ابن عمر رضى الله عنهما أن النبى ﷺ، قال : «إياكم والتعرى فإن معكم من لايفارقكم إلا عند الغائط، وحين يفضى الرجل إلى أهله فاستحيوهم وأكرموهم» [5].

---

(١) أخرجه ابن ماجة، والترمذى كتاب الأدب باب ماجاء فى حفظ العورة وقال : هذا حديث حسن.

(٢) أخرجه ابن ماجة، والبزار والطبرانى. (٣) أخرجه ابن ماجة، والترمذى فى الشمائل.

(٤) منهج السنة فى تربية الإنسان د. بدير محمد بدير.

(٥) رواه الترمذى وقال : هذا حديث غريب.

عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «إذا أتى أحدكم أهله فليستتر فإنه إذا لم يستتر استحيت الملائكة فخرجت فإذا كان بينهما ولد كان للشيطان فيه نصيب» [1] .

إن الإسلام لا يتخلى أبدًا عن خطه الإنسانى، ويحاول الصعود بالمسلم إلى أفق الكمال، فلا تستغرقه العواطف المشبوبة، بحيث يظل وفيًا لإنسانيته أبدا .

• رعاية الأم الحامل من الناحية الصحية

إحساناً إلى ما فى بطنها ورعاية له تراعى الأم من الناحية النفسية والجسمية، وذلك بالغذاء الكافى، والراحة اللازمة، والعلاج من الأمراض، وإشباع رغباتها النفسية المشروعة، وتجنب الاضطرابات النفسية والعصبية وغير ذلك من كل ما يؤثر على الجنين.

ومن مظاهر اهتمام الشرع بالأم الحامل جواز فطرها فى رمضان إذا خافت على نفسها أو على جنينها من الصيام، فعن أنس أن رسول الله ﷺ قال : «إن الله عز وجل وضع عن المسافر الصيام وشطر الصلاة، وعن الحبلى والمرضع الصوم» [2] .

وفى لفظ بعضهم : «وعن الحامل والمرضع» [3]،وقد أجازه الفقهاء، وأوجبته العترة إذا خافت على الجنين والرضيع.

ومما يسهم فى تحقيق السعادة النفسية للحامل أيضاً أن الإسلام قد جعل لها أجر الصائم القائم عوضاً عما تتحمله من مشقة، فقد روى أن «سلامة» حاضنة إبراهيم ابن رسول الله ﷺ جاءت إلى النبى فقالت : إنك تبشر الرجال بكل شيء ولا تبشر النساء .

فقال : «أَصُويحباتك دسسنك لهذا؟»

قالت : أجل هن أمرننى .

فقال : «ألا ترضى إحداكن أنها إذا كانت حاملاً من زوجها وهو عنها راض أن

---

(١) مجمع الزوائد للهيثمى ورواه البزار والطبرانى.　　(٢) رواه الخمسة.

(٣) نيل الأوطار للشوكانى ٤ / ٤٣ .

لها مثل أجر الصائم القائم فى سبيل الله - عز وجل - وإذا أصابها الطلق لم يعلم أهل السماء والأرض ما أخفى لها من قرة أعين»[1]

كما قرر الفقهاء إحضار ما تميل إليه نفس الحامل من طعام وغيره، خصوصاً فى فترة الوحم، وأوجب ذلك الشافعية لأنه من المعاشرة بالمعروف، ولتأثيره على الجنين، فإجابة رغبتها تريح أعصابها وتهدئ نفسها، وثورة الأعصاب والقلق النفسى والانفعالات الحادة على الأخص لها تأثيرها على الجنين »[2].

• الجنين فى بطن أمه

إن فترة الحمل غنية بالإحساسات من حيث الشعور بالضعف والسعادة والنشوة المشوبين بالحذر والحيطة وتحمل الآلام، فعلى الأم أن تتعرف على أطوار الحمل فى أثناء الشهور التسعة لتكون على استعداد ودراية بما يجد عليها فى كل شهر من شهور الحمل.

وقد ورد فى القرآن الكريم وصف لمراحل تطور الجنين، قبل أن يصل العلم الحديث إليها، بل بما لم يصل إليه العلم إلى الآن من أسرار خلق الله، قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلالَةٍ مِّن طِينٍ (١٢) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ (١٣) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (١٤) ﴾[3].

وقال سبحانه : ﴿ هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٦) ﴾[4].

• سبحان الله !!!

لا حدود لقدرته وعظمته وحسن تدبيره فى خلقه إنه الإعجاز الإلهى يتجلى لنا فى أروع صورة وبيان ليترك لنا مجالاً للتفكر والتدبر.

ومن الأمور المهمة فى هذا الموضوع، ضرورة إدراك أن حياة الإنسان وهى وديعة وأمانة يجب المحافظة عليها، وتجنيبها الضرر بكافة أنواعه وأشكاله.

(١) أنظر أسد الغابة لابن الأثير ٧ / ١٤٤ .

(٢) موسوعة الأسرة تحت رعاية الإسلام للشيخ عطية صقر ٤ / ١٢٩، ١٣٠ بتصرف.

(٣) سورة المؤمنون الآيات ١٢-١٤ . (٤) سورة آل عمران الآية ٦ .

ومن شدة حرص الإسلام وعنايته الفائقة بالأم وجنينها أوجب على الزوج النفقة عليها وإن كانت مطلقة، حتى لا تهمل، ويهمل معها جنينها فيتعرضان للهلاك والضرر، قال تعالى :﴿ أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ وَإِن كُنَّ أُولَاتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَىٰ ﴿٦﴾ ﴾ [1] بالإضافة إلى أن الله تعالي خفف عنها بعض التكاليف الشرعية حيث أباح لها الفطر في رمضان إن خافت على نفسها أو جنينها وعليها القضاء فقط [2] وقد أثبت الطب الحديث تأثير الجنين بأعراض أمه الجسمية والنفسية وبما أن المرأة الحامل تتعرض لكثير من المخاطر والأمراض في أثناء فترة الحمل، ينصح الأطباء بوجوب اتباع العديد من الإرشادات الطبية، واتباع شروط السلامة في الناحية النفسية والجسمية لأن ما يصيب الأم ينتقل إلى طفلها، فهي مصدر غذائه، وصحته ومرضه. واستقامة أعضائه أو تشوهها، واعتدال مزاجه أو اضطرابه.

فيجب الامتناع عن تناول بعض الأدوية والعقاقير، وعدم التعرض للأشعة السينية، وعدم تعاطى الدخان وجميع الأشربة الكحولية والحبوب الضارة، وعليها أن تتناول الغذاء المتوازن، وتتجنب السهر والقلق والاضطرابات الانفعالية.

وعليها قبل كل شيء أن تلتزم بأداء الفرائض، والتقرب إلى الله تعالى بالنوافل، وعمل الخير، وقراءة القرآن الكريم، والذكر، والدعاء ﴿ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ﴾ [3]. لأن الحالة النفسية تتبع الحالة الجسدية، فهي بين الخوف والرجاء، بين الحزن والفرح، فذكر الله يهدئ النفس ويطمئن القلب، فعليها أن تطلب من ربها الذرية الصالحة كما قال الله تعالى : ﴿ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿٣٨﴾ ﴾ [4].

وعلى المحيطين بها من أفراد الأسرة وخاصة الزوج أن يشعروها بالحب والحنان وأن يبعدوا عنها أسباب القلق والنكد والإزعاج [5].

---

(١) سورة الطلاق الآية ٦.
(٢) الفقه على المذاهب الأربعة ٢ / ٧٣ .
(٣) سورة الرعد الآية ٢٨.
(٤) سورة آل عمران الآية ٣٨.
(٥) مشكلات المرأة المسلمة المعاصرة وحلها في ضوء الكتاب والسنة د.مكية مرزا ص ٦٩ بتصرف.

• الإكثار من أكل التمر الرطب

من الإحسان إلى الجنين أن تكثر من أكل التمر الرطب فهو مفيد لها وبالتالى مفيد للجنين الذى فى بطنها والذى يتغذى بغذائها، كما أنه يعمل على تسهيل عملية الولادة.

فقد ثبت فى الطب الحديث فائدة التمر والرطب من الناحية الغذائية والصحية، والمعجز أن القرآن الكريم قد سبق العلم الحديث فى هذا الاكتشاف، وخصوصًا توقيت أكله مع مخاض الولادة، وإليك ما اكتشفه العلم الحديث.

١ - تبين من البحوث المجراة على الرطب «ثمرة النخيل» الناضجة أنها تحوى مادة مقبضة للرحم، تقوى عمل عضلات الرحم فى الأشهر الأخيرة للحمل فتساعد على الولادة من جهة، كما تقلل من كمية النزف الحاصل بعد الولادة من جهة أخرى.

٢ - الرطب يحوى نسبة عالية من السكاكر البسيطة السهلة الهضم والامتصاص مثل سكر الجلوكوز، ومن المعروف أن هذه السكاكر هى مصدر للطاقة الأساسى. وهى الغذاء المفضل للعضلات، وعضلة الرحم من أضخم عضلات الجسم، وتقوم بعمل جبار أثناء الولادة التى تتطلب سكاكر بسيطة بكميات جيدة ونوعية خاصة سهلة الهضم، سريعة الامتصاص كتلك التى فى الرطب، كما أن علماء التوليد يقدمون للحامل وهى بحالة المخاض الماء والسكر بشكل سوائل سكرية «سائل الجلوكوز» ولقد نصت الآية الكريمة على إعطاء السوائل أيضاً مع السكاكر، قال تعالى: ﴿ فَكُلِي وَاشْرَبِي ﴾ وهذا إعجاز آخر.

٣ - الرطب من المواد الملينة التى تنظف القولون، ومن المعلوم طبيًا أن الملينات النباتية تفيد فى تسهيل وتأمين عملية الولادة بتنظيفها للأمعاء الغليظة [١].

٤ - قال الله تعالى مخاطبًا مريم: ﴿ وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا (٢٥) فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا ﴾ [٢]. قال ابن كثير: قال عمر بن ميمون: ما من شىء خير للنفساء من التمر والرطب ثم تلا هذه الآية [٣]

---

(١) مشكلات المرأة المسلمة المعاصرة وحلها فى ضوء الكتاب والسنة ص٧٤،٧٥.

(٢) سورة مريم الآيتان ٢٥، ٢٦.

(٣) تفسير القرآن العظيم ٣/ ١١٧.

وفى تفسير القرطبى أن الربيع بن هيثم قال : ما للنفساء عندى خير من الرطب لهذه الآية ، لو علم الله شيئا هو أفضل من الرطب للنفساء لأطعمه مريم [١] .

• بعد الخروج من بطن الأم

ومن الإحسان إلي المولود بعد الولادة وخروجه من بطن أمه بل ومن المستحب أن يؤذن فى أذنه اليمنى وأن يقام للصلاة فى أذنه اليسرى لتكون كلمة «الله أكبر» وشهادة الإسلام والأمر بالصلاة أول ما يقرع سمعه.

قال الإمام النووى فى الأذكار : روينا فى سنن أبى داود والترمذى وغيرهما عن أبى رافع رضى الله عنه مولى رسول الله ﷺ قال : رأيت رسول الله ﷺ أذن فى أذن الحسن بن على حين ولدته فاطمة بالصلاة.

قال جماعة من أصحابنا : يستحب أن يؤذن فى أذنه اليمنى، ويقيم الصلاة فى أذنه اليسرى. وقد روينا فى كتاب ابن السنى، عن الحسن بن على رضى الله عنهما، قال : قال رسول الله ﷺ : «من ولد له مولود فأذن فى أذنه اليمنى، وأقام فى أذنه اليسرى لم تضره أم الصبيان».

• استحباب البشارة بالمولود :

أما عن استحباب البشارة بالمولود فقد أخذها المسلمون من القرآن الكريم، حيث جاءت الملائكة تزف البشرى إلي سيدنا إبراهيم وزوجته، قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ (٦٩) فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ (٧٠) وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ (٧١) ﴾ [٢] .

وقوله تعالى فى حق زكريا عليه السلام : ﴿ فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ ﴾ [٣] .

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ١١ / ٩٦ .

(٢) سورة هود الآيات ٦٩-٧١ .

(٣) سورة آل عمران الآية ٣٩ .

وفى آية أخــرى : ﴿ يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴿٧﴾ ﴾ [١] .

لذا : تستحب البشارة والتهنئة بالمولود ، قال ابن القيم : روينا عن الحسن البصرى أن رجلاً جاء إليه وعنده رجل قد ولد له غلام، فقال : يهنك الفارس.

قـــال : قل بورك لك فى الموهوب، وشكرت الواهب، ورزقت بره، وبلغ أشده. [٢]

• تحنيك المولود

ومن الإحسان إلى المولود تحنيكه بالتمر، عن أسماء بنت أبى بكر - رضى الله عنهما- أنها حملت بعبد الله بن الزبير بمكة، قالت : فخرجت وأنا متم [٣] ، فأتيت المدينة، فنزلت بقُباء، فولدته بقباء، ثم أتيت النبى ﷺ فوضعه فى حجره، ثم دعا بتمرة فمضغها ثم تفل فى فيه [٤] فكان أول شىء دخل جوفه ريق رسول الله ﷺ ثم حنكه [٥] بالتمرة، ثم دعا له وبَرَّك [٦] عليه، وكان أول مولود ولد فى الإسلام [٧] .

تضع السيدة أسماء بنت أبى بكر مولودها فيسرعون به إلى رسول الله ﷺ فيدعو بتمرة فيمضغها ثم يتفل فى فمه ليكون أول شىء يدخل جوفه ريق رسول الله ﷺ ، فيالها من بركة ما بعدها بركة !!.

عن أنس قال : ... فولت «أم سليم» غلامًا فقال له : ... يا أنس لا يرضعه أحد حتى تغدوَ به [٨] على رسول الله ﷺ ، فلما أصبح احتملته فانطلقت به إلى رسول الله ﷺ ... فوضعته فى حجره، ودعا رسول الله بعجوة من عجوة

---

(١) سورة مريم الآية ٧ .

(٢) بحث للشيخ منصور الرفاعى عبيد بعنوان : تربية الناشئة فى ضوء السيرة نشر بكتاب المؤتمر العالمى الرابع للسيرة والسنة النبوية والمؤتمر العاشر لمجمع البحوث الإسلامية ص٨٠٧، ٨٠٨ بتصرف.

(٣) أى مقاربة الولادة.

(٤) أى : فى فمه.

(٥) حنكه : وضع فى فيه التمرة ودلك حنكه به.

(٦) بُرك عليه : أى قال اللهم بارك فيه.

(٧) رواه مسلم كتاب الآداب.

(٨) تغدوَ به : أى تذهب به فى الغداة، أى فى الصباح.

المدينة، فلاكها فى فيه [١] حتى ذابت، ثم قذفها فى فىِّ الصبى [٢] فجعل الصبى يتلمظها [٣].

قال : فقال رسول الله ﷺ : انظروا إلى حب الأنصار التمر.

قال : فسمح وجهه وسماه عبد الله [٤].

وهكذا كان الصحابة يحسنون إلى أبنائهم بتحنيكهم.

• فائدة التمر

للتمر قيمة غذائية عالية، وفوائد طبية عظيمة تفيد الطفل : يقول الدكتور / عبد العزيز مشرف [٥] : يقول الله تعالي : ﴿ وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا ﴾ [٦].

فقد فضل الله البلح لمريم، لما فيه من فوائد غذائية وقيمة طبية، وقد أفاض العرب فى وصف النخلة والبلح والتمر. كما أن للتمر والبلح فوائد دوائية مختلفة، أقرها الطب العربى القديم، ثم حققها البحث العلمى الحديث.

• إعجاز قرآنى

وبعد أن بين الباحث عناصر التمر الغذائية يقول: نقرأ الآية : ﴿ وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴾ من قصة مريم وقد نمر عليها من غير أن نربط بين الحالة التى عليها مريم وهى فى أيامها الأخيرة من حملها بعيسى عليه السلام، وبين أمرها بأكل الرطب الذى يتساقط من النخلة، حتى جاء العلم الحديث وفسر لنا هذا السر وما فيه من إعجاز قرآنى.

إن الله جلت قدرته يأمر مريم بأن تأكل البلح لا لغذائها فقط، بل لأمر آخر يعلم كنهه وسره وهو مساعدتها فى ولادتها لنبيه ورسوله عيسى عليه السلام.

وأراد لها ولادة سهلة فى وحدتها، فوصف لها الرطب لتأكل منه ليقوم هذا الرطب الذى أمرها الله به بدور الدواء الذى غالبًا ما يقدمه الأطباء فى العصر الحديث للحامل قبل الولادة.

---

(١) لاكها فى فيه : أى مضغها فى فمه مضغاً رفيقًا.

(٢) فى فىِّ الصبى : فى فم الصبى.

(٣) يتلمظها : أى يتتبع بلسانه ويمسح به شفتيه.

(٤) رواه مسلم.

(٥) منبر الإسلام العدد ٥ السنة ٣١.

(٦) سورة مريم الآيتان ٢٥، ٢٦.

وقد أفاض المؤلف في بيان فوائد التمر للأمعاء، والدم، والبطن، والصحة العامة مما يؤكد موقف الإسلام في حرصه على صحة الحامل، في سبيل وليد يستقبل حياته صحيحاً بين أحضان أم تمنحه من صحتها النفسية والجسمية ما يساعده على النمو والتكيف.

وفي الوقت الذي يختار فيه الرسول ﷺ «التمر» بالذات ويركز عليه مما يلفت الأنظار إلى ما لهذا الغذاء من فائدة طبية وغذائية تتصل بالمولود نفسه وبخاصة في هذه اللحظات التي يبدأ فيها مرحلة تغاير تماماً رحم الأم، وتحتاج إلى عنصر فعال يساعده على التكيف مع البيئة الجديدة، فكان الأمر بالتحنيك رحمة بالأم وبالولد وكان أيضاً شهادة صادقة أن هذا الدين من عند الله.

والآثار المستفيضة تؤكد أهمية التحنيك، بل وضرورة الإسراع به، من حيث كانت حياة الوليد الجديدة شديدة الاختلاف عما كان الحال عليه في بطن أمه، ومن ثم فلابد من الوقوف إلى جانبه ليحدث التكيف المطلوب وليتمرن على الأكل ويقوى عليه كما قرر ذلك بعض العلماء [(١)].

لذا فقد أوصى النبي ﷺ بالإكثار من تناول التمر لما فيه من خير لصحة البدن، وطرد ما به من أسقام، فعن سلمة بنت قيس رضي الله عنها، أن رسول الله ﷺ قال: «أطعموا نساءكم في نفاسهن التمر، فإنه من كان طعامها في نفاسها التمر خرج وليدها حليماً، فإنه كان طعام مريم حيث ولدت، ولو علم طعاماً خيراً من التمر لأطعمها إياه» [(٢)].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «بيت لا تمر فيه جياع أهله» [(٣)].

وعن سليمان بن عامر الضبي رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا أفطر أحدكم فليفطر على تمر، فإن لم يجد فليفطر على ماء فإنه طهور» [(٤)].

وعن أنس رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يفطر قبل أن يصلي على رطبات، فإن لم تكن رطبات فتميرات، فإن لم تكن تميرات حسا حسوات من الماء [(٥)].

---

(١) د. محمود محمد عمارة تربية النشء في ظل الإسلام ص ١٠٢.

(٢) رواه البخاري.

(٣) رواه مسلم وأبو داود والترمذي وابن ماجة.

(٤) رواه أبو داود والترمذي.

(٥) رواه أبو داود والترمذي.

• **القيمة الغذائية للتمر**

اعتمد سكان البوادى عبر تاريخهم الطويل على التمر كغذاء أساسى، وأدركوا أهميته للجسم، وقد أثبت الطب الحديث أنهم كانوا على حق كل الحق، فالتمر فى المنظور الطبى يعتبر غذاء «شبه» متكامل، فهو يحتوى على معظم العناصر التى يحتاجها الجسم.

• **شفاء ودواء**

كثرت الأبحاث حول أهمية التمر كدواء للكثير من الأمراض، وقد ثبت أنه علاج ناجح للسعال والتهاب القصبة الهوائية، وذلك بخلط ٥٠ جرام منه مع ٥٠ جرام من العنب الجاف «الزبيب» مع ٥٠ جرام من التين المجفف مع ٥٠ جرام من العنب المجفف وغلى الجميع على نار هادئه فى لتر ماء، وتناول معلقة كبيرة من هذا الشراب ثلاث مرات يوميًا.

وَغِنَى التمر بفيتامين أ يجعله علاجًا ممتازًا للحفاظ على رطوبه العين، وبريقها، ومنع جحظ كرتها، وتقوية الرؤية.

وهو مهدئ جيد للأعصاب المتوترة بتنظيمه لنشاط الدرقية، وينصح بإعطاء الأطفال العدوانيين بضع تمرات من التمر كل صباح، لتضفى الهدوء والسكينة على نفوسهم، وتحد من تصرفاتهم المزاجية المضطربة.

وقد أكدت إحدى الدراسات التى أجريت من قبل إحدى الجامعات العربية بالتعاون مع منظمة الصحة العالمية، أن انعدام مرض السرطان بين سكان البوادى والواحات، يرجع إلى اعتمادهم على التمر كغذاء أساسى.

ويعتبر التمر من الملينات الطبيعية الممتازة، كما أنه أفضل غذاء يقدم لمرضى الفشل الكلوى، وأفضل غذاء لرجال الفكر الذين ينهكون أذهانهم، وبالغ الأهمية للمسرفين فى سلوكهم الجنسى، وهو منبه لحركة الرحم، مقو لعضلاته، مما يجعل الولادة أكثر سهولة، والأملاح القلوية التى يحتويها التمر تعمل على تنظيم حموضة الدم.

كما ثبت أنه يفيد مرضى ضغط الدم المرتفع، والبواسير، والنقرس، والمرارة كما أنه يقوى السمع عند المسنين [١].

---

(١) مجلة التضامن الإسلامى من بحث للدكتور. محمد عبده حسين باختصار شوال ١٤١٣هـ.

• الرضاعة

إرضاع الطفل باب من أبواب الإحسان إليه لكي ينمو نمواً سليماً من الناحيتين الصحية والنفسية فقد وجهت الشريعة الإسلامية الأم إلى أن تقوم بإرضاع وليدها لمدة عامين كاملين قال تعالى : ﴿ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلاَّ وُسْعَهَا لا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلا مَوْلُودٌ لَّهُ بِوَلَدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالاً عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوا أَوْلادَكُمْ فَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّا آتَيْتُم بِالْمَعْرُوفِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢٣٣) ﴾ [١] .

وقال جمهور المفسرين : إن هذين الحولين لكل ولد .

وروى عن ابن عباس أنه قال : هى فى الولد يمكث فى البطن ستة أشهر فإن مكث سبعة أشهر فرضاعة ثلاثة وعشرون شهراً ، فإن مكث تسعة فرضاعه أحد وعشرون شهراً لقوله تعالى : ﴿ وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاثُونَ شَهْرًا ﴾ [٢] وعلى هذا تتداخل مدة الحمل ومدة الرضاع ويأخذ الواحد من الآخر» [٣]

* وتقرر الآية الكريمة ما يلى :

أ - الأم أحق برضاع ولدها ، وهذا الحق من الثبات بحيث لا ينبغى أن يكون محل نقاش ، كما تفيد الجملة الخبرية «والوالدات يرضعن أولادهن» .

ب - تكفل الوالد بالرزق والكسوة في حدود طاقته .

جـ - جواز دفع الوليد إلى مرضعة غير أمه بحيث تكون مكفولة الرزق والرعاية .

د - تختم الآية الكريمة بالأمر بالتقوى، ولفت الأنظار إلى علم الله تعالي الكاشف عن خواطر النفوس ، الداعى إلى تكاتف الجهود ليخرج الوليد من بين المعارك الزوجية سليماً معافى [٤] .

---

(١) سورة البقرة الآية ٢٣٣ . (٢) سورة الاحقاف آية ١٥ .

(٣) القرطبى ٣/ ١٦٣ .

(٤) د . محمود محمد عماره تربية النشء في ظل الإسلام ص ١٣١ .

والأم أحق برضاع المولود لحنانها ورقتها وعطفها وحسن تعاملها معه، قال السدى والضحاك وغيرهما [1] : أى هن أحق برضاع أولادهن من الأجنبيات، لأنهن أحنى وأرق، وانتزاع الولد الصغير إضرار به وبها.

وإذا كانت الآية الكريمة تُجَوِّزُ دفع الوليد إلى مرضعة إلا أن الأفضل له أن ترضعه أمه لما بينا ولما للبنها من المزايا الكثيرة التى تفوق ألبان الحيوان والألبان الصناعية بمراحل كثيرة، ومن مزايا لبن الأم ما يلى :

أ - إن لبن الأم المرضع يحتوى على نسب متوازنة من غذاء الرضيع تتلاءم مع احتياجاته، وتلتقي مع احتياجات الرضيع في فترات الرضاعة المختلفة متمشية مع نموه.

ب - إنه يحتوى على مواد بروتينية تكسب الرضيع قوة ومناعة ضد بعض الأمراض التى تحصنت منها الأم في الشهور الأولى من عمره.

جـ - إن هذا اللبن لا يتعرض للتلوث، حيث إنه يخرج من الأم إلى فم الطفل مباشرة.

د - إنه يقرب الاتصال النفسى بين الطفل والأم المرضعة، وبهذا ترسخ عاطفة الأمومة والبنوة بالرباط المتين الصادق الصحيح.

هـ - إن لبن «المسمار» الذى تفرزه الأم فى الأيام الأولى من الرضاع يعمل علي تنشيط الأمعاء لدى الطفل، فيحدث اللين المناسب، ويساعد على عملية الإخراج الطبيعية.

و - وأما من ناحية الأم فإن عملية الرضاع تعجل، وتستكمل عملية عودة الرحم إلى حجمه وحالته الطبيعية.

ومما سبق يتبين بكل جلاء ووضوح أن الرضاعة لها أهمية كبرى لحماية الأم والرضيع من الوجهة الطبية والاقتصادية والاجتماعية والإنسانية.

ومن هنا يكون الحرص على سلامة الأم فى هذه الفترة حرصًا على الرضيع ذاته، وتوفيرا للمناخ الملائم تمام الملائمة لنموه الطبيعى [2] .

---

(١) تفسير القرطبي ٣ / ١٦٠ .

(٢) د. محمد الأحمدى أبو النور، منهج السنة فى الزواج ص ٤٤٤، ٤٤٥.

- **إثبات نسبه**

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : لما نزلت آية الملاعنة قال النبى ﷺ : «أيما رجل جحد ولده وهو ينظر إليه احتجب الله منه وفضحه على رؤوس الأولين والآخرين»[١] .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : جاء رجل من بنى فَزَارَة إلى النبى ﷺ فقال : إن امرأتى ولدت غلامًا أسود وهو يريد الانتفاء منه، فقال : هل لك من إبل ؟ قال : نعم، قال : ما ألوانها؟ قال : حمر، قال : هل فيها من أورق؟ قال : فيها زُودٌ وُرْق ، قال : فما ذاك تُرَى ؟ قال : لعله أن يكون نزعها عرق، قال : فلعل هذا أن يكون نزعه عرق، قال : فلم يرخص له فى الانتفاء منه،

وفى رواية : قال أبو هريرة : فمن أجله قضى رسول الله ﷺ هذا : «لايجوز لرجل أن ينتفى من ولد ولد على فراشه إلا أن يزعم أنه رأى فاحشة»[٢] .

وعن صفية بنت أبى عبيد أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : ما بال رجال يطأون ولا ئدهم ثم يدعونهن يخرجن ، لا تأتينى وليدة يعترف سيدها أن قد ألم بها إلا ألحقت به ولدها فأرسلوهن بعد أو أمسكوهن.[٣]

ولقد ألغى الإسلام التبنى وأمر بنسبة الأولاد إلى آبائهم الأصليين فإن لم يعلم لهم آباء فهم إخوان لنا فى الدين ، قال سبحانه وتعالى : ﴿ ادْعُوهُمْ لآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ ﴾[٤] .

وفى قوله تعالى : ﴿ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ مسائل منها : أن الولد إنما يلتحق بالوالد لكونه مولودا على فراشه على ما قال ﷺ : «الولد للفراش»[٥] فكأنه قال : ولدت المرأة الولد للرجل وعلى فراشه وجب عليه رعاية مصالحه، فهذا تنبيه على أن سبب النسب واللحاق مجرد هذا القدر[٦] .

---

(١) أخرجه الشافعى فى مسنده، وأبو داود فى كتاب الطلاق باب التغليظ فى الانتفاء، والنسائى وابن ماجة.

(٢) أخرجه البخارى فى الطلاق باب إذا عرض بنفى الولد.

(٣) أخرجه مالك فى الموطأ فى الأقضية.

(٤) سورة الأحزاب الآية ٥ .

(٥) سورة البقرة الآية ٢٣٣ .

(٦) أخرجه البخارى ، ومسلم فى الرضاع باب الولد للفراش وتوقى الشبهات.

وهذا الحق من أعظم ما أثبتته السنة للطفل بعد انفصاله من أمه فمن حق الولد على أبيه إثبات نسبه منه لأنه ثمرة الزواج الشرعي بين أبويه.(١)

• **حلق رأس المولود**

من الإحسان إلى المولود حلق رأسه يوم السابع فقد روى يحيى بن بكير عن أنس بن مالك رضى الله عنه : أن رسول الله ﷺ أمر بحلق رأس الحسن والحسين يوم سابعهما فحلقا وتصدق بوزنه فضة.

عن سمرة بن جندب رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : «كل غلام رهينة بعقيقته تذبح عنه يوم سابعه ويحلق ويسمى»(٢)

وعن سلمان بن عامر الضبى رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «مع الغلام عقيقة فأهريقوا عنه دماً وأميطوا عنه الأذى»(٣)

وعن الحسن أنه كان يقول : إماطة الأذى حلق ا لرأس .(٤)

وعن على بن أبى طالب رضى الله عنه قال : عق رسول الله ﷺ عن الحسن بشاة وقال : يا فاطمة احلقى رأسه وتصدقى بزنة شعره فضة فوزنته فكان وزنه درهماً أو بعض درهم.(٥)

وعن عائشة رضى الله عنها قال : «عق رسول الله ﷺ عن الحسن والحسين يوم السابع وسماهما وأمر أن يماط عن رؤوسهما الأذى»(٦)

ولحق الرأس والتصدق فائدتان :

١ - فائدة صحية لأن فى إزالة شعر رأس المولود تقوية له وفتح لمسام الرأس وتقوية لحاسة البصر والشم والسمع.

٢ - وفائدة اجتماعية وإنسانية : وذلك لأن وفى التصدق بوزن شعره فضة على أهل الحاجة تحقيق لفضيلة التراحم والتكافل الاجتماعى مما يؤدى إلى تزكية الطفل وتطهيره.(٧)

---

(١) منهج السنة النبوية فى تربية الإنسان د. بدير محمد بدير ص ٥٢،٥٣ .

(٢) أخرجه أبو داود، والترمذى ، وقال هذا حديث حسن صحيح.

(٣) أخرجه البخارى، وأبو داود . والترمذى ، وابن ماجة.

(٤) أخرجه أبو داود، والحاكم وصححه ووافقه الذهبى.

(٥) أخرجه الترمذى وقال حسن غريب، والحاكم. (٦) أخرجه الحاكم ٤ / ٢٣٧ وصححه ووافقه الذهبى.

(٧) منهج السنة النبوية فى تربية الإنسان د. بدير محمد بدير ص ٤٤ .

ولعل في إزالة شعر رأس المولود تقوية له، وفتحاً لمسام الرأس، وتقوية كذلك لحاسة البصر والشم والسمع كما قال ابن القيم في كتابه «تحفة المودود».

أما أن يحلق من رأسه مواضع من هاهنا ومن هاهنا أو أن يحلق وسطه ويترك جوانبه أو أن يحلق جوانبه ويترك وسطه أو أن يحلق مقدمه ويترك مؤخره فذلك من القزع الذي نهى عنه رسول الله ﷺ في الحديث الذي أخرجه البخاري ومسلم عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: «نهى رسول الله ﷺ عن القزع».

ولعل الحكمة من النهي عن القزع هي أن رسول الله ﷺ كان حريصاً أن يظهر المسلم في المجتمع بمظهر لائق في مظهره وهندامه، وحلق بعض الرأس وترك بعضه يتنافى مع جمال المسلم ومع شخصيته الإسلامية التي يتميز بها عن بقية الملل والمعتقدات [1].

● **تسمية المولود بأحسن الأسماء**

من الإحسان إلى المولود تسميته بأحسن الأسماء خلافاً لما كان العرب يفعلونه فقد كان العرب في بداوتهم يسمون أبناءهم بما ينبئ عن الصعوبة والشدة والإيلام والمرارة، حتى يخيفون الأعداء منهم، ويجعلهم يتطيرون من مجرد سماع هذه الأسماء، فيخشوا بأسهم، ويتهيبوا لقاءهم.

كما كانوا يتخيرون أحسن الأسماء لمواليهم وعبيدهم ليناودهم بها، فيشيعوا البهجة والسرور في مجالسهم.

وكانوا يقولون: إنما نسمي أبناءنا لأعدائنا، ونسمي موالينا لنا.

فلما جاء الإسلام دعا إلى السلام بالقول والعمل، وأقر الرحمة بين الناس، وأمر بالعدل والإحسان فيهم، ونهى عن الطيرة والتشاؤم، وكان لابد من تغيير ما يتنافى مع تعاليمه من عادات توارثوها عن أسلافهم، فكان ﷺ يغير من أسماء أصحابه ما كان منها نذيراً بالحرب والمرارة أو بالقسوة والجدب، إلى ما ينشر السكينة والأمن، ويفتح للقلوب أبواب الأمل [2].

---

(١) محمود الصباغ، السعادة الزوجية في الإسلام ص١٤٢ بتصرف.

(٢) توجيهات من السنة في مجال الأخلاق والأسرة د. محمد رشاد خليفة ص ٣٤٤.

وتكون تسمية الطفل قبل أن يولد أو حين ولادته أو فى اليوم السابع أو قبله أو بعده، فعن ثابت بن أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «ولد لى الليلة غلام فسميته باسم أبى إبراهيم» [1].

وعن سهل بن سعد الساعدى قال : أتي بالمنذر بن أبى أسيد إلى رسول الله ﷺ حين ولد، فوضعه النبى ﷺ على فخذه وأبو أسيد جالس، فلهى النبى ﷺ بشىء بين يديه، فأمر أبو أسيد بابنه فاحتمل من على فخذ النبى ﷺ، فقال رسول الله ﷺ : «أين الصبى؟».

فقال أبو أسيد : قلبناه يارسول الله «أى أرجعناه».

فقال : «ما اسمه؟» قال : فلان [2].

وعن سمرة قال : قال رسول الله ﷺ :«كل غلام رهين بعقيقته، تذبح عنه يوم سابعه، ويسمى فيه، ويحلق رأسه» [3].

فيؤخذ من هذه الأحاديث أن فى الأمر سعة، فيجوز تسمية المولود فى اليوم الأول ويجوز التأخير إلى ثلاثة أيام ويجوز تسميته فى اليوم السابع أو قبل ذلك أو بعده.

ووردت الأحاديث النبوية الشريفة تدعو إلى الاهتمام بالأسماء وحسن اختيارها، يقول ﷺ :«إنكم تدعون يوم القيامة بأسمائكم وبأسماء آبائكم فأحسنوا أسماءكم» [4]

وقوله عليه الصلاة والسلام :«إن أحب أسمائكم إلى الله عز وجل عبد الله وعبد الرحمن» [5].

وقوله ﷺ : «تسموا بأسماء الأنبياء، وأحب الأسماء إلى الله عبد الله وعبد الرحمن، وأصدقها حارث وهَمَّام، وأقبحها حرب ومرة» [6].

(١) رواه مسلم.
(٢) رواه البخارى ومسلم.
(٣) رواه أصحاب السنن.
(٤) رواه أبو داود بإسناد حسن عن أبى الدرداء.
(٥) رواه مسلم عن ابن عمر.
(٦) رواه أبو داود والنسائى عن وهب الخثعمى.

قال ﷺ : «أحب الكلام إلى الله أربع : سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر، لا تسمين غلامك يسارا ولا رباحًا ولا نجيحا ولا أفلح، فإنك تقول : أثم هو ؟». فلا يكون . فيقول : لا.[1].

قال رسول الله ﷺ : «إن أخنع الأسماء على الله عز وجل، رجل تسمى بملك الأملاك ، لا مالك إلا الله »[2].

ومعنى أخنع : أى أوضع وأذل وكذلك كل من كان فى حكمه : كشاهنشاه : ملك الملوك، ومثل أحكم الحاكمين وسلطان السلاطين.

وقال رسول الله ﷺ : «أغيظ رجل على الله يوم القيامة وأخبثه رجل يسمى بملك الأملاك، لا ملك إلا الله »[3].

وفى تاريخ أبى خيثمة : أن طلحة كان له عشرة من الولد، ولكل منهم اسم نبى، وكان للزبير عشرة ولكل منهم اسم شهيد.

فقال له طلحة : لقد سميتهم بأسماء الأنبياء، وأنت تسميهم بأسماء الشهداء ؟

فقال له الزبير : فإنى أطمع أن يكون بَنِيَّ شهداء، وأنت لا تطمع أن يكون بنوك أنبياء[4].

وهكذا نجد أن أفضل الأسماء التى تسمى بها الأنبياء والأسماء المعبدة لله، كعبد الله وعبد الرحمن مع وجوب تجنب الأسماء المعبدة لغير الله مثل : عبد العزى وعبد الكعبة وعبد الرسول وعبد النبى والأسماء التى فيها تميع وتشبه وغرام مثل هيفاء وهيام ونهاد وسوسن وميادة وناريمان وغادة وأحلام، وما شابهها ، والأسماء المنشقة من كلمات فيها تشاؤم حتى يسلم الولد من سوء هذه التسمية وشؤمها مثل حَزْن وجمرة، والأسماء المختصة بالله سبحانه وتعالى : الأحد والصمد والخالق والرازق، والأسماء التى فيها يمن أو تفاؤل حتى لا يحصل كدر عند مناداتهم وهم غائبون بلفظ : لا ، مثل: أفلح ونافع.

---

(١) رواه مسلم وأبو داود والترمذى عن سمرة.

(٢) رواه البخارى فى الأدب من الصحيح، باب أبغض الأسماء إلى الله ،

(٣) رواه مسلم فى صحيحة.

(٤) فتح البارى ١٠ / ٥٨٠ .

ولا شك أن الأسماء الحسنة والتي تتناسق مع العقيدة الإسلامية، يكون لها أطيب الأثر في نفس المسمى ، فضلاً عن أنها تميز الأمة الإسلامية عن غيرها من الأمم، في كل مظاهر حياتها لتكون، دائمًا خير أمة أخرجت للناس، تهدى البشرية إلى نور الحق ومبادئ الإسلام [١].

وقد كان من عادة الرسول ﷺ أن يغير الاسم القبيح [٢] : فقد كان لعمر رضى الله عنه ابنة يقال لها عاصية فسماها الرسول ﷺ جميلة [٣] ، وقد غير ﷺ اسم العاصى وعزيز وعقله [٤] وشيطان والحكم وغراب وحباب [٥] ، وسمى من اسمه حربًا : سلمًا، وسمى المضطجع : المنبعث، وبنى الزنية : بنى الرشدة، وسمى بنى مغوية : بنى رشدة [٦].

وكذلك غير رسول الله ﷺ : شهاباً إلى هشام، وبرة إلى زينب، وإلى جويرية، وأبا الحكم إلى أبى شريح، وأصرم إلى زرعة.

وكان لسعيد بن المسيب جد يقال له حَزْن فأتى النبى ﷺ فسأله الرسول :

«ما اسمك؟» فقال : حَزْن.

فقال : «أنت سهل». قال : لا أغير اسمًا سمانيه أبى.

قال ابن المسيب : فمازالت تلك الحزنة فينا بعد [٧].

وفى رواية : لا، السهل : يوطأ ويمتهن [٨] والحزونة : هى ماخشن وما غلظ من الأرض.

وحكى يحيى بن سعيد أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال لرجل : ما اسمك؟

قال : جمرة.

قال : ابن من ؟ قال : ابن شهاب.

قال : ممن ؟ قال : من الحرقة.

---

(١) محمود الصباغ السعادة الزوجية فى الإسلام ص١٤٤.

(٢) رواه الترمذى عن عائشة.

(٣) رواه الترمذى وابن ماجة عن ابن عمر.

(٤) معناه المشقة والغلظة والشدة.

(٥) الثعبان الخيف، وقيل الشيطان.

(٦) رواه أبو داود بأسانيد كثيرة.

(٧) رواه البخارى عن سعيد بن المسيب.

قال : أين مسكنك ؟ قال : بحرة النار.

قال : بأيتها ؟ قال : بذات لظى.

قال عمر : أدرك أهلك فقد هلكوا واحترقوا. فكان كما قال عمر رضى الله عنه [1].

ومن طريف ما يروى فى التسمية بأسماء غير مستحسنة عرفًا : أن وائل بن قاسط مر بأسماء بنت دريد، وكان يقال لها أم الأسبع، وكانت امرأة جميلة، وبنوها يرعون جمالها، فهم بها. فقالت له : لعلك أسررت شيئًا فى نفسك منى ؟

قال : أجل !

فقالت : لئن لم تنته لأستصرخن عليك أسبعى.

فقال : ما أرى بالوادى أحدًا.

فقالت : لو دعوت سباعى لمنعتنى منك، أو أعانتنى عليك.

فقال : أو تفهم السباع عنك ؟

فقالت : نعم ... ثم رفعت صوتها : يا كلب !، يا ذئب !، يا فهد، يا دب !، يا سرحان !، يا أسد ! ... فجاءوا يتعادون ويقولون : ما خبرك يا أماه ؟

قالت : ضيفكم هذا أحسنوا قراه، ولم تر أن تفضح نفسها عند بنيها.

فذبحوا له وأطعموه.

فقال وائل : ما هذا إلا وادى السباع [2].

كما نبه الرسول ﷺ إلى عدم التسمية بالأسماء التى تختص بالله جل شأنه، فقد روى أن وفدًا من الوفود التى أقبلت على رسول الله ﷺ فى المدينة كان على رأسه ما يسمى بأبى الحكم، فدعاه الرسول وقال له : «إن الله هو الحكم وإليه الحكم، فلم تكنى أبا الحكم ؟»

فقال : إن قومى إذا اختلفوا فى شىء أتونى فحكمت بينهم فرضى كلا الفريقين.

فقال رسول الله ﷺ : «ما أحسن هذا ! فمالك من الولد ؟»

---

(١) رواه مالك فى الموطأ.

(٢) بلوغ الأرب للبغدادى ٣ / ١٩٣ نقلاً عن تربية النشء فى ظل الإسلام ص ١١٣ .

قال : لى شريح ومسلم وعبد الله .

فقال : «فمن أكبرهم؟» قال : شريح .

فقال : «فأنت أبو شريح»[1].

وقد أجمع الفقهاء على جواز التسمية باسم النبى ﷺ الذى اشتهر به وهو محمد[2].

فعن جابر رضى الله عنه قال : ولد لرجل منا غلام فسماه محمداً ، فقال له قومه : لا ندعك تسمى باسم رسول الله ﷺ ، فانطلق بابنه يحمله على ظهره .

فقال : يا رسول الله ، ولد لى غلام ، فسميته محمداً .

فقال قومى : لاندعك تسمى باسم رسول الله ﷺ .

فقال الرسول : تسموا باسمى ولا تكنوا بكنيتى ، فإنما أنا قاسم أقسم بينكم[3].

• هل يجوز التكنية بأبى القاسم ؟

أما التكنى بكنيته عليه السلام ، فقد ذهب الأئمة المجتهدون مذاهب مختلفة ، وأقوال عدة :

الأول : الكراهية مطلقًا ، وحجتهم فى ذلك الحديث السابق الذى مر ذكره ، وحديث أبى هريرة الذى رواه البخارى ومسلم أن رسول الله ﷺ قال : «تسموا باسمى ، ولا تكنوا بكنيتى» . وبهذا قال الشافعى .

الثانى : الإباحة مطلقًا ، واحتجوا بما رواه أبو داود فى سننه عن عائشة رضى الله عنها ، قالت : جاءت امرأة إلى النبى ﷺ فقالت : يا رسول الله ، أنى قد ولدت غلامًا فسميته محمداً ، وكنيته أبا القاسم ، فذكر لى أنك تكره ذلك ، فقال : «ما الذى أحل اسمى ، وحرم كنيتى» .

وروى ابن أبى خيثمة عن الزهرى قال : أدركت أربعة من أبناء أصحاب رسول الله ﷺ ، كل منهم يسمى محمداً ويكنى أبا القاسم ، محمد بن طلحة بن عبد الله ، ومحمد ابن أبى بكر ، ومحمد بن على بن أبى طالب ، ومحمد بن سعد بن أبى وقاص .

وسئل الإمام مالك : عمن اسمه محمد ، ويكنى أبا القاسم ؟

---

(١) رواه أبو داود فى سننه.

(٢) د. أحمد حمد الأسرة ص ٢٧٧ .

(٣) رواه مسلم فى صحيحه.

فأجاب : لم يرد في ذلك نهي ولا أرى بذلك بأسًا.

وهذه الطائفة التي قالت بالإباحة مطلقًا حملت أحاديث النهي على أنها منسوخة.

الثالث : لا يجوز الجمع بين الكنية والاسم، كأن يسمى ولده محمدًا ويكنيه أبي اقاسم في وقت واحد.

وحجة هذه الطائفة ما رواه أبو داود في سننه عن جابر رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : «من تسمى باسمي فلا يتكنى بكنيتي، ومن تكنى بكنيتي فلا يتسمى باسمي».

وما رواه ابن أبي شيبة عن عبد الرحمن عن أبي عمرة عن عمه قال : قال رسول الله ﷺ : «لا تجمعوا بين اسمي وكنيتي».

وما رواه ابن أبي خيثمة : أن محمد بن طلحة لما ولد، أتي طلحة النبي ﷺ فقال : اسمه محمد ، أكنيه أبا القاسم ؟

فقال : «لا تجمعهما له، هو أبو سليمان».

الرابع : النّهي عن التكنية مخصوص بحياته ﷺ ، أما بعد وفاته عليه الصلاة والسلام فلا بأس بها.

واحتجت هذه الطائفة بما رواه أبو داود في سننه عن منذر عن محمد ابن الحنفية قال: قال علي رضي الله عنه : إن ولد لي بعدك ولد، أسميه باسمك، وأكنيه بكنيتك؟

قال عليه الصلاة والسلام : «نعم».

وقد سمى الإمام مالك ابنه محمدًا وكناه أبا القاسم وكان يقول - أي الإمام مالك- إنما نهى ذلك في حياة النبي ﷺ كراهة أن يدعى أحد باسمه وكنيته، فيتلفت النبي ﷺ ، فأما اليوم - أي بعد وفاته - فلا بأس بذلك.

وعلى هذا يجوز التسمية باسم النبي ﷺ ، ويجوز التكنية بكنيته، لأن الأحاديث التي تفيد النهي مختصة بحياته خشية الالتباس وقت النداء بشخصية المخاطب، وشخصية النبي ﷺ ، أما بعد وفاته عليه الصلاة والسلام فلا التباس، فدل ذلك على الجواز.

ومما يؤكد الجواز أيضًا حديث الزهرى الذى سبق ذكره أنه أدرك أربعة من أبناء الصحابة كل منهم يُسَمَّى محمداً، ويُكْنى أبا القاسم والله أعلم [1].

وأخيراً نقول ... لقد أعطى رسول الله ﷺ اختيار الاسم اهتمامًا كبيراً لما له من أثر فى الفرد والأسرة والمجتمع، يقول ابن قيم الجوزية - رحمه الله - : لما كانت الأسماء قوالب المعانى ودالة عليها اقتضت الحكمة أن يكون بينها وبينها ارتباط وتناسب، وألا يكون المعنى معها بمنزلة الأجنبى المحض الذى لا تعلق له بها، فإن حكمة الحكيم تأبى ذلك، والواقع يشهد بخلافه، بل للأسماء تأثير فى المسميات، وللمسميات تأثر من أسمائها فى الحسن والقبح، والخفة والثقل، واللطافة والكثافة.

وكان ﷺ يأخذ المعانى من أسمائها فى المنام واليقظة، كما رأى أنه وأصحابه فى دار عقبة بن رافع، فأتوا برطب من رطب ابن طاب، فأوله بأن لهم الرفعة فى الدنيا والعاقبة فى الآخرة، وأن الدين الذى اختاره الله لهم قد أرطب وطاب. [2]
وتأول سهولة أمرهم يوم الحديبية بمجىء سهيل بن عمرو.

وكان ﷺ يكره الأمكنة منكرة الأسماء ويكره العبور فيها، فقد مر فى بعض غزواته بين جبلين فسأل عن اسميهما، فقالوا : فاضح ومخز، فعدل عنهما فلم يجز بينهما.

ولما كان بين الأسماء والمسميات من الارتباط والتناسب والقرابة ما بين قوالب الأشياء وحقائقها، وما بين الأرواح والأجسام، عبر العقل من كل منهما إلى الآخر.

كما كان إياس بن معاوية وغيره يرى الشخص فيقول : ينبغى أن يكون اسمه كيت وكيت، فلا يكاد يخطئ. [3]

• **العقيقة**

من الإحسان إلى المولود الذبح عنه يوم السابع من ولادته نسكًا والعقيقة هى: ذبح الشاة عن المولود يوم السابع من ولادته. عن عائشة رضى الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ :«عن الغلام شاتان مكافئتان [4]، وعن الجارية شاة» [5].

---

(١) عبد الله علوان تربية الأولاد فى الإسلام ١ / ٨٩-٩١ بتصرف.

(٢) أخرجه البخارى وأحمد فى المسند.

(٣) استراتيجيات التربية الأسرية فى الإسلام : إعداد لجنة البحوث والدراسات، إشراف أ.د توفيق الواعى ص ١٩٣، ١٩٤.

(٤) مستويتان فى السن، ومتشابهتان فى الشكل.

(٥) رواه أحمد والترمذى.

وعن سلمان بن عامر الضبى قال : مع الغلام عقيقة فأهريقوا عنه دما وأميطوا عنه الأذى [1].

وعن أم كرز الكعبية أنها سألت رسول الله ﷺ عن العقيقة فقال :«عن الغلام شاتان، وعن الأنثى واحدة، ولا يضركم ذكرانًا أم إناثًا» [2]. أى الذبائح.

ويظهر لنا أدب النبوة العالى حين سئل النبى ﷺ عن العقيقة، فوافق على المبدأ وكره اسم العقوق لما فيه من معانى الفرقة التى ينبغى ألا تستقبل بها الصغير، واختار بدلاً منه لفظ «النسك».

عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال : سئل رسول الله ﷺ عن العقيقة، فقال : «إن الله لا يحب العقوق [3] !!» وكأنه كره الاسم.

قالوا : يا رسول الله إنما نسألك عن أحدنا يولد له.

قال : «من أحب منكم أن ينسك عن ولده فليفعل عن الغلام شاتان وعن الجارية شاة» [4].

فالرسول ﷺ ينتقل بهذا العمل من مجرد إظهار السرور والتفاخر ،ليأخذ أهميته ضمن العبادات التى يتقرب بها إلى الله . ثم استبعاد لكل ظل من الفرقة يرف تحت سقف البيت [5].

وعن سمرة بن جندب رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : «الغلام مرتهن بعقيقت تذبح عنه يوم سابعه ويحلق رأسه ويسمى» [6].

وعن عائشة رضى الله عنها قالت : يعنى عن الغلام مكافأتان وعن الجارية شاة قالت عائشة : فعق رسول الله ﷺ عن الحسن والحسين شاتين شاتين يوم السابع وأمر أن يماط عن رأسه الأذى وقال اذبحوا على اسمه وقولوا : بسم الله

---

(١) رواه البخارى فى صحيحه . (٢) رواه أحمد والترمذى.

(٣) فى الحديث : «قولوا نسيكة، ولا تقولوا عقيقة»، عن المصباح المنير مادة عق.

(٤) رواه أحمد.

(٥) د. محمود محمد عمارة ، تربية النشء فى ظل الإسلام ص ١٠٨، ١٠٩.

(٦) أحمد، والترمذى وقال حديث حسن .

الله أكبر، منك ولك، هذه عقيقة فلان، قال، وكانوا في الجاهلية تؤخذ قطنة فتجعل في دم العقيقة ثم توضع على رأسه فأمر رسول الله ﷺ أن يجعل موضع الدم خلوقاً.[1]

كما جاء عن أبي أمامة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: أيما امرىء مسلم أعتق امرءا مسلماً كان فكاكه من النار يجزى كل عضو منه عضوا منه، وأيما امرىء مسلم أعتق امرأتين مسلمتين كانتا فكاكه من النار يجزى كل عضو منهما عضواً منه، وأيما امرأة مسلمة أعتقت امرأة مسلمة كانت فكاكها من النار يجزى كل عضو من عضوا منها.[2]

• ومن فوائد العقيقة

١ - التقرب إلى الله عن المولود بها وذكر اسمه في أول لحظات حياته حتى يبارك الله فيه ويطيبه ويجعله من الذين يبذلون الغالي والنفيس لله رب العالمين.

٢ - أنها فدية له من المصائب والآفات كما فدى الله إسماعيل بذبح عظيم.

٣ - أنها طريق لبر الوالدين وشفاعة المولود لهما.

٤ - تقوية روابط الألفة والمحبة بين أبناء المجتمع في الاجتماع على موائد الطعام ابتهاجًا بقدوم المولود الجديد.

٥ - إرساء قواعد التكافل الاجتماعي والتي يتحين الإسلام كل مناسبة ليدعمها ويمحو ظواهر الفقر والحرمان والفاقة.

٦ - إحياء سنة رسول الله ﷺ.[3]

---

(١) أخرجه أبو يعلى والبزار كما في مجمع الزوائد ٤ / ٥٨. وقال الهيثمي: وجاله رجال الصحيح خلا شيخ أبي يعلى فإني لم أعرفه.

(٢) أخرجه أبو داود، والترمذي وقال: حسن غريب، ابن ماجة.

(٣) منهج السنة النبوية في تربية الإنسان ص٥٠، ٥١.

والعقيقة سنة مستحبة عند جمهور الأئمة والفقهاء إلا فقهاء الحنفية فقد أنكروا مشروعيتها مستندين إلى أحاديث وجد لها باقى الأئمة والفقهاء معانى لا تتعارض مع هذه السنة المستحبة.

ووقت العقيقة : هو اليوم السابع لقول رسول الله ﷺ :«كل غلام رهينة بعقيقته، تذبح عنه يوم سابعه، ويسمى فيه ويحلق رأسه»[1].

ولكن هناك أقوالا تفيد أن التقيد باليوم السابع ليس من باب الإلزام وإنما هو على وجه الاستحباب، فلو ذبح عنه فى اليوم الرابع أو الثامن أو العاشر أو مابعده أجزأت العقيقة، وإن كانوا قد ركزوا على السابع من الولادة، فإن تأخر فالرابع عشر، فإن تأخر فالحادى والعشرين،قال ﷺ : «العقيقة تذبح لسبع أو أربع عشرة أو إحدى وعشرين»[2]. كما أن هناك أقوالاً تفيد بجواز العقيقة بشاة واحدة للصبى واستدلوا على ذلك بأن عقيقة رسول الله للحسن والحسين كانت كبشاً لكل منهما.

ومن السنة عدم كسر عظام العقيقة، بل يكون تقطيعها من المفاصل حتى تكون القطع التى توزع منها كبيرة كاملة وأن يكون فى ذلك تيمنًا وتفاؤلاً بسلامة أعضاء المولود وصحتها وتقويتها.

فالعقيقة قربان يتقرب به إلى الله تعالى فى أول أيام المولود فى الحياة، وهى فدية يفتدى بها المولود من المصائب والآفات كما فدى الله إسماعيل عليه السلام بالذبح العظيم، فضلاً عن إظهار الفرح والسرور بخروج نسمة مؤمنة توحد الله ويكاثر بها رسول الله ﷺ الأمم يوم القيامة، وتُمَتِّن الروابط بين أبناء المجتمع لاجتماعهم على موائد الطعام ابتهاجا بقدوم المولود الجديد، وإرفاد المجتمع برفد جديد.

من مبادئ العدالة الاجتماعية حيث يكون للفقراء نصيب من هذه العقيقة فحكمها حكم الأضحية من ناحية الأكل منها، والتصدق، والإهداء، ويزاد بإهداء جزء منها إلى القابلة لإدخال السرور عليها للحديث الذى رواه البيهقى عن على رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ - أنه - أمر فاطمة رضى الله عنها فقال : «زنى شعر الحسين وتصدقى بوزنه فضة وأعطى القابلة رجل العقيقة»[3].

---

(١) رواه أصحاب السنن. (٢) ورد فى سنن أبى داود «الأضحاحى».

(٣) محمود الصباغ، السعادة الزوجية فى الإسلام ص ١٤٥، ١٤٦ بتصرف يسير.

• هدى رسول الله ﷺ فى العقيقة

من تمام فرح رسول الله ﷺ بأولاده وذريته ما صنعه لهم فى العقيقة والختان، أما أولاده القاسم وبناته اللواتى ولدن إما قبل الإسلام أو فى بداية الإسلام، فلم يصلنا شىء يدل على أنه ختن القاسم، أو عق عن البنات إلا ما كان من حديث إبراهيم ابنه عليه السلام، فقد ثبت أن مارية القبطية ولدت لرسول الله ﷺ غلامًا فسماه إبراهيم، وعق عنه رسول الله ﷺ بشاة يوم سابعه، وحلق رأسه فتصدق بزنة شعره فضة على المساكين، وأمر بشعره فدفن فى الأرض. (١)

وقد ولد إبراهيم سنة ثمان من الهجرة النبوية، وعاش نحو ثمانية عشر شهراً.

وقد صح عنه ﷺ أنه عق عن الحسن والحسين رضى الله عنهما كبشاً كبشاً يوم السابع، وسماهما وأمر أن يماط عنهما الأذى. (٢)

وفى موطأ مالك عن جعفر بن محمد عن أبيه أنه قال : وزنت فاطمة بنت رسول الله ﷺ شعر حسن وحسين، وزينب وأم كلثوم فتصدقت بزنة ذلك فضة. (٣)

قال ابن عبد البر : وأهل العلم يستحبون ما جاء عن فاطمة فى ذلك مع العقيقة أو دونها، ويرون ذلك على من لم يعق - لقلة ذات يده - أوكد. (٤)

وأمر كل أب وولى أن يقوم تجاه المولود ذكراً كان أو أنثى بالعقيقة، فقال عليه الصلاة والسلام : «مع الغلام عقيقة فأهريقوا عنه دما، وأميطوا عنه الأذى». (٥)

وعنه عليه الصلاة والسلام : «إذا كان اليوم السابع للمولود، فأهريقوا عنه يوم السابع، ويسمى ويحلق رأسه». (٦)

---

(١) أخرجه أبو داود : العقيقة، والنسائى وعنده : بكبشين كبشين من حديث ابن عباس.

(٢) الموطأ ٢ / ٥٠١ والبيهقى فى الكبرى ٩ / ٢٩٩، ٣٠٤.

(٣) الاستذكار ١٥ / ٣٧٠.

(٤) أخرجه أحمد فى المسند، والبخارى مختصراً، وعلقه كاملاً، وأبو داود، والترمذى وقال حسن صحيح، والنسائى من حديث سلمان بن عامر الضبى وغيرهم.

(٥) أخرجه الطبرانى فى الأوسط عن ابن عمر وسنده حسن (فتح البارى ٩ / ٥٨٩).

(٦) أخرجه أحمد وأبو داود والترمذى والنسائى وغيرهم، وقال الترمذى : حسن صحيح، وصححه غير واحد.

قال الترمذى : والعمل على هذا عند أهل العلم، ويستحبون أن يذبح عن العقيقة يوم السابع، فإن لم يتهيأ يوم السابع، فيوم الرابع عشر، فإن لم يتهيأ عق عنه يوم حادى وعشرين.

ومعنى قول الرسول ﷺ :«كل غلام رهينة بعقيقته ... » أنه من مات طفلاً ولم يعق عنه لم يشفع فى والديه : أى أنه محبوس عن الشفاعة فى والديه، وهذا معنى الرهن. قال ابن قيم الجوزية : وظاهر الحديث أنه رهينة فى نفسه ممنوع محبوس عن خير يراد به، ولا يلزم من ذلك أن يعاقب عن ذلك فى الآخرة،وإن حبس بترك العقيقة عما يناله من عق عنه أبوه، وقد يفوت الولد خير بسبب تفريط الأبوين، وإن لم يكن من كسبه.[1]

إنه احتفاء وتكريم للمولود وللإنسانية فيه، وقد كانت يهود تعق عن الغلام ولاتعق عن البنت، فألغى الإسلام ذلك وجعل التكريم لهما معاً.

يقال عند ذبح العقيقة : بسم الله والله أكبر، اللهم لك وإليك، هذه عقيقة فلان [2] ،وإن نوى ولم يتكلم به أجزأه إن شاء الله .[3]

● **الخلاصة**

إن العقيقة عن المولود سنة مستحبة عند جمهور الأئمة والفقهاء فعلى الأب إن ولد له مولود وكان مستطيعًا أن يحيى سنة النبى ﷺ حتى يحظى بالفضيلة والأجر عند الله سبحانه وتعالى، وحتى يزيد من معانى الألفة والمحبة والروابط الاجتماعية بين الأهل والأقرباء والجيران والأصدقاء جميعًا، وذلك حينما يحضرون وليمة العقيقة ابتهاجًا بالمولود وفرحًا بقدومه، وحتى يساهم كذلك فى تحقيق التكافل الاجتماعى، وذلك حينما يشترك فى الانتفاع بالعقيقة بعض ذوى الحاجة والحرمان من الفقراء والمساكين.

---

(١) زاد المعاد ٢ / ٣٢٦ .

(٢) أخرجه من حديث عائشة ابن أبى شيبة، وأبو يعلى وابن حبان والبيهقى والحاكم - المطالب العالية ٢ / ٢٨٩ .

(٣) انظر استراتيجيات التربية الأسرية ص ١٩٥-١٩٧ بتصرف.

فما أعظم الإسلام وما أسمى مبادئه التشريعية فى زرع الألفة والمحبة فى المجتمع، وفى بناء العدالة الاجتماعية فى الطبقات الفقيرة والمحرومة [1].

● **هل يستحب البدن فى العقيقة**

البدن : واحدها بدنة : وهى الناقة أو البقرة التى تنحر بمكة.

وهنا يرد سؤال هو : هل تستحب البدن فى العقيقة كما تستحب فى الأضاحى؟

قيل : لا ، لما قد قيل لعائشة رضى الله عنها وقد ولد لأخيها غلام : عقى عن ابن أخيك بجزورين.

فقالت : معاذ الله، ولكن ما قال رسول الله ﷺ : «شاتان متكافئتان» [2].

أما ما روى عن النبى ﷺ أنه قال : «كل مولود مرتهن بعقيقته حتى يعق عنه والده من الإبل أو البقر أو الغنم» [3] . فإنه حديث مرسل لاتقوم الحجة بمثله، ومع ذلك فليس فيه استحباب البدن بل الغنم، وإنما فيه أنها تجزئ، ولسنا ننكر ذلك.

والمعنى : أن الإبل لا تستحب فى هذا النسك على الغنم. وقد خالف النبى ﷺ بين الغلمان والجوارى فقال : «عن الغلام شاتان وعن الجارية شاة» فلو استحببنا البدن على الغنم، ثم قلنا : يذبح عن الغلام بدنة، لا يمكننا أن نذبح عن الجارية نصف بدنه، وإن قلنا يذبح عنها بدنة أدى ذلك إلى التسوية بينهما والتسوية ليست بمستحبة.

وإن قلنا نذبح عن الغلام بدنتين، وعن الجارية بدنة، فقد يكون للواحد ابن وابنة فيرى أن يعق بثلاث بدنات، ولا يقدر أن يعق عن البنت بنصف ما يعق عن الابن، والسنة أن تكون الأنثى فى العقيقة على النصف من الذكر، فكان الأولى بهذا المعنى أن يلزم ما ورد به نص السنة [4] .

---

(١) عبد الله علوان . تربية الأولاد فى الإسلام ١ / ٩٧ .

(٢) سنن النسائى «العقيقة». (٣) ورد فى سنن ابن ماجة «الذبائح».

(٤) المنهاج فى شعب الإيمان للحليمى ٣ / ٢٨٥ .

● **هل يجزئ شراء اللحم بدلاً من ذبح العقيقة ؟**

هل يجوز فى العقيقة أن يشترى والدٌ لحمًا من الجزار إذا رزقه الله ولدًا أو بنتًا بدلاً من شراء شاة أو شاتين حيث لا يستطيع الذهاب إلى السوق لشراء العقيقة لكبر سنه ؟

يجيب على هذا السؤال د. عبد العزيز عزام استاذ الفقة بجامعة الأزهر فيقول : العقيقة هى ما يذبح من شاة ونحوها عن المولود فى اليوم السابع من ولادته وهذه العقيقة تسمى أيضًا نسيكة من النسك وهو العبادة قال الإمام أحمد : أسميها نسيكة ولا أسميها عقيقة لأن هذا اللفظ يشعر بالعقوق وأنا لا أحب العقوق، وإنما شرعت العقيقة لما فيها من إظهار السرور على نعمة الولد ونشر النسب بذبح شاة أو شاتين، وقد حث الرسول ﷺ على فعل العقيقة وهى سنة مؤكدة على القول الراجح ، والذى يشرع فى حقه العقيقة والخاطب بها هو ولى المولود حتى ولو كان المولود له مال، ويشترط أن يكون ما يذبحه من الشاة أو الشاتين أو غيرهما بنية العقيقة فيقول : اللهم منك وإليك عقيقة فلان وأن يطبخها كسائر الولائم ويوزعها على وجه التصدق للفقراء والمساكين ويهدى جزءاً منها للأصدقاء والأقارب وأن يذبح العقيقة يوم السابع من الولادة ولا يجوز التأخير فإن أخرت حتى بلغ الغلام سقط حكمها فى حق الولى، ويكون للمولود الحق فى فعل العقيقة عن نفسه وبناء على ما قدمنا نقول للسائل الذى يسأل عن شراء لحم من الجزار بدلاً من شراء شاة أو شاتين إنه لا يجوز له ذلك لأن حكم العقيقة حكم الأضحية فلا يجوز أن يشترى لحمًا بدلاً من الأضحية فكذلك لا يجوز له أن يشترى لحمًا بدلاً عن العقيقة، والمرض أو الضعف ليس عذرًا يبيح له أن يفعل ذلك .

ولهذا فإن العقيقة لا تؤدى على الوجه المشروع إلا بالذبح لشاة أو شاتين ويشترط فى العقيقة ما يشترط فى الأضحية من حيث السن والسلامة من العيوب[1] .

---

(١) فتوى للدكتور عبد العزيز عزام نشرت بصحيفة الأهرام.

• ما يحدث اليوم

الناس اليوم يهربون جاهلين متجاهلين من هذه الآداب الإسلامية إلى صور أخرى مستوردة، فجعلوا الحلوى، والشموع، والورود إعلانا عن الفرح بالوليد، وأخيرا بذلك أيضا ذكرى ميلاده إحياءا يبلغ حد الوجوب العينى. فخرجوا عن الجو الإسلامى، ودخلوا فى أحوال غيرهم من أمم لا تدين بالإسلام وترهق ميزانية البيت بهذا السرف، بل وتضيع الوقت فى مجاملات لا ترضى الناس أبداً.

والمطلوب العودة إلى شرع الله وما فيه من اقتصاد ومودة وذلك طاعة له سبحانه تنعكس بركتها على الوليد. واحتفاظا بالشخصية الإسلامية متميزة فى معركة القيم التى يجب أن نخرج منها منتصرين [١].

وإليك يا أخى بعض الأطعمة وأوقاتها ومناسباتها :

١ - القرى : طعام الضيفان. ٢ - التحفة : طعام الزائر.

٣ - الخرس : طعام الولادة. ٤ - المأدبة : طعام الدعوة.

٥ - الوليمة : طعام العرس.

٦ - العقيقة : طعام المولود فى اليوم السابع.

٧ - الغديرة : طعام الختان. ٨ - الوضيمة : طعام المأتم.

٩ - النقيعة : طعام القادم من سفره.

١٠ - الوكيزة : طعام الفراغ من البناء.

• الختان

من الإحسان إلى الأبناء الختان، والاختتان للذكر هو قطع القلفة «أى الجلدة» التى على رأس الذكر، وللأنثى قطع الجزء الأعلى من البظر ويسمى الخفاض.

فهو حق الابن على أبيه، وهو من خصال الفطرة التى أمر الله بها حين قال عز وجل : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٣٠) ﴾ [٢].

---

(١) د. محمود محمد عمارة، تربية النشء فى ظل الإسلام ص ١١١.

(٢) سورة الروم الآية ٣٠.

وهو واجب عند معظم الأئمة والفقهاء للذكور، وسنة ومكرمة بالنسبة للإناث.

أما باقى الأئمة ومنهم الحسن البصرى وأبو حنيفة فقد رأوا أنه سنة للرجال والنساء على السواء. واستدلوا على رأيهم هذا بما روى عن النبى ﷺ أنه قال: «والختان سنة للرجال ومكرمة للنساء»[1].

أما ابن القيم فقد قال فى تحفة المودود: لقد أذَّنَ عالم أهل بيت رسول الله ﷺ عبد الله بن عباس رضى الله عنهما أذانًا سمعه الخاص والعام: إن من لم يختتن فلا صلاة له، ولا تؤكل ذبيحته، فأخرجه من جملة أهل الإسلام، ومثل هذا لا يقال لتارك أمر هو بين تركه وفعله بالخيار.

ونستطيع أن نقول: إن الختان من سنن الفطرة، ففى الصحيح من حديث أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «الفطرة خمس: الختان، والاستحداد، وقص الشارب، وتقليم الأظافر ، ونتف الإبط».

وإلى جانب كونه من سنن الفطرة، ومن المكرمات فهو واجب من أجل الطهارة من البول، وذلك لأن القلفة لا تخلو من النجاسة فتفسد الطهارة والوضوء والصلاة وذلك لسترها الذكر كله.

وبذا لايمكن الاستبراء من البول، فيجب على الولى ختان الصبى، والصبية قبل البلوغ بحيث يبلغا مختونين، ويندب ختان الصبى يوم سابعه.

والخفاض مكرمة للبنت فعن ميمونة زوج النبى - ﷺ - أنها قالت للخاتنة: إذا خفضت فأشمى ولا تنهكى؛ فإنه أسرى للوجه، وأحظى لها عند زوجها[2].

وعن أم عطية الأنصارية أن امرأة كانت تختن بالمدينة فقال لها النبى ﷺ: «لا تنهكى فإن ذلك أحظى للمرأة وأحب للبعل»[3].

- **بيان للناس من الأزهر الشريف**

الختان هو قطع الجلدة التى تغطى حشفة الذكر، وتسمى قلفة. وقطع جزء من البظر وهو الجلدة التى فى أعلى فرج الأنثى، ويسمى ختان المرأة خفاضا.

---

(١) رواه أحمد عن شداد بن أوس. (٢) ابن القيم تحفة المودود ص ١٢١.

(٣) رواه أبو داود.

والختان اسم لفعل الخاتن، ويسمى به موضوع الختن أيضًا، ومنه الحديث : «إذا التقى الختانان فقد وجب الغسل» [1].

والختان بوجه عام عادة قديمة لا يعرف بالضبط متى بدأت، ومن المؤكد أنه كان موجودًا أيام إبراهيم عليه السلام، ففي الصحيحين أنه اختتن وهو ابن ثمانين سنة.

وكان معروفًا عند العرب قبل الإسلام أخذا من جدهم إبراهيم أو من اليهود الذين توارثوه عنه، وكان خفاض النساء موجودا عندهم، يدل عليه حديث البخارى فى قتل حمزة : خرج سباع فقال : هل من مبارز؟

فخرج إليه حمزة وقال : يا سباع يا ابن أم أنمار مقطعة البظور.

فلما جاء الإسلام كأحد مواريث ملة إبراهيم حيث قال الله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٢٣) ﴾ [2] حيث لا يوجد ما يخصص هذا الاتباع، وقد صح فى الحديث «خمس من الفطرة : الختان والاستحداد ونتف الإبط وقص الشارب وتقليم الأظافر» [3] هو يشمل الذكر والأنثى فيما يشتركان فيه.

والفطرة فسرت بالخلقة كما فسرت بالسنة التى تقابل الواجب.

والمهم أن العلماء متفقون على مشروعية الختان، بمعنى أنه ليس منهيا عنه، لكن ما درجة هذه المشروعية ؟

هناك خلاف بينهم يتلخص فيما يلى :

١ - أنه سنة فى حق الرجال والنساء، وذهب إليه مالك فى رواية عنه، وأبو حنيفة، وروى عنه أنه واجب وليس بفرض، كماروى عن مالك أنه فرض، وقال به بعض أصحاب الشافعى.

٢ - أنه واجب في حق الرجال والنساء جميعًا، وهو مذهب الشافعى وكثير من العلماء، كما أنه مقتضى قول سحنون من المالكية.

---

(١) رواه مسلم.
(٢) سورة النحل الآية ١٢٣ .
(٣) رواه البخارى ومسلم.

٣ - أنه واجب فى حق الرجال، سنة فى حق النساء، وبه قال بعض أصحاب الشافعى، وهو مذهب أحمد ، وروى عنه الوجوب فيهما.

والاستدلال على كل قول من هذه الأقوال يطول؛ وكلها غير مسلمة عند المناقشة، ولهذا قال ابن المنذر : ليس الختان خبر يرجع إليه ولا سنة تتبع ، وقد ذكر الشوكانى هذه الأحادث في كتابه نيل الأوطار ونقد العلماء لها.

غير أنه بالنسبة لختان المرأة جاءت روايات ضعيفة حكم بعضهم عليها بالحسن فى مجموعها، منها قوله لمن تقوم بذلك : «أشمى ولا تنهكى فإنه أحسن للوجه وأرضى للزوج».

والإشمام هو قطع القليل، شبه بإشمام الرائحة، والنهك هو المبالغة فى القطع. وجاء هذا الحديث بألفاظ متقاربة فى روايات أخرى.

وبمراعاة هذا الاعتدال فى الخفاض نتجنب آثارًا أو عواقب جعلت بعض الناس ينادون بمنعه حتى تمنع هذه الآثار،ولكن الحق أنه نظافة مع توازن تفيد منه المرأة ويفيد منه الرجل، ولا عبرة بما يزعمه البعض من أضرار صحية أو اجتماعية ، فقد مرت مئات السنين والمسلمون يمارسونه دون شكوى.

هذا، وقد وجه سؤال إلى دار الإفتاء المصرية عن حكم ختان البنات، فجاء فى إجابة المفتى [١] ، بعد ذكر الأدلة وأقوال الفقهاء، قوله :

ومن هنا اتفقت كلمة فقهاء المذاهب على أن الختان للرجال والنساء من فطرة الإسلام وشعائره، وأنه أمر محمود، ولم ينقل عن أحد من فقهاء المسلمين، فيما طالعنا من كتبهم التى بين أيدينا، القول بمنع الختان للرجال والنساء، أو عدم جوازه أو إضراره بالأنثى، إذا هو تم على الوجه الذى علمه الرسول ﷺ لأم حبيبة فى الرواية المنقولة آنفًا.

أما الاختلاف فى وصف حكمه بين واجب وسنة ومكرمة فيكاد يكون اختلافًا فى الاصطلاح الذى يندرج تحته الحكم.

وقوله : وإذا استبان مما تقدم أن ختان البنات المسئول عنه من فطرة الإسلام وطريقته على الوجه الذى بينه رسول الله ﷺ ،فإنه لا يصح أن يترك توجيهه

(١) الشيخ جاد الحق على جاد الحق (رحمه الله) ٢٩ يناير ١٩٨١م.

وتعليمه إلى قول غيره ولو كان طبيبا، لأن الطب علم والعلم متطور، تتحرك نظرته ونظرياته دائما ، ولذلك نجد أن قول الأطباء فى هذا الامر مختلف، فمنهم من يرى ترك ختان النساء، وآخرون يرون ختانهن، لأن هذا يهذب كثيرا من إثارة الجنس، لاسيما فى سن المراهقة التى هى أخطر مراحل حياة الفتاة، ولعل تعبير بعض روايات الحديث الشريف فى ختان النساء بأنه مكرمة يهدينا إلى أن فيه الصون، وأنه طريق للعفة، فوق أنه يقطع تلك الإفرازات الدهنية التى تؤدى إلى التهاب مجرى البول وموضع التناسل والتعرض بذلك للأمراض الخبيثة.

هذا ما قاله الأطباء المؤيدون لختان النساء واضافوا أن الفتاة التى تعرض عن الختان تنشأ من صغرها وفى مراهقتها حادة المزاج سيئة الطبع. وهذا أمر قد يصوره لنا ما صرنا إليه فى عصرنا من تداخل وتزاحم، بل وتلاحم بين الرجال والنساء فى مجالات الملاصقة والزحام التى لا تخفى على أحد، فلو لم تقم الفتاة بالاختتان لتعرضت لمثيرات عديدة تؤدى بها - مع موجبات أخرى تزخر بها حياة العصر وانكماش الضوابط فيه - إلى الانحراف والفساد. أ. هـ[1].

وفى الختان عامة نذكر المسلمين بماجاء فى فقه الإمام أبى حنيفة : لو اجتمع أهل مصر «بلد» على ترك الختان قاتلهم الإمام، لأنه من شعائر الإسلام وخصائصه[2].

ويمكن الرجوع إلى :

١ - تحفة المودود فى أحكام المولود لابن القيم.

٢ - الأسرة تحت رعاية الإسلام للشيخ عطية صقر - الجزء الرابع[3].

● **فتوى الإمام الأكبر الشيخ جاد الحق على جاد الحق (شيخ الأزهر)**[4]

اختلف أئمة المذاهب وفقهاؤها فى حكم الختان :

فقال ابن القيم[5] فى كتابة «تحفة المودود» اختلف الفقهاء فى ذلك : فقال الشعبى وربيعة ويحيى بن سعيد الأنصارى ومالك والشافعى وأحمد : هو واجب.

---

(١) الفتاوى الإسلامية ٩ / ٣١١٩-٣١٢٥.

(٢) الاختيار شرح المختار، للموصلى ٢ / ١٢١ فى كتاب الكراهية، الفتاوى الإسلامية ٩ / ٣١٢٠.

(٣) من كتاب بيان للناس من الأزهر الشريف ٢ / ٢٦٤-٢٦٧.

(٤) انظر بحوث وفتاوى إسلامية فى قضايا معاصرة ٣ / ٤٧ -٥٨.

(٥) هامش شرح السنة للبغوى ٢ / ١١٠ فى باب الختان.

وشددفيه مالك حتى قال : من لم يختتن لم تجز إمامته ولم تقبل شهادته.

ونقل كثير من الفقهاء عن مالك، أنه سنة، حتى قال القاضي عياض : الاختتان عند مالك وعامة العلماء سنة، ولكن السنة عندهم يأثم تاركها، فهم يطلقونها على مرتبة بين الفرض والندب.

وقال الحسن البصرى وأبو حنيفة : لا يجب بل هو سنة.

وفى فقة الإمام أبى حنيفة [1] : أن الختان للرجال سنة وهو من الفطرة، وللنساء مكرمة، فلو اجتمع أهل مصر (بلد) على ترك الختان قاتلهم الإمام، لأنه من شعائر الإسلام وخصائصه.

والمشهور فى فقه الإمام مالك فى حكم الختان للرجال والنساء كحكمه فى فقه الإمام الشافعى [2] أن الختان واجب على الرجال والنساء.

وفقه الإمام أحمد بن حنبل [3] أن الختان واجب على الرجال ومكرمة فى حق النساء وليس بواجب عليهن، وفى رواية أخرى عنه أنه واجب على الرجال والنساء كمذهب الإمام الشافعى.

وخلاصة هذه الأقوال [4] أن الفقهاء اتفقوا على أن الختان فى حق الرجال، والخفاض فى حق الإناث مشروع.

ثم اختلفوا فى وجوبه، فقال الإمامان أبو حنيفة ومالك : هو مسنون فى حقهما وليس بواجب وجوب فرض ولكن يأثم بتركه تاركه.

وقال الإمام الشافعى : هو فرض على الذكور والإناث.

وقال الإمام أحمد : هو واجب فى حق الرجال، وفى النساء عنه روايتان : أظهرها الوجوب.

والختان فى شأن الرجال : هو قطع الجلدة التى تغطي الحشفة، بحيث تنكشف الحشفة كلها وفى شأن النساء : قطع الجلدة التى فوق مخرج البول دون مبالغة فى قطعها ودون استئصالها، وسمى هذا بالنسبة لهن (خفاضا).

---

(١) الاختيار شرح المختار للموصلى ٢ / ١٢١ كتاب الكراهة.

(٢) ٢ / ١٩٧ من المهذب للشيرازى وشرحه المجموع للنووى.

(٣) المغنى لابن قدامة ١ / ٧٠ مع الشرح الكبير.

(٤) الإفصاح عن معانى الصحاح ليحيى بن هبيرة الحنبلى ١ / ٢٠٦

وقد استدل الفقهاء علي خفاض النساء بحديث أم عطية - رضى الله عنها - قالت : إن امرأة كانت تختن بالمدينة ، فقال لها النبى ﷺ : «لا تنهكى ، فإن ذلك أحظى للزوج وأسرى للوجه ».

وجاء ذلك مفصلاً في رواية أخرى تقول : إنه عندما هاجر النساء كان فيهن أم حبيبة وقد عرفت بختان الجوارى، فلما رآها رسول الله ﷺ قال لها : «يا أم حبيبة : هل الذى كان فى يدك هو فى يدك اليوم ؟»

فقالت : نعم يا رسول الله إلا أن يكون حرامًا فتنهانى عنه .

فقال رسول الله ﷺ : «بل هو حلال. فادن منى حتى أعلمك».

فدنت منه فقال : «يا أم حبيبة إذا أنت فعلت فلا تنهكى ، فإنه أشرق للوجه وأحظى للزوج» (١) .

ومعنى (لا تنهكى) لا تبالغى فى القطع والخفض ويؤكد هذا ، الحديث الذى رواه أبو هريرة - رضى الله عنه - أن الرسول ﷺ قال : « يا نساء الأنصار اختفضن (أى اختتن) ولا تنهكن (أى لا تبالغن فى الخفاض) » وهذا الحديث جاء مرفوعًا (٢) برواية أخرى عن عبد الله بن عمر - رضى الله عنهما - .

---

(١) هذا الحديث رواه أبو داود فى السنن وأعله بمحمد بن حسان وقال عنه إنه ضعيف انظر فى هذا المناوى ١ / ٢١٦ وسنن أبى داود ٥ / ٤٢١ تحقيق عزت دعاس ، ونيل الأوطار للشوكانى ١ / ١١٣ ، ومجمع الزوائد ١ / ٨٨٤ ، وقد ورد الحديث أيضًا فى مختصر سنن أبى داود للحافظ المنذرى ومعالم السنة للخطابى وفي تهذيب الإمام ابن القيم ٨ / ١١٦ بطريق آخر وقال عنه أبو داود ليس بالقوى.

وفى تحفه المودود بأحكام المولود لابن القيم ص ١٩٣ أن هذا الحديث رواه الإمام أحمد عن أم عطية .

وأخرجه الحاكم فى المستدرك ٣ / ٥٢٥ عن الضحاك بن قيس وسكت عنه الحاكم والذهبى وفى هامش كتاب إحياء السنة واخماد البدعة ص ٢٦٣ تحقيق وتعليق أحمد عبد الله جاجور ط ثانية الأزهر الشريف قال : وأخرجه السيوطى فى الجامع الصغير ط أولى برقم ٢٧٩ سنة ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٥م ، رواية الطبرانى والحاكم عن الضحاك بن قيس وأشار إليه بعلامة الصحة. وللحديث شواهد أخرى تقويه فقد جاء فى فتح البارى للحافظ ابن حجر شرح صحيح البخارى ١٠ / ٢٦٣ عقب نقله قول أبى داود عن هذا الحديث ليس بالقوي - قلت : وله شاهدان من حديث أنس ومن حديث أم أيمن وعن أبى الشيخ فى كتاب الحقيقة وآخر عن الضحاك بن قيس عن البيهقى.

ويشهد له حديث (خمس من الفطرة) المتفق عليه بتفسير الفطرة بالمعنى المتقدم وحديث إذا التقى الختانان وجب الغسل، قال الإمام أحمد وفى هذا أن النساء كن يختتن كما فى تحفة المودود لابن القيم ص ١٩٢ .

(٢) نيل الأوطار للشوكانى ١ / ١١٣ .

وهذه الروايات وغيرها تحمل دعوة الرسول - ﷺ - إلى ختان النساء، ونهيه عن الاستئصال وقد علل هذا فى إيجاز وإعجاز حيث أوتى جوامع الكلم فقال : «فإنه أشرق للوجه وأحظى للزوج».

وهذا التوجيه النبوى إنما هو لضبط ميزان الحس الجنسى عند الفتاة، فأمر بخفض الجزء الذى يعلو مخرج البول، لضبط الاشتهاء، مع الإبقاء على لذات النساء، واستمتاعهن مع أزواجهن، ونهى عن إبادة مصدر هذا الحس واستئصاله.

وبذلك يتحقق الاعتدال ، فلم يعدم المرأة مصدر الاستمتاع والاستجابة، ولم يبقها دون خفض فيدفعها إلى الاستهتار، وعدم القدرة على التحكم فى نفسها عند الإثارة.

لما كان ذلك : كان المستفاد من النصوص الشرعية، ومن أقوال الفقهاء على النحو المبين والثابت فى كتب السنة والفقه أن الختان للرجال والنساء من صفات الفطرة التى دعا إليها الإسلام وحث على الالتزام بها على ما يشير إليه تعليم الرسول - ﷺ - كيفية الختان، وتعبيره فى بعض الروايات بالخفض، مما يدل على القدر المطلوب فى ختانهن.

ومقتضى ما قاله الإمام البيضاوى : عن حديث [1] (خمس من الفطرة) أنه عام فى ختان الذكر والأنثى حيث قال : إن معنى الفطرة فى هذا الحديث تتمثل فى مجموع ما ورد من أن : الفطرة هى السنة القديمة التى اختارها الأنبياء واتفقت عليها الشرائع، فكأنها أمر جبلى ينطوون عليه.

وقال الشوكانى [2] فى نيل الأوطار : إن تفسير الفطرة بالسنة لا يراد به السنة

---

(١) رواه البخارى ١٠ / ٣٩٥ فى اللباس باب تقليم الأظافر ومسلم برقم ٢٥٧ فى الطهارة باب خصال الفطرة ، وانظر ص ١٦٠ فى تحفه المودود بأحكام المولود لابن القيم ، وفتح البارى بشرح صحيح البخارى ١٠/ ٢٦٢-٢٦٦ ، ط الخيرية ١٣٢٥ هـ، ونيل الأوطار للشوكانى ١ / ١٠٩ .

(٢) ١ / ١١٣ ومثله فى فتح البارى شرح البخارى ص ١٠ فى الحديث عن الفطرة وتفسيرها وخصالها ص ٢٦٢ ، ص٢٦٣ ج١ الخيرية سنة ١٣٢٥ هـ.

الاصطلاحية المقابلة للفرض والواجب والمندوب، وإنما يراد بها الطريقة، أى طريقة الإسلام، لأن لفظ السنة على لسان الشارع أعم من السنة فى اصطلاح الأصوليين.

ومن هنا : اتفقت كلمة فقهاء المذاهب على أن الختان للرجال والنساء من فطرة الإسلام وشعائره، وأنه أمر محمود، ولم ينقل عن أحد من فقهاء المسلمين فيما طالعنا من كتبهم التى بين أيدينا - قول يمنع الختان للرجال أو النساء، أو عدم جوازه أو إضراره بالأنثى، إذا هو تم على الوجه الذى علمه الرسول - ﷺ - لأم حبيبة فى الرواية المنقولة آنفًا.

أما الاختلاف فى وصف حكمه، بين واجب وسنة ومكرمة، فيكاد يكون اختلافًا فى الاصطلاح الذى يندرج تحته الحكم.

يشير إلى هذا : ما نقل فى فقه [1] الإمام أبى حنيفة من أنه لو اجتمع أهل مصر على ترك الختان، قاتلهم الإمام (ولى الأمر) لأنه من شعائر الإسلام وخصائصه كما يشير إليه أيضًا أن مصدر تشريع الختان هو اتباع ملة إبراهيم، وقد اختتن، وكان الختان من شريعته، ثم عده الرسول - ﷺ - من خصال الفطرة.

وأميل إلى تفسيرها بما فسرها الشوكانى وغيره - حسبما سبق بأنها السنة التى هى طريقة الإسلام ومن شعائره وخصائصه، كما جاء فى فقه الحنفيين وليس المراد السنة الاصطلاحية - كما تقدم آنفا.

ويؤيد هذا ما ذهب إليه الفقه الشافعى والحنبلي ومقتضى قول سحنون من المالكية من أن الختان واجب على الرجال والنساء [2] . وهو مقتضى قول الفقه الحنفى [3] أنه لو اجتمع أهل بلدة على ترك الختان حاربهم الإمام كما لو تركوا الأذان، وهذا ما أميل إلى الفتوى به.

---

(١) الاختيار شرح المختار ٢ / ١٢١ .

(٢) المجموع ١ / ٢٩٨، ٢٩٩، ٣٠١، وقليوبى وعميره ٤ / ١١ ، فتح البارى ١٠ / ٣٤١، وكشاف القناع ١ / ٨٠ ، والمتقى ٧ / ٢٣٢ .

(٣) الاختيار شرح المختار للموصلى ٢ / ١٢١ .

وإذ قد استبان مما تقدم أن ختان البنات - موضوع هذا الحديث - من فطرة الإسلام وطريقته على الوجه الذى بينه رسول الله - ﷺ - فإنه لا يصح أن يترك توجيهه وتعليمه إلى قول غيره ولو كان طبيبًا ، لأن الطب علم والعلم متطور، تتحرك نظرته ونظرياته دائمًا .

● **رأى عالم من علماء الحديث**

بدأ كلامه بقوله : إن أشهر الأحاديث المنسوبة للنبى ﷺ منها : «الختان سنة للرجال ومكرمة للنساء» . أخرجه جماعة من أصحاب كتب الحديث لكنهم قالوا إن هذا الحديث يدور على راو اسمه الحجاج بن أرطأة وهذا الراوى مدلس مع زيادة اضطرابه فى ذكر إسناد الحديث .

كما صرح جماعة من العلماء بأن الحجاج هذا قد أخطأ فى الحديث ، وجاء حكم البيهقى على الحديث بجملته بوصفه أنه ضعيف ، منقطع ،كما قال ابن عبد البر عن راوى الحديث إنه ليس ممن يحتج به ،وهناك روايات أخرى لهذا الحديث ساقها العلماء وضعفوها كلها .

والحديث الثانى المشهور بحديث أم عطية نسب فيه للرسول ﷺ قوله : «يا أم عطية : أشمى ولا تنهكى فإنه أسرى للوجه وأحظى عند الزوج» . ويوضح أن هذا الحديث أخرجه الحاكم فى المستدرك كما خرجه جماعة ، لكن اختلف فى اسناده على عبد الملك بن عمير ،كما ضعفه الإمام أبو داود وهو أحد من خرجه حيث ارجع ذلك لكون محمد بن حسان من رواته وقال : إنه مجهول ضعيف .

وأكد هذا المعنى ابن عدى والبيهقى ، وزاد أحد الأئمة وهو عبد الغنى بن سعيد بأن محمد بن حسان هذا حديثه موضوع مكذوب وأنه كان يعرف بابن سعيد الزنديق .

ويكمل ذاكراً حديث ابن عمر الذى ينسب فيه للرسول ﷺ قوله : «يا نساء الأنصار اختضبن غمساً واخفضن ولاتنهكن فإنه أحظى عند أزواجكن ..» وقد قال العلماء فى إسناده مندل بن على وهو ضعيف كما جاء من طريق آخر فيه فيه خالد بن عمر والقرش أضعف من مندل وبمعنى هذا الحديث جاء حديث من طريق أنس رضى الله عنه لكن انفرد به أحد الرواة واسمه زائدة بن أبى الرقاد عن ثابت وقد ضعفه العلماء أيضاً بينما وصفه البخارى بأنه منكر الحديث.

ويوضح أنه من تتبع العلماء لهذه الروايات وجدنا الإمام ابن المنذر يقول : (ليس الختان خبر يرجع إليه ولا سنة تتبع).

ويعلق قائلاً : إنه بافتراض صحة هذه الأحاديث فإن معناها لا يفيد الوجوب أو الإلزام بختان الإناث بل نجده فقط يرشد إلى الكيفية التى يتم بها إذا رغب فى إجرائها ،وأنها (إشمام) وصفه العلماء بأنه كإشمام الطيب، يعنى أخذ جزء يسير لا يكاد يحس.

أما الحديث الذى يتناول الرجال والنساء فهو يحمل تصريحاً بأن ختان الإناث ليس بسنة وإنما هو فى مرتبة دونها ولم يسو فى الحكم بين ختان الذكور وختان الإناث، وهو مافهمه الإمام ابن عبد البر القرطبى الذى بين أن الإجماع منعقد على ختان الرجال .

فى حين نجد لدينا الحديث الصحيح الذى رواه مسلم والترمذى عن الرسول ﷺ : «إذا التقى الختانان فقد وجب الغسل». فمعناه لا يحمل إلزاماً أيضاً، وإنما يشير إلى أن النبى ﷺ كان يعلم أن الأنثى تختتن فاستخدم هذا اللفظ للحديث عن وجوب الغسل ولم يذكر شيئًا عن أهمية الختان كما لم ينه عنه وهذا مايعرفه العلماء بالتقرير الذى يفيد فقط مجرد المشروعية. [1]

(١) رأى للدكتور إسماعيل الدفتار أستاذ الحديث بجامعة الأزهر - الأهرام بتاريخ ٢٧ يناير ٢٠٠٦ .

• مؤسسة طبية عالمية تؤيد إجراء عملية الختان للبنات

ختان البنات يمنع الإصابة بالإيدز، ولا يقضى على اللذة عند النساء .

طيرت وكالات الأنباء العالمية فى الآونة الأخيرة خبرا مفاده اعتراف إحدى الدوائر الطبية فى أوربا بأن ختان الإناث يمنع الإصابة بمرض الإيدز. . . وأضاف الخبر أن الفريق الطبى الذى توصل إلى هذه النتيجة أجرى عدة تجارب على عدد من المواطنين فى كندا والنرويج والدانمرك .

ويعتبر عدد من علماء الدين والأطباء هذا التقرير الطبى الخطير اعترافا من إحدى الدوائر الطبية العالمية ، وردا على الحملة الشرسة على الإسلام بعد أن صورت عملية ختان لفتاة مصرية وبثت تلفزيونيا على مستوى العالم أثناء انعقاد المؤتمر الدولى للسكان والتنمية فى القاهرة عام ١٩٩٤م، موجة غضب شديدة لدى الرأى العام المصرى فدارت مناقشات حول هذه العملية، ومدى اتفاقها مع الشريعة الإسلامية ، فانقسمت الآراء بين مؤيد ومعارض لعملية الختان ، وتبعتها تطورات أدت إلى صدور قوانين تحد من هذه العلمية .

وبعد ما أعلنته الدوائر الطبية الأوربية كان لابد أن نتعرف على آراء الأطباء المتخصصين فى هذا التقرير الأوربى :

الدكتور / أحمد شفيق رئيس قسم الجراحة بطب القصر العينى : أكد أن الختان يقضى على سرطان العضو الذكرى أيضا ، وأن هذه النتيجة أعلنتها إحدى الجامعات الأمريكية مؤخراً .

الدكتور / عزت الصاوى أخصائى النساء والتوليد بمستشفى الساحل التعليمى بالقاهرة يقول : إذا كانت إحدى الدوائر العلمية الطبية الأوربية قد توصلت مؤخراً إلى أن الختان يمنع من الإصابة بطاعون العصر (الإيدز) وسرطان العضو الذكرى، فإن هذا لا يعدو إلى الاستغراب .

وأضاف : أن ختان الإناث لا غبار عليه ولا خوف منه على الإطلاق، والذين يرددون دائماً أنه يقلل اللذة الجنسية عند المرأة، فهذا غير صحيح وجهل، فهذه العملية مرتبطة بالعامل النفسى، بل إنه حتى الآن لم يثبت أن ختان الإناث

يسبب تقليل اللذة الجنسية، فلم يصل أحد من العلماء حتى الآن إلى هذه النتيجة، فكل ما يحدث افتراءات وأكاذيب يرددها البعض.

ويؤكد الدكتور/ محمد خيرت استشارى أمراض النساء والولادة وزميل الكلية الملكية لأمراض النساء والولادة بلندن أن العلم الحديث توصل إلى حماية الإنسان من سرطان عنق العضو الذكرى، وعلينا وعلى كل أسرة ألا تقوم بإجراء عملية الختان إلا تحت إشراف طبيب الجراحة حتى نقى أنفسنا من أمراض الإيدز.

ويضيف أن ما توصل إليه الباحثون فى أوربا يؤكد أن الختان له مزايا خطيرة أهمها حماية حياة الإنسان من الايدز بل إن الختان نفسه يحمى الإناث من الالتهابات والاحتكاكات التي تؤدى إلى عملية الهياج والفوران الجنسى، ولا يمنع حقها فى الاستمتاع الجنسى كما يزعمون.

والختان أو الخفاض ينتشر فى الدول العربية بدرجات متفاوته ولأسباب مختلفة، فنجده فى مصر يمارس على ٦٠٪ من النساء مسلمات ومسيحيات على حد سواء، وفى السودان هناك ٩٢٪ من النساء فى شمال السودان يمارسنه وهو أكثر تشويها للأعضاء التناسلية.

أما الصومال وجيبوتى فكل المواطنات تتم لهن العملية، وفى موريتنانيا تمارس هذه العملية على اعتبارها واجبا دينيا، كذلك سواحل إفريقيا بفعل المكتشفين العمانيين، وتمارس فى أندونسيا وماليزيا.

وحول اختلاف الآراء التى أثيرت فى الفترة الماضية يشير د. حاتم سعد إسماعيل مدرس أمراض النساء والتوليد والعقم بكلية طب عين شمس فى القاهرة إلى أن حديث رسول الله ﷺ اخفضى ولا تنهكى قد حدد الأسلوب الأمثل والجراحى الصحيح لأداء هذه العملية المتخصصة وأن الإزالة تكون للزائد فقط دون تجاوز، كما يجب أن تجرى هذه العملية البسيطة فى أماكن مجهزة وتحت مخدر عام حتى لا تتعرض الفتاة لأى آلام أو آثار نفسية.

وقال: إنه إذا كان بعض المنكرين لسنة الختان يستندون فى دعواهم إلى ما يحدث من مضاعفات وأضرار فى بعض الحالات فما هو إلا نتيجة الممارسات الخاطئة

من بعض الجهلاء وغير المتخصصين، فإننا لابد وأن ندرك أن نفس المضاعفات تحدث عن ختان الذكر إذا ما طبق بأسلوب خاطئ أو على أيدى بعض الجهلاء ، مثل النزيف والالتهابات وتشويه مجرى البول وبتر بعض الأجزاء الهامة فى هذه المنطقة.

وأوضح د. عادل حسن ، استاذ الجراحة بطب القاهرة أن الضمان الوحيد هو إجراء هذه العملية فى المستشفيات، وذلك لمنع الممارسات الخاطئة والأضرار والمضاعفات التى يسببها إجراء الختان بطريقة خاطئة على أيدى غير المتخصصين، لذلك؛ لابد من وضع كل الامكانيات اللازمة والحديثة أمام الأطباء ليمارسوا هذه المهمة بضمان تام[1].

* وبحث عالمى آخر : ختان الذكور يمنع الإصابة بالإيدز

وتتوالى الأبحاث ففى بحث نشرته الأهرام كتبت هالة أبو زيد :

وحول هذا الموضوع توصلت أحدث الأبحاث العالمية إلى أن عملية ختان الذكور فى الصغر تعتبر من الوسائل الرئيسية لحمايتهم من الإيدز بعد البلوغ، وهو ما يتوافق مع تعاليم الإسلام الحنيف.

ويقول الدكتور هانى الناظر أستاذ الأمراض الجلدية والتناسلية ورئيس المركز القومى للبحوث إن تجربة علمية استمرت ثلاثة أعوام قام بها فريق طبى من جامعة موناش الأسترالية بملاحظة ومتابعة مجموعتين من الرجال.

المجموعة الأولى مكونة من ٥٠ رجلاً تم إجراء الختان لهم وهم أطفال والأخرى مكونة من ١٣٧ رجلاً لم تجر لهم هذه العملية أوضحت أن الذين تمت لهم عملية الختان لم يصابوا بمرض الإيدز فى حين أن ٤٠ رجلاً من المجموعة الثانية التى لم تجر لهم عملية الختان اصيبوا بالمرض، ووجدوا أن جلد العضو التناسلى للرجال الذين أجريت لهم العملية يتسم بوجود طبقة قرنية خارجية سميكة تمنع اختراق الفيروس للأنسجة الداخلية للعضو فى حين أن الذين لم تجر لهم عملية الختان تكون طبقة الجلد التى تغطى العضو من النوع الرقيق جداً الخالى من الطبقة القرنية كما أنه غنى بخلايا لانجرهانز التى تعتبر مستقبلة لفيروس الإيدز ونقطة

---

(١) مجلة الهدف الكويتية العدد ١٤٨١ السنة ٣٢ بتاريخ السبت ٢ / ١١ / ١٩٩٦ الموافق ٢٧ جمادى الآخر ١٤١٧هـ.

عبور الفيروس لداخل أنسجة العضو الذكرى ، كما أن عدم إجراء الختان للذكور يعرضهم لاحتمال الإصابة بالإيدز وأوصوا بضرورة اعتبار الختان وسيلة أساسية لمقاومة الإيدز لابد أن يبدأ جميع في تطبيقها على كل المواليد الذكور.

وتبين من خلال الدراسة كما يقول الدكتور هاني الناظر أن حوالى ٨٥٪ من الرجال المصابين بمرض الإيدز غالبا ما ينتقل إليهم من خلال عملية الاتصال الجنسي وأن بداية دخول الفيروس للجسم عن طريق خلايا لانجرهانز التى تمثل المستقبل الأول لذلك الفيروس والموجود فى الأغشية الخارجية للأعضاء التناسلية وفتحة الشرج والمستقيم ، وقد تأكد العلماء من ذلك عندما أجروا تجاربهم على إناث فصائل معينة من القرود حيث قاموا بحقن الفيروس من مهبل تنك القرود فوجدوا أن الفيروس اتجه مباشرة إلى خلايا لانجرهانز الموجودة بالغشاء المخاطى المبطن للمهبل ثم لاحظوا أن تلك الخلايا المصابة تتحد مع الخلايا الليمفاوية وتنتقل منها إلى الأنسجة الداخلية وخلال يومين وجدوا الفيروس فى الغدد الليمفاوية بالجسم والنتائج نفسها تم الحصول عليها على ذكور تلك الحيوانات حيث تم حقن الفيروس أيضا فى الغشاء المخاطى وجلد الأعضاء التناسلية الذكرية لتلك القرود والذى يحتوى على خلايا هانز فوجدوا الفيروس ينتقل بالطريقة نفسها كما حدث فى الإناث.

وأوضحت نتائج الدارسة أن العضو الذكرى الذى لاتجرى له عملية الختان يكون له طبقة خارجية من الجلد تزال أثناء الختان ليغطى بعدها عموده بطبقة من الخلايا القرنية تعمل كحائط صد طبيعى ضد فيروس الإيدز وتمنع اختراقه وعلى العكس يكون السطح الداخلى لتلك الطبقة الخارجية الرقيقة من الجلد غير المغطى بأى طبقات قرنية غنى بخلايا لانجرهانز ، مما يجعله قابلاً للإصابة بفيروس الإيدز، وبعد هذا الأمر مهما أثناء الجماع. حيث تتراجع هذه الطبقة للخلف ويصبح السطح الداخلى الرقيق معرضا للإفرازات المهبلية بطريقة مباشرة مما يسمح بمساحة كبيرة لانتقال واختراق الفيروس للعضو الذكرى.

ويقول إن هناك وسيلة أخرى لإختراق الفيروس لأنسجة العضو الذكرى حتى فى أولئك الأشخاص الذين أجريت لهم عملية الختان عن طريق فتحة البول حيث إنها هى الأخرى مكونة من غشاء مخاطى رقيق للغاية ولكن التجارب

أثبتت عدم إمكانية دخول الفيروس من هذا المكان نظراً لندرة خلايا لانجرهانز في النسيج الخاص بها وقد ذهب الباحثون إلى أكثر من ذلك عندما أوضحوا أن العضو الذكرى الذى لم تجر له عملية الختان يكون معرضاً أثناء الاتصال الجنسى للتهتك والتهاب الطبقة الخارجية من الجلد التى تغطيه نتيجة غزارة الدورة الدموية بها وبالتالي سهولة اختراق الميكروبات لها ليس فقط فيروس الأيدز بل أيضاً الميكروبات الأخرى مثل البكتريا والمسببة لمرض الزهرى والسيلان.

• مقدار ما يقطع فى الختان

يكون ختان الذكور بقطع الجلدة التى تغطى الحشفة وتسمى القلفة، والغزلة، بحيث تنكشف الحشفة كلها.

وفى قول عند الحنابلة : إنه إذا اقتصر على أخذ أكثرها جاز.

وفى قول ابن كج من الشافعية : إنه يكفى قطع شيء من القلفة وإن قل بشرط أن يستوعب القطع تدوير رأسها.

ويكون ختان الأنثى بقطع ما يطلق عليه الاسم من الجلدة التي كعرف الديك فوق مخرج البول. والسنة فيه أن لا تقطع كلها بل جزء منها [١].

وذلك لحديث أم عطية - رضي الله عنها - سالف الذكر من أن امرأة كانت تختن بالمدينة فقال لها النبى - ﷺ - : «لا تنهكى فإن ذلك أحظى للمرأة وأحب إلى البعل».

• وقت الختان

ذهب الشافعية والحنابلة إن أن الوقت الذى يصير فيه الختان واجبا هو ما بعد البلوغ، لأن الختان من أجل الطهارة، وهى لا تجب عليه قبله ويستحب ختانه في الصغر إلى سن التمييز لأنه أرفق به، ولأنه أسرع برءاً فينشأ على أكمل الأحوال.

وللشافعية فى تعيين وقت الاستحباب وجهان :

والصحيح المفتى به أنه يوم السابع ويحتسب يوم الولادة معه لحديث جابر : عق رسول الله - ﷺ - عن الحسن والحسين وختنهما لسبعة أيام [٢].

---

(١) المجموع ١ / ٢٠٣، الخرشى ٣ / ٤٨ البنيان ١ / ٢٧٣ كشاف القناع ١ / ٨٥.

(٢) أخرجه البيهقى ٨ / ٣٢٤ - وفى إسناده متكلم فيه - وقد أورد الذهبى من مناكيره هذا الحديث فى الميزان ٢ / ٨٥، وفى نيل الأوطار للشوكانى ١ / ١١٢ «أن النبى - ﷺ - ختن الحسن والحسين يوم السابع من ولادتهما».

وفى مقابله وهو ما عليه الأكثرون أنه اليوم السابع بعد يوم الولادة وفي قول الحنابلة والمالكية : أن المستحب ما بين العام السابع إلى العاشر من عمره، لأنها السن التى يؤمر فيها بالصلاة.

وفى رواية عن مالك أنه وقت الإثغار إذا سقطت أسنانه، والأشبه عند الحنفية العبرة بطاقة الصبى إذ لا تقدير فيه فيترك تقديره إلى الرأى وفى قول : أنه إذا بلغ العاشرة لزيادة الأمر بالصلاة إذا بلغها.

وكره الحنفية والمالكية والحنابلة الختان يوم السابع : لأن فيه تشبها باليهود [(١)].

ولما كان الظاهر مما تقدم : أنه لم يرد نص صريح من السنة بتحديد وقت للختان، فيترك لولى أمر الطفل بعد الولادة - صبيا أو صبية - إذ أن ما ورد من أن النبى - ﷺ - ختن الحسن والحسين - رضى الله عنهما - يوم السابع غير مسلم بثبوته من البيهقى ومن الذهبى كما تقدم.

ومن ثم أميل إلى الفتوى بتفويض أمر تحديد وقت وسن الختان للولى بمشورة الطبيب للتثبت من طاقة المختون - ذكرا أو أنثى - ومن مصلحته ويكون هذا قبل البلوغ الطبيعى لكل منهما.

• **ختان من لا يقوى على الختان**

من كان ضعيف الخلقة بحيث لو ختن خيف عليه، لم يجزأن يختن حتى عند القائلين بوجوبه بل ويؤجل حتي يصير بحيث يغلب على الظن سلامته لأنه لا تعبد فيما يفضى إلى التلف ولأن بعض الواجبات يسقط بخوف الهلاك.

وللحنابلة تفصيل فى هذا ملخصه : أن وجوب الختان يسقط عمن خاف تلفًا، ولا يحرم مع خوف التلف : لأنه غير متيقن، أما من يعلم أنه يتلف به وجزم بذلك فإنه يحرم عليه الختان [(٢)] فى قول عامة الفقهاء.

لقوله تعالى : ﴿ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ ﴾ [(٣)].

---

(١) حاشية ابن عابدين ٥ / ٤٧٨، مواهب الجليل ٣ / ٢٥٨، المجموع ١ / ٣١٣، الانصاف ١ / ١٢٤، حاشية الجمل على شرح المنهج ٥٥ / ١٧٤، النووى على ملام ٣ / ٤٨.

(٢) المجموع ١ / ٣٠٤، فتح القدير ١ / ٤٣، الشرح الصغير مع حاشية الصاوى ٢ / ١٥٢، الخرشي على خليل ٣ / ٤٨، ومطالب أولى النهى ١ / ٩١.

(٣) سورة البقرة الآية ١٩٥.

● **من مات غير مختون**

اتفقت كلمة الفقهاء على أنه : لا يختن الميت الأقلف الذى مات غير مختون لأن الختان كان تكليفا وقد زال بالموت، ولأن المقصود من الختان التطهير من النجاسة، وقد زالت الحاجة بموته، ولأنه جزء من الميت فلا يقطع، كيده المستحقة فى قطع السرقة، أو القصاص وهى لا تقطع من الميت ، وخالف الختان قص الشعر والظفر لأن هذين يزالان فى الحياة للزينة، والميت يشارك الحى فى ذلك ، أما الختان فإنه يفعل للتكليف به، وقد زال بالموت.

وفي قول ثان للشافعية : إنه يختن الكبير والصغير لأنه كالشعر والظفر وهى تزال من الميت.

والقول الثالث عندهم : أنه يختن الكبير دون الصغير، لأنه وجب على البالغ دون الصغير [١] .

● **النفقة**

من الإحسان إلى الأبناء الإنفاق عليهم فالإسلام يوجب ذلك على الوالد مادام الأبناء عاجزين عن العمل والكسب، قال رسول الله ﷺ : «وابدأ بمن تعول.. يقول الولد أطعمنى إلى من تدعنى» [٢] .

وتضييع الأولاد وترك الإنفاق عليهم وإهمال رعايتهم من كبائر الذنوب التى لا تنبغى لمسلم ، قال النبى ﷺ : «كفى بالمرء إثماً أن يضيع من يقوت» [٣] .

والنفقة على الأبناء لها أجر الصدقة، ورعايتهم والقيام عليهم طريق مأمون إلي الجنة والدرجات العلى، يقول الرسول ﷺ :«من عال جاريتين حتى تبلغا، جاء يوم القيامة أنا وهو كهاتين : وضم أصبعيه» [٤] أى قريباً من الرسول فى منزلته.

---

(١) المجموع ١ / ٣٠٤، ٥ / ١٨٣، فتح القدير ١ / ٤٥١ الخرشى على خليل ٢ / ١٣٦، مطالب أولى النهى ١ / ٨٥٨، كشاف القناع ١ / ٩٧ .

(٢) جزء حديث رواه البخارى .

(٣) رواه أبو داود والحاكم وأحمد فى مسنده.

(٤) رواه الترمذى .

وذكر البنات هنا ليس لتخصيص الأجر برعايتهن، بل للقضاء على ما كان في نفوس العرب من التعلق بالذكر أكثر من الإناث، وهذا ما حاربه الإسلام صيانة للأسرة من الاختلال، فالبنت نعمة من الله كالابن، والكون محتاج إلى جهدها وعملها مثله، ولا يحل إيثاره عليها.

وقد حرم القرآن قتل الأولاد هرباً من الإنفاق، وضمن للآباء رزق الأبناء، فما من دابة إلا على الله رزقها، قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا (٣١)﴾ [١].

وإذا كان الإسلام قد حرم قتل الأولاد خشية الإملاق بإزهاق أرواحهم، فإنه يحرم أيضاً قتلهم بإهمالهم وتضييعهم، وتركهم هملا بلا توجيه ولا تزويد.

إن هذه جناية كذلك، وعلى المجتمع أن يحول دونها، ببذل الرعاية للناشئة وتقديم المعونة المادية والمعنوية للأسرة، وخاصة الفقراء والعاجزين.

وبعد الرعاية المادية تأتى الرعاية المعنوية فللأولاد حق الحب والرحمة وذلك وإن كان مما تدعو إليه الفطرة وتحمل عليه، إلا أن ما قد يصيب الطبائع من شذوذ وما يطرأ على الفطرة من مسخ وتشويه، اقتضى الإيقاظ والتنبيه، فقد قدم ناس من العرب على رسول الله ﷺ، فسألوا: تقبلون صبيانكم ؟

فقال: «نعم».

فقالوا: لكنا والله ما نقبل !

فقال النبى: «أوأملك إن كان الله نزع من قلوبكم الرحمة» [٢]

إن الإسلام ينكر الجفاء والغلظة مع الأولاد، ويفترض أن تعمهم الرحمة، ويحيطهم الحنو والشفقة.

• **الحضانة**

من الإحسان إلى الأبناء حضانتهم وعدم إهمالهم، والحضانة: بكسر الحاء المهملة مصدر من حضن الصبى حضناًوحضانة، جعله فى حضنه، أو رباه فاحتضنه، والحضن بكسر الحاء: الصدر، والعضدان وما بينهما أحضان. [٣]

---

(١) سورة الإسراء الآية ٣١ .

(٢) رواه الشيخان.

(٣) انظر لسان العرب.

وعرفها بعضهم بأنها : تربيته ورعايته والقيام بجميع شئونه من تدبير طعامه وملبسه ونومه وصحته ومسكنه ووقايته من كل ما يؤذية ويضره.

وفي اصطلاح الشرعيين هي : تربية الطفل ورعايته والقيام بجميع شئونه، من تدبير طعامه وملبسه ونومه، والاهتمام بنظافته في سن معينة ممن له حق تربيته شرعًا من الأقارب والمحارم.

ويعرفها الشافعية : بأنها تربية من لا يستقل بأموره بما يصلحه ويقيه عما يضر به ولو كان كبيرًا مجنوناً، كأن يتعهده بغسل جسده وثيابه ودهنه وكحله، وربط الصغير إلى المهد وتحريكه لينام [(١)].

وحضانة المولود للأم طوال مدة الحضانة، ثم تؤول إلى الأب بعد أن يصبح الطفل قادرا على الاستغناء عن حنان أمه عليه ورعايتها له، وفي كل الحالات يجوز للقاضي أن يجعل الحضانة للأصلح من الوالدين، إذا ما ظهر له مصلحة الولد في ذلك.

فقد أتت امرأة للنبي ﷺ، فقالت : «يا رسول الله إن ابني هذا كان بطني له وعاء، وثديي له سقاء، وحجري له حواء، وإن أباه طلقني، وأراد أن ينزعه مني، فقال ﷺ : «أنت أحق به مالم تنكحي» [(٢)].

وعن أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه، قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «من فرق بين والدة وولدها فرق الله بينه وبين أحبته يوم القيامة» [(٣)].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ خير غلاما بين أبيه وأمه، فاختار أمه فأخذ بيدها فانطلقت به» [(٤)].

ومن حق القاضي في حالة النزاع على حضانة الولد اختيار من هو أنفع للصبي وأقدر على إحسان تربيته والقيام برعايته [(٥)]، قال الحسن البصري رضي الله عنه : سمعت شيخنا يقول : تنازع أبوان صبيًا عند بعض الحكام فخيره بينهما فاختار أباه. فقالت أمه : اسأله لأي شيء اختار أباه ؟

---

(١) حقوق الأولاد في الشريعة الإسلامية والقانون د. بدران أبو العينين بدران ص ٦١.

(٢) رواه أبو داود.

(٣) رواه الترمذي.

(٤) رواه أصحاب السنن واللفظ للترمذي.

(٥) محمود الصباغ، السعادة الزوجية في الإسلام ص١٤٩، ١٥٠.

فسأله ، فقال الصبى : أمى تبعثنى إلى الكتاب كل يوم والفقيه يضربنى، وأبى يتركنى ألعب مع الصبيان.

فقضى به للأم وقال : أنت أحق به.

وذكر عبد الرازق عن ابن جريج أنه أخبره عن عطاء الخراسانى عن ابن عباس قال : طلق عمر بن الخطاب امرأته الأنصارية أم ابنه عاصم، ولقيها تحمله بمحسر [1] وقد فطم ومشى، فأخذه بيده لينزعه منها، ونازعها إياه حتى أوجع الغلام وبكى، وقال : أنا أحق بابنى منك، فاختصما إلى أبى بكر فقضى لها به، وقال : ريحها وفراشها وحرها خير له منك حتى يشب ويختار.

وذكر عن الثورى عن عاصم عن عكرمة قال : خاصمت امرأة عمر إلى أبى بكر رضى الله عنه ، وكان طلقها، فقال أبو بكر رضى الله عنه : الأم أعطف وألطف وأرحم وأحنى وأخير وأرأف، هى أحق بولدها ما لم تتزوج.

وهناك رواية أخرى تدل على أن أبا بكر قد حكم للجدة لأم.

روى مالك فى الموطأ عن يحيى بن سعيد أنه قال : سمعت القاسم بن محمد يقول : كانت عند عمر بن الخطاب رضى الله عنه امرأة من الأنصار فولدت له عاصم بن عمر، ثم إن عمر فارقها، فجاء عمر قباء فوجد ابنه عاصما يلعب بفناء المسجد، فأخذ بعضده فوضعه بين يديه على الدابة، فأدركته جدة الغلام فنازعته حتى أتيا أبا بكر الصديق رضى الله عنه،

فقال عمر : ابنى. وقالت المرأة : ابنى.

فقال أبو بكر رضى الله عنه : خل بينها وبينه، فما راجعه عمر الكلام.

قال ابن عبد البر : هذا حديث مشهور من وجوه منقطعة ومتصلة، تلقاه أهل العلم بالقبول والعمل، وزوجة عمر أم ابنه عاصم : هى جميلة ابنة عاصم بن ثابت بن أبى الأفلح الأنصارى.

قال : وفيه دليل على أن عمر كان مذهبه فى ذلك خلاف مذهب أبي بكر، ولكنه سلم للقضاء ممن له الحكم والإمضاء، ثم كان بعد فى خلافته يقضى به ويفتى ولم يخالف أبا بكر فى شىء منه مادام الصبى صغيرا لا يميز، ولا مخالف لهما من الصحابة [2].

---

(١) محسر : سوق بين قباء والمدينة.

(٢) انظر زاد المعاد لابن القيم ٤ / ١٢٢ ، ١٢٣ .

فإن قيل : فقد اختلفت الرواية ، هل كانت المنازعة وقعت بينه وبين الأم أولاً ، ثم بينه وبين الجدة ، أو وقعت مرة واحدة بينه وبين إحداهما ؟

قيل : الأمر في ذلك قريب لأنها إن كانت الأم فواضح ، وإن كانت الجدة فقضاء الصديق رضى الله عنه لها يدل علي أن الأم أولى [1] .

وقد قضى الرسول ﷺ للخالة بالحضانة .

عن على رضي الله عنه قال : خرج زيد بن حارثة إلى مكة بابنة حمزة .

فقال جعفر : أنا آخذها ، أنا أحق بها ، هي ابنة عمي وعندى خالتها ، وإنما الخالة أم .

وقال على : أنا أحق بها ، وهي ابنة أخي وإنما خرجت إليها وقدمت بها .

فقضى بها رسول الله ﷺ لجعفر رضى الله عنه وقال ﷺ : «إنما الخالة أم» [2] .

وزيد المذكور : هو زيد بن حارثة ، وهو أخو حمزة بالمؤاخاة .

• شروط الحاضنة

ليس كل امرأة صالحة للقيام بمهمة الحضانة ، فهي مهمة عظيمة ، ومن ثم فقد تحدث فقهاؤنا عن الشروط التي يجب أن تتوفر في الحاضنة التي تتولى تربية الصغير وحفظه ، ومن أهم هذه الشروط :

١ - أن تكون عاقلة حكيمة تحسن التصرف برعاية الطفل وما يتصل به .

٢ - أن تكون لديها القدرة على رعاية الصغير وتربيته والمحافظة عليه ، فلا حضانة لكفيفة ، أو ضعيفة البصر ، ولا لمريضة مرضًا معديًا ، أو مرضاً يعجزها عن القيام بشئونه .

٣ - أن تكون أمينة صالحة ، فإن الفاسقة غير مأمونة على الصغير ، ولا يوثق بها في أداء واجب الحضانة ، فإذا تربى الصغير في حضنها فربما ينشأ على طريقتها ، بأخلاقها ، وقد أشار الإمام الغزالي إلى ذلك فقال : وعلى الأب أن يراقب ولده من أول أمره ، فلا يستعمل في حضانته وإرضاعه إلا امرأة صالحة

---

(١) المرجع السابق ٤ / ١٢٣ .

(٢) رواه أبو داود .

متدينة تأكل الحلال، فإن اللبن الحاصل من الحرام لا بركة فيه، فإذا وقع عليه نشوء الصبي انعجنت طينته من الخبيث، فيميل طبعه إلى ما ينسب إلى الخبث.[1]

٤ - أن لا تعيش الحاضنة في بيت فيه من يبغض الصغير وإن كان قريباً له، وذلك خشية إيذائه أو الإضرار به.

٥ - أن لاتكون متزوجة، فإذا تزوجت سقط حقها في الحضانة[2]، وهذا الحكم بالنسبة للمتزوجة بأجنبي، فإن تزوجت بقريب محرم من الصغير مثل عمه فإن حضانتها لا تسقط، لأن العم صاحب حق في الحضانة، وله من صلته بالطفل وقرابته منه ما يحمله على الشفقة عليه، ورعاية حقه، فيتم بينهما التعاون على كفالته، بخلاف الأجنبي فإنها إذا تزوجته فإنه لا يعطف عليه، ولايمكنها من العناية به، فلا يجد الجو الرحيم، ولا الظروف التي تنمي ملكاته ومواهبه.[3]

٦ - أن لا تكون مشغولة بما يحول بينها وبين القيام بتربية المحضون، ككثرة خروجها من البيت، فالموظفة مثلاً إذا لم تترك في بيتها من يرعى الطفل فلا تعتبر أهلاً للحضانة، أما إذا كان هناك من يقوم على شئون الطفل فلا تسقط حضانتها.[4]

• الابن يولد على الفطرة

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من مولود إلا يولد على الفطرة[5]، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه، كما تنتج[6] البهيمة بهيمة جمعاء[7] هل تحسون فيها من جدعاء[8]؟»

---

(١) إحياء علوم الدين ٣ / ٩٢.

(٢) قال ابن المنذر: أجمع على هذا كل من أحفظ عنه من أهل العلم، وذهب الحسن وابن حزم إلى عدم سقوط الحضانة بالنكاح « سبيل السلام ٣ / ٢٢٧.

(٣) فقه السنة للشيخ سيد سابق ٢ / ٣٤٤.

(٤) نظام الأسرة وحل مشكلاتها للشيخ الصابوني ص ١٨٥، والنقل عن بحث للدكتور العبد خليل أبو عبيد بعنوان تربية الطفل في ضوء السنة نشر ضمن كتاب المؤتمر العالمي الرابع للسيرة والسنة النبوية والمؤتمر العاشر لمجمع البحوث الإسلامية ص ٥٨٣، ٥٨٤.

(٥) الفطرة في اللغة: الخلقة، والمراد بها هنا الدين. (٦) تنتج: تضع.

(٧) بهيمة جمعاء: هي التي لم يذهب شيء من بدنها، وسميت بذلك لاجتماع السلامة لأعضائها فلا جدع فيها ولا كي.

(٨) الجدعاء: المقطوعة الأذن، وجدعت الشاة: قطعت أذنها من أصلها.

ثم يقول أبو هريرة : فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم »[1] .

فى هذا الحديث النبوى الشريف توجيه إلى العناية بتربية الطفل وحسن تهذيبه، وأولى الناس بهذا أبواه، لأنهما أول من تتفتح عليهما عينه فى هذه الحياة، وهو بين أيديهما أمانة، ونفسه كالمرآة الصافية تنعكس الصور على صفحتها، ولكنها فى نفس الطفل غيرها فى المرآة حيث تترك فى نفس الطفل آثاراً لهذه التربية، بقدر ما يكون للأبوين ولعوامل البيئة حوله من تأثير.

إن الطفل - حين ولادته - يولد بخلقة نقية وفطرة سليمة ، وهو مستعد لقبول الحق واعتناقه، بحيث لو ترك وشأنه حتى ميز وعقل لمالت إلى الإسلام نفسه، وقبل الحق بفطرته، فإنه دين يخاطب العقول، ويتمشي مع الطبائع السليمة، ولكن الأبوين - وهما ألصق الناس بالطفل - يؤثران عليه فى تحويل نفسه وتغيير فطرته، فمن المحاكاة والتقليد تارة، إلى التلقين أخرى ، ومن الاقتداء بهما فيما يقولان ويفعلان، إلى ما يختاران من أصدقاء ومخالطين، وما يدفعان به إلى بيئة تعليمية يحيا فيها، ومعلمين يربونه على نحو معين، كل أولئك وغيره عوامل مؤثرة فى توجيه الطفل وتحويله إلى ما يريده الأبوان له إما من تنمية لعقيدة الإسلام فيه، أو غرس لعقيدة تنحرف به عنها إلى اليهودية أو النصرانية أو المجوسية.

إن كل مولود يولد على الإسلام : أى على الفطرة ، والأب والأم هما اللذان يغيّران فى هذه الفطرة التى كان العهد عليها منذ آدم عليه السلام وذريته فى صلبه، قال تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ (172) ﴾[2] ولذا وقفت أم مريم تناجي ربها داعية بحفظ ذريتها على هذه الفطرة السوية من الشيطان الرجيم : ﴿ إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (35) فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ (36) ﴾[3] .

---

(1) رواه البخارى.

(2) سورة الأعراف الآية 172.

(3) سورة آل عمران الآيتان 35 ، 36.

واستجاب الله سبحانه دعاء أم مريم ففى الحديث الذى رواه أبو هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : «ما من مولود يولد إلا نخسه الشيطان فيستهل صارخاً من نخسة الشيطان إلا ابن مريم وأمه»[1].

ثم قال أبو هريرة : اقرءوا إن شئتم ﴿ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ (٣٦) ﴾[2].

وهكذا تساهم الأم فى تثبيت الإيمان فى قلوب أبنائها، فأم مريم حين أحست تقلب جنينها - فى بطنها - اتجهت إلى الله قائلة ﴿ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٣٥) ﴾ نذرته لله : أى خرجت عنه لله، فهو له تعالى خالصاً من تعلق أنانيتها به.

فماذا استنزلت تلك الأمومة المثلى للجنين؟

إن الجنين كان هو مريم ابنة عمران عليها السلام،هى مريم التى تقبلها ربها قبولاً حسنا، وأنبتها نباتًا حسنًا، وجعلها وابنها عيسى عليه السلام آية للعالمين[3].

لقد نذرت حملها لخدمة بيت الله وذلك لينشأ ويشب فى بيت الله، لكنها كانت أنثى، فما ملكت لها إلا أن تعيذها بالله سبحانه من الشيطان الرجيم هى وذريتها، فكان لها عيسى عليه السلام مباركًا أينما كان.

وفى القرآن الكريم ما يدل على أن هذا الكائن البشرى يولد مزوداً باستعداد لقبول الخير أو الشر، ينزع بذلك إلى أصله الذى نشأ منه، فإنه جسم وروح، والجسم خلق من طين الأرض وهى هابطة، والروح من روح الله وهى علوية ربانية، وفى الإنسان عقل موجه تناط به مسئوليته وتبعاته، فمن أحسن استخدام هذه القوة الواعية فيه سمت به روحه إلى السماء، ومن أساء هبطت به الرغبات الجسدية إلى الأرض، يقول الله تعالى : ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (٨) قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا (١٠) ﴾[4]

---

(١) مسلم كتاب الفضائل وأخرجه البخارى بمثله إلا «يمسه» بدل «نخسه».

(٢) سورة آل عمران الآية ٣٦.

(٣) الإسلام وقضايا المرأة المعاصرة للأستاذ البهى الخولى ١٤٦.

(٤) سورة الشمس الآيات ٧-١٠.

ففى الإنسان قدرة على الاختيار يكون على أساسها مسئوليته التى يترتب عليها الثواب والعقاب فمن وجهته قوته الواعية إلى الخير بتزكية نفسه وتطهير قلبه أثيب عليه ، ومن وجهته إلى الشر حوسب به.

ومن رعاية الله للإنسان ورحمته به أنه لم يتركه لعقله يستقل بتوجيهه، وإنما هيأ له من وسائل التوجيه الأخرى ما يجذبه إلى جانب الخير ويدفعه إليه،

وفيما أرسل الله من أنبياء، وبما أنزل عليهم من كتب ما يجلو عن الإنسان غواشي الهوى، ويكشف عن طريق هدايته غبش الظلام، واستجابته لهذه المؤثرات أو إعراضه عنها إنما يتم في حدود ما يحقق الإرادة الربانية بالإنسان، يقول الله تعالى : ﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾[1].

كما يقول : ﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ۝ ﴾[2].

*** فترة الطفولة والصبا**

● بناء عاطفتهم

من الإحسان إلى الأبناء بناء عاطفتهم فبناء العاطفة أمر مهم وحيوى ومن ذلك تقبيل الأبناء رأفة ورحمة، فللقبلة دور فعال فى تحريك مشاعر الطفل وعاطفته، كما أن لها دوراً كبيراً فى تسكين ثوراته وغضبه، بالإضافة إلى الشعور بالارتباط الوثيق فى بناء علاقة الحب بين الكبير والصغير، وهى دليل رحمة القلب والفؤاد لهذا الطفل الناشئ، وهى برهان على تواضع الكبير للصغير، وهى النور الساطع الذى يبهر فؤاد الطفل، ويشرح نفسه وصدره، ويزيد من تفاعله مع من حوله ، ثم هى أولاً وأخيراً السنة الثابتة عن المصطفى ﷺ مع الأطفال.[3]

أخرج البخارى ومسلم عن عائشة رضى الله عنها قالت : قدم ناس من الأعراب على رسول الله ﷺ فقالوا : أتقبلون صبيانكم؟ فقال :«نعم».

قالوا : لكنا والله ما نقبل.

فقال رسول الله ﷺ : أو أملك إن كان الله نزع من قلوبكم الرحمة؟ ».

---

(١) سورة الكهف الآية ٢٩. (٢) سورة الإنسان الآية ٣.

(٣) استراتيجيات التربية الأسرية فى الإسلام ص ٥٩ .

وأخرج البخارى ومسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قَبَّلَ النبى ﷺ الحسن بن على رضى الله عنهما ، فقال الأقرع بن حابس : إن لى عَشَرة من الولد ما قبلت منهم أحداً.

فقال رسول الله ﷺ : «من لا يرحم لا يرحم».

● **الرحمة بالأبناء**

روى ابن عساكر عن أنس رضى الله عنه قال : كان ﷺ أرحم الناس بالصبيان والعيال».

وإن الرحمة بالأبناء والشفقة عليهم صفة من صفات النبوة المحمدية ، وهى طريق لدخول الجنة والفوز برضوان الله تعالى.

روى البخارى عن أنس رضى الله عنه قال : جاءت امرأة إلى عائشة رضى الله عنها فأعطتها ثلاث تمرات ، فأعطت كل صبى لها تمرة ، وأمسكت لنفسها تمرة ، فأكل الصبيَّان التمرتين ونظرا إلى أمهما فعمدت الأم إلى التمرة فشقتها فأعطت كلَّ صبى نصف تمرة ، فجاء النبى ﷺ فأخبرته عائشة فقال : «وما يعجبك من ذلك ؟ لقد رحمها الله برحمتها صبيها».

ومن صور رحمة الرسول ﷺ بالأطفال ما أخرجه البخارى عن أنس رضى الله عنه : «إنى لأدخل في الصلاة وأنا أريد أن أطيلها فأسمع بكاء صبى فأتجوز فى صلاتى لما أعلم من وَجْدِ أمه من بكائه» (١)

وعن أبى قتادة رضى الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ يصلى بالناس وهو حامل أمامة بنت زينب بنت رسول الله ﷺ ، فإذا سجد وضعها ، وإذا قام حملها. (٢)

و من رحمة الأمهات بأبنائهن ما أخبرنا بها رسول الله ﷺ ، هذه الصورة العجيبة التى لها دلالات على تفجر الرحمة من قلب الأم على طفلها. فقد أخرج الإمام أحمد والبخارى ومسلم فى صحيحيهما والنسائى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «بينما امرأتان معهما ابنان لهما إذ

---

(١) رواه الخمسة إلا أبا داود.

(٢) أخرجه الستة إلا الترمذى.

جاء الذئب فأخذ أحد الابنين فتحاكمتا إلى داود فقضى به للكبرى، فدعاهما سليمان فقال : هاتوا السكين، فقالت الصغرى : يرحمك الله هو ابنها لا تشقه، فقضى به للصغرى».

وهنا نلاحظ قسوة قلب الأم الكبرى فى هذه القصة، فلقد سرق الذئب ابنها، فلم تصرخ ولم تتألم بل ولم تظهر حزنها عليه، بل على العكس تماماً أظهرت قسوة لا تتصور، خاصة وأنها امرأة ومعلوم عن النساء الرحمة والرقة خاصة بالأبناء، فسرقت ابن زميلتها، وليس من المعقول أن يكون الطفلان متشابهان لدرجة أنها لم تميز ولدها من ولد زميلتها، أما الصغرى فكانت تفيض رحمة ورقة وحناناً، تأكدت من أخذ الذئب لابن زميلتها وأن المتبقى هو ابنها، ولما حكم للكبرى به رضيت أن يعيش وأن تراه حياً، ولما أراد سليمان شقه نصفين لم تقبل لأنها ستفقد ولدها، ففضلت أن تأخذه زميلتها ليبقى حيًا، قال الشاعر :

اليوم رأينا الأم ترضى لابنها قطعه بالسيف تحت عينها

• **مداعبة الأبناء وملاطفتهم**

من الإحسان إلى الأبناء مداعبتهم وملاطفتهم وممازحتهم، هذه الأعمال إن لم يقم بها الوالدان لأنها واجب تربوى، فهم مطالبون بها اقتداء برسول الله ﷺ، فقد روى الطبرانى عن جابر رضى الله عنه قال : كنا مع رسول الله ﷺ فدعينا إلى طعام، فإذا الحسين يلعب فى الطريق مع صبيان، فأسرع النبى ﷺ أمام القوم ثم بسط يده فجعل يفرها هنا وهناك فيضاحكه رسول الله ﷺ حتى أخذه، فجعل إحدى يديه فى ذقنه والأخرى بين رأسه وأذنيه ثم اعتنقه وقبله، ثم قال : «حسين منى وأنا منه، أحب الله من أحبه، الحسن والحسين سبطان من الأسباط»[1]

وروى البخارى فى الأدب المفرد، والطبرانى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : سمعت أذناى هاتان، وبصرت عيناى هاتان، رسول الله ﷺ أخذ بيديه جميعاً بكفى الحسن أو الحسين، وقدماه على قدم رسول الله ﷺ ورسول الله ﷺ يقول : «ارقه».

---

(١) حسن، ورواه البخارى فى الأدب والترمذى وابن ماجة والحاكم، انظر صحيح الجامع.

قال : فرقى الغلام حتى وضع قدميه على صدر رسول الله ﷺ ثم قال رسول الله ﷺ : «افتح فاك» ثم قبله ثم قال : «اللهم أحبه فإنى أحبه».

وقد جاء فى الإصابة وزاد : حزقة حزقة ، ترق عين بقة.

وجاء فى النهاية لابن الأثير ، وفيه أنه عليه الصلاة والسلام كان يُرَقِّص الحسن أو الحسين ويقول : حزقة حزقة، ترق عين بقة.

فترقى الغلام حتى وضع قدميه على صدره.

الحزقة : الضعيف متقارب الخطو من ضعفه.

وقيل : القصير عظيم البطن.

فذكرها على سبيل المداعبة والتأنيس له .

تَرَقَّ : بمعنى اصعد.

عين بقة : كناية عن صغر العين .[1]

وأخرج البخارى ومسلم والترمذى وأبو داود عن أنس رضى الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ أحسن الناس خلقاً، وكان لى أخ يقال له : أبو عمير - وهو فطيم - كان إذا جاء نا ﷺ قال : يا أبا عمير، ما فعل النُّغَير؟ لنغر كان يلعب به .

وفى رواية لأحمد عن أنس رضى الله عنه أن النبى ﷺ كان يدخل على أم سليم ولها ابن من أبى طلحة يكنى أبا عمير، وكان يمازحه فدخل عليه فرآه حزيناً، فقال : «يا أبا عمير ما فعل النغير؟!»

فقالوا : ما ت نغره الذى كان يلعب به.

قال : فجعل يقول : «يا أبا عمير ما فعل النغير؟!»

قال الحافظ ابن حجر فى الفتح : إن هذا الحديث فيه جواز الممازحة وتكرير المزاح، وأنها إباحة سنة لا رخصة، وإن ممازحة الصبى الذى لم يميز جائزة، وتكرير زيارة الممزوح معه، وفيه ترك التكبر والترفع.

---

(١) انظر كتاب «سيدنا محمد رسول الله» للشيخ عبد الله سراج الدين ص ١٥٧ .

وأخـرج التـرمـذى وأبـو داود عن أنس بن مـالك رضـى الله عنـه أن رسـول الله ﷺ قال : «ياذا الأذنين «يعنى يمازحه».

وأخرج البخارى عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : لما قدم رسول الله ﷺ مكة استقبله أغيلمة بنى المطلب، فحمل واحدا بين يديه وآخر خلفه.

واقتدى الصحابة رضوان الله عليهم برسول الله ﷺ فى ممازحة أطفالهم ومداعبتهم، وكانوا ينزلون إلى منازلهم، ويتصابون لهم ويلاعبونهم.

وقال عمر رضى الله عنه : ينبغى للرجل أن يكون فى أهله كالصبى - أى فى الأنس والبشر وسهولة الخلق ومداعبة أولاده - فإذا التمس ما عنده وجد رجلاً.

وقد عزل عمر أحد عماله عن الرئاسة لأنه وجد منه دليلاً واضحاً على قسوة قلبه تجاه أولاده، فعن محمد بن سلام قال : استعمل عمر بن الخطاب رضى الله عنه رجلاً على عمل، فرأى الرجل عمر يقبل صبياً له.

فقال الرجل : تقبله وأنت أمير المؤمنين : لو كنت أنا ما فعلته .

قال عمر : فما ذنبى إن كان نزع من قلبك الرحمة ! إن الله لا يرحم من عباده إلا الرحماء، ونزعه عن عمله فقال : أنت لا ترحم ولدك - فكيف ترحم الناس.[(١)]

وبهذه المداعبة ومحاكاة الطفل، كان تعامل رسول الله ﷺ مع الأطفال وهو يغذى نفوسهم بهذه العاطفة الصادقة الطيبة، بعيداً عن الجفاء والقسوة وإعطاء الطفل حقه .[(٢)]

- **الإهداء إلى الأبناء**

من الإحسان إلى الأبناء تقديم الهدايا لهم مع مراعاة العدل بينهم، فللهدايا أثر طيب فى النفس البشرية عامة، وفى نفوس الأطفال أكثر تأثيراً وأكبر وقعاً، وقد سن رسول الله ﷺ قاعدة للحب بين الناس فنصح الأمة بقوله : «تهادوا تحابوا» وهذا قانون عام.

---

(١) كنز العمال ٥٨٣ / ١٦٥ رواه الدينورى.

(٢) استراتيجيات التربية الأسرية فى الإسلام إعداد لجنة البحوث والدراسات إشراف أ.د توفيق الواعى ص٩٧-١٠٠ بتصرف.

وقد بين لنا الرسول ﷺ عملياً هذا الركن في بناء عاطفة الطفل وتحريكها وتوجيهها وتهذيبها، فقد أخرج مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ كان يؤتى بأول التمر فيقول : «اللهم بارك لنا في مدينتنا وفي ثمارنا وفي مدنا وصاعنا ،بركة مع بركة»، ثم يعطيه أصغر من يحضره من الولدان.

وروى الطبرانى عن إسحاق بن يحيى بن طلحة قال : كنت مع عمى عيسى ابن طلحة في المسجد، فدخل السائب بن يزيد فبعثنى إليه فقال : اذهب إلى ذلك الشيخ فقل له : يقول لك عمى عيسى بن طلحة : هل رأيت رسول الله ﷺ .

فذهبت إليه ، فقلت له : هل رأيت رسول الله ﷺ ؟

فقال : نعم رأيت رسول الله ﷺ ودخلت عليه أنا وغلمة معى فوجدناه يأكل تمراً في قناع ومعه ناس من أصحابه، فقبض لنا من ذلك قبضة ومسح على رؤوسنا.

وروى أبو داود عن عائشة رضى الله عنها قالت : قدمت هدايا من النجاشي فيها فَصٌ حبشى فأخذه رسول الله ﷺ بعود أو ببعض أصابعه معرضاً عنه، ثم دعا أمامة بنت أبى العاص من بنته فقال : «تحلى بهذا يا بنية».

وهكذا : نجد أن النبى ﷺ كان يداعب عواطف الأطفال بمسح رؤوسهم فيشعرون بلذة الرحمة والحنان والحب والعطف، الأمر الذى يشعر بوجوده وحب الكبار له واهتمامهم به، وكذلك ينبغى أن يتقرب إلى الطفل وإشعاره بذاته.(١)

● **تعهدالأبناء**

من الإحسان إلى الأبناء تعهدهم في فترة الطفولة والصبا كما فعلت أم سليم «الرميصاء» بنت ملحان بن زيد بن حرام أم الصحابى الجليل أنس بن مالك رضى الله عنه لما أسلمت خرج زوجها - مالك بن النضر الذى تزوجته في الجاهلية - إلى الشام غاضبا من إسلامها.

فقالت : لا أتزوج حتى يبلغ أنس ويجلس في المجالس.

يقول أنس : جزى الله أمى عنى خيرا، لقد أحسنت ولايتى (٢).

---

(١) المرجع السابق ص ١٠٠، ١٠١ . (٢) الإصابة ٤ / ٤٦١ .

فكيف أحسنت ولايته ؟

لقد نظرت الرميصاء حولها فلم تجد بيتا أفضل من بيت النبى ﷺ ، ولا مدرسة خيرا من مدرسته، فعقدت العزم على اختيار البيت النبوى ليكون مأوى لولدها، ومدرسة النبى ﷺ لتكون دار علم نافع دينا ودنيا له، فما كان منها إلا أن ذهبت بأنس إلى هذه الدار الطيبة وألحقته بمدرستها.

يروى أنس رضى الله عنه فيقول : جاءت بى أمى وقد آزرتنى بنصف خمارها، وردتنى بنصفه، فقالت : يا رسول الله : هذا أنس ابنى ، أتيت به يخدمك، فادع الله له.

فقال : «اللهم أكثر ماله وولده».

قال أنس : فوالله إن مالى لكثير، وإن ولدى، وولد ولدى ليتعادون نحو المائة اليوم»[٢].

عرفت هذه الأم الفاضلة بغريزتها وعاطفتها وأمومتها أين تضع ولدها ؟

كيف تختار له المدرسة والمعلم؟

فكانت مدرسة بيت النبوة. وكان المعلم هو النبى ﷺ .

ليس هذا فحسب ، بل أحسنت فطلبت لابنها تمام المنفعة وعظيم الفائدة طوال عمره، فطلبت من رسول الله ﷺ أن يدعو له، فدعا له بالبركة فى ماله وولده.

ولخطورة هذه المرحلة فى تنشئة الطفل فقد اهتمت أم سليم بولدها اهتمامًا عظيمًا، ولم تجد مدرسة أغلى ولا أرقى من بيت النبى ﷺ ، ليتعلم فيها ولدها أمور دينه ودنياه، فنعم التفكير ونعم الاختيار.

وواجبنا أن نتأسى بهذا النموذج الطيب وأن نحاول جاهدين العناية بأبنائنا وتربيتهم التربية الإسلامية الصحيحة .

---

(١) صحيح مسلم كتاب فضائل الصحابة باب فضل أنس ٤ / ١٩٢٩ .

• آداب الطعام

من الإحسان إلى الأبناء تعليمهم الآداب الإسلامية للطعام، ومن هذه الآداب: غسل اليدين قبل الطعام وبعده، والأفضل الوضوء لأنه يشتمل على غسل اليدين وأكثر، ففي حديث أبي داود أن رسول الله ﷺ قال: «بركة الطعام الوضوء قبله والوضوء بعده».

التسمية عند البدء فقد قال رسول الله ﷺ: «من قال عند مطعمه ومشربه، بسم الله خير الأسماء، بسم الله رب الأرض والسماء لم يضره ما أكل وما شرب».

فإذا نسي وتذكر أثناء الطعام فليقل بسم الله أوله وآخره، قال ﷺ: «إذا أكل أحدكم فليذكر اسم الله تعالى، فإن نسي في أوله فليقل بسم الله أوله وآخره».

من الآداب أيضاً ألا يأكل بشماله، ففي حديث ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال، قال رسول الله ﷺ: «إذا أكل أحدكم فليأكل بيمينه، وإذا شرب فليشرب بيمينه فإن الشيطان يأكل بشماله ويشرب».

وأن يأكل مما يليه فقد روى مسلم عن عمر ابن أبي سلمة رضي الله عنهما قال: كنت غلاماً في حجر رسول الله ﷺ وكانت يدي تطيش في الصحفة، فقال لي -ﷺ-: «سم الله، وكل بيمينك، وكل مما يليك».

ومن الآداب أيضاً: كراهية النفخ في الطعام والشراب، لما روى عن الترمذي أن النبي ﷺ نهى أن يُتنفس في الإناء أو يُنْفَخ فيه، ولا يخفى علينا ما في النفخ والتنفس من الأضرار الصحية والمنافاة للآداب العامة.

ومن هذا ما رواه الزهري أن النبي ﷺ نهى عن النفخ في الطعام والشراب، وقال علي رضي الله عنه: نهى رسول الله ﷺ أن يؤكل الطعام حاراً.

ومن الآداب الإسلامية أن نعلم أبناءنا ألا يعيبوا طعامًا قط، ففي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: ما عاب النبي ﷺ طعامًا قط إن اشتهاه أكله وإلا تركه.

ومن الآداب ألا يتتبع الآكلين بنظره، فعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما قال : نهى رسول الله ﷺ أن يُتْبع الرجل بصره لقمة أخيه.

وقال الحجاج لأعرابى يوماً على سماطه : ارفق بنفسك .

فقال : وأنت ياحجاج اغضض من بصرك.

وقال معاوية لرجل على مائدته : خذ الشعرة من لقمتك.

فقال : وأنت تراعينى مراعاة من يرى الشعرة فى لقمتى، لا أكلت لك طعامًا أبدًا.

ومن الأداب أن لا يملأ معدته بالطعام والشراب، قال تعالى : ﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا ﴾ [1]. ولما روى الإمام أحمد أن رسول الله ﷺ قال : «ما ملأ آدمي وعاء شراً من بطنه، بحسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه، فإن كان لابد فاعلاً فثلث لطعامه وثلث لشرابه، وثلث لنفسه».

وروى عن حذيفة رضى الله عنه عن النبى ﷺ : «من قل طعامه صح بطنه وصفا قلبه، ومن كثر طعامه سقم بطنه وقسا قلبه».

وعنه ﷺ : «لاتميتوا القلوب بكثرة الطعام والشراب، فإن القلب كالزرع إذا كثر عليه الماء مات».

و قال على كرم الله وجهه: البطنة [2] تذهب الفطنة.

وأوصى رجل من خدم الملوك ابنه فقال : إذا أكلت فضم شفتيك، ولاتلتفتن يميناً ولا شمالاً، ولا تلقمن بسكين، ولا تجلس فوق من هو أشرف منك وأرفع منزلة، ولاتبصق فى الأماكن النظيفة.

علينا أن نعلم أبناءنا أدب حمد الله تعالى عند الانتهاء من الطعام، فقد قال ﷺ : «من أكل طعاماً فقال : الحمد لله الذى أطعمنى هذا ورزقنيه من غير حول ولا قوة ، غفر له ما تقدم من ذنبه» [3].

---

(١) سورة الأعراف الآية ٣١ .

(٢) انظر المستطف فى كل فن متظرف للأبشيهى ص ١٩١ بتصرف.

(٣) أخرجه أبو داود فى سننه والترمذى فى سننه وحسنه.

• الإحسان إلى الأبناء بتعويدهم الحياء

من الإحسان إلى الأبناء تعليمهم أن الحياء شعبة من شعب الإيمان، وأنه كان خلق رسول الله ﷺ.

قالت -السيدة- عائشة رضى الله عنها : مكارم الأخلاق عشرة : صدق الحديث، وصدق اللسان، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، والمكافأة بالصنيع، وبذل المعروف، وحفظ الذمام للجار، وحفظ الذمام للصاحب، وقرى الضيف، ورأسهن الحياء. قال رسول الله ﷺ : «الحياء شعبة من الإيمان»[1]

وقال رسول الله ﷺ : «إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى : إذا لم تستح فاصنع ما شئت»[2].

وقال على بن أبى طالب كرم الله وجهه : من كسا بالحياء ثوبه لم ير الناس عيبه.

وعن زيد بن على عن آبائه يرفعونه : من لم يستح فهو كافر.

قال أبو موسى الأشعرى رضى الله عنه : إنى لأدخل البيت المظلم أغتسل فيه من الجنابة فأحنى فيه صلبى حياء من ربى.

وقال بعضهم : الوجه المصون بالحياء كالجوهر المكنون فى الوعاء.

وقال الخواص : إن العباد عملوا على أربع منازل، على الخوف والرجاء، والتعظيم والحياء، فأرفعها منزلة الحياء، لما أيقنوا أن الله يراهم على كل حال، قالوا : سواء علينا رأيناه أم رآنا، وكان الحاجز لهم عن معاصيه الحياء منه.

ويقال : القناعة دليل الأمانة، والأمانة دليل الشكر، والشكر دليل الزيادة، والزيادة دليل بقاء النعمة، والحياء دليل الخير كله.[3]

• الكرم والجود والسخاء

من الإحسان إلى الأبناء أن نعودهم الكرم والجود والسخاء وأن نحببهم فى ذلك تأسيًا برسول الله ﷺ، فقد كان أجود الناس، كان أجود من الريح

---

(١)

(٢)

(٣) المستطرف فى كل فن مستظرف للأبشيهى ص ١٣٩ .

المرسلة، وهو أجود ما يكون في رمضان ،كان ﷺ يعطي ولا يخشى الفقر، ويهب مالا يهب الملوك! وقد تألف بجوده قلوب قريش، الذين كانوا يرون القوة في المال والغنى غنى الدنيا، فأعطى أبا سفيان بن حرب من الإبل والفضة ما جعله يشعر أن محمداً أغنى الناس، وأنه يفوق الملوك في العطاء فأسلم له وانقاد، ثم ما لبث أن تذوق طعم الإسلام فحلا له، وأخلص وجهه لله الذى فطره، وشارك في معارك الإسلام، فحارب في «اليرموك» وأصيب في عينه.

وكذلك: صفوان بن أمية - وهو من سادات قريش - رآه النبي ﷺ ينظر إلى شعب مملوء إبلاً وغنماً من مغانم «هوازن»، فقال له: «أيعجبك هذا؟».

قال صفوان: نعم.

فقال النبي ﷺ: «هو لك!».

قال صفوان: ما تطيب بنفس هذا ملك!

وكان ذلك سبباً في إسلامه، وإخلاصه للدين، وقاتل في سبيل الله حتى فارق الحياة.

وكانت تحمل إلى النبي ﷺ أموال الصدقات من كل مكان، فلا يُبْقِي لنفسه منها شيء، ويوزعها بين الناس.

حمل إليه مرة تسعون ألف درهم فوضعها على حصير في المسجد، وأخذ يقسمها حتى أتى عليها.

وجاءه رجل بعد قسمتها يسأله شيئًا، فقال ﷺ: «ما عندى شيء، ولكن ابتع على[1]، فإذا جاءني شيء قضيناه».

فلم يصبر عمر حين علم أن الرجل يكلف الرسول مالا يملك - أن قال للنبي ﷺ: يا رسول الله لم يكلفك الله ما لا تقدر عليه!

فكره النبي ﷺ قوله - وظهر الغضب على وجه - فإنه أعلم بما يرضاه الله من عمر وأمثاله.

فبادر أحد الأنصار وقال له: يا رسول الله، أنفق ولاتخش من ذى العرش إقلالا!

---

(١) ابتع: اشتر.

فظهر البشر على وجه الرسول الكريم وقال : «بهذا أمرت»[1]

وكان رسول الله ﷺ يكره البخل ويستعيذ بالله منه ، ويقول : «اللهم إنى أعوذ بك من البخل والحسد . كما أعوذ بك من الفتنة وعذاب القبر».

وكان يحب الكرام ويدعو لهم، ويكره البخلاء ويدعو عليهم، فيقول : «اللهم أعط لمنفق خلفا ، وأعط لممسك تلفا»[2]

وذكر القرطبى[3] فى تفسيره عن عبد الله بن مسعود قال : لما نزلت ﴿ مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ﴾[4] قال أبو الدحداح : يا رسول الله ، أو إن الله تعالى يريد منا القرض؟

قال : «نعم يا أبا الدحداح».

قال : أرنى يدك ،فناوله

قال : فإنى أقرضت الله حائطًا فيه ستمائة نخلة ثم جاء يمشى حتى أتى الحائط وأم الدحداح وعياله فيه، فناداها يا أم الدحداح.

قالت : لبيك

قال : اخرجى، قد أقرضت ربى عز وجل حائطًا فيه ستمائة نخلة.

وفى رواية زيد بن أسلم، أن أبا الدحداح عندما سمع هذه الآية أراد أن يتصدق بالحديقتين اللتين لا يملك غيرهما ، فأمره رسول الله ﷺ أن يجعل إحداهما لله، والأخرى له ولأولاده، فجعل خيرهما لله.

فما أحوج أبناءنا إلى أن يتعلموا مثل هذه الأخلاقيات الكريمة.

- **قيمة الوقت فى حياة الإنسان**

من الإحسان إلى الأبناء أن نعلمهم قيمة الوقت فى حياتهم فالوقت أنفس ما يملك الإنسان، إن الوقت ليس من ذهب فقط كما يقول المثل الشائع، بل هو أغلى فى حقيقة الأمر من الذهب واللؤلؤ والماس ومن كل جوهر نفيس وحجر كريم.

---

(١) سيرة النبى العربى - أحمد التاجى ٢ / ٥٧٢، ٥٧٣ .

(٢) رواه البخارى. (٣) ١ / ٢٣٧ .

(٤) سورة البقرة الآية ٢٤٥ .

ولما كان الوقت سريع الانقضاء، وكان ما مضى منه لا يرجع ولا يعوض بشيء، كان أنفس وأثمن ما يملك الإنسان، وترجع نفاسة الوقت إلى أنه وعاء لكل عمل وكل إنتاج، فهو فى الواقع رأس المال الحقيقى للإنسان فرداً كان أو مجتمعاً.

وقد عني القرآن بالوقت وبين أهميته وعظم نعمة الله فيه، يقول تعالى: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا ﴾ [1]

ويقول تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾ ﴾ [2]

ولبيان أهمية الوقت أقسم الله تعالى بأجزاء معينة منه مثل: الليل، والنهار، والفجر، والضحى، والعصر.

قال تعالى: ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ﴿١﴾ وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ﴿٢﴾ ﴾ [3]

وقال سبحانه: ﴿ وَالْفَجْرِ ﴿١﴾ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ﴿٢﴾ ﴾ [4]

وقال: ﴿ وَالضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾ ﴾ [5]

وقال: ﴿ وَالْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴿٢﴾ ﴾ [6]

ومن المعروف أن الله تعالى إذا أقسم بشيء خلقه، فذلك ليلفت الأنظار إليه، وينبه إلى جليل منفعته وآثاره.

وجاءت السنة النبوية فأكدت قيمة الوقت، وتقرر مسئولية الإنسان عنه أمام الله يوم القيامة، حتى إن الأسئلة الأربعة الأساسية التى توجه إلى المكلف يوم الحساب يخص الوقت منها سؤالان رئيسان، عن أبى برزة الأسلمى قال: قال رسول الله: «لا تزول قدما عبد حتى يسأل: عن عمره فيما أفناه، وعن علمه فيما فعل، وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه، وعن جسمه فيما أبلاه» [7]

---

(١) سورة إبراهيم الآيتان ٣٣، ٣٤.
(٢) سورة الفرقان الآية ٦٢.
(٣) سورة الليل الآيتان ١، ٢.
(٤) سورة الفجر الآيتان ١، ٢.
(٥) سورة الضحى الآيتان ١، ٢.
(٦) سورة العصر الآيتان ١، ٢.
(٧) أخرجه الترمذى فى سننه وقال: حديث حسن صحيح.

وقد عرف السلف الصالح قيمة الوقت فلم يضيعوه ، بل كانوا أشد حرصاً على الاستفادة به تمام الفائدة، يقول الحسن البصرى : أدركت أقواماً كانوا على أقواتهم أشد منكم حرصاً على دراهمكم ودنانيركم ! .

ويقول عمر بن عبد العزيز : إن الليل والنهار يعملان فيك، فأعمل فيهما.

وكانوا يقولون : من علامة المقت إضاعة الوقت.

وكانوا يحرصون كل الحرص ألا يمر يوم أو بعض يوم ، أو برهة من الزمان وإن قصرت دون أن يتزودوا منها بعلم نافع، أو عمل صالح، أو مجاهدة للنفس، أو إسداء نفع إلى الغير، حتى لا تتسرب الأعمار سدى، وتضيع هباء، وتذهب جفاء وهم لا يشعرون.

يقول ابن مسعود رضى الله عنه : ما ندمت على شيء ندمى على يوم غربت شمسه، نقص فيه أجلى ولم يزدد فيه عملى !.

وقال آخر : كل يوم يمر بى لا أزداد فيه علماً يقربنى من الله عز وجل، فلا بورك لى فى طلوع شمس ذلك الوقت.

• قتل الوقت

إذا كان هذا هو حرص السلف الصالح على الوقت، فماذا فعل الخلف ؟ إن مما يدمى القلب، ويمزق الكبد أسى وأسفا ما نراه اليوم عند المسلمين من إضاعة للأوقات فاقت حد التبذير إلى التبديد والحق أن السفه فى إنفاق الأوقات أشد خطرا من السفه فى إنفاق الأموال، وإن هؤلاء المبذرين المبددين لأوقاتهم، الذين يجلسون الساعات الطوال من ليل أو نهار حول مائدة النرد، أو رقعة الشطرنج، أو لعبة الورق أو غير ذلك - مما يحل أو يحرم - لا يبالون، لاهين عن الصلاة، وعن ذكر الله، وعن واجبات الدين والدنيا، فإذا سألتهم عن عملهم هذا وما وراءه من ضياع، قالوا لك بصريح العبارة : إنما نريد أن نقتل الوقت ! .

هؤلاء أحق الناس بالحجر عليهم من المبذرين لأموالهم؛ لأن المال إذا ضاع قد يعوض، والوقت إذا ضاع لا عوض له.

إذا كان الوقت بهذه الأهمية حتى ليعد بأنه هو الحياة حقا، فإن على الإنسان المسلم واجباً بل واجبات نحو وقته ينبغي أن يعيها، وأن يضعها نصب عينيه[1] وأن يعلمها كل من يحب، وفي مقدمتهم أبناؤه.

● الإحسان إلى الأبناء بتعليمهم اصطناع المعروف

من الإحسان إلى الأبناء تعليمهم وتعويدهم اصطناع المعروف قال تعالى: ﴿ وَلَا تَنسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ ﴾[3]

وعن أنس رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال: «الخلق كلهم عيال الله، فأحب خلقه إليه أنفعهم لعياله»[4].

ومعنى عيال الله: فقراء الله تعالى، والخلق كلهم فقراء الله تعالى، وهو يعولهم.

وعن كثير بن عبيد بن عمرو بن عوف المزنى، عن أبيه عن جده رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن لله خلقاً خلقهم لقضاء حوائج الناس، آلى على نفسه أن لا يعذبهم بالنار، فإذا كان يوم القيامة وضعت لهم منابر من نور يحدثون الله تعالى والناس فى الحساب».

و عن نافع عن ابن عمر رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «من قضى لأخيه المسلم حاجة كنت واقفاً عند ميزانه، فإن رجح وإلا شفعت له»[5]

والأحاديث فى هذا المجال كثيرة وكثيرة نختمها بحديث عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أتدرون ما يقول الأسد فى زئيره؟».

قالوا: الله ورسوله أعلم.

قال: «يقول: اللهم لا تسلطنى على أحد من أهل المعروف»[6]

---

(١) الصفحات الأولى من كتاب الوقت فى حياة المسلم د. يوسف القرضاوى بتصرف وتنظيم.

(٢) سورة البقرة الآية ٢٣٧.

(٣) سورة المائدة الآية ٢.

(٤) رواه البزار والطبرانى فى معجمه.

(٥) مختارات من المستطرف فى كل فن مستظرف للأبشيهى ص ١٢٤، ١٢٥.

(٦)

ومن كلام الحكماء : إذا سألت كريماً حاجة فدعه يفكر فإنه لا يفكر إلا فى خير ، وإذا سألت لئيماً حاجة فعاجله لئلا يشير عليه طبعه أن لا يفعل .

وهكذا يتبين لنا أن الحياء صفة من صفات الكمال ، لا يتصف بها إلا الكامل من الناس ، ومن فقدها فقد الكثيرمن الخير .

• الوفاء بالوعد والعهد

من الإحسان إلى الأبناء تعليمهم وتعويدهم الوفاء بالوعد وبالعهد ، فالوفاء صفة جميلة تُظْهِر من يتحلى بها فى أبهى صورة .

والوفاء من شيم النفوس الشريفة ، والأخلاق الكريمة ، والخلال الحميدة ، يعظم صاحبه فى العيون ، وتصدق به خطرات الظنون ، ويقال : الوعد سحابة والإنجاز مطره .

ولما للوفاء من قيمة عظيمة فى الإسلام ، فقد أمر الله تبارك وتعالى به ، وشدد فى ذلك الأمر ، فقال جل من قائل : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ ﴾ [1] .

وقال تبارك وتعالى : ﴿ الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلا يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ (٢٠) ﴾ [2] ، وقال لتوكيدها : ﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلا تَنقُضُوا الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ (٩١) ﴾ [3]

وقال جل وعلا : ﴿ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً ﴾ [4]

والآيات فى ذلك كثيرة ومن أشدها قول الحق تبارك وتعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ (٢) كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ (٣) ﴾ [5] .

وأما السنة النبوية فقد شددت فى طلب الوفاء بالعهد ، فقد روى عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : «آية المنافق ثلاث : إذا وعد أخلف ، وإذا حدث كذب ، وإذا اؤتمن خان» [6] .

و من نافلة القول أن نقول : إن النبى ﷺ كان من أحرص الناس على فضيلة

---

(١) سورة المائدة الآية ١ .

(٢) سورة الرعد الآية ٢٠ .

(٣) سورة النحل الآية ٩١ .

(٤) سورة الإسراء الآية ٣٤ .

(٥) سورة الصف الآيتان ٢، ٣ .

(٦) رواه البخارى ومسلم.

الوفاء بالعهد، فقد كان وفياً لكل من عرفه من الناس، وكان ﷺ قبل أن يبعث رسولاً يصدق الوعد لا يخلفه، فما بالك بعد البعثة.

كان ﷺ مثالاً وفياً بالعهد مع الأحياء والأموات، فلم ينس زوجته خديجة بعد وفاتها، ولم ينس صواحبها اللاتى كن يدخلن عليه فى عهدها، فكان إذا قدمت له هدية قال : اذهبوا بشىء منها إلى فلانة، إنها كانت تحب خديجة.

كان ﷺ مثالاً من أمثله الوفاء، لا يدركه أحد من الناس فيها، فهو يبر أصحابه حق البر ويفى لهم ولأولادهم، فهو يقدر صحبتهم ومابذلوه فى سبيل دينهم حق قدره، ويعرف لهم سابقتهم، فكان يعز أبا بكر وأولاده من أجله، ويحب أبناءه وبنيه من أجله!.

وقد وسع حلمه «عائشة» فى مواطن كثيرة لأنها بنت الصديق، فكانت تشتد عليه فيلين، ويسألها الرفق، وتدل عليه فيصبر على إدلالها، وتغضب منه فيرضى، ومازال بها يؤدبها ويعلمها حتى صارت أفضل النساء وأسلسلهم له قياداً »[1].

و من صور الوفاء العظيمة : ما روى أن أعرابياً من عذرة شكا إلى معاوية بن أبى سفيان عامله مروان بن الحكم بالمدينة؛ لرغبته فى التفريق بينه وبين زوجته - على رغمها - لفقر نزل به بعد عز، ولرغبته فى أن يتزوج منها لمكانها من الجمال، فلما حضرت أمام معاوية قال لزوجها - مازحاً - نخيرها بيننا.

فقال الزوج - فى ثقة من زوجته - ذلك إليك يا أمير المؤمنين.

فتحول معاوية نحوها وقال لها : يا سعدى : أينا أحب إليك، أمير المؤمنين فى عزه وشرفه وقصوره، أم مروان بن الحكم فى غضبه واعتدائه، أم هذا الأعرابى (يقصد زوجها) فى جوعه وأطماره (ثيابة البالية).

فأشارت الجارية إلى ابن عمها الأعرابى، وأنشدت تقول :

هذا، وإن كان فى جوع وأطمار ... أعز عندى من أهلى ومن جارى

وصاحب التاج أو مروان عامله ... وكل ذى درهم منهم ودينار

ثم قالت : لست - والله يا أمير المؤمنين - لحدثان الدهر بخاذلته، ولقد

(١) سيرة النبى العربى للأستاذ أحمد التاجى ٢ / ٥٧٠ .

كانت لى - معه - معيشة راضية، وأنا أحق من صبر معه على الضراء والسراء، وعلى الشدة والرخاء، وعلى العافية والبلاء، وعلى القسم الذى كتب الله لى معه.

فأعجب معاوية بعقلها وكمالها ومروءتها، وأمر لها بعشرة آلاف درهم، وألحقها بصدقات بيت مال المسلمين.[1]

ومن الإحسان إلى الأبناء تعليمهم وتعويدهم الوفاء بالوعد وبالعهد، فالوفاء صفة جميلة تُظهر من يتحلى بها فى أبهى صورة.

والوفاء من شيم النفوس الشريفة، والأخلاق الكريمة، والخلال الحميدة، يعظم صاحبه فى العيون، وتصدق به خطرات الظنون، ويقال : الوعد سحابة والإنجاز مطره.

ولما للوفاء من قيمة عظيمة فى الإسلام ، فقد أمر الله تبارك وتعالى به، وشدد فى ذلك الأمر، فقال جل من قائل :﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ ﴾[2]

وقال تبارك وتعالى : ﴿ الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلا يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ (٢٠) ﴾[3]

وقال لتوكيدها : ﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلا تَنقُضُوا الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ (٩١) ﴾[4]

وقال جل وعلا : ﴿ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً ﴾[5]

والآيات فى ذلك كثيرة ومن أشدها قول الحق تبارك وتعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ (٢) كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ ﴾[6].

- **المساعدة فى اختيار أصدقائهم :**

الإنسان مجبول على التقاليد. والاقتداء بصاحبه وجليسه ومن الإحسان إلى الأبناء مساعدتهم فى اختيار أصدقائهم وجلسائهم، والجلساء على قسمين :

أحدهما : جليس صالح يدلك على الخير ويعينك على فعله، ويحذرك من

---

(١) المرأة فى التصور الإسلامى د. عبد المتعال الجابرى ص ١٣٦ .

(٢) سورة المائدة الآية ١ .

(٣) سورة الرعد الآية ٢٠ .

(٤) سورة النحل الآية ٩١ .

(٥) سورة الإسراء الآية ٣٤ .

(٦) سورة الصف الآيتان ٢، ٣ .

الشر، ويعلمك ماجهلت، ويذكرك إذا نسيت، وهذا شبهه النبى ﷺ بحامل المسك لما يتركه من الأثر الطيب فى صاحبه.

ثانيها : جليس السوء وهذا يكون عوناً للنفس الأمارة بالسوء والشيطان على فعل الشر وترك الخير وهذا شبهه النبى ﷺ بنافخ الكير يؤذى صاحبه بالرائحة الكريهة وربما تعدى أذاه إلى ما هو أشد.

عن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه، عن النبى ﷺ : «إنما مثل الجليس الصالح والجليس السوء كحامل المسك ونافخ الكير، فحامل المسك إما يحذيك [(١)]، وإما أن تبتاع [(٢)] منه وإما أن تجد منه ريحاً طيبة، ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك وإما أن تجد منه ريحاً خبيثة» [(٣)].

وهذا الحديث النبوى الشريف يفيد أن الجليس الصالح فيه خير وبركة ونفع ومغنم لكل من يجالسه كحامل المسك الذى ينتفع بما معه إما بهبة أو بيع أو أقل شىء مدة الجلوس معه، وأنت قرير العين، منشرح الصدر، برائحه المسك، وهذا تقريب وتشبيه له بذلك، وإلا فما يحصل من الخير الذى يصيبه العبد من جليسه الصالح أبلغ وأفضل من المستك، فإنه إما أن يعلمك أموراً تنفعك فى دينك، وإما أن يعلمك أموراً تنفعك فى دنياك، أو فيهما جميعاً، أو ينهاك عما فيه مضرة لك وأقل نفع يحصل من الجليس الصالح انكفاف الإنسان بسببه عن السيئات والمساوئ والمعاصى، رعاية للصحبة ،ومنافسة فى الخير. وترفعاً عن الشر.

وأما مصاحبة الأشرار فهى السم الناقع، والبلاء الواقع، فتجدهم يشجعون على فعل المعاصى والمنكرات، ويرغبون فيها ،ويفتحون لمن خالطهم وجالسهم أبواب الشرور، ويزينون لجالسهم أنواع المعاصى، ويحثونهم على أذية الخلق، ويذكرونهم بأمور الفساد التى لم تدر فى خلدهم وإن هم بتوبة وانزجار عن المعاصى حسنوا عنده تأجيل ذلك، وأوهموه بأن ما هو فيه أهون من غيره، وغروه بطول الأمل، وفى الإمكان التوبة والإنابة إذا كبر فى السن ،وكم قادوا أصحابهم إلى المهالك [(٤)].

---

(١) يحذيك : يمنحك. (٢) تبتاع : تشترى. (٣) رواه البخارى ومسلم.

(٤) موارد الظمآن لدروس الزمان للشيخ عبد العزيز محمد السلمان ١ / ٦٦٩ .

وما أحسن ما قال لقمان لابنه : يابني من لا يملك لسانه يندم، ومن يكثر المراء يُشْتَم، ومن يدخل مداخل السوء يُتَّهَمْ، ومن يصحب صاحب السوء لا يسلم، ومن يصحب الصاحب الصالح يغنم، فمجالسة الصالحين محمودة، ومرافقة الخبثاء مذمومة.[1]

صاحب أخا ثقة تحظى بصحبته	فالطبع مكتسب من كل مصحوب
كالريح آخذة مما تمر به	نتنا من النتن أو طيباً من الطيب

وقال ﷺ : «لاتصاحب إلا مؤمناً ولا يأكل طعامك إلاتقى»[2].

قال أبو سليمان الخطابي : هذا إنما جاء في طعام الدعوة دون طعام الحاجة وذلك أن الله سبحانه وتعالى قال : ﴿ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۝٨ ﴾[3]. ومعلوم أن أسراهم كفار غير مؤمنين.

وإنما حذر من صحبة من ليس بتقي وزجر عن مخالطته و مؤاكلته لأن المطاعمة توقع الألفة والمودة في القلوب .[4]

● مجالسة أهل الدين

كم حث النبي ﷺ على مجالسة أهل الدين والورع، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «الرجل على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل»[5]

قال العلماء معناه لاتخالل إلا من رضيت دينه وأمانته فإنك إذا خاللته قادك إلى دينه، ومذهبه، ولاتغرر بدينك ،ولاتخاطر بنفسك، فتخالل من ليس مرضياً في دينه ومذهبه.

---

(١) النووى فى شرح مسلم ١٦ / ١٧٨ .

(٢) أخرجه أحمد وأبو داود والترمذى وقال : هذا حديث إنما نعرفه من هذا الوجه، والدارمى، وصححه ابن حبان.

(٣) سورة الإنسان الآية ٨ .

(٤) الخطابى فى معالم السنن ٥ / ١٦٨ ونقله البغوى فى شرح السنة ١٣ / ٦٩، انظر منهج السنة النبوية فى تربية الإنسان د. بدير محمد بدير ص ٨٤، ٨٥ .

(٥) أخرجه الترمذى فى سننه وقال : حديث حسن غريب.

وقال سفيان بن عيينة، وقد روى في تفسير هذا الحديث انظروا إلى فرعون معه هامان،وانظروا إلى الحجاج معه يزيد بن أبي مسلم شر منه، قلت وانظروا إلى يزيد بن معاوية ومعه مسلم بن عقبة المرى شر منه،وانظروا إلى سليمان بن عبد الملك صحبه رجاء بن حيوة الكندى أحد الأعلام الأفاضل، فقومه وسدده.

وعن أبي سعيد الخدرى رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : «لا تصاحب إلا مؤمنًا ولا يأكل طعامك إلا تقي»[1] أى لا تدعو إلى مؤاكلتك إلا الأتقياء، لأن المؤاكلة تدعو إلى الألفة وتوجبها، وتجمع بين القلوب، فتوخ أن يكون خلطاؤك وذوو الاختصاص بك من أهل التقوى.

وعن وديعة الأنصارى قال : سمعت عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول وهو يعظ رجلاً، لا تتكلم فيما لا يعنيك، واعتزل عدوك، واحذر صديقك إلا الأمين ولا أمين إلا من يخشى الله عز وجل ويطيعه، ولا تمش مع الفاجر، فيعلمك من فجوره، ولا تطلعه على سرك ولا تشاور في أمرك إلا الذين يخشون الله سبحانه وتعالى.

ووعظ بعضهم ابنه فقال : إياك وإخوان السوء، فإنهم يخونون من رافقهم، ويفسدون من صادقهم، وقربهم أعدى من الجرب، ورفضهم والبعد عنهم من استكمال الأدب والدين، والمرء يعرف بقرينه.

ويجب أن تكون الصحبة صافية، والحب في الله ولله، لا لطمع في جاه أو سلطان أو مال أو منفعة، وحيث إن الصاحب هو العضد الأقوى والساعد الأيمن للمرء في حياته ومايتنابه في ملماته. فعلى العاقل أن يختار أصحابه وينتقى جلساءه وينتخبهم من ذوى السيرة المحمودة والعقل الراجح والرأى السديد، والدين المتين،وليحذر من مؤاخاة من لا يصلح للأخوة ولايراعى حق الوداد وآداب المجالسة والمحادثة.[2]

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) المرجع السابق ١ / ٦٧٠ بتصرف

• من أهم ما يتعلمه أبناؤنا فى فترة الطفولة والصبا؟

من الإحسان إلى الأبناء أن نهتم بتعليمهم، ومن أهم الأشياء وأعظمها قدراً، وأخطرها شأناً أن نعلم أبناءنا العقيدة الصحيحة، لما لذلك من تمام السعادة فى الدنيا والهناء فى الآخرة، ونبدأ بما يلى[1]:

١ - الإيمان بالله تعالى: بمعنى أن يصدق بوجود الرب تبارك وتعالى، وأنه عز وجل فاطر السموات والأرض - أى خالقها - عالم الغيب والشهادة، رب كل شىء ومليكه، لا إله إلا هو، ولا رب غيره، وأنه جل وعلا موصوف بكل كمال، منزه عن كل نقص قال تعالى: ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٥٤) ﴾[2].

الإيمان بربوبية الله تعالى لكل شىء، وأنه لا شريك له فى ربوبيته لجميع العالمين، قال تعالى فى الثناء على نفسه: ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢) ﴾[3].

الإيمان بإلهية الله تعالى للأولين والآخرين، وأنه لا إله غيره، ولا معبود بحق سواه، قال تعالى: ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١٨) ﴾[4].

الإيمان بأسمائه تعالى وصفاته، وأنه تعالى له الأسماء الحسنى، والصفات العلى، ولا يشرك غيره تعالى فيها، ولا يتأولها فيعطلها، ولا يشبهها بصفات المحدثين فيكيفها أو يمثلها، وذلك محال، فالمسلم يثبت لله تعالى ما أثبته لنفسه، وأثبته له رسول الله ﷺ من الأسماء والصفات، وينفي عنه تعالى ما نفاه عن نفسه، ونفاه عنه رسول ﷺ من كل عيب ونقص، إجمالاً وتفصيلاً قال

---

(١) منهاج المسلم أبو بكر جابر الجزائرى ص ١١ وما بعدها بتصرف.

(٢) سورة الأعراف الآية ٥٤.

(٣) سورة الفاتحة الآية ٢.

(٤) سورة آل عمران الآية ١٨.

تعـــالى : ﴿ وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾[1] .

٢ - الإيمان بالملائكة عليهم السلام، وأنهم خلق من أشرف خلقه، وعباد مكرمون من عباده، خلقهم من نور، كما خلق الإنسان من صلصال كالفخار، وخلق الجان من مارج[2] من نار وأنه تعالى وكَّلهم بوظائف فهم بها قائمون، منهم الحفظة على العباد، والكاتبون لأعمالهم، ومنهم الموكلون بالجنة ونعيمها، ومنهم الموكلون بالنار وعذابها، ومنهم المسبحون الليل والنهار لا يفترون، وأنه تعالى فَاضَل[3] بينهم، فمنهم الملائكة المقربون، كجبريل وميكائيل وإسرافيل، ومنهم دون ذلك. قال تعالى : ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً بَعِيدًا (١٣٦) ﴾[4]، وقال جل شأنه : ﴿ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ ﴾[5] .

٣ - الإيمان بكتب الله تعالى، وما أنزل من كتاب، وما آتى بعض رسله من صحف، وأنها كلام الله أوحاه إلى رسله ليبلغوا عنه شرعه ودينه، وأن أعظم هذه الكتب الكتب الأربعة :

أ - «القرآن الكريم» المنزل على نبينا محمد ﷺ .

ب - «التوراة» المنزلة على نبى الله موسى عليه السلام.

جـ - «الزبور» المنزل على نبى الله داود عليه السلام.

د - «الإنجيل» المنزل على عبد الله ورسوله عيسى عليه السلام.

وعلينا أن نعلمهم : أن «القرآن الكريم» أعظم هذه الكتب والمهيمن عليها، والناسخ لجميع شرائعها وأحكامها. قال تعالى : ﴿ اللَّهُ لا إِلَٰهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ (٢) نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ (٣) مِن

---

(١) سورة الأعراف الآية ١٨٠.

(٢) المارج : لهب صاف لادخان فيه.

(٣) فاضل بينهم : فضل بعضهم على بعض.

(٤) سورة النساء الآية ١٣٦.

(٥) سورة البقرة الآية ٩٨.

قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ ﴿٤﴾ ﴾ [(١)].

وقال تعالى : ﴿ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ ﴾ [(٢)].

وقال سبحانه : ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ ﴾ [(٣)].

وقال جل شأنه : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ مِن قَبْلُ ﴾ [(٤)].

الإيمان بالقرآن الكريم، كتاب المنزل على خير خلقه، وأفضل أنبيائه ورسله محمد ﷺ، كما أنزل غيره من الكتب على من سبق من الرسل، وأنه نسخ بأحكامه سائر الأحكام فى الكتب السماوية السابقة، كما ختم برسالة صاحبه كل رسالة سالفة.

وأنه الكتاب الشامل لأعظم تشريع ربانى، تكفل منزله لمن أخذ به أن يسعد فى الحياتين، وتوعد من أعرض عنه فلم يأخذ به بالشقاوة فى الدارين، وأنه الكتاب الوحيد الذى ضمن الله سلامته من النقص والزيادة، ومن التبديل والتغيير وبقاءه حتى يرفعه إليه عند آخر أجل هذه الحياة، قال تعالى : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ ﴾ [(٥)] وقال تعالى : ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾ ﴾ [(٦)].

٤ - الإيمان بالرسل عليهم السلام، وأن الله تعالى قد اصطفاهم من الناس، وأوحى إليهم بشرعه، وعهد إليهم بإبلاغه لقطع حجة الناس عليه يوم القيامة، وأرسلهم بالبينات، وأيدهم بالمعجزات، ابتدأهم بنبيه نوح، وختمهم بمحمد ﷺ.

---

(١) سورة آل عمران الآيات ٢ ، ٣ ، ٤ .
(٢) سورة النساء الآية ١٦٣ .
(٣) سورة الأعلى الآية ١٨ ، ١٩ .
(٤) سورة النساء الآية ١٣٦ .
(٥) سورة الفرقان الآية ١ .
(٦) سورة المائدة الآيتان ١٥ ،

وإنهم وإن كانوا بشر يجرى عليهم الكثير من الأعراض البشرية فيأكلون ويشربون، ويمرضون ويصحون، وينسون ويذكرون، ويموتون ويحيون، فهم أكمل خلق الله تعالى على الإطلاق، وأفضلهم بلا استثناء، وأنه لا يتم إيمان عبد إلا بالإيمان بهم جميعاً، جملة وتفصيلاً، قال تعالى : ﴿ اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾ ﴾ [1] وقال تعالى : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ﴾ [2].

الإيمان برسالة محمد ﷺ ، فواجب على كل مسلم أن يؤمن بأن النبى الأمى محمد ابن عبد الله بن عبد المطلب الهاشمى القرشى العربى المنحدر من صلب إسماعيل بن إبراهيم الخليل عليه السلام، هو : عبد الله ورسوله أرسله إلى كافة الناس أحمرهم وأبيضهم، وختم بنبوته النبوات، وبرسالته الرسالات، فلا نبى بعده ولا رسول، أيده بالمعجزات، وفضله على سائر الأنبياء، كما فضل أمته على سائر الأمم، فرض محبته وأوجب طاعته وألزم متابعته، وخصه بخصائص لم تكن لأحد سواه، منها الوسيلة، والكوثر، والحوض، والمقام المحمود ، قال تعالى : ﴿ لَٰكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٦٦﴾ ﴾ [3] . والآيات الدالة على ما قلناه كثيره.

٥ - الإيمان باليوم الآخر، هذا اليوم ليس بعده من يوم، ثم تأتى الحياة الثانية، فى الدار الآخرة، فيبعث الله سبحانه الخلائق بعثا، ويحشرهم إليه جمعا ليحاسبهم، فيجزى الأبرار بالنعيم المقيم فى الجنة، ويجزى الفجار بالعذاب المهين فى النار.

وأنه يسبق هذا أشراط الساعة وأماراتها، كخروج المسيح الدجال، ويأجوج ومأجوج،ونزول عيسى عليه السلام، وخروج الدابة،وطلوع الشمس من مغربها، وغير ذلك من الآيات.

ثم ينفخ فى الصور نفخة الفناء والصعق، ثم نفخة البعث والنشور والقيام لرب العالمين، ثم تعطى الكتب، فمن آخذ كتابه بيمينه ، ومن آخذ كتابه بشماله، ويوضع

---

(١) سورة الحج الآية ٧٥. (٢) سورة الحديد الآية ٢٥.

(٣) سورة النساء الآية ١٦٦.

الميزان، ويجرى الحساب، وينصب الصراط، وينتهى الموقف الأعظم باستقرار أهل الجنة فى الجنة، وأهل النار فى النار، قال تعالى : ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ الأَرْضُ زِلْزَالَهَا (١) وَأَخْرَجَتِ الأَرْضُ أَثْقَالَهَا (٢) وَقَالَ الإِنسَانُ مَا لَهَا (٣) يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا (٤) بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا (٥) يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ (٦) فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (٨) ﴾ [1].

- **غرس حب العلم والتزام آدابه منذ الطفولة**

من الإحسان إلي الأبناء تعليمهم العلم فيه يرتفع شأنهم قال تعالي :﴿ يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴾ [2] كما أن العلم يورث صاحبه خشية قال جل شأنه : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ [3] ، فالعلم صفة يميز المتصف بها تمييزاً جازماً مطابقاً، وقيل : هو إدراك الشىء بحقيقته.

فضله : العلم فضله أشهر من أن يذكر، وهو أفضل من كل ما اكتسبه الإنسان، وأشرف منتسب وأنفس ذخيرة تقتنى،وأطيب ثمرة تجتنى، به يتوصل إلى الحقائق، وإذا عمل به الإنسان على وفق الشريعة أدرك رضا الخالق.

والعلم لا يوصل إلى معرفة فضله وجلالة قدره إلا بالعلم، ولايضيع صاحب العلم الدينى الصحيح الذى جاء عن النبى ﷺ، ولايفتقر كاسب العلم ولا يخيب طالبه، ولاتنحط مراتبه مادام مطبقاً لعلمه بالعمل، ولايجهل شرف العلم إلا الجاهل لقصورفهمه عن عظيم منافعه، وكريم مواقفه، وحامله الصائن له عن الأناس عند الناس، وإن قال فكلامه مرموق بعين التقدير وإن أمرفأمره مسموع.

وهو وسيلة للفضائل، وهو نور زاهر لمن استضاء به، وقوت هنىء لمن تفوت به ترتاح به الأنفس إذ هو غذاؤها، وتفرح به الأفئدة إذ هو قواها، وهو يدل على الخير، وعون على المروءة، وهو الصاحب فى الغربة، المؤنس فى الخلوة والشرف فى النسب ، وللعم آثار جليلة القدر، فكم جل به من حقير [4].

عن معاذ بن جبل رضى الله عنه : تعلموا العلم فإن تعلمه لله خشية، وطلبه

---

(١) سورة الزلزلة كاملة. (٢) سورة المجادلة الآية ١١ .

(٣) سورة فاطر الآية ٢٨ .

(٤) موارد الظمآن لدروس الزمان ١ / ٤٨ .

عبادة، ومدارسته تسبيح، والبحث عنه جهاد، وتعليمه من لا يعلم صدقه، وبذله لأهله قربة، وهو الأنيس في الوحدة، والصاحب في الخلوة، والدليل على الدين، والمصبر على السراء والضراء، والوزير عند الأخلاء والقريب عند الغرباء، ومنار سبيل الجنة، يرفع الله به أقوامًا فيجعلهم في الخير قادة سادة هداة يقتدى بهم أدلة الخير، تقتفى آثارهم، وترمق أفعالهم، وترغب الملائكة في خلتهم، وبأجنحتها مستهم وكل رطب ويابس لهم يتسغفر، حتى حيتان البحر وهوامه، وسباع البر وأنعامه،والسماء ونجومها، لأن العلم حياة القلوب من العمى، ونورالأبصار من الظلم، وقوة الأبدان من الضعف، ويبلغ به العبد منازل الأبرار والدرجات العلى ومدارسته بالقيام، به يطاع الله عز جل وبه يعبد؛ وبه يمجد، وبه يتورع، وبه توصل الأرحام، وبه يعرف الحلال والحرام، وهو إمام العمل تابعه، يلهمه السعداء، ويحرمه الأشقياء.

وقد وردت أحاديث نبوية شريفة تبين فضل العلم وتحث عل يتعلمه وتعليمه منها :

عن معاوية رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «من يرد الله به خيراً يفقهه فى الدين»[1].

عن عبد الله يعنى ابن مسعود رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «إذا أردا الله بعبد خيراً فقهه فى الدين وألهمه رشده»[2].

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة ومن ستر مسلماً ستره الله فى الدنيا والآخرة ومن يسر على معسر يسر الله عليه فى الدنيا والآخرة، والله في عون العب دمادام العبد فى عون أخيه، ومن سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له به طريقاً إلى الجنة، وماجتمع قوم فى بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه فيما بينهم إلا حفتهم الملائكة ونزلت

---

(٢) رواه البخارى ومسلم .

(٣) رواه البزار والطبرانى فى الكبير بإسناد لا بأس به.

عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وذكرهم الله فيمن عنده، ومن أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه»[1].

عن أبى الدرداء رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له به طريقاً إلى الجنة وإن الملائكة لتضعأجنحتها لطالب العلم رضا بما يصنع، وإن العالم ليستغفر له من فى السموات والأرض حتى الحيتان فى الماء، وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب، وإن العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً، وإنما روثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظ وافر»[2].

روى عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : «من جاءه أجله وهو يطلب العلم لقى الله ولم يكن بينه وبين النبيين إلا درجة النبوة»[3].

روى عن سخيرة رضى الله عنه قال : مر رجلان على رسول الله ﷺ وهو يذكر، فقال : «اجلسا فإنكما على خير». فقلما قام رسول الله ﷺ وتفرق عنه أصحابه، قاما فقالا : يا رسول الله : إنك قلت لنا أجلسا فإنكما على خير، ألنا خاصة أم للناس عامة؟ فقال : «ما من عبد يطالب العلم إلا كانكفارة ما تقدم»[4].

عن أبى ذر رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «يا أبا ذر لأن تغدو فتعلم آية من كتاب الله خير لك من أن تصلى مائة ركعة ولأن تغدو فتعلم باباً من العلم عمل به أو لم يعمل به خير لك من أن تصلى ألف ركعة»[5].

---

(١) رواه مسلم وأبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجة وابن حبان فى صحيحه والحاكم وقال صحيح على شرطهما.

(٢) رواه أبو داود والترمذى وابن ماجة وابن حبان فى صحيحه والبيهقى.

(٣) رواه الطبرانى فى الأوسط.

(٤) رواه الترمذى مختصراً والطبرانى فى الكبير واللفظ له.

(٥) رواه ابن ماجة باسناد حسن.

عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «الدنيا معلونة معلون ما فيها إلا ذكر الله وما والاه وعالمًا ومتعلماً» (١)

عن ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : «لاحسد إلا فى اثنتين ، رجل آتاه الله مالاً فسلطه على هلكته في الحق، ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضى بها ويعلمها» (٢)

عن أبى موسى رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «مثل ما بعثنى الله به من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضاً فكان منها طائفة طيبة قبلت الماء، وأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكان منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا منها وسقوا وزرعوا،وأصاب طائفة أخرى منها إنما هى قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ فذلك مثل من فقه فى دين الله تعالى ونفعه ما بعثنى الله به فعلم وعلم، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدى الله الذى أرسلت به» (٣)

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلامن ثلاث ، صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له» (٤)

وعن أبى هريرة رضى الله عنه أنه مر بسوق المدينة فوقف عليها، فقال : يا أهل السوق ما أعجزكم؟ قالوا : وما ذاك يا أبا هريرة؟ قال : ذلك ميراث رسول الله ﷺ يقسم وأنتم ها هنا، ألا تذهبون فتأخذون نصيبكم منه، قالو : أين هو؟ قال : في المسجد، فخرجوا سراعًا ووقف أبو هريرة لهم حتى رجعوا فقال لهم: مالكم؟ فقالوا : يا أبا هريرة أتينا المسجد فدخلنا فيه فلم نر فيه شيئًا يقسم، فقال لهم أبو هريرة : وما رأيتم في المسجد أحداً؟ قالوا : بل يرأينا قوما يصلون، وقوماً يقرأون القرآن وقوماً يتذاكرون الحلال والحرام، فقال أبو هريرة : ويحكم فذاك ميراث محمد ﷺ » (٥).

روى عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ دخل المسجد فإذا هو بمجلسين،

---

(١) رواه الترمذى ، وابن ماجة، والبيهقى، وقال الترمذى : حديث حسن.

(٢) رواه البخارى ومسلم.

(٣) رواه البخارى ومسلم.

(٤) رواه مسلم وغيره.

(٥) رواه الطبرانى فى الأوسط بإسناد حسن.

أحدهما يذكر الله تعالى، والآخر يتفقهون، فقال رسول الله ﷺ : «كلا المجلسين على خير، وأحدهما أحد إلى من صاحبه، أما هؤلاء فيسألون الله ويذكرونه فإن شاء أعطاهم وإن شاء منعهم، وأما المجلس الآخر فيتعلمون الفقه ويعلمون الجاهل وإنما بعثت معلماً وجلس إلى الفقة.[1]

وقد وضع النبى ﷺ قاعدة أصلية لكسب مرحلة الطفولة فى التعلم وطلب العلم تناقلتها الأجيال جيلاً بعد جيل، فغدت تستنهض همم الآباء لحث أبنائهم على طلب العلم وحبه، لأن طلب العلم فريضة على كل مسلم سواء كان صغيراً أم كبيراً، رجلاً أم امرأة أم صبيا أم بنتا، وهو أفضل العبادات التى يتقرب فيها العبد من ربه.

لهذا : كانت فترة الطفولة أخصب فترة فى البناء العلمى والفكرى للطفل، فقد روى الطبرانى عن أبى الدرداء رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «مثل الذى يتعلم العلم فى صغره كالنقش على الحجر، ومثل الذى يتعلم العلم فى كبره كالذى يكتب على الماء».[2]

و مما أنشده نفطويه لنفسه :

أرانى نسيت ما تعلمت فى الكبر ولست بناس ما تعلمت فى الصغر

وما العلم إلا بالتعلم فى الصبا وما الحلم إلا بالتحلم فى الكبر

وما العلم بعد الشيب إلا تعسف إذا كلَّ قلب المرء والسمع والبصر

ولو فلق القلبَ المعلمُ فى الصبا لأصبح فيه العلم كالنقش على الحجر

وقد أورد السخاوى فى المقاصد الحسنة عددا من الأحاديث التى تؤيد هذا المعنى منها :

ما رواه أبو هريره رضى الله عنه مرفوعاً : «من تعلم القرآن فى شبيبته اختلط القرآن بلحمه ودمه، ومن تعلمه فى كبره فهو يفلت منه لا يتركه، فله أجر مرتين»[3]

---

(١) انظر كتابى نصحية عالم لحاكم ص ٣١-٣٦ .

(٢) حاشية ابن عابدين ١ / ١٥٧، المقاصد الحسنة ص ٤٦١ .

(٣) رواه البيهقى والديلمى والحاكم.

وقال ابن عباس : من قرأ القرآن قبل أن يحتلم فهو مما أوتى الحكم صبياً.

وقد وعى الصحابة والتابعون وأصحاب الحديث أن تعلم الصغار له أثر كبير في نشوء الطفل العلمي ويجعله أقوى ثباتاً وأرسخ في الذاكرة مما يتعلمه الإنسان وهو كبير.[1]

• العناية بتحفيظهم القرآن الكريم

فمن الإحسان إلى الأبناء العناية بتحفيظهم القرآن الكريم، وتدريس علومه لهم حتى يتسنى لهم فهم القرآن والعمل بما فيه من الأحكام والتشريعات .

والقرآن الكريم هو كلام الله المعجز، المنزل على خاتم الأنبياء والمرسلين بواسطة الأمين جبريل عليه السلام، المكتوب في المصاحف، المنقول إلينا بالتواتر، المتعبد بتلاوته، المبدوء بسورة الفاتحة، المختتم بسورة الناس.

وصفه النبي ﷺ بقوله : «كتاب الله ،فيه نبأ من قبلكم، وخبرُ ما بعدكم، وحكم ما بينكم، هو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله، هو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم، وهو الذى لاتزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة، ولا يشبع منه العلماء، ولا يخلُق[2] عن كثرة الرد ، ولا تنقضي عجائبه، وهو الذى لم تنته الجن إذ سمعته حتى قالوا : ﴿ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا (١) يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا (٢) ﴾[3] من قال به صدق، ومن عمل به أجر، ومن حكم به عدل، ومن دعا إليه هدى إلى صراط مستقيم»[4].

أنزله الله تبارك وتعالى ليكون دستوراً للأمة، وهداية للخلق، وليكون آية على صدق النبي ﷺ ، وبرهاناً ساطعاً على نبوته ورسالته، وحجة قائمة إلى يوم الدين، تشهد بأنه تنزيل الحكيم الحميد.

هو المعجزة الخالدة التى تتحدى الأجيال والأمم على كر الأزمان ومر الدهور، ولله در شوقي حيث يقول :

---

(١) استراتيجيات التربية الأسرية في الإسلام ، مرجع سابق ص ١٠٥، ١٠٦ .

(٢) أى لا يبلى ولا تذهب جدته على كثرة القراءة والتردد.

(٣) سورة الجن الآيتان ١ ، ٢ . (٤) رواه الترمذى باب فضائل القرآن.

جاء النبيون بالآيات [1] فانصرمت [2] وجئتنا بكتاب غير منصرم
آيــاته كلمــا طــال المـدى جُدُد يُزَيِّنُهُنَّ جمال العتق والقِدَم

• **فضائل القرآن**

وردت آثار كثيرة فى فضائل القرآن وعلومه، منها ما هو متعلق بفضل التعلم والتعليم، ومنها ما هو متعلق بالقراءة والترتيل، ومنها ماله علاقة بحفظه وترجيعه.

كما وردت آيات عديدة فى كتاب الله عز وجل تدعو المؤمنين إلى تدبره وتطبيق أحكامه، وإلى الاستماع والإنصات عند تلاوته، نذكر بعض هذه الآيات الكريمة ،والأحاديث الشريفة [3]:

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ (٢٩)﴾ [4].

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٢٠٤)﴾ [5].

و قال جل شأنه: ﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا (٢٤)﴾ [6].

ومن الأحاديث النبوية قوله ﷺ: «خيركم من تعلم القرآن وعلمه» [7].

وقوله صلوات الله عليه: «الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة، والذى يقرأ القرآن ويَتَعتع فيه - أى تصعب قراءته عليه - ، وهو عليه شاق له أجران» [8]

وقال أيضاً: «مثل المؤمن الذى يقرأ القرآن، كمثل الأُترجه ريحها طيب، وطعمها طيب» [9].

وقال ﷺ: «إن هذا القرآن مأدبة الله، فتعلموا من مأدبته ما استطعتم» [10].

---

(١) المراد بالآيات هنا ك المعجزات التى أيد الله بها رسله الكرام.
(٢) انصرمت: أى ذهبت بذهابهم وانقضت بوفاتهم.
(٣) انظر التبيان فى علوم القرآن للشيخ محمد على الصابونى ص ١٣، ١٤.
(٤) سورة فاطر الآية ٢٩.
(٥) سورة الأعراف الآية ٢٠٤.
(٦) سورة محمد الآية ٢٤.
(٧) متفق عليه.
(٨) متفق عليه.
(٩) متفق عليه.
(١٠) أخرجه البخارى فى كتاب فضائل القرآن باب تعليم الصبيان القرآن ،وأحمد.

وتعليم الوالدان أولادهما القرآن الكريم شعارمن شعائر الدين، أخذ به أهل الإسلام ودرجوا عليه من جميع أمصارهم لأن آياته ترسخ الإيمان وعقائده، وصار القرآن أصل التعليم الذى ينبنى عليه ما يحصل بعد من الملكات، وسبب ذلك أن تعليم الصغر أشد رسوخاً وهو أصل لما بعده لأن السابق الأول للقلوب كالأساس للملكات وعلى حسب الأساس وأساليبه يكون حال ما ينبنى عليه.

قال ابن عباس رضى الله عنهما : توفى رسول الله ﷺ وانا ابن عشر سنين وقد قرأت المحكم.

وحفظ الطفل للقرآن فى الصغر أدعى إلى ثبوته ورسوخه عنده كما يقال : التعلم فى الصغر كالنقش على الحجر.

وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : ضمني رسول الله ﷺ وقال : «اللهم علمه الكتاب» [٢] . وكان ابن عباس إذ ذاك غلاماً مميزاً.

وفيه الحض والترغيب فى تعليم الغلمان كتاب الله عز وجل، وفيه جواز احتضان الصبى القريب على سبيل الشفقة. [٣]

وعن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ كان يعلمهم هذا الدعاء كما يعلمهم السورة من القرآن ، يقول : «اللهم إنى أعوذ بك من عذاب جهنم وأعوذ بك من عذاب القبر، وأعوذ بك من فتنة المسيح الدجال، وأعوذ بك من فتنة المحيا والممات» [٤]

لقد اشتمل القرآن الكريم على جميع الفضائل الأخلاقية والسلوكية.

لذا : فإن منهج التربية الإسلامية يحرص على تربية جميع العواطف الإنسانية التى تنفع المسلمين فى دينهم ودنياهم وآخرتهم.

فاهتم المنهج بتربية عاطفة محبة الله سبحانه وتعالى والإيمان به، ومحبة

---

(٢) أخرجه البخارى فى العلم باب قول النبى ﷺ : اللهم علمه الكتاب، وابن ماجة فى المقدمة بلفظ اللهم علمه الحكمة وتأويل الكتاب، وأحمد .

(٣) قاله الحافظ فى الفتح ١ / ٢٠٤ بتصرف.

(٤) أخرجه مسلم فى المساجد ، وأبو داود فى الصلاة، والترمذى فى الدعوات ،والنسائى وابن ماجة.

(١) تربية المراهق بين الإسلام وعلم النفس د. محمد السيد الزعبلاوى ص ٣٠٤ .

رسول الله ﷺ والتصديق له، ومحبة العدل والرحمة والعفو والإحسان والبر والتعاون على الخير والصدق والصبر والإيثار.

كما عُنى المنهج بتربية عواطف الكراهية والمقت للشرك والفساد والمعصية والعدوان والظلم والبغى والغيبة، وكراهية النفاق والمنافقين والكافرين جميعاً ومقاطعتهم وعدم موالاتهم أو مودتهم.

وقرر المنهج محبة ومودة المؤمنين بعضهم لبعض، وشدد على ضرورة موالاة بعضهم بعضاً، وحثهم الله على ذلك فى آيات كثيرة [1] منها قوله تعالى: ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (71) ﴾ [1].

إن منهج القرآن الكريم فى التربية منهج كامل شامل لكل نواحى الحياة الإنسانية؛ ذلك أنه يهدف إلى بناء شخصية الإنسان المسلم بناء متكاملاً متزناً، يبدو فى كل سلوك له وتصرف.

لذلك فالقرآن الكريم يُعْنَى بتربية عقيدة الإنسان المسلم عنايته بجسمه وعقله وخلقه وعواطفه وميوله واتجاهاته وأنماط سلوكه الشخصى والاجتماعى لينال حظه من درجات الكمال الإنسانى، وليكون عنصراً مساعداً فى بناء مجتمعه.

إن تكامل المنهج القرآنى للتربية قضية مسلمة لا يختلف فيها العقلاء، فهو إرادة الخالق تعالى بمن خلق، وهو سبحانه وتعالى الخبير بما يصلح لهم وما يصلحهم، فلا غرو أن تجيء نظرة القرآن الكريم والسنة النبوية إلى الإنسان نظرة متكاملة، فالإنسان فيه جسد وروح لا ينفصل أحدهما عن صاحبه، وهو بحكم تركيبه المادى مزود بمجموعة من الدوافع والانفعالات لتدفعه نحو عمليات الإشباع، وهو بحكم تكوينه الروحى مزود بمجموعة من القوى السامية لترقى به نحو الكمال البشرى [2].

---

(1) سورة التوبة الآية 71.

(2) المرجع السابق ص 188.

• **تعليم الطفل لغة أجنبية حية إن أمكن ذلك**

من الإحسان إلى الأبناء تعليمهم لغة أجنبية وذلك بعد أن يتقنوا اللغة العربية بشكل جيد، ويحفظوا شيئا من القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة، لابأس بإتقان لغة أجنبية سائدة، وذلك لتكوين جيل مسلم يستطيع كشف خطط الأعداء، وأمان مكرهم، إلى جانب استطاعته نقل العلوم المادية البحتة إلى المسلمين، وهذا مافعله رسول الله ﷺ حينا وصل المدينة المنورة مهاجراً من مكة :

فقد روى أبو يعلى وابن عساكر عن زيد بن ثابت رضى الله عنه قال : أتى بى النبي ﷺ مقدمه المدينة فقالوا : يا رسول الله هذا غلام من بنى النجار وقد قرأ مما أُنزِلَ عليك سبع عشرة سورة، فقرأت على رسول الله ﷺ فأعجبه ذلك.

قال : «يا زيد تعلم لى كتاب يهود، فإنى والله ما آمن يهود على كتابى.

فتعلمته، فما مضى لى نصف شهر حتى حذقته، فكنت أكتب لرسول الله ﷺ إذا كتب، وأقرأ كتابهم إذا كتبوا إليه.

وعندهما أيضا وابن داود عن زيد قال لى رسول الله ﷺ : «أتحسن السريانية فإنها تأتينى كتب؟» قلت : لا.

قال : «فتعلمها»، فتعلمها فى سبعة عشر يوماً.

وعلى هذا سار السلف الصالح فى تعليمهم الأطفال، بالإضافة إلى اللغة العربية لغة أجنبيه أخرى.

والإسلام كما نعلم حض على العلم النافع نأخذه من أى لغة ومن أى وعاء، والحكمة ضالة المؤمن أخذها من أى جهة،واقتنصها أنى وجدها فهو أحق الناس بها، والعلم الآن قد انتقل إلى غير المسلمين، والاختراعات قد تفوق فيها سواهم، فوجب عليهم أن يأخذوها وأن يتفوقوا فيها، ووجب عليهم أن يتعلموا لغتها واصطلاحاتها وطرقها، ونحن الآن فى عصر العلم، وقد دخل العلم فى كل شىء :

فى الزراعة وفى الصناعة وفى شتى نواحى الحياة، وأصبح مذللاً بالكتب والصحف والرسائل والإذاعات والفيديوهات، والتلفازات والإنترنت، ولاندرى

ما سيأتى به المستقبل، فوجب على المسلمين أن يسابقوا ويسبقوا، والعلم عندهم من الفرائض والواجبات.

لقد كان المسلمون فى الذروة العلمية والكونية واعتبروا تعلم كل علم نافع من قبيل الفرض والواجب، واستفادوا من حضارات الأمم الأخرى فى العالم، فجددوا فيها وهضموها وطبعوها بطابع الإسلام المتميز، وظل العالم قروناً طويلة يقتبش من علومهم، ويستفيد من حضارتهم.

وما تألفت الحضارة المادية فى العصر الحديث شرقاً وغرباً إلا بفضل ما أخذوه من حضارة المسلمين وعلومهم عن طريق صقلية والأندلس والحروب الصليبية، فكانت الدولة الإسلامية بحق أستاذاً وإماماً للعالم الضال، والإنسانية الحائرة»[1]

والآن ما أحوجنا وأحوج أبناءنا إلى إعادة هذا المجد التالد الغابر، وليس ذلك على الله بعزيز.

٦ - الصلاة : ومن الإحسان إلى الأولاد أن ندربهم على الصلاة وهم صغار قال ﷺ : «مروا أولادكم بالصلاة وهم أبناء سبع سنين واضربوهم عليها وهم أبناء عشر، وفرقوا بينهم فى المضاجع»[2].

وقد ذكر القسطلانى فى مراصد الصلاة الحكمة من فرض الصلاة وتخصيصها بالخمس، ذكر لذلك حكمًا، منها :

أولاً : أن النفس البشرية المقتضية للشهوة، والغفلة، والسهو، والنسيان والشره فى العمل والفترة عنه، فاقتضت الحكمة أن تذكر نسيانها، وتوقظ غفلتها، وتقمع شهوتها بقطعها عن عاداتها، ولعلمه بضعف قواها لم يجعل هذه العبادة إلا فى أوقات يكثر الفراغ فيها من أشغال العادات وهذه هى الحكمة فى تنقيصها من الخمسين إلى الخمس.

ثانيًا : أن العبد فى هذه الدار يعمل لنجاته فى الدار الأخرى، وهى مشتملة على أهوال ومشاق ومتاعب، وأمام العبد دونها خمس عقبات.

---

(١) استراتيجيات التربية الأسرية إشراف أ.د .توفيق الواعى ص ١٠٨-١١٠ .

(٢) رواه أحمد والحاكم وأبو داود بإسناد حسن.

الأولى : الدنيا وشرورها وآفاتُها ومحذوراتُها، وشواغلُها وعلائقُها القاطعةُ عن مزيد السعادة.

الثانية : الموت من فتنته وشدةِ سكراته، وما يشاهَدُ عنده من الأمورِ العظامِ والآلامِ الجسام.

الثالثة : القبر وضيقه ووحشتُه وسؤال مُنكر ونكير وذلك صعب خطير.

الرابعة : المحشرُ وهَولُه ومافيه من الخوف الشديد والفزع الأكيد.

الخامسة : الحساب وما يخشى فيه بعد العتاب من وقوع العذاب.

فكان فعل الصلوات الخمس مسهِّلاً لهذه العقبات، محصلاً لنيل المسرات فى دار الكرامات، وهى أجل مبانى الإسلام بعد الشهادتين، ومحلها من الدين محل الرأس من الجسد، فكما أنه لا حياة لمن لا رأس له، فكذلك لا دين لمن لا صلاة له.

والصلاة : خاتمة وصيةِ رسول الله ﷺ عند آخر عهده بالدنيا، فعن أنس رضى الله عنه قال : كانت عامةُ وصيةِ رسول الله ﷺ حين حضرته الوفاة وهو يغرغر بنفسه : «الصلاةَ وما ملكت أيمانكم» رواه أحمد وأبو داود.

والصلاة : أول ما يحساب عليه العبد يوم القيامة كما ورد بذلك الحديث عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «إن أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة من عمله صلاتُه، فإن صلحت فقد أفلح وأنجح، وإن فَسَدَتْ فقد خاب وخسر»[1].

وهى أكبر عون للعبد على مصالح دينه ودنياه، قال تعالى : ﴿ وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾ وقال سبحانه : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٣﴾ ﴾ فبمداومة العبد على الصلاة تقوى رغبَتُه فى الخير، وتَسهُلُ عليه الطاعات، وتهونُ عليه المشاقُ، وتسهل عليه المصائب، وييسر الله له أموره، ويبارك له فى ماله وأعماله، وتنهاه عن الفحشاء والمنكر كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ ﴾[2].

---

(١) الحديث أخرجه الترمذى.   (٢) سورة العنكبوت الآية ٤٥.

وفى الصحيح المتفق عليه من رواية أبي هريرة رضى الله عنه ، قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «أرأيتم لو أن نهراً بباب أحدكم يغتسل فيه كل يوم خمس مرات ، هل يبقى من درنه شىء ، قال فذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بهن الخطايا» .

وورد حديث ثوبان رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «استقيموا ولن تُحصوا واعلموا أن خير أعمالكم الصلاة» ولا يحافظ على الوضوء إلا مؤمن[(١)] ، وعن عثمان بن عفان رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «ما من امرئ مسلم تحضره صلاة مكتوبة فيحسنُ وضوءَها وخُشوعَها وركوعها إلا كانت كفارة لما قبلها من الذنوب مالم يؤت كبيرةً وذلك الدهرَ كلَّه»[(٢)] .

وفى البخارى عن ابن مسعود رضى الله عنه قال : سألت رسول الله ﷺ : أىُ العمل أحبُّ إلى الله تعالى ؟ فقال : «الصلاة على وقتها» . قلت : ثم أى؟ . قال : «بر الوالدين» . قلت : ثم أى؟ قال : «الجهاد فى سبيل الله» ، قال : حدثنى بهن رسول الله ﷺ ولو استزدته لزادنى .

وأخرج الإمام أحمد عن رجل من أصحاب رسول الله ﷺ قال : سئل رسول الله ﷺ : أى العمل أفضل؟ قال سمعته قال : «أفضل العمل الصلاةُ لوقتها ، وبر الوالدين ، والجهاد» .

الصلاة عماد الدين ، وأعظم أركان الإسلام بعد الشهادتين من حافظ عليها فهو السعيد ، ومن أضاعها وأهملها فهو الشقى العنيد وقد أمر الله بالمحافظة عليها ، وأمر بإقامتها فى آيات كثيرة ، قال تعالى : ﴿ حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ ﴾[(٣)] ، وقال سبحانه : ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾[(٤)] .

ومن الإحسان إلى أبنائنا أن نصحبهم معنا إلى المساجد ، فعن عبد الله بن شداد بن الهاد عن أبيه قال : خرج علينا رسول الله ﷺ فى إحدى صلاتى العشى : الظهر أو العصر ، وهو حامل الحسن أو الحسين ، فتقدم النبى ﷺ فوضعه ثم كبر للصلاة فصلى ، فسجد ظهرانى صلاته سجدة أطالها : قال راوى

---

(١) أخرجه ابن ماجة فى سننه والدارمى.
(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه.
(٣) البقرة الآية ٢٣٨ .
(٤) سورة المؤمنون الآية ٩ .

الحديث : إني رفعت رأسي فإذا الصبي على ظهر النبي ﷺ وهو ساجد فرجعت في سجودي، فلما قضى رسول الله ﷺ قال الناس: يا رسول الله سجدت بين ظهراني الصلاة سجدة فأطلتها، فظننا أنه قد حدث أمر وأنه يوحى إليك، فقال رسول الله ﷺ :«كل ذلك لم يكن، ولكن ابني ارتحلني فكرهت أن أعجله حتى يقضي حاجته»[1].

وعن أبي قتادة رضي الله عنه قال : بينما نحن جلوس في المسجد خرج علينا رسول الله ﷺ يحمل أمامة ابنة أبي العاص بن الربيع وأمها زينب بنت رسول الله ﷺ وهي صبية، فحملها على عاتقه ، فصلى وهي على عاتقه يضعها إذا ركع، ويعيدها على عاتقه إذا قام، فصلى رسول الله ﷺ وهي على عاتقه حتى قضى صلاته يفعل بها ذلك.

- **ربط الأطفال بالله عن طريق المساجد**

مما لا شك فيه أن الولد إذا ارتبط بالمسجد فإنه يصبح محصناً من أي انزلاق في مهاوي الرذيلة.

لذلك : يجب علينا أن ندرب أولادنا على الصلة بالله سبحانه وتعالى، وذلك عن طريق المسجد، فالمسجد في عهد رسول الله ﷺ كان مدرسة لتعليم الأبناء، وكان وزارة للحربية تخرج منه الجيوش، وكان مكاناً للقاء الوفود فقد كان النبي ﷺ يلتقي بالوفود في المسجد، وكان مستشفى للعلاج، وكان يلتقي بالفقراء والمعوزين، وأهم شيء بالنسبة للمسجد أنه مكان للقاء العلماء على اختلاف تخصصاتهم ومشاربهم ، وواجب الآباء أن يدربوا أبناءهم على :

- **مجالسة العلماء**

لاشك أن القدوة والتربية لها دور عظيم في نفس الإنسان خاصة أبناءنا الصغار.

وقدوة الشخص الأولى هم المخالطون له من أبويه، ومن عائلته، من مدرسه ومعلمه، من بيئته التي يعيش فيها، لكن القدوة الفكرية لها تأثير بالغ.

كان الأطفال يحضرون مجالس النبي ﷺ وكان آباؤهم يأخذونهم إلى تلك

(١) رواه أحمد والنسائي والحاكم.

المجالس الطيبة الطاهرة، فهذا عمر بن الخطاب يصحب ابنه إلى مجلس رسول الله ﷺ، فقد أخرج البخارى ومسلم عن ابن عمر رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «أخبرونى بشجرة مثلُها مثل المسلم، تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها ولاتحتّ ورقها، فوقع فى نفسى النخلة فكرهت أن أتكلم وَثَمَّ أبو بكر وعمر، فلما لم يتكلما قال النبى ﷺ: هى النخلة.

فلما خرجت مع أبى قلت يا أبتاه: وقع فى نفسى النخلة.

قال: ما منعك أن تقولها؟ لو كنت قلتها كان أحب إلى من كذا وكذا.

قال: ما منعنى إلا أنى لم أرك ولا أبا بكر تكلمتما فكرهت».

وفى رواية: فإذا أنا أصغر القوم فسكت.

ومن الإحسان إلى الأبناء أخذ الآباء لهم إلى مجالس العلماء إن مجالسة العلماء ومخالطتهم لها دخل كبير فى نبوغ الكثيرين وذلك لرعاية العلماء لهم علمياً ومادياً.

قال أبو يوسف (صاحب أبى حنيفة) كنت أطلب الحديث والفقه وأنا مقل رث الحال، فجاء أبى يوماً وأنا عند أبى حنيفة فانصرفت معه، فقال: يا بنى، لا تمدن رجلك مع أبى حنيفة، فإن أبى حنيفة خبزه مشوى، وأنت تحتاج إلى المعاش، فقصرت عن كثير من الطلب، وآثرت طاعة أبى، فتفقدنى أبو حنيفة وسأل عنى، فجعلت أتعاهد مجلسه، فلما كان أول يوم أتيته بعد تأخرى.

قال لى: ما شغلك عنا؟

قلت: الشغل بالمعاش وطاعة والدى.

فجلست فلما انصرف الناس دفع إلى صرة، وقال: استمتع بهذه، فنظرت فإذا فيها مائة درهم، فقال لى: الزم الحلقة وإذا نفذت هذه فأعلمنى.

فلزمت الحلقة فلما مضت مدة يسيرة دفع إلى مائة أخرى ثم كان يتعاهدنى، وما أعلمته بخلة قط، ولا أخبرته بنفاد شىء ما، وكان كأنه يخبر بنفادها حتى استغنيت وتمولت.

• **رواية ثانية**

قال علي بن الجعد : أخبرني أبو يوسف قال : توفي أبي إبراهيم بن حبيب وخلفني صغيراً في حجر أمي، فأسلمتني إلى قصار أخدمه، فكنت أدع القصار وأمر إلى حلقة أبي حنيفة فأجلس فأستمع، فكانت أمي تجيء خلفي إلى الحلقة فتأخذ بيدي وتذهب بي إلى القصار، وكان أبو حنيفة يعني بي لما يرى من حضوري وحرصي على التعلم.

فلما كثر ذلك على أمي وطال عليها هربي قالت لأبي حنيفة : ما لهذا الصبي فساد غيرك، هذا صبي يتيم لا شيء له، وإنما أطعمه من مغزلي، وآمل أن يكسب دانقاً يعود به على نفسه.

قال لها أبو حنيفة : مري يا رعناء، هو ذا يتعلم أكل الفالوذج بدهن الفستق.

فانصرفت عنه وقالت له : أنت شيخ قد خرفت وذهب عقلك.

قال أبو يوسف : ثم لزمت أبا حنيفة وكان يتعاهدني بماله، فما ترك لي خله، فنفعني الله بالعلم ورفعني حتى تقلدت القضاء، وكنت أجالس هارون الرشيد وآكل معه على مائدته، فلما كان في بعض الأيام قُدِّمَ إلى هارون الرشيد فالوذج، فقال لي هارون : يا يعقوب، كل منه فليس يعمل لنا مثله كل يوم.

فقلت : وما هذا يا أمير المؤمنين ؟

فقال : هذا فالوذج بدهن الفستق، فضحكت.

فقال لي : مم ضحكت ؟

فقلت : خيراً، أبقى الله أمير المؤمنين.

قال : لتخبرنيَّ، وآلى عليَّ.

فأخبرته بالقصة من أولها إلى آخرها فعجب من ذلك وقال : لعمري، إن العلم ليرفع وينفع دينا ودنيا، وترحم على أبي حنيفة وقال : كان ينظر بعين عقله ملا يراه بعين رأسه.[1]

---

(١) كتاب : صفحات من صبر العلماء.

ومن الإحسان إليهم أن نعودهم على الصدق فى القول والعمل وأن نكون قدوة حسنة لهم فى ذلك، وألا تكذب عليهم فعن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال : جاء رسول الله ﷺ إلى بيتنا وأنا صبى صغير، فذهبت لألعب،

فقالت أمى : يا عبد الله تعال أعطك.

فقال رسول الله ﷺ : «وما أردت أن تعطيه؟» قالت : تمرا.

فقال : «إما إنك لو لم تفعلى لكتبت عليك كذبة»[(١)].

فليحذر الوالدان أن يسمع منهما مولودهما أى كذبة ولو صغيرة، فإن ذلك يضيع كل نصائحهما له بالصدق، فإذا طرق الباب طارق يطلب أحد الوالدين، أو سأل عنهما سائل بالهاتف، فكلفا الابن بالرد قائلاً : إن أبى غير موجود أو أمى غير موجودة كذبا، فإن ذلك السلوك يعلم الولد أن الكلام عن الفضائل منفصل عن تطبيقها فيفسد فسادا لا علاج له[(٢)].

ومن الإحسان إليهم أن تعلمهم الاستئذان عند دخول بيوت الأجانب، قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾[(٣)]. كما نعلمهم الاستئذان داخل البيت فى أوقات معينة، قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلاثَ مَرَّاتٍ مِّن قَبْلِ صَلاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ الظَّهِيرَةِ وَمِنْ بَعْدِ صَلاةِ الْعِشَاءِ ثَلاثُ عَوْرَاتٍ لَّكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَّافُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٨﴾ ﴾[(٤)].

فإذا بلغ الأطفال فحكمهم يختلف عن حكمهم قبل البلوغ، قال تعالى : ﴿ وَإِذَا بَلَغَ الأَطْفَالُ مِنكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٩﴾ ﴾[(٥)].

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) محمود الصباغ، السعادة الزوجية فى الإسلام ص ١٥٢.

(٣) سورة النور الآية ٢٧.

(٤) سورة النور الآية ٥٨.

(٥) سورة النور الآية ٥٩.

ومن حقوق الأبناء على والديهم أن يربوهم على كريم الأخلاق ومحاسن الشيم . فيعلموهم الأمانة والصدق ويشيبوهم على فعلهما ، ويحذروهم من الخيانة والكذب ويعاقبوهم على اقترافهما ، ويحولوا بينهم وبين قرناء السوء ، ويخوفوهم عاقبة الاختلاط بهم أو الركون إليهم ، وعليهم أن يعودوهم توقيرالكبير والتأسى به ، والانتفاع بما لديه من خبرة وتجارب ، والعطف على الصغير وحسن قيادته وتوجيهه ، وينشئوهم على حب العمل والرغبة فى البذل والإعطاء لا الأخذ ، فإن ذلك يربى فيهم خلق الإيثار ، وينمى عندهم حب الخير للناس ، فيشبوا على الألفة بهم والتعاون معهم.

ورغم وجود أنس بن مالك فى أطهر بيت وانتظامه فى أكرم مدرسة إلا أن أمه لم تغفل عنه لحظة فقد كانت تزوده بنصائحها بين حين وآخر ، فقد روى مسلم عن أنس قال : أتى لى رسول الله ﷺ وأنا ألعب مع الغلمان ، قال : فسلم علينا ، فبعثنى إلى حاجة ، فأبطأت على أمى ، فلما جئت قالت : ما حبسك ؟

قلت : بعثنى رسول الله ﷺ لحاجة.

قالت : ما حاجته ؟ قلت : إنها سر .

قالت : لا تحدثن بسر رسول الله أحداً .

هذا مثال طيب للتربية الصحيحة فالأم لم تتطفل ولم تحاول معرفة سر رسول الله ﷺ الذى حفظه ولدها بحجة أنها أمه وأنها ستحافظ عليه ، بل إنها ألزمت ولدها بحفظ السر ، وعدم نقض العهد الذى يدل على شخصية قوية ، إلى جانب تعويد الطفل على الثقة والأمانة ، ومجانبة الخيانة والغدر ، وذلك جانب من أهم جوانب شخصية الإنسان التى يتم بناؤها فى فترة الطفولة والصبا ، حتى ينشأ عليها وهى مسئولية عظيمة تقع على عاتق الأم .

وقد حث الدين على تأديب الأولاد بأدب الإسلام ، بما يحملهم على طاعة الله ورسوله ، عملاً بقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ﴾ [1] .

---

(١) سورة التحريم الآية ٦ .

وفى البخارى من حديث نافع عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : «كلكم راع ، وكلكم مسئول عن رعيته ، فالأمير راع على الناس وهو مسئول عن رعيته ، والرجل راع على أهل بيته وهو مسئول عنهم ، وامرأة الرجل راعية على بيت بعلها وولده وهى مسئولة عنهم ، وعبد الرجل راع على مال سيده وهو مسئول عنه ، ألا فكلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته».

إن أكثر ما يوجد من عقوق الأبناء للآباء إنما هو بسبب جناية الآباء عليهم ؛ إما بأنهم لم يروا فى الآباء القدوة الصالحة التى يتأسون بها فى حميد السجايا وكريم الخلال ، أو بأن الآباء أهملوا فى الصغر تربيتهم ، وتغاضوا عن الكثير مما كان منهم يدافع العطف والإشفاق ، فحصدوا فى الكبر ثمرة ذلك عقوقا وإهمالاً ، وجنوا بذلك على أنفسهم وعلى أبنائهم معهم بما أضاعوا عليهم من حقوق الرعاية والتأديب ، والتربية والتعلم .

ثم إن من حق الأبناء على والديهم أن يجنبوهم الكسل والدعة والبطالة والتواكل ، فإن لكل هذا من وخيم العواقب بما يعود بالضرر على الوالد والولد ، وإن معالى الأمور لا تنال إلا بالسعى والكد ، وسيادة الدنيا وسعادة الآخرة لا يظفر بهما إلا من بذل من نفسه ومن جهده الكثير والكثير .

من حقهم على والديهم ألا يمكنوهم من تناول ما يزيل عقولهم من مسكر ، وما يضيع عليهم أموالهم من غيره ، وأن يمنعوهم من معاشرة من يخشون عليهم إفساده أو كلامه أو سوء تأثيره ، فإن الإهمال فى هذا المجال مضيعة وأى مضيعة وإذا انزلق الولد بسبب سوء الصحبة فمن العسير رده ، وإذا انحدر إلى هاوية الرذيلة فقلما ينجو من كبوته ، ومعظم النار من مستصغر الشرر .

ومن حقهم على والديهم ألا يحملوهم على غير ما هيأهم الله له ، وأن يراقبوا مواهبهم واستعدادهم ، فينموا فيهم ما صلح من هذه المواهب ، ويوجهوهم فى الحياة إلى ما يناسبها ، ولا يحولوا بينهم وبين ذلك .فلكل إنسان رسالته فى الحياة وكل ميسر لما خلق له» فإن الولد إذا وجه إلى ما يحب أحسن وأجاد . ومن العبث أن يفرض الوالد على الولد رغبة لا تناسب طبيعته ، ومن الخير أن يتعرف على ميوله فيوجهه نحوها بما يتمشى مع تنميتها إن كانت

صالحة، وتقويمها إن كانت معوجة، فمن كان فى استعداده حب العلم أفسح له المجال فيه، ومن كان من طبعه حب العمل فلا ينبغى أن يحال بينه وبين ما يريد، وليست العبرة بمجرد معرفة الشيء بل العبرة بإجادته وإتقانه، وفى الحياة متسع للعالمَ يخدم الوطن بعلمه، وللعامل يبنى بسواعده القوية مجده ونهضته.

إن الآباء لا ينبغي لهم أن يفرضوا على أبنائهم سعيا إلى أمل يتمنون أن يتحقق فيهم، ولا أن يرسموا لهم منهجًا معينا يسلكونه فى سبيل الوصول إلى هذا الأمل دون أن يتبينوا فى الأبناء استعدادا له ورغبة فيه، وإن حملهم على تلقى أنواع معينة من العلوم، أو القيام بإجادة نوع معين من الأعمال لا ينبغى أن يتم إلا بعد دراسة قوية لمواهبهم، وبمراقبة دقيقة يتعرفون من خلالها على ما يمكن أن يقبلوا عليه ويصلحوا لأدائه من هذه العلوم أو الأعمال، وحينئذ يكون توجيههم إليه برفق، وتترك لهم فرصة الاختيار بما يؤكدون به شخصيتهم، وما يجعلهم يقبلون على ما اختاروه بنفس راضية تمضى إلى غايتها من إحسانه والإبداع فيه.

إن تربية الأبناء أمانة يؤديها كل جيل لمن يأتى بعده، فعلى الآباء أن يقوموا بها بدافع من إيمانهم بالدين وحبهم للعقيدة، وإن خير ما يورثونه الأبناء هو تلك التوجيهات التى تزرع فى نفوسهم حب الدين، والاعتصام بما يدعو إليه من مبادئ وآداب، وأفضل ما يعودونهم عليه منذ الصغر أن ينشئوهم على التحلى بالفضائل، والاستمساك بالكمالات، فيشبوا وقد أصبح ذلك خلقاً لهم وطبعاً فيهم:

وينشأ ناشئ الفتيان منا   على ما كان عوده أبوه

وإذا كانت حياة الأبناء امتداداً طبيعيا لحياة آبائهم، وأثرا باقيًا لهم بما يخلفه للأجيال المقبلة من خير أو شر فإن على الآباء أن يقدروا ثقل التبعة وأمانة التكليف، فيحسنوا إلى الأبناء بتربيتهم على النحو الذى يكفل لهم سعادة الدنيا ونعيم الاخرة، ويحسنوا إلى أنفسهم بما يعود عليهم من صالح أعمال أبنائهم، وبما يكفل لهم مدداً من الثواب لا ينقطع إلى يوم القيامة.

وصدق رسول الله ﷺ: «إذا مات الإنسان انقطع عنه عمله إلا من ثلاثة: إلا

من صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له »[1] والله الهادى إلى سواء السبيل[2].

- **كلمة إلى الأباء والأمهات**

فى هذه المرحلة يجب لفت انتباه الطفل إلى كل سلوك طيب وكل فعل حسن يصدر من أبويه، لأن عَالمَ الطفل فى هذه المرحلة هو أبويه، وليس فيه أعظم منهما، فهو يتقبل أفعالهما وأقوالهما ويتأثر بهما، ولهذا فكل فعل طيب يفعله الأبوان، فيه تأديب وتهذيب وتدريب على التخلق بالخلق الحسن، وترغيب فى محاسن الأخلاق، فإذا تخلق الأبوان فى أسرهم،ومع الآخرين بالخلق الحسن، وحسن المعاشرة، والإحسان إلى ذوى القربى، ووصلوا أرحامهم، واستوصوا بالجار خيراً، وأفشوا السلام بين الناس، أثر ذلك فى الطفل، وإذا لم يتمثلها فى بادئ الأمر ولكن مع الوقت ستكون هذه الواجبات الدينية عنده - مثلا واجب الاحتذاء - قبل أن تتحول إلى عبادة فى وقت التكليف، يلزم بأدائها على الوجه الأكمل[3].

إن التربية أمر عظيم الخطر، كبير القيمة، والطفل أمانة عند والديه، وقلبه الطاهر جوهرة نفيسة خالية من كل نقش وصورة، فإن عود الخير وعلمه نشأ عليه وسعد فى الدنيا والآخرة وشاركه فى ثوابه أبواه، وكل مؤدب ومعلم له فى الخير، وإن عود الشر وأهمل وترك بلا عناية، شقى وهلك وكان على وليه وراعيه ما يستحق من الإثم.

فالتربية هى غرس الدين الإسلامى ومحبته وآدابه قولاً وعملاً واعتقاداً، وغرس الأخلاق الفاضلة فى نفوس الناشئين وسقيها بماء الإرشاد والنصيحة، والتوجيه إلى كتاب الله وسنة رسوله واتباع سبيل السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار ومن حذا حذوهم.

قال ﷺ فى الحديث الذى أخرجه البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه، قال

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه.

(٢) توجيهات من السنة فى مجال الأخلاق والأسرة د.محمد رشاد خليفة ص٣٤٦، ٣٤٧.

(٣) د. السيد أحمد فرج الأسرة فى ضوء الكتاب والسنة ص١٧٠.

: قال رسول الله ﷺ : «ما من مولود يولد إلا على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه كما تنتج البهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء»[1] .

ثم يقول أبو هريرة رضي الله عنه فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم.

وعلى هذا الحديث : أجمع العقلاء على أن الإنسان بحاجة إلى التربية فإنما يولد صغيراً مجرداً عن كل المميزات قابلاً لكل نقش مستعداً لكل ما يلقى إليه من تعليم ويحاط به من تثقيف.

والوالدان هما الراعيان لولدهما المسئولان عنه لدى الله والناس، فإن أحسنا تأديبه وعوداه الخير وأنشآه عليه سعد في دنياه وآخراه ونال أمنيته ومبتغاه، وكان لوالديه وكل من اشترك في تعليمه وساهم في تهذيبه أجره عند الله، وإن أهمله والداه إهمال البهائم ولم يرعيا حق الله به كان إثمهما عند الله كبيرا وسؤالهما خطيرا.

وإن من الأمور المحققة والحقائق المشاهدة على ما قدمنا أن عقلية الولد تتأثر بتأثر البيئة والمجتمع صحة وفسادا، لسذاجة نفسه وسلامة فطرته.

إذن فواجب الوالد كبير، عليه أن يحيط ولده بعناية دقيقة ورقابة شديدة وتوجيه صحيح وتربية حسنة.

وذلك بأن يؤدبه، ويهذبه ، ويعلمه مكارم الأخلاق، ومحاسن العادات، ويحفظه من قرناء السوء، وذوي الأخلاق المنحطة ، وليعلم الوالد أن ولده أمانة بين يديه، فليؤد واجب الأمانة، وليقم بحق الرعاية.

وإذا أُهْمل الولد في ابتداء نشأته وأول رعرعته وتمييزه خرج خبيث الطبع سيئ الأخلاق، محتالاً كذابا سراقا كثير الهذيان وفضول الكلام، يتدخل فيما لا يعنيه، بذيء اللسان مغتابا نماما وقحا بعيدا عن التقوى والطاعة، قريباً من الفسوق والفجور.

وفي مثل هذه الحال يكون وبالا على المجتمع وعضوا فاسدا يجب أن يبتر ويقطع إلا من حفظ ربك.

---

(١) سبق تخريجه.

ويجب على ولى الطفل والطفلة عند إرادة التعليم أن يسلم الولد لمرب صالح، ومعلم ناصح، يحفظ عليه أخلاقه، ويحسن آدابه، يروضه ويمرنه على الشعائر الدينية، ويلقنه العقائد الصحيحة السليمة الإسلامية ولا يتسامح معه فى إهمال أمر الدين وآدابه.

ولا يجوز تسليم الطفل إلى معلم متهتك يستهتر بأمر الدين أو زنديق مارق لا يبالى بعقائد المسلمين، أو جاهل سخيف يبهته بالخرافات والغرائب، وهو فى نفسه لا يميز الحق من الباطل والغث من السمين، أو ملحد خارج عن الأوامر الإلهية والنواميس السماوية غير مكترث بالتعاليم الدينية، أو يقذف به فى المدارس التبشيرية الأجنبية ذات الاغراض المعروفة والغايات الدنيئة والتوجيه الفاسد ضد الإسلام والمسلمين،

ولمثل الأغراض الشريفة والغايات النبيلة، يرشدنا النبى ﷺ إلى رعاية الولد، وصيانته، وشدة مراقبته، وحمايته فهو يقول فى الحديث: «ما من مولود يولد إلا على الفطرة» الحديث.

فمن تغير عن الفطرة الصحيحة ومال إلى العقائد الباطلة والآراء الفاسدة، والمذاهب الزائفة كان سبب تغيره أن أبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه بتعليمهما إياه، وترغيبهما فيه، أو تبعيته لهما فى الدين على سبيل التقليد المذموم، وترك تحكيم العقل فى البراهين، والأدلة الشرعية.

ثم ضرب ﷺ مثلاً لتأييد ما تقدم وإيضاحه فقال كما تنتج البهيمة - أى تلد بهيمة جمعاء لم يذهب من بدنها شيء هل تحسون فيها من جدعاء، أى مقطوعة الأذن، أو الأنف أو الأطراف، أو مفقوءة العين [1].

• أهمية التربية الدينية وأثرها

تمتاز التربية الدينية عن التربية الأخرى بأنها تهيئ لسعادة الدنيا والآخرة معا، وتشعر بأن الآخرة خير من الأولى، فإذا عرف الناشئ أن هناك يوما لا يجزى فيه والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئًا. وأن الجزاء الموعود به فرق ما يتصور من جزاء الدنيا فى جانبى الثواب والعقاب.

(١) موارد الظمآن لدروس الزمان الشيخ عبد العزيز المحمد السلمان ٢ / ٦٨٤-٦٨٧.

وإذا علم أنه لا يستطيع أن يفر من الموقف، أو يفلت من المحاكمة، أو يدلس ويخدع ويغش وضع كل ذلك فى الاعتبار، فأتقن عمله، وراقب ربه، أملاً فى الثواب الجزيل، وخوفا من العقاب الشديد.

إذا علم أن ما كان ينتظره من تقدير دنيوى إن ضاع عند الناس فإنه لا يضيع عند الله هدأت نفسه، وانشرح صدره، وأقبل على عمله في رضا وإخلاص، لا يفكر فى انتقام ولا يسعى فى فساد، وهذا كله له قيمته العظيمة فى حسن سير الأمور، واستقرار الأحوال، وتجنب الأزمات النفسية والآراء المنحرفة والفتن والاضطرابات[1].

إن الطفل إذا تربى على العقيدة الدينية التى تشعره بالبعث والجزاء أقبل على طاعة الله وأداء العبادات أملاً فى الثواب، وليس كذلك من يتربون على مبادئ لم تنبع من الدين، حيث لا تكون للعبادة أهمية فى نظرهم.

والعبادة بدورها تعطى الإنسان رصيداً ضخماً من القيم الأدبية العالية، نفس مهذبة، وروح مشرقة، وخلق فاضل، وفكر سليم، وهذه كلها لها آثارها القوية فى السلوك الشخصى والاجتماعى، إلى جانب رجاء الثواب عليها[2].

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ ﴾[3].

وقال تعالى: ﴿ لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأَذَىٰ ﴾[4].

وقال سبحانه: ﴿ الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلاً وَاللَّهُ ﴾[5].

وقال النبى ﷺ: «من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة فى أن يدع طعامه وشرابه»[6].

● نموذج لغلام ربى تربية إسلامية

دخل أحد الصحابة مسجد رسول الله ﷺ فى غير وقت الصلاة، فوجد غلاما

---

(١) موسوعة الأسرة تحت رعاية الإسلام للشيخ عطية صقر ٤ / ٢٠ .

(٢) المرجع السابق ٤ / ٢١ .

(٣) سورة العنكبوت الآية ٤٥ .

(٤) سورة البقرة الآية ٢٦٤ .

(٥) سورة البقرة الآية ٢٦٨ .

(٦) رواه البخارى عن أبى هريرة .

لم يبلغ العاشرة من عمره قائما يصلي بخشوع، فانتظر حتى انتهى الغلام من صلاته، فجاء إليه وسلم عليه، وقال له : يا بنى : ابن من أنت ؟

فطأطأ رأسه، وانحدرت دمعة على خده، ثم رفع رأسه، وقال : يا عم إنى يتيم الأب والأم.

فرق الصحابى، وقال له : يا بنى أترضى أن تكون ابنا لى ؟

فقال الغلام : هل إذا جعت تطعمنى؟

قال الصحابى : نعم.

فقال الغلام : هل إذا عريت تكسونى؟ قال : نعم.

قال الغلام : هل إذا مرضت تشفينى ؟

قال الصحابى : ليس إلى ذلك سبيل يابنى .

قال الغلام : فدعنى يا عم لـ ﴿ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ (٧٨) وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ (٧٩) وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ (٨٠) وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ (٨١) وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ (٨٢) ﴾ [١].

فسكت الصحابى ، ومضى لحاله، وهو يقول : آمنت بالله، من توكل على الله كفاه[٢].

ومن هنا يظهر الفرق واضحًا بين من يتربون على مبادئ وقيم يفرضها القانون أو يقضى بها العرف، وبين من يتربون على قيم الدين وآداب العقيدة.

إن الأولين يؤدون واجبهم فى أدنى صورة لا يرجون إلا رضاء دنيويا وخيرا عاجلاً.

والآخرين يؤدونه فى أكمل صورة بقدر المستطاع، انتظاراً لثواب من لا يضيع أجر من أحسن عملا، فالرقيب موجود معه بكل حال، والتقدير العادل مضمون يوم الجزاء، وهو عندهم خير وأبقى مما يتعجله غيرهم فى هذه الحياة، قال تعالى : ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ (٣٠) ﴾ [٣].

وقال جل شأنه : ﴿ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا (٧٧) ﴾ [٤].

---

(١) سورة الشعراء الآيات ٧٨ - ٨٢.

(٢) قطوف مختارة جمع وإعداد عبد الله بن يحيى آل يحيى الغامدى ص ١٤١، ١٤٢.

(٣) سورة النحل الآية ٣٠. (٤) سورة النساء الآية ٧٧.

نموذج ثان

من لطف الله بعمر بن عبد العزيز أن وهب له ابنه عبد الملك وكان أعجوبة التاريخ، كان ناشئا لم يجاوز عشرين عاما، ولكنه من توفيق الله له أنه منذ صغره قوى الإيمان ورعا زاهدا، يقتحم على أبيه مجلسه وناديه ومخدع نومه وقيلولته يحثه ويعظه ويذكره بالله ويوقظه من نومه وينبهه ألا يؤخر مظلمة للناس مخافة أن يحم الأجل فتسوء المغبة وتلتهب على أبيه النار.

فلما ولى عمر بن عبد العزيز أمر المسلمين بعد وفاة سليمان بن عبد الملك خطب الناس ثم ذهب يتبوأ مقيلا فأتاه ابنه عبد الملك فقال ما تريد أن تصنع ياأبت ؟

قال : أى بنى أقيل.

فقال : تقيل ولا ترد المظالم ؟

قال : أى بنى إنى قد سهرت البارحة فى أمر عمك سليمان فإذا صليت الظهر رددت المظالم.

فقال : يا أمير المؤمنين من أين لك أن تعيش إلى الظهر.

فقال : أدن منى ؟ فدنا منه فقبل بين عينيه، وقال الحمد لله الذى أخرج من ظهرى من يعيننى على دينى،

فخرج ولم يقل وأمر مناديا ينادى ألا من كانت له مظلمة فليرفعها إليه، فتقدم إليه ذمى من أهل حمص فقال : يا أمير المؤمنين أسألك كتابك.

قال : ما ذاك ؟

قال : إن العباس بن الوليد اغتصبنى أرضى والعباس حاضر.

فقال عمر رضى الله عنه : ما تقول يا عباس ؟

قال : إن أمير المؤمنين الوليد أقطعنى إياها وهذا كتابه.

فقال عمر رضى الله عنه : ما تقول يا ذمى ؟

قال : يا أمير المؤمنين أسألك كتاب الله تعالى.

فقال عمر رضى الله عنه : كتاب الله أحق أن يتبع من كتاب الوليد فأردد

عليه أرضه يا عباس، فردها عليه ثم جعل لا يُدَّعى على شيء مما في أيدى أهل بيته من المظالم إلا رده مظلمة مظلمة، ولما بلغ الخوارج. سيرة عمر وما رد من المظالم اجتمعوا وقالوا ما ينبغى لنا أن نقاتل هذا الرجل [1].

أيضًا : كان كلما دخل عمر فى الأمور على هيئة اقتحمها عبد الملك قويًا مستعجلاً وقد أثر على أبيه وزاد فى ورعه وتنجيزه للأمور.

دخل عبد الملك يومًا على أبيه وكان عنده عمه مسلمة فطلب إلى أبيه أن يخليه به.

فقال : أسر دون عمك ؟ ، قال : نعم.

فقام مسلمة، وجلس عبد الملك بين يدى أبيه فقال له : يا أمير المؤمنين ما أنت قائل لربك غداً إذا سألك فقال رأيت بدعة لم تمتها أو سنة لم تحيها.

فقال عمر : يا بنى أشيء حملك أم رأى رأيته؟

قال : لا والله ولكن رأى رأيته من نفسى عرفت أنك مسئول فما أنت قائل.

قال أبوه : يرحمك الله يا بنى ويجزيك من ولد خيراً فوالله إنى لأرجو أن تكون من الأعوان على الخير، يا بنى إن قومك شدوا هذا الأمر عقدة وعروة عروة ومتى ما أريد مكابرتهم على انتزاع ما فى أيديهم لم آمن أن يفتقوا علىَّ فتقا تكثر فيه الدماء، والله لزوال الدنيا أهون على من أن يهراق فى سببى محجمة من دم، أوَمَا ترضى ألا يأتى على أبيك يوم من أيام الدنيا إلا وهو يميت فيه بدعة ويحيى فيه سنة حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين.

ولم يزل عبد الملك بأبيه حتى صار لا يبرم أمراً فى المظالم دون رأيه، قال ميمون بن مهران : بعث إلي عمر بن عبد العزيز وإلى مكحول وإلى أبى قلابة، فقال : ما ترون فى هذه الأموال التى أخذت من الناس ظلمًا.

فقال مكحول يومئذ قولاً ضعيفًا كرهه عمر قال : أرى أن تُستَأنف فنظر عمر إلى كالمستغيث بى فقلت : يا أمير المؤمنين ابعث إلى إبنك عبد اللملك فأحضره فإنه ليس بدون من رأيت.

---

(١) موارد الظمآن لدرس الزمان عبد العزيز المحمد السلمان ٢ / ٦٢٠، ٦٢١.

فلما حضر عبد الملك قال : أرى أن تردها فإن لم تفعل كنت شريكًا لمن أخذها [١] .

وهكذا نرى أن الطفل نرى أن الطفل أمانة عند والديه ، وقلبه جوهرة ساذجة وهي قابلة لكل نقش ، فإن عُوِّد الخير نشأ عليه وشاركه أبواه ومؤدبه في ثوابه ، وإن عُوِّدَ الشر نشأ عليه ، وكان الوزر في عنق وليه ، فينبغي أن يصونه ويؤدبه ويهذبه ويعلمه مكارم الأخلاق ، ويحفظه من قرناء السوء ، ولا يعوده التنعم ، ولا يحبب إليه أسباب الزينة وأسباب الرفاهية ، فيضيع عمره في طلبها إذا كبر ، بل ينبغي أن يراقبه من أول عمره فلا يستعمل في رضاعه وحضانته إلا امرأة صالحة متدينة تأكل الحلال ، فإن اللبن الحاصل من الحرام لا بركة فيه .

وينبغي أن يعلمه آداب الأكل ، ويعوده أكل الخبز وحده في بعض الأوقات لئلا يألف الإدام فيراه كالحتم ، ويقبح عنده كثرة الأكل ، ويحبب إليه الثياب البيض دون الملونة ، ويمنعه من مخالطة الصبيان الذين عُوِّدُوا التنعم ، ثم يشغله بتعليمه وتحفيظه القرآن والحديث ، وأحاديث الأخيار ليغرس في قلبه حب الصالحين ، ويكرم على الْخُلُق الجميل والفعل المحمود ، فإن خالف ذلك في بعض الأحوال تُغُوفِل عنه ولا يُعَاتَب ، فإن عاد عوتب سرا ولا يكثر عليه العتاب لأن ذلك يهون عليه سماع الملامة ، ويُعَوَّد على المشي والحركة والرياضة لئلا يغلب عليه الكسل ، ، ويمنع أن يَفْتَخِر على أقرانه بشيء مما يملكه أبواه أو بمطعمه أو ملبسه ، ويُعَوَّد التواضع والإكرام لم يعاشره ، ويعود ألا يبصق في ملجسه ولا يتمخط ، ولا يضع رجلاً على رجل ، ويُمنَعُ منكثرة الكلام ، ويعود ألا يتكلم إلا جواباً ، وأن يحسن الاستماع إذا تكلم غيره ممن هو أكبر منه ، ويحسن أن يفسح له بعد خروجه من مقر تحفيظ القرآن الكريم في لعب جميل ليستريح به من تعب التأديب كما قيل : «رَوِّح القلوب تعي الذكر» [٢]

إن تربية الولد تربية حسنة دليل الإحساس بالمسئولية ، وبرهان حسن تأدبة الأمانة ، وإذا كان الوالد أول من سيجنى ثمار هذه التربية في حياته بالبر والصلة ، وبعد مماته بالدعاء والاستغفار وغيره ، فكيف يزهد فيها الزاهدون ؟

---

(١) موارد الظمآن لدرس الزمان عبد العزيز المحمد السلمان المرجع السابع ٢ / ٦٤٣ ، ٦٤٤ بتصرف .

(٢) ابن قدامة في مختصر منهاج القاصدين ص١٥٩ : ١٦١ بتصرف .

وإن كان حسن تأديب الولد رفعة للوالد قبلَ الولد فى الدنيا والآخرة، فكيف لا يرغب فى ذلك الراغبون؟!!

وإذا كان التقصير فى العناية بالولد وتربيته ذنباً يعاقب الله عز وجل عليه فى الدنيا بالعقوق وفى الآخرة بالعذاب، فكيف لا يرهب من ذلك الراهبون؟

إن المؤمن السوى هو الذى يتفاعل رغباً ورهباً مع وعد الله ووعيده فى كتابه وسنة نبيه ﷺ بأن يرغب فيما رغب الله فيه، وبأن يرهب فيما رهب الله عز وجل منه»[1]

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الرجل لَتُرفَعُ درجته فى الجنة، فيقول: أنى لى هذا؟

فيقال: باستغفار ولدك لك»[2]

وقال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ (١٥) ﴾[3].

وقال رسول الله ﷺ: «كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته»[4]

• الاهتمام بالأبناء كبارًا

كلنا يعرف قصة إسكان إسماعيل وأمه بواد غير ذى زرع عند بيت الله الحرام، ودعاء إبراهيم الذى حكاه القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿ رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ ﴾.

وشب إسماعيل وتعلم العربية وماتت أمه وتزوج إسماعيل، وجاء إبراهيم يسأل عنه، فوجد زوجة غير صالحة وغير شاكرة فأمره بفراقها، ففعل، قال الرواة:

جاء إبراهيم بعد زواج إسماعيل يطالع أحوال ولده فلم يجد إسماعيل، فسأل امرأته عنه فقالت: خرج يصيد لنا ثم سألها عن عيشهم وهيئتهم فقالت: نحن بشر حال، نحن فى ضيق وشدة، وشكت إليه!!

---

(١) منهج السنة النبوية فى تربية الإنسان - د.بدير محمد بدير ص٨٩، ٩٠.

(٢) أخرجه ابن ماجة، ٣٦٦٠، وقال فى الزوائد إسناده صحيح ورجاله ثقات وأحمد ١ / ٥٠٩.

(٣) سورة الزمر الآية ١٥. (٤) سبق تخريجه.

فقال إبراهيم لها : إذا جاء زوجك فأقرئيه السلام، وقولى له : يغير عتبة بابه «كناية عن الطلاق».

فلما جاء إسماعيل سألها : هل جاءكم من أحد؟

قالتْ زوجته : نعم جاء شيخ كذا وكذا «وصفته له» فسألنا عنك، فأخبرته، فسألنى كيف عيشنا، فأخبرته أنَّا فى جهد وشدة.

فقال لها إسماعيل : هل أوصاك بشىء؟

قالت زوجته : نعم أمرنى أن أقرئك السلام، ويقول لك : «غير عتبة بابك».

فقال إسماعيل : هذا أبى، وقد أمرنى أن أفارقك، الحقى بأهلك فطلقها، وتزوج امرأة أخرى.

وجاء إبراهيم عليه السلام بعد مدة فلم يجد إسماعيل، فقال لامرأته : أين إسماعيل ، وكيف أنتم؟

فقالت له : ذهب يصيد لنا، ونحن بخيروسعة، ألا تنزل فتطعم وتشرب؟

فقال إبراهيم : وما طعامكم وماشرابكم؟

فقالت : طعامنا اللحم وشرابنا الماء.

فقال إبراهيم : اللهم بارك لهم فى طعامهم وشرابهم، ثم قال لها : إذا جاء زوجك فاقرئى عليه السلام، ومريه يثبت عتبة بابه.

وجاء إسماعيل وسأل : هل أتاكم من أحد؟

فقالت له الزوجة : نعم، أتانا شيخ حسن الهيئة وأثنت عليه، فسألنى عنك فأخبرته أنا بخير.

فقال إسماعيل : فهل أوصاك بشىء؟

فقالت : نعم، يقرأ عليك السلام ، ويأمرك أن تثبت عتبة بابك.

قال إسماعيل : هذا أبى ، وأنت العتبة أمرنى أن أثبتك وأمسكك.

وهكذا نجد اهتمام إبراهيم بولده إسماعيل رغم بعد المسافة بينهما وكِبَر

إسماعيل وتزوُّجه وإقامة أسرة وَكِبَر سن الوالد إبراهيم ومع ذلك كان يقطع الفيافي والقفار ليطمئن على ولده أولاً وليقدم له النصيحة ثانياً، فلما وجد زوجته الأولى غير شاكرة ولا قانعة ولا هى التى تصلح أن تكون وراء نبى أو حتى رجل عادى يجاهد فى الحياة وتصبر معه فى الضراء فأمره بطلاقها، ووجد فى الزوجة الثانية الشاكرة العظيمة البارة القدرة على الوقوف معه، فأمره بإمساكها».

ولقد كان اهتمام النبى محمد ﷺ عظيماً، ولم ينقطع أو يقل بعد زواج من يتزوج.

فقد كانت فاطمة عليها السلام نعم الزوج لعلى رضى الله عنه، وكان هو نعم الزوج لها، وكان رسول الله ﷺ يتفقد أحوالهما على الدوام، ويرعى شئونهما، ويصلح بينهما، فعن ابن عباس رضى الله عنهما قال: دخل رسول الله ﷺ على علىٍّ وفاطمة وهما جالسان يضحكان، فلما رأيا رسول الله ﷺ سكتا، فقال لهما: «مالكما كنتما تضحكان، فلما رأيتمانى سكتما؟»

فبادرت فاطمة رضى الله عنها فقالت: بل أنا أحب إلى رسول الله منك، فتبسم رسول الله ﷺ وقال: «يا بنية، لك رقة الولد، وعلى أعز علىَّ منك» [1]

وعن عمر بن سعيد قال: كان فى «علىٍّ» على فاطمة شدة.

فقالت: والله لأشكونك إلى رسول الله ﷺ.

فانطلقت، وانطلق على بإثرها، فقام حيث سمع كلامها، فشكت إلى رسول الله غلظ علىٍّ وشدته عليها.

فقال: «يا بنية اسمعى واستمعى واعقلى، إنه لا إمرة [2] لامرأة لا تأتى هوى زوجها، وهو ساكت».

قال على: فكففت عما كنت أصنع، وقلت: والله لا آتى شيئًا تكرهينه أبدا.

وعن حبيب بن أبى ثابت قال: كان بين علىٍّ وفاطمة كلام فدخل رسول الله ﷺ، فألفى له بشال فاضطجع عليه، فجاءت فاطمة فاضطجعت من جانب،

(١) أخرجه الطبرانى برجال الصحيح، انظر مجمع الزوائد ٩/٢٠٢.

(٢) الإمرة: بمعنى الإمارة بالكسر.

وجاء على فاضطجع من جانب ، فأخذ رسول الله ﷺ بيد علىّ فوضعها على سرته ، وأخذ بيد فاطمة فوضعها علىّ سرته ، ولم يزل حتى أصلح بينهما ، ثم خرج ، فقيل له : دخلت وأنت على حال ، وخرجت ونحن نرى البشر في وجهك .

فقال : «وما يمنعنى وقد أصلحتُ بين أحب اثنين إلىَّ» [1] .

نقول : لهم فطالما الوالدان أو أحدهما على قيد الحياة فحاجة الأبناء إليهما أو إليه لا تنتهى لما يحملان أو يحمل من الخبرة في شئون الحياة .

النموذج الثالث : للسيدة أسماء بنت أبى بكر رضى الله عنهما وزوجها الزبير بن العوام رضي الله عنه فقد بذلا الكثير في توجيه ابنهما عبد الله بن الزبير منذ صغره وظل وهو كبير يحتاج إلى مشورة أمه .

ثبت أنه لما أحاط الحجاج ومعه جند الشام بعبد الله بن الزبير فى الكعبة بيت الله الحرام وتفرق الناس عن عبد الله دخل علي أمه قائلاً : يا أماه قد خذلنى الناس حتى ولدى وأهلى ولم يبق معى إلا اليسير ومن ليس عنده أكثر من صبر ساعة ، والقوم يعطوننى ما أردت من الدنيا فما رأيك ؟

فقالت : يا بنى أنت أعلم بنفسك ، إن كنت تعلم أنك على حق وإليه تدعو فامض له فقد قتل عليه أصحابك ، ولا تمكن من رقبتك يلعب بها غلمان بنى أمية ، وإن كنت إنما أردت الدنيا فبئس العبد أنت أهلكت نفسك ومن قتل معك .

وإن قلت : كنت على الحق فلما وهن أصحابى ضعفت فهذا ليس فعل الأحرار ولا أهل الدين ،

كم خلودك فى الدنيا ؟ القتل أحسن !.

فقال : يا أماه أخاف إن قتلنى أهل الشام أن يمثلوا بى ويصلبونى .

قالت : يا بنى إن الشاة إذا ذبحت لا تتألم بالسلخ ، فامض على بصيرتك واستعن بالله .

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ٨ / ٢٦ .

فقبل رأسها وقال : هذا رأيي والذى قمت به داعيًا إلى يومى هذا، ماركنت إلى الدنيا وما أحببت الحياة فيها، ومادعانى إلى الخروج إلا الغضب لله أن تستحل حرماته ولكنى أحببت أن أعلم رأيك فقد زدتنى بصيرة، فانظرى يا أماه فإنى مقتول فى يومى هذا فلا يشتدن حزنك وسلمى الأمر إلى الله ... إلخ.

فقالت له أمه : إنى لأرجو أن يكون عزائى فيك جميلاً، إن تقدمتنى احتسبتك، وإن ظفرت سررت بظفرك، أخرج حتى أنظر إلى ما يصير أمرك.

فقال : جزاك الله خيراً، فلا تدعى الدعاء لى.

قالت : لا أدعه أبداً

ثم قالت : اللهم ارحم طول ذاك القيام فى الليل الطويل، وذاك النحيب والظمأ فى هواجر مكة والمدينة، وبره بأبيه وبى !، اللهم قد أسلمته لأمرك فيه ورضيت بما قضيت فأثبنى فيه ثواب الصابرين الشاكرين !!.

ثم أقبل عبد الله على القتال حتى قتل رحمه الله، فصلبه الحجاج على جذع فوق الثنية ثم أرسل الحجاج إلى أمه أسماء فأبت أن تأتيه،

فأعاد عليها الرسول لتأتينى أو لأبعثن إليك من يسحبك من قرونك،

فأبت وقالت : والله لا آتيه حتى يبعث إلى من يسحبنى من قرونى.

فقال الحجاج : أرونى مكانها، ثم انطلق حتى وقف عليها فقال : كيف رأيت، نصر الله الحق وأظهره.

فقالت : ربما أديل الباطل على الحق وأهله، وإنك بين فرثها والجنة.

فقال : إن ابنك ألحد فى هذا البيت ، وقد قال تعالى : ﴿ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾ ﴾ (1) وقد أذاقه الله ذلك العذاب الأليم.

قالت : كذبت ، كان أول مولود ولد فى الإسلام بالمدينة، وسر به رسول الله ﷺ وحنكه بيده، وكبر المسلمون يومئذ حتى ارتجت المدينة فرحًا به، وقد فرحت أنت وأصحابك بمقتله، فمن كان فرحه يومئذ بمولده خير منك ومن أصحابك، وكان مع ذلك بارًا بالوالدين، صوامًا قوامًا بكتاب الله، معظمًا لحرمة

(1) سورة الحج الآية ٢٥.

الله يبغض من يعص الله عز وجل، أشهد على رسول الله ﷺ لسمعته يقول : «يخرج من ثقيف كذاب ومبير» فأما الكذاب فرأيناه، وأما المبير فلا أخالك إلا إياه.

فقام عنها الحجاج ولم يرجع.

ثم أنزل ابنها عبد الله فأتي به أسماء فغسلته وطيبته وحنطته ثم دفنته رضى الله عنها [1].

كيف كانت تلك الشجاعة فى مقابلة أعتى إنسان ظهر فى تلك الفترة وأخاف الجزيرة وما حولها، ولكنها المؤمنة التقية الورعة التى لاتخشى الطغاة ولا تخاف فى الله لومة لائم رحمها الله رحمة واسعة [2].

• **النموذج الرابع :**

«الخنساء» تماضر بنت عمرو بن الشريد، الشاعرة السلمية التى أجمع أهل العلم بالشعر على أنه لم تكن امرأة قط قبلها ولا بعدها أشعر منها [3].

حضرت حرب القادسية ومعها بنوها أربعة رجال، فقالت لهم من أول الليل : يابنى، إنكم أسلمتم طائعين، وهاجرتم مختارين، ووالله الذى لا إله إلا هو إنكم لبنو رجل واحد، كما أنكم لبنو امرأة واحدة، ما خنت أباكم، ولا فضحت خالكم، ولا هجنت حسبكم، ولا غبرت نسبكم، وقد تعلمون ما أعده الله للمسلمين من الثواب الجزيل فى حرب الكافرين، واعلموا أن الدار الباقية خير من الدار الفانية، يقول الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٢٠٠) ﴾ [4].

فإن أصبحتم غدا إن شاء الله سالمين، فاغدوا إلى قتال عدوكم مستبصرين وبالله على أعدائه مستنصرين، فإذا رأيتم الحرب قد شمرت عن ساقها، واضطرمت لظى على سياقها ، وجللت ناراً على أوراقها، فتيمموا وطيسها، وجالدوا رئيسها عند احتدام خميسها، تظفروا بالغنم والكرامة، فى دار الخلد والمقامة.

(١) الكامل لابن الأثير ٤ / ٣٥٦ ، البداية والنهاية لابن كثير ٨ / ٣٣٣ .

(٢) النساء الداعيات للدكتور توفيق يوسف الراعى ص ٨٧، ٨٨.

(٣) الإصابة فى تمييز الصحابة ٤ / ٢٢٨ .

(٤) سورة آل عمران الآية ٢٠٠

فخرج بنوها قابلين لنصحها . عازمين على قولها ، فلما أضاء لهم الصبح باكروا مراكزهم ، فقاتلوا حتى قتلوا - رحمهم الله - فبلغها خبرهم ،فقالت : الحمد الله الذى شرفنى بقتلهم ، وأرجو من ربى أن يجمعنى بهم فى مستقر رحمته» (١) .

• يا ألله

هذه هى الأمومة الحقة والرعاية الكاملة ، لقد ربتهم صغارًا فأخلصت وأحسنت التربية ، لم تخن أباهم ، ولم تفضح خالهم بل إنها حافظت علي نسبهم ، وكانت أمينة حافظة للغيب بما حفظ الله ، وكانت خير قدوة لهم ، غرست فى أذهانهم حب الله ورسوله ، والجهاد فى سبيله ، وزرعت فى نفوسهم الشجاعة والبطولة ، وطبعتهم على حب التضحية والجهاد ، ونمت فى عقولهم الحماس والثأر لدين الله ، ودربت أجسادهم على الرياضة والفروسية ، وعودتهم حمل السلاح ، وأبعدتهم عن الترف والراحة وعلمتهم الخشونة والصبر على شظف العيش ، ربت فيهم الشعور بالكرامة والعزة لله ولرسوله وللمؤمنين ، وحببت إلى نفوسهم طاعة الله ورسوله ، وعودتهم على البر والإحسان ،وطاعة الوالدين ، فنشأوا أشداء أقوياء علي أعدائهم رحماء بينهم .

لقد قامت هذه الأم المسلمة بمسئوليتها خير قيام لم تترك جانبًا من جوانب التربية الجسدية والعقلية والنفسية والروحية والأخلاقية والاجتماعية إلا وفته من الرعاية والاهتمام منذ الصغر وحتى شب أبناؤها عن الطوق فأصبحوا رجالاً أقوياء تعتزبهم وتفخر .

• هل ضنت بهم على الله ورسوله ؟

كلا لم تضن بهم ، بل دفعتهم للجهاد فى سبيل الله ، محمسة إياهم ، ومزودة لهم بالنصائح والإرشادات بالتقدم فى ساحة الحرب والبأس على عدوهم ، فأقبلوا طائعين مختارين ، بارين بأمهم ، منفذين لأوامر ربهم ، فأبلوا بلاء حسنا حتى استشهدوا جميعًا .

فما كان مصير الأم الحنون التى سمعت نبأ استشهادهم أجمعين ؟

---

(١) الاستيعاب لابن عبد البر هامش الإصابة فى تمييز الصحابة ٤ / ٢٩٦ .

هل جزعت ؟

هل تحطمت؟

هل لطمت خدا أو شقت ثوبًا ؟

كلاً، لم تجزع ولم تسخط بل فرحت واستبشرت بأن شرفها الله بشهادتهم، واحتسبت أجرها عند الله، وطلبت منه أن يجمعها بهم في جنات النعيم المقيم [١] .

ولم تكن الأمهات فقط هن اللاتي يتعهدن وينصحن بل إن الآباء كانوا يزودون أبناءهم بالنصائح الغالية كبارًا ومن ذلك :

وصى الخطاب بن المعلى المخزومي ابنه : فقال : يابني، عليك بتقوى الله وطاعته، وتجنب محارمه باتباع سنته ومعالمه حتى تصح عيوبك، وتقر عينك، فإنها لا تخفى على الله خافية، وإني قد وسمت لك وسما، ووضعت لك رسمًا، إن أنت حفظته ووعيته وعملت به ملأت أعين الملوك، وانقاد لك به الصعلوك، ولم تزل مرتجىً مشرفا يُحتاج إليك، ويُرغب إلى ما في يديك، فأطع أباك، واقتصر على وصية أبيك، وفرغ لذلك ذهنك، واشغل به قلبك ولبك .

وإياك وهذر الكلام، وكثرة الضحك والمزاح، ومهازلة الإخوان، فإن ذلك يذهب البهاء، ويوقع الشحناء، وعليك بالرزانة والتوقر، من غير كبر يوصف منك، ولا خيلاء تحكى عنك،

والق صديقك وعدوك بوجه الرضى، وكف الأذى، من غير ذلة لهم ولا هيبة منهم، وكن في جميع أمورك في أوسطها؛ فإن خير الأمور أوساطها،

وقلل الكلام، وأفش السلام وامش متمكنا قصدا، ولا تخط برجلك، ولا تسحب ذيلك، ولا تلو عنقك، ولا رداءك، ولا تنظر في عطفك، ولاتكثر الالتفات، ولا تقف على الجماعات، ولا تتخذ السوق مجلسا، ولا الحوانيت متحدثا، ولاتكثر المراء، ولا تنازع السفهاء،

فإن تكلمت فاختصر، وإن مزحت فاقتصر، وإذا جلست فتربع، وتحفظ من تشبيك أصابعك وتفقيعها، والعبث بلحيتك وخاتمك، وذؤابة سيفك، وتخليل

(١) مشكلات المرأة المسلمة المعاصرة ص ١٢٥ .

أسنانك، وإدخال يدك في أنفك، وكثرة طرد الذباب عنك، وكثرة التثاؤب والتمطي، وأشباه ذلك مما يستخفه الناس منك، ويغتمزون به فيك.

وليكن مجلسك هاديًا، وحديثك مقسوما، وأصغ إلى الكلام الحسن ممن حدثك، بغير إظهار عجب منك، ولا مسألة إعادة، وغض عن الفكاهات من المضاحك والحكايات،

ولاتحدث عن إعجابك بولدك، ولا جاريتك، ولا عن فرسك، ولا عن سيفك،

وإياك وأحاديث الرؤيا، فإنك إن أظهرت عجبا بشيء منها طمع فيها السفهاء، فولدوا لك الأحلام، واغتمزوا في عقلك، ولا تصنع تصنع المرأة ،ولا تبذل تبذل العبد، ولا تهلب لحيتك ولا تبطنها، وتوق كثرة الحف،ونتف الشيب،وكثرة الكحل، والإسراف في الدهن، وليكن كحلك غبا،

ولا تلح في الحاجات، ولاتخشع في الطلبات، ولا تعلم أهلك وولدك - فضلاً عن غيرهم - عدد مالك، فإنهم إن رأوه قليلا هنت عليهم، وإن كان كثيرًا لم تبلغ به رضاهم، وأخِفْهُم في غير عنف، ولِنْ لهم في غير ضعف، ولا تهازل أَمَتك.

وإذا خاصمت فتوقر،وتحفظ من جهلك، وتجنب من عجلتك، وتفكر في حجتك، وأمر الحاكم شيئًا من حلمك،ولاتكثر الإشارة بيدك، ولا تَحَفَّز على ركبتيك،

وتوق حمرة الوجه، وعرق الجبين وإن سفه عليك فاحلم، وإذا هدأ غضبك فتكلم،وأكرم عرضك،وألق الفضول عنك،

وإن قربك سلطان فكن منه على حد السنان، وإن استرسل إليك فلا تأمن من انقلابه عليك،وارفق به رفقك بالصبي، وكلمه بما يشتهي، ولا يحملنك ما ترى من إلطافه إياك، وخاصته بك: أن تدخل بينه وبين أحد من ولده وأهله وحشمه،وإن كان لذلك منك مستمعًا ،وللقول منك مطيعًا، فإن سقطة الداخل بين الملك وأهله صرعة لا تنهض،وزلة لا تقال،

وإذا وعدت فحقق، وإذا حدثت فاصدق، ولا تجهر بمنطقك كمنازع الأصم،

ولا تخافت به كتخافت الأخرس، وتخير محاسن القول بالحديث المقبول، وإذا حدثت بسماع فانسبه إلى أهله، وإياك والأحاديث العابرة المشنعة التى تنكرها القلوب، وتقف لها الجلود[1]، وإياك ومضعف الكلام مثل : نعم، نعم ، ولا ، لا ،وعجل ، عجل، وما أشبه ذلك،

وإذا توضأت فأجد عرك كفيك، وليكن وضعك الحرض من الأشنان[2] فى فيك كفعلك بالسواك، ولا تنخع فى الطست، وليكن طرحكم الماء من فيك مترسلاً، ولا تمج فتنضح على أقرب جلسائك،

ولاتعض نصف اللقمة، ثم تعيد ما بقى منها منصبغا، فإن ذلك مكروه، ولا تكثر الاستسقاء على مائدة الملك، ولا تعبث بالمشاش[3]، ولا تعب شيئًا مما يقرب إليك على مائدة: بقلة خل أو تابل أو غسل، فإن السحابة قد صيرت لنفسها مهابة،

ولاتمسك إمساك المثبور، ولا تبذر تبذر السفيه المغرور، واعرف فى مالك واجب الحقوق ،وحرمة الصديق، واستغن عن الناس يحتاجوا إليك، واعلم أن الجشع يدعو إلى الطبع. والرغبة كما قيل تدق الرقبة ورب أكلة تمنع أكلات.

والتعفف مال جسيم، وخلق كريم، ومعرفة الرجل قدره، تشرف ذكره، ومن تعدى القدر، هوى فى بعيد القعر،

والصدق زين ،والكذب شين، ولصدق يسرع عطب صاحبه أحسن عاقبة من كذب يسلم عليه قائله،

ومعاداة الحليم خير من مصادقة الأحمق، ولزوم الكريم على الهوان خير من صحبة اللئيم على الإحسان، ولقرب ملك جواده، خيرمن مجاورة بحر طراد،

وزوجة السوء الداء العضال ونكاح العجوز يذهب بماء الوجه، وطاعة النساء تزرى بالعقلاء.

تشبه بأهل العقل تكن منهم ،وتصنع للشرف تدركه.

(١) تقشعر.

(٢) الحرض من الأشنان : ما يغسل به مثل الصابون.

(٣) المشاش : العظم الذى لامخ فيه.

واعلم أن كل امرئ حيث وضع نفسه ،وإنما ينسب الصانع إلى صناعته ، والمرء يعرف بقرينه ، وإياك وإخوان السوء فإنهم يخونون من رافقهم ، ويحزنون من صادقهم ،وقُرْبُهم أعدى من الجرب ، ورفضهم من استكمال الأدب ، واستخفار المستجير لؤم والعجلة شؤم ، وسوء التدبير وهن .

والإخوان اثنان : فمحافظ عليك عند البلاء ، وصديق لك في الرخاء ، فاحفظ صديق البلاء وتجنب صديق العافية ، فإنهم أعدى الأعداء .

ومن اتبع الهوى ، مال به الردى ، ولايعجبنك الجهم من الرجال ، ولا تحقر ضئيلا كالخلال فإنما المرء بأصغريه : قلبه ولسانه ، ولا ينتنِع به بأكثر من أصغريه .

وتوق الفساد ، وإن كنت في بلاد الأعادي ، ولا تفرش عرضك لمن دونك ، ولاتجعل مالك أكرم عليك من عرضك ، ولا تكثر الكلام فتثقل على الأقوام وامنح البِشر جليسك ، والقبول ممن لاقاك .

وإياك وكثرة التبريق والتزليق ، فإن ظاهرَ ذلك ينسب إلى التأنيث ، وإياك والتصنع لمغازلة النساء ، وكن متقربًا ، متعززًا ، منتهزًا في فرصتك ، رفيقًا في حاجتك ، متثبتا في حملتك ، والبس لكل دهر ثيابه ، ومع كل قوم شكلهم .

واحذر ما يُلْزِمُك اللائمة في آخرتك ، ولاتعجل في أمر حتى تنظر في عاقبته ، ولا ترد حتى ترى وجه المصدر .

وعليك بالنُورة [(١)] في كل شهر مرة ، وإياك وحلاق الإبط بالنورة ، وليكن السواك من طبيعتك ، وإذا استكت فعرضا ، وعليك بالعمارة ، فإنها أنفع التجارة ،وعلاج الزرع خير من اقتناء الضرع ، ومنازعتك اللئيم تطمعه فيك ، ومن أكرم عرضه أكرمه الناس ، وذم الجاهل إياك أفضل من ثنائه عليك ، ومعرفة الحق من أخلاق الصدق ، والرفيق الصالح ابن عم ،ومن أيسر أُكْبِر ، ومن افتقر احْتُقِر ، قصر في المقالة مخافة الإجابة ، والساعي إليك غالب عليك ، وطول السفر ملالة وكثرة المنى ضلالة ، وليس للغائب صديق ، ولا على الميت شفيق ، وأدب الشيخ عناء ، وتأديب الغلام شقاء ، والفاحش أمير ،والوقّاح [(٢)] وزير ،

---

(١) روضة العقلاء ونزهة الفضلاء ص١٩٨-٢٠٤ .

(٢) قليل الحياء «المصباح المنير» .

والحليم مطية الأحمق، والحمق داء لاشفاء له والحلم خير وزير، والدين أزين الأمور، والسماجة سفاهة، والسكران شيطان، وكلامه هذيان، والشعر من السحر والتهدد هجر، والشح شقاء، والشجاعة بقاء، والهدية من الأخلاق السرية، وهي تورث المحبة، ومن ابتدأ المعروف صار دينا، ومن المعروف ابتداء من غير مسألة، وصاحب الرياء يرجع إلى السخاء، ولرياء بخير خير من معالنة بشر، والعرق نزاع، والعادة طبيعة لازمة : إن خيرا فخير، وإن شراً فشر، ومن حل عقداً احتمل حقدا، ومراجعة السلطان خرق بالإنسان، والفرار عار، والتقدم مخاطرة، وأعجل منفعة إيسار فى دعة، وكثرة العلل من البخل، وشر الرجال، الكثير الاعتلال، وحسن اللقاء يذهب بالشحناء، ولين الكلام من أخلاق الكرام.

يابنى، إن زوجة الرجل سكنه، ولا عيش له مع خلافها، فإذا هممت بنكاح امرأة فسل عن أهلها، فإن العروق الطيبة تنبت الثمار الحلوة.

واعلم أن النساء أشد اختلافا من أصابع الكف، فتوق منهن كل ذات بذا مجبولة على الأذى، فمنهن المعجبة بنفسها، المزرية ببعلها، إن أكرمها رأته لفضلها عليه، لا تشكر على جميل، ولا ترضى منه بقليل، لسانها عليه سيف صقيل، قد كشفت القحة ستر الحياء عن وجهها، فلا تستحى من إعوارها، ولا تستحى من جارها، كلبة هرارة مهارشة عقارة، فوجه زوجها مكلوم، وعرضه مشتوم، ولا ترعى عليه لدين ولا لدنيا، ولاتحفظه لصحبة ولا لكثرة بنين، حجابه مهتوك، وستره منشور، وخيره مدفون، يصبح كئيبا ويمسى عاتباً، شرابه مر، وطعامه غيظ، وولده ضياع، وبيته مستهلك، وثوبه وسخ، ورأسه شعث، إن ضحك فواهن، وإن تكلم فمتكاره، نهاره ليل، وليله ويل، تلدغه مثل الحية العقارة، وتلسعه مثل العقرب الجرارة.

ومنهم شفشليق[1] شعشع[2] سلفع[3]، ذات سم منقع، وإبراق واختلاق، تهب مع الرياح، وتطير مع كل ذى جناح، إن قال : لا، قالت : نعم، وإن قال : نعم قالت : لا، مولدة لمخازيه، محتقرة لما فى يديه، تضرب له الأمثال، وتقصر به

(١) الشفشليق : العجوز المسترخية. (٢) الشعشع : الطويلة

(٣) السلفع : الصخابة البذيئة السيئة الخلق.

دون الرجال، وتنقله من حال إلى حال، حتى قلا بيته، ومل ولده، وغث عيشه. وهانت عليه نفسه، وحتى أنكره إخوانه ورحمه جيرانه.

ومنهن الورهاء الحمقاء: ذات الدل في غير موضعها، الماضغة للسانها، الآخذة في غير شأنها، قد قنعت بحبه، ورضيت بكسبه، تأكل كالحمار الراتع، تنتشر الشمس ولما يسمع لها صوت، ولم يكنس لها بيت، طعامها بائت، وإناؤها وضر[1]، وعجينها حامض، وماؤها فاتر، ومتاعها مزروع، وماعونها ممنوع، وخادمها مضروب، وجارها محروب.

ومنهم العطوف الودود، المباركة الولود، المأمونة على غيبها، المحبوبة في جيرانها، المحمودة في سرها وإعلانها، الكريمة التبعل، الكثيرة التفضل، الخافضة صوتًا، النظيفة بيتًا، خادمها مسمن، وابنها مزين، وخبزها دائم، وزوجها ناعم، موموقة مألوفة، وبالعفاف والخيرات موصوفة.

جعلك الله يا بني ممن يقتدي بالهدى، ويأتم بالتقى، ويجتنب السخط، ويحب الرضى.

والله خليفتي عليك، والمتولي لأمرك، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.[2]

● **نصيحة علي بن أبي طالب لابنه الحسن**

قال فيها: أي بني: إني لما رأيتني قد بلغت سنا، ورأيتني أزداد وهنا، بادرت بوصيتي إليك، وأوردت خصالاً منها قبل أن يعجل أجلي دون أن أفضي إليك بما في نفسي، وأن أنقص في رأيي كما نقصت في جسمي، أو يسبقني إليك غلبات الهوى وفتن الدنيا، فتكون كالصعب النفور.

وإنما قلب الحدث كالأرض الخالية ما ألقي فيها من شيء قبلته، فبادرتُك بالأدب قبل أن يقسو قلبك، ويشتغل لبك، لتستقبل بجد رأيك من الأمر ما قد كفاك أهل التجارب بغيته وتجربته فتكون قد كفيت مؤونة الطلب، وعوفيت من علاج التجربة، فأتاك من ذلك ما قد كنا نأتيه، واستبان لك ما ربما أظلم علينا منه.

---

(١) قذر لم يغسل

(٢) موارد الظمآن لدروس الزمان عبد العزيز المحمد السلمان ٢ / ١٥٦.

أى بنى .. إنى وإن لم أكن عمرت عمر من كان قبلى، فقد نظرت فى أعمالهم. وفكرت فى أخبارهم، وسرت فى آثارهم حتى عدت كأحدهم، بل كأنى بما انتهى إلى من أمورهم قد عمرت مع أولهم إلى آخرهم، فعرفت صفو ذلك من كدره، ونفعه من ضرره.

فاستخلصت لك من كل أمر نخيله وتوخيت لك جميله، وصرفت عنك مجهوله، ورأيت حيث عنانى من أمرك ما يعنى الوالد الشفيق، وأجمعت عليه من أدبك أن يكون ذلك وأنت مقبل العمر ومقتبل الدهر، ذو نية سليمة ونفس صافية.

وأن أبتدئك بتعليم كتاب الله وتأويله، وشرائع الإسلام وأحكامه، وحلاله وحرامه. لا أجاوز ذلك بك إلى غيره، ثم أشفقت أن يلتبس عليك ما اختلف الناس فيه من أهوائهم وآرائهم مثل الذى التبس عليهم، فكان أحكام ذلك على ما كرهت من تنبيهك به الهلكة، ورجوت أن يوفقك الله فيه لرشدك، وأن يهديك لقصدك، فعهدت إليك وصيتى هذه.

واعلم يا بنى، أن أحب ما أنت آخذ به إلىَّ من وصيتى تقوى الله والاقتصار على ما فرضه الله عليك؛ والأخذ بما مضى عليه الأولون من آبائك، والصالحون من أهل بيتك، فإنهم لم يَدَعُوا أن نظروا لأنفسهم كما أنت ناظر. وفكروا كما أنت مفكر، ثم ردهم آخر ذلك إلى الأخذ بما عرفوا، والامساك عما لم يكلفوا، فإن أبت نفسك أن تقبل ذلك دون أن تعلم كما علموا، فليكن طلبك ذلك بتفهم وتعلم، لا بتورط الشبهات وعلو الخصومات.

وأبدأ قبل نظرك فى ذلك بالاستعانة بإلهك، والرغبة إليه فى توفيقك، وترك كل شائبة أولجتك فى شبهة، أو أسلمتك إلى ضلالة، فإذا أيقنت أن قد صفا قلبك فخشع، وتم رأيك فاجتمع، وكان همك فى ذلك هما واحدا، فانظر فيما فسرت لك.

وإن لم يجتمع لك ما تحب من نفسك، وفراغ نظرك وفكرك، فاعلم أنك إنما تخبط العشواء وتتورط الظلماء، وليس طالب الدين من خبط أو خلط، والإمساك عن ذلك أمثل.

فتفهم يا بنى وصيتى، واعلم أن مالك الموت هو مالك الحياة، وأن الخالق هو المميت، وأن المفنى هو المعيد، وأن المبتلى هو المعافى، وأن الدنيا لم تكن لتستقر إلا على ما جعلها الله عليه من النعماء والابتلاء، والجزاء فى المعاد أو ما شاء مما لانعلم.

فإن أشكل عليك شيء من ذلك فاحمله على جهالتك به، فإنك أول ما خلقت جاهلاً ثم علمت، وما أكثر ما تجهل من الأمر، ويتحير فيه رأيك، ويضل فيه بصرك، ثم تبصره بعد ذلك، فاعتصم بالذى خلقك ورزقك وسواك، وليكن له تعبدك، وإليه رغبتك، ومنه شفقتك.

واعلم يا بنى أن أحدًا لم يُنَبِّئْ عن الله كما أنبأ عنه الرسول - ﷺ - فارض به رائدا، وإلى النجاة قائدا، فإنى لم آلك نصيحة، وإنك لن تبلغ فى النظر لنفسك - وإن اجتهدت- مبلغ نظرى لك.

واعلم يابنى أنه لو كان لربك شريك لأتتك رسله، ولرأيت آثار ملكه وسلطانه، ولعرفت أفعاله وصفاته، ولكنه إله واحد كما وصف نفسه، لا يضاده فى ملكه أحد، ولا يزول أبدًا، ولم يزل أول قبل الأشياء بلا أولية، وآخر بعد الأشياء بلا نهاية، عظم عن أن تثبت ربوبيته بإحاطة قلب أو بصر، فإذا عرفت ذلك فافعل كما ينبغى لمثلك أن يفعله فى صغر خطره، وقلة مقدرته، وكثرة عجزه، وعظيم حاجته إلى ربه، فى طلب طاعته، والرهبة من عقوبته، والشفقة من سخطه، فإنه لم يأمرك إلا بحسن، ولم ينهك إلا عن قبيح.

يا بنى، انى قد أنبأتك عن الدنيا وحالها وزوالها وانتقالها، وأنبأتك عن الآخرة وما أعد لأهلها فيها، وضربت لك فيهما الأمثال لتعتبر بها وتحذو عليها.

إنما مثل من خبر الدنيا كمثل قوم على سفر نبا بهم منزل جديب فأموا منزلاً خصيبًا وجنابًا مريعًا فاحتملوا وعثاء الطريق وفراق الصديق، وخشونة السفر، وجشوبه المطعم، ليأتوا سعة دارهم، ومنزل قرارهم، فليس يجدون لشيء من ذلك ألما، ولا يرون فى نفقة مغرما، ولا شيء أحب إليهم مما قربهم من منزلهم، وأدناهم من محلهم.

ومثل من اغتر بها كمثل قوم كانوا بمنزل خصيب، فنبا بهم إلى منزل جديب، فليس شيء أكره إليهم ولا أفظع عندهم من مفارقة ما كانوا فيه إلى ما يهجمون عليه ويصيرون إليه.

يا بني ... اجعل نفسك ميزانًا فيما بينك وبين غيرك، فأحبب لغيرك ما تحب لنفسك، واكره له ما تكره له، ولا تظلم كما لا تحب أن تظلم، وأحسن كما تحب أن يحسن إليك، واستقبح من نفسك ما تستقبح من غيرك، وارض من الناس بما ترضاه لهم من نفسك، ولا تقل مالا تعلم وأن قل ما تعلم، ولا تقل ما لا تحب أن يقال لك.

واعلم أن الإعجاب ضد الصواب وآفة الألباب، فاسع في كدحك ولا تكن خازنا لغيرك، وإذا أنت هديت لقصدك، فكن أخشع ما تكون لربك.

واعلم أن أمامك طريقا ذا مسافة بعيدة ومشقة شديدة، وأنه لا غنى لك فيه عن حسن الارتياد، قدر بلاغك من الزاد مع خفة الظهر، فلا تحملن على ظهرك فوق طاقتك فيكون ثقل ذلك وبالا عليك.

وإذا وجدت من أهل الفاقة من يحمل لك زادك إلى يوم القيامة، فيوافيك به غدا حيث تحتاج إليه فاغتنمه وحمله إياه، وأكثر من تزويده وأنت قادر عليه، فلعلك تطلبه فلا تجده، واغتنم من استقرضك في حال غناك، ليجعل قضاءه لك في يوم عسرتك.

واعلم أن أمامك عقبة كؤودا، المخف فيها أحسن حالاً من المثقل، والمبطئ عليها أقبح حالاً من المسرع، وأن مهبطك بها لا محالة على جنة أو على نار، فارتد لنفسك قبل نزولك، ووطئ المنزل قبل حلولك، فليس بعد الموت مستعتب، ولا إلى الدنيا منصرف.

واعلم أن الذى بيده خزائن السموات والأرض، قد أذن لك في الدعاء، وتكفل لك بالإجابة، وأمرك أن تسأله ليعطيك وتسترحمه ليرحمك، ولم يجعل بينك وبينه من يحجبه عنك، ولم يلجئك إلى من يشفع لك إليه، ولم يمنعك إن أسأت من التوبة، ولم يعاجلك بالنقمة، ولم يعيرك بالإنابة،

ولـم يفـضحـك حيث الفـضيحة بك أولى، ولم يشـدد عليك فى قبـول الإنابة، ولم يناقشك بالجريمة، ولم يؤيسك من الرحمة.

بل جـعل نزوعك عن الذنب حـسنة، وحـسب سيـئتك واحـدة، وحـسب حسنتك عشرا، وفتح لك باب المتاب، فإذا ناديته سمع نداءك، وإذا ناجيته علم نجواك، فأفضيت إليه بحاجتك، وأبثثتـه ذات نفسك، وشكـوت إليه همومك، واستكشفته كروبك، واستعنته على أمورك، وسألته من خزائن رحمته مالا يقدر على إعطائه غيره من زيادة الأعمار، وصحة الأبدان، وسعة الرزق.

ثم جـعل فى يديك مـفـاتيح خـزائـنه بما أذن لك من مـسـألتـه، فـمـتى شئت استفتحت بالدعاء أبواب نعـمته، واستـمطرت شآبيب رحمتـه فلا يقنطك إبطاء اجابته، فإن العطية على قدر النية، وربما أخرت عنك الإجابة ليكون ذلك أعظم لأجر السائل، وأجزل لعطاء الآمل.

وربما سألت الشىء فلا تؤتاه وأوتيت خيرا منه عاجلاً أو آجلاً، أو صرف عنك لما هو خير لك، فلرب أمر قد طلبتـه فيـه هلاك دينك لو أوتيتـه، فلتكن مسألتك فيما يبقى لك جماله، وينفى عنك وباله. فالمال لا يبقى لك ولا تبقى له.

واعلم أنك إنما خلقت للآخـرة لا للدنيـا، وللفناء لا للبـقـاء، وللمـوت لا للحياة، وأنك فى منزل قلعة ودار بلغة، وطريق إلى الآخرة.

وأنك طريد الموت الذى لا ينجو منه هاربه، ولابد أنه مدركه، فكـن منه على حذر أن يدركك وأنت على حـال سيـئة قـد كنت تحدث نـفسك منـهـا بالتـوبة، فيحول بينك وبين ذلك، فإذا أنت قد أهلكت نفسك.

يا بنى، أكثر من ذكر الموت، وذكر ما تهجم عليه، وتفضى بعد الموت إليه، حتى يأتـيك وقد أخذت منه حذرك، وشددت له أزرك، ولا يأتيك بغتة فـيبـهرك، وإياك أن تغتر بما ترى من إخلاد أهل الدنيا إليها، وتكالبهم عليها.

فقـد نبـأك الله عنهـا ونعتت لك نفسـهـا، وتكشـفت لك عن مسـاويهـا، فإن أهلها كلاب عاوية، وسباع ضارية، يـهر بعضـها بعضا، ويأكل عزيزها ذليلها، ويقهر كبيرها صغيرها.

نعَم مُعَقَّلةَ ، وأخرى مهملة ، قد أضلت عقولها ، وركبت مجهولها ، سروح عاهة بواد وعث . ليس لها راع يقيمها ، ولا مقيم يسيمها ، سلكت بهم الدنيا طريق العمى ، وأخذت بأبصارهم عن منار الهدى ، فتاهوا فى حيرتها ، وغرقوا فى نعمتها ، واتخذوها ربا ، فلعبت بهم ولعبوا بها . ونسوا ما وراءها .

رويداً يسفر الظلام ؛ كأن قد وردت الأظعان ، يوشك من أسرع أن يلحق ، واعلم أن من كانت مطيته الليل والنهار ، فإنه يسار به وإن كان واقفا ، ويقطع المسافة وإن كان مقيما وادعا .

واعلم يقينا أنك لن تبلغ أملك ، ولن تعدو أجلك ، وأنك فى سبيل من كان قبلك ، فخفض فى الطلب ، وأجمل فى المكتسب ، فإنه رب طلب قد جر إلي حرب ، فليس كل طالب بمرزوق ، ولا كل مجمل بمحروم ، وأكرم نفسك عن كل دنية ، وإن ساقتك إلى الرغائب ، فإنك لن تعتاض بما تبذل من نفسك عوضا ، ولا تكن عبد غيرك وقد جعلك الله حرا ، وما خير ، لا ينال إلا بشر ، ويسر لا ينال إلا بعسر .

وإياك أن توجف بك مطايا الطمع ، فتوردك مناهل الهلكة ، وإن استطعت أن لا يكون بينك وبين الله ذو نعمة فافعل ؛ فإنك مدرك قسمك ، وآخذ سهمك ، وأن اليسير من الله سبحانه أعظم وأكرم من الكثير من خلقه ، وإن كان كل منه [1] .

● **الوصية الوصية حتى وأنت على فراش الموت**

من الإحسان إلى الأبناء وصيتهم لآخر لحظة من حياتك فقد ثبت أنه لما ضرب ابن ملجم عليَّ بن أبى طالب كرم الله وجهه ، دخل رضى الله عنه منزله فاعترته غشية ثم أفاق ، فدعا الحسن والحسين رضى الله عنهما وقال :

« أوصيكما بتقوى الله تعالى ، الرغبة فى الآخرة والزهد فى الدنيا ، ولا تأسفا على شيء فاتكما منها ؛ فإنكما عنها راحلان . افعلا الخير وكونا للظالم خصمًا وللمظلوم عونا ،

ثم دعا محمداً ولده وقال له : أما سمعت ما أوصيت به أخويك ؟

---

(١) موارد الظمآن لدروس الزمان عبد العزيز المحمد السلمان ٢ / ١٥٠ - ١٥٦ .

قال : بلى

قال : فإني أوصيك به ، وعليك ببر أخويك وتوقيرهما ، ومعرفة فضلهما ، ولا تقطع أمرا دونهما.

ثم أقبل عليهما وقال : أوصيكما به خيراً فإنه أخوكما وابن أبيكما ، وأنتما تعلمان أن أباه كان يحبه ، فأحباه.

ثم قال : يا بَنَيَّ : أوصيكم بتقول الله في الغيب والشهادة ، وكلمة الحق في الرضا والغضب ، والقصد في الغنى والفقر ، والعدل في الصديق والعدو ، والعمل في النشاط والكسل ، والرضا عن الله في الشدة والرخاء.

يا بني ما شر بعده الجنة بِشَرٍّ ، ولا خير بعده النار بخير ، وكل نعيم دون الجنة حقير ، وكل بلاء دون النار عافية.

يا بَنَيَّ : من أبصر عيب نفسه اشتغل عن عيب غيره ، ومن رضى بما قسم الله له لم يحزن على ما فاته ، ومن سل سيف البغى قتل به ، ومن حفر لأخيه بئراً وقع فيها ، ومن هتك حجاب أخية هُتِكَتْ عورات بنيه ، ومن نسى خطيئته استعظم خطيئة غيره ، ومن أُعْجِبَ برأيه ضل ، ومن استغنى بعقله زل ، ومن تكبر على الناس ذل ، ومن خالط الأَنذال احْتُقِر ، ومن دخل مداخل السوء اتُّهم ، ومن جالس العلماء وُقِّر ، ومن مزح استخف به ، ومن أكثر من شيء عرف به ، ومن كثر كلامه كثر خطؤه وقل حياؤه ، ومن قَلَّ حياؤه قَلَّ ورعه ، ومن قَلَّ ورعه مات قلبه ، ومن مات قلبه دخل النار.

يا بَنَيَّ : الأدب ميزان الرجل ، وحسن الخلق خير قرين.

يا بَنَيَّ : العافية عشرة أجزاء : تسعة منها في الصمت إلاعن ذكر الله تعالى ، وواحدة في ترك مجالسة السفهاء.

يا بَنَيَّ : زينة الفقر الصبر ، وزينة الغنَى الشكر.

يا بَنَيَّ : لا شرف أعلى من الإسلام ، ولا كرم أعز من التقوى ، ولا شفيع أنجح من التوبة ، ولا لباس أجمل من العافية.

يا بَنَيَّ : الحرص مفتاح التعب [1] ومطية النَّصَب [2].

(١) انظر المستطرف في كل فن مستظرف للأبشيهي ص ٨٨ ؛ ٨٩ .

(٢) النصب : الشقاء والتعب.

• العدل بين الأولاد

يفرض الإسلام العدل بين الأولاد والتسوية بينهم فى العطف واللطف، فإن اختصاص البعض بشيء من الإحسان والرعاية ينشئ الحقد فى قلوب الأبناء ويفسد الصلة بينهم.

روى أنس : أن رجلاً كان جالسًا مع النبى ﷺ فجاءه بُنيٌّ فقبله وأجلسه فى حجره، ثم جاءت بنته فأخذها فأجلسها إلى جنبه.

فقال له النبى ﷺ : «فما عدلت بينهما»[1].

وقد أمر الإسلام بالعدل بينهم فى المنح والإعطاء وفى الإحسان والرحمة، يقول الرسول ﷺ : «اعدلوا بين أبنائكم في النحل كما تحبون أن يعدلوا بينكم في البر واللطف»[2].

وقد تبين فى عرض القرآن لقصة يوسف عليه السلام أن الذى أشعل حقد إخوته عليه، وأدى إلى تآمرهم عليه، ما بدا لهم من إيثار أبيهم ليوسف واختصاصه بألوان من القرب والكرم فكان من الشر ما كان[3]، قال تعالى : ﴿ إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٨) اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِن بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ (٩) ﴾[4].

ونستطيع أن نقول إن حق العدل والتسوية بين الأبناء مهما كان أمر بعضهم من العقوق أو الفساد، واتخاذ طرق أخرى للتأديب والتربية غير المحاباة والتمييز هو الأمثل والأحكم، فالكلمة الطيبة، والنظرة الحانية، والصبر الجميل، والوعظ البليغ، والنصح الرشيد، والتوجيه السديد، وتعهدهم فى اختيار الصحبة الواعية، والمعارف النافعة، كل ذلك من وسائل التربية الناجحة.

ولم يرو عن رسول الله ﷺ أنه أمر بعقاب الابن العاق أو الفاسق بحرمانه أو

---

(١) رواه البيهقى. (٢) النحل : العطية والهبة والحديث رواه الطبرانى.

(٣) د. مصطفى عبد الواحد ، الأسرة فى الإسلام ص ٧٦.

(٤) سورة يوسف الآيتان ٨، ٩ والمقصود من القصة العظة وليس المقصود تبرئة أبناء يعقوب.

إنقاصه في الحقوق عن إخوانه، بل إن أمره بالعدل كان مطلقًا يشمل كل الأبناء دون تمييز بين صالح وطالح، ومطيع وعاق، ولم يرو عن أحد من صحابة رسول الله ﷺ أنه كان يميز بين أبنائه بسبب الفسق أو العقوق.

روى أن معاوية بن أبى سفيان رضى الله عنه غضب علي ابنه يزيد مرة، فأرسل إلى الأحنف بن قيس ليسأله عن رأيه في البنين، فقال: هم ثمار قلوبنا، وعماد ظهورنا، ونحن لهم أرض ذليلة، وسماء ظليلة، فإن طلبوا فأعطهم، وإن غضبوا فأرضهم، فإنهم يمنحونك ودهم، ويحبونك جهدهم، ولا تكن عليهم ثقيلاً فيملوا حياتك ويتمنوا وفاتك[1].

● **فتوى الأزهر**

إن واجب الأب نحو أولاده الإحسان إليهم بتأديبهم والعدل فيهم، وفى هذا ما ورواه الترمذى عن أيوب بن موسى عن أبيه عن جده - رضى الله عنهم - عن النبى ﷺ قال: «ما نحل والد ولدا من نحل أفضل من أدب حسن»[2]،

ومـا رواه البخارى ومسلم عن النبى ﷺ قال: «فاتقوا الله واعدلوا فى أولادكم»[3].

وما رواه ابن عباس - رضى الله عنهما - عن النبىﷺ قال: «من كانت له أنثى فلم يئدها، ولم يهنها، ولم يؤثر ولده عليها أدخله الله الجنة»[4].

ثم إن وصية الأب بتفضيل بعض أولاده على بعض من غير سبب - معتبر شرعًا- للتفضيل إضرار فى الوصية، نهى عنه الرسول ﷺ وحذر منه، فقد روى أبو هريرة -رضى الله عنه - عن النبى ﷺ قال: «إن الرجل ليعمل والمرأة بطاعة الله تعالى ستين سنة ثم يحضرهما الموت فيضاران فى الوصية فتجب لهما النار»[5]

---

(١) د. احمد حمد الأسرة ص٢٩٤، ٢٩٠ بتصرف.

(٢) الجامع الصحيح، سنن الترمذى، باب ماجاء فى أدب الولد ٤ / ٢٩٨ دار الكتب العلمية بيروت.

(٣) من الحديث رقم ١٠٤٩ «حديث النعمان بن بشير» اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان ٢ / ١٦٢ باب كراهة تفضيل بعض الأولاد فى الهبة ط دار الحديث.

(٤) رواه أبو داود، جمع الفوائد من جامع الأصول ومجمع الزوائد ٢ / ٤٦٨.

(٥) من حديث رواه الترمذى، الجامع الصحيح سنن الترمذى ٤ / ٣٧٥، باب ما جاء فى الإضرار فى الوصية. ورواه أبو داود فى باب ما جاء فى كراهية الاضرار فى الوصية رواه ابن ماجة فى باب الحيف فى الوصية.

(٦) رواه النسائى مرفوعًا ورجاله ثقات، فتح البارى ٥ / ٢٣٠ ط. الخيرية.

وروى النسائى وغيره عن النبى ﷺ قال : «الإضرار فى الوصية من الكبائر »[٦].

● **اختلاف الفقهاء فى التسوية بين الأولاد فى العطية**

ذهب الحنفية والمالكية والشافعية إلى أن التسوية بين الأولاد فى العطايا مستحبة وليست واجبة ؛ لأن الصديق - رضى الله عنه - فضل عائشة - رضى الله عنها- على غيرها من أولاده فى هبة . وفضل عمر - رضى الله عنه - ابنه عاصما بشىء من العطية على غيره من أولاده ؛ ولأن فى قوله ﷺ فى بعض روايات حديث النعمان بن بشير رضى الله عنهما : «فأشهد على هذا غيرى » ما يدل على الجواز[١].

وذهب الحنابلة[٢] وأبو يوسف من الحنفية ، وهو قول ابن المبارك ، وطاووس ، وهو رواية عن الإمام مالك رحمه الله : إلى وجوب التسوية بين الأولاد فى الهبة . فإن خص بعضهم بعطية ، أو فاضل بينهم فيها ، أثم ، ووجبت عليه التسوية بأحد أمرين :

أ - إما برد ما فضل به البعض. ب - وإما بإتمام نصيب الآخر .

لخبر الصحيحين عن النعمان بن بشير - رضى الله عنهما - قال : وهبنى أبى هبة ، فقالت أمى عمرة بنت رواحة لا أرضى حتى تشهد رسول الله ﷺ .

فقال : يا رسول الله إن أم هذا أعجبها أن أشهدك على الذى وهبت لابنها .

فقال ﷺ : «يا بشير ألك ولد سوى هذا؟» قال : نعم.

قال : «كلهم وهبت له مثل هذا؟» قال : لا ، قال : «فأرجعه».

وفى رواية قال : «اتقوا الله واعدلوا بين أولادكم».

وفى رواية أخرى : «لا تشهدنى على جور إن لبنيك من الحق أن تعدل بينهم».

وفى رواية : «فأشهد على هذا غيرى»[٣].

---

(١) حاشية رد المحتار لابن عابدين على الدر المختار ٥ / ٧٣٥ ، ٧٣٦ وقوانين الأحكام الشرعية ومسائل الفروع الفقهية لابن جزى ص ٣٨٥ ، روضة.

(٢) المغنى لابن قدامة ٦ / ٢٦٢ وما بعدها.

(٣) حديث فارجعه وفى رواية «اتقوا الله واعدلوا» أخرجه البخارى ٥ / ٢١١ ط السلفية. ومسلم ٣ / ١٢٤١ ط الحلبى. والرواية الثانية والرابعة عند مسلم ٣ / ١٢٤٣ ط الحلبى، والرواية الثالثة عند البخارى الفتح ٥ / ٢١١ ط السلفية.

(٤) مجمع الزواد ٤ / ١٥٣ ط دار الكتاب العربى.

وروى عن النبي ﷺ أنه قال [٤] : «سووا بين أولادكم في العطية ، ولو كنت مؤثراً أحداً لآثرت النساء على الرجال».

وأضاف ابن قدامة في المغني [١] : ولنا ما روى النعمان بن بشير قال : تصدق عليَّ أبي ببعض ماله، فقالت أمي عمرة بنت رواحة لا أرضى حتى تشهد عليها رسول الله ﷺ فجاء أبي رسول الله ﷺ ليشهده على صدقته فقال : «أكل ولدك أعطيت مثله؟ »

قال : لا.قال : «فاتقوا الله واعدلوا بين أولادكم».

قال : فرجع أبي فرد تلك الصدقة.

وفي لفظ «فاردده» وفي لفظ قال : «فأرجعه» وفي لفظ «لا تشهدني على جور» وفي لفظ «فأشهد على هذا غيري» وفي لفظ «سر بينهم». وهو حديث صحيح متفق عليه وهو دليل على التحريم لأنه سماه جورا وأمر برده وامتنع عن الشهادة عليه، والجور حرام والأمر يقتضي الوجوب، ولأن تفضيل بعضهم يورث بينهم العداوة والبغضاء وقطيعة الرحم فمنع منه كتزويج المرأة على عمتها أو خالتها.

وقول أبي بكر لا يعارض قول النبي ﷺ ولا يحتج به معه، ويحتمل أن أبا بكر -رضي الله عنه - خصها بعطيته لحاجتها عن الكسب والتسبب فيه مع اختصاصها بفضلها وكونها أم المؤمنين زوج رسول الله ﷺ وغير ذلك من فضائلها.

ويحتمل أن يكون قد نحلها ونحل غيرها من ولده، أو نحلها وهو يريد أن ينحل غيرها فأدركه الموت قبل ذلك.

ويتعين حمل حديثه على أحد هذه الوجوه، لأن حمله على مثل محل النزاع منهي عنه، وأقل أحوال الكراهة، والظاهر من حال أبي بكر اجتناب المكروهات، وقول النبي ﷺ :«فأشهد على هذا غيري» ليس بأمر لأن أدنى أحوال الأمر، الاستحباب والندب، ولا خلاف في كراهية هذا، وكيف يجوز أن يأمره بتأكيده مع أمره برده وتسميته إياه جواراً، وحمل الحديث على هذا حمل

---

(١) ٦/٢٦٣ .

لحديث النبي ﷺ على التناقض والتضاد، ولو أمر النبى ﷺ بإشهاد غيره لامتثل بشير أمره ولم يرده، وإنما هذا تهديد له، وعلى هذا فيفيد ما أفاده النهى عن إتمامه هذا.

وقد ناقش الحافظ ابن حجر [1] فى كتابه فتح البارى بشرح صحيح البخارى أقوال العلماء فى الأحكام المستفادة من حديث النعمان بن بشير، وقال: إنه مما يؤيد وجوب العدل، وتحريم، التفاضل ما جاء فى إحدى روايات الحديث من قول الرسول ﷺ «أرجعه» أى لا تمض الهبة المذكورة.

وإن قوله: أشهد على هذا غيرى، ليس إذنا بالإشهاد على هذه الهبة، وإنما هذه العبارة خرجت مخرج التوبيخ واللوم على تفضيل أحد أولاده على الآخرين كما تدل باقى ألفاظ الحديث على ذلك.

وقد قال ابن حبان إن كلمة «أشهد» صيغة أمر، والمراد به نفى الجواز، ويؤيد هذا تسمية الرسول ﷺ لذلك «جوراً» كما فى الرواية الأخرى وفضلاً عن هذا إطلاق الجور على عدم التسوية وعلى النهى عن التفضيل يدلان على وجوب العدل بين الأولاد فى العطية.

وأجاب الحافظ فى الفتح عن قصة أبى بكر وعائشة والعطية منه إليها بقوله: إن إخوة عائشة كانوا راضين، وكذلك إخوة عاصم بن عمر رضى الله عنهم.

وقد انتهى الشوكانى فى نيل الأوطار [2]. بعد تلخيص ما جاء بشرح الحافظ ابن حجر بقوله: فالحق أن التسوية واجبة وأن التفضيل محرم

لكل ما تقدم كان العدل فى العطايا بين الأولاد وحتماً وحتما مقضيا نزولاً على حكم رسول الله ﷺ فى حديث النعمان بن بشير، وما تقضى باقى النصوص سالفة الذكر.

وقد أجاز الإمام أحمد بن حنبل أن يخص الأب أحد أولاده بعطية لم يمنحها

---

(١) ٥ / ١٣٤-١٣٦.
(٢) ٦ / ٦-٩.
(٣) مأخوذ عن فتوى لفضيلة الإمام الأكبر الشيخ جاد الحق على جاد الحق شيخ الأزهر ردا على سؤال ورد بشأن رجل تصرف فى أمواله لبعض ورثته وحرم البعض من أبنائه - مجلة الأزهر رمضان ١٤١٣هـ ج ٩ السنة الخامسة والستون مارس ١٩٩٣م.

- **الفصاحة**

من الإحسان إلى الأبناء أن تحكى لهم جوانب من فصاحة الفصحاء، وإذا ما ذكر الفصحاء فإننا نجد رأسهم الحبيب المصطفى ﷺ، ففصاحة الرسول ومنطقه الذى يسحر القلوب، ويجمع من الحكم أسماها، فشيء تفوق به على العرب.

فقد كان العرب فى الجاهلية يهتمون بالفصاحة والفصحاء وكان من فصحائهم آنذاك «قُس بن ساعدة الإيادى» وقد عقدت مقارنة [(١)] بين أحسن خطبه وبين خطبة للنبى ﷺ فى نفس الموضوع فوجد البون شاسعاً بين خطبة «قس» وخطبة النبى ﷺ، فقد تفوق النبى ﷺ على «قُس» بمراحل.

قال قُس : "أيها الناس، اسمعوا وعوا، وإذا وعيتم فانتفعوا.

من عاش مات، ومن مات فات، وكل ما هو آت آت! ليل داج، ونهار ساج، وسماء ذات أبراج، ونجوم تَزْهَر، وبحار تَزجر، إن فى السماء لخبرا، وإن فى الأرض لعبرا.

ما بال الناس يذهبون ولا يرجعون؟

أرضوا فأقاموا، أم تركوا فناموا؟

يا معشر إياد، أين الآباء والأجداد، وأين الفراعنة الشداد؟

طحنهم الدهر بكلكله [(٢)]، ومزقهم بتطاوله ! ...."

والمتأمل لهذه الخطبة التى عدها الناس من أفضل خطب قس، وأفضل كلامه، حتى إنهم تناقلوها فى القبائل وتذاكروها. من يتأملها يلاحظ ما يلى :

أ - وجه قُس أنظار قومه وكان - نصرانيًا - إلى ما بعد هذه الحياة الفانية، وذكر لهم أن وراءها عالماً آخر لا يعود منه من يذهب إليه ليحدث الناس بما لاقاه فيه.

ب - لم يحدثنا قس عن شيء مما فى هذا العالم المستور!

جـ - لم يوصِ السامعين بشيء يعملونه فى دنياهم ليستعدوا لهذا العالم، فكان قصارى جُهده أن ذَكَّرَ الناس بعالم ثان سوف ينتقلون إليه.

(١) انظر سيرة النبى العربى للأستاذ أحمد التاجى ٢ / ٥٧٦ - ٥٧٩ بتصرف.

(٢) كلكل البعير : القرص أسفل بطنه يبرك عليه.

ولننظر قول الرسول ﷺ في المعنى الذى قصده «قس» ولم يوفه حقه في حمل الناس على النظر إلى الآخرة والعمل لها.

قال ﷺ : أيها الناس ، إن لكم معالم [1] فانتهوا إلى معالمكم، وإن لكم نهاية فانتهوا إلى نهايتكم.

فإن العبد بين مخافتين؛ أجَلٍ قد مضى لا يدرى ما الله فاعلٌ به، وأجَلٍ قد بقى لا يدرى ما الله قاض فيه!

فليأخذ العبد من نفسه لنفسه، ومن دنياه لآخرته، ومن الشبيبة قبل الكبر، ومن الحياة قبل الممات. فوالذى نفس محمد بيده ، ما بعد الموت من مستعتب [2]، وما بعد الدنيا من دار إلا الجنة أو النار».

إننا لسنا بحاجة إلى أن نقول : أين كلام قس المسجوع كسجع الكهان، من كلام النبى ﷺ ؟

● نموذج ثان

حُكى أن الحجاج سأل يومًا الغضبان بن القبعثرى عن مسائل يمتحنه فيها، من جملتها أن قال له :

من أكرم الناس؟

قال : أفقههم فى الدين، وأصدقهم لليمين، وأبذلهم للمسلمين ، وأكرمهم للمهانين، وأطعمهم للمساكين.

قال : فمن ألأمُ الناس.

قال : المعطى على الهوان، المقتر على الإخوان، الكثير الألوان.

قال : فمن شر الناس ؟

قال : أطولهم جفوة، وأدومهم صبوة، وأكثرهم خلوة، وأشدهم قسوة.

قال : فمن أشجع الناس؟

---

(١) المعالم : علامات الطريق.

(٢) وقت عتاب أو اعتذار.

قال : أضربهم بالسيف، وأقراهم للضيف، وأتركهم للحيف.

قال : فمن أجبن الناس؟

قال : المتأخر عن الصفوف، المنقبض عن الزحوف، المرتعش عند الوقوف، المحب ظلال السقوف، الكاره لضرب السيوف.

قال : فمن أثقل الناس؟

قال : المتفنن فى الملام، الضنين بالسلام، المهذار فى الكلام، المقبقب [1] عن الطعام.

قال : فمن خير الناس؟

قال : أكثرهم إحساناً وأقومهم ميزانا، وأدومهم غفرانا، وأوسعهم ميدانا.

قال : لله أبوك فكيف يُعْرَفُ الرجل الغريب، أحسيب هو أم غير حسيب؟

قال : أصلح الله الأمير، إن الرجل الحسيب يدلك أدبه وعقله وشمائله، وعزة نفسه وكثرة احتماله، وبشاشته وحسن مداورته على أصله، فالعاقل البصير بالأحساب يعرف شمائله، والنذل الجاهل يجهله، فمثله كمثل الدرة إذا وقعت عند من لا يعرفها ازدراها، وإذا نظر إليها العقلاء عرفوها وأكرموها، فهى عندهم لمعرفتهم بها حسنة نفيسة.

فقال الحجاج : لله أبوك، فما العاقل والجاهل؟

فقال : أصلح الله الأمير، العاقل الذى لا يتكلم هذرا، ولا ينظر شذرا، ولا يضمر غدرا، ولا يطلب عذرا، والجاهل هو المهذر فى كلامه، المنان بطعامه، الضنين بسلامه، المتطاول على إمامه، الفاحش على غلامه.

قال : لله أبوك، فما الحازم الكيس؟

قال : المقبل على شأنه، التارك لما لا يعنيه.

قال : فمن العاجز؟

قال : المعجب بآرائه، الملتفت إلى ورائه.

قال : هل عندك من النساء خبر؟

قال : أصلح الله الأمير ، إنى بشأنهن خبير إن شاء الله تعالى ، إن النساء من أمهات الأولاد بمنزلة الأضلاع إن عدلتها انكسرت ، ولهن جوهر لا يصلح إلا على المداراة ، فمن داراهن انتفع بهن وقرت عينه ، ومن شاورهن كدرن عيشه ، وتكدرت عليه حياته ، وتنغصت لذاته ، فأكرمهن أعفهن ، وأفخر أحسابهن العفة ، فإن زلن عنها فهن أنتن من الجيفة »[1]

● نموذج ثالث

ومن الفصحاء الذين يقتدى بهم ابن عباس رضى الله عنه ، فقد لجأ إليه معاوية بن أبى سفيان حينما أرسل إليه هرقل ملك الروم يسأله أسئلة تعجيزية .

سأل : عن الشيء ولا شيء ، وعن دين لا يقبل الله غيره ، وعن مفتاح الصلاة ، وعن غرس الجنة ، وعن صلاة كل شيء ، وعن أربعة فيهم الروح ولم يركضوا فى أصلاب الرجال وأرحام النساء ، وعن رجل لا أب له ، وعن رجل لا أم له ، وعن قبر جرى بصاحبه ، وعن قوس قزح ما هو ، وعن بقعه طلعت عليها الشمس مرة واحدة ولم تطلع عليها قبلها ولا بعدها ، وعن ظَعَّان ظعن مرة واحدة ولم يظعن قبلها ولا بعدها ، وعن شجرة نبتت من غير ماء ، و عن شيء تنفس ولا روح له ، وعن اليوم وأمس وغد وبعد غد ، وعن المحو الذى فى القمر .

فقيل لمعاوية : لست هناك ، ومتى أخطأت فى شيء من ذلك سقطت من عينه ، فاكتب إلى ابن عباس يخبرك عن هذه المسائل .

فكتب إليه فأجابه :

أما الشيء : فالماء ، قال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ﴾[2]

وأما لاشيء : فإنها الدنيا تبيد وتفنى .

وأما دين لا يقبل الله غيره : فلا إله إلا الله .

---

(١) المستطرف فى كل فن مستظرف للأبشيهى ص٥٥، ٥٦ .

(٢) سورة الأنبياء الآية ٣٠ .

وأما مفتاح الصلاة : فالله أكبر

وأما غرس الجنة : فلا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم.

وأما صلاة كل شيء : فسبحان الله وبحمده

وأما الأربعة الذين فيهم الروح ولم يركضوا في أصلاب الرجال وأرحام النساء : فآدم وحواء وناقة صالح وكبش إسماعيل.

وأما الرجل الذى لا أب له : فالمسيح (عليه السلام)

وأما الرجل الذل لا أم له ؟: فآدم عليه السلام.

وأما القبر الذى جرى بصاحبه : فحوت يونس عليه السلام سار به في البحر.

وأما قوس قزح : فأمان من الله لعباده من الغرق.

وأما البقعة التى طلعت عليه الشمس مرة واحدة : فبطن البحر حين انفلق لبنى إسرائيل.

وأما الظاعن الذى ظعن مرة ولم يظعن قبلها ولا بعدها : فجبل طور سيناء كان بينه وبين الأرض المقدسة أربع ليال، فلما عصت بنو إسرائيل أطاره الله تعالى بجناحين، فنادى مناد إن قبلتم التوراة كشفته عنكم وإلا ألقيته عليكم، فأخذوا التوراة معذرين، فرده الله تعالى إلى موضعه، فذلك قول تعالى : ﴿ وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ ﴾ [١]

وأما الشجرة التى تنبت من غيرماء : فشجرة اليقطين [٢] التى أنبتها الله تعالى على يونس عليه السلام.

وأما الشيء الذى يتنفس بلا روح : فالصبح ، قال الله تعالى : ﴿ وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾ ﴾ [٣]

وأما اليوم : فعمل، وأمس : فمثل، وغد : فأجل، وبعد غد : فأمل.

---

(١) سورة الأعراف الآية ١٧١ .

(٢) اليقطين : القرع.

(٣) سورة التكوير الآية ١٨ .

وأما المحو في القمر : فقوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً ﴾ [1] ولولا ذلك المحو لم يعرف الليل من النهار ولا النهار من الليل [2]

● **في الآداب والحكم وما أشبه ذلك**

ومن تمام الفصاحة أن نحسن إلى أبنائنا بتعليمهم وتهذيبهم بالحكم قال الحكماء :

إذا أراد الله بعبد خيراً ألهمه الطاعة ،وألزمه القناعة ، وفقهه في الدين ، وعضده باليقين ،فاكتفى بالكفاف ، واكتسى بالعفاف .

وإذا أراد به شراً حبب إليه المال ، وبسط منه الآمال ، وشغله بدنياه ووكله إلى هواه . فركب الفساد وظلم العباد .

الثقة بالله أزكى أمل والتوكل عليه أوفى عمل . من لم يكن له من دينه واعظ لم تنفعه المواعظ . ومن سره الفساد ساءه المعاد . كل يحصد ما زرع ويجزى بما صنع .لا يغرنك صحة نفسك وسلامة أمسك ، فمدة العمر قليلة وصحة النفس مستحيلة . من أطاع هواه باع دينه بدنياه .

ثمرةالعلوم العمل بالمعلوم . من رضى بقضاء الله لم يسخطه أحد ، ومن قنع بعطائه لم يدخله حسد .

أفضل الناس من لم تفسد الشهودة دينه . خير الناس من أخرج الحرص من قلبه ،وعصى هواه في طاعة ربه . نصرة الحق شرف ونصرة الباطل سرف .

البخيل حارس نعمته خازن لورثته . من لزم الطمع عدم الورع . إذا ذهب الحياء حل البلاء . علم لا ينفعك دواء لا ينجع .

من جهل المرء أن يعصى ربه في طاعة هواه ، ويهين نفسه في إكرام دنياه .

أيام الدهر ثلاثة : يوم مضى لا يعود إليك ، ويوم أنت فيه لا يدوم عليك ، ويوم مستقبل لا ندرى ما حاله ولا نعرف من أهله .

---

(١) سورة الإسراء ١٢ .

(٢) المرجع السابق ص ٥٥ .

من كثر ابتهاجه بالمواهب اشتد انزعاجه للمصائب. لاتبت على غير وصية وإن كنت من جسمك فى صحة، ومن عمرك فى فسحة.

عظ المسيء بحسن أفعالك ودل على الجميل بجميل خلالك. إياك وفضول الكلام فإنه يظهر من عيوبك ما بطن [١]، ويحرك من عدوك ما سكن.

لا يجد العجول فرحاً ولا الغضوب سروراً ولا الملوم صديقاً. حسن النية من العبادة. حسن الجلوس من السياسة. ومن زاد فى خلقه نقص فى حظه.

من ائتمن الزمان خانه. أظهر الناس محبة أحسنهم لقاء. لا يكمل للإنسان دينه حتى يكون فيه أربع خصال: يقطع رجاءه مما فى أيدى الناس، ويسمع شتم نفسه ويصبر، ويحب للناس ما يحب لنفسه، ويثق بمواعيد الله.

إياك والحسد فإنه يفسد الدين، ويضعف اليقين، ويذهب المروءة.

قيل لأفلاطون : ما الشيء الذى لا يحسن أن يقال، وإن كان حقاً؟ قال : مدح الإنسان نفسه.

أربعة تؤدى إلى أربعة، الصمت إلى السلامة، والبر إلى الكرامة، والجود إلى السيادة، والشكر إلى الزيادة.

من ساء تدبيره أهلكه جده [٢]. الغرة [٣] ثمرة الجهل. آفة القوة استضعاف الخصم، آفة النعم قبيح المن، آفة الذنب حسن الظن.

الحزم أسد الآراء والغفلة أضر الأعداء. من قعد عن حيلته أقامته الشدائد، ومن نام عن عدوه أيقظته المكايد.

من قرب السفلة وأطرح ذوى الأحساب والمروءات استحق الخذلان. من عفا تفضل، من كظم غيظه فقد حلم. ومن حلم فقد صبر، ومن صبر فقد ظفر.

من ملك نفسه عن أربع حرمه الله على النار، حين يغضب وحين يرغب وحين يرهب وحين يشتهى. من طلب الدنيا بعمل الآخرة فقد خسرهما، ومن طلب الآخرة بعمل الدنيا فقد ربحهما.

---

(١) بطن : خفى. (٢) جده : حظه.

(٣) الغرة : من الغرار أو الغفلة.

كلام المرء بيان فضله وترجمان عقله فاقصره على الجميل، واقتصر منه على القليل. كل امرىء يعرف بقوله ،ويوصف بفعله فقل سديداً وافعل حميداً .

من عرف شأنه وحفظ لسانه وأعرض عما لا يعنيه وكف عن عرض أخيه دامت سلامته ،وقلت ندامته . كن صموتاً وصدوقاً، فالصمت حرز، والصدق عز . من أكثر مقاله سئم، ومن أكثر سؤاله حرم. من استخف بإخوانه خذل، ومن اجترأ على سلطانه قتل.

ما عز من أذل جيرانه، ولا سعد من حرم إخوانه، خير النوال [١] ما وصل قبل السؤال. أولى الناس بالنوال أزهدهم في السؤال.

من حسن صفاؤه وجب اصطفاؤه. من غاظك بقبيح الشتم منه فغظه بحسن الحلم عنه. من يبخل بماله على نفسه جاد به على زوج عرسه.

إذا اصطنعت المعروف فاستره، إذا اصطنع إليك فانشره. من جاور الكرام أمن من الإعدام. من طاب أصله زكا فرعه . من أنكر الصنيعة استوجب القطيعة. من منَّ [٢] بمعروفه سقط شكره، ومن أعجب بعمله حبط أجره. من رضى من نفسه بالإساءة شهد على أصله بالرداءة. من رجع في هبته بالغ في خسته . من رقى في درجات الهمم عظم في عيون الأمم. من كبرت همَّته كثرت قيمته . من ساء خلقه ضاق رزقه. من صدق في مقاله زاد في جماله. من هان عليه المال توجهت إليه الآمال. من جاد بماله جل، ومن جاد بعرضه ذل. خير المال ما أخذ من الحلال، وصرف في النوال، وشر المال ما أخذ من الحرام، وصرف في الآثام. أفضل المعروف إغاثة الملهوف. من تمام المروءة أن تنسى الحق لك، وتذكر الحق عليك، وتستكبر الاساءة منك، وتستصغرها من غيرك. من أحسن المكارم عفو المقتدر .جود الرجل يحببه إلى أصدقائه، وبخله يبغضه إلى أودائه [٣] .

لا تسيء إلى من أحسن إليك، ولا تعن على من أنعم عليك. من كثر ظلمه واعتداؤه قرب هلاكه وفناؤه. من طال تعديه كثرت أعادية.

---

(١) النوال : العطاء. (٢) منَّ : عدَّدَ وذكر معروفه.

(٣) أودائه : أحبابه.

شر الناس من ينصر الظلوم، ويخذل المظلوم. من حفر حفيراً لأخيه كان حتفه فيه. من سل سيف الدعوان أغمد فى رأسه. من لم يَرْحَم العبرة سلب النعمة، ومن لم يُقلِ العثرة سلب القدرة. لا تحاج من يذهلك خوفه، ويملكك سيفه. صمتُ تسلم به خير من كلام تندم عليه. من قال مالا ينبغى سمع مالا يشتهي. جرح الكلام أصعب من جرح الحسام. من سكت عن جاهل فقد أوسعه جوابا، وأوجعه عتاباً. من أمات شهوته أحيا مروءته. من كثرت عوارفه كثرت معارفه.

من لم تقبل توبته عظمت خطيئته. إياك والبغى فإنه يصرع الجال، ويقطع الآجال. الناس فى الخير أربعة أقسام : منهم من يفعله ابتداء، ومنهم من يفعله اقتداء، ومنهم من يتركه حرماناً، ومنهم من يتركه استحساناً، فمن فعله ابتداء فهو كريم، ومن فعله اقتداء فهو حكيم، ومن تركه حرماناً فهو شقى، ومن تركه استحساناً فهو دنى. من سالم سلم، ومن قدم الخير غنم، ومن لزم الرقاد عدم المراد. ومن دام كسله خاب أمله.

العجول مخطئ وإن ملك، والمتأني مصيب وإن هلك. من أمارات الخذلان معاداة الإخوان. استفساد الصديق من عدم التوفيق. الرفق مفتاح الرزق. من نظر فى العواقب سلم من النوائب، ومن أسرع فى الجواب أخطأ فى الصواب. من ركب العجل أدركه الزلل. من ضعفت آراؤه قويت أعداؤه. من قَلَّت فضائله ضعفت وسائله. من فعل ما شاء لقى ما ساء. من كثر اعتباره قل عثاره. من ركب جده غلب ضده. القليل مع التدبير أبقى من الكثير مع التبذير. ظن العاقل أصح من يقين الجاهل. قليل تحمد آخرته خير من كثير تذم عاقبته. من خاف سطوتك تمنى موتتك.

إذا استشرت الجاهل اختار لك الباطل. من أعجبته آراؤه غلبته أعداؤه. من قصر عن السياسة صغر عن الرياسة. لاتشتك ضعفك إلى عدوك، فإنك تشمته بك، وتطمعه فيك. من لم يعمل لنفسه عمل للناس، ومن لم يصبر على كده صبر على الإفلاس.

من أفشى سره أفسد أمره. الحازم من حفظ ما في يده، ولم يؤخر شغل يومه لغده. من طلب ما لايكون طال تعبه. لاتفتح باباً يعييك سده، ولا ترم سهمًا يعجزك رده. سوء التدبير سبب التدمير.

أغمد سيفك ما ناب عنك لسانك. ليس العجب من جاهل يصحب جاهلاً، ولكن العجب من عاقل يصحبه، لأن كل شيء يفر من ضده، ويميل إلى جنسه. إذا نزل القدر بطل الحذر، رب عطب تحت طلب، ومنية تحت أمنية. لا يخلو المرء من ودود يمدح، وعدو يقدح.

الجوع خير الخضوع .الكذوب متهم إن صدقت لهجته، ووضحت حجته. من طاوعه طرفه اشتد حتفه. من لم تسر حياته لم تغم وفاته. من أعظم الذنوب تحسين العيوب. الشرف بالهمم العالية لا بالرمم البالية. إذا ملك الأراذل هلك الأفاضل. من ساءت أخلاقه طاب فراقه. من حسنت خصاله طاب وصاله.

بُعْدٌ يورث الصفا خير من قرب يوجب الجفا. اللسان سيف قاطع لا يؤمن حده، والكلام سهم نافذ لا يمكن رده. من اطلع على جاره انهتكت حجب أستاره. أجهل الناس من قل صوابه، وكثر إعجابه. أظهر الناس نفاقًا من أمر بالطاعة، ولم يأتمر بها، ونهى عن المعصية، ولم ينته عنها.

من سلا عن المسلوب كمن لم يسلب، ومن صبر على النكبة كمن لا ينكب ،الفضيلة كشرة الآداب بفراهة [1] الدواب.من زادت شهوته نقصت مروءته. من عرف بشيء نسب إليه، من اعتاد شيئًا حرص عليه.

عند الجدال يظهر فضل الرجال. من أخر الأكل لذ طعامه، ومن أخر النوم طاب منامه. موت في دولة وعز خير من حياة في ذلة وعجز. مقاساة الفقر هي الموت الأحمر، ومسأله الناس هي العار الأكبر. حق يضر خير من باطل يسر. كم من مرغوب فيه يسوء ولا يسر، ومرهوب منه ينفع ولا يضر.

عثرة الرجل تزيل القدم، وعثرة اللسان [2] تزيل النعم. من حلم ساد ومن تفهم ازداد. معاشرة ذوى الألباب عمارة القلوب. شر ما صحب المرء الحسد ربما أصاب الأعمى رشده ،وأخطأ البصير قصده.

---

(١) الفراهة : يقال حيوان فره أى أشر وبطر. (٢) العثرة : الزلل.

اليأس خير من التضرع إلى الناس. لا تكن ضاحكاً فى غير عجب ولا ما شيًا فى غير أرب. من سعى بالنميمة حذره القريب ومقته الغريب. الاستشارة عين الهداية، وقد خاطر من استبد برأيه. أشرف الغنى ترك المنى. من ضاق خلقه مله أهله. الحسد للصديق من سقم المودة. كل الناس راض عن عقله. دنياك كلها وقتك الذى أنت فيه. استر سوأة أخيك، لما يعلم فيك. خمول الذكر أسنى من الذكر الذميم. العجلة أخت الندامة.

مَنْ كَرُمَ أصله لان قلبه ومن قلَّ لبه [1] زاد عجبه. ليس لمعجب رأى، ولا لمتكبر صديق. سل عن الرفيق قبل الطريق، وعن الجار قبل الدار. لا تعادين أحدا، فإنك لاتخلو من عداوة جاهل أو عاقل، فالحذر من حكمة العاقل وجهل الجاهل. ضَاحكٌ مُعْتَرِف بذنبه خير من باك مدل على ربه. من قلَّ سروره كان الموت راحته. لاتردن على ذى خطأ خطأه، فيستفيد منك علماً، ويتخذك عدوا. استحى من ذم من لو كان حاضراً لبالغت فى مدحه ومدح من لو كان غائبا لسارعت إلى ذمه.

وقيل: المنفعة توجب المحبة، والمضرة توجب البغضة، والمخالفة توجب العداوة، والمتابعة توجب الألفة، والعدل يوجب اجتماع القلوب، والجور يوجب الفرقة، وحسن الخلق يوجب المودة، وسوء الخلق يوجب المباعدة. والانبساط يوجب المؤانسة، والانقباض يوجب الوحشة، والكبر يوجب المقت [2]، والتواضع يوجب الرفعة، والجود يوجب المدح، والبخل يوجب الذم، والتوانى يوجب التضييع، والحزم يوجب السرور، والحذر يوجب السلامة، وإصابة التدبير توجب بقاء النعمة، وبالتأنى تسهل المطالب، وبحسن المعاشرة تدوم المحبة، ويخفض الجانب تأنس النفوس، وبسعة خلق المرء يطيب عيشه، والاستهانة توجب التباعد، وبكثرة الصمت تكون الهيبة، وبعدل المنطق تجلب الجلالة، وبالنصفة [3] تكثر المواصلة، وبالأفضال يعظم القدر، وبصالح الأخلاق تزكو الأعمال، وباحتمال المؤن يجب السؤدد، وبالحلم على السفيه تكثر أنصارك عليه. وبالرفق والتودد تستحق اسم الكرامة وبترك مالا يعنيك يتم لك الفضل.

---

(١) لبه: عقله، والعجب: الغرور والجهل.

(٢) المقت: البغض والكراهية.

(٣) النصفة: العدل والإنصاف.

واعلم أن السياسة تكسو أهلها المحبة. من صغر الهمة الحسد للصديق على النعمة. والنظر في العواقب نجاة. ومن لم يحلم ندم. ومن صبر غنم. ومن سكت سلم. ومن اعتبر أبصر ، ومن أبصر فهم ، ومن فهم علم.

ومن أطاع هواه ضل. ومع العجلة الندامة ومع التأني السلامة. وزارع البر يحصد السرور. وصاحب العقل مغبوط. وصداقة الجاهل تعب. إذا جهلت فاسأل ، وإذا زللت فارجع ، وإذا أسأت فاندم ، وإذا ندمت فأقلع. المروءات كلها تبع للعقل ، والرأى تبع للتجربة والعقل أصله التثبت وثمرته السلامة ، والأعمال كلها تتبع القدر.

واختار العلماء أربع كلمات من أربعة كتب فمن التوراة : من قنع شبع.

ومن الإنجيل : من اعتزل نجا.

ومن الزبور[1] : من سكت سلم.

ومن القرآن : ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم.

واجتمعت حكماء العرب والعجم على أربع كلمات ، لا تحمل بطنك مالا بطيق ، ولا تعمل عملاً لا ينفعك ، ولاتغتر بامرأة ، ولاتثق بمال ولو كثر.

والله تعالى أعلم.

• تزويج الابناء

من الإحسان إلى الأبناء تزويجهم لإعفافهم ، فقد رغب الإسلام في الزواج وحث عليه بأساليب متعددة وصور متنوعة ، لأنه من سنن المرسلين ، وهدى الأنبياء ، وهم القادة الذين يجب على كل مسلم أن يقتدى بهداهم ، قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً ﴾ [2]

ولقد حث القرآن الكريم على الزواج فقال تعالى : ﴿ وَأَنكِحُوا الْأَيَامَىٰ مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٣٢) ﴾ [3]

---

(١) الزبور : كتاب داود عليه السلام. (٢) سورة الرعد الآية ٣٨.

(٣) سورة النور الآية ٣٢.

وحثت السنة المطهرة [1] على المسارعة بتزويج الشباب، فالزواج سبب من أسباب الاستقرار النفسى والإشباع الغريزى الفطرى عن طريق نظيف مشروع، وذلك حتى يسلم الشباب من الانحلال الخلقى وشيوع الفاحشة والاتصال الحرام وتفشى الأمراض الفتاكة بطاقات الشباب والتى تقضى على النسل وتوهن القوة، وتنشر الوباء، وتكون سبب العداوة والبغضاء. فعن عبد الله رضى الله قال : كنا مع النبى ﷺ شباباً لانجد شيئًا، فقال لنا رسول الله ﷺ : «يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج، فإنه أغض للبصر، وأحصن للفرج، ومن لم يستطيع فعليه بالصوم فإنه له وجاء» [2]

واهتم الصحابة رضى الله عنهم بتزويج الشباب، فكانوا يحثون الآباء على تزويج أبنائهم، فيقول عمر رضى الله عنه : زوجوا أولادكم إذا بلغوا ولاتحملوا آثامهم [3]

فحياة الإنسان فرداً فى هجير الحياة يواجه وحده ظروفها أمر لايرضاه الإسلام .

• الخاتمة

إن علينا مسئولية كبرى، وفى أعناقنا أمانة عظمى، سَنُسْأل عنها يوم يبعث الله الأولين والآخرين، فإن الله سائل كل راع عما استرعاه حفظ أم ضيع.

إن أولادنا أمانة فى أعناقنا وهم فلذات أكبادنا، فواجبنا أن نتقى الله فيهم وذلك بتوجيههم إلى الأعمال الصالحة، والأخلاق الفاضلة، فإن هؤلاء الأولاد سيكونون فى المستقبل رجالاً، فإذا تربوا على طاعة الله، وتعودوا الأخلاق الصالحة التى ترفع مقامهم وتعلى شأنهم، وحصلوا من العلوم النافعة ما ينفعون به أنفسهم وينفعون به عباد الله، كانوا أساسا مكينا لنهضة الأمة، وهذا أمر لا يختلف فيه اثنان.

وإن كانوا - عياذا بالله - غير ذلك، كانوا ضرراً على أنفسهم وعلى أمتهم.

إن التربية أمر عظيم الخطر كبير القيمة، والطفل أمانة عند والديه، وقلبه الطاهر جوهرة نفسية خالية من كل نقش وصورة، فإن عُوِّدَ الخير وَعُلِّمَه نشأ عليه وسعد فى الدنيا والآخرة، وشاركه فى ثوابه أبواه وكل مؤدِّب ومعلم له، وإن عود الشر وأُهمل وتُرِك بلاعناية، شقى وهلك وكان على وليِّه وراعيه ما يستحق من الإثم.

(١) منهج السنة النبوية فى تربية الإنسان د. بدير محمد بدير ص١١٩ .

(٢) رواه البخارى ومسلم وغيرهما. (٣) ابن الجوزى فى مناقب عمر.

فالتربية هي غرس الدين الإسلامي ومحبته وآدابه قولاً وعملاً واعتقاداً، وغرس الأخلاق الفاضلة في نفوس الناشئين وسقيها بماء الإرشاد والنصيحة والتوجيه إلى كتاب الله وسنة رسوله، واتباع سبيل السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار ومن حذا حذوهم.

وقد أجمع العقلاء على أن الإنسان بحاجة إلي التربية، فهو يولد صغيراً مجرداً عن كل المميزات، قابلاً لكل نقش، مستعداً لكل ما يلقى إليه من تعليم، ويحاط به من تثقيف.

والوالدان هما الراعيان لولدهما، المسئولان عنه لدى الله والناس، فإن أحسنا تأديبه وعوداه الخير وأنشآه عليه سعد في دنياه وأخراه ونال أمنيته ومبتغاه، وكان لوالديه وكل من اشترك في تعليمه، وساهم في تهذيبه أجره عند الله.

وإن أهمله والداه ولم يرعيا حق الله فيه، كان إثمهما كبيرا، وسؤالها خطيرا.

إذا أهمل الولد في ابتداء نشأته وأول رعرعته وتمييزه، خرج خبيث الطبع سيئ الأخلاق، محتالاً لصا كثير الهذيان وفضول الكلام، يتدخل فيما لا يعنيه، بذيء اللسان، مغتابا نماما وقحا بعيدا عن التقوي والطاعة قريبا من الفسوق والفجور.

إن تربية الأولاد وتعليمهم لأمر عظيم له شأنه الأكبر، وخطره الجسيم في حياتنا الدينية والاجتماعية والخلقية، فهم قوى المجتمع المنتظر، ودعائمه التي سيقوم عليها، وعليهم وحدهم يتوقف رقي الأمة الحقيقي، وتقدمها ونموها.

وإن أمامهم لخطر عظيم، وغزو هائل مستتر ببعض الثقافات لهدم عقائدهم، وفساد أخلاقهم، وانتزاع روح الإباء والغيرة والعفاف من نفوسهم.

وإن مشكلتهم اليوم لهي أم المشاكل، فلأن نخسر الأموال والأنفس أيسر وأهون من أن نخسر روح نشئنا المعنوية، وعقائدهم الصحيحة.

فاتقوا الله عباد الله في ثمرات قلوبكم، وفلذات أكبادكم، ولا تهملوا تربيتهم تربية إسلامية، ولا تتساهلوا في ذلك [1].

والله يعينكم ويوفقكم.

---

(١) انظر موارد الظمآن لدروس الزمان عبد العزيز المحمد السلمان ٢ / ٦٨٣ وما بعدها بتصرف.

الإحسان إلى النفس
بالإحسان إلى اليتامى

من الإحسان إلى النفس الإحسان إلى نوع أخر من الأبناء هم : اليتامى، قال تعالى : ﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالاً فَخُورًا (٣٦) ﴾[1].

فى الآية الكريمة أن من عناصر الترابط الإنسانى الإحسان إلى اليتامى الذين فقدوا الوالد الساعى على أرزاقهم وكفايتهم وهم صغار لا يقوون على تزاحم السعي والكسب.

وبفقد الوالد فقد فقدوا عاطفة الأبوة وحمايتها من عاديات الأحداث، فهم أحوج إلى الإحسان والبر بما يشعرهم أنهم لا يزالون فى الأسرة الإنسانية بمكانتهم من البنوة الموروثة.

وقد عنى الإسلام بكفالة اليتامى وتربيتهم عناية تسمو بهم عن مواطن الذلة والهوان، وترفعهم إلى أن يكونوا صالحين فى الأمة، وأفرادًا عاملين ينتفع بهم المجتمع.

وقد أعطى النبى ﷺ كافل اليتيم، المحسن إليه سواء فى التربية والتعليم أم فى غيرهما منزلة رفيعة فقال ﷺ : «كافل اليتيم له أو لغيره - أى قريبًا أو أجنبيًا عنه - أنا وهو كهاتين فى الجنة» وأشار ﷺ بأصبعيه السبابة والوسطى.

قال العلماء : الإحسان إلى اليتيم الذى يستحق عليه كافله هذه الدرجة هو الإحسان الذى يجعل اليتيم بمنزلة ولد الإنسان من صلبه فى الإكرام وحسن التربية والتعليم، فيعلمه من الدنيا ما ينفعه فى حياته من صناعة أو تجارة، ويعلمه من أمر الآخرة ما يحفظ دينه واستقامته، ويؤدبه كما يؤدب ولده بالزجر والضرب الخفيف إن رأى حاجة إلى ذلك.

---

(١) سورة النساء الآية ٣٦.

ومن الإحسان إلى اليتيم حفظ ماله إن كان له مال وتثميره بالتجارة حتى لا تأكله النفقات، وإذا بلغ مبلغ الرجال زوجه من كفئه، وأقام له ما يصلحه فيعرسه بقدر حاله وحال من يزوجه منها، وكل ذلك بالمعروف فى غير تقتير ولا إسراف [1].

وإن فى كفالة اليتيم والإحسان إليه فضل عظيم يجده من وفقه الله للقيام به ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا (٣٠) ﴾ [2]

﴿ هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ (٣٠) ﴾ [3]

﴿ يَوْمَ يَنظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ (٤٠) ﴾ [4].

واليتامى : جمع يتيم، مثل : ندامى جمع نديم، واليتيم فى بنى آدم بفقد الأب، وفى البهائم بفقد الأم،وحكى الماوردى أن اليتيم يقال فى بنى آدم فى فقد الأم،والأول المعروف، وأصله الانفراد؛ يقال : صبى يتيم : أى منفرد من أبيه، وبيت يتيم : أى ليس قبله ولا بعده شىء من الشعر. ودرة يتيمة : ليس لها نظير.

وقيل : أصله الإبطاء؛ فسمى به اليتيم لأن البر يبطئ عنه [5].

ومن مظاهر خلق الرحمة إكرام اليتيم بل هنا تظهر الرحمة فى أعطف وأحنى وأكرم مظاهرها.

إن اليتامى صنف من الضعفاء فقدوا ظهيرهم ونصيرهم وأعطف الناس وأحناهم عليهم، وفقدوا راعيهم المزود فطريًا بالحنان والعطف عليهم، مع حب غير مشوب غالبًا بأخلاط الأنانية والمصلحة الخاصة، ومع رغبة بالتضحية والعطاء والفداء، ومع حرص شديد على إبلاغهم مبلغ الرشد والكمال، والنضج والقوة، والدرجات العاليات فى كل أمر نافع، وفى كل عمل رافع، وفى كل ارتقاء مجيد.

---

(١) الموسوعة فى سماحة الإسلام للشيخ محمد الصادق عرجون ٢ / ٧٠٩ . ٧١٠ .

(٢) سورة آل عمران الآية ٣٠ .

(٣) سورة يونس الآية ٣٠ .

(٤) سورة النبأ الآية ٤٠ .

(٥) الجامع لأحكام القرآن للقرطبى ٢ / ١٤ .

وإذ يفقد اليتامى راعيهم الحانى فطريًا عليهم يكونون عرضة للإهمال من جهة، ومطمعًا للبغاة من جهة أخرى.

وإن مما يذرف الدمع من العين ساخناً ساعة الموت صبية صغاراً، وذرية ضعفاء يخلفهم الميت وراءه، يخشى عليهم من مصائب الدنيا وصروفها، ويتمنى وصيًا مرشدًا يقوم مقامه، يرعاهم كرعايته، ويسوسهم كسياسته، يعزيهم بره ولطفه عن أبيهم الراحل، ويجدون عنده من العناية والقيام بمصالحهم ما يكون بإذن الله سبباً لإخراجهم رجالاً فى الحياة يملؤون العيون ويشرحون الصدور [1].

هل رأيت ذلك اليتيم وقد جللت وجهه سحابة من الحزن، أو غمامة دكناء من الشعور بالذلة والانكسار، إنْ مرح زملاؤه أولعبوا، أو أخذتهم نشوة من الفرح فطربوا، أو جرى فى وجوههم دم الطفولة البريئة، أو ماء الصبا الرقراق، كما هو - مع ذلك كله - كأنه العود الصغير من الزرع، جف عنه الرى وانقطع عنه الغذاء، فسارع إليه الذبول، وتخلت عنه الحياة، إلا أنه ظل فى مكانه يحسبه الناس حيًا، ويظنونه متهيئًا لمستقبل حافل بالأمانى والأحلام، وهو هيكل لا يحس.

إن كنت قد رأيته ففاضت عينك بالدموع، وثار قلبك من الجزع، وملأت الحسرة نفسك، وأسفت على تلك الإنسانية المعذبة، يتخلى عنها المجتمع الظالم، فلا يمسح دموعها، ولا يأخذ بيدها إلى سبيل النجاة من المهالك، والسلامة من الأذى، والبغض للدنيا، والنفور من الحياة .. فذلك هو اليتيم.

إذا كان للنجاح فى هذا الميدان الصاخب، والمعترك المائج، والميدان الذى يتصارع فيه على بقاء كل كائن حى، وسائل من القوة، ووشائج من الحيلة، فإن انكسار النفس باليتم وهوانها على الناس، لا يجعل هذا النجاح نجاحًا، ولايضفى عليه الثوب الذى يظهر بمظهر البهجة، أو الارتياح، أو لون اللذة والاغتباط [2].

من أجل كل ذلك بادرهم الإسلام بالرعاية الجماعية من قبل المجتمع الإسلامى

(١) موارد الظمآن لدروس الزمان، للشيخ عبد العزيز المحمد السلمان ٢ / ٤٥٨، ٤٥٩.

(٢) من فيض الرسالة للدكتور إبراهيم على أبو الخشب ص ٣٠، ٣١.

المحيط بهم تعويضًا لهم عما فقدوه؛ فأوصى الإسلام المسلمين برعاية اليتامى، وبذل الحنان والعطف لهم والمبالغة في إكرامهم، وحسن تربيتهم وتأديبهم، وأمر بكفالتهم، وإدارة أموالهم بأمانة تامة، ورعاية حازمة بصيرة، وحذر من استغلال موقف الضعف الذي هم فيه تحذيرًا شديدًا، وتهدد الذين يأكلون أموال اليتامى ظلمًا بالوعيد الشديد، وبالنار التي تكوى ما في البطون.

لذا فالذي يكفل اليتيم ويتعهده ويلاحظه ويؤدبه ويهذب نفسه، وتطمئن قلوب أقاربه إذا رأوه وكأن والده حي، لا يفقد من والده إلا جسمه، فلا غرو أن كان مكانه عند الله عظيمًا، وكان حريًا أن يكون لرسول الله ﷺ صاحبًا في الجنة يتمتع بما فيها من النعيم المقيم، كما قام بما وفقه الله له من رعاية اليتيم.

قال ﷺ: «من ضم يتيمًا من بين المسلمين إلى طعامه وشرابه حتى يغنيه الله عز وجل غفرت له ذنوبه».

وقد جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال له: إن في حجري يتيمًا آآكل من ماله؟.

قال: «نعم غير جامع مالاً ولا واق مالك بماله».

قال: يارسول الله أفأضربه؟ قال: «ما كنت ضاربًا منه ولدك»[(1)].

وحين نستعرض النصوص الإسلامية التي تعرضت لأحوال اليتامى نلاحظ أنها توصى بإعطاء اليتيم وإطعامه، والإحسان إليه وإكرامه، وكفالته والرأفة به، ومؤاخاته عند مخالطته، والقسم له من الفيء والغنائم.

وتنهى عن دعه وطرده، وتحذر من مغبة ظلمه في نفسه أو ماله.

وهكذا تهتم بشأن اليتيم اهتمامًا بالغًا.

وإلى النصوص الإسلامية لنرى موقف الإسلام من هذا الصنف من الناس.

- **النبي ﷺ يتيم**

يقول الله تبارك وتعالى لحبيبه ومصطفاه محمدًا ﷺ: ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ (٦) وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ (٧) وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ (٨) فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ (٩) وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ (١٠) وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ (١١) ﴾[(2)].

---

(١) الشيخ عبد الرحمن الميداني، الأخلاق الإسلامية وأسسها ٢ / ٤٧، ٤٨.

(٢) سورة الضحى الآيات ٦-١١.

﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ﴿٦﴾ ﴾ أى ألم تكن يتيمًا لا أب لك يعنى بتربيتك، ويقوم بشئونك، ويهتم بتنشئتك؛ فما زال يحميك ويتعهدك برعايته، ويجنبك أدناس الجاهلية وأوضارها حتى رقيت إلى ذروة الكمال الإنسانى.

وقد عاش النبى ﷺ يتيمًا، إذ توفى أبوه وهو فى بطن أمه، فلما ولد عطَّفَ الله عليه قلب جده عبد المطلب، فمازال يكفله خير كفالة حتى توفى والنبى ﷺ يومئذ فى سن الثامنة، فكفله أبو طالب بوصية من عبد المطلب، فكان به حفيًا، شديد العناية بأمره، ومازال يتعهده حتى كبر وترعرع، ثم أرسله الله رسولاً، فقام يؤازره وينصره، ويدفع عنه أذى قريش إلى أن مات، فاستطاعت قريش أن تنال منه، وتجرأ عليه سفهاؤهم، وسلطوا عليه غلمانهم حتى اضطروه إلى الهجرة.

ولو تدبر المنصف فى رعاية الله له، وحياطته بحفظه وحسن تنشئته، لوجد من ذلك العجب، فلقد كان اليتم وحده مدعاة إلى المضيعة وفساد الخلق؛ لقلة من يحفل باليتيم ويحرص عليه، وكان فى خلق أهل مكة وعاداتهم ما فيه الكفاية فى إضلاله لو أنه سار سيرتهم، لكن عناية الله كانت ترعاه، وتمنعه السير على نهجهم، فكان الوفى الذى لا يمين، والأمين الذى لا يخون، والصادق الذى لا يكذب، والطاهر الذى لم يدنس برجس الجاهلية [1].

• **يتم النبى ﷺ سلوى لكل يتيم**

وعن قول الحق تبارك وتعالى : ﴿ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴿٩﴾ ﴾ يقول القرطبى [2] : دلت الآية على اللطف باليتيم وبره والإحسان إليه؛ حتى قال قتادة : كن لليتيم كالأب الرحيم.

وروى عن أبى هريرة أن رجلاً شكا إلى النبى ﷺ قسوة قلبه، فقال : «إن أردت أن يلين فامسح رأس اليتيم، وأطعم المسكين».

وفى الصحيح عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : «أنا وكافل اليتيم أو لغيره كهاتين» وأشار بالسبابة والوسطى.

---

(١) تفسير المراغى ٣٠/١٨٥.

(٢) تفسير القرطبى ٢٠/١٠٠، ١٠١.

ومن حديث ابن عمران أن رسول الله ﷺ قال : «إن اليتيم إذا بكى اهتز لبكائه عرش الرحمن، فيقول الله تعالى لملائكته : يا ملائكتى، من ذا الذى أبكى هذا اليتيم الذى غيبت أباه فى التراب فتقول الملائكة : ربنا أنت أعلم.

فيقول الله تعالى لملائكته : اشهدوا أن من أسكته وأرضاه أن أرضيه يوم القيامة» .فكان ابن عمر إذا رأى يتيمًا مسح رأسه وأعطاه شيئًا.

وعن أنس قال ،قال رسول الله ﷺ : «من ضم يتيمًا فكان فى نفقته، وكفاه مؤنته ،كان له حجابًا من النار يوم القيامة، ومن مسح برأس يتيم كان له بكل شعرة حسنة»[1].

و قال أكثم بن صيفى : الأذلاء أربعة : النمام، والكذاب، والمديون، واليتيم.

وعن قول الحق تبارك وتعالى ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ﴿٦﴾ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ ﴿٨﴾ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴿٩﴾ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴿١٠﴾ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾ ﴾[2].

يقول الشيخ الميدانى[3] : فى هذا النص أعظم مواساة ربانية للأيتام فالله يعلن فيه أن اليتيم بفقد الأبوين قد اختاره الله لأصفى أصفيائه من خلقه، محمد بن عبد الله ،فحسب اليتامى مواساة وفخرًا أن يكون سيد المرسلين قد ولد يتيم الأب، ثم نشأ يتيم الأبوين، ويخاطبه الله بقوله : ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ﴿٦﴾ ﴾ أى : فآواك، إذ يسـر لك بدل والديك من يكفلك ويؤويك ويحنو عليك، وإذ ذاق الرسول طعم اليتم، وعرف فى نشأته مشاعره، وعرف ما يقهر اليتيم وما يواسيه، وعرف ما يفرحه ويسره ويجبر كسره ويكون تعويضًا عما فقد من أبويه قال الله له : ﴿ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴿٩﴾ ﴾.

ويمتن الله على الإنسان فيقول : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ ﴿٤﴾ أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ﴿٥﴾ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا ﴿٦﴾ أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُ أَحَدٌ ﴿٧﴾ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾ فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ ﴿١١﴾

---

(١) سبق تخريجه. (٢) سورة الضحى الآيات ٦-١١ .

(٣) الأخلاق الإسلامية وأسسها ٢ / ٤٥ .

﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ (١٢) فَكُّ رَقَبَةٍ (١٣) أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ (١٤) يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ (١٥) أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ (١٦) ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ (١٧) أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ (١٨) ﴾[١].

فى هذه الآيات حديث عن الإنسان ومسئوليته فى هذه الحياة . يُعَرِّفُ اللهُ الإنسان بموقعه تحت سلطان قدرته ومراقبته ، ثم يمتن الله عليه بما وهبه ، ويضعه موضع الامتحان على مفترق طريقين، آتاه الله العلم بهما وبنتائجهما ، بما أودع فيه من استعداد لإدراك ذلك ، وهما طريقا الخير والشر ، ﴿ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ (١٠) ﴾[٢].

ثم يبين الله للإنسان أن طريق النجاة والفلاح منهما هو طريق الميمنة ، إلا أن هذا الطريق من دونه عقبة قائمة داخل نفس الإنسان ، وهذه العقبة فى النفس لابد من اقتحامها لتحقيق النجاة والفلاح ﴿ فَلا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ (١١) ﴾[٣].

ولكن ما هذه العقبة فى النفس ؟ ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ (١٢) ﴾[٤].

الجواب : أنها عقبة قسوة القلب التى ينشأ عنها البخل والشح وجحود الحق ، وعقبة انعدام الصبر .

فكيف يكون اقتحام العقبة هذه؟

إنه يكون بتنمية خُلُقَيْ الرحمة والصبر مع الإيمان الصحيح ، وذلك يجعل الإنسان قادرًا على اقتحام عقبة نفسه ، فيجود فى مواطن المرحمة ويثبت فى مواطن الصبر ، فيعتق الرقاب جودًا وإحسانًا ورحمة بالضعفاء ، ويطعم الطعام فى أيام المجاعة ، إذ الحاجة إليه حينئذ ملحة ، فيقدمه إلى الضعفاء من ذوى الحاجة وفى مقدمتهم يتيم ذوقرابة ، أو مسكين فقير : ﴿ فَلا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ (١١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ (١٢) فَكُّ رَقَبَةٍ (١٣) أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ (١٤) يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ (١٥) أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ (١٦) ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ (١٧) ﴾[٥].

---

(١) سورة البلد الآيات ٤-١٨ .
(٢) سورة البلد الآية ١٠ .
(٣) سورة البلد الآية ١١ .
(٤) سورة البلد الآية ١٢ .
(٥) سورة البلد الآيات ١١-١٧ .

مسغبة : مجاعة ،متربة : فقر وحاجة ،مرحمة : رحمة ، مقربة : قرابة . وهى مصادر لأفعالها جاءت على وزن «مفعلة» .

ونستطيع أن نفهم من إشارة الكلام فى السورة أن عتق الرقاب ، وإطعام الأيتام والمساكين ، من ظواهر خلق الرحمة التى عمل الإسلام على غرسها فى نفوس المؤمنين ، وعمل على تغذيتها وتوسيع دائرة شمولها ، بدليل قوله تعالى عقب بيان اقتحام عقبة النفس ، وذكر أمثلة لهذا الاقتحام : ﴿ ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ (١٧) ﴾ [١] .

وهكذا نلاحظ فى هذا النص عناية القرآن بالتوجيه لإطعام اليتيم [٢] .

كما يؤنب الله المشركين الذين من شأنهم أن تكون قلوبهم قاسية غير ندية بخلق الرحمة ، لذلك فهم لا يكرمون اليتيامى ، ولا يحض بعضهم بعضًا على إطعام المساكين ، فيقول تبارك وتعالى : ﴿ فَأَمَّا الإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ (١٥) وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ (١٦) كَلاَّ بَل لاَّ تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ (١٧) وَلا تَحَاضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ (١٨) وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلاً لَّمًّا (١٩) وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا (٢٠) ﴾ [٣] .

المشركون الذين جفت فى قلوبهم - بسبب الكفر - منابع الرحمة التى تدفع أصحابها إلى العطف على الضعفاء وفى مقدمتهم اليتامى ، فهم بقسوة قلوبهم وجفافها لا يكرمون اليتيم ولايتحاضون على طعام المسكين ، وهم بسبب كفرهم باليوم الآخر وما فيه من حساب وجزاء ، ونعيم مقيم وعذاب أليم ، دنياويون مفرطون فى أنانيتهم ، نام فى نفوسهم الطمع الشديد وحب المال ، فهم يأكلون التراث أكلاً لما ، ويحبون المال حبًا جما .

أى : يأكلون الميراث مقبلين عليه بشره شديد إذ يأتيهم بغير جهد ، فيلمون كل صغيرة وكبيرة منه ، ولا يدعون شيئًا للأيتام والمساكين ، ولا يقسمون شيئًا

---

(١) سورة البلد الآية ١٧ .

(٢) الشيخ عبد الرحمن الميدانى ، الأخلاق الإسلامية وأسسها ٢ / ٤٧ ، ٤٨ .

(٣) سورة الفجر الآيات ١٥-٢٠ .

من التركة للضعفاء والمجهودين وذوى الحاجات بينما توصى التعاليم الإسلامية مستحقى التركة بأن يعطوا شيئًا لمن يحضر قسمتها من أولى القربى واليتامى والمساكين الذين ليس لهم فى الأصل نصيب مفروض وأن يقولوا لهم قولاً معروفًا، وهذا العطاء إكرام تجبر به خواطرهم ، قال تعالي : ﴿ وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُوْلُوا الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلاً مَّعْرُوفًا ﴿٨﴾ ﴾[1] .

ففى هذه الآية يوصى الله تبارك وتعالى بإعطاء الذين يحضرون قسمة التركة من أولى القربى واليتامى والمساكين شيئًا على سبيل الترضية وجبر الخاطر، إذا لم يكونوا من ذوى الحقوق فيها، وفى تحقيق هذه الوصية ترابط اجتماعى عظيم، وتوثيق لوشائج المودة والمحبة بين أعضاء الأسرة، وتعميق لخلق الرحمة بالضعفاء فى نفوس المسلمين[2] .

- **أكل أموال اليتامى ظلماً**

حذر المولى جل وعلا من أكل أموال اليتامى ظلمًا، قال سبحانه : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾ ﴾[3]

ظلمًا أى على سبيل الظلم وهضم الحقوق لا أكلا بالمعروف عند الحاجة إلى ذلك، أو تقديراً لأجرة العمل، وقوله فى بطونهم : أى ملء بطونهم،وقوله : ناراً أى ما هو سبب لعذاب النار[4] .

وقد روى فى سبب نزول الآية أن أوس بن الصامت الأنصارى توفى وترك امرأته أم كحلة وثلاث بنات له منها، فزوى ابنا عمه سويد وعرفطة ميراثه عنهن على سنة الجاهلية، فجاءت امرأته إلى رسول الله ﷺ فى مسجد الفضيح «مسجد المدينة» كان يسكنه أهل الصفة فشكت إليه أن زوجها أوسًا قد مات وخلف ثلاث بنات وليس عندها ما تنفق عليهن منه، وقد ترك أبوهن مالاً حسناً عند ابنى عمه لم يعطياها منه شيئًا، وهن فى حجرى لا يُطعمن ولا يُسقين، فدعاهما رسول الله ﷺ ، فقالا :

(١) سورة النساء الآية ٨.

(٢) المرجع السابق ٢ / ٤٩ .

(٣) سورة النساء الآية ١٠.

(٤) تفسير المراغى ٥ / ١٩٣ .

يا رسول الله ولدها لا يركب فرسًا ولا يحمل كلا ولا ينكى عدوا، نكسب عليها ولا تكسب، فنزلت الآية فأثبتت لهن الميراث، فقال رسول الله ﷺ : لاتفرقا من مال أوس شيئًا فإن الله جعل لبناته نصيبًا مما ترك ولم يبين فنزلت : ﴿ يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ فَإِن كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِن كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلأُمِّهِ السُّدُسُ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (١١) ﴾ [١] الآية.

فأعطى زوجته الثمن والبنات الثلثين والباقى لبنى العم [٢].

وروى أنها نزلت فى رجل من غطفان يقال له : مرثد بن زيد، ولِىَ مال ابن أخيه وهو يتيم صغير فأكله، فأنزل الله تعالى هذه الآية، قاله مقاتل بن حيان،

ولهذا قال الجمهور : إن المراد الأوصياء الذين يأكلون مالم يبح لهم من مال اليتيم.

وقال ابن زيد : نزلت فى الكفار الذين كانوا لا يورثون النساء ولا الصغار.

وسمى أخذ المال على كل وجوهه أكلاً؛ لَماَّ كان المقصود هو الأكل وبه أكثر إتلاف الأشياء.

وخص البطون بالذكر لتبين نقصهم، والتشنيع عليهم بضد مكارم الأخلاق.

وسمى المأكول نارًا بما يئول إليه؛ كقول تعالى : ﴿ أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا ﴾ [٣] أى عنبًا.

وروى أبو سعيد الخدرى قال : حدثنا النبى ﷺ عن ليلة أسرى به قال : «رأيت قومًا لهم مشافر كمشافر الإبل وُكِّلَ بهم من يأخذ بمشافرهم ثم يجعل فى أفواههم صخرًا من نار يخرج من أسافلهم. فقلت : يا جبريل من هؤلاء؟

قال : هم الذين يأكلون أموال اليتامى ظلمًا».

---

(١) سورة النساء الآية ١١.

(٢) تفسير المراغى ٥/ ١٩١، ١٩٢.

(٣) سورة يوسف الآية ٣٦.

فدل الكتاب والسنة على أن أكل مال اليتيم من الكبائر، قال ﷺ : «اجتنبوا السبع الموبقات» وذكر فيها «وأكل ما اليتيم»[1].

وعن قوله تعالى : ﴿ وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً (٩) إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَاراً وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيراً (١٠) ﴾[2].

يقول الشيخ الميداني[3] : في هذا النص تحريض على حسن رعاية اليتامى وضمان حقوقهم، واستثارة لحرص الإنسان على أن تعامل ذريته الصغار من بعده بالإحسان والإكرام، مكافأة له على معاملته لليتامى بمثل ذلك، فإذا لم يفعل ذلك فلربما قست قلوب الناس تجاه من قد يصيبهم اليتم من ذريته.

أليس هو عرضة في كل لحظة لأن تقبض عليه يد المنون، فيموت ويخلف من ورائه صغاراً له يمسون بفقده يتامى؟

فبماذا يجب أن يعامل الناس أولاده الذين قد يمسون يتامى بموته؟

إنه يحب أن يعاملوهم بمثل الإكرام الذى كانوا يتمتعون به فى حياته.

إذن فليعامل هو يتامى الآخرين بمثل ما يحب أن تعامل به ذريته الضعاف من بعده، وإلا فليرتقب المعاقبة بالمثل، تعذيبًا لروحه بالحرقة على ذريته الضعاف الذين تركهم يتامى، وفى هذه الاستثارة ضَرْبٌ على الوتر العاطفى الحساس للتوجه إلى ما يجب.

فليتق الله الذين يتولون أمور اليتامى، وهذه التقوى تفرض عليهم أن يحافظوا على أموال اليتامى، ويكرموهم ولا يهينوهم، ويحسنوا تربيتهم وتأديبهم وتعليمهم، ويعاملوهم بمثل ما يعاملون به أولادهم.

وهذه التقوى تفرض عليهم أن يقولوا قولاً سديداً فى كل أمر يتعلق بالأيتام الذين يتولون شئونهم، ومن القول السديد إرشاد اليتامى إلى فضائل الخصال، ومحاسن الآداب، وكريم الأفعال، مع حكمة فى الأسلوب.

---

(١) القرطبى ٥ / ٥٣ .

(٢) سورة النساء الآيتان ٩، ١٠.

(٣) الأخلاق الإسلامية وأسسها ٢ / ٥٠ .

كما أنه فى هذا النص تحذير شديد من العدوان على أموال اليتامى، وأكل شيء منها ظلما ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾ ﴾ ففى الدنيا لهم عذاب وآلام تشبه ما تفعل النار فى البطون لو دخل شيء منها فيها، وفى الآخرة لهم عذاب فى السعير فى نار جهنم وبئس هذا المصير.

• أعمال جاهلية

كان العرب فى الجاهلية قبل الإسلام من قسوة قلوبهم يهينون اليتامى، ويدفعونهم بالأبواب، ويأكلون أموالهم ظلمًا وعدوانًا، وكان الرجل منهم إذا كان وليًا لأمر يتيمة أنثى، فإن كانت جميلة ولها مال تزوجها وأضافها إلى نسائه - اذ كانت التقاليد العربية تسمح بهذا الزواج - وهضم حقوقها وأكل أموالها، وإن كانت دميمة منعها من الزواج وأكل أموالها.

ولما جاء الإسلام وبسط الله سلطانه، أصلح كل هذه الأوضاع الشاذة، ورفع شأن اليتامى إلى مقام التكريم من جهة، والمحافظة على حقوقهم المالية والشخصية من جهة أخرى، وجعل المجتمع الإسلامى رقيبًا على الأولياء، وحارسًا عامًا لحقوق اليتامى[1].

ومن أعمال الجاهلية ما قاله الله تعالى: ﴿ أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ ﴿١﴾ فَذَٰلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ ﴿٢﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴿٣﴾ ﴾[2].

يشير القرآن الكريم إلى بعض أحوال الجاهلية التى كان أهل الجاهلية يمارسونها قبل الإسلام، فقد كانوا يَدُعُّونَ اليتيم: أى يدفعونه دفعًا عنيفًا غليظًا دونما شفقة ولا رحمة[3]. ﴿ أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ ﴿١﴾ ﴾، أمصيب هو أم مخطئ؟

واختلف فيمن نزل هذا فيه، فذكر أبو صالح عن ابن عباس قال: نزلت فى العاص بن وائل السهمى، قاله الكلبى ومقاتل.

وروى الضحاك عنه قال: نزلت فى رجل من المنافقين.

(١) الأخلاق الإسلامية وأسسها ٢ / ٥٠، ٥١.
(٢) سورة الماعون الآيات ١-٣.
(٣) المرجع السابق ص ٢ / ٥١.

وقال السدى : نزلت في الوليد بن المغيرة.

وقيل : في أبى جهل،وقال الضحاك : في عمرو بن عائذ.

وقال ابن جريج : نزلت في أبى سفيان وكان ينحر في كل أسبوع جزورا، فطلب منه يتيم شيئًا فقرعه بعصاه فأنزل الله هذه السورة.

ويَدُعُّ : أى يدفع، كما قال : ﴿ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا (١٣) ﴾ [1].

وقال الضحاك عن ابن عباس : ﴿ فَذَٰلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ (٢) ﴾ أى يدفعه عن حقه [2].

- ﴿ أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ (١) ﴾ أخبرنى عنه من هو ؟ فإن الواجب على المتدين أن يعرفه على حقيقته حتى يبتعد عنه لا عن صفاته.

فالاستفهام أريد به تشويق السامع ليعرف ما بعده، وللإشارة إلى أن هذا الأمر خفى ! وكل يدعى أنه مصدق بيوم الدين، هل عرفت من هو المكذب بالدين ؟

إن لم تكن عرفته فذلك هو : الذى يدع اليتيم ويدفعه دفعًا عنيفًا ويزجره زجراً شديداً عن حقه في ماله إن كان له مال، أو عن حقه في الصدقة إن كان فقيراً.

﴿ أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ (١) ﴾ إنه الذى يشتد على اليتيم ولا يعطى حقوق المساكين وهو غافل عن صلاته مُراءٍ للناس في عمله، ومانع خيره عن غيره، فالويل ثم الويل لهؤلاء، وإن صاموا وإن صلوا [3].

إنه لا يخفف من نزعة الظلم والبغى عند الإنسان إلا إيمانه باليوم الآخر، وما أعد الله فيه من جزاء للمجرمين وهذه حقيقة ثابتة يرشد إليها العقل السديد،وتشهد لها التجارب الإنسانية.

ولذلك نزل القرآن بالوعيد الشديد للذين يأكلون أموال اليتامى ظلمًا، قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا (١٠) ﴾ [4]

---

(١) سورة الطور الآية ١٣. (٢) القرطبى ٢٠ / ٢١٠.

(٣) د. محمد محمود حجازى، التفسير الواضح ٣٠ / ٩٤ بتصرف.

(٤) سورة النساء الآية ١٠.

وقد ورد أنه لما نزلت هذه الآية خاف المسلمون من مغبة مخالطة أموال اليتامى، حذر أن يدخل عليهم منها شيء فيقعوا فى الظلم، فصاروا يتحرجون منها تحرجًا كبيراً، ويعزلونها عن أموالهم، الأمر الذى جعل أموال اليتامى مجمدة عن التنمية وعرضه للفساد، وتساءل متسائلون منهم عن هذا الأمر [1]، فأنزل الله تعالى : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ ﴾ [2].

ومعنى ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ ﴾ أى ويسألونك عن أمر التيامى، أو عن مخالطتهم وكفالتهم.

أخرج أبو داود والنسائى والحاكم وغيرهم عن ابن عباس قال : لما نزلت آية : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ وآية ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا ﴾ انطلق من كان عنده يتيم فعزل طعامه عن طعامه وشرابه عن شرابه فجعل يفضل له الشيء من طعامه، فيُحبس له حتى يأكله أو يفسد، فاشتد ذلك عليهم، وذكروا ذلك لرسول الله ﷺ فأنزل الله ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ ﴾ الآية.

وأشد ما ورد في الوصية باليتامى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ⑩ ﴾.

وقد كان السابقون الأولون من المؤمنين يحفظون حدود الله ويأخذون من القرآن بقوة، فتحدث لهم ذكرى وعظة لا يجد مثلها من بعدهم ممن لم يفهم القرآن كما فهموا.

وهذه الوصايا باليتامى ملكت على المؤمنين نفوسهم فتركتهم فى حيرة وحرج من أمر القيام على اليتامى واستغلال أموالهم خوفًا من أن ينالهم شيء من الظلم، وتأثم الصحابة من مخالطة اليتامى، فكان بعضهم يأبى القيام على اليتيم وبعضهم يعزل اليتيم عن عياله، فلا يخالطونه فى شيء حتى إنهم كانوا يطبخون له وحده، ثم فطنوا إلى ما فى هذا من الحرج مع عدم المصلحة لليتيم، بل فيه مفسدة له فى تربيته وضياع لماله، إلى ما فى ذلك من الاحتقار والإهانة

---

(١) الشيخ عبد الرحمن الميدانى ، الأخلاق الإسلامية وأسسها .

(٢) سورة البقرة الآية ٢٢٠ .

له، فيكون كالكلب أو كالداجن فى مأكله ومشربه، ومن ثم احتاجوا إلى السؤال عما يجمع بين المصلحتين مصلحة اليتيم ليعيش فى بيت كافله عزيزا كأحد عياله، ومصالحة الكافل فيسلم من أكل شيء من ماله بغير حق، فاجيبوا بقوله تعالى: ﴿ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ ﴾

أى قل لمن يسأل عن المصلحة فى معاملة اليتامى من عزل أو مخالطة، إن كل ما فيه صلاح لهم فهو خير، فعليكم أن تصلحوا نفوسهم بالتربية والتهذيب وأموالهم بالتنمية والتثمير، ولا تهملوا شئونهم فتفسد أخلاقهم وتضيع حقوقهم، ولا وجه للتأثم من مخالطتهم فى المأكل والمشرب والكسب، فهم إخوانكم فى الدين، ومن شأن الإخوة أن يكونوا خلطاء فى الملك والمعايش، وفى ذلك منفعة لهم لا ضرر عليهم، إذ كل واحد منهم يسعى فى خير الجميع، والمخالطة مبنية على المسامحة؛ لانتفاء مظنة الطمع، فيكون اليتيم فى البيت كالأخ الصغير تراعى مصلحته، ويتحرى له رجحان كفته [1].

وقد استنبط القرطبى [2] من قوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ﴾ عدة مسائل:

الأولى: روى أبو داود والنسائى عن ابن عباس قال: لما أنزل الله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [3] و ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا (١٠) ﴾ [4]، انطلق من كان عنده يتيم فعزل طعامه من طعامه وشرابه عن شرابه، فجعل يفضل من طعامه فيحبس له، حتى يأكله أو يفسد؛ فاشتد ذلك عليهم، فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ فأنزل الله تعالى ﴿ ويسألونك عن اليتامى قل إصلاح لهم خير وإن تخالطوهم فإخوانكم ﴾ الآية، فخلطوا طعامهم بطعامه وشرابهم بشرابه» لفظ أبى داود.

والآية متصلة بما قبل؛ لأنه اقترن بذكر الأموال الأمر بحفظ أموال اليتامى.

وقيل: إن السائل عبد الله بن رواحة.

---

(١) تفسير المراغى ٢/١٤٨، ١٤٩.

(٢) القرطبى ٣/٦٣-٦٦.

(٢) سورة الأنعام الآية ١٥٢.

(٤) سورة النساء الآية ١٠.

وقيل : كانت العرب تتشاءم بملابسة أموال اليتامى فى مؤاكلتهم ؛ فنزلت هذه الآية - كما قدمنا -

الثانية : لما أذن الله جل وعز فى مخالطة الأيتام مع قصد الإصلاح بالنظر إليهم وفيهم، كان ذلك دليل على جواز التصرف فى مال اليتيم، تصرف الوصى فى البيع والقسمة وغير ذلك ؛ على الإطلاق لهذه الآية.

الثالثة : تواترت الآثار فى دفع مال اليتيم مضاربة والتجارة فيه،وفى جواز خلط ماله بماله ؛ دلالة على جواز التصرف فى ماله بالبيع والشراء إذا وافق الصلاح، وجواز دفعه مضاربة إلى غير ذلك.

قال ابن كنانة : وله أن ينفق فى عرس اليتيم ما يصلح من صنيع وطيب ؛ ومصلحته بقدر حاله وحال من يزوج إليه، وبقدر كثرة ماله. قال : كذلك فى ختانه ؛ فإن خشى أن يتهم رفع ذلك إلى السلطان فيأمره بالقصد ؛ وكل ما فعله على وجه النظر فهو جائز، وما فعله على وجه المحاباة وسوء النظر فلا يجوز.

ودل الظاهر على أن ولى اليتيم يعلمه أمر الدنيا والآخرة، ويستأجر له ويؤاجره ممن يعلمه الصناعات. وإذا وهب لليتيم شيء فللوصى أن يقبضه لما فيه من الإصلاح.

الرابعة : ولما ينفقه الوصى والكفيل من مال اليتيم حالتان :

حالة يمكن الإشهاد عليه، فلا يقبل قوله إلا ببينة.

وحالة لا يمكنه الإشهاد عليه فقوله مقبول بغير بينة، فمهما اشترى من العقار وما جرت العادة بالتوثق فيه لم يقبل قوله بغير بينة.

قال ابن خُوَيْزِ مَنْدَاد : ولذلك فرق أصحابنا بين أن يكون اليتيم فى دار الوصى ينفق عليه فلا يكلف الإشهاد على نفقته وكسوته ؛ لأنه يتعذر عليه الإشهاد على ما يأكله ويلبسه فى كل وقت، ولكن إذا قال : أنفقت نفقة لسنة قُبِلَ منه ؛ وبين أن يكون عند أمه أو حاضنته فيدعى الوصى أنه كان ينفق عليه، أو كان يعطى الأم أو الحاضنة النفقة والكسوة فلا يقبل قوله على الأم أو الحاضنة إلا ببينة أنها كانت تقبض ذلك له مشاهرة أو مساناة.

الخامسة : اختلف العلماء فى الرجل ينكح نفسه من يتيمته، وهل له أن يشترى لنفسه من مال يتيمه أو يتيمته ؟

فقال مالك : ولاية النكاح بالكفالة والحضانة أقوى منها بالقرابة؛ حتى قال فى الأعراب الذين يسلمون أولادهم فى أيام المجاعة : إنهم ينكحونهم إنكاحهم.

وأما الشراء منه فقال مالك : يشترى فى مشهور الأقوال؛ وكذلك قال أبو حنيفة : له أن يشترى مال الطفل اليتيم لنفسه بأكثر من ثمن المثل، لأنه إصلاح دل عليه ظاهر القرآن.

وقال الشافعى : لا يجوز ذلك فى النكاح ولا فى البيع، لأنه لم يذكر فى الآية التصرف بل قال : «إصلاح لهم خير» من غير أن يذكر فيه الذى يجوز له النظر.

أبو حنيفة يقول : إذا كان الإصلاح خيراً فيجوز تزويجه ويجوز أن يزوج منه والشافعى لا يرى فى التزويج إصلاحاً إلا من جهة دفع الحاجة، ولا حاجة قبل البلوغ وأحمد بن حنبل يجوز للوصى التزويج لأنه إصلاح.

والشافعى يجوز للجد التزويج مع الوصى، وللأب فى حق ولده الذى ماتت أمه لا بحكم هذه الآية.

وأبو حنيفة يجوز للقاضى تزويج اليتيم بظاهر القرآن.

وهذه المذاهب نشأت من هذه الآية؛ فإن ثبت كون التزويج إصلاحًا فظاهر الآية يقتضى جوازه.

وكان طاووس إذا سئل عن شىء من أمر اليتامى قرأ : ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ﴾.

وكان ابن سيرين أحب الأشياء إليه فى مال اليتيم أن يجتمع نصحاؤه فينظرون الذى هو خير له؛ ذكره البخارى.

وفى هذا دلالة على جواز الشراء منه لنفسه؛ كما ذكرنا.

والقول الآخر أنه لا ينبغى للولى أن يشترى مما تحت يده شيئًا؛ لما يلحقه فى ذلك من التهمة إلا أن يكون البيع فى ذلك بيع سلطان فى ملأ من الناس.

السادسة : قوله تعالى : ﴿ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ ﴾ هذه المخالطة كخلط المثل بالمثل كالتمر بالتمر.

وقال أبو عبيد : مخالطة اليتامى أن يكون لأحدهم المال ويشق على كافله أن يفرد طعامه عنه، ولا يجد بداً من خلطه بعياله فيأخذ من مال اليتيم ما يرى أنه كافيه بالتحرى مع نفقة أهله؛ وهذا قد يقع فيه الزيادة والنقصان؛ فجاءت هذه الآية الناسخة بالرخصة فيه.

وقال : وهذا عندى أصل لما يفعله الرفقاء فى الأسفار فإنهم يتخارجون النفقات بينهم بالسوية وقد يتفاوتون فى قلة المطعم وكثرته؛ وليس كل من قل مطعمه تطيب نفسه بالتفضل على رفيقه؛ فلما كان هذا فى أموال اليتامى واسعا كان فى غيرهم أوسع، ولولا ذلك لخفت أن يضيق فيه الأمر على الناس.

السابعة : قوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ ﴾ تحذير : أى يعلم المفسد لأموال اليتامى من المصلح لها؛ فيجازى كلا على إصلاحه وإفساده .

الثامنة : قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ ﴾ روى الحكم عن مقسم عن ابن عباس : ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ ﴾ قال : لو شاء لجعل ما أصبتم من أموال اليتامى موبقًا.

وقيل : ﴿ لَأَعْنَتَكُمْ ﴾ لأهلككم، عن الزجاج وأبى عبيدة.

وقال القتبى : لضيق عليك وشدد، ولكنه لم يشأ إلا بالتسهيل عليكم.

وقيل : أى لكلفكم ما يشتد عليكم أداؤه وأثمكم فى مخالطتهم ، كما فعل بمن كان قبلكم، ولكنه خفف عنكم.

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ﴾ أى لا يمتنع عليه شىء ﴿ حَكِيمٌ ﴾ يتصرف فى ملكه بما يريد لا حجر عليه، جل وتعالى علواً كبيراً.

• ومما تقدم تعلم

أ - كيف كانت عناية المؤمنين بأحكام دينهم وحفظ حدوده، وكيف شدد سبحانه فى الأمر بشأن اليتامى، فلم يأذن فى القيام عليهم إلا بقصد

الإصلاح، ولا بمخالطتهم إلا مخالطة الأخوة، مع توجيه القلوب إلى مراقبته، والتذكير بإحاطة علمه، ومع كل هذا لا نرى من الأوصياء على اليتامى إلا الفساد والإفساد، دون مراقبة لله في أعمالهم ومراجعة نفوسهم في أفعالهم، غير ناظرين إلى الوعيد الشديد الذى تقشعر من هوله الصم الجلاميد[1].

ب - الأحكام التي دلت عليها هذه الآية قد جاء بيانها وتأكيدها في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾[2]. ونظيره من سورة الإسراء.

ففى هذه الآية دلالة واضحة على أنه كلما كان القرب من مال اليتيم أحسن له من عدم القرب فهو خير وإلا فعدم القرب منه هو الواجب[3].

• من الإحسان إلى اليتيم الزواج بأمه ... كيف ؟

في حالات الحروب ونقص الرجال بالاستشهاد في سبيل الله، وقد خلفوا وراءهم أرامل ويتامى، في هذه الحالة من الإحسان إلى اليتامى أن يتقدم رجل للزواج من زوجة الشهيد أم اليتامى بغية تربية أبنائها التربية الصحيحة الصالحة، فيربى ذلك الرجل الصالح هؤلاء الأيتام مع أولاده كما لو كان أبوهم موجوداً وكأنه أب، ويأخذ أموالهم ويديرها لهم بتشغيلها لصالحهم حتى تتأمن منها نفقاتهم وأمور معيشتهم، وإذا ما كبروا يجدونها بين أيديهم محفوظة، كما ينقذهم من براثن الانحطاط الأخلاقي والفساد الاجتماعي لعجز الأم عن قيامها بهذا الدور من حيث تقويمهم وتسليكهم سبل الرشاد، والسيطرة على سلوكيات أبنائها البالغين وكبح جماح انحرافهم وشذوذهم إذ ليس الذكر كالأنثى، ولكلٍّ مقام على حسب الخلق والتكوين الطبيعي، فسيطرة الرجل البنيوية والطبيعية من ناحية نفسية وفسيولوچية تختلف تماماً عن سيطرة المرأة ... وهذا أمر مقطوع فيه بالواقع العملي والعلمي فللأمهات سكب الحنان والحب والدلال للابن، وللأب العطف وكبح جماح الشذوذ والانحراف، فينشأ الابن النشأة الصالحة القويمة بين الرغبة والرهبة فلا يميع ولا يتعقد.

---

(١) تفسير المراغى ٢ / ١٥٠ .

(٢) سورة الأنعام الآية ١٥٢ .

(٣) الأخلاق الإسلامية وأسسها ٢ / ٥٢ .

وإن هذا القسط وهذه الرعاية للأيتام، وهذا الحفظ لأموالهم يستلزم أن يدخل الرجل الذى يرعاهم عليهم بيتهم دائمًا، وفى ذلك ما فيه من الشبهة بحق الأرملة والرجل الذى أراد الإحسان لها ولأيتامها إن لم يتزوجها،

لذلك : أمر الله عز وجل بالزواج منها، وتلك هى إنسانية هذا التشريع الإلهى الحكيم.

وعندما يستشهد الأب الصالح فى سبيل الله دفاعًا عن الوطن والأهل والولد، هل يصح ترك الأبناء دون أب يصلح ويقوم اعوجاجهم، ويحول دون شذوذهم وضياعهم؟

وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان ؟

وهل يبقى الأيتام دون مشرف قوى على تربيتهم التربية القويمة، لاسيما فى سن المراهقة عندما لا تقوى المرأة على ضبط سلوكهم؟

وهل نتركهم عرضة للإجرام والشذوذ، فيصبح أبناء الشهيد دون ضابط حازم قوى فيتشردون ويغدون مجرمين أشقياء؟

من أجل ذلك، وحبا ورحمة بنا خاطب الله تعالى فينا إنسانيتنا فقال جل من قائل ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ ﴾ إذا خفتم ألا تسوسوا اليتامى، ولاتؤدوا لهم حقوقهم ﴿ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلاثَ وَرُبَاعَ ﴾ وهنا تستطيعون بهذا التعدد فى الزوجات الذى أباحه الله لكم أن تتزوجوا بأم اليتيم إكرامًا لها وإعفافًا وإحسانًا بابنها أو أبنائها من اليتامى [1].

● اليتامى فى مرحلة الرشد

وحين يبلغ اليتامى مرحلة الرشد يجب تسليمهم أموالهم كاملة غير منقوصة ولا مبدلة لأنهم قد أصبحوا أولياء أنفسهم، وارتفعت عنهم وصاية غيرهم عليهم، قال

---

(١) مجلة الأزهر عدد جمادى الأول ١٤٢٢ هـ أغسطس ٢٠٠١م عن مقال بعنوان بين الصحف للأستاذ محمود الفشنى تعليقًا على كلمة فى الأخبار بتاريخ ٢/٧/٢٠٠١م للكاتب السورى عبد القادر يحيى الديرانى.

تعالى : ﴿ وَآتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا (٢) ﴾[١].

وأراد باليتامى : الذين كانوا أيتاما ولا يُتْمَ مع البلوغ، وكان يقال للنبى ﷺ : يتيم أبى طالب، والإيتاء : الإعطاء.

وهذه الآية خطاب للأولياء والأوصياء، نزلت - فى قول مقاتل والكلبى - فى رجل من غطفان كان معه مال كثير لابن أخ له يتيم،

فلما بلغ اليتيم طلب المال فمنعه عمه؛ فنزلت ،

فقال العم : نعوذ بالله من الحوب[٢] الكبير، ورد المال.

فلما قبض الفتى المال أنفقه فى سبيل الله، فقال عليه السلام : «ثبت الأجر وبقى الوزر».

فقيل : كيف يا رسول الله ؟

فقال : «ثبت الأجر للغلام وبقى الوزر على والده» لأنه كان مشركًا.

أما قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ ﴾ أى لاتتبدلوا الشاة السمينة من مال اليتيم بالهزيلة ولا الدرهم الطيب بالزيف، وكانوا فى الجاهلية لعدم الدِّين لا يتحرجون عن أموال اليتامى، فكانوا يأخذون الطيب والجيد من أموال اليتامى ويبدلونه بالردىء من أموالهم، ويقولون : اسم باسم، ورأس برأس، فنهاهم الله عن ذلك. هذا قول سعيد بن المسيب والزهرى والسدى والضحاك، وهو ظاهر الآية.

وقيل : المعنى لا تأكلوا أموال اليتامى وهى محرمة خبيثة وتَدَعُوا الطيب وهو مالكم.

وقال مجاهد وأبو صالح وباذان : لا تعجلوا أكل الخبيث من أموالهم وتدعوا انتظار الرزق الحلال من عند الله.

وقال ابن زيد : كان أهل الجاهلية لا يورثون النساء والصبيان ويأخذ الأكبر الميراث.

---

(١) سورة النساء الآية ٢.

(٢) الحوب : الإثم.

وقال عطاء : لا تربح على يتيمك الذى عندك وهو غر صغير.

وهذان القولان خارجان عن ظاهر الآية، فإنه يقال : تبدل الشيء بالشيء : أى أخذه مكانه، ومنه البدل.

وقوله تعالى : ﴿ وَلا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ ﴾ قال مجاهد : وهذه الآية ناهية عن الخلط فى الإنفاق، فإن العرب كانت تخلط نفقتها بنفقة أيتامها فنهوا عن ذلك، ثم نسخ بقوله تعالى : ﴿ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ ﴾.

وقال ابن فورك عن الحسن : يأول الناس فى هذه الآية النهى عن الخلط فاجتنبوه من قبل أنفسهم فخفف عنهم فى آية البقرة.

وأما قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴾ إنه : أى الأكل ،كان حوبا كبيرا : أى إثمًا كبيراً، عن ابن عباس والحسن وغيرهما، يقال : حاب الرجل يحوب حوبًا إذا أثم. أصله الزجر للإبل؛ فسمى الإثم حوبا، لأنه يزجر عنه وبه.

ويقال فى الدعاء : إليك أرفع حوبتى : أى حاجتى.

والحوب : الوحشة؛ ومنه قوله عليه السلام لأبى أيوب : «إن طلاق أم أيوب لحوب»[1].

وأنزل الله تعالى : ﴿ وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا (٦) ﴾[2].

﴿ وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ ﴾ قال ابن عباس ومجاهد والحسن والسدى ومقاتل : أى اختبروهم[3].

واختباره يكون بإعطائه شيئًا من المال يتصرف فيه، فإن أحسن كان راشداً، إذ لا معنى للرشد هنا إلا حسن التصرف وإصابة الخير فيه، وهو نتيجة صحة العقل وجودة الرأى.

---

(١) انظر القرطبى ٥ /٨-١٠.
(٢) سورة النساء الآية ٦.
(٣) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ١ / ٦٨١ .

وبلوغ النكاح هو الوصول إلى السن التى يستعد فيها المرء للزواج وهو بلوغ الحلم، وهو فى هذه الحال تتوجه نفسه إلى أن يكون زوجا وأبا ورب أسرة، ولا يتم له ذلك إلا بالمال، ومن ثم وجب إيتاؤه إلا إذا بلغ سفيهاً وخيف أن يضيعه [1].

فى هذه الآية الكريمة بيان أحكام تتعلق بولى مال اليتيم الصغير بما هو معروف إذا كان فقيراً : أى ذا حاجة حقيقية، وإرشاده إلى أن يستعفف إذا كان غنيا، والولى الفقير فى حقيقة الحال قد لا يكون فقره ظاهراً عليه، فليس هو من المساكين.

«ومن كان غنيًا غير محتاجٍ فليستعفف، ومن كان فقيراً فليأكل بالمعروف» أى من كان منكم غنيا غير محتاج إلى شىء من مال اليتيم الذى تحت ولايته فليعف عن الأكل من ماله، ومن كان فقيراً لا يتسغنى عن الانتفاع بشىء من مال اليتيم الذى يشغل بعض وقته فى تثميره وحفظه فليأكل بالمعروف، وهو ما يبيحه الشرع، ولا يستنكره أرباب المروءة، ولا يعدونه خيانة وطمعاً.

قال ابن جرير : إن الأمة مجمعة على أن مال اليتيم ليس مالاً للولى، فليس له أن يأكل منه شيئا، ولكن له أن يستقرض منه عند الحاجة كما يستقرض له، وله أن يؤاجر نفسه لليتيم بأجرة معلومة إذا كان مال اليتيم محتاجًا إلى ذلك كما يستأجر له غيره من الأجراء غير مخصوص بها حال غنى ولا حال فقر، وهكذا الحكم فى أموال المجانين والمعاتيه. وقد روى أحمد عن ابن عمر رضى الله عنه أن رجلاً سأل النبى ﷺ ، قال : ليس لى مال وإنى ولى يتيم، فقال : «كل من مال يتيمك غير مسرف ولامتأثل مالاً ومن غير أن تقى مالك بماله» [2].

قلت : وكان شيخنا الإمام أبو العباس يقول : إن كان مال اليتيم كثيراً يحتاج إلى كبير قيام عليه بحيث يشغل الولى عن حاجاته ومهماته فرض له أجر عمله، وإن كان تافهاً لا يشغله عن حاجاته فلا يأكل منه شيئًا، غير أنه يستحب له شرب قليل اللبن وأكل القليل من الطعام والسمن، غير مُضرٍ به ولا مستكثر له، بل على ما جرت العادة بالمسامحة فيه.

---

(١) تفسير المراغى ٤ / ١٨٨ .
(٢) تفسير المراغى ٤ / ١٨٩ .

قال شيخنا : وما ذكرته من الأجرة، ونيل اليسير من التمر واللبن كل واحد منهما معروف، فصلح حمل الآية على ذلك. والله أعلم.

قلت : والاحتراز عنه أفضل إن شاء الله [1].

بدارا أن يكبروا : أى مبادرين كبرهم، إذ تتسابقون فى أكل أموالهم قبل أن يكبروا ويطالبوا بها.

والإذن للفقراء بأن يأكلوا من أموال اليتامى بالمعروف إنما هو أجرة إدارتهم لأموالهم وتقدر هذه الأجرة بحسب عرف الناس فى كل زمان.

أما الأغنياء فالمطلوب منهم أن يديروا هذه الأموال مع الاستعفاف عن أخذ الأجرة.

وللفخر الرازى فى قوله تعالى : ﴿ وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا (٦) ﴾.

وأعلم أنه تعالى لما أمر مَنْ قَبلَ بدفع مال اليتيم بقوله :﴿ وآتوا اليتامى أموالهم ﴾ بين بهذه الآية متى يؤتيهم أموالهم، فذكر هذه الآية وشرط فى دفع أموالهم إليهم شرطين :

أحدهما : بلوغ النكاح، والثانى : إيناس الرشد.

ولابد من ثبوتهما حتى يجوز دفع مالهم إليهم،وفى الآية مسائل :

المسألة الأولى : قال أبو حنيفة رضى الله تعالى عنه : تصرفات الصبى العاقل المميز بإذن الولى صحيحة، وقال الشافعى رضى الله عنه : غير صحيحة، واحتج أبو حنيفة على قوله بهذه الآية، وذلك لأن قوله : ﴿ وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ ﴾ يقتضى أن هذا الابتلاء إنما يصلح قبل البلوغ، والمراد من هذا الابتلاء اختبار حاله فى أنه هل له تصرف صالح للبيع والشراء، وهذا الاختبار إنما يحصل إذا أذن له فى البيع والشراء، وإن لم يكن هذا المعنى نفس الاختبار،

(١) تفسير القرطبى ٥ / ٤٤.

فهو داخل فى الاختبار بدليل أنه يصح الاستثناء، يقال : وابتلوا اليتامى إلا فى البيع والشراء، وحكم الاستثناء إخراج ما لولاه لدخل ، فثبت أن قوله ﴿ وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ ﴾ أمر للأولياء بأن يأذنوا لهم فى البيع والشراء قبل البلوغ، وذلك يقتضى صحة تصرفاتكم.

أجاب الشافعى رضى الله عنه بأن قال : ليس المراد بقوله : ﴿ وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ ﴾ الإذن فى التصرف حال الصغر بدليل قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ ﴾ فإنما أمر بدفع المال إليهم بعد البلوغ وإيناس الرشد، وإذا ثبت بموجب هذه الآية أنه لا يجوز دفع المال إليه حال الصغر، وجب أن لا يجوز تصرفه حال الصغر، لأنه لا قائل بالفرق،فثبت بما ذكرنا دلالة هذه الآية على قول الشافعى، وأما الذى احتجوا به، فجوابه : أن المراد من الابتلاء اختبار عقله واستبراء حاله، فى أنه هل له فهم وعقل وقدرة فى معرفة المصالح والمفاسد، وذلك إذا باع الولى واشترى بحضور الصبى، ثم يستكشف من الصبى أحوال ذلك البيع والشراء وما فيهما من المصالح والمفاسد ولا شك أن بهذا القدر يحصل الاختبار والابتلاء.

وأيضًا : هب أنا سلمنا أن يدفع إليه شيئًا ليبيع أو يشترى، فلم قلت إن هذا القدر يدل على صحة ذلك البيع والشراء، بل إذا باع واشترى وحصل به اختبار عقله، فالولى بعد ذلك يتمم البيع وذلك الشراء، وهذا محتمل والله أعلم.

المسألة الثانية : المراد من بلوغ النكاح هو الاحتلام المذكور فى قوله : ﴿ وإذا بلغ الأطفال منكم الحلم ﴾ وهو فى قول عامة الفقهاء عبارة عن البلوغ مبلغ الرجال الذى عنده يجرى على صاحبه القلم ويلزمه الحدود والأحكام، وإنما سمى الاحتلام بلوغ النكاح لأنه إنزال الماء الدافق الذى يكون فى الجماع.

وأعلم أن للبلوغ علامات خمسة: منها ثلاثة مشتركة بين الذكور والإناث،وهو الاحتلام والسن المخصوص، ونبات الشعر الخشن على العانة، واثنان مختصان بالنساء، وهما الحيض والحبل.

المسألة الثالثة : أما إيناس الرشد فلابد فيه من تفسير الإيناس ومن تفسير الرشد، أما الإيناس فقوله ﴿ آنَسْتُم ﴾ أى عرفتم وقيل : رأيتم، وأصل الإيناس فى اللغة الإبصار، ومنه قوله : ﴿ آنَسَ مِن جَانِبِ الطُّورِ نَارًا ﴾ [1] .

وأما الرشد فمعلوم أنه ليس المراد الرشد الذى لا تعلق له بصلاح المال، بل لابد وأن يكون هذا مراداً، وهو أن يعلم أنه مصلح لماله حتى لا يقع منه إسراف ولا يكون بحيث يقدر الغير على خديعته.

ثم اختلفوا فى أنه هل يضم إليه الصلاح فى الدين ؟

فعند الشافعى رضى الله عنه لا بد منه.

وعند أبى حنيفة رضى الله عنه غير معتبر، والأول أولى، ويدل عليه وجوه:

إحداها : أن أهل اللغة قالوا : الرشد هو إصابة الخير، والمفسد فى دينه لا يكون مصيباً للخير.

وثانيها : أن الرشد نقيض الغى قال تعالى : ﴿قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ [2] . والغى : هو الضلال والفساد وقال تعالى : ﴿ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ﴾ [3] . فجعل العاصى غوياً، وهذا يدل على أن الرشد لا يتحقق إلا مع الصلاح فى الدين.

وثالثها : أنه تعالى قال : ﴿ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ ﴾ [4] نفى الرشد عنه لأنه ما كان يراعى مصالح الدين والله أعلم.

إذا عرفت هذا فنقول : فائدة هذا الاختلاف أن الشافعى رحمه الله يرى الحجر على الفاسق، وأبو حنيفة رضى الله عنه لا يراه.

المسألة الرابعة : اتفقوا على أنه إذا بلغ غير رشيد فأنه لا يدفع إليه ماله، ثم عند أبى حنيفة لا يدفع إليه ماله حتى يبلغ خمساً وعشرين سنة، فإذا بلغ ذلك دفع إليه ماله على كل حال، وإنما اعتبر هذا السن لأن مدة بلوغ الذكر عنده

(١) سورة القصص الآية ٢٩.
(٢) سورة البقرة الآية ٢٥٦.
(٣) سورة طه الآية ١٢١.
(٤) سورة هود الآية ٩٧.

بالسن ثماني عشرة سنة، فإذا زاد عليه سبع سنين وهي مدة معتبرة في تغير أحوال الإنسان لقوله عليه الصلاة والسلام «مروهم بالصلاة لسبع» فعند ذلك تمت المدة التي يمكن فيها حصول تغير الأحوال، فعندها يدفع إليه ماله، أونس منه الرشد أو لم يؤنس.

وقال الشافعي رضي الله عنه : لا يدفع إليه أبداً إلا بإيناس الرشد، وهو قول أبي يوسف ومحمد رحمهما الله.

احتج أبو بكر الرازي لأبي حنيفة بهذه الآية فقال : لا شك أن اسم الراشد واقع على العقل في الجملة، والله تعالى شرط رشداً مُنَكَّراً ولم يشترط سائر ضروب الرشد، فاقتضى ظاهر الآية أنه لما حصل العقل فقد حصل ما هو الشرط المذكور في الآية، فيلزم جواز دفع المال إليه ترك العمل به فيما دون خمس وعشرين سنة، فوجب العمل بمقتضى الآية فيما زاد على خمس وعشرين سنة،

ويمكن أن يجاب عنه بأنه تعالى قال: ﴿وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ﴾ ولاشك أن المراد ابتلاؤهم فيما يتعلق بمصالح حفظ المال، ثم قال: ﴿فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا﴾ ويجب أن يكون المراد : فإن آنستم منهم رشداً في حفظ المال وضبط مصالحه، فإنه إن لم يكن المراد ذلك تفكك النظم ولم يبق للبعض تعلق بالبعض، وإذا ثبت هذا علمنا أن الشرط المعتبر في الآية هو حصول الرشد في رعاية مصالح المال، وعند هذا سقط استدلال أبي بكر الرازي، بل تنقلب هذه الآية دليلاً عليه لأنه جعل رعاية مصالح المال شرطًا في جواز دفع المال إليه، فإذا كان هذا الشرط مفقوداً بعد خمس وعشرين سنة، وجب أن لا يجوز دفع المال إليه، والقياس الجلي أيضًا يقوي الاستدلال بهذا النص، لأن الصبي إنما منع منه المال لفقدان العقل الهادي إلى كيفية حفظ المال وكيفية الانتفاع به، فإذا كان هذا المعنى حاصلاً في الشاب والشيخ كان في حكم الصبي، فثبت أنه لا وجه لقول من يقول : إنه إذا بلغ خمسًا وعشرين سنة دفع إليه ماله وإن لم يؤنس منه الرشد.

المسألة الخامسة : إذا بلغ رشيدا ثم تغير وصار سفيهاً حجر عليه عند الشافعي ولا يحجر عليه عند أبي حنيفة وقد مرت هذه المسألة عند قوله تعالى : ﴿ ولا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا ﴾ والقياس الجلى أيضًا يدل عليه ، لأن هذه الآية دالة على أنه إذا بلغ غير رشيد لم يدفع إليه ماله ،وإنما لم يدفع إليه ماله لئلا يصير المال ضائعًا فيكون باقيًا مرصداً ليوم حاجته ، وهذا المعنى قائم فى السفه الطارئ، فوجب اعتباره والله أعلم.

المسألة السادسة : قال صاحب الكشاف : الفائدة فى تنكير الرشد التنبيه على أن المعتبر هو الرشد فى التصرف والتجارة ، أو على أن المعتبر هو حصول طرف من الرشد وظهور أثر من آثاره حتى لا ينتظر به تمام الرشد [(١)] .

وعالج الإسلام موضوع تزوج ولى اليتيمة منها الأمر الذى كان أهل الجاهلية يفعلونه مستغلين سلطة ولايتهم على اليتامى ، فقرر أنه ليس للولى أن يستغل ولايته فيتزوج من اليتيمة التى تحت يده مالم يكن ذلك بكامل رضاها وبشرط توفيتها كامل حقوقها ، وبشرط معاملتها بالقسط .

ومن تخوف من نفسه أن تجانب سبيل العدل التام مع اليتيمة التى تحت ولايته إذا هو تزوج منها فلا يتزوج منها ، إن النساء غيرها كثيرات فلينكح منهن ما شاء مثنى وثلاث ورباع ، وهذا ما دل عليه قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَلاَّ تَعُولُوا (٣) ﴾ [(٢)] .

ومعنى ﴿أَلاَّ تَعْدِلُوا ﴾ أى أن لا تتحملوا مسئولية النفقة على عيال كثيرين.

عن الكسائى قال : من العرب من يقول : عال الرجل يعول إذا كثر عياله ، وعن اللحيانى مثله [(٣)] .

(١) التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب للإمام فخر الدين الرازى ٩ / ١٥٢-١٥٤ .

(٢) سورة النساء الآية ٣ .

(٣) الأخلاق الإسلامية وأسسها ٢ / ٥٣ ، ٥٤ .

• نصيب اليتامى فى الغنائم

من رعاية الله للأيتام أن جعل لهم نصيبًا فى خمس الغنائم وفى الفيء .

والغنائم هى ما يستولى عليه المسلمون من أموال العدو فى الحرب .

أما الفيء : فهو ما يستولى عليه المسلمون من أموال العدو بغير الحرب .

وحصة الأيتام من الغنائم من أصل الخمس الذى لله وللرسول قال الله تعالى : ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ ﴾ [1] .

أى : واعلموا أيها المؤمنون أن كل ما غنمتموه من الكفار المحاربين ، فاجعلوا أولاً خمسه لله ينفق فيما يرضيه من مصالح الدين العامة كالدعوة للإسلام ، وإقامة شعائره وعمارة الكعبة وكسوتها ، ثم أعطوا للرسول منه كفايته لنفسه ونسائه مدة سنة ، ثم أعطوا منه ذوى القربى من أهله وعشيرته نسبًا وولاء ، وقد خص الرسول ﷺ ذلك ببنى هاشم وبنى أخيه المطلب المسلمين ، دون بنى عبد شمس ونوفل ، ثم المحتاجين من سائر المسلمين وهم اليتامى والمساكين وابن السبيل .

روى البخارى عن مُطعم بن جبير من «بنى نوفل» قال : مشيت أنا وعثمان بن عفان من بنى عبد شمس إلى رسول الله ﷺ فقلنا : يا رسول الله ، أعطيت بنى المطلب وتركتنا ، ونحن وهم بمنزلة واحدة .

فقال رسول الله ﷺ : «إنما بنو المطلب وبنو هاشم شىء واحد» .

وسرُّ هذا أن قريشًا لما كتبت الصحيفة ، وأخرجت بنى هاشم من مكة وحصرتهم فى الشعب لحمايتهم له ﷺ دخل معهم فيه بنو المطلب ولم يدخل بنو عبد شمس ولا بنو نوفل ، لما كان من عداوة بنى أمية بن عبد شمس لبنى هاشم فى الجاهلية والإسلام ، فقد ظل أبو سفيان يقاتل النبى ﷺ ويؤلب عليه المشركين وأهل الكتاب إلى أن أظفر الله رسوله ودانت له العرب وفتح مكة ،وكذلك بعد الإسلام خرج معاوية على علىٍّ وقاتله .

---

(١) سورة الأنفال الآية ٤١ .

والحكمة في تقسيم الخمس على هذا النحو أن الدولة التى تدير سياسة الأمة لابد لها من المال لتستعين به على القيام بالمصالح العامة كشعائر الدين والدفاع عن الأمة وهو ما جعل لله في الآية، ثم نفقة رئيس حكومتها، وهو سهم الرسول فيها، ثم ما كان لأقوى عصبة وأخلصهم له وأظهرهم تمثيلاً لشرفه وكرامته وهو سهم ذوى القربى، ثم ما يكون لذوى الحاجات من ضعفاء الأمة وهم الباقون «وهل هناك من هو أضعف من اليتامى ؟».

ولايزال هذا الاعتبار مراعى معمولاً به فى كثير من الدول مع اختلاف شئون الاجتماع والمصالح العامة، فالمال الذى يرصد للمصالح العامة يدخل فى ميزانيات الوزارات المختلفة ما بين جهرية وسرية، ولاسيما الأمور الحربية، ومن ميزانية الدولة ما يبذل لإعانة الجماعات الخيرية والعلمية ونحوها.

ولكن اليتامى والمساكين وابن السبيل لا تجعل لهم الدول فى هذا العصر حقًا فى أموال الدولة،وإن كان بعض الدول يعطيهم أموالاً من الأوقاف الخيرية التى تتولى أمر استغلالها وإنفاق ريعها على المستحقين له، وبعضها يخصص إعانات للعمال المتعطلين فى وقت الحاجة فحسب[1].

• **الفـــىء**

أما الفىء : فهو ما يستولى عليه المسلمون من أموال العدو بغير حرب، وحصة الأيتام تؤخذ منه كله لا من خمسه فقط مثل الغنيمة قال الله تعالى : ﴿ وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٦) مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٧) ﴾[2].

روى أن الصحابة رضى الله عنهم طلبوا من الرسول ﷺ أن يقسم الفىء بينهم كما قسم الغنيمة في بدر وغيرها بينهم، فبين سبحانه الفرق بين الأمرين

---

(١) تفسير المراغى ١٠ / ٤-٦.

(٢) سورة الحشر الآيتان ٦، ٧.

بأن الغنيمة تكون فيما أتعبتم أنفسكم فى تحصيله وأوجفتم عليه الخيل والركاب ،والفىء فيما لم تتحملوا فى تحصيله تعبًا وحينئذ يكون أمره مفوضًا إلى الرسول يضعه حيث يشاء [١] .

﴿ مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ ﴾ أى ما رده الله إلى رسوله من كفار أهل القرى كقريظة والنضير وفدك وخيبر ، فيصرف فى وجوه البر والخير ولا يقسم تقسيم الغنائم ، بل يعطى للرسول ولذوى قرباه من مؤمنى بنى هاشم وبنى المطلب ولليتامى الفقراء ، وللمساكين ذوى الحاجة والبؤس ، ولابن السبيل الذى انقطع عنه ماله ، ولا يمكن أن يصل إليه ؛ لبعد الشقة وانقطاع طرق المواصلات وقد كان ذلك حين كانت طرق الوصول شاقة ، ولكنها الآن سهلة وهى على أساليب شتى ومن ثم فهذا النوع لايوجد الآن .

ثم علل التقسيم بقوله : ﴿ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ ﴾ أى وإنما حكمنا بذلك وجعلناه مقسمًا بين هؤلاء المذكورين ، لئلا يأخذه الأغنياء ويتداولوه فيما بينهم ، ويتكاثروا به كما كان ذلك دأبهم فى الجاهلية ولا يصيب الفقراء من ذلك شىء [٢] .

والسبب فى أن الفىء كله يوجه لأبواب الخير ، التى منها الإنفاق على اليتامى الفقراء : أنه منحة ربانية للمسلمين عامة وليس للمقاتلين فيه كسب مباشر فعال ، بخلاف الغنائم ، وهذا ما دل عليه قوله الله تعالى : ﴿ وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ ﴾ [٣] .

فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب : أى فما حشتم عليه خيلكم ولا ركابكم مقاتلين لذلك عدوكم ، حتى تستحقوا منه ، وإنما هو منحة من الله أفاءها على رسوله ، وأصل الإيجاف فى اللغة : الإسراع فى السير .

سأل المسلمون رسول الله ماذا ينفقون ؟

---

(١) المرجع السابق ٢٨ / ٣٩ .
(٢) المرجع السابق ٢٨ / ٣٩ .
(٣) سورة الحشر الآية ٦ .

فنزل القرآن مبينا وجوه الخير التي ينبغي لهم أن ينفقوا فيها ، ومنها اليتامى، قال الله تعالى : ﴿ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ (٢١٥) ﴾ [١].

وهكذا توجه النصوص الإسلامية لرعاية الأيتام وسائر الضعفاء عناية بالغة ولو أن الوصايا الإسلامية هذه اتبعت بصدق وإخلاص وتنفيذ صحيح لكان الأيتام وسائر الضعفاء أسعد حالاً وأرغد عيشا من كثير من الذين يتمتعون بحنان وعطف آبائهم وأمهاتهم.

ويبين الله تبارك وتعالى وجوه البر ، فيذكر منها إعطاء اليتامى المال على حبه، يقول الله تبارك وتعالى : ﴿ لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ ﴾ [٢].

وهكذا توجه هذه الآية إلى العناية بالفقراء والضعفاء وذى الحاجات ومنهم اليتامى، رحمة بهم [٣].

إلى جانب حث الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه على إكرام اليتيم وإطعامه والإنفاق عليه في أقوال كثيرة ،

- **والآن نستطيع أن نستخلص ما يلى :**

١ - كان العرب فى الجاهلية قبل الإسلام من قسوة قلوبهم يهينون اليتامى ويدفعونهم بالأبواب، ويأكلون أموالهم ظلمًا وعدوانًا، وكان الرجل منهم إذا كان وليًا لأمر يتيمة أنثى، فإن كانت جميلة ولها مال تزوجها وأضافها إلى نسائه - إذ كانت التقاليد العربية تسمح بهذا الزواج - وهضم حقوقها وأكل أموالها، وإن كانت دميمة منعها من الزواج وأكل أموالها.

فلما جاء الإسلام وبسط الله سلطانه، أصلح كل هذه الأوضاع الشاذة، ورفع

(١) سورة البقرة الآية ٢١٥. (٢) سورة البقرة الآية ١٧٧.

(٣) الشيخ عبد الرحمن الميدانى ، الأخلاق الإسلامية وأسسها ٢ / ٥٥، ٥٦.

شأن اليتامى إلى مقام التكريم من جهة، والمحافظة على حقوقهم المالية والشخصية، من جهة أخرى، وجعل المجتمع الإسلامى رقيبًا عامًا على الأولياء، وحارسًا عامًا لحقوق اليتامى.

٢ - اختارالله تعالى لأصفى أصفيائه من خلقه محمد بن عبد الله اليتم، وحسب اليتامى مواساة وفخرًا أن يكون سيد المرسلين قد ولد يتيم الأب، ثم نشأ يتيم الأبوين، ويخاطبه الله بقوله : ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ (٦) ﴾[1].

أى : فآواك، إذ يسر لك بدل والديك من يكفلك ويؤويك ويحنو عليك.

وإذ ذاق الرسول طعم اليتم، وعرف فى نشأته مشاعره، وعرف ما يقهر اليتيم وما يواسيه وعرف ما يفرحه ويسره ويجبر كسره ويكون له تعويضًا عما فقد من أبويه قال الله له : ﴿ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ (٩) ﴾.

قال مجاهد : لا تحقر اليتيم فقد كنت يتيمًا.

وقال الفراء : لا تقهره على ماله فتذهب حقه لضعفه كما كانت العرب تفعل فى أموال اليتامى تأخذ أموالهم وتظلمهم حقوقهم.

وروى أنه ﷺ قال : «خير بيت فى المسلمين بيت فيه يتيم يحسن إليه، وشر بيت فى المسلمين بيت فيه يتيم يساء إليه ثم قال بأصبعيه : أنا وكافل اليتيم فى الجنة هكذا وأشار بأصبعيه».

وفى الآية دلالة على اللطف باليتيم وبره والإحسان إليه، قال ﷺ : «من ضم يتيمًا وكان فى نفقته وكفاه مؤنته كان له حجابًا من النار يوم القيامة، ومن مسح برأس يتيم كان له بكل شعرة حسنة»[2].

وقال قتادة : كن لليتيم كالأب الرحيم.

فإن قيل : ما الحكمة فى أن الله تعالى اختار لنبيه ﷺ اليتم ؟

الجواب : لأمور

أحدها : أن يعرف حرارة اليتم فيرفق باليتيم.

ثانيها : يشاركه فى الاسـ فيكرمه لأجل ذلك لقوله ﷺ : «إذا سميتم الولد محمدًا فأكرموه ووسعوا له فى المجلس».

---

(١) سورة الضحى الآية ٦.

(٢) سبق تخريجه.

ثالثًا : ليستند من أول عمره على الله تعالى، فيشبه إبراهيم عليه السلام في قوله: حسْبي من سؤالي علمه بحالي.

رابعهما : أن اليتيم تظهر عيوبه فلما لم يجدوا عيبا لم يجدوا فيه مطعنا.

خامسها : جعله يتيما ليعلم كل أحد أن فضيلته ابتداء من الله تعالى لا من تعليم؛ لأن من له أب فإنه يؤدبه ويعلمه.

سادسها : اليتم والفقر نقص في العادة فكونه ﷺ مع هذين الوصفين من أكرم الخلق كان ذلك قلبا للعادة فيكون معجزة [1].

٣ - قال رسول الله : «كافل اليتيم له أو لغيره أنا وهو كهاتين في الجنة»[2] وأشار مالك بالسبابة والوسطى.

والسبابة من الأصابع التي تلي الإبهام، وكانت في الجاهلية تدعى بالسبابة؛ لأنهم كانوا يسبون بها فلما جاء الله بالإسلام كرهوا هذا الاسم فسموها المشيرة، لأنهم كانوا يشيرون بها إلى الله في التوحيد.

وتسمى أيضًا بالسباحة، جاء تسميتها بذلك في حديث وائل بن حجر وغيره، ولكن اللغة سارت بما كانت تعرفه في الجاهلية فغلبت.

وروى عن أصباع رسول الله ﷺ أن المشيرة منها كانت أطول من الوسطى ثم الوسطى أقصر منها، ثم البنصر أقصر من الوسطى.

وروى يزيد بن هارون قال : أخبرنا عبد الله بن مقْسَم الطائفي قال : حدثتني عمتي سارة بنت مقسم أنها سمعت ميمونة بنت كَرْدَم قالت : خرجت في حجة حجها رسول الله ﷺ فرأيت رسول الله على راحلته، وسأله أبي عن أشياء، فلقد رأيتني أتعجب فأنا جارية من طول أصبعه التي تلي الإبهام على سائر أصابه فقوله عليه السلام : «أنا وهو كهاتين في الجنة» وقوله في الحديث الآخر : «أحشر أنا وأبو بكر وعمر يوم القيامة هكذا» وأشار بأصابعه الثلاث فإنما أراد ذكر المنازل والاشراف على الخلق فقال: نحشر هكذا ونحن مشرفون، وكذا كافل اليتيم تكون منزلته رفيعة، فمن لم يعرف شأن أصابع رسول الله

---

(١) تفسير القرآن الكريم المسمى بالسراج المنير للخطيب الشربيني ٤ / ٥٥٣ .

(٢) سبق تخريجه.

ﷺ حمل تأويل الحديث على الانضمام والاقتراب بعضهم من بعض فى محل القربة وهذا معنى بعيد ؛ لأن منازل الرسل والنبين والصديقين والشهداء والصالحين مراتب متباينة ومنازل مختلفة [١].

٤ - بشر الرسول ﷺ كافل اليتيم بأنه يكون مع الرسول في الجنة، وفى إشارة الرسول ﷺ بأصبعيه إيماء إلى أن كافل اليتيم يكون مجاوراً له ﷺ فى الجنة، كمجاورة أصبع السبابة للإصبع الوسطى، أما التفريج بينهما فقد يكون إيماء إلى المجاورة بوجه عام مع ملاحظة الفروق فى المنزلة التى تدل عليها نصوص أخرى.

لكفالة اليتيم هذا الثواب العظيم سواء أكان اليتيم قريبًا للكافل أم غير ذى قرابة له، ولكن هذا التكريم إنما يكون لمن استحق دخول الجنة بالإيمان أخذاً بدلالة النصوص الأخرى.

٥ - كان لكفالة اليتيم هذه المنزلة فى الإسلام لأنها تنبئ عن مشاعر الرحمة فى قلب من يكفله، والرحمة جوهرة نفيسة من الجواهر التى تشتمل عليها قلوب المؤمنين، وتعظم هذه الجوهرة فى قلوب العظماء حقا، ومهما عظمت هذه الجوهرة فى قلب امرئ كان أعظم مكانة وأرفع قدراً، ولأنها واجب اجتماعى تفرضه أحكام الشريعة، ومبادئ الأخلاق وجميع النظم الوضعية التى تنظر بعقل إلى مصالح الجماعة الإنسانية.

٦ - من يعتدى على اليتيم فيظلمه أو يأكل ماله بغير حق، ويستغل ضعفه وقلة حيلته فهو من أشد الناس عقوبة، لأنه من أكثرهم جرمًا وأقلهم رحمة وعاطفة إنسانية، ويضاف إلى ذلك استهانته بالإنذارات الشديدة التى أنذر الله بها الذين يظلمون اليتامى ويأكلون أموالهم بغير حق.

٧ - كم من أناس ظلموا اليتامى فأكلوا أموالهم بغير حق فكانت عاقبتهم وعاقبة أسرتهم فى الدنيا وخيمة جداً، وجازاهم الله على ظلمهم جزاء نكرا، وكان ذلك تأكيداً لما ورد من أن ظلم اليتامى مما يعجل الله العقوبة عليه

---

(١) القرطبى ٢ / ١٥ .

فى الدنيا مع مالهم من عقاب يوم القيامة، ليتعظ الناس فلا يتعرضوا لظلم اليتامى، والسر فى ذلك أن الله تبارك وتعالى حينما يتوفى آباءهم وأمهاتهم أو كليهما يجعلهم فى كفالته وحمايته، وتظهر هذه الكفالة والحماية فى تسخير من يكفلهم من أهل الرحمة وفى تعجيل عقاب من يظلمهم.

وحينما تكرر سنة العقوبة المعجلة لمن يظلم اليتيم تكون عبرة وعظمة لكل من تحدثه نفسه بأن يظلم يتيمًا . إذ يضع فى حسابه أن العقاب لاحق لا محالة إذا هو دخل دائرة الحظر فظلم من هو فى كفالة الله.

٨ - قال تعالى فى سورة النساء : ﴿ وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ۝٩ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ۝١٠ ﴾[١] .

فى هذا النص القرآنى الكريم حث على حسن رعاية اليتامى والإحسان إليهم وضمان حقوقهم، واستثارة لحرص الإنسان على أن تعامل ذريته الصغار من بعده بالإحسان والإكرام، مكافأة له على معاملته لليتامى بمثل ذلك فإذا لم يفعل ذلك فلربما قست قلوب الناس تجاه من قد يصيبهم اليتم من ذريته، أليس هو عرضة فى كل لحظة لأن تقبض عليه يد المنون فيموت ويخلف من ورائه صغارًا له يمسون بفقده يتامى؟

فبماذا يحب أن يعامل الناس أولاده الذين قد يمسون يتامى بموته؟

إنه يحب أن يعاملوهم بمثل الإكرام الذى كانوا يتمتعون به فى حياته.

إذن فليعامل هو يتامى الآخرين بمثل ما يحب أن تعامل به ذريته الضعاف من بعده، وإلا فليرتقب المعاقبة بالمثل، تعذيبًا لروحه بالحرقة على ذريته الضعاف الذين تركهم يتامى، وفى هذه الاستثارة ضرب على الوتر العاطفى الحساس للتوجه إلى ما يجب.

٩ - إن مشاعر اليتيم ربما تبلغ من الإفراط فى الحساسية أن تقهره الكلمة العابرة التى لا تثير انتباه أى إنسان آخر ،ولا تحرك فيه شيئًا، لذلك كان على

---

(١) سورة النساء الآيتان ٩، ١٠.

كافل اليتيم أن يكون دقيق الملاحظة جداً لما يهز مشاعر الأيتام بالألم فلا يأتى منها شيئًا، ويوصى أسرته بمثل ذلك، فليس من السهل قهر اليتيم ولو بكلمة عابرة.

١٠ - إن مراقبة الأيتام ودراسة مشاعرهم تنبئ عن أمور مهمة جداً من هذا القبيل، ومن الجدير بمتتبعى الدراسات النفسية بالسبر والملاحظة، أن يخصصوا فصلاً من دراستهم لدراسة أحوال الأيتام النفسية، وما يسرهم ويواسيهم وما يؤلمهم ويقهرهم، حتى تكون هذه الدراسات الواقعية هاديا لكل من يتولى كفالة الأيتام والإشراف على تربيتهم وتأديبهم وتنشئتهم، وحتى لا يكونوا فى المستقبل جانحين، أومعقدين بالحق والكراهية والسخط على كل شيء من حولهم.

١١ - إن اليتيم قد يقهره منظر عطف الأب أو الأم على ولدها داخل الأسرة التى يعيش فى كفالتها ويؤلمه جداً تفضيل غيره عليه ولو لأتفه الأشياء، ويتيقظ فيه الشعور بأنه لو لم يكن يتيمًا للقى من العطف والإكرام والتفضيل مثل الذى يلقاه الآخرون، ولكنه محروم من ذلك بسبب يتمه.

١٢ - اليتيم مخلوق ناشئ من الناس ضعيف وهو بحاجة إلى من يكفله ويرعاه ويقوم بشئونه فإذا هو فقد الحانى عليه، الرؤوف به من ذى قرابته، وجب أن يجد فى المجتمع بديلاً عنه، وهذا البديل لا يكفل بصدق وأمانة مالم يكن قلبه مملوءاً بخلق الرحمة أو مشحونًا بإيمان يربطه بالله ربطا صحيحًا ويدفعه إلى ابتغاء مرضاة الله فمن جفت فى قلبه منابع الرحمة الإنسانية كان الإيمان بالله وباليوم الآخر فى قلبه كافيًا لدفعه إلى عمل كريم تدفع إليه الرحمة، وكان أيضًا محرضًا وممداً لمنابع فيه حتى تعود إلى عطائها بعد جفافها.

١٣ - من الخير إقامة مؤسسات عامة لكفالة الأيتام مزودة بأفضل وأحدث وسائل الحضانة والرعاية والكفالة الجماعية، ويشرف عليها مربون ومربيات يتمتعون بالمؤهلات التربوية العالية، النظرية والعملية وبذلك يتهيأ للأيتام

وسط اجتماعي بعيد نوعًا ما عن مشاعر الحرمان والتفاضل التي يشعر بها الأيتام داخل الأسر، ومثل هذا المشروع من الواجبات الاجتماعية التي ترضي الله وتلائم أساليب العصر الحضارية.

١٤ - نوصي الذين يقومون على شئون اليتامى ويتولون أمورهم بالتقوى، وعليهم أن يحافظوا على أموال اليتامى ويكرموهم ولا يهينوهم ويحسنوا تربيتهم وتأديبهم وتعليمهم، ويعاملوهم بمثل ما يعاملون به أولادهم، وهذه التقوى تفرض عليهم أن يقولوا قولاً سديداً في كل أمر يتعلق بالأيتام الذين يتولون شئونهم.

ومن القول السديد إرشاد الأيتام إلى فضائل الخصال، ومحاسن الآداب، وكريم الأفعال، مع حكمة في الأسلوب.

الإحسان إلى النفس
بالإحسان إلى الجار

ومن الإحسان إلى النفس الإحسان إلى الجار، قال تعالى : ﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالاً فَخُورًا (٣٦) ﴾ [(١)].

فى هذه الآية من عناصر الترابط الإنسانى الإحسان إلى الجار سواء أكان قريب الدار أم قريب النسب والرحم إلى جانب الجوار، وسواء أكان بعيد الدار أم بعيد النسب والرحم.

وللجار على جاره حق عظيم فى الأديان كلها، والعرب كانوا يعظمون حق الجار، ويحترمون الجوار فى الجاهلية قبل الإسلام ويعتزون بثناء الجار عليهم ويفخرون بذلك، وكان الضعيف عندهم إذا جاور الأقوياء صار قويًا، له مالهم وعليه ما عليهم.

وحين جاء الإسلام أكد حق الجوار وحث عليه فلقد اهتم القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة بحقوق الجار اهتمامًا عظيمًا، فالقرآن الكريم وضع حقوق الجار مع حق الله وحق الوالد والأرحام.

والسنة أظهرت أن جبريل مازال يوصى النبى ﷺ بالجار حتى إن النبى ﷺ ظن أن الله سيجعل الجار وارثًا من شدة التأكيد على حقوقه، فعن ابن عمر وعائشة رضى الله عنهما، قالا : قال رسول الله ﷺ : «مازال جبريل يوصينى بالجار حتى ظننت أنه سيورثه » [(٢)].

قال الإمام أحمد : حدثنا يزيد حدثنا هشام عن حفصة عن أبى العالية عن رجل من الأنصار قال : خرجت من أهلى أريد النبى ﷺ فإذا به قائم ورجل معه مقبل عليه فظننت أن لهما حاجة.

---

(١) سورة النساء الآية ٣٦.

(٢) رواه البخارى ومسلم.

قال الأنصارى لقد قام رسول الله حتى جعلت أرثى لرسول الله من طول القيام، فلما انصرف قلت : يا رسول الله ، لقد قام بك هذا الرجل حتى جعلت أرثى لك من طول القيام.

قالَ : «وقد رأيتَه» ، قلت : نعم.

قال : «ذاك جبريل مازال يوصينى بالجار حتى ظننت أنه سيورثه».

ثم قال : «أما إنك لو سلمت عليه لرد عليك السلام».

واسم الجار يشمل المسلم والكافر ، والعابد والفاسق، والصديق والعدو ، والبلدى والغريب، والنافع والضار، والقريب والأجنبى، والأقرب دارا والأبعد ، وله مراتب بعضها أعلى من بعض[1].

● أنواع الجيران

قال العلماء : الجيران ثلاثة :

جار له حق واحد، وجار له حقان، وجار له ثلاثة حقوق.

فالجار الذى له ثلاثة حقوق : هو الجار المسلم ذو الرحم، له حق الرحم، وحق الإسلام، وحق الجوار.

والجار الذى له حقان : فالجار المسلم، له حق الجوار، وحق الإسلام.

وأما الجار الذى له حق واحد : فالجار المشرك.

وهذا التقسيم موافق لما جاءت به الآيات والأحاديث بالنسبة لحق المسلم وحق القريب وحق الجار، كما أنه موافق للتقسيم العقلى الاستقرائى.

وعلى هذا فللجار الكافر مهما كان كفره : حق الجوار فى الإحسان إليه.

● حد الجيرة

لم يتفق العلماء على رأى فى حد الجوار، فجاء عن على رضى الله عنه : من سمع النداء فهو جار : يعنى أن كل الذين يصلهم صوت المؤذن الذى يؤذن بدون مكبر صوت يعتبرون جيرانا.

وقيل : من صلى معك صلاة الصبح فى المسجد فهو جار.

---

(١) فتح البارى ١٠ / ٣٦٩.

وعن عائشة رضى الله عنها : حد الجوار أربعون دارًا من كل جانب.

وعن الأوزاعى مثله.

وأخرج البخارى فى الأدب المفرد مثله عن الحسن، وجاء ذلك فى حديث ضعيف رواه الطبرانى.

وعن ابن شهاب أربعون دارًا عن يمينه وعن يساره ومن خلفه،ومن بين يديه.

وهذا يحتمل أن يراد منه التوزيع فيكون من كل جانب عشرة [1].

وقالت فرقة : من سكن فى محلة أو مدينة فهو جار،قال تعالى : ﴿ لَئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا ⦗٦٠⦘ ﴾ [2].فجعل الله تعالى اجتماعهم فى المدينة جوار.

- **مراتب الجيران**

للجار مراتب بعضها أعلى من بعض، فأعلاها من اجتمعت فيه الصفات الأولى كلها وهى : الإسلام والعبادة والصداقة وكونه من بلدك، النافع لك، القريب، الأقرب دارًا.

ثم أكثرها يأتى فى المرتبة الثانية، ثم أقلها.

والجيرة مراتب : بعضها ألصق من بعض، أدناها الزوجة ، كما قال :

أيا جارتا بينى فإنك طالقة كذاك أمور النار غادر وطارقة

وكلما كان الجار أقرب بابًا كان أولى بالإحسان والإكرام، روى البخارى عن عائشة قالت : قلت يا رسول الله، إن لى جارين فإلى أيهما أهدى ؟

قال : «إلى أقربهما منك بابا».

ولذلك : ذهب جماعة من العلماء إلى أن هذا الحديث يفسر المراد من قوله تعالى : «الجار ذى القربى» وأنه القريب المسكن، «والجار الجنب» وهو البعيد المسكن ،واحتجوا بهذا على إيجاب الشفعة للجار، وعضدوه بقوله عليه الصلاة والسلام : «الجار أحق بصَقَبه» . قال ابن الأنبارى : أراد بالصقب الملاصقة والقرب، والمراد به الشفعة كأنه أراد بما يليه [3].

---

(١) فتح البارى ١٠ / ٣٧٤ .

(٢) سورة الأحزاب الآية ٦٠.

(٣) لسان العرب .

قال ابن المنذر فدل هذا الحديث على أن الجار يقع على غير اللصيق .. وعوام العلماء يقولون : إذا أوصى الرجل لجيرانه أعطى اللصيق وغيره إلا أبا حنيفة فإنه فارق عوام العلماء وقال : لايعطى إلا اللصيق وحده [1].

● الحث على الإحسان إلى الجار والبعد عن إيذائه

الوصاة بالجار مأمور بها مندوب إليها، مرغب فيها، مسلماً كان أو كافراً وهو الصحيح. فللجار على الجار في المفاهيم الإسلامية والآداب الشرعية حقوق تشبه حقوق الأرحام على الأرحام.

وللجار حق المواصلة بالزيارة والتهادى، والعيادة والمواساة والمعونة، وله حق كف الأذى، والمناصرة بالحق والنصح له، وتهنئته، ومشاركته في مسراته، وتعزيته ومواساته في مصائبه.

وقال آخرون : ينبغي للجار أن يتعاهد جاره بإهداء ما تيسر، والصدقة والدعوة واللطافة به وبأولاده وأهله، والصفح عن زلتهم، وبدأته بالسلام، وإظهار البشر له، وإعانته والتوسيع عليه فى معاملته وإقراضه، وعيادته وتعزيته عند المصيبة وتهنئته بما يفرحه، ويستر ما انكشف له من عورة، ويغض بصره عن محارمه، ويمنع أولاده وأهله من إيذاء أولاد جاره وأهلهم، وإن بدا لهم حاجة قام بها، ويعمل كل ما فيه نفع لهم ويقدر عليه، ويدفع عنهم ما يضرهم ما استطاع، فبهذه الأشياء تقع الألفة والمحبة وبها تحصل المودة، ويصبح المرء بين جيرانه محبوباً موقرا يفتقدونه إذا غاب ويسألون عنه، ويعدونه إذا حضر مرغوباً مرموقاً بالعناية منهم، آمنا منهم، مطمئنا إليهم [2].

وقد جاء فى الأحاديث النبوية التحذير من إيذاء الجار، والترغيب في الإحسان إليه، فعن ابن عمر رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : «مازال جبريل يوصينى بالجار حتى ظننت أنه سيورثه» [3].

وعن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «إن الله

---

(١) تفسير القرطبى ٥ / ١٨٤ ، والشيخ حسن أيوب، السلوك الاجتماعى فى الإسلام ٢٨٤ .

(٢) موارد الظمآن لدروس الزمان للشيخ عبد العزيز المحمد السلمان ٢ / ٤٧٤ ، ٤٧٥ .

(٣) متفق عليه .

عز وجل قسم بينكم أخلاقكم كما قسم بينكم أرزاقكم، وإن الله عز وجل يعطى الدنيا من يحب ومن لا يحب، ولا يعطى الدين إلا من أحب. فمن أعطاه الله الدين فقد أحبه، والذى نفسى بيده لا يسلم عبد حتى يُسْلم قلبه ولسانه، ولا يؤمن حتى يأمن جاره بوائقه».

قلت : يا رسول الله وما بوائقه ؟ قال : «غشمُه وظلمه».

ولايكسب مالاً من حرام فينفق منه فيبارك فيه، ولا يتصدق به فيقبل منه؛ ولا يتركه خلف ظهره إلا كان زاده إلى النار، إن الله لا يمحو السيئ بالسيئ، ولكن يمحو السيء بالحسن، إن الخبيث لا يمحو الخبيث»[1].

وكما قلنا : على الجار أن يتعاهد جاره بإهداء ما تيسر والصدقة، فعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «يا نساء المسلمات لا تحقرن جارة لجارتها ولو فرسن[2] شاة»[3].

وعن أبى ذر رضى الله عنه قال : قال رسول الله : «يا أبا ذر إذا طبخت مرقة فأكثر ماءها وتعاهد جيرانك»[4].

وفى رواية له عن أبى ذر قال : إن خليلى ﷺ أوصانى : «إذا طبخت مرقة فأكثر ماءها ثم انظر أهل بيت من جيرانك فأصبهم منها بمعروف».

فحض عليه السلام على مكارم الأخلاق، لما يترتب عليها من المحبة وحسن العشرة ودفع الحاجة والمفسدة، فإن الجار قد يتأذى بقُتار[5] قدر جاره، وربما تكون له ذرية فتهيج من ضعفائهم الشهوة، ويعظم على القائم عليهم الألم والكلفة، لاسيما إن كان القائم ضعيفا أو أرملة فتعظم المشقة ويشتد منهم الألم والحسرة.

وهذا يدفع بتشريكهم فى شىء من الطبيخ يدفع إليهم، ولهذا المعنى خص عليه السلام الجار القريب بالهدية، لأنه ينظر إلى ما يدخل دار جاره وما يخرج منها، فإذا رأى ذلك أحب أن يشارك فيه؛ وأيضا فإنه أسرع إجابة لجاره عندما ينوبه من حاجة فى أوقات الغفلة والغرة.

(١) رواه أحمد.
(٢) فرسن شاة : أى حافر شاة.
(٣) متفق عليه.
(٤) رواه مسلم.
(٥) القتار «بضم القاف» : ريح القدر والشواء ونحوهما.

فلذلك بدأ به على من بعد بابه وإن كانت داره أقرب.

قال العلماء : لما قال عليه السلام «فأكثر ماءها » نبه بذلك على تيسير الأمر على البخيل تنبيهًا لطيفا، وجعل الزيادة فيما ليس له ثمن وهو الماء، ولذلك لم يقل : إذا طبخت مرقة فأكثر لحمها ؛ إذ لا يسهل ذلك على كل أحد. ولقد أحسن القائل :

قدرى وقدر الجار واحدة وإليه قبلى تُرفع القدر

ولا يُهدى النزر اليسير المحتقر ؛ لقوله عليه السلام : «ثم انظر أهل بيت من جيرانك فأصبهم منها بمعروف» أى بشىء يهدى عرفا ؛ فإن القليل وإن كان مما يهدى فقد لا يقع ذلك الموقع، فلو لم يتسير إلا القليل فليهده ولا يحتقره، وعلى المهدى إليه قبوله. لقوله عليه السلام : «يا نساء المؤمنات لا تحتقرن إحداكن لجارتها ولو كُرَاع شاة محرقًا» أخرجه مالك فى موطئه. وكذا قيدناه «يا نساء المؤمنات» بالرفع على غيرالإضافة، والتقدير : يأيها النساء المؤمنات، كما تقول يا رجال الكرام، فالمنادى محذوف وهو يأيها، والنساء فى التقدير النعت لأيها، والمؤمنات نعت للنساء وقد قيل فيه : يا نساء المؤمنات بالإضافة، والأول أكثر.

من إكرام الجار ألا يمنع من غرز خشبة له إرفاقًا به ؛ قال رسول الله ﷺ : «لا يمنع أحدكم جاره أن يغرز خشبة فى جداره».ثم يقول أبو هريرة : مالى أراكم عنها معرضين، والله لأرمين بها بين أكتافكم »[(١)].

ومذهب الإمام أحمد أن الجار يلزمه أن يمكن جاره من وضع خشبة على جداره إذا احتاج الجار إلى ذلك ولم يضر بجداره لهذا الحديث الصحيح، وظاهر كلامه أنه يجب عليه أن يواسيه من فضل ما عنده بما لا يضر به إذا علم حاجته.

قال المروزى : قلت لأبى عبد الله : إنى لأسمع السائل فى الطريق يقول : إنى جائع،

فقال : قد يصدق وقد يكذب.

قلت : فإذا كان لى جار أعلم أنه يجوع. قال : تواسيه.

---

(١) تفسير القرطبى ٥/١٨٦.

قلت : إذا كان قوتي رغيفين، قال : تطعمه شيئًا.

ثم قال الذى جاء في الحديث إنما هو الجار.

وقال المروزى : قلت لأبى عبد الله : الأغنياء يجب عليهم المواساة ؟

قال : إذا كان قوم يصنعون شيئًا على شيء كيف لا يجب عليهم.

قلت : فإذا كان للرجل قميصان أو قلت جبتان يجب عليه المواساة من الفضائل ولم يخصه بالجار، ونصه الأول يقتضي اختصاصه بالجار.

وقال في رواية ابن هانئ في السؤال يكذبون أحب إلينا، لو صدقوا ما وسعنا إلا مواساتهم، وهذا يدل على وجوب مواساة الجائع من الجيران وغيرهم.

وفي الصحيح عن أبى موسى عن النبى ﷺ قال : «أطعموا الجائع وعودوا المريض وفكوا العانى» قال سفيان : والعانى : الأسير[1].

وفي المسند وصحيح الحاكم عن عمر رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : «أيما أهل عرصة أصبح فيهم امرؤ جائع فقد برئت منهم ذمة الله عز وجل».

ومذهب أحمد ومالك أنه يمنع الجار أن يتصرف في خاص ملكه بما يضر بجاره، فيجب عندها كف الأذى عن الجار بمنع إحداث الانتفاع المضر به ولو كان المنتفع بخاص ملكه.

ويجب عند أحمد أن يبذل لجاره ما يحتاج إليه ولا ضرر عليه من بذله، وأعلى من هذين أن يصبر على أذى جاره ولا يقابله بالأذى، قال الحسن : ليس حسن الجوار كف الأذى ولكن حسن الجوار احتمال الأذى.

ويروى من حديث أبى ذر : «إن الله يحب الرجل يكون له الجار يؤذيه جواره فيصبر على أذاه حتى يفرق بينهما الموت أو ظَعْنٌ»[2].

وفي مراسيل أبى عبد الرحمن الحبلي : «أن رجلاً جاء إلى النبى ﷺ يشكو إليه جاره، فقال له النبى ﷺ : «كف أذاك عنه واصبر لأذاه، فكفى بالموت مفرقًا»[3].

---

(١) أخرجه البخارى في صحيحه.

(٢) خرجه الإمام أحمد.　　　(٣) خرجه ابن أبى الدنيا.

وكان لأبى حنيفة إبان إقامته بالكوفة جار إسكاف يعمل نهاره أجمع حتى إذا جنه الليل رجع إلى منزله وقد حمل لحماً فطبخه، أو سمكة فشواها، ثم لا يزال يشرب حتى إذا أخذ به الشراب مأخذه رفع عقيرته مغنيا :

أضاعونى وأى فتى أضاعوا   ليوم كريهة وسداد ثغر

ولا يزال يشرب ويردد هذا البيت حتى يأخذه النوم، وكان أبو حنيفة يسمع جلبة الرجل السكران بينما هو مقبل على تهجده وسهره طوال الليل.

وذات ليلة افتقد أبو حنيفة صوت الرجل، فسأل عنه فقيل إن العسس أخذوه منذ ليال وحبسوه، فصلى أبو حنيفة صلاة الفجر وفى الغداة ركب بغلته واتجه إلى أمير الكوفة مستأذناً عليه.

فقال الأمير : ائذنوا له، وأقبلوا به راكبا، ولا تدعوه ينزل حتى يطأ البساط ببغلته. ففعل، ولم يزل الأمير يوسع له فى مجلسه سائلاً عن حاجته.

فقال : لى جار إسكاف أخذه العسس منذ ليال، يأمر الأمير بتخليته.

فاستجاب الأمير قائلاً : نعم، وكل من أخذ فى تلك الليلة إلى يومنا هذا، فخلى عنهم أجمعين.

فركب أبو حنيفة والإسكاف يمشى وراءه، فلما نزل أبو حنيفة التفت إلى الإسكاف وقال : يا فتى !! أضعناك ؟

فقال الإسكاف : لا ، بل حفظت ورعيت ، جزاك الله خيرا عن حرمة الجوار، ورعاية الحق.

وتاب الرجل ولم يعد إلى ما كان عليه [1].

ومن الذين قاموا بحق الجوار على أكمل وجه سعيد بن العاص، فقد روى أن إبراهيم بن حذيفة باع داره فلما أراد المشترى أن يُشهِدَ عليه، قال : لست أشهد عليها ولا أسلمها حتى يشتروا منى جوار سعيد بن العاص، وتزايدوا فى الثمن، قالوا : وهل رأيت أحدا يشترى جواراً أو يبيعه ؟

---

(١) ابن خلكان ٥ / ٤٣ وإسلام بلا مذاهب د. مصطفى الشكعة ص ٣٨٧ . ٣٨٨ .

قال : ألا تشترون جوار من إذا أسأت إليه أحسن، وإن جهلت عليه حلم، وإن أعسرت وهب، لا حاجة لى فى بيعكم ردوا على دارى.

فبلغ ذلك سعيد بن العاص فبعث إليه بمائة ألف درهم.

وروى المدائنى أنه باع جار لفيروز داره بأربعة آلاف درهم. فجىء بها - أى الدراهم - فقال البائع : هذا ثمن دارى، فأين ثمن جارى ؟

قال : ولجارك ثمن ؟

قال : لا أنقصه والله عن أربعة آلاف درهم.

فبلغ ذلك فيروز، فأرسل إليه بثمانية آلاف درهم، وقال : هذا ثمن دارك وجارك، والزم دارك ولاتبعها.

وبلغ ابن المقفع أن جارًا له يبيع داره فى دين ركبه، وكان يجلس فى ظل داره، فقال : ما قمت إذا بحرمة ظل داره إن باعها معدما.

فدفع إليه الثمن وقال لا تبيعها [1].

يا الله !!!

أين هؤلاء من أكثر جيران زماننا، لا تكاد تهدأ أذيتهم وشتائمهم وهجرانهم ومشاجراتهم وتقاطعهم وكيد بعضهم لبعض رجالاً ونساءًا وأولادًا كأنهم فى معزل عن الآيات والأحاديث الواردة فى الجوار وحقوقه .

قال على بن أبى طالب للعباس : ما بقى من كرم إخوانك ؟

قال : الأفضال على الإخوان، وترك أذى الجيران.

قال الشاعر :

سقيا ورعيا لجيران نزلت بهم ... كأن دار اغترابى عندهم وطنى

إذا تأملت من أخلاقهم خلقا ... علمت أنهموا من حلية الزمن

(١) موارد الظمآن لدروس الزمان للشيخ عبد العزيز المحمد السلمان ٢ / ٤٧٥ .

وقال ابن عبد البر : ثلاث إذا كن فى الرجل لم يشك فى عقله، وفضله، إذا حمده جاره وقرابته ورفيقه»[1] .

قال العلماء : الأحاديث فى إكرام الجار جاءت مطلقة غير مقيدة حتى الكافر كما بينا.

وفى الخبر قالوا : يا رسول الله أنطعمهم من لحوم النسك ؟

قال : «لا يطعموا المشركون من نسك المسلمين»[2] .

ونهيه ﷺ عن إطعام المشركين من نسك المسلمين يحتمل النسك الواجب فى الذمة الذى لا يجوز للناسك أن يأكل منه ولا أن يطعمه الأغنياء؛ فأما غير الواجب الذى يجزيه إطعام الأغنياء فجائز أن يطعمه أهل الذمة. قال النبى ﷺ لعائشة عند تفريق لحم الأضحية : «ابدئى بجارنا اليهودى»[3] .

وروى أن شاة ذبحت فى أهل عبد الله بن عمرو فلما جاء قال : أهديتم لجارنا اليهودى ؟ - ثلاث مرات - سمعت رسول الله ﷺ يقول : «مازال جبريل يوصينى بالجار حتى ظننت أنه سيورثه»[4] .

وجملة حقوق الجار : يبدأه بالسلام، ولا يطيل معه الكلام، ولا يكثر عن حاله السؤال، ويعوده فى مرضه، ويعزيه فى المصيبة، ويقوم معه فى العزاء، ويهنئه فى الفرح، ويظهر الشركة فى السرور معه، ويصفح عن زلاته، ولا يتطلع من السطح على عوراته، ولا يضايقه فى وضع الجذع على جداره، ولا فى مصب الماء فى ميزابه، ولا فى مطرح التراب فى فنائه، ولا يضيق طريقه إلى الدار، ولا يتبعه النظر فيما يحمله إلى داره، ويستر ما ينكشف له من عوراته، وينعشه من صرعته إذا نابته نائبة، ولا يغفل عن ملاحظة داره عند غيبته، ولا يسمع عليه كلاما، ويغض بصره عن حرمته، ولا يديم النظر إلى خادمته، ويتلطف بولده فى كلمته، ويرشده إلى ما يجهله من أمر دينة ودنياه[5] .

• حق الشفعة

حق الشفعة : هو حق الشريك فى ملك عقار إذا أراد شريكه أن يبيع حصة فهو أحق بشرائها ممن عداه، بالقيمة التى يتم الاتفاق مع الغير على بيعها له

(١) موارد الظمآن لدروس الزمان للشيخ عبد العزيز المحمد السلمان ٢ / ٤٧٦ .

(٢) مكارم الأخلاق للخرائطى. (٣) سبق تخريجه . (٤) سبق تخريجه.

(٥) إحياء علوم الدين للإمام الغزالى ٦ / ١٠٢٤ .

وهذا ما يسمى بحق الشفعة ويحكم به قَضَاءً إذا تم البيع لشخص آخر غير الشريك فى ملك العقار الواحد.

وحق الشفعة هذا حق قرره بعض الفقهاء المجتهدين للجار الملاصق لجاره [(١)].

• **نماذج غير مقبولة**

وإذا كان فى المجتمع نماذج طيبة للجيران الصالحين فلا شك أنه توجد نماذج سيئة ربما تضطر شخصاً أن يبيع منزله ليتخلص من جار السوء.

كما ذكر بعض من ابتلى بجار سوء اضطره إلى أن يبيع ملكه، قال فى ذلك:

يلوموني إن بعت بالرخص منزلي ... ولم يعلموا جارا هناك ينغص

فقلت لهم: كفوا الملام فإنما ... بجيرانها تغلو الديار وترخص

وقال آخر:

اطلب لنفسك جيرانا تُسَرُّ بِهِمْ ... لا تصلح الدار حتى يصلح الجار

وقال آخر:

دار جار السوء بالصبر وإن ... لم تجد صبرا فما أحلى النقل

عن أبى جحيفة رضى الله عنه قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ يشكو جاره، قال: «اطرح متاعك على الطريق» فطرحه فجعل الناس يمرون عليه ويلعنونه (أى الجار المسيء)، فجاء إلى النبى ﷺ فقال: يا رسول الله لقيت من الناس.

قال: «ما لقيت منهم؟» قال: يلعنونني.

قال: «لقد لعنك الله قبل الناس»

فقال: إنى لا أعود (أى إلى الإساءة إلى جارى).

فجاء الذى شكاه إلى النبى ﷺ، فقال: ارفع متاعك فقد كفيت [(٢)].

رواه الطبرانى والبزار بإسناد حسن بنحو إلا أنه قال: «ضع متاعك على الطريق» فوضعه، فكان كل من مر به قال: ما شأنك؟

---

(١) الشيخ عبد الرحمن الميدانى، الأخلاق الإسلامية وأسسها ٢ / ٥٩.

(٢) رواه أبو داود واللفظ له وابن حبان فى صحيحه والحاكم وقال صحيح على شرط مسلم.

قال : جاري يؤذيني.

قال : فيدعون عليه، فجاءه جاره فقال : رد متاعك فإني لا أوذيك أبداً.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : جاء رجل إلى رسول الله ﷺ يشكو جاره، فقال : «اذهب فاصبر»،

فأتاه مرتين أو ثلاثا، فقال : «اذهب فاطرح متاعك في الطريق» ففعل فجعل الناس يمرون ويسألونه فيخبرهم خبر جاره، فجعلوا يلعنونه، فعل الله به وفعل، وبعضهم يدعو عليه، فجاء إليه جاره، فقال : ارجع فإنك لن ترى مني شيئاً تكرهه».

وعن مطرف بن عبد الله قال : كان يبلغني عنك حديث وكنت أشتهي لقاءك.

قال : لله أبوك، قد لقيتني فهات.

قلت : حديث بلغني أن رسول الله ﷺ حدثك. قال : «إن الله عز وجل يحب ثلاثة، ويبغض ثلاثة» فما إخالني أكذب على رسول الله ﷺ.

قال : قلت ؟: فمن هؤلاء الثلاثة الذين يحبهم الله عز وجل.

قال : رجل غزا في سبيل الله صابراً محتسبا، فقاتل حتى قتل وأنتم تجدونه عندكم في كتاب الله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ ﴿٤﴾ ﴾ [1].

قلت : ومن ؟ قال : ورجل كان له جار سوء يؤذيه فيصبر على أذاه حتى يكفيه الله إياه بحياة أو موت» [2].

وعن نافع بن الحارث رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «من سعادة المرء الجار الصالح، والمركب الهنيء والمسكن الواسع» [3].

وعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «أربع من السعادة : المرأة الصالحة، والمسكن الواسع، والجار الصالح، والمركب الهنيء، وأربع من الشقاء : الجار السوء، والمرأة السوء، والمركب السوء، والمسكن الضيق» [4].

---

(١) سورة الصف الآية ٤.

(٢) رواه أحمد والطبراني واللفظ له وإسناده واحد اسنادى أحمد رجالهما محتج بهم فى الصحيح.
ورواه الحاكم وغيره بنحوه وقال صحيح على شرط مسلم.

(٣) رواه أحمد ورواته رواة الصحيح.

(٤) رواه ابن حبان فى صحيحه.

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رجل : يا رسول الله إن فلانة تكثر من صلاتها وصدقتها وصيامها غير أنها تؤذى جيرانها بلسانها . قال : «هى فى النار» .

قال : يا رسول الله فإن فلانة يذكر من قلة صيامها وصلاتها ، وأنها تتصدق بالأثوار من الأقط ولا تؤذى جيرانها . قال : «هى فى الجنة» [(١)] .

ورواه أبو بكر بن أبى شيبة بإسناد صحيح أيضًا ، ولفظه وهو لفظ بعضهم ، قالوا : يا رسول الله فلانة تصوم النهار ، وتقوم الليل ، وتؤذى جيرانها . قال : «هى فى النار»

قالوا : يا رسول الله ، فلانة تصلى المكتوبات وتصدق بالأثوار من الأقط ، ولا تؤذى جيرانها . قال : «هى فى الجنة» .

وعن فضالة بن عبيد رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «ثلاثة من الفواقر ، إمام إن أحسنت لم يشكر ، وإن أسأت لم يغفر ، وجار سوء إن رأى خيراً دفنه ، وإن رأى شراً أذاعه ، وامرأة إن حضرت آذتك ، وإن غبت عنها خانتك» [(٢)]

● **صور غير مقبولة**

وفى حديث أنس : « إثنان لا ينظر الله إليهما يوم القيامة قاطع رحم ، وجار سوء» .

ومع ما للجار من مكانة ومنزلة وحرمة أكدها القرآن العظيم وأوصى بها الرسول الكريم . نجد أمام أعيننا كل يوم صورا مؤذية ومخزية تقشعر منها الأبدان ، وتشمئز منها النفوس ، ويندى لها الجبين ، وتضيق بها الصدور ، مثلاً ترى فى بعض مناطق المجتمع الريفى أناسًا إن كان جارهم فى نعمة حسدوه عليها ، وإن وقع فى ورطة وكلوه إليها ، لا يعودونه فى مرض ، ولا يعينونه فى شدة ، ينتهكون حرماته ويبحثون عن عوراته ويفتشون عن زلاته ، ويحولون بينه وبين آماله ورغباته ، يغلقون فى وجهه أبواب الخير ويفتحون عليه كل باب للشر ، ويقعدون له بالمرصاد على طريق المصلحة والمنفعة ... أرضه يغرقون ، وزرعه يتلفون ، ودوابه ومواشيه يسمون ، والنار فى داره يشعلون ، وأقواته يسرقون ، وبنيه وبناته يضربون ، وعلى زوجته وأخواته يتهجمون ويعتدون ، يذيعون أسراره ويكشفون أستاره ، ولا يرعون فيه عهداً ولا ودا ولا يرقبون فيه إلا ولا ذمة .

---

(١) رواه أحمد والبزار وابن حبان فى صحيحه والحاكم وقال صحيح الإسناد ، ورواه أبو بكر بن أبى شيبة بإسناد صحيح أيضًا .

(٢) رواه الطبرانى بإسناد لا بأس به .

فإذا ما أنتقلنا إلى مجتمع المدينة لوجدنا عجبا عجابا ، وجدنا جيرانا كأنهم أغراب مع أن الأبواب تجاه الأبواب ، لا يلقون سلاما ولا يبدءون بتحية ، وكل منهم تلهيه وتشده الحياة المادية . لا يواسون ولا يؤاسون ولا يَزُورون ولا يَزَارون ، وإن كانت هناك زيارات فلأغراض أكثرها دنيئة وغير شريفة .

يستخدمون أجهزة الراديو والتليفزيون فى المساكن التى من شأنها أن يأوى إليها الإنسان ليستجم ويأخذ راحته ، يستخدمونها بطريقة مزعجة بعيدة كل البعد عن حدود الذوق والأدب ، ولا يقتصر إزعاجها على الجيران الملاصقين بل يتعداهم إلى جيران آخرين ، والأدهى والأمر أن ذلك يكون فى فترات الراحة أو فترات العمل الذهنى والعقلى كما هو الحال والشأن عند استذكار الطلاب لدروسهم .

كذلك يستخدمون النوافذ والشبابيك لرمى مخلفات المنازل من قاذورات وقمامة ويقومون بتنفيض الغبار والتراب من أثاث منازلهم على مساكن الجيران بالأدوار الدنيا والأقل منهم ارتفاعا وأحيانا يكون ذلك على ملابسهم النظيفة مباشرة .

كما تستخدم شرفات المنازل لعرض ما لا يصح عرضه خارج المسكن من الملابس الداخلية الخاصة بالنساء من غير مراعاة لشعور أحد ، وهناك من المزعجات أيضا «الهاون» وما أدراك ما الهاون يستخدم بطريقة تجعل سقف الجيران تصب على رءوسهم ضربات قاسيات فى غير رفق ولا رحمة . وناهيك عن المعاكسات التى تحدث لزوجات وبنات الجيران من أبناء جيرانهم مما يدل - بغير شك - على أن هناك نقصا فى التربية وسوءاً فى الأدب وقلة فى الخلق والحياء والدين ، وحسبنا أن نذكر هؤلاء وهؤلاء بما جاء فى القرآن من وصاة بالجار (وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ) ومما جاء عن رسول الله - ﷺ - «مازال جبريل يوصينى بالجار حتى ظننت أنه سيورثه»[1] .

ومع الوصايا الإسلامية بالإحسان إلى الجار ، والتحذير الشديد من إيذائه ، نلاحظ كثيرا من الناس يؤذون جيرانهم ولا يؤدون لهم حقوقهم ، فكم من مزعجات صوتية تكاد تبعث الموتى من قبورهم يطلقها بعض الجيران غير مراعين حقوق جيرانهم عليهم ، وربما يكون ذلك فى أوقات الراحة والنوم ، كالقيلولة بعد الغذاء ومن الليل حتى يغدو الناس مصبحين .

---

(١) من الآداب الاجتماعية فى القرآن الكريم د. جميل أحمد الشوادفى ٩٧ ، ٩٨ والحديث سبق تخريجه .

وكم من قمامات يرميها بعض الجيران على أبواب جيرانهم أو منازلهم، وكم يستعير بعض الناس المتاع من جيرانهم ثم لا يردونه.

وكم ينظر بعض الجيران إلى محارم جيرانهم بفضول قبيح، ونظرات مريبة.

وكم من جيران لا أمانة لهم على أموال جيرانهم وأعراضهم، إلى غير ذلك من قبائح ومنكرات.

وكم من رجل فاضل هجر داره ليفارق جاره، ويكف عن نفسه وأهله بوائقه.

إن جار السوء من المصائب الكبرى فى الحياة الدنيا وقد يصل السوء ببعض الناس أن يتوسط لديه العقلاء لكف أذاه عن جيرانه فلا يستجيب لهم، ويجدون أنفسهم لدى معالجته ونصحه كمن يحلب قرن الشاة، أو يحرث فى صفاة، أو يخاطب الأموات[1].

ونختم قولنا بقصة من القصص الشعبية التى يتبادلها العامة :

قيل : إنه عرض على أبو مسلم الخولانى فرس جواد مُضَمَّر، فقال لقواده : لماذا يصلح هذا؟

فقالوا : للجهاد فى سبيل الله ، فقال : لا.

فقالوا : للقاء العدو، فقال : لا.

فقالوا له : لماذا يصلح أصلحك الله ؟

فقال : أن يركبه الرجل ويهرب من المرأة السوء والجار السوء.

• الإساءة إلى الجار إثمها مضاعف

ربما يخفى على كثير من الناس أن الإساءة إلى الجار إثمها مضاعف وذنبها عظيم، ولكن هذه هى الحقيقة، فعن المقداد بن الأسود رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ لأصحابه : «ما تقولون فى الزنا؟ »

قالوا : حرام حرمه الله ورسوله، فهو حرام إلى يوم القيامة.

قال : فقال رسول الله ﷺ : «لأن يزنى الرجل بعشر نسوة أيسر عليه أن يزنى بامرأة جاره».

---

(١) الشيخ عبد الرحمن الميدانى، الأخلاق الإسلامية وأسسها ٢ / ٦٣.

قال : «ما تقولون في السرقة ؟»

قالوا : حرمها الله ورسوله فهي حرام.

قال : «لأن يسرق الرجل من عشرة أبيات، أيسر عليه من أن يسرق من جاره»[1] .

وعن عبد الله قال : سألت رسول الله ﷺ : «أى الذنب أعظم عند الله؟»

قال : «أن تجعل لله ندا وهو خلقك».

قال : قلت له : إن ذلك لعظيم.

قال : قلت : ثم أى ؟

قال : «ثم أن تقتل ولدك مخافة أن يَطعمَ معك».

قال : قلت : ثم أى ؟

قال : «أن تُزانى حليلة جارك».[2]

لا خلاف في أن الزنا مطلقًا من أقبح وأعظم الذنوب، لكنه قد تلابسه ملابسات تزيد من قبحه، وتضاعف من عقوبته، فمثلاً : الزنا في الحرم في الأشهر الحرم غير الزنا بأجنبية في غير الحرم وفي غير الأشهر الحرم، فللأول عقوبات متعددة «عقوبة كون المزنى بها محرما، بل أقرب المحارم، وعقوبة انتهاك حرمة المسجد الحرام،وعقوبة انتهاك حرمة الأشهر الحرم».

ولم يأت الحديث بهذا التنظير لأنه فرضي بعيد الوقوع، وإنما نَظَّر بحليلة الجار؛ لأن الغالب أن الرجل إنما يزانى من قرب مكانه وأمكن لقاؤه، ونبه بالحليلة على عظم حق الجار، وأنه يجب أن يغار المسلم على حليلة جاره من الفاحشة مثلما يغار على حليلة نفسه.

وليس القبح قاصراً على الحليلة بل يشمل الزنا بأم أو أخت أو بنت الجار، فذكر الحليلة جرى على الغالب، أما ذكر الجار فهولشدة القبح لأنه يحمل إثم انتهاك حرمة الجار لحقه وكانت العرب تتمدح بصون حرم الجار، قال عنترة :

وأغض طرفي ما بدت لي جارتي　　حتى يوارى جارتي مأواها

---

(١) رواه أحمد واللفظ له ورواته ثقات، والطبراني في الكبير والأوسط.

(٢) رواه البخارى ومسلم واللفظ لمسلم

والجار إنما يتوقع من جاره الذب عنه وعن حريمه، ويأمن بوائقه، ويطمئن إليه، وقد أمر بإكرامه والإحسان إليه. فإذا قابل هذا كله بالزنا بامرأته، وإفسادها عليه لتمكنه منها على وجه لا يتمكن غيره منه، كان في غاية القبح [(١)].

وعن أنس رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ : «المؤمن من أمنه الناس، والمسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، والمهاجر من هجر السوء، والذى نفسى بيده لا يدخل الجنة عبد لا يأمن جاره بوائقة» [(٢)].

●وفى النهاية نصل إلى حقيقتين هامتين

الأولى : هل المؤمن إلا من أمنه الناس على دمائهم وأموالهم وأعراضهم وهل الإيمان إلا من الأمن ؟

فإذا كان الجار لجاره حربا وعليه ضدا، فكيف يكون من المؤمنين الذين أخلصوا دينهم لله !!

لقد كان الواجب عليه أن يتفقد أمور جاره، ويساعده بكل ما يستطيع، ويعمل على جلب الخير له ودفع ما يضره، حتى يكون فى عيشة راضية، وحياة طيبة. كما يعمل بعض الجيران المحسنين الذين يألفون ويؤلفون.

فقد يأنس الإنسان بجاره القريب: فيحسن التعاون بينهما وتكون الرحمة والإحسان بينهما فإذا لم يحسن أحدهما لصاحبه فلا خير فيهما لسائر الناس [(٣)].

لذا : فقد اختارت امرأة فرعون الجار قبل الدار، قال تعالى : ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١١﴾ ﴾ [(٤)].

الثانية : أمور كثيرة فى حياتنا العصرية شوهت المدنية النظرة إليها، من هذه الأمور «حقوق الجار على جاره».

---

(١) فتح المنعم شرح صحيح مسلم د. موسى شاهين لاشين ١ / ٤٤٣، ٤٤٤ ط دار التراث العربى.

(٢) رواه أحمد وأبو يعلى والبزار وإسناد أحمد جيد.

(٣) موارد الظمآن لدروس الزمان، للشيخ عبد العزيز المحمد السلمان ٢ / ٤٧٤ .

(٤) سورة التحريم الآية ١١ .

فحين كانت النفوس مشبعة بروح الإيمان، وكان الإسلام هو الجو الذى يعيش فيه المسلمون، كانت حقوق الآخرين معلومة ومرعية، وكان المسلمون يتنافسون في الخير، ويسارعون إلى القيام بحقوق كل ذى حق.

ولكن المدنية العصرية، وتلك الحضارة التى قامت على المادة، لا تلوى على معنى كريم.

ومن المعانى الكريمة التى طمست المدنية المادية معالمها فى أكثر بلاد الله حقوق الإنسان الأدبية على الإنسان، مثل حقوق الأبوين، وحقوق الأرحام، وحقوق الجيران [١].

وهكذا يتأكد لنا أن الجار وإن لم تربطه بنا قرابة «فى الغالب» أو صداقة، فهو من أقرب الناس إلينا، لأنه أول من يصل إلى سمعه بكاؤنا أو ضحكاتنا، وأول من يسرع لمشاركتنا أفراحنا وأتراحنا.

لذا: فقد فرض علينا الإسلام حسن معاملته والسهر على راحته ومعاونته [٢].

---

(١) الشيخ حسن أيوب السلوك الاجتماعى فى الإسلام ص ٢٧٩.

(٢) آداب المجتمع فى الإسلام محمد جمال الدين رفعت ص ٧٠.

الإحسان إلى النفس
بالإحسان إلى الفقراء والمساكين

من الإحسان إلى النفس الإحسان إلى الفقراء والمساكين، قال تعالى : ﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالاً فَخُورًا (٣٦) ﴾ [١] .

من عناصر الترابط الإنساني في الآية الكريمة الإحسان إلى المساكين، وهم الذين حرموا مما يعينهم على السعي والعمل وكسب أرزاقهم، فسكنت نفوسهم إلى الاستسلام، يتطلعون إلى حياة الناس فيرون نشاطاً وحركة وعملاً وإنتاجا ،ويعودون إلى حرمانهم فتنكسر قلوبهم، فهم أحوج الناس إلى إحسان دافع إلى وشيجة الإخاء الإنساني ليشعرهم أنهم لبنات في بناء الإنسانية أدركتها بعض العقبات فلم تتمكن من أن تشد نفسها إلى بناء المجتمع الإنساني، فما هي إلا نظرة عطف صادق لا ذلة فيها حتى يعودوا عناصر حية في قافلة الحياة [٢] .

لذا فقد أوصى الحق تبارك وتعالى بالإحسان إلى الفقراء والمساكين في زمرة من أوصى بالإحسان إليهم، فقال تعالى ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٦٠) ﴾ [٣] . وهذه الآية من أواخر مانزل من القرآن الكريم ،وهي الآية الوحيدة التي اقترن فيها الفقير والمسكين.

- **تفاوت الناس في القدرة على العمل**

مما لاشك فيه أن الناس متفاوتون في قدرتهم على العمل، سواء أكان ذلك من وجهة القوة الجسمية، أم من جهة القدرة الفكرية أو المعنوية بوجه عام. وهم متفاوتون في ذلك ما بين العجز الكامل عن العمل - سواء أكان هذا عجزاً فطرياً من أصل الخلقة أم طارئا بسبب شيخوخة أو مرض - أو العجز الجزئي ، أوالقدرة الكاملة.

---

(١) سورة النساء الآية ٣٦.

(٢) الموسوعة في سماحة الإسلام للشيخ محمد الصادق عرجون ٢ / ٧١٠ .

(٣) سورة التوبة الآية ٦٠.

فإذا طبقت قاعدة المساواة التامة بين العاجزين والقادرين، بين العاملين وغير العاملين، بين القادرين أنفسهم على ما بينهم من تفاوت كبير، كان ذلك ظلماً للأفراد، وتثبيطًا لهم، وخسارة للمجتمع نتيجة ذلك.

وإذا طبق مبدأ العدل بإعطاء كل حسب عمله نشأت عن ذلك نتائج قاسية لأن ذلك يؤدى إلى حرمان العاجزين عن العمل لأى سبب من الأسباب، فكيف يمكن أن نعدل قسوة النتائج التى تتولد عن إقامة العدل بين الناس؟ إذ يكون بين الناس القادر الغنى، والعاجز المحروم، والمقصر المحتاج.

لابد إذن أن ينشأ فى المجتمع تفاوت فى الثروة بين الناس، ولابد أن تظهر الحاجة والفاقة فى المجتمع ولو كان العدل قائماً بينهم، بل إن العدل نفسه سبب لذلك، نظراً لوجود العاجزين عن العمل والكسب، والمقصرين عن بلوغ الكفاية، والمصابين بمصائب وكوارث تذهب بما لديهم، وتحملهم نفقات ومغارم. هذا إذا لم يكن فى المجتمع ظلم وتسلط من فريق من الناس على فريق آخر منهم [1].

● **من هو الفقير ومن هو المسكين**

الفقير : هو من كان ذا حاجة حقيقية لنفقاته ونفقات من يعولهم، ولكن قد لا تكون هذه الحاجة ظاهرة عليه فيحسبه الجاهل بحاله غنيا من تعففه، أو من نشاطه وجلادته فى العمل، فيظن أنه يكسب ما يكفيه، وأصل الافتقار إلى الشىء الحاجة إليه.

والمسكين : هو من كان ظاهره يدل على أنه ذو حاجة بسبب تعرضه لصدقات الناس، بما يبدى من حال تشعر بأنه فقير محتاج، أو بتصريحه بأنه ذو حاجة، وبسؤاله صدقات الناس وزكوات أموالهم، وربما يكون فى واقع حاله على خلاف ما يظهر بأقواله أو أعماله.

فالمسكنة صفة تظهر على الإنسان، تشعر بأنه فقير ذو حاجة، سواء أكان صادقًا بمسكنته أم كاذبًا فيها [2].

وليس المراد بالمسكين هؤلاء المستَجْدين فى الطرقات وعلى أبواب المساجد وأماكن تجمع الناس، فهؤلاء محترفون لأخس الحرف وأحقر المكاسب، وأخبث الأرزاق أرزاقهم.

---

(١) الثقافة الإسلامية - المستوى الثالث - مطبوعات جامعة أم القرى بمكة المكرمة الأستاذ محمد المبارك ص٢٣٨ .

(٢) قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله عز وجل للشيخ عبد الرحمن حسن الميدانى دار القلم ص٣٣٦.

وإنما المراد بالمساكين هم الذين عجزوا عن اللحاق بتزاحم الناس في السعي على الرزق والكسب الحلال[1]، يقول النبي ﷺ : «ليس المسكين الذي يطوف بالناس ترده اللقمة واللقمتان، والتمرة والتمرتان، ولكن المسكين الذي لا يجد غنىً يغنيه، ولا يُفْطن له فَيُتَصدق عليه، ولا يقوم فيسأل الناس»[2].

هذا هو المسكين الذي يقع الإحسان إليه موقعه[3]،يقول النبي ﷺ : «الساعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله، وكالقائم الذي لا يفتر، وكالصائم الذي لا يفطر»[4].

والذي يدقق في الآيات الكريمة التي تحدثت عن «المسكنة، المساكين، المسكين» يلاحظ أن قرائن السياق تدل على أن المراد بالمساكين : الفقراء الذين يكشفون بالمسكنة الظاهرة حالة فقرهم، وقد وردت النصوص القرآنية حاثة على إطعامهم، وإعطائهم حقهم، والسبب في ذلك فقرهم الحقيقي، أو المظنون استناداً إلى ظاهر حالهم، فمن لم يكن مسكيناً ظاهر الفقر، وكان في حقيقة حاله فقيراً، وأمكن التعرف عليه من سيماه، كان أولى بالعطاء.

وقد تواردت النصوص وافرة في شأن المساكين، لأن معظم الفقراء من الناس لا يصبرون على كتم فقرهم مدة طويلة،والمتصدقون لا يبحثون عنهم ليكْفُوهم ويُنْقُوهم مستوري الحال، فيضطرون إلى كشف حالهم، وإظهار فقرهم، وبذلك يكونون من المساكين.

● **الأدلة على أن المسكين فقير كاشف للناس حالة فقره**

أ - ما جاء في سورة القلم ﴿أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾﴾[5] وذلك لأن الفقير مستور الحال لا يظهر فقره، فلا يدخل على الناس يوم حصادهم للزرع طالباً الصدقة.

---

(١) الموسوعة في سماحة الإسلام للشيخ محمد الصادق عرجون ٢ / ٧١٠.

(٢) رواه البخاري ومسلم.

(٣) قواعد التدبر الأمثل للشيخ عبد الرحمن حسن الميداني ص ٣٤٧.

(٤) البخاري في صحيحه كتاب النفقات، باب النفقة على الأهل.

(٥) سورة القلم الآية ٢٤.

ب – ما جاء فى سورة البلد ﴿ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ (١٦) ﴾[1] أى ذا فقر حقيقى ، فهو مسكين مُظْهِرٌ فقره، وهو فى الحقيقة فقير ذو متربة .

جـ – وسائل النصوص كذلك يكشف دلالتها من تعمق فى فهمها .

من هذا يتبين لنا أن الفقير والمسكين يجتمعان فى صفة الحاجة إلى مطالب العيش، على اختلاف درجات هذه الحاجة، إلا أن الفقير ينفرد باحتمال أن يكون مستور الحال من تعففه وعدم تعرضه للصدقات أو للمسألة .

أما المسكين فهو من كان ظاهر الحاجة، وقد يكون متظاهراً بها وهو كاذب . فالفقير أعم من جهة لأنه ذو الحاجة، سواء أكشفها للناس أم سترها . والمسكين أعم من جهة أخرى لأنه المعلن عن حاجته بما يبدى من مظاهر حاله، سواء أكان صادقًا أم كاذبًا .

فالنسبة بين الفقير والمسكين هى العموم والخصوص من وجه، إذ كل منهما أعم من جهة وأخص من أخرى[2] .

• كلمة الفقراء فى القرآن الكريم

استعملت كلمة الفقراء فى القرآن الكريم سبع مرات، وهى ما فى النصوص التالية[3] :

١ – قول الحق تبارك وتعالى : ﴿ إِن تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾[4] .

٢ – قول الحق جل شأنه : ﴿ لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا ﴾[5] .

٣ – قول الله سبحانه وتعالى : ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٦٠) ﴾[6] .

---

(١) سورة البلد الآية ١٦ .　　(٢) المرجع السابق ص ٣٤٧، ٣٤٨ .

(٣) قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله عز وجل للشيخ عبد الرحمن الميدانى ص ٣٣٧ .

(٤) سورة البقرة الآية ٢٧١ .　　(٥) سورة البقرة الآية ٢٧٣ .

(٦) سورة التوبة الآية ٦٠ .

٤ - قوله جل جلاله : ﴿ وَأَنكِحُوا الأَيَامَىٰ مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٣٢) ﴾ [١] .

٥ - قوله سبحانه وتعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (١٥) ﴾ [٢] .

٦ - قوله تبارك وتعالى : ﴿ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ ﴾ [٣] .

٧ - قوله تعالى : ﴿ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ (٨) ﴾ [٤] .

• بم يقع التفاضل ؟

الغنى والفقر ابتلاء - من الله - لعبده كما قال تعالى : ﴿ فَأَمَّا الإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ (١٥) وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ (١٦) ﴾ [٥] أى ليس كل من أعطيته ووسعت عليه فقد أكرمته، ولا كل من ضيقت عليه وقترت عليه الرزق فقد أهنته، والإكرام أن يكرم العبد بطاعته ومحبته ومعرفته، والإهانة أن يسلبه ذلك .

ولا يقع التفاضل - بين الناس - بالغنى والفقر بل بالتقوى :

وقد قال بعضهم : هذه المسألة محال أيضًا من وجه آخر ،وهو : أن كلا من الغنى والفقر لا بد له من صبر وشكر، فإن الإيمان نصفان : نصف صبر ونصف شكر، بل قد يكون قسط الغنى من الصبر أوفى، لأنه يصبر عن قدرة، فصبره أتم من صبر من يصبر عن عجز، ويكون شكر الفقير أتم، لأن الشكر هو : استفراغ الوسع فى طاعة الله، والفقير أعظم فراغًا بالشكر من الغنى، وكلاهما لا تقوم قائمة إيمانه إلا على ساق الصبر والشكر .

نعم : الذى رجع الناس إليه فى المسألة أنهم ذكروا نوعا من الشكر، ونوعا

---

(١) سورة النور الآية ٣٢.

(٢) سورة فاطر الآية ١٥.

(٣) سورة محمد الآية ٣٨.

(٤) سورة الحشر الآية ٨.

(٥) سورة الفجر الآيتان ١٥، ١٦.

من الصبر، وأخذوا في الترجيح، فجردوا غنيًا منفقًا متصدقا باذلا ماله في وجوه القرب، شاكرا الله عليه، وفقيرا متفرغا لطاعة الله ولأوراد العبادات، صابرا على فقره، هل هو أكمل من ذلك الغني أم بالعكس.

والصواب في مثل هذا: أن أكملهما أطوعهما، فإن تساوت طاعتهما تساوت درجتهما، والله أعلم [1].

• **طبيعة النفس البشرية**

إن النفس البشرية حريصة على جمع المال بشتى الطرق وكافة الوسائل اندفاعًا من حبها الشديد له، قال تعالى: ﴿ وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾ ﴾ [2].

وليتها تحب للناس ما تحب لنفسها، فأعطت وبذلت، ولكنها شحت ومنعت قال تعالى: ﴿ إِنَّ الإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ ﴾ [3].

خلقها الله وهو يعلم أن أمر الإنفاق في سبيل الله أشق الأمور على النفوس، لاسيما إذا اتسعت دائرة المنفعة فيما ينفق فيه، وبعدت نسبة من يُنْفَق عليه من المنفق، فإن كل إنسان يسهل عليه الإنفاق على نفسه وأهله وولده، إلا أفرادا من أهل الشح المطاع، وهذا النوع من لا يوصف صاحبه بالسخاء.

ومن كان له نصيب من السخاء سهل عليه الإنفاق بقدر هذا النصيب، فمن كان له أدنى نصيب فإنه يرتاح إلى الإنفاق على ذوى القربى والجيران، فإن زاد أنفق على أهل بلده، فأمته، فالناس كلهم، وذلك منتهى الجود والسخاء.

وإنما يصعب على المرء الإنفاق على منفعة من يبعد عنه لأنه فطر على أن لا يعمل عملا لا يتصور لنفسه فائدة منه، وأكثر النفوس جاهلة باتصال منافعها ومصالحها بالبعد عنها، فلا تشعر بأن الإنفاق في وجوه البر العامة، كإزالة الجهل بنشر العلم، ومساعدة العجزة والضعفاء، وترقية الصناعات، وإنشاء المستشفيات والملاجئ، وخدمة الدين المهذب للنفوس هو الذى تقوم به المصالح

(١) بصائر ذوى التمييز في لطائف الكتاب العزيز للفيروزآبادي ٤ / ٢٠٨.
(٢) سورة الفجر الآية ٢٠.
(٣) سورة المعارج الآيات ١٩-٢١.

العامة حتى تكون كلها سعيدة عزيزة، فأعلمهم الله تعالى أن ما ينفقونه فى المصالح يضاعف لهم أضعافًا كثيرة، فهو مفيد لهم فى دنياهم، وحثهم على أن يجعلوا الإنفاق فى سبيله وابتغاء مرضاته ليكون مفيدًا لهم فى آخرتهم أيضًا، فاستل بذلك من النفوس حرصها، وطمأنها عندما ضاعف لها الأجر الأخروى، وأجزل لها العطاء يوم الجزاء، ودفعها بذلك العوض المغرى المجزى إلى البذل بسماحة وطيب خاطر وأريحية [1].

ووضع القرآن بالأمثلة الإلهية الحاضة على الإنفاق، والحاثة على البذل أول لبنة فى صرح التكافل الاجتماعى، حيث ضرب الأمثال [2]. وذكر قصص الذين بذلوا أموالهم وأرواحهم فى سبيله، ثم ذكر البعث وإحياء الموتى، وانتهاءهم إلى الدار التى يوفون فيها أجورهم فى يوم لا تنفع فيه فدية ولا خلة ولا شفاعة، وإنما تنفعهم أعمالهم التى أهمها الإنفاق فى سبيل الله.

• المال مال الله

المال رزق يسوقه الله للإنسان فضلاً منه ونعمة، ومهما يذكر الإنسان عمله وَجَهْدَهَ فليذكر عمل القدرة الإلهية فى الإيجاد والإمداد ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ﴾ [3]. فلا غرابة أن ينفق الإنسان عبد الله بعض ما رزقه الله فى سبيل الله، وإعلاء كلمة الله، وعلى إخوانه عباد الله، قيامًا للواهب المنعم بحق الشكر على نعمائه، ومن أجل هذا يقول الله تعالى: ﴿ أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُم ﴾ [4] وقوله: ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ [5].

ويقرر أن المال مال الله والإنسان ما هو إلا مستخلف فيه، أو موظف مؤتمن على تنميته وإنفاقه، والانتفاع والنفع به، يقول الله تعالى: ﴿ وَآتُوهُم مِّن مَّالِ

---

(١) الأريحية - بفتح الهمزة وسكون الراء وفتح الياء - قال الجوهرى: راح فلان للمعروف يراح راحة: إذاأخذته له خفة وأريحية «صحاح ١ / ٣٦٩». وفى المعجم الوسيط: الأريحية: الارتياح للندى والنشاط إلى المعروف ١ / ٣٠.

(٢) تفسير المنار للشيخ رشيد رضا ٣ / ٥١.

(٣) سورة النحل الآية ٥٣.

(٤) سورة البقرة الآية ٢٥٤.

(٥) سورة البقرة الآية ٣.

اللَّه الَّذي آتَاكُمْ ﴾ [1]، ويقول : ﴿ وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ﴾ [2].

لم يقل الذين يبخلون بمالهم، بل قال : ﴿ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ﴾.

ويقول : ﴿ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ﴾ [3]. فالإنسان ليس مالك المال فى الحقيقة، ولكنه خليفة المالك - وهو الله تعالى - ووكيله فيه.

وهنا يبرز سؤال مهم : هل يصح أن يقال إن أحداً وكيل الله ؟

يجيب الإمام ابن القيم بالنفى : فإن الوكيل من يتصرف عن موكله بطريق النيابة والله عز وجل لانائب له، ولا يخلفه أحد ،بل هو الذى يخلف عبده، كما قال النبى ﷺ : «اللهم أنت الصاحب فى السفر والخليفة فى الأهل» ثم قال : «على أنه لا يمتنع أن يطلق ذلك باعتبار أنه مأمور بحفظ ماوكله فيه، ورعايته والقيام به» [4].

قال صاحب «الكشاف» فى قوله ﴿ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ﴾ يعنى أن الأموال التى فى أيديكم إنما هى أموال الله بخلقه وإنشائه لها، وإنما مولكم إياها، وخولكم الاستمتاع بها، وجعلكم خلفاء بالتصرف فيها، فليست هى بأموالكم فى الحقيقة، وما أنتم فيها إلا بمنزلة الوكلاء والنواب، فأنفقوا منها فى حقوق الله، وليهن عليكم الإنفاق منها، كما يهون على الرجل الإنفاق من مال غيره إذاأذن له فيه [5].

وليست ثمرة العلم بأن المال مال الله، والإنسان فيه بمنزلة المستخلف، مقصورة على تهوين البذل والإنفاق عليه، حيث ينفق من مال غيره وقد أذن له فيه، بل يفيد العلم بهذه الحقيقة أيضاً أن يتقيد الإنسان بمشيئة المالك الحقيقى للمال، وليس له حق الانفراد بالتصرف حسبما يهوى ويشتهى، وإلا بطلت وكالته، ولم يعد جديراً بحق الاستخلاف الذى أساء استعماله.

---

(١) سورة النور الآية ٣٣.
(٢) سورة آل عمران الآية ١٨٠.
(٣) سورة الحديد الآية ٧.
(٤) مدارج السالكين ٢ / ١٢٦، ١٢٧ مطبعة السنة المحمدية.
(٥) الكشاف ٤ / ٦١ بتصرف.

وقد نبه علماؤنا رحمهم الله على حق الله فى المال بعبارات بليغة، نذكر منها ما قاله الإمام الرازى فى تفسيره : إن الفقراء عيال الله، والأغنياء خزان الله، لأن الأموال التى فى أيديهم أموال الله، فليس بمستبعد أن يقول الملك لخازنه : اصرف طائفة مما فى تلك الخزانة إلى المحتاجين من عيالى [(١)].

وما قاله القاضى ابن العربى [(٢)] : إن الله بحكمته البالغة ، وأحكامه الماضية العالية، خص بعض الناس بالأموال دون البعض، نعمة منه عليهم، وجعل شكر ذلك منهم إخراج سهم يردونه إلى من لا مال له، نيابة عنه سبحانه وتعالى فيما ضمنه بفضله لهم فى قوله : ﴿ وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا ﴾ [(٣)]

فإذا ضن الغنى - وهو الخازن لمال الله والأمين عليه - بهذا المال على عيال الله، واختص نفسه بنعمته دونهم، فقد استوجب نكال الله وعقوبته.

وقد شاع بين عوام المسلمين حديث قدسى عن الله تعالى يقول : «المال مالى، والفقراء عيالى، والأغنياء وكلائى فإذا بخل وكلائى على عيالى، أذقتهم وبالى ولا أبالى » [(٤)].

ومع أن لفظ الحديث غير ثابت من جهة السند، فإن معناه فى الجملة صحيح، وشهرته لدى جمهور المسلمين تدل على رسوخ نظرية الاستخلاف فى مال الله وتغلغلها فى أفكارهم، وهو تغلغل أصيل له جذوره العميقة من كتاب الله وسنة رسول الله.

ومن الطريف أن المتسولين والشحاذين فى بلاد المسلمين يعرفون هذه النظرية ويستغلونها لاستعطاف القادرين، واستخراج الصدقات من أيديهم، ولا عجب أن تسمع منهم كثيراً هذه الكلمة : «من مال الله» ! وهى كلمة حق يريدون بها باطلاً.

وفى الحديث : «ويل للأغنياء من الفقراء يوم القيامة، يقولون : ربنا ظلمونا حقوقنا التى فرضت لنا عليهم، فيقول الله تعالى : وعزتى وجلالى لأدنينكم ولأبعدنهم» [(٥)].

---

(١) التفسير الكبير ١٦ / ١٠٣.

(٢) أحكام القرآن ص ٩٤٥.

(٣) سورة هود الآية ٦.

(٤) بحثت عنه فلم أجد له أصلاً ولا من تكلم عليه «د. يوسف القرضاوى».

(٥) الطبرانى فى الصغير والأوسط عن أنس وإسناده ضعيف «جمع الفوائد ١ / ١٤٣»، والنقل عن كتاب فقه الزكاة د. يوسف القرضاوى ٢ / ١٠١٣ - ١٠١٥.

- **الإخاء والتكافل**

الأمة المسلمة متكافلة متضامنة فى حقوقها ومصالحها وأنفسها وأموالها فمن أكل مال غيره فكأنما أكل مال نفسه، أو أكل مال المجتمع كله، ومن اعتدى على نفس أخيه بالقتل فكأنما قتل نفسه، أو اعتدى على الجماعة كلها، كما جاء فى الآية الأخرى : ﴿ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا ﴾ [1].

ما أروع هذا القرآن وأبلغ إعجازه حيث يشير بعبارة أو جزء من عبارة إلى حقيقة كبيرة، أو مبدأ عظيم كما فى هذه الآية من سورة النساء ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ ﴾ حيث أضاف الأموال فيها إلى جميع المخاطبين فلم يقل : لا يأكل بعضكم مال بعض لينبه على أن المجتمع المسلم وحدة متضامنة فى كل شىء كأنه يقول : إن مال الآخرين هو مالكم فى الحقيقة، ومال كل فرد منكم هو مال المجتمع كله فى الواقع.

يقول السيد رشيد رضا فى تفسير الآية : إن مثل هذه الإضافة قد قررت فى الإسلام قاعدة الاشتراك التى يرمى إليها الاشتراكيون فى هذا الزمان، ولم يهتدوا إلى سنة عادلة فيها، ولو التمسوها فى الإسلام لوجدوها، ذلك بأن الإسلام يجعل مال كل فرد من أفراد المتبعين له مالاً لأمته كلها. مع احترام الحيازة والملكية، وحفظ حقوقها. فهو يوجب على كل ذى مال كثير حقوقًا لذوى الاضطرار من الأمة، ومن جميع البشر، ويحث فوق ذلك على البر والإحسان، والصدقة الدائمة والمؤقتة، والهدية ... إلخ [2].

ولكن : الإخاء معنى أعمق غورًا، وأبعد مدى، من التكافل بين الفرد والمجتمع.

والإخاء لا يعتمد على تبادل المنافع، ولا على الإعطاء مقابل الأخذ، وإنما هو معنى إنسانى روحى، ينبع من جوهر الإنسان الأصيل.

الإخاء يقتضى الأخ أن يعطى أخاه وإن لم يأخذ منه. وأن يساعد أخاه وإن لم يكن محتاجًا إليه، وأن يحب لأخيه ما يحب لنفسه. بل قد يؤثره على نفسه.

والإخاء الذى جاء به الإسلام نوعان أودرجتان :

---

(١) سورة المائدة الآية ٣٢.

(٢) تفسير المنار ٥ / ٣٩ ط ثانية.

أ - إخاء أساسه الاشتراك فى الإنسانية.

ب - إخاء أساسه الاشتراك فى العقيدة.

فإن الناس وإن اختلفت ألسنتهم وألوانهم، وتباينت طبقاتهم ودرجاتهم فروع لأصل واحد ،وأبناء لأب واحد، ولذلك يناديهم ربهم «يا بنى آدم»[1] كما يناديهم بـ«يأيها الناس»[2] فبينهم جميعًا رحم واشجة، وأخوة جامعة.

وقد أكد الله - تعالى - فى كتابه حق هذه الرحم الإنسانية وتلك الأخوة البشرية فقال تعالي في مطلع سورة النساء : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا (١)﴾[3].

ومن حق كلمة «الأرحام» فى هذا المقام بعد النداء بـ«أيها الناس» والتذكير بخلقهم من نفس واحدة - هى نفس آدم - أن يراد بها - فيما يراد - القرابة الإنسانية.

كما أن الرسول ﷺ أكد هذه الأخوة ودعا إليها فقال : «كونوا عباد الله إخوانا»[4].

بل أعلن هذه الأخوة الإنسانية عقيدة من العقائد التى يشهد الله عليها، ويدعو الناس إلى الإيمان بها، فقد كان ﷺ يقول عقب كل صلاة : «اللهم ربنا ورب كل شيء ومليكه أنا شهيد أن محمداً عبدك ورسولك، اللهم ربنا ورب كل شيء ومليكه أنا شهيد أن العباد كلهم أخوة »[5].

فإذاكانت الأخوة هى عنوان العلاقة بين الإنسان والإنسان، فإن لهذه الأخوة ثمرات ومقتضيات ، ومن مقتضيات هذه الأخوة ألا يعيش الإنسان مستأثرا بالخير والنعمة دون أخيه الإنسان ،فما استحق أن يولد من عاش لنفسه فقط.

وفوق هذه الأخوة العامة هناك أخوة أبعد منها غورا، وأعمق آثاراً، تلك هى أخوة العقيدة، فإن العقيدة الإسلامية تربط بين المؤمنين بها برباط فكرى وروحى

---

(١) ورد هذا النداء فى القرآن خمس مرات أربعا فى سورة الأعراف ومرة فى سورة يس.

(٢) أول سورة النساء والحج ، وتكرر فى القرآن مرارًا.

(٣) سورة النساء الآية ١ .

(٤) متفق عليه.

(٥) رواه أحمد وأبو داود.

لا تنفصم عراه، رباط يجعل الأخ فى العقيدة أقرب إلى القلب والفكرة، وأسرع إلي المعونة والنجدة، من الأخ فى الدم والنسب، ولهذا قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ [1] .

ومن حق هذه الأخوة الروحية، وهذه الرابطة العقلية العاطفية، أن تؤتى ثمارها فى مجال التضامن العملى، والتكافل الاجتماعى المعاشى، وإلا كانت أخوة فارغة جوفاء.

ويتأكد حق هذه الأخوة إذا كان المؤمنون بها يعيشون فى ظل مجتمع واحد، فهنا تنضم رابطة المساكنة فى الوطن الواحد إلى رابطة الأخوة الإيمانية الواصلة.

ومن الثابت أن دار الإسلام - على سعتها - وطن واحد للمسلمين، وأن أبناء الإسلام داخل هذه الدار مجتمع واحد.

وقد بين الرسول ﷺ حقوق هذه الأخوة بأحاديثه الكثيرة الهادية : «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً» [2] .

وقال ﷺ : «مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالحمى والسهر» [3] .

وقال ﷺ : «المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه» [4] .

ومن ترك أخاه يجوع ويعرى ويمرض، وهو قادر على إنقاذه من الجوع والعرى والمرض، فقد أسلمه وخذله، يقول عليه السلام : «ما آمن بى من بات شبعان وجاره جائع إلى جنبه وهو يعلم» [5] .

هذا هو المجتمع المسلم : بنيان مرصوص يشد بعضه بعضاً، وأسرة واحدة يكفل كل أخ فيها أخاه، بل جسد واحد إذا اشتكى - بعضة اشتكى - كله [6] .

---

(١) سورة الحجرات الآية ١٠.
(٢) متفق عليه من حديث أبى موسى.
(٣) متفق عليه من حديث النعمان بن بشير.
(٤) رواه البخارى ومسلم وأبو داود.
(٥) رواه الطبرانى والبزار من حديث أنس وإسناده حسن وروى الطبرانى وأبو يعلى نحوه من حديث ابن عباس ،ورواه الحاكم من حديث عائشة - الترغيب والترهيب ٣ / ٣٥٨،
(٦) فقه الزكاة د. يوسف القرضاوى ٢ / ١٠١٨ - ١٠٢٠.

• عناية القرآن الكريم بالفقراء والمساكين

منذ فجر الإسلام فى مكة والمسلمون يومئذ أفراد معدودون، مضطهدون فى دينهم، محاربون فى دعوتهم، ليس لهم دولة ولا كيان سياسى، كان هذا الجانب الإنسانى الاجتماعى - جانب رعاية الفقراء والمساكين - موضع عناية بالغة، واهتمام مستمر من القرآن الكريم.

ذكره القرآن أحياناً باسم إطعام المسكين والحض عليه.

وأحيانًا تحت عنوان الإنفاق مما رزق الله.

وتارة باسم أداء حق السائل والمحروم،والمسكين وابن السبيل.

وطورا بعنوان إيتاء «الزكاة» وغير ذلك من الأسماء والعناوين.

وحسبنا أن نقرأ فى السور المكية هذه النماذج من آيات الكتاب العزيز : ففى سورة المدثر - وهى من أوائل ما نزل من القرآن - يعرض لنا القرآن مشهداً من مشاهد الآخرة، مشهد أصحاب اليمين من المؤمنين فى جنات يتساءلون عن المجرمين من الكفرة والمكذبين، وقد أطبقت عليهم النار، فيسألونهم عما أحل بهم هذا العذاب، فكان من أسبابه وموجباته إهمال حق المسكين وتركه لأنياب الجوع والعرى تنهشه وهم عنه معرضون،فقال تعالى : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ (٣٨) إِلاَّ أَصْحَابَ الْيَمِينِ (٣٩) فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ (٤٠) عَنِ الْمُجْرِمِينَ (٤١) مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ (٤٢) قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ (٤٣) وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ (٤٤) وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ (٤٥) وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ (٤٦) ﴾ [1].

ومثل إطعام المسكين كسوته وإيواؤه ورعاية ضروراته وحاجاته.

وفى سورة «القلم» يقص الله على عباده قصة أصحاب الجنة الذين تواعدوا أن يقطفوا ثمارها بليل، ليحرموا منها المساكين الذين اعتادوا أن يصيبوا شيئًا من خيرها يوم الحصاد، فحلت بهم عقوبة الله العاجلة ﴿ فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ (١٩) فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ (٢٠) فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ (٢١) أَنِ اغْدُوا عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَارِمِينَ (٢٢) فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ (٢٣) أَن لاَّ يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ

---

(١) سورة المدثر الآيات ٣٨-٤٦.

(٢٤) وَغَدَوْا عَلَىٰ حَرْدٍ قَادِرِينَ (٢٥) فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ (٢٦) بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (٢٧) قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ (٢٨) قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (٢٩) فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ (٣٠) قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ (٣١) عَسَىٰ رَبُّنَا أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ (٣٢) كَذَٰلِكَ الْعَذَابُ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٣٣) ﴾[١].

- **الحض على رعاية المسكين**

ولم تقف عناية القرآن المكى عند الدعوة إلى الرحمة بالمسكين، والترغيب فى إطعامه ورعايته، والترهيب من إهماله والقسوة عليه، بل تجاوز ذلك، فجعل فى عنق كل مؤمن حقًا للمسكين، أن يحض غيره على إطعامه ورعايته، وجعل ترك هذا الحض قرين الكفر بالله العظيم، وموجبًا لسخطه سبحانه وعذابه فى الآخرة.

فيقول تعالى فى شأن أصحاب «الشمال» : ﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ (٢٥) وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ (٢٦) يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ (٢٧) مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ (٢٨) هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ (٢٩) ﴾[٢].

ثم يصدر رب العالمين عليه الحكم العادل، بالعقاب الذى يستحقه :﴿ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ (٣٠) ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ (٣١) ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ (٣٢) إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ (٣٣) وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ (٣٤) ﴾[٣].

والحض : هو الحث والترغيب والدعاء.

وهذه الآيات الهادرة بالوعيد، المنذرة بالعذاب، المزلزلة للقلوب، هى التى جعلت مثل أبى الدرداء رضى الله عنه يقول لامرأته : يا أم الدرداء إن لله سلسلة لم تزل تغلى بها مراجل النار منذ خلق الله جهنم، إلى يوم تلقى فى أعناق الناس، وقد نجانا الله من نصفها بإيماننا بالله العظيم، فحضى على طعام المسكين يا أم الدرداء[٤].

---

(١) سورة القلم الآيات ١٩-٣٣. وانظر فقه الزكاة د يوسف القرضاوى ١ / ٥٢، ٥٣.

(٢) سورة الحاقة الآيات ٢٥، ٢٩.

(٣) سورة الحاقة الآيات ٣٠-٣٤.

(٤) الأموال ص ٣٥٠.

ولم ترالدنيا كتاباً قبل القرآن يجعل ترك الحض على رعاية المسكين من موجبات صلي الجحيم والعذاب الأليم !!.

وفى سورة الفجر خاطب الله أهل الجاهلية الذين كانوا يزعمون أن لهم دينا يقربهم إلى الله زلفى، وأنهم على شيء من ديانة أبيهم إبراهيم فقال تعالى زاجراً رادعاً : ﴿ كَلاَّ بَل لاَّ تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ ۝ وَلا تَحَاضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ۝ ﴾ [1].

والتحاض تفاعل من الحض، فمعنى تحاضون : يحض بعضكم بعضا، وفيه دعوة للمجتمع إلى التضامن والتعاون على رعاية المسكين والعناية بأمره.

قال الشيخ محمد عبده : وإنما ذكر التحاض على الطعام ولم يكتف بالإطعام، فيقول : ولم تطعموا المسكين، ليصرح لك بالبيان الجلى : أن أفراد الأمة متكافلون، وأنه يجب أن يكون لبعضهم على بعض عطف بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، مع التزام كل ما يأمر به، وبابتعاده عما ينهى عنه [2].

وفى سورة الماعون جعل قهر اليتيم، وإضاعة المسكين، من لوازم الكفر والتكذيب بيوم الدين، قال تعالى : ﴿ أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ ۝ ﴾ [3] والخطاب لكل من يفهم الخطاب، أى هل تبينت من هو المكذب بالدين ؟ إن لم تكن تبينته ﴿ فَذَٰلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ ۝ وَلا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ۝ ﴾ [4].

قال الشيخ : الحض على طعام المسكين : الحث عليه، ودعوة الناس إليه، والذى لا يحض على إطعام المسكين لا يطعمه فى العادة، فقوله : ﴿ وَلا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ۝ ﴾ كناية عن الذى لا يجود بشيء من ماله على الفقير المحتاج إلى القوت، الذى لا يستطيع له كسبا، وإنما جاء بالكناية ليفيدك أنه إذا عرضت حاجة المسكين ولم تجد ما تعطيه، فعليك أن تطلب من الناس أن يعطوه، وفيه حث للمصدقين بالدين على إغاثة الفقراء ولو بجمع المال من غيرهم، وهى طريقة الجمعيات الخيرية فأصلها ثابت فى الكتاب بهذه الآية، وبنحو قوله تعالى فى سورة الفجر : ﴿ كَلاَّ بَل لاَّ تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ ۝ وَلا تَحَاضُّونَ

---

(1) سورة الفجر الآيات ١٧، ١٨.

(2) تفسير جزء عم ص ٨٣ ط ثالثة مطبعة مصر. (٣، ٤) سورة الماعون الآيات ١-٣.

عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ (١٨)﴾ . ونعمت الطريقة هي لإعانة الفقراء وسد شيء من حاجات المساكين[١] .

• حرص النبى على إعطاء الفقراء والمساكين

عن أبي عمرو وجرير بن عبد الله البجلي رضي الله عنه قال : كنا في صدر[٢] النهار عند رسول الله فجاءه قوم عراة[٣] مجتابي[٤] النمار أو العباء ، متقلدى السيوف ، عامتهم من مضر[٥] فتمعر[٦] وجه رسول الله ﷺ لما رأى بهم من الفاقة[٧] ، فدخل ثم خرج ، فأمر بلالاً فأذن وأقام ، فصلى ثم خطب فقال :يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا[٨] اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ[٩] بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً (١)[١٠] »

والآية التي في الحشر : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ

---

(١) تفسير جزء عم ص ١٦٢ ، انظر فقه الزكاه د. يوسف القرضاوى ١ / ٥٤ ، ٥٥ .

(٢) في صدرالنهار : أى فى أوله، وصدر كل شيء أوله.

(٣) عراة : جمع عار ، اسم فاعل من عراه يعروه عروا إذا أتاه طالبًا معروفه ، أو من عرى من ثوبه يعرى عريا وعرية إذا تجرد من اللباس ، أومن قولهم رجل عار إذا أخلقت أثوابه.

(٤) مجتابى النمار : المجتاب اسم مفعول من اجتاب بمعنى خرقه ، وكل مجوف قطعت وسطه فقد جبته واجتبته ، وفى التنزيل : «ثمود الذين جابوا الصخربالواد» قال الفراء : جابوا ، خرقوا الصحراء فاتخذوه بيوتًا. النمار : جمع مفرده نمرة ،وهى بردة من صوف يلبسها الأعراب ،قال في لسان العرب : كأنها أخذت من لون النمر لما فيه من السواد والبياض، أراد أنه جاءه قوم لا بسى أزر مخططة من صوف . انتهى.

(٥) مضر : قبيلة من قبائل العرب تنسب إلى مضر بن نزار بن معد بن عدنان ، قال ابن سيده : سمى به لأنه مولع بشرب اللبن الماضر ، يقال مضر اللبن يمضرمضورا إذا حمض وأبيض.

(٦) فتمعر : فتغير لون وجهه شفقة عليهم. يقال فى اللغة : غضب فلان فتمعر لونه ،ووجهه أى تغير وعلته صفرة ، والأصل فيه قلة النضارة وعدم إشراق اللون : من قولهم مكان أمعر وهو الجدب الذى لا خطب فيه.

(٧) الفاقة : الفقر والحاجة ، وليس له فعل من لفظه. وإنما يقال : أفتاق الرجل إذا افتقرفهو مفتاق ، ولا يقال فاق.

(٨) اتقوا : التقوى جعل النفس فى وقاية مما يخاف.

(٩) تساءلون به : أى تتساءلون به ، إذ كان من عادة العرب أن يسأل بعضهم بعضاً بالله.

(١٠) سورة النساء الآية ١ .

وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ [1] . وتصدق رجل من ديناره [2] ،من درهمه ،من ثوبه ، من صاع [3] بره ، من صاع تمره ، حتى قال : ولو بشق تمرة».

قال : فجاء رجل من الأنصار بصرة [4] كادت كفه تعجز عنها بل قد عجزت ، قال ثم تتابع الناس حتى رأيت كومين [5] من طعام وثياب ، حتى رأيت وجه رسول الله يتهلل [6] كأنه مذهبة [7] ، فقال رسول الله ﷺ : «من سن [8] فى الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها بعده من غير أن ينقص من أجورهم شىء ، ومن سن فى الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها [9] ووزر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص [10] من أوزارهم شىء» [11] .

ولما كان الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين حريصين جداً على ما يقرب إلى الله من أنواع الطاعات سأل أحدهم النبى ﷺ : أى الصدقة أفضل ؟

فأجابه ﷺ بقوله : «أن تصدق وأنت صحيح».

---

(١) سورة الحشر الآية ١٨ .

(٢) من ديناره ، من درهمه : أى من دنانيره ، من دراهمه ، لأن المفرد المضاف إليه معرفة يعم ، وهكذا البقية .

(٣) الصاع : مكيال لأهل المدينة يأخذ أربعة أمداد ،وهو يذكرويؤنث ، قال فى لسان العرب ، فمن أنث قال : ثلاث أصوع مثل : ثلاث أدور ،ومن ذكَّره قال : «أصواع» أى ثلاثة أصواع ، أما المد : فمختلف فيه ، فقيل هو رطل وثلث بالعراقى ، وبه يقول الشافعى وفقهاء الحجاز ، وقيل : هو رطلان ، وبه أخذ أبو حنيفة وفقهاء العراق .

(٤) الصرة الشىء يجمع فيه الدراهم والدنانير أو غيرها ويصر ،وأصل الصر : الجمع والشد .

(٥) كومين : بفتح الكاف وضمها ، والكومة بالضم الصبرة ، والكوم : هو العظيم من كل شىء والمكان المرتفع .

(٦) يتهلل : أى يستنير ويتلألأ ، وذلك بما وقع فى قلبه من السرور بتبادر الأصحاب إلى مساعدة المضرين .

(٧) كأنه مذهبة : أى كأنه فضه مموهة بالذهب إذ علت بياض وجهه حمرة المسرة والابتهاج يقال فى اللغة : أذهب الشىء إذهاباً ،أى موهه وطلاه بالذهب .

(٨) السنة : هى السيرة والطريقة حسنة كانت أو قبيحة ، والسنة فى الاصطلاح الشرعى : ما أثر عن النبى ﷺ من قول أو فعل أوتقرير ، ولكن المراد من اللفظ هنا المعنى اللغوى .

(٩) الوزر : الحمل الثقيل ،والإثم ، وقد سمى الإثم وزراً تشبيها له بالحمل الثقيل . وجمعه أوزار .

(١٠) ينقص : من نقص الشىء ينقص نقصانا ، ويستعمل الفعل متعدياً أيضاً ، فنقول : نقصت الشىء ، أما نقصته على التعدية بالهمزة فلغة مستعملة فى هذا الفعل ولكن الأولى أفصح .

(١١) الحديث رواه مسلم فى باب الحث على الصدقة ، والنقل عن روائع من أقوال الرسول ﷺ دراسات لغوية وفكرية وأدبية للشيخ عبد الرحمن الميدانى ص ١٩ وما بعدها ط دار القلم - دمشق .

أى صحيح الجسم معافًا فى البدن تتمتع بقواك العقلية والجسمية، «شحيح تأمل الغنى»، وتطمع فيه لقدرتك عليه عن طريق المكاسب والأرباح، «وتخشى الفقر».

وإنما كانت الصدقة فى هذا الحال أفضل لما تستدعيه من شدة مجاهدة النفس على إخراج المال مع قيام المانع وهو الشح، فإخراجه حيئذ دليل واضح على قوة الإيمان، وحسن النية، وصحة القصد، وشدة الرغبة فيما يقرب إلى الله، ولا تهمل حتى إذا بلغت - الروح- الحلقوم : أى بلغت مجرى النفس وذلك عند الغرغرة،قلت لفلان كذا ولفلان كذا، فلا ينبغى لنا أن نؤخر الصدقة إلى وقت معاينة الموت والإيذان بالإنصراف عن الدنيا، ومفارقة نعيمها، وقد نبهنا الله عز وجل إلى هذا حيث قال : ﴿ وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ ⑩ وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ⑪ ﴾[1].

فالعاقل من يسابق فى ميدان الخيرات بما يقدمه من الصلة والإحسان لإخوانه الفقراء الذين أناخ الفقر عليهم وعضهم البؤس بنابه، وأوجعهم بكلابه.

الفقراء الذين لامورد لهم،لا قليل ولا كثير، الذين لو رأيتهم لظننتهم من الأغنياء وأهل الثروة والمال،والله أعلم بما يقاسونه من الديون لما تحت أيديهم من الصغار والكبار، ومايقاسون من ألم الجوع والفقر والشدة والعسر لكن يمنعهم الحياء وعزة النفس أن يمدوا أيديهم للسؤال وأن يطلبوا الرزق إلا من الله الكبير المتعال الرازق، وهؤلاء هم الذين ينبغى الاعتناء بهم والبحث عن أحوالهم وذلك عن طريق جيرانهم وأقربائهم، حتى تقع الصدقة موقعها[2]، وقد أورد القرآن وصفهم، قال تعالى : ﴿ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ ﴾[3].

● **التحذير الشديد من منع الزكاة**

وكما رغب رسول الله ﷺ جماعة المسلمين فى المسارعة فى الصدقات فقد أنذر مانعى الزكاة بالعذاب الغليظ فى الآخرة لينبه بهذا الوعيد القلوب الغافلة، ويحرك النفوس الشحيحة إلى البذل، ويسوقها بالترغيب إلى أداء الواجب وإلا ساقها بعصا الترهيب والقانون وسيف السلطان كرها.

عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «من آتاه الله مالاً فلم يؤد زكاته، مثل له يوم القيامة شجاعا أقرع، له زبيبتان، يطوقه يوم القيامة، ثم يأخذ بلهزمتيه - يعنى شدقيه - ثم يقول : أنا مالك، أنا كنزك، ثم تلا النبى ﷺ

(١) سورة المنافقون الآيتان ١٠ ، ١١.

(٢) المرجع السابق ١ / ٢٤٦ بتصرف. (٣) سورة البقرة الآية ٢٧٣ .

الآية : ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُم بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ [1] .

الشجاع : الحية الذكر .. والأقرع : الذى لا شعر له لكثرة سمه وطول عمره، الزبيبتان : نقطتان سوداوان فوق العينين وهو أخبث الحيات .

وروى مسلم عنه أن النبى ﷺ قال : «ما من صاحب ذهب ولا فضه لا يؤدى حقها إلا جعلت له يوم القيامة صفائح، ثم أحمى عليها فى نار جهنم، فيكوى بها جنبه وجبهته وظهره، فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، حتى يقضى بين الناس فيرى سبيله، إما إلى الجنة وإما إلى النار، وما من صاحب بقر ولا غنم لا يؤدى حقها إلا أتى بها يوم القيامة تطؤه بأظلافها، وتنطحه بقرونها، كلما مضى عليه أخراها ردت عليه أولاها، حتى يحكم الله بين عباده فى يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون، ثم يرى سبيله إلى الجنة وإما إلى النار» [2] .

• **العقوبة الدنيوية لمن يمنع الزكاة**

ولم تقف السنة النبوية عند حد الوعيد بالعذاب الأخروى لمن يمنع الزكاة، بل هددت بالعقوبة الدنيوية - الشرعية والقدرية - كل من يبخل بحق الله وحق الفقير فى ماله .

وفى العقوبة القدرية - التى يتولاها القدر الأعلى - يقول عليه الصلاة والسلام : «ما منع قوم الزكاة إلا ابتلاهم الله بالسنين» [3] .

جمع سنة : وهى المجاعة والقحط، وفى حديث ثان : «ولم يمنعوا زكاة أموالهم إلا منعوا القطر فى السماء، ولولا البهائم لم يمطروا» [4] .

وفى حديث آخر : «ما خالطت الصدقة - أو قال الزكاة - مالاً إلا أفسدته» [5] .

وهذا الحديث يحتمل معنيين كما قال المنذرى :

الأول : أن الصدقة - بمعنى الزكاة - ما تركت فى مال ولم تخرج منه إلا كانت سببا فى هلاكه وفساده، ويشهد لهذا المعنى ما روى فى حديث آخر : «ما تلف مال فى بر ولا بحر إلا بحبس الزكاة» [6] .

---

(١) رواه البخارى. (٢) رواه مسلم وانظر فقه الزكاة د. يوسف القرضاوى ١ / ٧٥، ٧٦ بتصرف.

(٣) رواه الطبرانى فى الأوسط ورواته ثقات - والحاكم والبيهقى فى حديث إلا أنهما قالا : ولا منع قوم الزكاة إلا حبس الله عنهم القطر، وقال الحاكم صحيح على شرط مسلم . الترغيب والترهيب ١ / ٢٧٠ ، مجمع الزوائد ٣ / ٩٦ .

(٤) رواه ابن ماجة والبزار والبيهقى واللفظ له من حديث ابن عمر «المصدر السابق» ورواه الحاكم وصححه ووافقه الذهبى وله شواهد حديث رقم ١٠٥ الأحاديث الصحيحة للألبانى.

(٥) رواه البزار والبيهقى كما فى الترغيب، وقال فى المنتقى رواه الشافعى والبخارى والحميدى وزاد : يكون قد وجب عليك فى مالك صدقة فلا تخرجها فيهلك الحرام والحلال.

(٦) رواه الطبرانى فى الأوسط وفيه عمر بن هارون وهو ضعيف، مجمع الزوائد، ٣ / ٩٣ .

الثاني : أن الرجل يأخذ الزكاة وهو غني عنها، فيضعها مع ماله، فيهلكه، وبهذا فسر الإمام أحمد.

• العقوبة الشرعية لمانع الزكاة

في العقوبة الشرعية القانونية التي يتولاها الحاكم أو ولي الأمر جاء قوله ﷺ في الزكاة : «من أعطاها مؤتجراً له أجره، ومن منعها فإننا آخذوها وشطر ماله، عزمة من عزمات ربنا، لايحل لآل محمد منها شيء»[1].

تضمن هذا الحديث الكريم جملة مبادئ هامة في باب الزكاة :

أحدها : أن الأصل في الزكاة أن يعطيها المسلم مؤتجراً : أي طالباً الأجر، ومحتسباً الثواب عند الله تعالى ، لأنه يتعهد الله بأدائها، فمن فعل ذلك فله أجره، ومثوبته عند ربه.

الثاني : أن من غلب عليه الشح وحب الدنيا، ومنع الزكاة لم يترك وشأنه، بل تؤخذ منه قهراً بسلطان الشرع وقوة الدولة، وزيد على ذلك فعوقب بأخذ نصف ماله تعزيراً وتأديباً لمن كتم حق الله في ماله، وردعا لغيره أن يسلك سبيله.

الثالث : إن هذا التشديد في أمر الزكاة إنما هو لرعاية حق الفقراء والمستحقين الذين فرض الله لهم الزكاة، وأما النبي ﷺ وآله فليس لهم نصيب في هذه الزكاة ولا يحل لهم منها شيء، على خلاف ما عرف في الصدقات عند اليهود، حيث كان عشرها مخصصاً لآل هارون «اللاويين» الذين كانوا كهانا بالنسل والوراثة، وكان جزء منها يصرف إلى أصحاب المناصب الدينية[2].

• قتال الممتنعين عن أداء الزكاة

لم يقف الإسلام عند عقوبة مانع الزكاة بالغرامة المالية، أو بغيرها من العقوبات التعزيرية ، بل أوجب سل السيوف وإعلان الحرب على كل فئة ذات شوكة تتمرد على أداء الزكاة.

---

(١) رواه أحمد والنسائي وأبو داود من رواية بهز بن حكيم عن أبيه عن جده معاوية بن حيدة، ورواه البيهقي في سننه ٤ / ١٠٥ وقال هذا حديث أخرجه أبو داود في السنن.

(٢) انظر : الأركان الأربعة للأستاذ أبي الحسن الندوي ص١٢٩ . فقه الزكاة د. يوسف القرضاوي ١ / ٧٦-٧٨.

فقتال المتمردين على أداء الزكاة قد ثبت بالأحاديث الصحيحة وبإجماع الصحابة رضى الله عنهم .

أما الأحاديث فقد روى الشيخان عن عبد الله بن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، ويقيموا الصلاة ، ويؤتوا الزكاة ، فإن فعلوا ذلك عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام وحسابهم على الله» .

فهذا الحديث يدل دلالة صريحة على أن مانع الزكاة يقاتل حتى يعطيها ، والظاهر أنه بهذه الألفاظ الصريحة لم يبلغ الصديق ولا الفاروق رضى الله عنهما ، حينما تحاورا فى جواز قتال مانعى الزكاة إذا أقروا بشرائع الإسلام الأخرى كالصلاة والصيام .

وليس ذلك بمستغرب ، فقد يسمع بعض الصحابة مالم يسمع الآخر ، فقد قال عمر فى حديث أبى موسى فى الاستئذان : ألهانى عنه الصفق فى الأسواق ، ولا يبعد أن يكون الصديق قد سمع الحديث الصريح ولكنه رد على عمر أخذاً من الحديث الذى احتج به نفسه فقلب حجته واستظهر بهذا الدليل النظرى .

• **أبو بكر الصديق ومانعى الزكاة**

فى عهد الخليفة الأول لرسول الله ﷺ تمردت قبائل شتى من العرب على أداء الزكاة ، واكتفوا من الإسلام بالصلاة دون الزكاة ، وظاهروا بموقفهم المرتدين المارقين الذين اتبعوا زعماءهم من أدعياء النبوة ، مثل مسيلمة الكذاب وقومه ، وسجاح وقومها ، وطليحة الأسدى وقومه .

كان موقف أبى بكر موقفًا تاريخيًا فذا ، فلم يقبل التفرقة بين العبادة البدنية «الصلاة» والعبادة المالية «الزكاة» ولم يقبل التهاون فى أى شىء كان يؤدى لرسول الله ﷺ قبله ولو كان عقال بعير ،

قال أبو هريرة : لما توفى رسول الله ﷺ وكان أبو بكر ، وكفر من كفر من العرب ، فقال عمر : كيف تقاتل الناس ، وقد قال رسول الله ﷺ : «أمرت أن

أقاتل الناس حتى يقولوا : لا إله إلا الله، فإذا قالوها فقد عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله تعالى».

فقال : والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة فإن الزكاة حق المال، والله لو منعونى عناقًا كانوا يؤدونها لرسول الله لقاتلتهم على منعها.

قال عمر : فوالله ما هو إلا أن قد شرح الله صدر أبى بكر للقتال فعرفت أنه الحق [١]. وفى رواية بعضهم «عقالاً» بدل «عناقا» [٢].

هذا ما صنعه الخليفة الأول أبو بكر الصديق رضى الله عنه بمن أصر من العرب على منع الزكاة بعد رسول الله ﷺ، وهذا ما أقره عليه الصحابة الأعلام الذين أجمعوا معه على قتالهم، حتى من اشتبه أول الأمر فى شأنهم، وبهذا صار قتال الممتنعين عن الزكاة من مواضع الإجماع فى شريعة الإسلام.

• صدقه التطوع

تسن صدقة التطوع فى كل وقت، قال تعالى : ﴿مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٤٥)﴾ [٣].

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «من تصدق بعدل تمرة من كسب طيب، ولا يقبل الله إلا الطيب، فإن الله يتقبلها بيمينه ثم يربيها لصاحبها كما يربى أحدكم فلوه [٤] حتى تكون مثل الجبل» [٥].

وعن أنس رضى الله عنه - مرفوعًا - : «إن الصدقة لتطفىء غضب الرب، وتدفع ميتة السوء» [٦].

---

(١) رواه الجماعة إلا ابن ماجة.

(٢) نيل الأوطار ٤ / ١١٩ والعناق : الأنثى من أولاد المعز، والعقال : الحبل الذى يعقل به البعير. وقيل : العقال زكاة عام. انظر فقه الزكاة د. يوسف القرضاوى ١ / ٨٠.

(٣) سورة البقرة الآية ٢٤٥.

(٤) الفلو - بتشديد الواو - المهر، والأنثى : فلوة «المختار من صحاح اللغة».

(٥) رواه البخارى كتاب التوحيد، ومسلم كتاب الزكاة.

(٦) رواه الترمذى وحسنه.

وعن مرثد بن عبد الله قال : حدثنى رسول الله ﷺ قال : «إن ظل المؤمن يوم القيامة صدقته»[(١)].

وروى أبو هريرة عن النبى ﷺ أنه قال : «سبعة يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله» وذكر منهم رجلاً تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه[(٢)].

وقد كان رسول الله ﷺ يتأثر يتأثراً بالغًا - ويعرف ذلك فى وجهه - حينما يجد واحداً أو جماعة من أمته ﷺ فى حاجة أو نزلت به جانحة أحوجته إلى مساعدة إخوانه من المسلمين، فقد كان ﷺ يبادر بالعطاء إن كان عنده ما يكفى حاجة السائل، وإلا لجأ ﷺ إلى حث المسلمين على البذل والعطاء حتى يكفى السائل سؤله أو الجماعة سؤلها.

- **الأولوية فى الصدقة**

الأولوية فى الصدقة تكون للأقرباء والجار وطلاب العلم، فالصدقة على ذى الرحم أفضل منها على غيره لا سيما مع عداوة.

أما الدليل على أفضليتها فى القرابة فلحديث سلمان : «الصدقة على المساكين صدقة وعلى ذى الرحم ثنتان صدقه وصلة»[(٣)]،

ولقوله ﷺ لأبى طلحة حينما أراد أن يتصدق بأطيب ماله وهو حديقة : «وإنى أرى أن تجعلها فى الأقربين»[(٤)].

فقال أبو طلحة : أفعل يا رسول الله، فقسمها أبو طلحة فى أقاربه وبنى عمه.

وأما الدليل على التأكيد من العداوة، فلما ورد عن أم كلثوم رضى الله عنها أن النبى ﷺ قال : «أفضل الصدقة على ذى الرحم الكاشح»[(٥)].

وعن حكيم بن حزام رضى الله عنه قال : إن رجلاً سأل رسول الله ﷺ عن الصدقات أيها أفضل ؟ قال : «على ذى الرحم الكاشح».

---

(١) رواه أحمد
(٢) رواه البخارى ومسلم.
(٣) سبق تخريجه.
(٤) سبق تخريجه.
(٥) رواه الطبرانى ورجاله رجال الصحيح.

وأما الأفضلية بالنسبة للجار فلقوله تعالى : ﴿ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ ﴾ [1] . وعن ابن عمر وعائشة رضى الله عنهما، قالا : قال رسول الله ﷺ : «مازال جبريل يوصينى بالجار حتى ظننت أنه سيورثه».

وعن أبى شريح الخزاعي : أن النبى ﷺ قال : «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليحسن إلى جاره» [2] .

ويستحب أن يخص بالصدقة من اشتدت حاجته لقول الله تعالى : ﴿ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾ ﴾ [3] . وكونها على عالم أفضل، لأن فى إعطائه إعانة على العلم ونشر الدين وذلك لتقوية الشريعة، وكونها على صاحب دين أفضل، وكذا على ذى عائلة أفضل ممن ليس كذلك.

• المن بالصدقة

دأب عدد من الناس على المن بصدقاتهم على الفقراء والمساكين، فبين الحق تبارك وتعالى لهم ثواب الإنفاق فى الآخرة لمن لم يتعود هذه العادة، عادة المن بالصدقة، وبين سبحانه وتعالى أن فيها أذى للفقراء والمساكين، فقال جل شأنه مثنيًا على من ابتعد عن المن مبينًا أجره وثوابه فى الآخرة، قال تعالى : ﴿ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لا يُتْبِعُونَ مَا أَنفَقُوا مَنًّا وَلا أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾ ﴾ [4] .

أى أن الذين يبذلون أموالهم يبتغون بذلك مرضاة ربهم، ولا يتبعون ذلك بمنهم على من أحسنوا إليهم، ولا بإيذائهم، لهم عند ربهم ثواب لا يقدر قدره، ولا خوف عليهم حين يخاف الناس وتفزعهم الأهوال، ولاهم يحزنون حين يحزن الباخلون الممسكون عن الإنفاق فى سبيل الله، إذ هم أهل السكينة والاطمئنان والسرور الدائم.

والحكمة فى تعليق هذا الثواب على ترك المن والأذى، أن الإنفاق فى سبيل الله يراد به رحمة الله وطلب رضاه، فلا وجه لِمَنِّ المنفق على من أنفق عليه،

(١) سورة النساء الآية ٣٦.
(٢) سبق تخريجه.
(٣) سورة البلدالآية ١٦.
(٤) سورة البقرة الآية ٢٦٢ .

لأنه لايد له قبله ،ولا صنيعة له عنده ،تستحق - إن لم يكافئه عليه - المن والأذى، فعلى الله مثوبته دون من أنفق عليه [1].

وبعد أن أبان سبحانه فيما سلف أن ترك المن والأذى شرط لحصول الأجر والثواب على الإنفاق فى سبيله، أقبل يخاطب عباده المؤمنين وينهاهم نهيًا لا هوادة فيه عن إبطال صدقاتهم بالمن والأذى، فقال سبحانه : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأَذَىٰ كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لاَّ يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (٢٦٤) ﴾ [2].

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأَذَىٰ ﴾ أى أن المن والأذى هادم للفائدة المقصودة من الصدقة ومبطل لها، وهو تخفيف بؤس المحتاجين، وكشف أذى الفقر عنهم إذا كانت الصدقة للأفراد، وتنشيط القائمين بخدمة الأمة ومساعدتها إذا كانت الصدقة فى مصلحة عامة، إذ أن كل عمل لا يؤدى إلى الغاية منه فقد حبط وبطل كأن لم يكن ،فما بالك إذا أتبع بضد الغاية ونقيضها ؟

ونحو ذلك ما يقال : إن صلاة المرائى باطلة، على معنى أن الغرض منها وهو : توجه القلب إلى الله واستشعار سلطانه والإذعان لعظمته والشكر لإحسانه لم يحصل ؛ لأن قلب المرائى إنما يتوجه إلى من يرائيه، لا إلى ذى العظمة والجبروت، والملك والملكوت.

وفى ذلك مبالغة أيما مبالغة فى التنفير من هاتين الرذيلتين اللتين قد أولع الناس بهما ؛ فالنفوس مغرمة بذكر ما يصدر منها من الإحسان تمدحًا وتفاخرًا، وذلك طريق إلى المن والإيذاء، ولاسيما إذا آنس المتصدق تقصيرًا فى شكر الناس له على صدقته، أو احتقارا لها، فهو حينئذ لا يكاد يملك نفسه عن المن والأذى.

﴿ كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ﴾ أى لا تبطلوا

---

(١) تفسير المراغى ٣ / ٣١، ٣٢.

(٢) سورة البقرة الآية ٢٦٤ .

صدقاتكم بإحدى هاتين الرذيلتين فتكونوا مشبهين من ينفق ماله مرائيًا للناس ؛ أى لأجل أن يروه فيحمدوه ، لا لابتغاء مرضاة الله بتحرى ماحث عليه من رحمة عباده الضعفاء والمعوزين ، وترقية شأن الأمة بما يصلح شئونها ، وهو لا يؤمن بالله واليوم الآخر حتى يرجو ثوابًا أويخشى عقابًا [(١)] .

يقول ابن القيم : فإن عرض لهذه الأعمال من الصدقات ما يبطلها من المن والأذى والرياء ، فالرياء يمنع انعقادها ، والمن والأذى يبطل الثواب الذى كانت سببا له ، فمثل صاحبها وبطلان عمله كمثل صفوان [(٢)] عليه تراب فأصابه وابل فتركه صلدًا لاشيء عليه .

وتأمل أجزاء هذا المثل البليغ ، وانطباقها على أجزاء الممثل به ، تعرف عظمة القرآن وجلاله ، فإن الحجر فى مقابلة قلب هذا المرائى والمان المؤذى ، فقلبه فى قسوته عن الإيمان والإخلاص والإحسان بمنزلة التراب الذى على ذلك الحجر ، فقسوة ما تحته وصلابته تمنعه من النبات والثبات عند نزول الوابل ، فليس له مادة متصلة بالذى يقبل الماء وينبت الكلأ ، وكذلك قلب المرائى ليس له ثبات عند وابل الأمر والنهى والقضاء والقدر ، فإذا نزل عليه وابل الوحى انكشف عند ذلك التراب اليسير الذى كان عليه ، فبرز ما تحته حجرا صلدًا لا نبات فيه ، وهذا مثل ضربه الله سبحانه وتعالى لعمل المرائى ونفقته لا يقدر يوم القيامة على ثواب شيء منه أحوج ما كان إليه [(٣)] .

• موقف المان بصدقته المرائى بها يوم القيامة

قال تعالى : ﴿ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ (٢٦٦) ﴾ [(٤)] . أى هل يود الإنسان أن تكون له جنة معظم أشجارها الكرم والنخل - وهما أجل الأشجار وأكثرها نفعًا - حاوية لأنواع أخرى من الثمرات ، تجرى فيها الأنهار فتسقيها

---

(١) تفسير المراغى ٣ / ٣٣ ، ٣٤ .

(٢) الصفوان : الحجر الأملس .

(٣) اعلام الموقعين ١ / ١٨٥ ، ١٨٦ .

(٤) سورة البقرة الآية ٢٦٦ .

ماء غدقا، علق بها آماله، ورجا أن ينتفع بها عياله، وقد أصابه الكبر وأقعده عن الكسب، وله ذرية ضعفاء لا يستطيعون أن يقوموا بشأنه وشأنهم، ولا مورد له غير هذه الجنة.

وبينما هو على تلك الحال إذا بجنته قد أصابها إعصار فأحرقها بما فيه من سموم النار، وهو أحوج ما يكون إليها، وبقي هو وأولاده حيارى لا يدرون ماذا هم فاعلون ؟

وهكذا حال من يفعل الخير ويبذل المال ويحبط عمله بالرياء أو بالمن والأذى، فإنه يأتي يوم القيامة هو أشد ما يكون حاجة إلي ثواب ما بذل، ولكنه يجد إعصار الرياء والمن والأذى أبطل ما فعل من الخير وجعله هباء منثوراً فأصبح يقلب كفيه نادماً ولات ساعة مندم [1].

وهكذا يضرب المولى جل وعلا الأمثال لنتفكر فيها ونعتبر بما اشتملت عليه من العبر، ونضع نفقاتنا وصدقاتنا في مواضعها ونقصد بها أن تكون خالصة لوجه الله تعالى.

● **الإنفاق ابتغاء مرضاة الله**

بعد أن ذكر المولى سبحانه وتعالى مثل الذين ينفقون أموالهم ثم لا يتبعون ذلك بالمن والأذى، ومثل الذين ينفقون أموالهم رءاء الناس، قفى على ذلك بذكر مثل الذين ينفقون أموالهم طلباً لرضا ربهم وتزكية لأنفسهم فبضدها تتبين الأشياء.

قال تعالى: ﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢٦٥) ﴾ [2] أي مثل المنفقين أموالهم ابتغاء رضوانه تعالى، وتمكينا لأنفسهم في مراتب الإيمان والإحسان باطمئنانها حين البذل حتى يكون ذلك سجية لها، كمثل جنة جيدة التربة ملتفة الشجر، عظيمة الخصب، تنبت كثيرا من الغلات، نزل عليها مطر كثير فكان ثمرها مِثْلَيْ ما كانت تغل، وإن لم يصبها الوابل فطل ومطر خفيف يكفيها لجودة تربتها، وكرم منبتها، وحسن موقعها.

---

(١) تفسير المراغي ٣/ ٣٧ .

(٢) سورة البقرة الآية ٢٦٥ .

وهكذا كثير البر كثير الجود، إن أصابه خير كثير أغدق ووسع فى الإنفاق، وإن أصابه خير قليل أنفق بقدره، فخيره دائم، وبره لا ينقطع.

وقد هدانا الله بهذا إلى أن نقصد بأعمالنا طلب رضاه وتزكية نفوسنا وتطهيرها من الشوائب التى تعوقها عن الكمال كالبخل والمبالغة فى حب المال، فإن نحن فعلنا ذلك جوزينا خير الجزاء.

﴿ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ فهو يجازى كلا من المخلص والمرائى بما هو أعلم به، وفى ذلك تحذير من الرياء الذى يظن صاحبه أن يغش الناس بإظهاره خلاف ما يضمر [1].

• الإنفاق من طيب الكسب

قال الحق تبارك وتعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِآخِذِيهِ إِلَّا أَن تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ (٢٦٧) ﴾ [2]. فقد روى فى سبب نزول هذه الآية أن بعض المسلمين كانوا يأتون بصدقتهم من حشف التمر «أى رديئه».

وروى من وجه آخر أن الرجل كان يعمد إلى التمر فيصرمه، ثم يعزلُ الجيد ناحية، فإذا جاء صاحب الصدقة «الفقير أو المسكين» أعطاه من الردىء.

وكما نهينا عن تعمد تخصيص الصدقة بالخبيث، نهينا عن تكليف المتصدق بدفع الجيد من ماله فحسب، فقد قال ﷺ لمعاذ بن جبل حين بعثه إلى اليمن «أعلمهم أن عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم وترد على فقرائهم، وإياك وكرائم أموالهم، فالواجب أخذ الوسط» [3].

قال ابن كثير [4]: يأمر عباده المؤمنين بالإنفاق: والمراد به الصدقة ههنا من طيبات ما رزقهم من الأموال التى اكتسبوها، يعنى التجارة بتيسيره إياها لهم.

وقال على والسدى: من طيبات ما كسبتم يعنى الذهب والفضة، ومن الثمار والزروع التى أنبتها لهم من الأرض.

---

(١) تفسير المراغى ٣ / ٣٦، ٣٧.

(٢) سورة البقرة الآية ٢٦٧.

(٣) تفسير المراغى ٣ / ٣٩.

(٤) تفسير القرآن العظيم ١ / ٤٧٨.

قال ابن عباس : أمرهم بالإنفاق من أطيب المال وأجوده وأنفسه، ونهاهم عن التصدق برذالة المال ورديئه وهو : خبيثه ، فإن الله طيب لا يقبل إلا طيباً.

ولهذا قال: «وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ» أي لا تقصدوا الخبيث «منه تنفقون ولستم بآخذيه» أي لو أعطيتموه ما أخذتموه إلا أن تتغاضوا فيه، فالله أغنى منكم، فلا تجعلوا لله ما تكرهون.

وقيل : معناه لا تعدلوا عن المال الحلال وتقصدوا إلى الحرام فتجعلوا نفقتكم منه.

وعن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : «إن الله قسم بينكم أخلاقكم كما قسم بينكم أرزاقكم، وإن الله يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب، ولا يعطى الدين إلا لمن أحب، فمن أعطاه الله الدين فقد أحبه، والذى نفسى بيده لا يسلم عبد حتى يسلم قلبه ولسانه، ولا يؤمن حتى يأمن جاره بوائقه».

قالوا: وما بوائقه يا نبى الله ؟

قال :«غشه وظلمه ، ولا يكسب عبد مالاً من حرام فينفق منه فيبارك له فيه، ولا يتصدق به فيقبل منه، ولا يتركه خلف ظهره إلا كان زاده إلى النار، إن الله لا يمحو السيء بالسيء ولكن يمحو السيئ بالحسن، إن الخبيث لا يمحو الخبيث»[1]

قال ابن كثير : والصحيح القول الأول.

قال ابن جرير رحمه الله : عن البراء بن عازب رضى الله عنه فى قول الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ ﴾ الآية، قال : نزلت فى الأنصار، كانت الأنصار إذا كانت أيام جذاذ النخل أخرجت من حيطانها البسر فعلقوه على حبل بين الأسطوانتين فى مسجد رسول الله ﷺ فيأكل فقراء المهاجرين منه، فيعمد الرجل منهم الحشف فيدخله مع أقناء البسر يظن أن ذلك جائز، فأنزل الله، فيمن فعل ذلك :﴿ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ ﴾[1].

وقال ابن حاتم : عن البراء رضى الله عنه ﴿ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ

(١) رواه الإمام أحمد عن عبد الله بن مسعود مرفوعًا.

وَلَسْتُم بِآخِذِيهِ إِلاَّ أَن تُغْمِضُوا فِيهِ﴾ قال : نزلت فينا ، كنا أصحاب نخل فكان الرجل يأتي من نخله بقدر كثرته وقلته ، فيأتي الرجل بالقنو فيعلقه في المسجد ، وكان أهل الصفة ليس لهم طعام ، فكان أحدهم إذا جاع جاء فضربه بعصاه فسقط منه البسر والتمر ، فيأكل ، وكان أناس ممن لا يرغبون في الخير يأتي بالقنو الحشف والشيص ، فيأتي بالقنو قد انكسر فيعلقه ، فنزلت : ﴿وَلا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِآخِذِيهِ إِلاَّ أَن تُغْمِضُوا فِيهِ﴾ قال : لو أن أحدكم أهدى له مثل ما أعطى ما أخذ إلا على إغماض وحياء ، فكنا بعد ذلك يجيء الرجل منا بصالح ما عنده[2] .

وعن عبد الله بن مغفل في هذه الآية ﴿وَلا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ﴾ قال : كسب المسلم لا يكون خبيثا ، ولكن لا يتصدق بالحشف ، والدرهم الزيف ، وما لاخير فيه[3] .

وقال الإمام أحمد عن عائشة قالت : أتي رسول الله ﷺ بضب فلم يأكله ولم ينه عنه ، قلت : يا رسول الله نطعمه المساكين ؟

قال : «لاتطعموهم مما لا تأكلون» .

عن البراء : ﴿وَلا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ﴾ يقول : لو كان لرجل على رجل فأعطاه ذلك لم يأخذه إلا أن يرى أنه قد نقصه من حقه[4] .

وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس : ﴿وَلا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ﴾ يقول : لو كان لكم على أحد حق فجاءكم بحق دون حقكم لم تأخذوه بحساب الجيد حتى تنقصوه ، فكيف ترضون لي مالا ترضون لأنفسكم ، وحقي عليكم من أطيب أموالكم وأنفسه[5] .

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ أي أن الله غني عن إنفاقكم ، وإنما يأمركم به لمنفعتكم ، فلا تتقربوا إليه بمالا يقبله لرداءته ، وهو المستحق للحمد على جلائل نعمائه ، ومن الحمد اللائق بجلاله تحري إنفاق الطيب مما أنعم به .

---

(١) أخرجه ابن ماجة والحاكم ، وقال : صحيح على شرط الشيخين.

(٢) رواه ابن أبي حاتم والترمذي ، وقال الترمذي : حسن غريب.

(٣) رواه ابن أبي حاتم عن عبد الله بن مغفل.

(٤) رواه ابن جرير عن البراء بن عازب.

(٥) مختصر تفسير ابن كثير - محمد علي الصابوني المجلد ١ / ٢٤٠ ، ٢٤١ .

• **مرتبة البر**

قال تعالى : ﴿ لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴿٩٢﴾ ﴾[1] . هذه الآية تدل على أن مرتبة البر في الإنفاق لا تنال إلا بتعمد المسلم أن ينفق في سبيل الله مما يحب، أي من بعض ما يحب، ومعلوم أن الإنسان إنما يحب من أمواله نفائسها وأحاسنها وكرائمها في الغالب.

لكن هذه المرتبة مرتبة صعبة على النفوس، لاتقتحم إلا بقهر الهوى، أو بفطرة عالية جداً تحب العطاء أكثر مما تحب التملك، ولذلك كان إنفاق الإنسان مما يحب أفضل الأنفاق.

روى البخاري ومسلم عن أنس قال : كان أبو طلحة أكثر الأنصار بالمدينة مالاً من نخل، وكان أحب أمواله إليه بيرحاء[2]، وكانت مستقبلة المسجد وكان رسول الله ﷺ يدخلها ويشرب من ماء طيب فيها.

قال : فلما نزلت هذه الآية ﴿لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾ قام أبو طلحة إلي رسول الله ﷺ فقال يا رسول الله: إن الله تعالى يقول «لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ » وإن أحب مالي إلي بيرحاء، وإنها صدقة لله تعالى،أرجو برها وذخرها عند الله تعالى، فضعها يا رسول الله حيث أراك الله.

فقال رسول الله ﷺ :«بخ بخ ، ذلك مال رابح ،وقد سمعت ما قلت ، وإني أرى أن تجعلها في الأقربين».

فقال أبو طلحة : أفعل يا رسول الله، فقسمها أبو طلحة في أقاربه وبني عمه».

• **دستور حسن المعاملة بين الناس**

وضع الحق تبارك وتعالى دستوراً لحسن المعاملة بين الناس فقال تعالى : ﴿ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾ ﴾[3] . أي كلام حسن ورد جميل على السائل، وستر لما وقع منه من الإلحاف في السؤال وغيره أنفع وأكثر فائدة من صدقة فيها الأذى؛ لأنه وإن خيب رجاءه فقد أفرح قلبه

---

(١) سورة آل عمران الآية ٩٢.

(٢) بيرحاء : اسم لحديقة من نخل كانت لأبي طلحة.

(٣) سورة البقرة الآية ٢٦٣.

وهون عليه ذل السؤال ، وهذا القول تارة يتوجه إلى السائل إن كانت الصدقة عليه ، وتارة أخرى يتوجه إلى المصلحة العامة ، كما إذا احتيج لجمع المال لدفع عدو مهاجم أو بناء مستشفى أو مدرسة أو نحو ذلك من أعمال الخير والبر ولم يكن لدى المرء مال ، فعليه أن يساعد بالقول المعروف الذى يحث العاملين على العمل ، وينشطهم إليه ، ويبعث عزيمة الباذلين على الزيادة فى البذل .

أما الصدقة التى يتبعها أذى فهى مشوبة بضرر ما يتبعها من الإيذاء ، ومن آذى فقد بغض نفسه إلى الناس بظهوره فى مظهر البغض لهم .

والسلم والولاء خير من العداوة والبغضاء .

ومن الخير للأمة أن يظهر أفرادها فى مظهر المتعاونين كما قال تعالى : ﴿ وتعاونوا على البر والتقوى ﴾ وذلك مما يعزز مقامها ، ويحفظ كرامتها ، ويجعلها مهيبة فى أعين الناس أجمعين .

وخلاصة المعنى : أن مقابلة المحتاج بكلام يسره وهيئة ترضيه ، خير له من الصدقة مع الإيذاء بسوء القول أو سوء المقابلة ، ولا فارق بين أن يكون المحتاج فرداً أو جماعة ، فإن مساعدة الأمة ببعض المال مع سوء القول فى العمل الذى ساعدها عليه ، وإظهار استهجانه ، وتشكيك الناس فى فائدته ، لاتوازى إحسان القول فى ذلك العمل الذى تطلب المساعدة له ، والإغضاء عن التقصير الذى ربما يقع من العاملين فيه ، فكونك مع الأمة بقلبك ولسانك أجدى لها من شيء من المال تعطيه مع مقالة السوء وفعل الأذى .

وقد قررت هذه الآية مبدأً عامًا فى الشريعة الإسلامية وهو : (درء المفاسد مقدم على جلب المصالح) فقد دلت على أن الخير لا يكون طريقًا إلى الشر ، وعلى أن الأعمال الصالحة يجب أن تكون خالية من الشوائب التى تفسدها وتذهب بفائدتها كلها أو بعضها ، وعلى أن من عجز عن نوع من أنواع البر فعليه أن يجتهد فى إحسان عمل آخر يؤدى إلى مثل غايته ، فمن شق عليه أن يتصدق ولا يمن ولا يؤذى ، فعليه أن يجبر قلب الفقير بقول المعروف .

«وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ» أى والله غنى عن صدقة عباده، فلا يأمرهم ببذل المال لحاجة إليه، بل ليطهرهم ويزكيهم ويؤلف قلوبهم ويصلح شئونهم الاجتماعة، ليكونوا أعزاء بعضهم لبعض ناصر ومعين.

فهو غنى عن صدقة يتبعها مَنٌّ أو أذى؛ لأنه لا يقبل إلا الطيبات، حليم لا يعجل بعقوبة من يمُن أو يُؤْذى.

وفى هذه الجملة سلوة للفقراء، وتعليق لقلوبهم يجب الرجاء بالله الغنى الحليم، وتهديد للأغنياء، وإنذار لهم بألايغتروا بحلم الله وإمهاله إياهم، وعدم تعجل العقوبة على كفرهم بنعمته تعالى، إذ من وهبهم المال فإنه يوشك أن يسلبه منهم [1].

- **إظهار الصدقة أم إخفاؤها**

فى قوله تعالى: ﴿ إِن تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ [2]. اقتران إخفاء الصدقة بإتيان الفقراء، وفى هذا إشارة إلى أنه ينبغى عند إخفاء الصدقة التحرى عن الفقير حقا لاسيما الذى يخفى فقره، أى إن تظهروا الصدقات فنعم عملا إظهارها لما فيه من الأسوة الحسنة، فيقتدى بالمتصدق كثير من الناس؛ ولأن الصدقة من شعائر الإسلام التى لو أخفيت لتُوُهِّم منعها.

وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو أفضل، لما فى ذلك من البعد عن شبهة الرياء، ولما دلت عليه الآثار والأحاديث، فقد أخرج أحمد عن أبى أمامة: بأن أبا ذر قال: يارسول الله أى الصدقة أفضل؟

قال: «صدقة سر إلى الفقير، أو جُهد من مقل، ثم قرأ الآية».

وروى الطبرانى مرفوعًا: «إن صدقة السر تطفئ غضب الرب».

وروى البخارى: إن من السبعة الذين يظلهم الله فى ظله يوم القيامة إذ لا ظل إلا ظله «رجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لاتعلم شماله ما تنفق يمينه».

(١) تفسير المراغى ٣/ ٣٢، ٣٣.   (٢) سورة البقرة الآية ٢٧١.

وعن ابن عباس رضى الله عنهما : صدقة السر فى التطوع تفضل على علانيتها سبعين ضعفا ، وصدقة الفريضة علانيتها أفضل من سرها بخمس وعشرين ضعفا ، وهكذا الحكم فى جميع الفرائض والتطوع .

وقال أكثر العلماء : إن أفضلية السر على العلانية إنما هى فى التطوع لا فى الفريضة ، فإن إظهارها أفضل لإظهار شعيرة من شعائر الدين ، وقوة الدين بإظهار شعائره ، ولما فى ذلك من القدوة الحسنة ، ولأن احتمال الرياء بعيد فى أداء الفرائض ، بل قالوا أيضا : إن الإظهار أفضل لمن يرجو اقتداء الناس به فى صدقته ولو كانت تطوعًا [1] .

• ملاحظة هامة

فهم من قوله تعالى : «الفقراء» ولم يقل «فقراءكم» - أعنى المسلمين - أن صدقة التطوع تعطى للمسلم والكافر ، والبر والفاجر ؛ لأن الله كتب الرحمة والإحسان فى كل شيء ، فقد ورد فى الصحيحين : «فى كل ذى كبد حرَّى أجر» [2] أى فى جميع الأحياء ، وتمنع الزكاة التى هى أحد أركان الإسلام عن الكافر ، ومثلها زكاة الفطر .

كما فهم من التصريح به أن الإخفاء مظنة الالتباس والاشتباه ، إذ ربما يدعى الغنىُّ الفقر ، ويُقْدم على قبول الصدقة سراً ، ولا يفعل ذلك عند الناس .

فعلينا أن نتحرى ونعطى الفقراء حقا ، لا مدعى الفقر .

« ويُكفِّرُ عنكُم مِّن سَيِّئَاتِكُمْ » أى ويمحو عنكم بعض ذنوبكم ؛ لأن الصدقة لا تكفر جميع الذنوب .

« واللَّهُ بِمَا تعْمَلُونَ خَبِيرٌ » أى فما تفعلونه فى صدقاتكم من الإسرار والإعلان فالله خبير به ، عليم بأمره ، ومجازيكم عليه ، وفى هذا ترغيب فى إعطاء الصدقات سراً .

وقد روى أنه لما نزل قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ

(١) تفسير المراغى ٣ / ٤٥ ، ٤٦ .

(٢) البخارى ومسلم.

اللَّهَ يَعْلَمُهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ (٢٧٠) ﴾ [1]. قالوا يا رسول الله : أصدقة السر أفضل أم صدقة العلانية ؟

فنزلت الآية [2] : ﴿ إِن تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٢٧١) ﴾ [3].

وروى أنها أنزلت فى أبى بكر وعمر رضى الله عنهما ،قال ابن أبى حاتم : أنزلت فى أبى بكر وعمر رضى الله عنهما ،أما عمر فجاء بنصف ماله حتى دفعه إلى النبى ﷺ .

فقال له النبى ﷺ : « ما خلفت وراءك لأهلك يا عمر ؟»

قال : خلفت لهم نصف مالي.

وأما أبو بكر فجاء بماله كله يكاد أن يخفيه من نفسه حتى دفعه إلى النبى ﷺ .

فقال له النبى ﷺ : «ما خلفت وراءك لأهلك يا أبا بكر »؟

فقال : عدة الله وعدة رسوله.

فبكى عمر رضى الله عنه وقال : بأبى أنت وأمي يا أبا بكر ، والله ما استبقنا إلى باب خير قط إلا وكنت سابقا [4].

• تنبيهات مهمة

١ - بعد أن أرشد المولى جل وعلا فى قوله : ﴿ إِن تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٢٧١) ﴾ [5]. إلى إيتاء الصدقات للفقراء عامة ، مسلمين وغيرهم ، بين هنا أنه لا ينبغى التحرج من إعطاء الفقير غير المسلم صدقة لكفره ؛ لأن الصدقة تسد خلته ، ولا دخل لها بإيمانه ، إذ من شأن المؤمن أن يكون خيره عامًا ، وأن يسبق سائر الناس بالفضل والجود [6].

---

(١) سورة البقرة الآية ٢٧٠ .
(٢) المرجع السابق ٣ / ٤٦ ، ٤٧ .
(٣) سورة البقرة الآية ٢٧١ .
(٤) مختصر تفسير ابن كثير للشيخ محمد على الصابونى ١ / ٢٤٣ .
(٥) سورة البقرة الآية ٢٧١ .
(٦) تفسير المراغى ٣ / ٤٧ .

بعد هذا قال سبحانه وتعالى :﴿ لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا ﴾ [1] .

٢ - في قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٦٠) ﴾ [2] .

جاء فى هذه الآية ذكر الفقراء والمساكين معًا، وهو من أواخر ما نزل من القرآن، وهى الآية الوحيدة التى اقترنا بها، وقدم فيها الفقراء إشارة إلى أنه ينبغى البحث عن الفقير المستور الحال، صاحب الحاجة الحقيقية، أما المسكين فهو كاشف نفسه، متعرض للعطاء، أو يسأل الصدقة فيعطى بحسب حاله الظاهرة، ولو كان فى حقيقة أمره على خلاف ذلك [3] .

٣ - فى الآية الكريمة التالية رد من الحق تبارك وتعالى على اعتراض المنافقين الجهلة على النبى ﷺ ولمزهم إياه فى قسم الصدقات : ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ (٥٨) ﴾ [4] . وقد بين تعالى أنه هو الذى قسمها وبين حكمها وتولى أمرها بنفسه، ولم يكل قسمها إلى أحد غيره، فجزأها لهؤلاء المذكورين.

٤ - اختلف العلماء فى الأصناف الثمانية، هل يجب استيعاب الدفع لها أو إلى ما أمكن منها ؟ على قولين :

الأول : أنه يجب ذلك، وهو قول الشافعى وجماعة.

الثانى : أنه لا يجب استيعابها، بل يجوز الدفع إلى واحد منها، وهو قول مالك وجماعة من السلف والخلف منهم «عمر وابن عباس وحذيفة وأبو العالية وسعيد بن جبير وميمون بن مهران وغيرهم».

وقال ابن جرير : وهو قول عامة أهل العلم.

---

(١) سورة البقرة الآية ٢٧٣.
(٢) سورة التوبة الآية ٦٠.
(٣) قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله عز وجل للشيخ عبد الرحمن الميدانى ص ٣٣٨.
(٤) سورة التوبة الآية ٥٨.

وإنما قدم الفقراء ههنا على البقية لأنهم أحوج من غيرهم على المشهور، ولشدة فاقتهم وحاجتهم[1].

٥ - قول الله تعالى : ﴿ لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا ﴾[2] .أى اجعلوا ما تنفقون للذين ذكر الله صفاتهم الخمس التى هى من أجل الأوصاف قدراً، وهى :

أ - الإحصار فى سبيل الله، والمراد به حبس النفس على الجهاد أو العمل فى مرضاة الله، إذ هم لو اشتغلوا بالكسب لتعطلت المصلحة العامة التى احصروا فيها، وحبسوا أنفسهم لها، وتجب نفقتهم فى بيت المال.

ومن الإحصار لتعلم الفنون العسكرية فى العصر الحديث، فإن حبس الشخص نفسه فى الأعمال المشروعة التى تقوم بها المصالح العامة كالجهاد، وطلب العلم، وكان يستطيع الكسب فى أوقات فراغه لم يحل له الأخذ من الصدقة.

ب - العجز عن الكسب والضرب فى الأرض للتجارة ونحوها بسبب المرض أو الخوف من العدو، وهذا هو المقصود بقوله تعالى : ﴿ لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الأَرْضِ ﴾[3] .

جـ - التعفف والمبالغة فى التنزه عن الطمع مما فى أيدى الناس، فإذا رآهم الجاهل بحقيقة حالهم ظنهم أغنياء ، وهذا ما عناه المولى بقوله سبحانه ﴿ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ ﴾[4] .

د - إن لهم سيما خاصة تُترك معرفتها إلى فراسة المؤمن الذى يتحرى بالإنفاق أهل الاستحقاق، إذ صاحب الحاجة لا يخفى على المتفرس مهما تستر وتعفف، ولا يختص ذلك بخشوع وتواضع، ولا برثاثة الثياب، فرب سائل يأتيك خاشع الطرف والصوت رث الثياب، تعرف من سيماه أنه غنى وهو يسأل الناس تكثراً، وكم من رجل يقابلك بطلاقة وجه، وحسن بزة، فتحكم عليه فى لحن قوله، وأمارات وجهه أنه فقير عزيز النفس ،وهذا ما أشار إليه المولى بقوله : ﴿ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ ﴾ .

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير ٢ / ١٥٠.
(٢) سورة البقرة الآية ٢٧٣.
(٣) سورة البقرة الآية ٢٧٣.
(٤) سورة البقرة الآية ٢٧٣.

هـ - ألا يسألوا الناس شيئًا مما فى أيديهم سؤال إلحاح كما هو شأن الشحاذين وأهل الكدية [1]. وقد يكون المعنى : أنهم لا يسألون أحداً شيئًا، لا سؤال إلحاف ولا سؤال رفق واستعطاف، عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : «ليس المسكين الذى يطوف على الناس، ترده اللقمة واللقمتان، والتمرة والتمرتان، ولكن المسكين الذى لا يجد غنى يغنيه، ولا يفطن له فيتصدق عليه، ولا يقوم فيسأل الناس» [2].

● **السعى والعمل لطلب الرزق**

الإنسان مكلف بالسعى والعمل لطلب الرزق من وجوهه المشروعة، وعليه أن يصون نفسه عن مسألة الناس، وألا يمد يده لسؤالهم، ولا يتقدم إليهم لطلب حطام الدنيا إلا عند الضرورة أو الحاجة الشديدة؛ لأنه إذا قعد عن العمل ولزم البطالة والكسل ونظر لما فى أيدى الناس من أوساخهم ساءت حاله، وضاعت آماله، وضعف توكله، وضاق عيشه، وانحطت نفسه، واعتاد السؤال الذى لا ينفك عن ثلاثة أمور محرمة :

الأول : إظهار الشكوى من الله تعالى، إذ السؤال إظهار للفقر، وذكر لقصور نعمة الله عنه، وهو عين الشكوى، وكما أن العبد المملوك لو جعل يسأل وأنه ما يجد شيئًا لكان سؤاله تشنيعًا على سيده ولا يرضى بذلك ولله المثل الأعلى.

الأمر الثانى : أن فى سؤال الناس إذلال لنفس السائل، وليس للإنسان أن يذل نفسه ويخضعها إلا لله، الذى فى إذلالها عزه، فأما سائر الخلق فإنهم عباد الله أمثاله فلا يذل لهم نفسه.

ثالثًا : أن فيه ظلم لنفسه إلا عند الضرورة أو الحاجة الشديدة، وفيه أيضًا إيذاء للمسئول خصوصًا إذا كان مع الأمر إلحاح، والإيذاء حرام، فأى عاقل يرضى لنفسه بهذه الحالة التعسة، بل كيف يرضى أن يكون عضواً أشل فى الهيئة الاجتماعية لا يقام له وزن ولاتقام له قيمة.

---

(١) الكدية : الأرض الصلبة.

(٢) رواه البخارى ومسلم.

وقد أثنى الله على الذين لا يسألون الناس إلحافًا، وقال تعالى ﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ (٢٧٣)﴾ [١].

ففى زماننا الذى اختلط فيه الحابل بالنابل وصار عندهم الحلال ما وصلت إليه اليد وذهب عنهم الورع والابتعاد عن الشبهات، على الإنسان أن يبذل جهده ويتثبت ولا يبذل زكاته لكل من مد يده، بل يسأله بدقة، ويتحقق من الأوراق التى تُعرض عليه، التى صارت تُصور وتُباع وتُشترى، وربما حصل على أضعاف ما فيها.

ولو أن هؤلاء المتسولين الشحاذين استُعْمِلوا فى طريق منتج من تجارة أو غيرها ما يصل إلى أيديهم من الصدقات لما بقى فى الأمة منهم متسول، ولكن هؤلاء قوم ألفوا هذا العيش وركنوا إليه لا يدفعهم إليه فقر ولا يردهم عنه غنى، وكم من متسول صارت عنده ثروة، وهذا سببه عدم التثبت وعدم السؤال : هل اغتنى أم لا [٢].

وقد بين النبى ﷺ من يحل له السؤال وذلك فيما ورد عن قَبيصة بن مُخَارق الهلالى قال : تَحملْتُ حَمَالة فأتيت رسول الله ﷺ اساله فيها،

فقال : «أقم حتى تأتينا الصدقة فآمر لك بها»

ثم قال : «يا قبيصة إن المسألة لا تحل إلا لأحد ثلاثة :

رجل تحمل حمالة فحلت له المسألة حتى يصيبها ثم يمسك.

أو رجل أصابته جائحة اجتاحت ماله فحلت له المسألة حتى يصيب قوامًا من عيش، أو قال سدادًا من عيش.

ورجل أصابته فاقة حتى يقوم ثلاثة من ذوى الحجى من قومه يقولون : لقد أصابت فلانا فاقة فحلت له المسألة حتى يصيب قوامًا من عيش أو قال سدادا من عيش - فما سواهن من المسألة يا قبيصة سحت يأكلها صاحبها سحتا» [٣].

---

(١) سورة البقرة الآية ٢٧٣ .

(٢) موارد الظمآن لدروس الزمان للشيخ عبد العزيز المحمد السلمان ٢ / ٢٥٢، ٢٥٦ .

(٣) رواه مسلم،

• الأنبياء والصالحون كانوا يعملون

إن طلب الرزق الحلال فريضة على كل مسلم، فالتمس الرزق أيها المسلم من حله، وإياك ومانهاك الله عنه وحرمه فمتاع الدنيا قليل.

إن جمع المال من حله عبادة إذا كنت أخي المسلم تريد به إعفاف نفسك، والقيام بما أوجبه الله عليك من الحقوق، واحذر من ترك العمل وافعل الأسباب التي بها يحصل الرزق بإذن الله، وأعلم أن من ترك العمل وغلب عليه الكسل حتى صار كلا على الخلق، يعده أهله ثقلاً ويراه صاحبه بغيضا، ولا يلقاه أحد إلا وكره لقياه، قال تعالى حاثًا على طلب الرزق : ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ ﴾ [١].

وقال تعالى : ﴿ رِجَالٌ لاَّ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ [٢].

والمؤمن المحترف الكسوب الذى يأكل من عمل يده مكرم محبوب محترم، عند أهله وأولاده، وكان نوح وداود يحترفان النجارة، ونبينا محمد ﷺ رعى الغنم، وموسى كان أجيراًعند صاحب مدين، وكان إدريس خياطًا، وما أبعد هذه الأعمال الشريفة عن الكسل والبطالة، وكان السلف رضى الله عنهم عمالا مكتسبين، فكلهم ما بين غني شريف، وفقير شريف عفيف، لا تشغلهم الدنيا عن الآخرة، ولا يمنعهم الدين عن الكسب، والقيام بالواجبات، وهم مع هذا من أقوى الناس توكلاً على الله ورضى بما قدر الله [٣].

• السؤال محرم لغير الضرورة

من الأشياء الممقوتة شكلاً وموضوعًا، المحرمة شرعا سؤال الناس لغير ضرورة، فقد روى أحمد وأبو داود أن رسول الله ﷺ قال : «من سأل وعنده ما يغنيه فإنما يستكثر من جمر جهنم»

قالوا يا رسول الله وما يغنيه ؟

قال : «ما يغذيه أو يعشيه» [٤].

---

(١) سورة الجمعة الآية ١٠.
(٢) سورة النور الآية ٣٧.
(٣) المرجع السابق ٣ / ٤٥١.
(٤) رواه أحمد وأبو داود.

وعن أبى هريرة أن النبى ﷺ قال : «من سأل الناس أموالهم تكثراً فإنما يسأل جمرا، فليستقل منه أو ليستكثر »[1].

وعن أبى هريرة قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «لأن يغدو أحدكم فيحتطب على ظهره فيتصدق منه ويستغنى به عن الناس، خير له من أن يسأل رجلاً أعطاه أو منعه»[2].

وعن عبد الله بن عمر عن النبى ﷺ أنه قال : «لا تحل الصدقة لغنى ولا لذى مِرَّة سوِىٍّ»[3]. والمرة بكسر الميم : القوة، والسوى هو : السليم الأعضاء، والمراد به القادر على الكسب.

فمن يُعلم أنه يسأل لنفسه تكثرا كالشحاذين الذين جعلوا السؤال حرفة وهم قادرون على العمل لا يعطى شيئًا، فقد رأى عمر رضى الله عنه سائلاً يحمل جرابًا فأمر أن ينظر فيه فإذا هو خبز، فأمر أن يؤخذ منه ويلقى إلى إبل الصدقة.

وقد روى أن قول الله تعالى : ﴿ لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا ﴾[4]. نزل فى أهل الصفة؛ وهم أربعمائة من فقراء المهاجرين رصدوا أنفسهم لحفظ القرآن الكريم والجهاد فى سبيل الله، ولم يكن لأكثرهم مأوى، لذلك كانوا يقيمون فى صفة المسجد«موضع منه مظل» وقد هاجروا بدينهم وتركوا أموالهم فحيل بينهم وبينها، فهم محصورون فى سبيل الله بهذه الهجرة، محصورون بحبس أنفسهم على حفظ القرآن . وقد كان حفظه حينئذ من أفضل العبادات على الإطلاق؛ لأنهم ماكانوا يحفظونه إلا للفهم والاهتداء والعمل به ، وحفظ الدين بحفظه، وكانوا يحفظون بيان النبى ﷺ بسنته القولية وسنته العملية.

عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ وقف يومًا على أصحاب الصفة فرأى فقرهم وجهدهم وطيب قلوبهم فقال : «أبشروا يا أصحاب الصفة، فمن بقى من أمتى على النعت الذى أنتم عليه راضيًا بما فيه فإنه من رفقائى »[5].

---

(١) رواه أحمد وابن ماجة.

(٢) رواه أحمد والبخارى ومسلم.

(٣) رواه أبو داود والترمذى.

(٤) سورة البقرة الآية ٢٧٣.

(٥) تفسير المراغى ٣ / ٥١.

• التسول حرفة رغم هذا التوضيح

ورغم كل هذا التوضيح وهذا التخويف من رسول الله ﷺ ترى العاجز المنكس، والضعيف النفس، قد ركن إلى القعود والكسل، ورضى بمسامرة الأمانى وغرور الأمل، امتلأ قلبه من حب الدنيا والتطلع لملاذها، وذابت نفسه حسرات على إحراز القليل والكثيرمن خيراتها، ضعفت همته وصغرت نفسه،فجعل نفسه عالة على غيره، يتطلع لما فى الأيدى، ويتردد على الأبواب، ويقعد على الأعتاب ، ويتمرغ فى التراب.

عمد إلى التجول للتسول، وأصبح وأمسى يذرع الأرض شرقًا وغربًا، يقاطع المارة فيعطلهم عن مقاصدهم، ويزعج بصيحاته المنكرة أولئك الوادعين ليستريحوا بعد أداء أعمالهم، لا يكل ولا يمل،ولو صرف بعض هذا الجهد فى عمل نافع لدرَّ عليه ما يصون ماء وجهه، ولقد يبتكر أحدهم من ضروب الحيل والتغرير ما يحتاج إلى فضل ذكاء لو صرفه فى النافع لأفاد واستفاد، فهم يصرفون من الجهد العقلى والبدنى مالو وفقوا فى صرفه لكان خيراً لهم وللأمة جميعا. لكنهم رضوا بهذه الصناعة الممقوتة وانخدع لهم ذوو القلوب السليمة، فلا حول ولا قوة إلا بالله.

إن للعبادة حدود، بل إن من العبادة السعى فى تحصيل الرزق من الوجه الحلال، وقد ورد «من الذنوب ذنوب لايكفرها إلا الهمة بطلب المعيشة»[1].

وقد ورد عن عمر - رضى الله عنه - أن جماعة أثنوا فى مجلسه على رجل بأنه مستغرق كل أوقاته فى العبادة، وقالوا : إنه خير منا كلنا.

فقال لهم : فمن يعوله ؟

فقالوا : كلنا نعوله.

فقال : كلكم خير منه .

وروى أيضًا أنه قال : «لا يقعدن أحدكم فى بيته ويقول : اللهم ارزقنى فقد علمتم أن السماء لا تمطر ذهبًا ولا فضة، ولكن اعملوا».

• الدين يحث على العمل والكسب

انظر إن شئت إلى قوله تعالى :﴿ فَانتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ ﴾[2].

---

(١) كشف الخفاء ١ /٢٩٧ رقم ٧٨٣.

(٢) سورة الجمعة الآية ١٠.

وقوله جل وعلا : ﴿ هوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ ﴾ [(١)] .

وقوله تعالى : ﴿ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ ﴾ [(٢)] .

وقد ورد عن النبى ﷺ أحاديث ترغب فى الكسب والتعفف عن مسألة الناس منها قوله ﷺ : «اليد العليا خير من اليد السفلى» [(٣)] .

ومنها أحاديث يقوى بعضها بعضًا مثل : «التاجر الصدوق يحشر يوم القيامة مع الصديقين والشهداء» [(٤)] .

«أحل ما أكل العبد كسب الصانع إذا نصح» [(٥)] .

«من طلب الدنيا حلالاً تعففًا عن المسألة وسعيًا على عياله وتعطفًا على جاره لقى الله ووجهه كالقمر ليلة البدر» [(٦)] .

«إن الله يحب المؤمن المحترف» [(٧)] وهذان الحديثان وإن ضعف إسنادهما فإن فى غيرهما ما يشهد لهما، مثل قوله ﷺ : «لأن يأخذ أحدكم حبله فيحتطب على ظهره خير من أن يأتى رجلاً أعطاه الله من فضله فيسأله أعطاه أو منعه» [(٨)] وقوله ﷺ : «من فتح على نفسه بابًا من السؤال فتح الله عليه سبعين بابًا من الفقر» [(٩)] .

كل هذا وما فى معناه يدلنا على روح الدين عمل لا روح كسل، وروح إعطاء للمحتاج العاجز لا روح استعطاء من القوى الكسول.

ولقد رخص - الدين - للعاجز الضعيف أن يأخذ مما آتاه الله من فضله حسب حاجته لا بمقدار ما يجمع ثروة، ومع هذا الترخيص، ومع أن الضعف أمر قهرى غالبًا، فإن الرسول ﷺ قال : «المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفى كل خير، احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز، وإن إصابك شىء فلا تقل : لو أنى فعلت لكان كذا وكذا ولكن قل : قدر الله وما شاء فعل، فإن لو تفتح عمل الشيطان» [(١٠)] .

---

(١) سورة الملك الآية ١٥ .

(٢) سورة المزمل الآية ٢٠ .

(٣) أخرجه البخارى.

(٤) اتحاف السادة المتقين ٥ / ٤١٤ .

(٥) حسنه الترمذى.

(٦) اتحاف السادة المتقين ٥ / ٤١٤ .

(٧) مجمع الزوائد ٤ / ٦٢ .

(٨) أخرجه البخارى.

(٩) رواه الترمذى بالمعنى وقال حديث حسن .

(١٠) رواه مسلم .

• **أفكار مغلوطة**

نرى قوماً يزعمون أن معنى التوكل على الله الجنوح إلى الكسل والرضا بالقعود فى الزوايا منصرفة قلوبهم إلى الأمانى، عاجزة هممهم عن الأعمال، ولكن أجسامهم قادرة على نقل الجبال، فهؤلاء قد سلك الشيطان من نفوسهم مسلكاً جعلهم منقادين له مطيعين لأوامره وهو يوسوس لابن آدم من الشر بما يرى أنه ناجح معه فيه، موافق لرغباته فى الاستماع إليه، فيجىء - لشخص - فيزهده فى الدنيا وينفره عنها، ويرضيه أن يكون عالة على أبنائها يعولونه وهو قادر، ويطعمونه وهو أهل لأن يطعم العشرات لو أراد وعمل، ومتى رأى إبليس اللعين انقياد الإنسان إليه بأى أسلوب بادر إلى تزيينه وتصويره له بصورة الخير، وذلك أخطر ما يدخل به على الناس.

نعم : قد وردت أحاديث كثيرة، وآثار شهيرة، ترغب فى الزهد والقناعة، وتنفر من التكالب على الدنيا ، ولكن ليس معنى ذلك أن يكف المرء عن العمل المفيد المنتج الموسع لدائرة العمران، واستخراج ما بث الله فى هذا الكون من خيرات وثمرات، بطريق الزراعة والصناعة وما أشبههما، وإنما معناه أن يكون مقتصداً فى الطلب، فلا يضيع دينه فى تحصيل دنيا، ولا يجلب دنياه من حيث حرم الله، ولا يكون فى سعيه وكده ظالمًا باغيًا، ولا جبارًا ولا طاغيًا، وأن يكون فى استمتاعه بما أنعم الله عليه معتدلاً، فلا يكون مقترفًا للحرام، ولا مسرفا فى تناول الحلال، هذا هو المذموم فى أمر الدنيا، أما السعى لتحصيلها من وجوه حلها وأداء ما فرض الله على عباده الذين أنعم عليهم بنعمها، والاستمتاع بالطيبات من رزقها، فلم يقل بذمه ولا تحريمه أحد : ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ﴾ .

الإحسان إلى المملوكين والخدم

• الرق قبل الإسلام

جاء الإسلام والرق مشروعًا قبله، فشرع العتق ولم يشرع الرق ، وذلك لأن الرق سلب لأخص خصائص الإنسانية، وامتهان لكرامتها وإهدار لحريتها الشخصية التي يعيش بها الإنسان إنساناً له حقوقه الإنسانية وعليه واجباته الاجتماعية .

فالرق وصمة إنسانية ، ونقيصة اجتماعية، يتناقض وجوده في الحياة مع الحديث عن وحدة الإنسانية في منبعها الأصيل، وحقوقها وواجباتها على أساس مساواة أفرادها في حقيقة وشيجتها بذلك المنبع.

يتناقض وجوده مع الحديث عن مكانة الإنسانية وسموها، وأنها خلاصة الوجود الكوني التي رفع الله شأنها، وعظم قدرها، وفضلها على كثير من خلقه، وسخر لها ما في السموات وما في الأرض من عوالم الطبيعة والحياة وشرفها بخصيصة العلم مركوزة في فطرتها، وأسجد لها ملائكته المكرمين.

فالإسلام أعز الإنسانية وكرمها ورفع مكانتها بما أفاض عليها من فضل جعلها سيدة الحياة، تقودها بزمام العقل، وتوجهها بهداية التفكير، ولا يمكن - ولا يعقل - أن ينزل بها إلى دركات هذا الشذوذ الآدمي الذي يفقد الإنسان آدميته وبشريته، ولا يمكن أن يضعها هذا الموضع من المهانة الاجتماعية التي تجعل من الإخوة في الآدمية سادة وعبيدا، بل راعياً وسائمة، بل وحشاً مزمجراً وطائراً ذبيحاً » [1].

وإذا كان الإسلام هو الذي شرع العتق ولم يَدْعُ إلى الرق نجد كل الشرائع السابقة له من وضعية وسماوية قد دعت إلى الرق، فاليهودية قد دعت إليه في قوة، ففي العهد القديم في الإصحاح العشرين. كتاب التثنية ما نصه: «حين تقرب من مدينة لكي تحاربها استدعها إلى الصلح، فإن أجابتك إلى الصلح ،

---

(١) الموسوعة في سماحة الإسلام للشيخ محمد الصادق عرجون ٢ / ١٠٣٧، ١٠٣٨ .

وفتحت لك ، فكل الشعب الموجود فيها يكون لك للتسخير وتستعبد لك، وإن لم تسالمك بل عملت معك حرباً فحاصرها، وإذا دفعها الرب إلهك إلى يدك فاضرب جميع ذكورها بحد السيف، وأما النساء والأطفال والبهائم وكل ما فى المدينة وكل غنيمتها فتغنمها لنفسك وتأكل غنيمة أعدائك التى أعطاك الرب إلهك»[1].

ونشأت المسيحية والرق مباح فلم تحرمه ولم تنظر إلى تحريمه فى المستقبل، وأمر بولس الرسول العبيد بإطاعة سادتهم كما يطيعون السيد المسيح، فقال فى رسالته إلي أهل أفسس:

« أيها العبيد ! أطيعوا سادتكم حسب الجسد بخوف ورعدة فى بساطة قلوبكم كما للمسيح، ولا بخدمة العين كمن يرضى الناس بل كعبيد المسيح عاملين مشيئة الله من القلب خادمين بنية صالحة كما للرب ليس للناس، عالمين أنه مهما عمل كل واحد من الخير فذلك يناله من الرب عبداً كان أم حراً».

وأوصى الرسول بطرس بمثل هذه الوصية، وأوجبها آباء الكنيسة لأن الرق كفارة من ذنوب البشر يؤديها العبيد لما استحقوه من غضب السيد الأعظم، وأضاف القديس الفيلسوف توما الأكوينى رأى الفلسفة إلى رأى الرؤساء الدينيين فلم يعترض على الرق بل زكاه. لأنه على رأى أستاذه أرسطو حالة من الحالات التى خُلق عليها بعض الناس بالفطرة الطبيعية، وليس مما يناقض الإيمان أن يقنع الإنسان من الدنيا بأهون نصيب.

ومذهب أرسطو فى الرق أن فريقاً من الناس مخلوقون للعبودية لأنهم يعملون عمل الآلات التى يتصرف فيها الأحرار ذوو الفكر. فهم آلات حية تلحق فى عملها بالآلات الجامدة، ويحمد من السادة الذين يستخدمون تلك الآلات الحية أن يتوسموا فيها القدرة على الاستقلال والتمييز فيشجعوها ويرتقوا بها من منزلة الأداة المسخرة إلى منزلة الكائن العاقل الرشيد.

وأستاذ أرسطو - أفلاطون - يقضى فى جمهوريته الفاضلة بحرمان العبيد حق (المواطنة) وإجبارهم على الطاعة والخضوع للأحرار من سادتهم أو من السادة الغرباء، ومن تطاول منهم على سيد غريب أسلمته الدولة إليه ليقتص منه كما يريد.

(١) إسلام بلا مذاهب - د. مصطفى الشكعة ص ٧٢، ٧٣ بتصرف.

وقد شرعت الحضارة اليونانية نظام الرق العام، كما شرعت نظام الرق الخاص أو تسخير العبيد فى خدمة البيوت والأفراد، فكان للهياكل فى آسيا الصغرى أرقاؤها الموقوفون عليها، وكانت عليهم واجبات الخدمة والحراسة، ولم يكن من حقهم ولاية أعمال الكهانة والعبادة العامة .

وانقضى على العالم عصور بعد عصور وهذا النظام شائع فى أرجائه بين الأمم المعروفة فى القارات الثلاثة، ينتشر بين أمم الحضارة وقبائل البادية التى تكثر فيها غارات السلب والمرعى، ويقل انتشاره بين الأمم الزراعية عند أودية الأنهار الكبرى كوادى النيل وأودية الأنهار الهندية. إلا أن الأمم فى الأودية الهندية كانت تأخذ بنظام الطبقة المسخرة أو الطبقة المنبوذة، وهى فى حكم الرقيق العام من وجهة النظر إلى المكانة الاجتماعية والحقوق الإنسانية .

وعلى هذه الحالة كان العالم يوم مبعث الدعوة الإسلامية ، ليس فيه من يستغرب هذه الحالة أو من يشعر بحاجة إلى تعديل فيها حيث يكثر الأرقاء أو حيث يقلون .

ففى البلاد التى كثر فيها عدد الأرقاء كانت الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية فيها مرتبطة بأعمال الرقيق فى البيوت والمزارع والمرافق العامة، فلم يكن تغيير هذه الأوضاع مما يخطر على البال، ولم يكن تغييرها مستطاع بين يوم وليلة، ولو أنه خطر على بال أحد .

وفى البلاد التى قل فيها عدد الأرقاء لم تكن هناك مسألة حازبة أو معجلة تسمى مسألة الرقيق وتستدعى من ذوى الشأن اهتماماً بالتغيير والتعديل .

وكان عدد الأرقاء قليلاً فى البادية العربية بالقياس إلى أمم الحضارة إذ كان عددهم بين المسلمين الأوائل لا يزيد على عدد الأصابع فى اليدين، فلم يكن بدعاً من الدين الجديد أن يترك الحالة فى الصحراء العربية - وفى العالم - على ما كانت عليه : حالة لا يتسغربها أحد، ولا يفكر أحد فى تغييرها أو تعديلها . ولكنه لم يتركها، ولم يغفلها ، ولم يؤجلها .

بل جرى فيها على دأبه فى علاج المساوئ الاجتماعية والأخلاقية : يصلح منها ماهو قابل للإصلاح فى حينه، ويمهد للتقدم إلى المزيد من الإصلاح مع الزمن كلما تهيأت دواعيه[1] .

لقد كان انحراف الإنسانية فى جميع عصورها هو اللعنة التى لازمتها منذ عدا قابيل على أخيه هابيل فقتله إشباعاً لغريزة الأثرة الطاغية، فكانا نموذجين لقوة البغى المستأثر بما تمليه عليه الشهوات الجامحة، وقوة الحق العادلة التى لا تميل مع الهوى .

---

(١) حقائق الإسلام وأباطيل خصومه - عباس محمود العقاد ص ١٥٨، ١٥٩ بتصرف .

ولا تزال الإنسانية تعيش فى ظل هذه اللعنة ملطخة بأقذار العار الإنسانى ورجس العنصرية الفاجرة فى أمم تدعى أنها ألغت خسيسة «الرق» وقضت عليها قضاء مبرما، وتزعم لنفسها أنها سيدة الحضارة، وسيدة الفكر والعلم، وسيدة النظم الاجتماعية، وسيدة الحريات، بينما يقتل بيضها سودها ظلما وعلواً، وتحرم نظمها الاجتماعية على هؤلاء السود أن يعيشوا فى أوطانهم عيشة أدنى مستويات الإنسان، بل لا يُمَكنون من معيشة أحط الحيوان، يطاردهم إخوانهم البيض فى كل مكان وهم إخوتهم فى الوطن والدين واللغة والعادات، بل لا يرضون لهم أن يكونوا خفافيش، يحيون فى جحور الجهل والفقر، وفتك الأمراض والعلل، لا يكادون يخرجون إلى ضوء الحياة حتى يردوا إلى ظلام التحقير والاضطهاد، والويل لمن يطل برأسه من جحره، فالموت على أشنع صورة ينتظره، ولا يمكن العثور على قاتله ولو كان واقفاً بخنجره على جثته.

• وجاء الإسلام

لقد جاء الإسلام والعالم يموج فى لجة من الشرك والوثنية فى صور وأشكال كثيرة، وكانت تسود العالم نتيجة لذلك حالة من الفوضى الاجتماعية تتحكم فى توجيهها القوة الغاشمة، والظلم الفادح، والبغى الفاجر، يفتك فيها القوى بالضعيف ،ويذل القادرُ العاجزَ، ويسخِّر الغنى الفقير، فى ظل من القوانين الجائرة، والنظم الطاغية التى تحمى الظلم والاستبداد، وتناصر البغى والفساد.

عالم طمست فيه معالم الهداية، وانتشرت فيه الضلالة، تتحكم فيه مجوسية وثنية بإباحتها الاجتماعية، وفجورها الخلقى، إلى جانب مسخ من الشرك الأصم والوثنية العمياء، تعبد المال وتكره العدل، لا تعرف قانوناً ولا تقر بنظام، وإنما تعيش فى جاهلية جهلاء، ترتكب فى ظلها الشرور والموبقات، وتحكمها سطوة الغرائز فى فلسفة إلحادية، تسخر من العقول لتحمى الفجور باسم العلم والفلسفة.

فى هذا الجو الخانق ظهر الإسلام، ومن أعطاف هذه الظلمات أشرق نوره فى أفق الجزيرة العربية، وبعث الله خاتم النبيين محمد ﷺ بالهدى ودين الحق.

ليهدم الشرك بجميع أنواعه وأشكاله ..

ويقضى على الوثنية فى جميع صورها...

ويقيم على الأرض منائر التوحيد..

ويخرج الناس من الظلمات إلى النور..

ويحرر العقل الإنسانى من ربقة الجمود والتقليد

ويقضى على الظلم الاجتماعى ..

ويقيم بالعالم العدل والمساواة..

وينقذ المستضعفين فى الأرض من نير الإذلال والمهانة..

وينشر بين الناس راية الإخاء والمحبة ..

ويرسى دعائم القيم الخلقية والفضائل الإنسانية لتكون أساساً لبناء الحياة [1] استجابة لأمر الله فى إخباره بقوله تعالى: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ﴾ [2].

على هذا الأساس قامت دعوة الإسلام، وفى هذا الجو الخريفى الذى تساقطت فيه جميع أوراق الفضائل من أشجار الحياة ظهرت هذه الدعوة.

● موقف الإسلام من الرق

ونحن نحب أن نلخص ما وجده الإسلام قبل أربعة عشر قرناً.

وجد الرق متفشياً فى أمم الأرض كما قدمنا، ووجد شره مستطيراً .

وجد الرق لايضبطه نظام إلا سلطان القوة الفاجرة، والظلم الغاشم، والطغيان المتجبر.

● فماذا فعل الإسلام لكى يتخلص من هذا الشذوذ ؟

إن الإسلام لم يقف أمام هذا الشذوذ الإنسانى فى الرق باعتباره شراً لابد منه موقفاً سلبياً، لكنه واجه الموقف ورصده بدقة لكى يصف الدواء الناجع لهذا المرض اللعين الذى استشرى فى كثيرمن الأمم. فماذا وجد الإسلام؟

---

(١) الموسوعة فى سماحة الإسلام للشيخ محمد الصادق عرجون ٢ / ١٠٥٢ ، ١٠٥٣ .

(٢) سورة آل عمران الآية ١١٠ .

أولاً : وجد أنواع الرق قبل الإسلام: وكانت كثيرة جداً نذكر أهمها فيما يلي:

١ - أسير الحرب، وكان يقتل أحياناً ويسترق أحياناً أخرى.

٢ - رقيق الخطف والسبى.

٣ - بعض من يرتكبون الجرائم الخطيرة من سرقة أو قتل كان يحكم عليهم بالرق لمصلحة الدولة أو لمصلحة المعتدى عليه أو أسرته.

٤ - المدين الذى كان يعجز عن دينه، كان يحكم عليه بالعبودية لصالح الدائن.

٥ - الآباء الفقراء الذين كانوا يبيعون أبناءهم فيصبحون أرقاء.

٦ - بعض الأشخاص الذين كانوا يتنازلون عن حريتهم من تلقاء أنفسهم نظير أجر معين كالطعام أو الحماية أو سد الدين .

٧ - أبناء الإماء كان الواحد منهم يولد عبداً إن كان ذكراً، وجارية إن كانت أنثى ولو كان الأب من الأحرار أو السادة. فلما جاء الإسلام قضى على هذه الأنواع من الرق قضاء مبرماً وأبقى على نوعين منهما فقط هما: أسري الحرب وأبناء الإماء[1] .

وحتى هذين النوعين هذبهما الإسلام، فليس كل أسير حرب يعتبر رقيقاً، فمثلاً الأسير فى حرب بين طائفتين من المسلمين لايعتبر رقيقاً، وكذلك الأسير فى حرب غير شرعية لا يجيزها الإسلام لا يكون رقيقاً »[2] .

ثانيـاً : سوء المعاملة التى يلقاها الرقيق، وألوان القسوة الطاغية التى تقرها بل تأمر بها قوانين وأنظمة تلك الأمم والشعوب، فالرقيق عندهم شيء من الأشياء لا شخص من الأشخاص الحية، آلة ليس لها روح، لا تتحرك بإرادتها وإنما تتحرك بقهر السادة، وفجور الطغيان، فإذا توقف عن الحركة الآلية ليتنفس أدركته سياط العذاب لتقطع عليه أنفاسه وتدفعه إلى حيث لا يدرى ولا يريد.

ثالثـاً : العقوبات البشعة التى تفرضها قوانين وأنظمة تلك الأمم والشعوب على الرقيق إذا أوقعه سوء الحظ تحت طائلة العقاب لمجرد خطأ يقع فيه، فللسيد أن يقتل من رقيقه ما شاء عدداً، ومن شاء شخصاً، بما شاء من ألوان القتْلات دون أن

---

(١) انظر حقوق الإنسان فى الإسلام فصل «الحرية المدنية» د. على عبد الواحد.

(٢) إسلام بلا مذاهب،د. مصطفي الشكعة ص ٧٦، ٧٧ .

يُسأل لماذا فعل ذلك؟؟ له أن يحرقه بالنار حياً.

له أن يذيقه من ألوان العذاب التى لا يطيقها حيوان.

له أن يُلقى من حالق ليتسلى بمنظره وهو يهوى أشلاء ممزقة فى قاع الفناء.

رابعـــاً : ما تقتضى به أنظمة الأمم والشعوب قبل الإسلام من تأييد الرق وبقاء الرقيق فى أغلال العبودية بقاء سرمدياً، يباع ويشترى ،ويورث مع الأرض التى يعيش للعمل فيها، لا يُفتح له منفذ إلى الحرية،ولا يجد إليها سبيلاً » [١].

• علاج الإسلام لهذه النقاط الأربع

بالنسبة للنقطة الأولى وهى: منابع الرق ومصادره المتعددة عند كافة الأمم والشعوب، فقد واجه الإسلام هذا الموقف بالقضاء نظرياً وتشريعياً على الرق قضاء مبرماً، وإلغائه إلغاء تاماً، وإبطاله إبطالاً كاملاً، فى منابعه الباغية، ومصادره الظالمة، فحرمه تحريماً قاطعاً وشدد فى الزجر عنه، والوعيد عليه بما لم يشدد بمثله فى جريمة من الجرائم الإنسانية الأخرى، وفى ذلك يقول النبى ﷺ فى الحديث الصحيح : «ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة، ومن كنت خصمه خصمته: رجل أعطى عهداً ثم غدر،ورجل استأجر أجيراً استوفى عمله، وظلمه أجره، ورجل باع حراً فاسترق الحر فأكل ثمنه» [٢].

لقد جعل النبى ﷺ نفسه كفيلاً للحرية الإنسانية يدافع عنها، ويخاصم خصومها وظالميها، يوم يضع الله للناس موازين القسط فلاتظلم نفس شيئاً، فيخصمهم وتدفع حجته حجتهم؛ لأنه يقوم مقاماً محموداً ينصر فيه آدمية الإنسان ويدافع عن كرامتها.

فهذا الحديث الشريف لم يترك منبعاً للرق ،منبعاً من منابع الظلم والطغيان، ولا مصدراً من مصادر البغى والفجور التى يُوجد من طريقها استرقاق الإنسان لأخيه الإنسان واستعباده إلا سده سداً محكماً، ولا باباً من أبوابه إلا أقفله إقفالاً لم يترك وراءه منفذاً لهذا الشذوذ الإنسانى فى جميع صوره وأشكاله» [٣].

(١) الموسوعة فى سماحة الإسلام للشيخ محمد الصادق عرجون ٢ / ١٠٤٥-١٠٤٧ بتصرف.

(٢) البخارى كتاب «البيوع باب إثم من باع حراً».

(٣) المرجع السابق ٢ / ١٠٣٩، ١٠٤٠.

أما ثانياً: وهى سوء المعاملة التى يلقاها الرقيق، وألوان القسوة الطاغية فقد رأى الإسلام بعد الحكم القاطع الذى أنهى به نظام الاسترقاق تشريعياً، أن ينظر نظراً عملياً واقعياً، فالإسلام مجبر على الدخول فى الحروب لدفع العدوان ورد الاعتداء.

لذا ... فلابد من أسرى استنقذوا من الموت، ولابد لهم أن يعيشوا فى جو من الحياة يأمنون فيه على أنفهسم، ويأمن مستأسروهم من شر انقلابهم عليهم مع أعدائهم.

إن ترك الأسرى أحراراً ينقلبون إلى أقوامهم أعداء للإسلام والمسلمين قبل أن تضع الحرب أوزارها نهائياً يجعل منهم قوة ترجح بها كفة العدو فى ميادين القتال.

فكان من الخير لهم ولآسريهم إمساكهم تحت سلطان آسريهم مما يتطلب قوة اقتصادية للإنفاق منها عليهم، وهذه القوة الاقتصادية كانت غير متوفرة للمسلمين فى بداية الأمر، فلم يكن بد أمام الإمام من تفريق الأسرى على الأفراد ليمكن الانتفاع بهم، والإنفاق عليهم، والمحافظة عليهم، إلى جانب الأمن من احتمال غدرهم»[1]:

وهكذا .. يعترف الإسلام بهذه الحقيقة الموجودة فى واقع الحياة الإسلامية، لا سبيل إلى إنكارها، ولا محيص من الاعتراف بها كما يُعترف بالحقائق الكريهة البغيضة التى تقتضى الضرورة الاعتراف بها وإقرارها، وتقبلها كما يتقبل العليل مر الدواء».

• الإحسان إلى العبيد والخدم

كان الخدم فيما مضى هم المملوكون لمن يخدمونهم حيث كان يكثر هذا النوع فى العالم كله، وكان يكثر فى بلاد الإسلام بسبب الحروب التى كانت تقوم بين المسلمين والكافرين.

وقد انتهى عصر العبيد والجوارى - تقريباً - وصار الخدم كلهم فى هذا العصر من الأحرار، ولو درست حقوق المملوكين التى أوجبها الإسلام على من يملكونهم لعرفت أن الإسلام رفع من شأن هؤلاء المملوكين وأعطاهم من الحقوق ما لا يحصل عليه الأحرار اليوم.

والعبيد والخدم بشر كسائر البشر، شأنهم شأن المخدومين فى هذا المعنى، ونظراً لما توارثه عرف الناس من أن العبيد والخدم فى وضع أدنى من سادتهم أو مخدوميهم، الأمر الذى قد يحمل السادة والمخدومين على إساءة معاملتهم، جاءت الأديان توصى بالرفق

---

(١) المرجع السابق ٢ / ١٠٤٠، ١٠٤١ بتصرف.

بهم، ولعل من أحسن ما أثر عن الأنبياء السابقين في هذا المجال قول شعيب لموسى عند الاتفاق على العمل : ﴿ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ (١).

فالمشقة تظهر فى تكليفه ما لا يطيق، أو إلزامه غير ما اتفق عليه، والصلاح معنى يشمل كل خير مادى وأدبى فى علاقة من يعمل معه.

والإسلام أوصى بالعبيد والخدم خيراً، كما أوصى بكل ضعيف من النساء واليتامى والمساكين وغيرهم، وكان الأرقاء هم الذين يتولون الخدمة، فكانت الوصية متجهة إليهم بحكم عملهم ووضعهم، ففى الحديث الذى قاله النبى ﷺ قبل وفاته بخمس ليال : «الله الله فيما ملكت أيمانكم » (٢).

وقال لأبى الهيثم عندما أعطاه عبداً : «استوص به معروفاً » (٣).

وقال ﷺ : «لا يدخل الجنة سيئ الْمَلْكَة» (٤).

لقد كان الإسلام أرفق بالمماليك والخدم وأرحم بما لا يقاس بأى نظام أو وضع اجتماعى، فقد ارتفع الإسلام بالمماليك والخدم فى مسلك التكافل الاجتماعى الذى جمع القرآن به شمل الأمة على التواسى والتعاون الأخوى الذى ينبع من العقيدة الإسلامية، وجعل الإحسان إليهم صورة حية فى إطار هذا التكافل الذى بدأه الله تعالى بطلب توحيده وإخلاص العبودية له وحده، وجعل أول لبنة فى بنائه الإحسان إلى الوالدين، ثم تدرج فى مراتب الإحسان المطلوب من كل فرد فى المجتمع المسلم فذكر أصناف هذا المجتمع بأوصافهم الجامعة لجميع أفراد وطوائف الأمة، فلم يترك نوعاً ولا فرداً إلا وأدخله فى سلك هذا التكافل، حتي ختم عقده بالإحسان إلى المماليك إحساناً ينظمهم فى إطار الإنسانية المتكافلة المتعاونة على أسس المساواة فى الحقوق والواجبات الإنسانية(٥)، قال الله تعالى : ﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴾ (٦).

---

(١) سورة القصص الآية ٢٧ .

(٢) رواه الطبرانى عن كعب بن مالك ، وأبوداود وابن ماجة عن على بلفظ آخر .

(٣) رواه البغوى فى مصابيح السنة . (٤) رواه البغوى أيضاً .

(٥) انظر الأسرة تحت رعاية الإسلام للشيخ عطية صقر ٥ / ١٧٩ بتصرف .

(٦) سورة النساء الآية ٣٦ .

كما أوصى بهم رسول الله ﷺ وأكثر من وصاياه حتى جعلهم مدللين عند مالكيهم، يعيشون فى بحبوحة نعيمهم، ويقاسمونهم أرزاقهم، وملابسهم، كما نهاهم عن ضربهم وإذائهم وحرمانهم، وبين ﷺ للمالكين أنهم يعذبون يوم القيامة إن عذبوا المملوكين، ولا ينجيهم من عذاب الله إلا أن يعتقوا من شتموه أو ضربوه بغير سبب. كما أمر رسول الله ﷺ المالكين أن يبتعدوا عن مظاهر الغرور والكبرياء على المملوكين، وأن يحافظوا على شعورهم فى الكلمة ونحوها [1].

و هكذا .. نرى الحق تبارك وتعالى يوصى بالمماليك - والخدم - كما يوصى بالوالدين، وبذى القربى، واليتامى ، والمساكين ... إلخ . فدل ذلك على الإحسان إليهم وفى ختم الحق تبارك وتعالى للآية الكريمة بقوله سبحانه ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالاً فَخُوراً ﴾ . بيان أن الله تعالى لا يحب أهل الفخروالخيلاء والمستكبرين، وإرشاد إلى طريق التواضع والمساواة فى دائرة الإحسان، حتى يشعر كل فرد وكل جماعة فى الأمة بروح التكافل الأخوى يظلهم بظله، وهذا يلائم تعقبه للإحسان إلى المماليك -والخدم - لأنهم هم الذين يُتَوهم أنهم موضع التعالى لوضعهم الاجتماعى»[2].

وقد جاءت السنة النبوية المطهرة مبينة للقرآن الكريم حتى كانت عامةُ وصية رسول الله ﷺ وهو يجود بنفسه : «الصلاة وما ملكت أيمانكم».

وفى رواية أخرى : « الصلاة، الصلاة، اتقوا الله وما ملكت أيمانكم» [3] وفى الحديث الآخر : «حسن الملكة نماء» والمعنى أن إحسانَ صحبة المماليك وإكرامهم، والتلطف فى معاملتهم يزيد فى البركة وينمى الخير .

● **الإحسان إلى العبيد والخدم بعدم جرح شعورهم**

لقد اهتم الإسلام اهتماماً عظيماً بالأرقاء الذين قضت ظروفهم أن يظلوا فى الرق بعض الوقت حتى ترد إليهم حريتهم نتيجة لسياسة الإسلام فى تحرير العبيد والأرقاء.

وهذا الاهتمام يندرج كذلك على طائفة الخدم الذين يقومون بخدمتنا وقضاء مصالحنا، هؤلاء وهؤلاء لهم حقوق يفرضها الدين فرضاً، ولا سبيل إلى إنكارها أو التهاون فيها، ومن هذه الحقوق :

---

(١) السلوك الاجتماعى فى الإسلام للشيخ حسن أيوب ص ٢٨٦ .

(٢) الموسوعة فى سماحة الإسلام للشيخ محمد الصادق عرجون ٢ / ١٠٩٣، ١٠٩٤ .

(٣) سنن ابن ماجة الوصايا ، الجنائز ٦٤ .

أ - عدم نداء الخادم بلفظ مستهجن ففي الحديث : «لا يقولن أحدكم : عبدى وأمتى، فكلكم عبيد الله، وكل نسائكم إماء الله ، ولكن ليقل: غلامى وجاريتى وفتاى وفتاتى » [١].

لقد جعل الإسلام الإحسان إليهم واجباً فقد بدأ سبحانه بطلب توحيده وإخلاص العبودية له وحده وختم بالإحسان إلى المماليك ، قال تعالى : ﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴾ [٢].

والإحسان إليى الرقيق والخدم رجالاً ونساء يستلزم الرعاية والعطف لذا ندب النبى ﷺ السادة إلى مكارم الأخلاق ، وحضهم عليها وأرشدهم إلى الإحسان ، وإلى سلوك طريق التواضع حتى لا يروا لأنفسهم مزية على عبيدهم ، إذ الكل عبيد الله ، والمال مال الله ، لكن سخر بعضهم لبعض ، وملك بعضهم بعضاً ، إتماماً للنعمة ، وتنفيذاً للحكمة [٣] ، فعن أبى هريرة رضى الله عنه ، عن النبى ﷺ قال : « لا يقل أحدكم عبدى وأمتى ، بل ليقل فتاى وفتاتى » .

وهذا يجمع معنيين :

أحدهما : أن العبودية بالحقيقة لله عز وجل ، ففي قول الواحد من الناس لمملوكه : عبدى وأمتى تعظيماً عليه ، وإضافة له إلى نفسه بما أضافه الله تعالى إليه ، وذلك غير جائز .

ثانيهما : أن المملوك ربما دخله من أن يقول له مثله ، هذا عبدى فيستذله ويستصغره بما لا يجد بدا عنه ، ولا يجدى على قائله شيئاً ، ولعل ذلك مما ينفره عنه فيحمله على إباق وسوء طاعة أو غير ذلك مما قد ابتلى به الناس من مماليكهم إذا كرهوهم ، فكان الأولى بالسادة أن يتجنبوا ذلك إلى ما هو أحسن ، وإلى التآنس والتسكين أقرب» [٤] .

ب - عدم قذفه وسب عرضه ، أو شتمه واحتقاره ، فعن المعرور بن سويد رضى الله عنه قال : رأيت أبا ذر بالرَّبذة [٥] وعليه برد غليظ ، وعلى غلامه مثله ، قال :

---

(١) رواه مسلم (٢) سورة النساء الآية ٣٦ . (٣) الجامع لأحكام القرآن للقرطبى ٥ / ١٩٠ .

(٤) المنهاج فى شعب الإيمان للحليمى ٣ / ٢٦٦ .

(٥) الرَّبذة بـ «التحريك» من قرى المدينة على ثلاثة أميال ، بها مدفن أبى ذر الغفارى .

فقال القوم: يا أباذر، لو كنت أخذت الذى على غلامك فجعلته مع هذا فكانت حلة، وكسوت غلامك ثوباً غيره؟

قال: فقال أبوذر: إني كنت سابيت رجلاً، وكانت أمه أعجمية، فعيرتُه بأمه، فشكا إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا أباذر إنك امرؤ فيك جاهلية.

فقال: هم إخوانكم، فضلكم الله عليهم، فمن لم يلائمكم فبيعوه، ولا تعذبوا خلق الله» [1].

وهو فى البخارى ومسلم بمعناه إلا أنه فيه: «هم إخوانكم جعلهم الله تحت أيديكم، فمن جعل الله أخاه تحت يده فليطعمه مما يأكل، وليلبسه مما يلبس، ولا يكلفه من العمل ما يغلبه، فإن كلفه ما يغلبه فليعنه عليه» واللفظ للبخارى.

● **رواية ثانية**

عن المعرور بن سويد قال: رأيت أبا ذر رضي الله عنه وعليه حلة وعلى غلامه مثلُها، فسألته عن ذلك فذكر أنه سابَّ رجلاً على عهد رسول الله ﷺ فعيره بأمه، فقال النبى ﷺ: «إنك امرؤ فيك جاهلية: هم إخوانكم وخولكم، جعلهم الله تحت أيديكم، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل، وليلبسه مما يلبس، ولا تكلفوهم ما يغلبهم، فإن كلفتموهم فأعينوهم» [2].

حاول أن تمعن النظر فى الحديث، فإن أباذر ما فعل مع مملوكه أكثر من أن عيره بأن أمه ليست عربية، وكان ذلك عندهم نقيصة، وبسبب هذه الكلمة ذهب المملوك وشكا سيده لرسول الله ﷺ، فانتصف الرسول ﷺ للغلام، وأفهم أباذر أن فيه أثراً من آثار الجاهلية، حيث كانوا يحتقرون عبيدهم وكأنهم ليسوا آدميين مثلهم.

ولذلك كان العلاج للموقف أن رسول الله ﷺ أفهم أباذر أن هؤلاء المملوكين إخوان فى الإنسانية وفى الإسلام، فعلى المالك أن يسوس مملوكيه برفق وإلا فليبيعهم، فإن أبقاهم فليطعمهم على مستوى قدرته المالية وكذلك الأمر فى الكسوة وغيرها.

هذا ما يفهم من الحديث وبه أخذ العلماء غير أن أبا ذر نفذ الحديث حرفياً، فكان يطعم عبده من نفس طعامه، ويلبسه من نوع ثيابه وعددها [3].

وعن المعرور بن سويد قال: مررنا بأبى ذر بالرَّبَذَة وعليه برد وعلى غلامه مثله.

---

(١) رواه أبو داود واللفظ له.　　(٢) متفق عليه

(٣) السلوك الاجتماعى فى الإسلام – حسن أيوب ص٢٨٧.

فقلنا : يا أبا ذر لو جمعت بينهما كانت حلة.

فقال : إنه كان بينى وبين رجل من إخوانى كلام، وكانت أمه أعجمية فعيرته بأمه، فشكانى إلى النبى ﷺ.

فلقيت رسول الله ﷺ فقال : «يا أبا ذر إنك امرؤ فيك جاهلية».

قلت : يا رسول الله، من سب الرجال سبوا أباه وأمه.

قال : « يا أباذر إنك امرؤ فيك جاهلية، هم إخوانكم جعلهم الله تحت أيديكم، فأطعموهم مما تأكلون، وألبسوهم مما تلبسون، ولا تكلفوهم ما يغلبهم، فإن كلفتموهم فأعينوهم» [1].

جـ - ومن الإحسان إليهم الرحمة بهم فقد روى عن أبى هريرة أنه ركب بغلة ذات يوم فأردف غلامه خلفه، فقال قائل: لو أنزلته يسعى خلف دابتك .

فقال أبو هريرة : لأن يسعى معى ضغثان [2] من نار يحرقان منى ما أحرقا، أحب إلى من أن يسعى غلامى خلفى.

وعمر بن الخطاب رضى الله عنه كان يعامل غلامه أكثر مما يعامل أبناءه، فقد سافر إلى بيت المقدس لكى يتسلمه من البطريرك،وكان سفره على ناقة واحدة ومعه غلامه فكانا يتناوبان الركوب الواحد بعد الآخر، ولما اقتربا من بيت المقدس كان الدور للعبد فحاول أن يتنازل لسيده عن الركوب، لكن عمر العظيم أصر على أن يأخذ العبد حقه فى الركوب ولم يستح أن يدخل بيت المقدس وهو خليفة المسلمين وعبده راكب وهو راجل يسعى خلفه بقدميه».

- **الإحسان إلى العبيد والخدم فى مطعمهم وملبسهم**

الإحسان إلى المملوك يجمع الشكر لله تعالى على الفكاك والسلامة من ذل الرق، واستطابة نفس المملوك، واستجلاب طاعته ومناصحته. روى عن رسول الله ﷺ أنه قال : «كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته» [3].

---

(١) رواه مسلم وغيره .

(٢) ضغثان : حزمتان من حطب، فاستعارهما للنار : يعنى أنهما قد اشتعلتا وصارتا ناراً «القرطبى هامش ص١٩٠».

(٣) رواه البخارى (العتق) .

وقال ﷺ : « من لاَحَكُم من مملوكيكم فأطعموهم مما تأكلون، واكسوهم مما تلبسون، ومن لا يلائمكم فبيعوه ولا تقدموا عباد الله » [1] .

وقال ﷺ : «جعلهم الله فتنة تحت أيديكم، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه من طعامه وليلبسه من لباسه، ولا يكلفه ما يغلبه، فإن كلفه ما يغلبه فليعنه» [2] .

وقال ﷺ : «من ابتاع شيئاً من الخدم فلم يوافق شيمته شيمته فليبع، ولْيَشْرِ من توافق شيمته، فإن للناس شيما، ولا تعذبوا عباد الله» [3] .

وقال ﷺ : « للمملوك طعامه وكسوته، اكسوهم مما تلبسون، وأطعموهم مما تأكلون، ولاتكلفوهم من العمل ما لا يطيقون» [4] .

قال ﷺ : «إذا جاء أحدكم خادمُه بطعامه، فإن لم يجلسه معه، فليناوله لُقمة أو لُقمتين أو أُكلة [5] أو أُكلتين، فإنه ولى علاجه» [6] .

وقال عبادة بن الوليد : خرجت أنا وأبى نطلب العلم في هذا الحى من الأنصار قبل أن يهلكوا، فأول ما لقينا أبا البشر صاحب رسول الله ﷺ، ومعه غلام له وعلى أبى البشر بردة ومعاء قزى، وعلى غلامه بردة ومعاء قزى، فقلت له فى ذلك، فمسح رأسى وقال : اللهم بارك فيه، يا ابن أخى، أبصرت عيناى هاتان، وسمعت أذناى هاتان، ووعاه قلبى، وأشار إلى أنياط قلبه، رسول الله ﷺ وهو يقول :«أطعموهم مما تأكلون، واكسوهم مما تلبسون » [7] فكان أن أعطيته من متاع الدنيا أهون عَلَيَّ أن يأخذ حسناتى يوم القيامة.

و عن عبد الله بن عمرو إذ جاء قهرمان [8] له فدخل ،فقال : أعطيت الرقيق قوتهم؟

قال : لا

قال : فانطلق فأعطهم، قال رسول الله ﷺ :« كفى بالمرء إثماً أن يحبس عمن يملك قوتهم» [9] .

---

(١) رواه البخارى (العتق).

(٢) رواه ابن ماجة فى سننه (الأدب باب ١٠ .

(٣) لم أجد هذا النص فى الكتب التسعة (الحليمى). (٤) رواه مسلم (الإيمان) ٤١ .

(٥) الأكلة بضم الهمزة : هى اللقمة . (٦) رواه البخارى ومسلم وأبو داود والترمذى واللفظ للبخارى

(٧) أخرجه مسلم فى صحيحه كتاب «الزهد».

(٨) القهرمان «بفتح القاف وتضم» كالخازن والوكيل، والحافظ لما تحت يده والقائم بأمور الرجل؛ بلغة الفرس.

(٩) رواه مسلم كتاب «الزكاة باب فضل النفقة على العيال والمملوك».

• **الإحسان إلى العبيد والخدم بعدم ضربهم**

إن الإسلام يربأ بالسادة أن يضربوا عبيدهم أو خدمهم وعليهم أن يعفوا عن زلاتهم ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً.

جاء عن النبى ﷺ أن رجلاً من أصحابه جلس بين يديه فقال: يا رسول الله، إن لى مملوكين يكذبوننى ويخونوننى ويعصوننى، فأضربهم وأشتمهم، فكيف أنا منهم؟

فقال رسول الله ﷺ: «بحسب ما خانوك وعصوك وكذبوك وعقابك إياهم، فإن كان عقابك إياهم دون ذنوبهم كان فضلاً لك، وإن كان عقابك إياهم فوق ذنوبهم اقتضى لهم الفضل الذى لهم» فجعل الرجل يبكى بين يدى رسول الله ﷺ ويهتف.

فقال رسول الله ﷺ: ماله؟ أما يقرأ كتاب الله ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ ﴾ (١).

فقال الرجل: يا رسول الله ما أجد شيئاً خيراً إلى من فراق هؤلاء، أشهدك أنهم أحرار كلهم» (٢).

وعن أبى مسعود البدرى رضى الله عنه قال: كنت أضرب غلاماً لى بالسوط، فسمعت صوتاً من خلفى: «إعلم أبا مسعود»، فلم أفهم الصوت من الغضب، فلما دنا منى إذا هو رسول الله ﷺ، فإذا هو يقول: «إعلم أبا مسعود أن الله أقدر عليك منك على هذا الغلام».

فقلت يا رسول الله: هو حر لوجه الله تعالى.

فقال: «أما لو لم تفعل للفحتك النار، أو لمستك النار» (٣).

وفى رواية، قال أبو مسعود: إنى لأضرب غلاماً لى إذ سمعت صوتاً من خلفى: «إعلم أبا مسعود» فجعلت لا ألتف إليه من شدة الغضب حتى غشينى، فإذا هو رسول الله ﷺ، فلما رأيته وقع السوط من يدى من هيبته، قال لى رسول الله ﷺ: «والله لله أقدر عليك منك على هذا» (٤).

فقلت: يا رسول الله، والله لا أضرب غلاماً لى أبداً.

---

(١) سورة الأنبياء الآية ٤٧

(٢) رواه الترمذى فى صحيحه (البر) ٣١.

(٣) رواه مسلم وغيره

(٤) رواه مسلم (الإيمان) ٣٤

ومر أبو ذر رضى الله عنه برجل يضرب غلاماً له، فقال: إنى لا أعلم ما أنت قائل لربك غدا، ما يقول لك.

تقول: اللهم أغفر لى   فيقول: أكنت تغفر.

تقول: اللهم ارحمنى فيقول: أكنت ترحم؟

وفى حديث أن فاطمة رضي الله عنها مجلت [1] يدها من الرحى، فجاءت رسول الله ﷺ تسأله خادماً، فلما جاء سبى أعطاها خادماً، وقال لها: «إن رأيتها تصلى فلا تضربيها، فإنى نهيت عن قتل المصلين» [2].

فقالت فاطمة رضى الله عنها: إذا كانت هكذا فإنها تعمل يوماً وأعمل يوماً.

وقال معاوية بن الحكم - رحمه الله - كانت لى جارية ترعى غنيمة لى فذهب الذئب بشاة منها، وأنا من بنى آدم آسف كما يسفون، فصككتها صكة، فأتيت رسول الله ﷺ فذكرت ذلك له، فعظم ذلك علىَّ، فقلت: يا رسول الله، أفلا أعتقها.

قال: «ادع بها، فقال: لها: «أين الله ؟»

فقالت: فى السماء.

فقال: «من أنا؟».

قالت: أنت رسول الله.

فقال: «اعتقها فإنها مؤمنة» [3].

وعن معاوية بن سويد بن مُقَرِّن قال: لطمت مولى لنا: فدعاه أبى ودعانى، فقال: «أى للمولى المملوك» اقتص منه «أى اضربه كما ضربك» فإنا معشر بنى مقرن كنا سبعة على عهد النبى ﷺ وليس لنا إلا خادم، فلطمها رجل منا.

فقال رسول الله ﷺ: «اعتقوها».

قالوا: ليس لنا خادم غيرُها.

قال: «فلتخدمهم حتى يستغنوا، فإذا استغنوا فليعتقوها» [4].

---

(١) مجلت: نفطت من العمل، فمرنت وصلبت وثخن جلدها وتعجر، وظهر فيها ما يشبه البثر من العمل بالأشياء الصلبة الخشنة «لسان العرب».

(٢) رواه أبو داود فى سننه.

(٣) رواه مسلم (المساجد) ٣٣

(٤) رواه مسلم وغيره.

وهكذا حكم الأب بالقصاص، وإلا فإن المطلوب هو : إعتاق المملوك جزاء لطمة واحدة كما حكم رسول الله ﷺ [١].

هذا ... ونحن نقرأ عن تعذيب الخدم وتجويعهم وحرقهم بالنار، وضربهم على رؤوسهم بصورة سببت الوفاة لبعضهم، وهم ليسوا مملوكين بل أحراراً، وقد يكونون أقرباء ».

قال القرطبي [٢] : ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «من ضرب عبده حدا لم يأته، أو لطمه فكفارته أن يعتقه » [٣] ومعناه أن يضربه قدر الحد ولم يكن عليه حد.

وجاء عن نفر من الصحابة - بني مقرن وقد قدمنا حديثهم - أنهم اقتصوا للخادم من الولد في الضرب، وأعتقوا الخادم لما لم يرد القصاص.

وقال عليه الصلاة والسلام : «من قذف مملوكه بالزنى أقام عليه الحد يوم القيامة ثمانين».

وقال عليه السلام: «لا يدخل الجنة سيئ الملكة» [٤].

● صورة مستثناه

قرر الفقهاء جواز ضرب العبد والخادم للتأديب، فقد ضرب أبو بكر غلامه عندما أضاع البعير في الطريق في حجة الوداع، وأقر الرسول ﷺ ذلك» [٥].

وإذا جاز ضرب الغلام للتأديب فليتق الوجه، ففي الحديث: «إذا ضرب أحدكم خادمه فليتق الوجه» [٦].

● العفو عن الخدم والعبيد

وإذا أجاز الشرع ضرب الخادم للتأديب فالأفضل العفو والصفح فالإسلام حفي بالرقيق يوصي بالرحمة في عقوبتهم إذا وقع منهم ما يستحق العقاب، ويلتمس لهم من صعوبة وضعهم عذراً يخفف به العقوبة، فالسيد في شرعة الإسلام يؤدب فتيانه وفتياته من الرقيق بما يؤدب به ولده من البنين والبنات، فإذا اشتط في العقوبة ظالماً زُجِر وأُدِّب، وقد يُعتقَ عليه فتاه أو فتاته وهو راغم لا يحسب لرضاه حساب » [٧].

(١) السلوك الاجتماعي في الإسلام للشيخ حسن أيوب ص ٢٨٧ .

(٢) الجامع لأحكام القرآن ٥ / ١٩٠، ١٩١ .

(٣) رواه مسلم .

(٤) أي الذي يسئ صحبة المماليك والحديث سبق تخريجه.

(٥) زاد المعاد ١ /١٩٧ .

(٦) رواه أبو داود عن أبي هريرة بسند صحيح .

(٧) الموسوعة في سماحة الإسلام للشيخ عرجون ٢ /١٠٤٧ بتصرف.

● العفو .. والعفو أفضل وأحسن

هكذا رأينا رحمة الإسلام وعطفه على الخدم والعبيد ولم يبق أمام السادة إلا العفو ... والعفو أفضل وأحسن .

جاء عن النبى ﷺ أن رجلاً جاءه فقال : كم تعفو عن الخادم؟ ، فصمت ثم أعاد عليه الكلام ، فصمت .

فلما كان الثالثة ، قال : «أعف عنه سبعين مرة فى كل يوم» [١] .

وفى رواية أخرى : سئل رسول الله ﷺ : كم نعفو لمماليكنا؟ قال : «سبعين مرة» .

قلت المعنى : اعف عنهم بقدر ما يستغفرون فى كل يوم ، وقد قال لهم فيما أخبر عن نفسه ليقتدوا به : «إنى لأستغفر الله فى اليوم سبعين مرة» . وروى «مائة مرة» فأمرهم أن يعفوا عن خادمهم بقدر ما يستغفون الله عن أنفسهم » [٢] .

ومحل العفو عن الخادم فى خطئه مالم يكن هناك حد لله لا يسقط بالعفو ، كالزنا ، فعن أبى عبد الرحمن السلمى قال : خطب على فقال : يأيها الناس ، أقيموا الحدود على أرقائكم ، من أحصن منهم ومن لم يحصن ، فإن أَمَةَ النبى ﷺ زنت فأمرنى أن أجلدها ، فأتيتها ، فإذا هى حديثة عهد بالنفاس ، فخشيت إن جلدتها قتلتها ، فذكرت ذلك للنبى ﷺ فقال : «أحسنت ، اتركها حتى تتماثل» [٣] .

وعن ابن عمر أنه أقام حداً على إحدى إمائه ، فجعل يضرب رجليها وساقيها ، فقال له سالم : أين قول الله تعالى : ﴿ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ ﴾ [٤] . فقال : أترانى أشفقت عليها ، إن الله لم يأمرنى أن أقتلها [٥] .

● نموذج فريد

كان ممن وقع عليه «الرق» الظالم الباغى قبل نبوة خاتم النبيين محمد ﷺ الفتى «زيد بن حارثة» فقد اختطف فى غفلة من قومه وهو يزور أخواله بالشام ، خطفته خيل من تهامه ، وسيق كما يساق غيره إلى سوق النخاسة فابتاعه حكيم بن حزام بن خويلد ابن أخى خديجة بنت خويلد الذى وهبه لعمته خديجة وهى بدورها وهبته للنبى ﷺ فجعله أخا له وصاحباً ، ولم يتخذه عبداً رقيقاً ، أو خادماً مهيناً كما يفعل الكثيرون مع عبيدهم .

---

(١) رواه الترمذى (البر) ٣١ . (٢) المنهاج فى شعب الإيمان ٣ / ٢٦٩ .

(٣) رواه مسلم . (٤) سورة النور الآية ٢ . (٥) رواه رزين .

● أسرة زيد تبحث عنه

ومن الأمور الطبيعية أن تبحث أسرة زيد عنه، فلما أفتقده أبوه وأعمامه وإخوته نهضوا يبحثون عنه فى قبائل العرب، ويسألون فى المواسم الدينية وغيرها.

حتى قدم عمه مكة فى شغل له فلقيه فى طرقاتها فعرفه، وأراد أن يستوثق من معرفته، فقال له : ما اسمك يا غلام؟ . قال : زيد .

قال : ابن من ؟ قال : ابن حارثة .

قال : ابن من؟ قال : ابن شراحيل الكلبى.

قال : فما اسم أمك؟ قال : سعدى، وكنت في أخوالى طيئ.

فضمه عمه إلى صدره، وأرسل إلى أبيه وقومه فحضروا ، وأرادوا من زيد أن يكون معهم، فقالوا له : لمن أنت ؟ قال : لمحمد بن عبد الله .

فأتوه ، فقالوا : هذا ابننا فرده علينا .

قال : أعرض عليه، فإن اختاركم فخذوه بيده .

فبعث إلى زيد، وقال له : أتعرف هؤلاء؟

قال : نعم ، هذا أبى، وهذا أخى، وهذا عمى .

فقال له - النبى - محمد ﷺ : فأى صاحب كنت لك؟

فبكى زيد، وقال : لم سألتنى عن ذلك ؟

قال : أخيرك، فإن أردت أن تلحق بهم فالحق، وإن أردت أن تقيم، فأنا من قد عرفت؟

فقال زيد : لا أختار عليك أحداً.

فجذبه عمه. وقاله له : يا زيد : اخترت العبودية على أبيك وعمك.

فقال : إى والله؟ العبودية عند محمد أحب إلى من أن أكون عندكم .

● مكافأة سخية لزيد

عندئذ قال - النبى - محمد ﷺ : يا معشر قريش اشهدوا أنه ابنى يرثنى وأرثه. وتبناه فصار ابناً عرفياً له ، وكان التبنى سائغاً قبل الإسلام معمولاً به، يكسب به المتبنى جميع الحقوق والمعانى التى تكون عندهم لولد الصلب، ويعامل الأدعياء المتبنون معاملة الأبناء الحقيقيين من كل وجه، حتى فى الخلوة

بالمحارم، وفى التحريم على المتبنى للدعى من زواجه بزوجته بعد طلاقها، وفى الميراث وغير ذلك ، ويدعى الدعى منسوباً إلى أبيه بالتبنى ويأخذ اسمه .

• تصحيح وضع

وظل زيد يتمتع ببنوته لمحمد ﷺ إلى أن جاء الإسلام، وبدأ التشريع يقرر الأحكام الفرعية، وكان من أول ما قرره تصحيح هذا الوضع الباطل الذى يدخل فى الأسرة من ليس منها، ويكسبه حقوقاً قد تؤدى إلى أعظم الأضرار الأدبية والاجتماعية، فنزل القرآن الكريم يرد الأمور إلى حقيقتها ظاهراً وباطناً، فأمر بنسبة الأدعياء إلى آبائهم الحقيقيين ، وبين أنهم ليسوا أبناء بالتبنى، وأن هذا التبنى لا يخرج عن كونه تلاعباً بالحقائق، وأقوالاً ترددها الأفواه دون أن يكون لها من الواقع نصيب، ونزل قوله تعالى : ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ (٤) ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ﴾ (١) .

عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما ، ما كنا ندعو زيد بن حارثة إلا زيد بن محمد حتى نزل القرآن (٢) : ﴿ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ﴾ وحرمت على الأدعياء الخلوة بمن كن من النساء محارم فى زعم الأدعياء وهن لسن كذلك فى واقع الأمر ،ولذلك قالت سهلة بنت سهيل امرأة أبى حذيفة رضى الله عنها : يا رسول الله كنا ندعو سالماً ابنا وإن الله قد أنزل ما أنزل، وإنه ليدخل على وإنى أجد فى نفس أبى حذيفة من ذلك شيئاً .

فقال ﷺ ليرفع عنها الحرج ويذهب ما يجده زوجها فى صدره: « أرضعيه ويحرم عليك» لأن الرضاع فى التحريم بمنزلة النسب لقوله ﷺ : «يحرم بالرضاع ما يحرم من النسب » (٣).

وتزوج رسول الله ﷺ زينب بنت جحش مطلقة زيد بن حارثة رضى الله عنه ليستأصل من النفوس عقيدة باطلة كانت راسخة عند الجاهلين، وبقيت إلى أول الإسلام ، تلك هى تحريم زواج من كان يدعى أباً لدعى زوجة دعيه بعد طلاقها

---

(١) سورة الأحزاب الآيتان ٤، ٥ .

(٢) رواه البخارى ومسلم والترمذى والنسائى .

(٣) متفق عليه .

منه، وأنزل الله في ذلك قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴾ (1).

● تعويض ربانى

لقد أعاض الله تعالى زيداً عن منزلة التبنى - التى كانت تنزله من رسول الله منزلة رفيعة - مكانة أرفع منها، فناطه بحبه حتى كان يدعى بين الناس حِبَّ رسول الله ﷺ لمكانه فى قلبه ومحبته له، وجعله أخا له ولسائر أهل بيت النبى ﷺ فقال له: « أنت أخونا ومولانا » ، ولهذا كان زيد يذكر فى عداد بنى هاشم، وكان رسول الله ﷺ يعزه ويقدمه فى المواقف العظيمة، فعن عائشة رضى الله عنها قالت: ما بعث رسول الله ﷺ زيداً فى سرية إلا أمره عليهم، ولو عاش بعده لاستخلفه» (2).

ولمكانته عند النبى ﷺ زوجه زينب بنت جحش بنت عمته الأسدية أبا، القرشية أماً، وهى التى اصطفاها الله تعالى بعد طلاق زيد لها زوجاً لنبيه ﷺ ، فكانت فى عداد أمهات المؤمنين، وكانت بمكانتها منه تسامى عائشة رضى الله عنها.

وأمَّرَه ﷺ فى غزوة مؤتة على الجيش وفيه أشراف قريش ووجهاء المسلمين، فكان فيهم ابن عم النبى ﷺ جعفر بن أبى طالب رضى الله عنه » (3).

● معان إنسانية نبيلة فى حديث زيد

وفى حديث زيد من المعانى الإنسانية النبيلة أمور ننبه إلى بعضها إظهاراً لما تصوره من سماحة الإسلام ومكارم الأخلاق المحمدية .

1 - وهبت خديجة مولاها زيد بن حارثة إلى زوجها محمد ﷺ قبل نبوته ﷺ ، فجعله أخاله وصاحباً، ولم يتخذه عبداً رقيقاً فى معاملته وعشرته، ولذلك حينما خيره بين أن يلحق بقومه ويذهب مع أبيه وعمه وبين أن يبقى معه قال له: «فأى صاحب كنت لك؟». ولم يقل: أى رب، أو أى سيد كنت لك .

2 - لما اختار زيد البقاء مع رسول الله ﷺ - ورد على أبيه وعمه إذ قالا له: يا زيد اخترت العبودية على أبيك وعمك ؟

---

(1) سورة الأحزاب الآية 37 . (2) رواه أحمد عن عائشة رضى الله عنها .

(3) الموسوعة فى سماحة الإسلام للشيخ محمد الصادق عرجون 2 / 1074-1076 .

فقال لهما : أى والله العبودية مع محمد أحب إلى من أن أكون عندكم - سارع النبى ﷺ إلى تبنيه وأشهد ملأ قريش على ذلك إظهاراً لمكانته من نفسه، وتقديراً لموقفه وحبه لرسول الله ﷺ وتطييباً لنفس أبيه وعمه وقومه .

٣ - تشرف زيد بهذا التبنى، فكان يُدعى زيد بن محمد، ولم يسمع أنه قيل له فتى أو غلام محمد، بله عبده .

٤ - لما نهى الله تعالى عن التبنى وقطع علائقه الباطلة ورده إلى حقيقته وارتفع عن زيد اسم التبنى ونسبته أعاضه الله تعالى ورسوله ﷺ عن ذلك منزلة الحب، وصار يُدعى حب رسول الله ﷺ بعد أن كان يدعى زيد بن محمد .

٥ - كان رسول الله ﷺ حفياً بزيد، يعزه ويقربه ويقدمه حتى إن عائشة أم المؤمنين وهى أعرف بمدخل رسول الله ﷺ ومخرجه وسائر أحواله تقول: إن النبى ﷺ لم يبعث زيداً فى سرية إلا جعله عليها أميراً .

وقد عرفت السيرة النبوية أن سرايا زيد التى أُمِّرَ عليها كانت أكثر عدداً من سرايا أى فرد من القواد، فقد بعث فى سبعِ سرايا، وكانت كلها من أهم السرايا ،وفيها جميعاً كان زيد يعود مكللاً بتاج النصر يلمع على مفرقه، وهذه السرايا السبع ختمت بالغزوة العظيمة التى واجه زيد فيها جموع الروم على تخوم [1] البلقاء بجيش لا يزيد على ثلاثة آلاف مقاتل، وكانت جموع الروم تزيد على مائتى ألف مقاتل، وفيها استشهد زيد، وهو أول قائد عينه رسول الله ﷺ وتبعه أخواه جعفر بن أبى طالب وابن رواحة، ثم أخذ الراية بطل الإسلام خالد بن الوليد وانحاز بجيش المسلمين موفور الكرامة، ورجع بهم حتى عد النبى ﷺ فيما رواه البخارى ذلك نصراً .

٦ - خلطه النبى ﷺ بدمه ونسبه، فزوجه بنت عمته زينب بنت جحش وكانت من سروات قومها تشرئب إليها أعناق الأعاظم ،فلما قضى الله له ما قضى فى حكمته وتشريعه ليقطع دابر الجاهلية فى زوجة المتبنىٍ على متبنيه، وطلق زيد زينب خلفه عليها رسول الله ﷺ ، وهذه منزلة لم تكن لأحد غير زيد فى الحب والحفاوة والرعاية والإعظام ،واستخلفه النبى ﷺ على المدينة المنورة فى غزوة بنى المصطلق .

(١) التخم : حد الأرض والجمع تخوم «المصباح المنير».

وقد ورث عنه ذلك ابنه أسامة بن زيد وهو أيضا مولى رسول الله ﷺ كان يُدعى الحب ابن الحب، وكان أصحاب رسول الله ﷺ إذا أرادوا أمراً هاماً من رسول الله ﷺ قالوا: ومن يتجرأ يكلم رسول الله ﷺ فيه غير أسامة بن زيد الحب ابن الحب، وحسب أسامة فى عظمة الوراثة من مكانة أبيه فى قلب النبى ﷺ ومحبته له وتقديمه إمارته على أعظم جيش جهزه رسول الله ﷺ قبيل وفاته وأوعب [١] فيه المهاجرين والأنصار، وفيهم الشيخان أبوبكر وعمر. ومن يدنو من منزلتهما من الأكابر وأشراف الإسلام.

وقد استأذنه أبو بكر بعد استخلافه أن يعينه بعمر على أمر المسلمين والإسلام.

ومشى معه الصديق وأسامة راكب يودعه ويوصيه، فطلب إليه أن يركب أو ينزل هو، فأبى الصديق إجلالاً لمنصب قدمه إليه رسول الله ﷺ ،وطلباً لثواب الله تعالى.

فهل رؤى فى التاريخ البشرى نبلاً إنسانيا فى معاملة من أوقعه سوء الحياة الاجتماعية فى الرق أنبل من هذا وأفضل » [٢].

• مثالية فى التعامل

ومن المثالية فى التعامل مع الأرقاء والعبيد والخدم ماروى من أن على بن أبى طالب رضى الله عنه كان ماراً بالسوق ومعه غلامه «خادمه» قنبر، فوقف أمام بائع ثياب، وقال له : أعندك ثوبان بخمسة دراهم ؟

فقال البائع: نعم، وقدم إلى أمير المؤمنين ثوبين ،ثوباً بثلاثة دراهم، وثوباً بدرهمين.

فأعطى علىٌ غلامه الثوب الأول «ذى الثلاثة دراهم» واحتفظ لنفسه بالثانى «ذى الدرهمين».

فقال له غلامه: يا أمير المؤمنين، خذ هذا أنت ، فإنك تعلو المنبر، وتخطب الناس.

فقال الإمام على - كرم الله وجهه - أنا أعلو المنبر وأخطب الناس، وأنا على، أما أنت فشاب ولك بهجة الشباب، وأنا استحى من ربى أن أتفضل عليك، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ألبسوهم مما تلبسون، وأطعموهم مما تأكلون».

---

(١) أوعب فيه المهاجرين والأنصار : أى وجدوا جميعاً فيه.

(٢) الموسوعة فى سماحة الإسلام للشيخ محمد الصادق عرجون ٢ / ١٠٦٧-١٠٧٨ .

وليس هذا هو نهاية المطاف، بل حصل أكثر من ذلك، فقد كان العبيد والخدم يعيشون عيشة آمنة لا خوف فيها من عقاب، فقد روى أن على بن أبي طالب كرم الله وجهه دعا غلاماً له فلم يجبه، فدعاه ثانياً وثالثاً، فرآه مضطجعاً.

فقال أما تسمع ياغلام؟ قال : نعم.

قال : فما حملك على ترك جوابى؟

قال : أمنت عقوبتك فتكاسلت.

فقال : اذهب فأنت حر لوجه الله.

يا سبحان الله !!!

إن القلم عاجز عن تسجيل ما يشعر به الإنسان بعد أن يسمع هذا[1].

• جهود الإسلام فى تحرير العبيد

بعد أن أوصى الإسلام بالرفق بالرقيق والرحمة بهم والإحسان إليهم والمواساة فى معاملتهم، فتح أمامهم نوافذ الحرية.

فالقرآن الكريم - وهو دستور الإسلام - يرغب فى العتق وتخليص الرقاب ترغيباً يرتفع به فيجعله من صور البر الذى يستحق أن تولى إليه وجوه المؤمنين، قال تعالى: ﴿ لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ ﴾[2].

وأرفع من ذلك فى درجات الرعاية الإسلامية أن الله تعالى فرض لتحقيق الحرية بعتق الرقاب وتخليصها من نير (الرق) نصيباً مفروضاً من زكاة أموال المسلمين فى جميع أنواع الأموال التى تجب فيها الزكاة، وذلك أن الله عز شأنه لما ذكر مصارف الزكاة المفروضة في قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾[3]. ذكر ثمانية أصناف من الناس وغيرهم بطريق الحصر لا يشاركهم فيها صنف آخر غيرهم.

---

(١) كتاب المجتمع في الإسلام - محمد جمال الدين رفعت ص ٧٥، ٧٦.

(٢) سورة البقرة الآية ١٧٧. (٣) سورة التوبة الآية ٦٠.

ومن المثلج للصدر أن حق تحقيق الحرية وعتق الرقاب من التشريع المحكم الذى لم يطرأ عليه نسخ ولا تغيير ، وقد أجمع المسلمون سلفاً وخلفاً على ذلك ، بخلاف بعض الأصناف الأخرى فإنه قد طرأ عليها ، فحق المؤلفة قلوبهم قد رفع وزال حكمه وتغير مصرفه وبالتالى رده إلى الأصناف الأخرى صاحبة الحق الثابت .

و كل صنف من أصناف مصارف الزكاة سقط حقه وزال نصيبه فيها رجع هذا الحق إلى سائر الأصناف الأخرى الثابتة المحكمة .

وقد روى عن الإمام على بن الحسين زين العابدين أنه قال : إن الله تعالى علم قدر ما يدفع من الزكاة ، وما تقع به الكفاية لهذه الأصناف وجعله حقاً لجميعهم ، فمن منعهم ذلك فهو الظالم لهم رزقهم .

إلى جانب ذلك فقد جعل الإسلام عتق الرقاب كفارة لكل ذنب أو عمل يجب التكفير عنه ، فهو كفارة للظهار وكفارة للقتل ، وكفارة للفطر العمد فى صيام واجب ، وكفارة للحنث فى اليمين ، وكفارة للنذر فى بعض صوره ، وكفارة لغير ذلك مما هو مفصل فى الفقه الإسلامى . قال تعالى : ﴿ وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَئًا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ إِلَّا أَن يَصَّدَّقُوا فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ﴾ [1] .

وقال تعالى : ﴿ لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ﴾ [2] .

وقال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا ﴾ [3] .

ويحسب من الرذائل المأخوذة على الإنسان السيئ أنه لا يقتحم هذه العقبة أو لا ينهض بهذه الفدية المؤكدة . قال تعالى : ﴿ فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ (11) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ (12) فَكُّ رَقَبَةٍ (13) أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ (14) يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴾ [4] .

---

(١) سورة النساء الآية ٩٢ .

(٢) سورة المائدة الآية ٨٩ .

(٣) سورة المجادلة الآية ٣ .

(٤) سورة البلد الآيات ١١-١٥ .

وإذا كان ارتباط الأسرى ضربة لازب في الحروب الحديثة فالإسلام لم يجعله حتما مقضياً في جميع الحروب، وحرص على التخفيف من شدته ما تيسر التخفيف منه وجعل المن في التسريع أفضل الخطتين[1] : ﴿ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ﴾ .

بل إن الإسلام جعل العتق قربة إلى الله تعالى عند وقوع الأحداث الكونية، فعن أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنهما قالت: «أمرني النبي ﷺ بالعتاقة في كسوف الشمس»[2]. وفي رواية أخرى، أنها قالت: كنا نؤمر عند الخسوف بالعتاقة

ومن أروع صور المنهج الإسلامي أنه أوجب على السادة قبول طلب المماليك مكاتبتهم على مال معين يؤدونه إليهم منجماً[3]؛ ليعتقوا أنفسهم ويتحرروا من أغلال «الرق» وألزمهم بإجابتهم إلى ما طلبوا.

وأروع من ذلك أن الإسلام أوجب على السادة معاونة المكاتبين على أداء ما كاتبوهم عليه، ثم ندب عامة المسلمين إلى الإسهام في هذه المعاونة وألزم الدولة بالمشاركة فيها من بيت مال المسلمين، قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ ﴾[4].

وظاهر الآية أن المملوك إذا طلب من سيده مكاتبته على مال يؤديه إليه نجوماً -على دفعات- وجب على السيد أن يجيب مملوكه إلى طلبه لتشوف الشارع إلى الحرية، كما يعبر بهذا فقهاء الإسلام.

سؤال: ماذا لو امتنع السيد فلم يجب المملوك إلى طلب مكاتبته؟

الجواب: لو امتنع السيد فلم يجب المملوك إلى طلب مكاتبته قضى عليه بها، وألزمه الإمام أو نوابه في تنفيذ قانون الشريعة بإجابته إلى طلبه، ولو مات السيد نفذ ذلك من تركته وألزم به الورثة، أخذا بظاهر الأمر في قوله تعالى: ﴿ كاتبوهم ﴾ وصيغة الأمر عند الإطلاق تفيد الوجوب، وأخذا بما ثبت عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه ألزم أنس بن مالك رضي الله عنه مكاتبة

---

(١) حقائق الإسلام وأباطيل خصومه عباس محمود العقاد ص ١٦١ ، ١٦٢ بتصرف

(٢) رواه البخاري (٣) منجماً : أي مفرقاً .

(٤) سورة النور الآية ٣٣ .

مولاه سيرين والد الإمام محمد ابن سيرين أحد سادة التابعين وأئمة الإسلام، فقد طلب سيرين من سيده أنس رضى الله عنه مكاتبته فأبى عليه، فرفع أمره إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه، فأمر عمر أنساً بمكاتبته وألزمه بها وقال له : لتكاتبنه ورفع عليه درته مهدداً وضربه بها، وتلا عليه قوله تعالى : ﴿ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ﴾ فكاتب أنس مولاه سيرين، وأدى سيرين كتابته وعتق بذلك.

قال الإمام داود الظاهرى : ما كان لعمر رضى الله عنه أن يهدد أنساً ويرفع عليه الدرة ويضربه بها فى أمر مباح له ألا يفعله، ولم يجب عليه فعله.

• معونة السادة عبيدهم على التحرر بمساعدتهم من مالهم

وكما يجب على السادة إجابة طلب المملوك المكاتبة، قيل بوجوب إعانتهم فى مال المكاتبة، وذلك بأن يعطوهم شيئاً من مالهم الخاص يستعينون به علي أداء ما وجب عليهم لتحريرهم، أو أن يحطوا عنهم شيئاً مما كاتبوهم عليه».

قال بعض السلف : يُحط على المكاتب ثلث ما كوتب عليه، وهو قول ابن مسعود رضى الله عنه .

وقال بعضهم : يُحط عنه ربع ما كوتب عليه، وهو مذهب على بن أبى طالب كرم الله وجهه، فقد روى عنه من طريق صحيح أنه كاتب غلاماً على أربعة آلاف، فوضع ربعها .

وقيل : يوضع عنه جزء من غير تحديد، قل أو كثر، ومال إلى هذا الإمام الشافعي، وعنده وعند أصحابه أن السيد يجبر على هذه الوضيعة ويحكم بها على الورثة إن مات السيد قبل نفاذها.

والأكثر من ذلك أن الإجماع قائم على أن معاونة السادة للمكاتبين مطلوبة للشارع طلباً مؤكداً، ويدل له حديث عمر بن الخطاب رضى الله عنه، فقد روى الأئمة أنه كاتب غلامه، فقال له عمر كم تعرض؟

فقال الغلام : مائتى أوقية.

قال : فكاتبنى عليها ولم يستزدنى، وأراد أن يعجل لى من ماله طائفة فأرسل إلى حفصة أم المؤمنين رضى الله عنها : إنى كاتبت غلامى فأردت أن أعجل له طائفة من مالى فأرسلى إلى بمائتى درهم إلى أن يأتينا بشىء، فأرسلت بها إليه، وأخذها عمر بيمينه وقرأ هذه الآية﴿ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ ﴾ فخذها فبارك الله لك فيها.

قال غلام عمر : فبارك الله لى فيها، عتقت منها، وأصبت خيراً كثيراً.

وهذه المعاونة من السادة للمكاتب واجبة - كما ذهب إليه الإمام الشافعي وأصحابه - والوجوب ظاهر القرآن بمقتضى مطلق الأمر فى قوله تعالى :﴿ وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ ﴾.

ولشدة تشوف الإسلام إلى الحرية لم يكتف بمطالبة السادة بمعاونة المكاتبين، بل ندب عامة المؤمنين إلى هذه المعاونة أخذاً من عموم الخطاب فى قوله تعالى :﴿ وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ ﴾ فهو بالنسبة للسادة واجب، وبالنسبة إلى عامة المؤمنين مندوب إليه مرغب فيه، ويدل لهذا الندب حديث على فى مؤذنه، فقد حض الناس أن يتصدقوا عليه، فتصدقوا.

وأظهر منه فى الدلالة وأقوى حديث بريرة المشهور، فقد روى البخارى عن عائشة رضى الله عنها قالت : إن بريرة جاءت فقالت : إنى كاتبت أهلى على تسع أواق كل عام أوقية، فأعينيني.

فقالت عائشة رضى الله عنها : إن أحب أهلك أن أقضى كتابتك ويكون لى ولاؤك فعلت.

فذكرت ذلك بريرة لأهلها فأبوا، وقالوا : إن شاءت أن تحتسب عليك فلتفعل، ويكون ولاؤك لنا.

فذكرت ذلك عائشة لرسول الله ﷺ، فقال لها : « ابتاعى فأعتقى فإنما الولاء لمن أعتق».

ثم قام رسول الله ﷺ فى الناس فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : «أما بعد :

ما بال رجال يشترطون شروطاً ليست فى كتاب الله، فأيما شرط ليس فى كتاب الله فهو باطل ولو كان مائة شرط ».

ومثل حديث بريرة حديث عتق سلمان الفارسى، فقد قال له النبى ﷺ « كاتب» فكاتب وأعانه النبى ﷺ.

ومن هذا الباب جويرية بنت الحارث أم المؤمنين فى مكاتبتها واستعانتها بالنبى ﷺ، فأدى عنها وأعتقها ثم تزوجها .

وذهب بعض الأئمة إلى أن معاونة المكاتبين واجبة فى بيت مال المسلمين أخذا من ظاهر قوله تعالى :﴿ وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ ﴾ فالخطاب على هذا الرأى

موجه إلى ولاة الأمر بقرينة قوله ﴿ مَّالِ اللَّهِ ﴾ فالمال كله وإن كان يطلق عليه فى أى حال مال الله، لكن العرف خصص هذا الإطلاق بالمال العام .

ومن عظمة هذا التشريع الرحيم أن بعض أئمة السلف ذهب إلى أن المكاتب يعتق ويكون حراً بمجرد عقد الكتابة ولو لم يؤد شيئاً من نجومها، ولا يرجع إلى «الرق» أبداً ولو عجز عن الأداء، وتكون نجوم الكتابة ديناً عليه، ويكون بذلك غريماً، يثبت له حق فى نصيب الغارمين فى مصارف الزكاة.

وذهب بعض السلف إلى أن المكاتب يعتق ويتحرر بأداء أول نجم عليه قل ذلك أو كثر ويكون بالباقى غريماً، وهذا مروى عن على كرم الله وجهه.

ومن أوسع نوافذ الحرية ما ورد فى الحث على العتق والترغيب فيه باعتباره من أعظم القربات إلى الله تعالى ما ورد من النصوص فى ربطه بأجزل الثواب وأوفى الجزاء.

ومن أجمل وأحسن صور هذا الترغيب أن الإسلام يرى أن عتق الرقبة : أى رقبة، مؤمنة، أو غير مؤمنة، عمل من أفضل الطاعات، بل إن الإسلام يرى أن أفضل الرقاب أغلاها ثمناً وأغلاها قيمة، وأعزها على أهلها، وأنفسها لديهم، ولو كانت غير مؤمنة، لأن الإسلام ينظر إلى تحقيق الحرية الإنسانية، فعن أبى ذر رضى الله عنه قال : سألت النبى ﷺ أى العمل أفضل؟

قال : «إيمان بالله، وجهاد فى سبيله».

قلت : فأى الرقاب أفضل؟

قال : «أغلاها ثمناً، وأنفسها عند أهلها»[1].

ومن أجلِّ هذه النوافذ أثرا فى الترغيب فى العتق، ما ورد من عظيم الثواب لمن أعتق رقبة مخلصاً لوجه الله تعالى ، روى الطبرى عن أبى نجيح قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «أيما مسلم أعتق رجلاً مسلماً فإن الله جاعل وفاء كل عظم من عظامه عظماً من عظام محرره من النار، وأيما امرأة مسلمة أعتقت امرأة مسلمة فإن الله جاعل وفاء كل عظم من عظامها عظماً من عظامها من النار».

وعن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال :«من أعتق رقبة مسلمة أعتق الله بكل عضو منه عضواً من النار حتى فرجه بفرجه»[2].

---

(١) رواه البخارى .

(٢) متفق عليه .

وعن أبى أمامة أن النبى ﷺ قال: «أيما امرئ مسلم أعتق امرأتين مسلمتين كانتا فكاكه من النار يجزى كل عضو منهما عضواً منه، وأيما امرأة مسلمة أعتقت امرأة مسلمة كانت فكاكها من النار يجزى بكل عضو من أعضائها عضواً من أعضائها»[1].

وفى حديث عمرو بن عبسة رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال: «من أعتق نفساً مسلمة كانت فديته من النار».

وفى حديث واثلة بن الأسقع قال: أتينا رسول الله ﷺ فى صاحب لنا قد أوجب بالقتل - أى قد استحق دخول النار لارتكابه جريمة قتل- فقال ﷺ: «اعتقوا عنه يعتق الله بكل عضو منه عضواً من النار»[2].

وعن سعيد بن مرجانة صاحب على بن حسين زين العابدين قال: قال لى أبو هريرة رضى الله عنه، قال النبى ﷺ: «أيما رجل أعتق امرءاً مسلماً استنقذ الله بكل عضو منه عضواً من النار».

قال سعيد بن مرجانة: فانطلقت حين سمعت الحديث من أبى هريرة إلى على بن حسين فحدثته به فقال: أنت سمعت هذا من أبى هريرة؟ قلت: نعم.

فعمد على بن حسين رضى الله عنهما إلى غلام له يدعى مطرفاً كان قد أعطاه فيه عبد الله بن جعفر عشرة آلاف درهم، أو ألف دينار، فأعتقه وقال له: اذهب فأنت حر لوجه الله»[3].

ومن نوافذ الحرية فى الإسلام عتق المستولدات بمجرد ولادتهن من سادتهن، فيصرن حرائر بالولادة.

ومن نوافذها عتق أى مملوك كان شركة بين اثنين أو أكثر، وحرر أحد الشركاء نصيبه فإن المملوك يعتق كله ويصير حراً، ويقوم على من أعتق نصيبه منه قيمة عدل، ويدفع لشركائه قيمة أنصبائهم، فقد روى أن رجلاً أعتق شقصاً[4] له من مملوك فرفع ذلك للنبى ﷺ فجعل خلاصه عليه فى ماله، وقال: «هو حر كله ليس لله شريك».

(١) رواه الترمذى فى صحيحه.

(٢) رواه أبو داود والنسائى.

(٣) رواه البخارى.

(٤) الشقص: النصيب «لسان العرب».

ومن نوافذ الحرية أن السيد إذا ضرب عبده ضرباً مبرحاً، أو مثل به، أو لطمه على وجهه، عتق عليه وكان ولاؤه للمسلمين، وكانت نصرته واجبة على كل مسلم،

روى أن رجلاً جاء إلى النبى ﷺ صارخاً، فقال له: «مالك؟».

قال: رآنى سيدى أقبل جارية له فجبنى.

فقال النبى ﷺ: «عَلَيَّ بالرجل».

فطلب فلم يقدرعليه .

فقال رسول الله ﷺ: «اذهب فأنت حر».

قال الرجل: على من نصرتى يا رسول الله ؟

فقال رسول الله ﷺ: « على كل مؤمن أو مسلم» [١].

وعن أبى مسعود الأنصارى قال: كنت أضرب غلاماً لى فسمعت قائلاً من خلفى يقول: «أعلم أبا مسعود، أعلم أبا مسعود»

فالتفت فإذا أنا برسول الله ﷺ فقال: «لله أقدر عليك منك عليه».

قلت: يارسول الله هوحر لوجه الله .

فقال: «لو لم تفعل للفحتك النار» [٢].

ومن عظمة الإسلام أنه يحرم تحريماً قاطعاً التفريق بين ذوى القرابة القريبة من الأسرى والسبايا ويوجب اجتماعهم فى رعاية واحدة، وكفالة واحدة، فعن أبى أيوب رضى الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من فرق بين والدة وولدها فرق الله بينه وبين أحبته يوم القيامة» [٣].

قال الترمذى: والعمل على هذا عند أهل العلم من أصحاب النبى ﷺ وغيرهم كرهوا التفريق بين السبى، بين الوالدة وولدها، وبين الولد والوالد، وبين الإخوة.

كل هذا يصور مقدار حرص الإسلام والمسلمين على تحقيق الحرية للذين حرموا منها لأسباب لا مدخل لأصل التشريع فيها.

---

(١) رواه ابن ماجة وأبو داود.

(٢) رواه البخارى .

(٣)

• **نصيحة غالية**

ينبغي لمن أراد أن يشتري مملوكاً أن يحسن النية في شرائه، ويعزم على التخفيف عنه والإحسان إليه، ولا يشتريه إلا وهو في رأيه صالح له، دون أن يرضاه غيره له، وهو لا يرضاه لنفسه.

إذا اشترى مالك مملوكاً أخذ بناصيته فقال: اللهم إني أسألك من خيره وخير ما جبل عليه، وأعوذ بك من شره وشر ما جبل عليه، فإن ذلك مروى عن النبي ﷺ، والأخبار والآثار في هذا الباب كثيرة [١].

فإذا أصاب العبد حداً قريباً، أو شرب خمراً، أو سرق، أو قذف أقام سيده عليه الحد، لقول النبي ﷺ: «أقيموا الحد على ما ملكت أيمانكم» [٢].

وموضوع الحدود مفصل في كتب الفقه فليرجع إليها.

ونختم بهذا الحديث النبوي الشريف: روى عن أنس بن مالك عن النبي ﷺ أنه قال: «مازال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه.

ومازال يوصيني بالنساء حتى ظننت أنه سيحرم طلاقهن.

ومازال يوصيني بالمماليك حتى ظننت أنه سيجعل لهم مدة إذا انتهوا إليها عتقوا.

ومازال يوصيني بالسواك حتى خشيت أن يحفى فمي - وروى حتى كاد -

ومازال يوصيني بقيام الليل حتى ظننت أن خيار أمتي لا ينامون ليلاً» [٣].

• **كلمة لأولى الألباب**

هذا كله في حق المملوكين الذين هم في درجة أقل من الأحرار اهتم بهم الإسلام وضمن لهم:

طعاماً يناسب حالة من يملكونهم وكذلك الكسوة.

مراعاة شعورهم الآدمي، فلا يقول: «عبدى وأمتي»، ولكن «فتاى وفتاتي».

مراعاة قوتهم وطاقتهم المادية فلا يكلفون مالا يطيقون، وإلا وجبت إعانتهم،

ومن ضُرب منهم بغير سبب فكفارة ضربه إعتاقه، وضياع ثمنه على من ضربه.

هم إخوانكم جعلهم الله تحت إمرتكم وفضلكم عليهم بسبب ذلك فقط.

---

(١) المرجع السابق ٣ / ٢٧١، ٢٧٢. (٢) لم أجد هذا النص في الكتب التسعة (الحليمي).

(٣) ذكره أبو الليث السمرقندي في تفسيره (القرطبي ٥ / ١٩٢).

فماذا نال الخدم الأحرار من مخدوميهم فى عصر الحرية والمدنية، وكيف ينظر إليهم المخدومون، وكيف يعاملونهم؟

إ ن الأكثرية منهم تسحق سحقاً فى خدمة المخدومين،وتهدر كرامتها وإنسانيتها، وتستنفذ كل طاقتها حتى تصاب بالمرض والهزال، وذلك بسبب ما تلقى من قسوة المخدومين الذين لا شعور لهم، ولا إنسانية ولا دين ولا خلق، فضلاً عن ضآلة أجورهم، خصوصاً إذا كانوا صغاراً.

لا يطعمونهم ما يكفيهم، فى الوقت الذى يلقون فيه ببقايا الأطعمة فى المزابل، ويختارون لهم أردأ الملابس نوعاً ومظهراً، ويلزمونهم بالعمل من الفجر إلى ما بعد العشاء بدون أدنى راحة، ويحملونهم ما لا يطيقون من الأعمال الشاقة لهم ولأولادهم، وينيمونهم فى زمهرير الشتاء على بلاط الصالة أو الفناء معزولين بشكل ممقوت.

ويسمعونهم أسوأ الشتائم وأقذرها، ويضربونهم لأهون سبب ضرباً شديداً لا تحتمله الحيوانات .

إن مرضوا لا يرحمون مرضهم.

وإن ضعفوا لا يفكرون فى سبب ضعفهم.

وإن زارهم أب لهم أو أم احتقروا الزائر وضاقوا به وأهانوه.

لم يرحموا فيهم أخوتهم الإسلامية والإنسانية .

لم يرحموا فيهم فقر ذويهم وحاجتهم وإلا ما سمحوا لأولادهم بخدمة غيرهم

لم يرحموا صغرهم، ولا ضعفهم، ولا حاجتهم وذلهم، إنهم وحوش تفترس صغارها وضعافها، وليس ذلك طبع الحيوان الوحشى، إنما هو فقط طبع الإنسان الوحشى.

إن هؤلاء طردوا نعمة الله وكفروا بها، ولو كان للخادم أب يُخْشَى ما أذلوه وأهانوه، ولو كان هناك قانون لحماية الخدم ما أقدم المخدومون عى مثل هذه الأفعال الخسيسة.

لو كانت الخادم تعيش بجوار أبيها أو أمها لهان الأمر، ولوجدت من يواسيها، ولكن الأغلب أن ينقل الخدم إلى بلاد نائية، فيحرمون عطف الأب والأم، كما يحرمون الملاذ الذى يلوذون به، والموئل الذى يشكون إليه.

إنه لولا الفقر والحاجة ما كانت ابنة فلان خادماً لفلان أو فلانة .

ولو افتقر المخدوم لربما صار حال أولاده كحال خادمه أو أسوأ .

يالها من أخلاق ساقطة ، وإنسانية متوحشة ، وحياة يركب فيها إنسانٌ إنساناً ،ويُشقى المرء فيها أخاً مثله أو مثل أبنائه وبناته ، ثم لا يهتم. يكفى هؤلاء جميعاً حديث واحد [1] : « من لا يرحم لا يرحم».

• أعجب من العجب

لقد كان لهذه الرعاية الإنسانية مظهر إسلامى آخر هو أعجب من العجب جعل بعض الأكابر من أصحاب رسول الله ﷺ يتمنون أن يكونوا مماليكَ يموتون على ذلك لأنهم سمعوا رسول الله ﷺ يرفع منزلة المملوك الصالح المطيع لله تعالى، الناصح لمولاه فوق منزلة الحر الصالح المطيع لله تعالى، فعن عمر رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : إن العبد إذا نصح لسيده وأحسن عبادة ربه كان له أجره مرتين»[2] .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : « للعبد المملوك المصلح أجران» [3] والذى نفس أبى هريرة بيده لولا الجهاد فى سبيل الله والحج وبرأمى لأحببت أن أموت وأنا مملوك » .

قال الإمام أبو عمر يوسف بن عبد البر فى بيان حكمة هذه المنزلة التى رفع الله إليها المملوك فجعله فوق منزلة الحر : معنى هذا الحديث عندى : أن العبد لما اجتمع عليه أمران واجبان :

أ - طاعة ربه فى العبادات ب - طاعة سيده فى المعروف .

فقام بهما جميعاً كان له ضعف أجر الحر المطيع بطاعته لأنه قد ساواه فى طاعة الله ، وفضل عليه بطاعة من أمر الله بطاعته .

وأدق من ذلك وألطف ما ذهب إليه الإمام ابن حجر العسقلانى إذ بين سبب امتياز المملوك على الحر وذلك لأنه ساوى الحر فى طاعة الله تعالى وتميز بمعاناته مشقة الرق التى لا تعدلها مشقة فإذا احتُملتْ بالصبر الجميل والقيام فيها بحقها إلى جانب القيام بحق الله تعالى فى عبادته والإخلاص له كانت حريّةً أن ترفع منزلة صاحبها إلى أعلى منازل المقربين،

---

(١) السلوك الاجتماعى فى الإسلام للشيخ حسن أيوب ص ٢٨٨ ، ٢٨٩ .

(٢) رواه البخارى (٣) رواه البخارى ومسلم واللفظ لمسلم

يقول ابن حجر : وهذا - عندنا - من باب «إن أكرمكم عند الله أتقاكم» [1] فالمملوك الصالح الذى نصح لسيده وأدى طاعة ربه ، أتقى لله تعالى من الحر الذى أدى طاعة ربه ، فهو أكرم عند الله منه بما أثبت له النبى ﷺ من مضاعفة أجره مرتين»

• فتح أبواب الحياة الفكرية أمام الجميع

لقد فتح الإسلام أبواب الحياة الفكرية أمام الأحرار والعبيد على قدم المساواة فدخلوا ساحتها ، وكان حظ المماليك فيها أكثر - رغم عدم تفرغهم وعندهم ما يشغلهم من أمور الحياة أكثر من الأحرار - لكن حب التطلع إلى تعويض ما فاتهم جعلهم يتواثبون إلى دور المجد العلمى ، فكانوا قادة الفكر الإسلامى ، وموجهى نهضة العلوم والمعارف فى مجتمع الإسلام ، وأصبحت لهم السيادة العقلية والروحية ، لا تصدر الأمة أمورها إلا عن رأيهم واجتهادهم .

وقد عرفت لهم أمتهم الإسلامية هذا فقدرته حق قدره ، وأعزتهم به وأكرمتهم وأعلت منازلهم ، ومنحتهم ثقتها فأخذت دينها وتشريعها عنهم ، ولو لم يكن لهم الفضل إلا أنهم كانوا - فى أكثر الأمر - هم الناقلين لعلم الصحابة إلى ما بعدهم لكفاهم فى دنيا الفخر عن كل فخار» [2] .

ونقول : إذا كان السيد قد خوطب بالإحسان إلى مملوكه ، فإن المملوك كذلك مخاطب بأن لا يعامل سيده بالغيظ والضجر ، ولايرى أنه باسترقاقه ظالم له مسرف عليه ، ويؤدى إليه ماله عنده من الحقوق ، لا يبخسه شيئاً منها ، وعليه أن يعلم أن تقصيره فيما أوجب الله تعالى لسيده ليس بأدنى من يجامل سيده عليه واحدة بما لم يوجبه عليه » [3] .

وبعد : فنقول :

أ - العتق هو الذى شرعه الإسلام فى أمر الرق . وأما نظام الرق بأنواعه فقد وجده مشروعاً فحرمه جميعاً ، ولم يبح منه إلا ما هو مباح إلى اليوم فى نظام الأسرى وتسخيرهم فى أعمال من يأسرونهم من المتقاتلين. وسبق القوانين الدولية بتقريره إلزام الدولة واجب السعى فى إطلاق أسراها وإعتاقهم بالفداء ، وشفع ذلك بالوسائل الفردية فيما تنتقل به الذمة إلى الأفراد من مالكى الأرقاء بعد وفاء الدولة بذمتها .

---

(١) الموسوعة فى سماحة الإسلام للشيخ محمد الصادق عرجون ٢ / ١١٠٩ - ١١١١ بتصرف .

(٢) المرجع السابق ٢ / ١١١١ ، ١١١٢ . (٣) المنهاج فى شعب الإيمان للحليمى ٣ / ٢٧٥ بتصرف.

ولا يقال هنا انه عمل كثير أو قليل، بل يقال إنه العمل الوحيد الذى استُطيع في محاربة نظام الرق ولم تستطع أمم الإنسانية ما هو خير منه في علاج هذه المسألة إلى الآن [1].

ب – هذه هي نظرة الإسلام إلى الرق، لم يأمر به، ولم يرغب ولا يرغب فيه، ولكنه قبله مضطرا إليه اضطرارا، ووضع له من النظم في منبعه الذى وجده في أعدل صورة، وفي حياته التي رسم خطوطها وفي إحسان معاملته، وفي التلطف به ورعايته، ما بلغ به أعلى منازل الكرامة حتى فضل المماليك على سائر الأحرار، وفتح لهم نوافذ الحرية حتى كادت لا تُبقي للرق أثراً، وفتح لهم باب الحياة الفكرية حتى أصبحوا سادة المجتمع الإسلامي في علومه ومعارفه وتشريعه [2].

وهكذا نرى أن الإسلام قد واجه الرق مضطراً وعالجه حاسماً، فلم يقف أمام هذا الشذوذ الإنساني باعتباره شراً لابد منه موقفاً سلبياً، ينتظر ما عسى الا يكون أبدا من تهذيب الطبائع البشرية تهذيباً يغير غرائزها المسيطرة على تصرفاتها واتجاهاتها في الحياة

ولكنه واجه هذا الموقف الذى اصطدم به في مطلع حركته الإيجابية بموقف عملي عالج به هذا الشذوذ الإنساني وبدأه :

أولاً : بالقضاء نظرياً وتشريعياً على «الرق» قضاء مبرماً، وإلغائه إلغاء تاما، وإبطاله إبطالاً كاملاً، في منابعه الباغية ومصادره الظالمة، فحرمه تحريماً قاطعاً، وشدد في الزجر عنه، والوعيد عليه بما لم يشدد بمثله في جريمة من الجرائم الإنسانية الأخرى [3]. قال ﷺ في الحديث الصحيح : «ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة، ومن كنت خصمه خصمته : رجل أعطى عهداً ثم غدر، ورجل استأجر أجيراً استوفى عمله وظلمه أجره، ورجل باع حرا فاسترق الحر فأكل ثمنه».

وهكذا نرى أن الإسلام قد قضى نهائياً على جميع المنابع الآثمة الباغية، وضيق الدائرة وقصرها على منبع واحد يعتمد على الضرورة الملجئة اضطرارا في حرب عادلة لرد العدوان ودفع الاعتداء، وتحريم ما سواه تحريماً قاطعاً مقروناً بالوعيد الشديد والتهديد المرعب والزجر المخيف .

---

(١) حقائق الإسلام وأباطيل خصومه – عباس محمود العقاد ص١٦٢

(٢) الموسوعة في سماحة الإسلام للشيخ عرجون ٢/ ١١١١، ١١١٢ بتصرف .

(٣) المرجع السابق ٢ / ١٠٤٤، ١٠٤٥ .

• **شروط الحرب الشرعية التى يكون أسيرها رقيقاً**

الحرب الشرعية التى يكون أسيرها رقيقاً لها شروط كثيرة منها :

١ - إن معلن الحرب يجب أن يكون الخليفة نفسه .

٢ - أن تكون حرباً دفاعية، أو تكون دفعاً للكيد ورداً على نكث العهد، أو أن تكون متعلقة بسلامة الدولة كإخماد الفتن، والقضاء على الخارجين، فإذا لم تنطبق كل الشروط سالفة الذكر على الحرب فإن أسيرها لا يسترق .

ولم يقف الأمر بحكمة الإسلام فى رقيق الحرب عند هذا الحد الذى يعتبر عادلاً، بل إن الإسلام لا يجعل الرق نتيجة حتمية للأسر، فللخليفة أو الإمام أن يطلق سراح الأسرى دون مقابل، أو مقابل فدية أو جزية أو عمل يؤدونه .

وهكذا يكون الإسلام بحكمته وسماحته قد قضى على أحد النوعين من الرق اللذين أبقى عليهما .

يتبقى لون أخير من الرق هو رق أبناء الإماء، وهذا النوع قد هذبه الإسلام فبعد أن كان ابن الأمة يولد رقيقاً مهما كان أبوه، حرر الإسلام أبناء الإماء من سادتهن، ومادامت الأمة قد أصبحت أما لولد حر فإن ذلك يحسن وضعها ويقربها شيئاً فشيئاً إلى الحرية .

إلى هذا الحد يكون الإسلام قد قضى فى حكمة بالغة على جميع انواع الرق إلا رق الوراثة فقد هذبه ، أو كما يقول الأستاذ الدكتور / على عبد الواحد :

أقره فى صورة تؤدى هى نفسها إلى القضاء عليه بالتدريج دون أن يحدث ذلك أى أثر فى نظام المجتمع ، بل دون أن يشعر أحد بتغير مجرى الحياة[1] .

• **حق السادة على المماليك**

إذا كان الإسلام فى تشريعاته قد أوصى السادة على المماليك وشدد فى الوصية، وأمر بالإحسان إليهم كما قدمنا، فليس معنى ذلك أن السادة ليس لهم حقوق على من جعلهم الله تحت أيديهم، بل لهم حقوق منها :

لزوم العبد سيده فى إقامته حيث يراه له ويأمره به، وطاعته له فيما يطلب .

---

(١) إسلام بلا مذاهب .د. مصطفى الشكعة ص ٧٦، ٧٨ .

جعل سيده أحق به منه بنفسه في أمور كثيرة، فإذا استعصى العبد على سيده، فإنما استعصى على الله عز وجل لأنه هو الحاكم عليه بالملك لسيده، والسالب إياه ما كانت من الحقوق في نفسه، قال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ﴾[1].

وقال جل شأنه: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾[2].

فالعبد إذا أبق[3] من سيده واستعصى عليه ونزع نفسه من طاعته فلم يسلم لأمر الله عز وجل وحكمه، وحكم رسول الله ﷺ، فإن ذلك يعد إخلالاً منه.

وقد قطع الله من العبد حقوقاً هي في نفس الوقت مثبتة للحر، الملك فإنه لا يملك أصلاً، ولا يتزوج أربعاً، ولا ينكح بغير إذن سيده، ولا يأتي الجمعة إلا بإذن سيده، ولا يجاهد إلا بإذن سيده، ولا يحج إلا بإذن سيده، ولا يقبل منه إلا بإذن سيده، ولا توصى له وصية إلا بإذن سيده، وإن جنيت عليه جناية عمد وجب مثلها القصاص، فالأمر في ذلك إلى سيده دونه، وإن زوجه وهو صغير لزمه النكاح، وإن يزوجه كبيراً بغير إذنه، فقد اختلف فيه، وجعل له أن يستخدمه ويخدمه غيره وهو كاره، وأن يتبع خدمته، ويسافر به وهو لا يعرف قصد سيده، فيصير مسافراً بسفره، يقصر بقصره، ويفطر بفطره، وغير ذلك

والعبيد والإماء أمناء سادتهم على أنفسهم وما تحت أيديهم، فأى شيء خانوا سادتهم فهم فيه كسائر الأمناء إذا خانوا، غير أن خيانتهم في نفوسهم الإباق[4]، أو في منافع أبدانهم بمنع الخدمة، وإظهار العصيان أقطع. قال النبي ﷺ: «كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته»[5].

فالعبد راع على مال سيده، وهو مسئول عنه، وإذا خان كان مسئولاً عما في يده من مال سيده، فإذا كان مسئولاً عن نفسه، فمال سيده أولى وأحق.

---

(١) سورة الأحزاب الآية ٣٦ .

(٢) سورة النساء الآية ٦٥ .

(٣) أبق : هرب .

(٤) الإباق : الهرب.

(٥) رواه البخاري في صحيحه العتق .

وكما وصى النبى ﷺ المالكين بالمملوكين وبين أنهم إن حبسوا حق المملوكين كان عليهم من الإثم بقدره، فقد وصى المملوكين وعرفهم حقوق المالكين وبين لهم ما يستحقون من أجر إن قاموا بواجبهم، وما عليهم من وزر إن قصروا،

وقال ﷺ : « كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته، فالأمير الذى على الناس راع وهو مسئول عنهم، والرجل راع على أهل بيته وهو مسئول عنهم، والمرأة راعية على بيت بعلها وولده وهى مسئولة عنهم، وعبد الرجل راع على مال سيده، وهو مسئول عنه ، ألا كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته »[1].

• **المساواة فى الإسلام**

لعل من أسمى مبادئ الإسلام تلك المساواة التى قد اشترعها للناس جميعاً: فالكل سواء، لافرق بين أبيض أو أسود، ولا أصفر أو أحمر، ولا غنى ولا فقير. ولا ملك ولا حقير، وإنما أفضل الناس أقربهم إلى التقوى وأفعلهم للخير.

ويسجل القرآن الكريم هذا الدستور الرائع فى قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾[2].

وفى قوله تعالى: ﴿ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (١٢٣) وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴾[3].

ويؤكد الرسول الكريم هذه المساواة المطلقة بين الناس جميعاً من كل لون وجنس فى قوله الشريف: «الناس سواسية كأسنان المشط لافضل لعربى على أعجمى إلا بالتقوى»[4].

فالإسلام ممثلاً فى شريعته السمحة يؤكد احترام الناس وضمان حريتهم

---

(١) رواه البخارى فى صحيحه العتق ١٧، ١٩.
انظر المنهاج فى شعب الإيمان للإمام الحسين بن الحسن الحليمى ٣ / ٢٧٣-٢٧٥ بتصرف.

(٢) سورة الحجرات الآية ١٣ .

(٣) سورة النساء الآيتان ١٢٣، ١٢٤ .

(٤) سبق تخريجه.

وتقديس إنسانيتهم بوقوفهم أمام القانون سواء، لا يفضل أحدهم الآخر إلا باحترامه للقانون وإقدامه على فعل الخير وبعده عن الشر والإثم.

ويؤكد هذه المساواة ألا شفاعة لمجرم وألا تغاضى عن آثم، وقد أراد أسامة بن زيد وقد تربى فى بيت الرسول ﷺ وكان قريباً إلى قلبه أن يشفع لفاطمة بنت الأسود المخزومية، وكانت قد ضبطت متلبسة بجريمة السرقة فغضب النبى ﷺ وأنكر الشفاعة ووجه الحديث إلى أسامة بن زيد فى غضب: «أتشفع فى حد من حدود الله؟».

ثم قام النبى بعد ذلك فخطب الناس قائلاً: «إنما أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق الشريف تركوه، وإذا سرق الضعيف أقاموا عليه الحد، وايم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها»، فكانت هذه الحادثة أول تأكيد لتشريع المساواة بين الناس جميعاً، وليس من شك فى أن المساواة أساس العدالة فى المجتمع.

وعمر بن الخطاب الخليفة العادل يؤكد هذا المعنى فى أول خطبة خطبها وقد ولى أمر المسلمين؛ لأنه يعلم أنه حيث تفتقد المساواة تفتقد العدالة، وحيث تفتقد العدالة ينهار والمجتمع، يقول عمر: «أيها الناس إنه والله ما فيكم أحد أقوى عندى من الضعيف حتى آخذ الحق له، ولا أضعف عندى من القوى حتى آخذ الحق منه».

وتطبيقاً لهذه القاعدة العظمى ما حدث لجبلة بن الأيهم الملك الغسانى وقد دخل الإسلام وجاء إلى مكة فى خمسمائة فارس من قومه وقد لبسوا ثياب الوشى المنسوجة من الذهب والفضة، وفى أثناء الطواف بالبيت العتيق داس رجل من فزارة على إزار جبلة فحله، فالتفت إليه جبلة مغضباً فلطمه فهشم أنفه.

ذهب الفزارى إلى عمر بن الخطاب شاكياً فبعث عمر إلى جبلة وسأله عن سر اعتدائه على الفزارى، فأجاب جبلة قائلاً: إنه وطئ إزارى فحله، ولولا حرمة هذا البيت لأخذت الذى فيه عيناه.

فقال عمر : أما أنت فقد أقررت ، إما أن ترضيه وإلا أقدته منك .

قال جبلة : أتقيده مني وأنا ملك وهو سوقة؟

قال عمر : يا جبلة إنه قد جمعك وإياه الإسلام فما تفضله بشيء إلا بالعافية .

قال جبلة : والله لقد رجوت أن أكون في الإسلام أعز مني في الجاهلية .

قال عمر : دع عنك هذا .

قال جبلة : إذن أتنصر

قال عمر : إن تنصرت ضربت عنقك .

قال جبلة : أخرني إلى غد يا أمير المؤمنين، فأجابه عمر إلى طلبه .

فلما كان الليل هرب هو وفرسانه وظلوا يضربون في الأرض حتى دخلوا القسطنطينية فتنصروا وعاشوا في حماية هرقل، وبعد مدة من الزمان حن جبلة إلى الإسلام الذي سوى بين الناس وندم على فعلته وبكى قائلاً :

تنصرت الأملاك من خوف لطمة	وما كان فيها لو صبرتُ لها ضرر
تكنفني منهـــــا لجاج ونخوة	وبعت لها العين الصحيحة بالعور
فيــــا ليت أمي لم تلدني وليتني	رجعت إلـى القول الذي قاله عمر
ويا ليتني أرعـى المخـــاض بقفرة	وكنت أسيراً فـــى ربيعة أو مضر
ويا ليت لـــى بالشام أدنى معيشة	أجالس قومي ذاهب السمع والبصر [1]

ومن التطبيق العملي للمساواة في الإسلام قصة ابن عمرو بن العاص مع المصري وهي معروفة، فحين اعتدى ولد لعمرو بن العاص إبان حكمه مصر على أحد المصريين فهدده المصري بشكايته لأمير المؤمنين، فلم يأبه ابن عمرو لذلك وقال : أنا ابن الأكرمين.

(١) إسلام بلا مذاهب د. مصطفى الشكعة ٥٩- ٦٢ .

فلمـا كـان مـوسم الحج وقـد ذهب عـمـرو وابنه إلى مكة كـان المصـرى فى إثرهمـا، ودخل إلى الخليـفة وعنده عـمرو وولده، فـشكا إليـه مـا قد وقع عليـه وأعـاد على سـمع أمـير المؤمنين كلمة ابن الأكـرمين، فغـضب عـمـر بن الخطاب غضـباً شـديداً، ونظر إلى عمـرو قائلاً جمـلته الخالدة: «متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً» .

ثم ناول الشاكى سوطاً وقال له اضرب ابن الأكرمين كما ضربك [1] .

---

(١) المرجع السابق ص ٦٢ بتصرف.

الإحسان إلى الحاكم

من الإحسان إلى النفس الإحسان إلى الحاكم فهو : زمام الأمور، ونظام الحقوق، وقوام الحدود، والقطب الذى عليه مداد الدين والدنيا. به يمتنع حريمهم [١] ، وينتصر مظلومهم، وينقمع ظالمهم، ويأمن خائفهم.

وهو العمود، قال كعب الأحبار : مثل الإسلام والسلطان والناس، مثل : الفسطاط[٢] والعمود والأوتاد، فالفسطاط الإسلام، والعمود السلطان، والأوتاد الناس، ولا يصلح بعضها إلا ببعض [٣] .

وقال وهب بن منبه : فيما أنزل الله علي نبيه داود عليه السلام : «إنى أنا الله مالك الملوك، قلوب الملوك بيدى، فمن كان لى علي طاعة جعلت الملوك عليهم رحمة، ومن كان لى على معصية جعلت الملوك عليهم نقمة، فحق على من قلده الله أزمَّةَ حكمه وملَّكه أمور خلقه، واختصه بإحسانه ، ومكن له فى سلطانه، أن يكون من الاهتمام بمصالح رعيته ، والاعتناء بمرافق أهل طاعته، بحيث وضعه الله من الكرامة، وأجرى عليه من أسباب السعادة.

قال الله عز وجل : ﴿ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ (٤١) ﴾[٤] .

ومما لا شك فيه أن الحاكم هو ولى الأمر للأمة الذى يسعى لصلاحها، ويعمل على رفع شأنها، وتقوية أمرها، وقد وضع الله على عاتقه مسئولية ضخمة، وتبعة ثقيلة، حيث جعله فى موضع الولاية لأفراد الشعب كافة، فعليه أن يسوسهم بالمعروف، ويقودهم بالحكمة، ويجنبهم المتاعب، ويزيل من طريقهم المصاعب، ويرشدهم إلى الخير ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، ويدعوهم إلى الحق وإلى الطريق المستقيم [٥] .

---

(١) حريم الدار : ما حولها من المرافق والحدود. (٢) الفسطاط : الخيمة.

(٣) الموسوعة الذهبية د. فاطمة محجوب ٢٩ / ٤١٢، ٤١٣.

(٤) سورة الحج الآية ٤١ .

(٥) الأستاذ عبد الحفيظ فرغلى القرنى المسئولية فى الإسلام ص ١٢٩ .

• ما يجب على الحاكم معرفته

أول ما يجب على - الحاكم - أن يعرفه هو : أن يعرف قدر ما أنعم الله به عليه، ووصل من إحسانه إليه، وليعلم أن أعظم النعم وأعلاها، وأكرمها وأغلاها نعمة تشتمل علي مصالح الإسلام والمسلمين، وعمارة ثغور الموحدين، والنظر في أمور الرعية، وانتظام قوانين البرية، وذلك منوط بعبد يختاره الله عز وجل من عباده، ويُمكّنه في بلاده، ويودع فيه سره، ويعضد أمره ليرفع المظالم ويقمع الظالم، ويعين الملهوف ويصنع المعروف، ويجبر الكسير ويطلق الأسير، وينصف المظلوم من الظالم ويميز الجاهل من العالم، ويشمر عن ساق اجتهاده في حماية بيضة الإسلام وانتظام أمور الأنام، فإذا عرف ذلك وفهمه وتدبره وعلمه، فيجب عليه أن يقابل نعم الله تعالى بالشكر والطاعة والإحسان إلى الرعية، ونشر العدل وكف الظلم والجور، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإقامة حدود الله وإحياء سنة رسول الله ﷺ.

فإذا فعل ذلك أبقى الله عليه ما أعطاه، وكان له حافظًا ممن عاداه، وأعانه في الشدائد وتولاه، وذلك فضل الله.

وليعلم أن بالعدل ثبات الأمور وبالجور زوالها، وأسعد الملوك من بقي بالخير ذكره، وأمد به من يأتي من بعده.

وليعلم أن إصلاح الرعية خير من كثرة الجنود، وأن الأعمال لها جزاء فليتق العواقب، وأن القصاص حق لا محيد عنه، وأن الله يسأله عن كل كبيرة وصغيرة، وعما تقلده من أعمال بلاده وأحوال عباده، قال رسول الله ﷺ: «كلكم راع، وكل راع مسئول عن رعيته»[1].

فاعلم أن القلب راع والجوارح رعيته. والسلطان راع والعباد رعيته، وليحذر دعوة المظلوم فإن لها إجابة وهي عند الله بمكان، ولْيُجَاز المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته بمقتضى ما توجبه الشريعة الطاهرة والسياسة الظاهرة[2].

روى عن النبي ﷺ أنه قال : «السلطان ظل الله في أرضه يأوى إليه كل

---

(١) رواه البخاري

(٢) الموسوعة الذهبية للعلوم الإسلامية د. فاطمة محجرب ٢٩ / ٤١٤، ٤١٥.

مظلوم من عباده ، فإذا عدل كان له الأجر وعلى الرعية الشكر ، وإذا جار كان عليه الإصر ، وعلى الرعية الصبر » .

وفى الحديث : «ثلاث لا يرد دعوتهم ، الإمام العادل ، والصائم حين يفطر ، ودعوة المظلوم يرفعها فوق الغمام ويفتح لها أبواب السماء ويقول الرب تبارك وتعالى : وعزتى لأنصرنَّكَ ولو بعد حين» [١] .

وروى : «عمل الإمام العادل فى رعيته يوماً أفضل من عبادة العابد ستين سنة» [٢] .

وروى مائة سنة .

وعن علي رضى الله عنه : إمام عادل ، خير من مطر وابل [٣] .

وذلك لأن عدله يصلح العباد ويعمر البلاد ويدفع الفساد ، ويؤمن الخائف .

ولأن الناس على دين الملك ، فإذا عدل لزمت الرعية قوانين العدل ، فانتعش الحق وزهق الباطل ، وتناصف الناس ، وذهب الجور ، فترسل السماء بركاتها ، وتخرج الأرض نباتها ، فتكثر البركات وتنمو التجارات ، وتدر الأرزاق ، ويكثر الخير ، ويسهل المعروف ، صح عن النبى ﷺ أنه قال : «سبعة يظلهم الله تحت عرشه يوم لا ظل إلا ظله ، إمام عادل ، وشاب نشأ فى عبادة الله ...» [٤] الحديث .

• ما يجب على الحاكم تفصيلاً

إن وظيفة الدولة ممثلة فى حاكمها ومعاونيه هى : القيام على الدعوة الإسلامية ، وإقامة الشريعة الإسلامية ، وقيادة الأمة وفق هذه الشريعة ، وإذا شئنا التفصيل قلنا : إن مهمة الدولة الإسلامية متعددة الجوانب ، فمن ذلك :

١ - الدعوة إلى الله تعالى :

الدعوة إلى الله - تعالى - هى مهمة الرسل والأنبياء الذين هم خيرة الله من عباده ، وسفراؤه إلى خلقه ، وهى مهمة خلفاء الرسل وورثتهم من العلماء العاملين ، والربانين الصادقين ، وهى أفضل الأعمال بعد الإيمان بالله تعالى ، لأنق

---

(١) أخرجه الترمذى فى سننه وقد روى هذا الحديث بإسناد آخر عن أبى هريرة .

(٢) مجمع الزوائد ٥ / ١٩٧ .

(٣) [illegible] ملوك ص ٩٦ .

(٤) سبق تخريجه

ثمرتها هداية الناس إلى الحق، وتحبيبهم في الخير، وتنفيرهم من الباطل والشر، وإخراجهم من الظلمات إلى النور. ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٣٣) ﴾ [1].

والدعوة إلى الله هى الدعوة إلى دينه، واتباع هداه، وتحكيم منهجه فى الأرض، وإفراده - تعالى - بالعبادة والاستعانة والطاعة، والبراءة من كل الطواغيت التى تطاع من دون الله، وإحقاق ما أحق الله، وإبطال ما أبطل، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والجهاد فى سبيل الله.

وبعبارة موجزة : الدعوة إلى الإسلام خالصاً متكاملاً غير مشوب ولا مجزأ، ومثل هذه الدعوة إلى هذه المعانى ليست بالأمر الهين الذى يقابل بالإغضاء والسكوت، أو الموافقة والقبول.

وكيف تقبل هذه الدعوة العقول الجامدة، أو القلوب المريضة، أو القوى المتسلطة، أو الفئات التى أضلها الهوى، أو أغرقها حب الدنيا ؟ .

لهذا : كان لابد لهذه الدعوة من دعاة أقوياء [2] نقول فيهم :

هم العاملون بعلمهم، الورعون، الذين لا تأخذهم فى الله لومة لائم، الذين إذا ذكروا ما قاموا به من نصر دين الله والدعوة إليه استنارت المجالس، وأسفرت الوجوه، وارتاحت الأنفس، وقويت القلوب ونشطت الأبدان على الطاعات والعبادات، وود المستمعون المحبون للدين وأهله أن يزدادوا من أخبارهم وسيرهم، وذلك بما وهبهم الله من العلم الدينى، والتمسك به وآثاره الجليلة، وكانوا خير الناس بعد النبيين، وكانوا أشجع الناس ؛ لأنهم علموا أن الأجل لا يطيله الجبن، وكانوا أعتى العالم نفوساً، وأقواهم توكلاً على اللطيف الخبير ؛ لأنهم رضوا بقسمة مولانا العليم الحكيم، وكانوا محط رجال الكرم والجود ؛ لأنهم يعلمون أن البخل لا يرضى الله، وكانوا فى الحلم كالجبال الراسيات ؛ لأنهم عرفوا ما للحلم من مزايا فى الدنيا والآخرة.

لابد للدعوة الإسلامية العظيمة الشاملة من دعاة أقوياء، يتناسبون مع

---

(١) سورة فصلت الآية ٣٣.

(٢) د. يوسف القرضاوى ثقافة الداعية ص ٣.

عظمتها وشمولها، قادرين على أن يمدوا أشعة ضيائها فى أنفس الناس وعقولهم وضمائرهم بعد أن تشرق بها جوانحهم، وتستضىء بها حياتهم [١].

٢ - إقامة العدل فى المجتمع الإسلامى

وإقامة العدل فى المجتمع أوسع من تنصيب القضاة الذين يقيمون حكم الله فى الذين يتجاوزون حدود الله، كالذين يرتكبون الزنا ويسرقون ويشربون الخمر، ويرمون المحصنات الغافلات المؤمنات، وكذلك هم يحكمون بين الناس فيما اشتجروا فيه، فيقتصون للناس بعضهم من بعض، ثم إن الدولة مكلفة بأن تقيم العدل فى كل شعبة من شعب الحياة، وفق منهج الله فى الإنفاق من بيت المال، وفى إتاحة الفرص للناس جميعاً فى الوظائف والتجارة والصناعة، وغير ذلك.

والمتتبع للنصوص القرآنية والنبوية الآمرة بالعدل، والمتتبع لعناية الخلفاء والقضاة والولاة والأفراد بتحقيق العدل يحكم أن هذه الدولة دولة العدل، ويتأكد له أن عدلها لا يشوبه ظلم؛ لأن مقاييسها تنزيل من حكيم حميد [٢].

٣ - حراسة العقيدة وتنفيذ الشريعة

إذا امكن الله للمسلمين فى الأرض فعلى ولاة الأمر القيام بحراسة العقيدة بحيث لا تصيبها لوثة الشرك، ولا تتخللها الخرافة.

والدولة الإسلامية كانت راعية للعقيدة، منفذة للشريعة، فكان ذلك من أسباب التمكين للأمة [٣]، قال تعالى: ﴿ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ (٤١) ﴾ [٤].

٤ - الجهاد فى سبيل الله

وذلك بإعداد القوة الحربية المناسبة للعصر، من إقامة المصانع، وتدريب المقاتلين، وغرس حب القتال فى النفوس، قال تعالى: ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ﴾ [٥].

---

(١) المرجع السابق ص ٣.

(٢) د. عمر سليمان الأشقر، نحو ثقافة إسلامية أصيلة ص ٣٣٣، ٣٣٤ بتصرف.

(٣) المرجع السابق ص٣٣٤.

(٤) سورة الحج الآية ٤١.

(٥) سورة الأنفال الآية ٦١.

والغاية من الجهاد قلع جرثومة الفساد من الأرض، وذلك بإزالة الأنظمة التى تقف فى وجه انتشار الدعوة الإسلامية، وتفتن المسلمين عن دينهم وعقيدتهم وبذلك تكون كلمة الله العليا، قال تعالى : ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝ ﴾ [1] .

ومن أهداف الجهاد حماية الأمة المسلمة، وإنقاذ المستضعفين فى الأرض، والانتقام من أعداء الله الذين يستبدون بالأمر، ويذلون عباد الله، قال تعالى : ﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴾ [2] .
وقال تعالى : ﴿ قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ ﴾ [3] ،

وبذلك تتحقق عزة الأمة ﴿ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [4] ويخافها أعداؤها، ويرهبون جانبها ، وتقيم الحق فى الأرض، فأهل الحق لا تسمع كلمتهم مالم يكونوا أقوياء مرهوبى الجانب [5] .

٥ - العناية بالجانب المالى والاقتصادى

تعنى الدولة الإسلامية بجمع المال من طرقه المشروعة وإيصاله إلى مستحقيه، فتجمع مال الزكاة، والفيء ، والخمس، والخراج، والصدقات وتضعها فى مواضعها التى شرع الإسلام وضعها فيها.

وقد بلغ من عناية الإسلام بالجانب المالى أن رتب مرتبات لكل فرد فى الدولة الإسلامية، وقد استغنى جميع المسلمين فى بعض فترات التاريخ، فكان الأغنياء يبحثون عن محتاج فلا يجدون.

والدولة تتدخل فى النشاط الاقتصادى، فتمنع كل ما هو ظلم، ولذلك حرم الإسلام الاحتكار، كما أوجب على ولاة الأمر مراقبة الأسواق، وكف الناس عن الظلم، وقد أقيم فى الدولة الإسلامية جهاز يسمى جهاز الحسبة، يراقب الأسواق والتجار والصناع، وقد كتب كثير من العلماء شروحا لهذا النظام [6] .

---

(١) سورة التوبة الآية ٤٠ .

(٢) سورة النساء الآية ٧٥.

(٣) سورة التوبة الآية ١٤ .

(٤) سورة المنافقون الآية ٨ .

(٥) د. عمر سليمان الأشقر . نحو ثقافة إسلامية أصيلة ص٣٣٥ .

(٦) المرجع السابق ص ٣٣٦ .

٦ - إدارة الدولة

وذلك بتوظيف الموظفين الذين يقومون علي كل شعبة من شعب الحياة، ووضع القواعد الإدارية التى تضمن حسن سير العمل، وإقامة الدورات التخصصية التى تخرج أصحاب الكفاءات عند الحاجة لذلك ، وفرض المرتبات المناسبة للموظفين.

وقد أمر الإسلام بإسناد الوظائف إلي أهل الكفاءات، والرجل الكفء هو القوى الأمين : ﴿ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ﴿٢٦﴾ ﴾ [(١)].

وقد عد الرسول ﷺ عدم وضع الرجل المناسب فى المكان المناسب تضييعًا للأمانة، وانتشار هذا علامة من علامات الساعة قال ﷺ : «قال رجل للرسول ﷺ متى الساعة، فأجابه بعد سكوت : «إذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة».

قال : كيف إضاعتها ؟

قال : «إذا وسد الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة» [(٢)].

٧ - المحافظة على الأمن الداخلى

فالمجتمع الذى تنتشر فيه الجريمة مجتمع مريض، يسود فيه الخوف والرعب ويهجره الناس، والدولة الإسلامية مطالبة بإقامة الأجهزة التى تسهر على أمن العباد، وملاحقة المجرمين، وإقامة العقوبات الرادعة للمفسدين فى الأرض، وفق شريعة الله [(٣)].

● ما يجب للحاكم إجمالاً

إذا أقام الحاكم بواجباته تجاه الأمة يجب له إجمالاً على رعيته عشرة أمور وهى :

بذل الطاعة له، والقيام بنصره وعظيم حقه، والنصيحة له فى السر والعلانية، وإيقاظه عند الغفلة، وإرشاده عند الهفوة، والذب عنه، وتحذيره من عدو متمرد أو مريد به سوءاً، وإعماله بستره، وإعانته علي ما يحمله، ورد القلوب النافرة إليه، وإنما يجب طاعة السلطان فى كل ما يأمر به أو ينهى عنه، إذا لم يكن فى معصية الله تعالى، لقوله سبحانه :﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ ﴾ [(٤)].

---

(١) سورة القصص الآية ٢٦.

(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه.

(٣) المرجع السابق ص ٣٣٦ ، ٣٣٧.

(٤) سورة النساء الآية ٥٩.

وأولى الأمر هم السلطان ونوابه.

وقيل: هم العلماء، والأول أصح.

فقد أمر الله تعالى بطاعة أولى الأمر، وأمر الله واجب، ثم انظر كيف تَفَرَّدَهُمْ بالطاعة، بل جعل طاعتهم تابعة لطاعة الرسول، وطاعتهم إنما تجب فيما فيه طاعة الرسول لافيما فيه معصيته، لذا قال النبى ﷺ: «السمع والطاعة على المسلم فيما أحب وكره مالم يؤمر بمعصية، فإذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة»[1].

• نصيحة السلطان ولزوم الطاعة

قال الله تبارك وتعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ﴾[2]. قال أبو هريرة لما نزلت هذه الآية أمرنا بطاعة الأئمة، وطاعتهم من طاعة الله، وعصيانهم من عصيان الله.

وقال النبي ﷺ: «من رأى من أميره شيئًا يكرهه فليصبر عليه فإن من فارق الجماعة شبراً فمات إلامات ميتة جاهلية»[3].

وقال ﷺ: «الدين النصيحة»

قلنا: لمن؟

قال: «لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم»[4].

فنصح الإمام ولزوم طاعته فرض واجب وأمر لازم، ولا يتم إيمان إلا به، ولا يثبت إسلام إلا عليه. فقد روى الشعبى عن ابن عباس رضى الله عنهما قال، قال لى أبى: أرى هذا الرجل -يعنى عمر بن الخطاب- يستفهمك ويقدمك على الأكابر من أصحاب محمد ﷺ، وإنى موصيك بخلال أربع:

لاتفشين له سراً.

ولا يجربن عليك كذبا

ولا تطو عنه نصيحة

ولا تغتابن عنده أحداً.

---

(١) رواه أبو داود والترمذى. (٢) سورة النساء الآية ٥٩.

(٣) رواه البخارى ومسلم واللفظ للبخارى (٤) أخرجه مسلم فى صحيحه.

قال الشعبى : فقلت لابن عباس : كل واحدة خير من ألف.

قال : إى والله، ومن عشرة آلاف !

وفى كتاب للهند : أن رجلاً دخل على بعض ملوكهم فقال : أيها الملك، إن نصيحتك واجبة فى الصغير الحقير، والكبير الخطير، ولولا الثقة بفضيلة رأيك واحتمالك ما يشق موقعه فى جنب صلاح العامة، وتلافى الخاصة، فكان خرقا منى أن أقول، ولكنا إذا رجعنا إلى أن بقاءنا موصول ببقائك، وأنفسنا معلقة بنفسك، لم نجد بدا من أداء الحق إليك وإن أنت لم تسلنى ذلك، فإنه يقال : من كتم السلطان نصيحته، والأطباء مرضه، والإخوان بثه، فقد أخَلَّ بنفسه، وأنا أعلم أن كل كلام يكرهه سامعه لا يتشجع عليه قائله إلا أن يثق بعقل المقول له، فإنه إن كان عاقلاً احتمل ذلك، لأنه ما كان فيه من نفع فهو للسامع دون القائل، وإنك أيها الملك ذو فضيلة فى الرأى، وتصرف فى العلم، فإنما يشجعنى ذلك على أن أخبرك بما تكره، واثقا بمعرفتك نصيحتى لك، وإيثارى إياك على نفسى.

وقال عمر بن عتبة للوليد حين تغير الناس عليه : يا أمير المؤمنين، ينطقنى الأنس بك، وتسكتنى الهيبة لك، وأراك تأمن أشياء أخافها عليك،

أفأسكت مطيعًا، أم أقول مشفقًا؟

قال : كل مقبول منك، ولله فينا علم غيب نحن صائرون إليه.

فقتل بعد ذلك بأيام [(١)].

• هل قام العلماء بواجب النصيحة للحكام

فى تاريخنا الإسلامى علماء نستطيع أن نقول : إنهم كانوا على المستوى المطلوب، حملوا لواء الدعوة، وقدموا النصيحة امتثالاً لقول النبى ﷺ : «الدين النصيحة» قلنا : لمن ؟

قال : «لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم» [(٢)].

والنصيحة لأئمة المسلمين : معاونتهم على الحق وطاعتهم فيه، وأمرهم به،

---

(١) الموسوعة الذهبية للعلوم الإسلامية د. فاطمة محجوب ٢٩ / ٤١٣، ٤١٤.

(٢) سبق تخريجه.

ونهيهم وتذكيرهم برفق، وإعلامهم بما غفلوا عنه ولم يَبْلُغْهم من حقوق المسلمين، وترك الخروج عليهم، وتأليف قلوب المسلمين لطاعتهم قال الخطابى : ومن النصيحة لهم، الصلاة خلفهم، والجهاد معهم، وأداء الصدقات إليهم، وترك الخروج بالسيف عليهم إذا ظهر منهم حيف أو سوء عشرة، وألا يغيروا بالثناء الكاذب عليهم، وأن يُدْعَى لهم بالصلاح».

وقال ابن بطال : النصيحة واجبة على قدر الطاقة إذا علم الناصح أن يُقْبَلُ نُصحُه ويُطاع أمرُه، وأمن على نفسه المكروه، فإن خشى أذى فهو فى سعة».

والحاكم إلى جانب أن له حقوقًا من أهمها :

١ - السمع والطاعة مالم يأمر بمعصية.

٢ - النصرة والجهاد معه.

٣ - كفاية معيشته لكى يتفرغ لتبعات الحكم.

عليه واجبات من أهمها :

١ - الحفاظ على شرع الله والحكم بما أنزّل الله.

٢ - إقامة العدل بين الناس وإعطاء كل ذى حق حقه.

٣ - الجهاد فى سبيل الله وحماية الدولة.

٤ - تأمين أموال الدولة، والعدالة فى توزيعها حتى يتسنى تأمين العيش والحياة الكريمة للناس.

٥ - تقبل النصيحة والمشورة لأن ذلك من دعائم الحكم [١].

ولم يكن الحكام فى القرون الأولى لهجرة المصطفى ﷺ ينأون بجانبهم عن تقبل النصح والإرشاد، ولكنهم سامعون مطيعون، بل إن كثيراً منهم كان يعرض نفسه على من يلتمس لديه الخير، ويطلب النصيحة.

---

(١) د. سيد عبد العزيز السيلى وكائز المجتمع المسلم ص ١٢٠، ١٢١.

• العلم وفضله

تعريفة : العلم صفة يميز المتصف بها تمييزاً جازما مطابقاً،

وقيل : هو إدراك الشيء بحقيقته.

والعلم فضله أشهر من أن يذكر، وهو أفضل من كل ما اكتسبه الإنسان، وأشرف منتسب وأنفس ذخيرة تقتنى، وأطيب ثمرة تجتنى، به يتوصل إلى الحقائق، وإذا عمل به الإنسان على وفق الشريعة أدرك رضا الخالق.

والعلم لا يوصل إلى معرفة فضله وجلالة قدره إلا بالعلم، ولا يضيع صاحب العلم الدينى الصحيح الذى جاء عن النبى ﷺ، ولا يفتقر كاسب العلم ولا يخيب طالبه، ولا تنحط مراتبه مادام مطبقا لعلمه بالعمل.

ولا يجهل شرف العلم إلا الجاهل لقصور فهمه عن عظيم منافعه، وكريم مواقفه،

وحامله الصائن له عن الأدناس عند الناس، إن قال فكلامه مرمرق بعين التقدير، وإن أمر فأمره مسموع.

وهو وسيلة للفضائل، وهو نور زاهر لمن استضاء به، وقوت هنيء لمن تقوت به ترتاح به الأنفس إذ هو غذاؤها، وتفرح به الأفئدة إذ هو قواها،

وهو يدل على الخير، وعون على المروءة، وهو الصاحب فى الغربة، المؤنس فى الخلوة والشرف فى النسب، وللعلم آثار جليلة القدر، فكم جل به من حقير [1].

عن معاذ بن جبل رضى الله عنه : تعلموا العلم فإن تعلمه لله خشية، وطلبه عبادة، ومدارسته تسبيح، والبحث عنه جهاد، وتعليمه من يعلم صدقة، وبذله لأهله قربة، وهو الأنيس فى الوحدة، والصاحب فى الخلوة والدليل على الدين، والمصبر على السراء والضراء، والوزير عند الأخلاء، والقريب عند الغرباء، ومنار سبيل الجنة. يرفع الله به أقواماً فيجعلهم فى الخير قادة سادة هداة يقتدى بهم، أدلة للخير، تقتفى آثارهم، وترمق أفعالهم، وترغب الملائكة فى خلتهم، وبأجنحتها مستهم وكل رطب ويابس لهم يستغفر، حتى حيتان البحر وهوامه، وسباع البر وأنعامه، والسماء ونجومها، لأن العلم حياة القلوب من العمى، ونور الأبصار من الظلم، وقوة الأبدان من الضعف، ويبلغ به العبد منازل الأبرار

---

(١) موارد الظمآن فى دروس الزمان ١ / ٤٨.

والدرجات العلى، ومدارسته بالقيام، به يطاع الله عز وجل وبه يعبد؛ وبه يمجد، وبه يتورع، وبه توصل الأرحام، وبه يعرف الحلال والحرام، وهو إمام والعمل تابعه، يلهمه السعداء، ويحرمه الأشقياء.

وقد وردت أحاديث نبوية شريفة تبين فضل العلم وتحث على تعلمه وتعليمه، منها:

١ - عن معاوية رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من يرد الله به خيراً يفقه فى الدين»[١].

٢ - عن عبد الله - يعني ابن مسعود - رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أراد الله بعبد خيراً فقهه فى الدين وألهمه رشده»[٢].

٣ - عن أبى هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن ستر مسلماً ستره الله فى الدنيا والآخرة، ومن يسر عن معسر يسر الله عليه في الدنيا والآخرة، والله فى عون العبد مادام العبد فى عون أخيه، ومن سلك طريقاً يلتمس فيه علما سهل الله له به طريقاً إلى الجنة، وما اجتمع قوم فى بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه فيما بينهم، إلا حفتهم الملائكة ونزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وذكرهم الله فيمن عنده، ومن أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه»[٣].

٤ - عن أبى الدرداء رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من سلك طريقا يلتمس فيه علما سهل الله له به طريقا إلى الجنة وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يصنع، وإن العالم ليستغفر له من فى السموات ومن فى الأرض حتى الحيتان فى الماء، وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب، وإن العلماء ورثة الأنبياء. وإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً، وإنما ورثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظ وافر»[٤].

---

(١) رواه البخارى ومسلم.　(٢) رواه البزار والطبرانى فى الكبير بإسناد لا بأس به.

(٣) رواه مسلم وأبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجة وابن حبان فى صحيحه والحاكم وقال صحيح على شرطهما.

(٤) رواه أبو داود والترمذى وابن ماجة وابن حبان فى صحيحه والبيهقى.

٥ - روى عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : «من جاءه أجله وهو يطلب العلم لقى الله ولم يكن بينه وبين النبيين إلا درجة النبوة» [١] .

٦ - روى عن سخيرة رضى الله عنه قال : مر رجلان على رسول الله ﷺ وهو يذكر ، فقال : «اجلسا فإنكما على خير » فلما قام رسول الله ﷺ وتفرق عنه أصحابه ، قاما فقالا : يا رسول الله : إنك قلت لنا أجلسا فإنكما على خير ، ألنا خاصة أم للناس عامة ؟

فقال :«ما من عبد يطلب العلم إلا كان كفارة ما تقدم» [٢] .

٧ - عن أبى ذر رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :«يا أبا ذر لأن تغدو فتعلم آية من كتاب الله خير لك من أن تصلى مائة ركعة ولأن تغدو فتعلم باباً من العلم عمل به أو لم يعمل به خير لك من أن تصلى ألف ركعة» [٣] .

٨ - عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ذكر الله وما والاه وعالما ومتعلماً» [٤] .

٩ - عن ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : «لا حسد [٥] إلا فى اثنتين ، رجل آتاه الله مالاً فسلطه على هلكته فى الحق، ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضى بها ويعلمها» [٦] .

١٠ - عن أبى موسى رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «مثل ما بعثنى الله من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضا فكانت منها طائفة طيبة قبلت الماء، وأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكان منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا منها وسقوا وزرعوا، وأصاب طائفة أخرى منها إنما هى قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ فذلك مثل من فقه في دين الله تعالى ونفعه ما بعثنى الله به فعلم وعلم، ومثل من لم يرفع بذلك رأسا ولم يقبل هدى الله الذى أرسلت به» [٧] .

١١ - عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث ، صدقة جارية ، أو علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له» [٨] .

---

(١) رواه الطبرانى فى الأوسط.
(٢) رواه الترمذى مختصراً والطبرانى فى الكبير واللفظ له.
(٣) رواه ابن ماجة بإسناد حسن .
(٤) رواه الترمذى ، وابن ماجة، والبيهقى ،وقال الترمذى حديث حسن .
(٥) المراد بالحسد فى هذا الحديث : هو أن يتمنى مثله.
(٦) رواه البخارى ومسلم.
(٧) رواه البخارى ومسلم.
(٨) رواه مسلم وغيره.

١٢ - وعن أبى هريرة رضى الله عنه أنه مر بسوق المدينة فوقف عليها، فقال : يا أهل السوق ما أعجزكم ؟ قالوا : ماذاك يا أبا هريرة ؟

قال : ذلك ميراث رسول الله ﷺ يقسم وأنتم هاهنا، ألا تذهبون فتأخذون نصيبكم منه،

قالوا : وأين هو ؟ قال : فى المسجد،

فخرجوا سراعًا ووقف أبو هريرة لهم حتى رجعوا فقال لهم : مالكم؟

فقالوا : يا أبا هريرة أتينا المسجد فدخلنا فيه فلم نر فيه شيئًا يقسم،

فقال لهم أبو هريرة : وما رأيتم فى المسجد أحداً ؟

قالوا : بلى رأينا قوماً يصلون، وقومًا يقرأون القرآن وقومًا يتذاكرون الحلال والحرام،

فقال أبو هريرة : ويحكم فذلك ميراث محمد ﷺ [١].

١٣ - روى عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ دخل المسجد فإذا هو بمجلسين، أحدهما يذكرون الله تعالى، والآخرون يتفقهون،

فقال رسول الله ﷺ كلا المجلسين على خير، وأحدهما أحب إلى من صاحبه، أما هؤلاء فيسألون الله ويذكرونه فإن شاء أعطاهم وإن شاء منعهم وأما المجلس الآخر فيتعلمون الفقه ويعلمون الجاهل وإنما بعثت معلمًا وجلس إلى الفقه.

وهذه قصيدة تحتوى على الحث على طلب العلم والزهد فى الدنيا والإقبال على الآخرة.

والعلم أشرف منتسب ، والمشتغلون به هم العلماء، ورغم شرف العلم وشرف الاشتغال به إلا أن المنتسبين إليه ليسوا على درجة واحدة، بل نوعان :

أ - علماء ورعون.

ب - علماء سوء وحديثنا أولاً عن :

• **علماء السوء**

وهذا النوع من العلماء - أعاذنا الله سبحانه وتعالى منه - هم العلماء الذين يعملون بخلاف علمهم، وغرتهم الحياة الدنيا بزخرفها وعملوا لها، وعلى قدر تعلق العلماء بالدنيا وتوجههم إليها تكون زهادة الناس فى العلماء، وعدم الثقة بهم، واتهامهم،

(١) رواه الطبرانى فى الأوسط بإسناد حسن .

والنفرة عنهم، وأكل لحومهم، وعدم قبول كلامهم وإرشادهم ونصائحهم، فلا يسمعون لهم قولا، ولا يعولون عليهم في ما يجهلون ويحرصون على البعد منهم، ويستثقلونهم، والسبب الوحيد كما علمت أولاً، هو التعلق بالدنيا، ضد ما كان عليه السلف الصالح.

قال ابن القيم رحمه الله : كل من آثر الدنيا من أهل العلم واستحبها فلابد أن يقول على الله غير الحق في فتواه وحكمه، في خبره وإلزامه، لأن أحكام الرب سبحانه كثيراً ما تأتي على خلاف أغراض الناس، ولاسيما أهل الرياسة والذين يتبعون الشبهات، فإنهم لاتتم لهم أغراضهم إلا بمخالفة الحق ودفعه كثيراً، فإذا كان العالم والحاكم محبين للرياسه متبعين للشهوات لم يتم لهما ذلك إلا بدافع ما يضاده من الحق، ولا سيما إذا قامت له شبهة، فتتفق الشبهة والشهوة، ويثور الهوى، فيختفي الصواب وينطمس وجه الحق، وإذا كان ظاهراً لاخفاء به ولا شبهة فيه أقدم على مخالفته وقال لي مخرج بالتوبة، وفي هؤلاء وأشباههم قال تعالى : ﴿ فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَاقُ الْكِتَابِ أَن لاَّ يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلا تَعْقِلُونَ (١٦٩) ﴾[(1)].

فأخبر سبحانه أنهم أخذوا العرض الأدنى مع علمهم بتحريمه عليهم وقالوا سيغفر لنا وإن عرض لهم عرض آخر أخذوه فهم مصرون على ذلك وهو الحامل لهم على أن يقولوا على الله غير الحق، فيقولون هذا حكمه وشرعه ودينه وهم يعلمون أن دينه وشرعه وحكمه يخالف ذلك، أو لايعلمون أن ذلك دينه وشرعه وحكمه، فتارة يقولون على الله مالا يعلمون وتارة يقولو عليه ما يعلمون بطلانه،

قال : وهؤلاء لابد أن يبتدعوا في الدين مع الفجور في العمل، فيجتمع لهم الأمران فإن اتباع الهوى يعمى عين القلب، فلا يميز بين السنة والبدعة، أو ينكسه فيرى البدعة سنة والسنة بدعة، فهذه آفة العلماء إذا آثروا الدنيا واتبعوا الرياسات والشهوات، وهذه الآيات فيهم إلى قوله تعالى : ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ (١٧٥) وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ ﴾[(2)].

فهذا مثل عالم السوء الذى يعمل بخلاف علمه.

---

(١) سورة الأعراف الآية ١٦٩ .

(٢) سورة الأعراف الآيتان ١٧٥ ، ١٧٦ .

وقال معاذ بن جبل ، وذكرْ علماء السوء : من إذا وعظ عنف ، أو وُعِظَ أنفَ ، فذلك فى أول درك من النار،

ومن العلماء من يأخذ علمه مأخذ السلطان ، فذلك فى الدرك الثانى من النار.

ومن العلماء من يحرز علمه ، فذلك فى الدرك الثالث من النار.

ومن العلماء من يتخير الكلام والعلم لوجوه النّاس ، ولا يرى سفلة الناس له موضعاً ، فذلك فى الدرك الرابع من النار.

ومن العلماء من يتكلم كلام اليهود والنصارى وأحاديثهم ، ليكثر حديثهم ، فذلك فى الدرك الخامس من النار.

ومن العلماء من ينصب نفسه للفتيا ، يقول للناس سلونى ، فذلك الذى يكتب عند الله متكلفًا ،والله لا يحب المتكلفين، فذلك فى الدرك السادس من النار.

ومن العلماء من يتخذ علمه مروءة وعقلا ، فذلك فى الدرك السابع من النار، ذكره غير واحد من العلماء ، قال القرطبى مثله لا يكون رأيا ، وإنما يدرك توقيفًا [1] .

• العلماء العاملون الورعون

هم : العاملون بعلمهم الورعون الذين لا تأخذهم فى الله لومة لائم ، الذين إذا ذكروا وما قاموا به من نصر دين الله والدعوة إليه استنارت المجالس ، وأسفرت الوجوه ، وارتاحت الأنفس وقويت القلوب ، ونشطت الأبدان على الطاعات والعبادات ، وود المستمعون المحبون للدين وأهله أن يزدادوا من أخبارهم وسيرهم ، وذلك بما وهبهم الله من العلم الدينى والتمسك به وآثاره الجليلة ،

وكانوا خير الناس بعد النبيين ،

وكانوا أشجع الناس لأنهم علموا أن الأجل لا يطيله الجبن ،

وكانوا أعتى العالم نفوسًا ، وأقواهم توكلاً على اللطيف الخبير ، لأنهم رضوا بقسمة مولانا العليم الحكيم ،

وكانوا محط رجال الكرم والجود ، لأنهم يعلمون أن البخل لا يرضى الله .

---

(١) موارد الظمآن ٤ / ١٠ .

وكانوا فى الحلم كالجبال الراسيات، لأنهم عرفوا ما للحلم من مزايا فى الدنيا والآخرة.

وكانوا يستقبلون البلايا بالصبر الجميل لعلمهم أنها بتقدير وتصريف الحكيم الخبير،

وكانوا دائماً يستقبلون النعم بالشكر والحمد والثناء على الله لجزمهم أنها ليست منهم ولا من سائر المخلوقين، بل من الكريم الدائم الإحسان الذى عم إحسانه الخلائق كلهم،

وكانوا يحبون الخير لبعضهم محبتهم لأنفسهم عملاً بقول الرسول الكريم: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخية ما يحب لنفسه»[1]. ولعلمهم أن كراهتهم لا تحدث أن تغير وقد عرفوا قول النبى ﷺ لابن عباس: «يا غلام أحفظ الله يحفظك ....» الحديث[2].

وكانوا لا يحبون الشر وأهله وينهون عنه وينأون عنه،

وكانوا يراقبون مولاهم دائماً ويعلمون أنه يعلم سرهم ونجواهم وأنه أحاط بكل شيء علماً، فلهذا كانوا إذا قالوا أو فعلوا تحروا ما يرضيه جل وعلا فيما يقولونه ويفعلونه، وهكذا كانوا إذا أرادوا أن يتحركوا أو يسكنوا باستشارة ما وهبهم الله من العلم الدينى يتحركون ويسكنون.

لهذا: فهم موضع إعجاب، ونالوا فوق هذا رضى رب العالمين.

هكذا كانوا ببركات ما وهبهم مولاهم من العلم الدينى والتمسك به تماماً،

وكانوا أزهد الناس فى الدنيا لأنهم يعلمون حقارتها وسرعة زوالها وكثرة همومها وغمومها، وإشغالها عن طاعة الله، ولذلك كان الناس يقدروهم ويضربون بهم الأمثال، وأنت ترى أنه على قدر قناعة العلماء فى الدنيا تكون مكانتهم فى نفوس الناس، والتفافهم حولهم، والاستماع لنصائحهم، والانقياد لإرشاداتهم، والرجوع إليهم فيما يشكل عليهم.

وهذه نماذج لما قدموا من نصح خالص لوجه الله تعالى:

- **نصيحة أبى حازم التابعى لسليمان بن عبد الملك**

روى أنه لما حج سليمان بن عبد الملك ودخل المدينة زائراً لقبر رسول الله ﷺ، ومعه ابن شهاب الزهرى ورجاء ابن حيوة، فأقام بها ثلاثة أيام، فقال: أما ها هنا رجل ممن أدرك أصحاب رسول الله ﷺ؟

---

(١) رواه البخارى ومسلم.　　(٢) رواه الترمذى.

فقيل له : بل ها هنا رجل يقال له أبو حازم.

فبعث إليه فجاء وهو أقور[1] أعرج، فوقف منتظراً للإذن، فلما طال عليه الإذن وضع عصيته ثم جلس، فلما نظر إليه سليمان أزدرته عينه.

فقال له : يا أبا حازم ، ما هذا الجفاء الذى ظهر منك وأنت توصف برؤية أصحاب رسول الله ﷺ مع فضل ودين تذكر به ؟

فقال أبو حازم : وأى جفاء رأيت منى يا أمير المؤمنين؟

فقال سليمان : إنه أتانى وجوه أهل المدينة وعلماؤها وخيارها، وأنت معدود فيهم ولم تأتنى.

فقال أبو حازم : أعيذك بالله أن تقول ما لم يكن، ما جرى بينى وبينك معرفة آتيك عليها.

فقال سليمان: صدق الشيخ.

• الخليفة يسأل والعالم يجيب

فقال : يا أبا حازم مالنا نكره الموت ؟

فقال أبو حازم : لأنكم أخربتم اخرتكم، وعمرتم دنياكم، فأنتم تكرهون النقلة من العمران إلى الخراب !

قال سليمان : صدقت يا أبا حازم، فكيف القدوم على الآخرة ؟

قال : نعم، أما المحسن فإنه يقدم على الآخرة كالغائب يقدم على أهله من سفر بعيد، وأما قدوم المسيء فكالعبد الآبق يؤخذ فيشد كتافه، فيؤتى به إلى سيد فظ غليظ، فإن شاء عفا وإن شاء عذب، فبكى سليمان بكاء شديداً، وبكى من حوله.

ثم قال : ليت شعرى مالنا عند الله يا أبا حازم؟

فقال : اعرض نفسك على كتاب الله، فإنك تعلم مالك عند الله.

قال سليمان : يا أبا حازم ، وأين أصيب تلك المعرفة في كتاب الله ؟

---

(١) القور: العور ، وقد قُرت فلانا إذا فقأت عينه.

قال : عند قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴿١٤﴾ ﴾ [1].

قال سليمان : يا أبا حازم ، فأين رحمة الله ؟

قال : ﴿ إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾ [2].

قال سليمان : يا أبا حازم من أعقل الناس؟

قال أبو حازم : أعقل الناس من تعلم العلم والحكمة وعلمها الناس.

قال سليمان : فمن أحمق الناس؟

فقال : من حط فى هوى رجل وهو ظالم فباع آخرته بدنيا غيره.

فقال سليمان : فما أسمع الدعاء ؟

قال أبو حازم : دعاء المخبتين الخائفين.

فقال سليمان : فما أزكى الصدقة عند الله؟

قال : جهد المقل.

قال : فما تقول فيما ابتلينا به ؟

قال : اعفنا عن هذا وعن الكلام فيه - أصلحك الله -.

قال سليمان : نصيحة تلقها.

فقال : ما أقول فى سلطان استولى عنوة بلا مشورة من المؤمنين ولا اجتماع من المسلمين، فسفكت فيه الدماء الحرام، وقطعت به الأرحام، وعطلت به الحدود، ونكثت به العهود، وكل ذلك على تنفيذ الطينة، والجمع لمتاع الدنيا المشينة، لم يلبثوا أن ارتحلوا عنها وياليت شعرى ما تقولون، وما يقال لكم.

فقال بعض جلسائه : بئس ما قلت يا أقور، أمير المؤمنين يستقبل بهذا؟

فقال أبو حازم : اسكت يا كاذب، فإنما أهلك فرعون هامان، وهامان فرعون، إن الله قد أخذ على العلماء ليبيننه للناس ولا يكتمونه، أى لا ينبذونه وراء ظهورهم.

• **الملوك يأتون العلماء**

قال سليمان : يا أبا حازم كيف لنا أن نصلح ما فسد منا؟

---

(١) سورة الانفطار الآيتان ١٣ ، ١٤.　　(٢) سورة الأعراف الآية ٥٦.

فقال : المأخذ فى ذلك قريب يسير يا أمير المؤمنين،

فاستوى سليمان جالسًا من اتكائه فقال : كيف ذلك ؟

فقال : تأخذ المال من حله، وتضعه فى أهله، وتكف الأكف عما نهيت عنه وتمضيها فيما أمرت به.

قال سليمان : ومن يطيق ذلك؟

فقال أبو حازم : من هرب من النار إلى الجنة، ونبذ سوء العادة إلى خير العبادة.

فقال سليمان : أصحبنا يا أبا حازم، وتوجه معنا نصب منا وتصب منك.

قال أبو حازم : أعوذ بالله من ذلك.

قال سليمان : ولم يا أبا حازم ؟

قال : أخاف أن أركن إلى الذين ظلموا فيذيقنى الله ضعف الحياة وضعف الممات.

فقال سليمان : فتزورنا؟

قال أبو حازم : إنا عهدنا الملوك يأتون العلماء، ولم يكن العلماء يأتون الملوك، فصار فى ذلك صلاح الفريقين. ثم صرنا الآن فى زمان العلماء يأتون الملوك، والملوك تقعد عن العلماء، فصار فى ذلك فساد الفريقين جميعًا.

- **وصية موجزة**

قال سليمان : فأوصنا يا أبا حازم وأوجز.

قال : اتق الله أن لا يراك حيث نهاك، ولا يفقدك حيث أمرك.

قال سليمان : ادع لنا بخير.

قال أبو حازم : اللهم إن كان سليمان وليك فبشره بخير الدنيا والآخرة، وإن كان عدوك فخذ إلى الخير بناصيته.

قال سليمان : زدنى.

قال : قد أوجزت، فإن كنت وليه فاغتبط ،وإن كنت عدوه فاتعظ فإن رحمته فى الدنيا مباحة، ولا يكتبها فى الآخرة إلا لمن اتقى فى الدنيا، فلا يقع فى قوس يرمى بلا وتر.

• **عطية مرفوضة**

قال سليمان : هات يا غلام ألف دينار، فأتاه بها فقال خذها يا أبا حازم.

فقال : لا حاجة لي بها، لأني وغيرى فى هذا المال سواء ، فإن سويت بيننا وعدلت، أخذت، وإلا فلا. لأني أخاف أن يكون ثمنًا لما سمعت من كلامي، وأن موسى ابن عمران عليه السلام لما هرب من فرعون وورد ماء مدين وجد عليه الجاريتين تذودان : فقال ، مالكما معين؟

قالتا : لا ، فسقى لهما ثم تولى إلى الظل فقال : ﴿ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ ﴾ [1] ولم يسأل أجرًا. فلما أعجل بالجارتين الانصراف أنكر ذلك أبوهما، فقال لهما : ما أعجلكما اليوم ؟

قالتا : وجدنا رجلاً قويًا وصالحًا سقى لنا.

قال : ما سمعتاه يقول؟

قالتا : تولى إلى الظل وهو يقول : ﴿ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ ﴾ .

فقال : ينبغى لهذا أن يكون جائعًا، تنطلق إحداكما له، فتقول له : إن أبى يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا،

فأتته إحداهما تمشى على استحياء، قالت : إن أبى يدعوك ليجزيك أجر ماسقيت لنا،

فجزع موسى من ذلك وكان طريدًا فى الفيافى والصحارى،

فقال لها : قولى لأبيك إن الذى سقى يقول لا أقبل أجرًا على معروف اصطنعته

فانصرفت إلى أبيها فأخبرته فقال : اذهبى فقولى له : أنت بالخيار بين قبول ما يعرض عليك أبى وبين تركه، فأقبل فإنه يحب أن يراك ويسمع منك.

فأقبل والجارية بين يديه، فهبت الريح، فوصفتها له، وكانت ذات خلق كامل

فقال لها : كونى ورائى وأرينى سمت الطريق.

فلما بلغ الباب قال : استأذنى لنا.

فدخلت على أبيها فقالت : إنه مع قوته لأمين.

---

(١) سورة القصص الآية ٢٤.

فقال شعيب : وبم عرفت ذلك.

فأخبرته ما كان من قوله عند هبوب الريح عليها، فقال : أدخليه.

فدخل فإذا شعيب قد وضع الطعام، فلما سلم رحب به وقال : أصب من طعامنا يافتى.

فقال موسى : أعوذ بالله.

قال شعيب : لم ؟

قال : لأنى من بيت لا نبيعُ ديننا بملئ الأرض ذهبًا.

قال شعيب : لا والله ما طعامى كما تظن، ولكنه عادتى وعادة آبائى، نقرى الضيف، ونطعم الطعام، فجلس موسى فأكل.

وهذه الدنانير يا أمير المؤمنين إن كانت ثمنًا لما سمعت من كلامى فلئن آكل الميتةِ والدمِ فى حال الضرورة أحب إلى من أن آخذها، فأعجب سليمان بأمره عجبًا شديدًا.

فقال بعض جلسائه : يا أمير المؤمنين إن الناس كلهم مثله. قال : لا

قال الزهرى : إنه لجارى منذ ثلاثين سنة ما كلمته قط.

فقال أبو حازم : صدقت لأنك نسيت الله فنسيتنى، ولو ذكرت الله لذكرتنى.

قال الزهرى : أتشتمنى؟

قال له سليمان : بل أنت شتمت نفسك، أوما علمت أن للجار حقًا؟

قال أبو حازم : إن بنى إسرائيل لما كانوا على الصواب كانت الأمراء تحتاج إلى العلماء، وكانت العلماء تفر بدينها من الأمراء، فلما تعلم العلم قوم من أراذل الناس وأتوا به الأمراء، استغنت الأمراء عن العلماء واجتمع القوم على المعصية، فسقطوا وهلكوا، ولو كان علماؤنا هؤلاء يصونون علمهم لكانت الأمراء تهابهم وتعظمهم.

فقال الزهرى : كأنك إياى تريد وبى تعرض؟

قال : هو ما تسمع.

- **عظة موجزة**

قال سليمان :يا أبا حازم عظنى وأوجز.

قال : الدنيا حلالها حساب، وحرامها عذاب، وإلى الله المآب، عذبك أو دع.

قال : لقد أوجزت فأخبرنى ما مالك؟

قال : الثقة بعدله، والتوكل على كرمه، وحسن الظن به والصبر من أجله، واليأس مما فى أيدى الناس.

قال : يا أبا حازم، ارفع إلينا حوائجك.

قال : رفعتها إلى من لا تخذل دونه، فما أعطانى منها قبلت، وما أمسك عنى رضيت، مع أنى قد نظرت فوجدت أمر الدنيا يؤول إلى شيئين :

أحدهما لى والآخر لغيرى.

فأما الذى كان لى فلو احتلت عليه بكل حيلة ما وصلت إليه قبل أوانه وحينه الذى قدر لى.

وأما الذى لغيرى فذلك لا أطمع فيه، فكما منعنى رزق غيرى، كذلك منع غيرى رزقى، فعلام أقتل نفسى فى الإقبال والإدبار.

• مطالب أبى حازم

قال سليمان : لابد أن ترفع لنا حاجة نأمر بقضائها.

قال : فتقضيها. قال : نعم.

قال : فلا تعطنى شيئًا حتى أسألكه، ولا ترسل إلى حتى آتيك، وإن مرضت فلا تعدنى، وإن مت فلا تشهدنى.

قال : أبيت يا أبا حازم.

قال : أتأذن لى - أصلحك الله - فى القيام فإنى شيخ زمنت.

• مسألة وحلها

قال سليمان : يا أبا حازم، مسألة ما تقول فيها ؟

قال : إن كان عندى علم أخبرتك به، وإلا فهذا الذى عن يسارك يزعم أنه ليس شىء يسأل عنه إلا وعنده علم به «يريد الزهرى».

قال الزهرى : عائذ بالله من شرك أيها المرء.

قال : أما من شرى فقد عفيت، وأما من لسانى فلا.

قال سليمان : ما تقول فى سلام الأئمة من صلاتهم، أواحدة أم اثنتان؟ فإن العلماء لدينا قد اختلفوا علينا فى ذلك أشد الاختلاف.

قال : على الخبير سقطت، أرسيك فى هذا بخبر شاف، حدثنى عامر بن سعد بن أبى وَقاص عن أبيه سعد أنه شهد رسول الله ﷺ يسلم فى الصلاة عن يمينه حتى يرى بياض خده الأيمن، ثم يسلم عن يسارة حتى يرى بياض خده الأيسر، سلامًا يجهر به، قال عامر، وكان أبى يفعل ذلك،

وأخبرنى سهل بن سعد الساعدى أنه رأى عمر بن الخطاب وابن عمر يسلمان من الصلاة كذلك.

فقال الزهرى : اعلم ما تحدث به أيها الرجل، فإن الحديث عن رسول الله صعب شديد إلا بالتثبيت واليقين.

قال أبو حازم : قد علمته ورويته قبل أن تطلع أضراسك فى رأسك .

فالتفت الزهرى إلى سليمان وقال : أصلحك الله، إن هذا الحديث ما سمعت به من حديث رسول الله ﷺ قط.

فضحك أبو حازم ثم قال : يا زهرى أحطت بحديث رسول الله كله؟

قال : لا.

قال : فثلاثة أرباعه. قال : لا.

قال : فثلثيه. فقال : أرانى ذلك، قد رويت وبلغنى.

فقال أبو حازم : فهذا من الثلث الذى لم يبلغك وبقى عليك إسماعه.

فقال سليمان : ما ظلمك من حاجك.

ثم قام مأذونًا له، فأتبعه سليمان ببصره، ينظر إليه ويعجب به.

ثم التفت إلى جلسائه فقال : ما كنت أظن أنه بقى فى الدنيا مثل هذا [1].

---

(١) سنن الدارمى باب فى إعظام العلم ١ / ١٥٥ ،موارد الظمآن ١ / ٥٨٣ .

• صفة الإمام العادل

وكان الحكام الورعون يستفتون العلماء العاملين فى أمورهم :

كتب عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه لما ولى الخلافة إلى الحسن البصرى أن يكتب إليه بصفة الإمام العادل ، فكتب إليه الحسن رحمه الله :

اعلم يا أمير المؤمنين أن الله جعل الإمام العادل قوام كل مائل، وقصد كل جائر ، وصلاح كل فاسد ، وقوة كل ضعيف ، ونصفة كل مظلوم، ومفزع كل ملهوف .

والإمام العادل يا أمير المؤمنين كالراعى الشفيق على إبله الرفيق بها ، الذى يرتاد لها أطيب المرعى ، ويذودها عن مراتع الهلكة، ويحميها من السباع، ويسكنها من أذى الحر والقر .

والإمام العادل يا أمير المؤمنين كالأب الحانى على ولده، يسعى لهم صغارا ويعلمهم كبارا ، يكتسب لهم فى حياته ويدخر لهم بعد مماته .

والإمام العادل يا أمير المؤمنين، كالأم الشفيقة البرة الرفيقة بولدها حملته كرها ووضعته كرها ، وربته طفلاً ، تسهر بسهره، وتسكن بسكونه، ترضعه تارة وتفطمه أخرى ، وتفرح بعافيته وتغتم بشكايته .

والإمام العادل يا أمير المؤمنين وصى اليتامى، وخازن المساكين، يربى صغيرهم، ويمون كبيرهم .

والإمام العادل يا أمير المؤمنين ، كالقلب بين الجوارح ، تصلح الجوارح بصلاحه وتفسد بفساده .

والإمام العادل يا أمير المؤمنين ، هو القائم بين الله وبين عباده ، يسمع كلام الله ويسمعهم، وينظر إلى الله ويريهم، وينقاد إلى الله ويقودهم فلا تكن يا أمير المؤمنين فيما ملكك الله عز وجل كعبد ائتمنه سيده واستحفظه ماله وعياله ، فبدد المال ، وشرد العيال ، فأفقر أهله وفرق ماله .

وأعلم يا أمير المؤمنين أن الله أنزل الحدود ليزجر بها عن الخبائث والفواحش ، فكيف إذا أتاها من يليها ؟

وأن الله أنزل القصاص حياة لعباده ، فكيف إذا قتلهم من يقتص لهم؟

واذكر يا أمير المؤمنين الموت وما بعده، وقلة أشياعك عنده وأنصارك عليه، فتزود له ولما بعده من الفزع الأكبر.

واعلم يا أمير المؤمنين أن لك منزلا غير منزلك الذى أنت فيه،يطول فيه ثواؤك، ويفارقك أحباؤك، يسلمونك في قعره فريداً وحيداً، فتزود له ما يصحبك ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (٣٤) وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ (٣٥) وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ (٣٦) ﴾ [١].

واذكر يا أمير المؤمنين ﴿ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ (٩) وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ (١٠) ﴾ [٢]. فالأسرار ظاهرة، والكتاب ﴿ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا ﴾ [٣].

فالآن يا أمير المؤمنين، وأنت في مهل، قبل حلول الأجل وانقطاع الأمل، لا تحكم يا أمير المؤمنين فى عباد الله بحكم الجاهلين، ولاتسلك بهم سبيل الظالمين ولا تسلط المستكبرين على المستضعفين، فإنهم لا يرقبون فى مؤمن إلا ولا ذمة، فتبوء بأوزارك وأوزار مع أوزارك، وتحمل أثقالك وأثقالاً مع أثقالك.

ولا يغرنك الذين ينعمون بما فيه بؤسك، ويأكلون الطيبات فى دنياهم بإذهاب طيباتك فى آخرتك. ولاتنظرن إلى قدرتك اليوم، ولكن انظر إلى قدرتك غداً وأنت مأسور فى حبائل الموت، وموقوف بين يدى الله تعالى فى مجمع من الملائكة والنبيين والمرسلين، وقد ﴿ عَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ ﴾ [٤].

إنى يا أمير المؤمنين ،وإن لم أبلغ بعظتي ما بلغه أولو النهى من قبلى، فلم آلك شفقة ونصحا، فأنزل كتابى إليك كمداوى حبيبه يسقيه الأدوية الكريهة لما يرجو له فى ذلك من العافية والصحة.

والسلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته [٥].

• حاكم آخر يقبل النصيحة

فى بعض الأحوال والأزمان كان العلماء العاملون الورعون يضجون إلى الله تعالى بالشكوى من سوء الحال، فإن طلب منهم توضيح ما يشكون منه قالوا وأفصحوا.

فبينما المنصور فى الطواف ليلا إذ سمع قائلا يقول:

---

(١) سورة عبس الآيات ٣٤-٣٦. (٢) سورة العاديات الآيتان ٩ - ١٠.

(٣) سورة الكهف الآية ٤٩. (٤) سورة طه الآية ١١١.

(٥) انظر نهاية الأرب ٦ / ٣٧ ، العقد الفريد لابن عبد ربه ١ / ٢٥، ٢٦.

اللهم إنى أشكو إليك ظهور البغى والفساد فى الأرض، وما يحول بين الحق وأهله من الطمع، فخرج المنصور فجلس ناحية من المسجد، وأرسل إلى الرجل يدعوه

فصلى الرجل ركعتين، واستلم الركن، ثم أقبل مع الرسول فسلم عليه بالخلافة.

فقال المنصور: ما الذى سمعتك تذكر من ظهور الفساد والبغى فى الأرض، وما الذى يحول بين الحق وأهله من الطمع؟ فوالله لقد حشوت مسامعى ما أرمضنى.

فقال : إن أمنتنى يا أمير المؤمنين أعلمتك بالأمور من أصولها، وإلا احتجرت منك واقتصرت على نفسى فلى فيها شاغل.

قال : فأنت آمن على نفسك فقل.

فقال : يا أمير المؤمنين ، إن الذى دخله الطمع حتى حال بينه وبين ما ظهر فى الأرض من الفساد والبغى لأنت.

فقال : كيف ذلك ويحك ! يدخلنى الطمع والصفراء والبيضاء فى قبضتى، والحلو والحامض عندى؟

قال : هل دخل أحد من الطمع ما دخلك؟

إن الله استرعاك أمر عباده وأموالهم، فأغفلت أمورهم، واهتممت بجمع أموالهم، وجعلت بينك وبينهم حجابا من الجص والآجر، وأبوابا من الحديد، وحراسا معهم السلاح، ثم سجنت نفسك عنهم فيها، وبعثت عمالك فى جباية الأموال وجمعها وقويتهم بالرجال والسلاح والكراع، وأمرت ألا يدخل عليك أحد من الرجال إلا فلان وفلان، نفرا سميتهم، ولم تأمر بإيصال المظلوم، ولا الملهوف، ولا الجائع العارى، ولا الضعيف الفقير إليك، ولا أحد إلا وله فى هذا المال حق، فلما رآك هؤلاء النفر الذين استخلصتهم لنفسك وآثرتهم على رعيتك وأمرت أن لا يحجبوا دونك، تجنى الأموال وتجمعها قالوا : هذا قد خان الله فما لنا لا نخونه، فائتمروا ألا يصل إليك من علم أخبار الناس شىء إلا ما أرادوا، ولا يخرج لك عامل فيخالف أمرهم إلا خونوه عندك ونفوه، حتى تسقط منزلته.

فلما انتشر ذلك عنك وعنهم ، أعظمهم الناس وهابوهم وصانعوهم، فكان أول من صانعهم عمالك بالهدايا والأموال، ليقووا بها على ظلم رعيتك، ثم

فعل ذلك ذوو المقدرة والثروة من رعيتك، لينالوا ظلم من دونهم، فامتلأت بلاد الله بالطمع ظلما وبغيا وفسادا، وصار هؤلاء القوم شركاءك فى سلطانك وأنت غافل، فإن جاء متظلم حيل بينك وبينه، فإن أراد رفع قصته إليك عند ظهورك وجدك قد نهيت عن ذلك، وأوقفت للناس رجلاً ينظر فى مظالمهم، فإن جاء ذلك المتظلم فبلغ بطانتك خبره، سألوا صاحب المظالم أن لا يرفع مظلمته إليك، فلا يزال المظلوم يختلف إليه ويلوذ به، ويشكو ويستغيث، وهو يدفعه، فإذا أجهد وأحرج ثم ظهرت صرخ بين يديك، فيضرب ضربا مبرحا يكون نكالا لغيره، وأنت تنظرفما تنكر!.

فما بقاء الإسلام على هذا ؟

وقد كنتُ يا أمير المؤمنين أسافر إلى الصين فقدمتُها مرة وقد أصيب ملكهم بسمعه، فبكى بكاء شديدا، فحثه جلساؤه على الصبر.

فقال : أما إنى لست أبكى للبلية النازلة، ولكنى أبكى المظلوم يصرخ بالباب فلا أسمع صوته، ثم قال : أما إذا قد ذهب سمعى فإن بصرى لم يذهب، نادوا فى الناس أن لا يلبس ثوبا أحمر إلا متظلم، ثم كان يركب الفيل طرفى النهار وينظر هل يرى مظلوما، فهذا يا أمير المؤمنين مشرك بالله، وبلغت رأفته بالمشركين هذا المبلغ، وأنت مؤمن بالله من أهل بيت نبيه لا تغلبك رأفتك بالمسلمين على شح نفسك !

فإن كنت إنما تجمع المال لولدك، فقد أراك الله عبرا فى الطفل يسقط من بطن أمه ماله على الأرض مال، وما من مال إلا ودونه يد شحيحة تحويه، فما يزال الله يلطف بذلك الطفل، حتى تعظم رغبة الناس إليه. ولست الذى تعطى، بل الله تعالى يعطى من يشاء ما يشاء،

فإن قلت إنما تجمع المال لتشديد السلطان، فقد أراك الله عبرا فى بنى أمية، ما أغنى عنهم جمعهم من الذهب وما أعدوا من الرجال والسلاح والكراع حين أراد الله بهم ما أرادو.

وإن قلت إنما تجمع المال لطلب غاية هى أجسم من الغاية التى أنت فيها. فوالله ما فوق ما أنت فيه إلا منزلة ما تدرك إلا بخلاف ما أنت عليه.

يا أمير المؤمنين. هل تعاقب من عصاك بأشد من القتل؟

فقال المنصور : لا . فقال : فكيف تصنع بالملك الذى خولك ملك الدنيا، وهو لا يعاقب من عصاه بالقتل ولكن بالخلود فى العذاب الأليم، قد رأى ما عقد عليه قلبك، وعملته جوارحك، ونظر إليه بصرك، واجترحته يداك، ومشت إليه رجلاك : هل يغنى عنك ما شحت عليه من ملك الدنيا إذا انتزعه من يدك ودعاك إلى الحساب.

قال : فبكى المنصور، ثم قال : ليتنى لم أخلق ! ويحك كيف أحتال لنفسى ؟

فقال : يا أمير المؤمنين ، إن للناس أعلاما يفزعون إليهم فى دينهم، ويرضون بهم فى دنياهم، فاجعلهم بطانتك يرشدوك، وشاورهم فى أمرك يسددوك.

قال : قد بعثت إليهم فهربوا مني.

قال : خافوك أن تحملهم على طريقتك.

ولكن افتح بابك، وسهل حجابك، وانصر المظلوم، واقمع الظالم، وخذ الفيء والصدقات على حلها، واقسمها بالحق والعدل على أهلها، وأنا ضامن عنهم أن يأتوك ويساعدوك على صلاح الأمة [1].

● وصية الخضر درس لكل حاكم

ذكر أن الخضر أوصي ذا القرنين فقال :

الله مكن لك فى الأرض، وآتاك من كل شيء سببا، ولم تعلم إلا ما شاء الله أن تعلمه من علمه، ولو ظهر إليك حرف مما غيب عنك لا نصدع قلبك فرقا.

يا ذا القرنين : حملت أمانة لو حملت على السماء لانفطرت، وعلى الجبال انهدمت، وعلى الأرض انشقت. أعطيت الصبر وأوتيت النصر، وسترى قوما يرون أهل الأرض عبيدا لهم وأنهم شركاء الله فى خلقه، هم يأجوج ومأجوج. والله الطالب لا يفوته هارب ولا يغلبه غالب، والعقوبة بعد القدرة، والمنع قبل البذل، والغضب تحت الرضا، والوفاء بعد العهد.

يا ذا القرنين : مُرٌّ ينفع خير من حلو يضر، خذ ودع، خذ ما يلزمك ودع مالم يلزمك.

يا ذا القرنين : ربما رأت عينك شيئا لم تدركه يدك، وَمَثَّلَ لك أملك مالم يبلغه عملك، وحال دونه أجلك.

---

(١) العقد الفريد لابن عبد ربه ٣ / ٩٣-٩٦.

ياذا القرنين : اعمل عمل من لا يموت، وازهد زهادة من نزل به الموت، واقنع من عيشك بالقوت.

ياذا القرنين : اجعل نفسك : يدك في الدنيا وعينك في الآخرة، امش مشى من لا يغفل، ولا تعجل ولا تهمل، فإن في الغفلة الهلكة،وفي العجلة الندامة، ومن المهل العطب، كن بين حالين. سدد ففي السداد الرشاد، والحق دليل فاستدل ترشد، والغنى لهو ومهلكة وأنى يفي غاو لاه.

يا ذا القرنين : من نظر إلى الدنيا بعين سقيمة نظرت إليه بعين صحيحة، وأرته النجاة وأعاضته جدة لا تخلق، ومن نظر إليها بعين صحيحة شوقته بالآمال الكاذبة، وكان حظه منها غدرا وزادته ندما.

يا ذا القرنين : من عاش كذب ومن مات صدق، مدة غايتها القطع كذب وغرور. وأبدا لايفي. فالمطمئن إلى الحياة مخدوع، والميت في منزل الأموات قدم علمه وأخر أجله فذلك الحي الذى لا يموت.

يا ذا القرنين : الناس عبيد الدنيا، فمن نصح نفسه أعتقها، ومن خلط طال رقه. راحة النفس القناعة، وعذابها الحسد، وزينتها العفاف.

يا ذا القرنين : خذ ما أتيت بحزم، واجعل الصبر دثارا والحق شعارا، والخوف من الله جنة،يزكو لك العمل، وتأمن من هول الأجل، خذ بيدك سيف الله فإنه ليس له دافع، ولا لنصره مانع، وحسبك من كان الله له ناصرا [(١)].

- **المنصور والأوزاعى**

وروى أن الخليفة المنصور العباسى كان شديد الهيبة يخشاه الناس جميعا، وأن الأوزاعى دخل عليه يوما فقال له : عظني.

فقال : اعلم يا أمير المؤمنين أن الله هو الحق المبين، ومن كره الحق فقد كره الله.

يا أمير المؤمنين : إن الملك لا يدوم لمخلوق، وإنما الملك لله وحده، ولو كان يدوم لأحد لما وصل إليك.

يا أمير المؤمنين إن رسول الله ﷺ دعا للقصاص من نفسه في خدش خدشه أعرابيًا وهو غير متعمد، فقال الأعرابى : بأبى وأمى قد أحللتك وما كنت لأفعل ذلك أبدا.

---

(١) ذو القرنين القائد الفاتح والحاكم الصالح تأليف محمد خير رمضان يوسف ص٦٠،٥٩.

يا أمير المؤمنين : إن خير الكرم عند الله التقوى،ومن طلب العزة بطاعة الله رفعه الله وأعزه ، ومن طلبها بمعصية الله وضعه وأذله.

فلما انتهى من عظته أمر له المنصور بمال فاعتذر واستعفى قبوله وقال : يا مولاى ما كنت لأبيع نصيحتى بعرض الدنيا، فأحرم ثوابها، وأقلل من نفعها ومادام أمير المؤمنين قائماً بالعدل فنحن فى خير الله ثم فى خيره.

• **نصيحة عامة**

ولم يكن العلماء يكتفون بتوجيه النصيحة للحكام فقط بل كانوا يوجهونها إلى الحكام والمحكومين وهذه نصيحة عامة

قال الحسن البصرى : يا ابن آدم. بع دنياك بآخرتك تربحهما جميعاً، ولا تبع آخرتك بدنياك فتخسرهما جميعاً،

يا ابن آدم إذا رأيت الناس فى الخير فنافسهم فيه، وإذا رأيتهم فى الشر فلا تغبطهم فيه، الثواء ههنا قليل، والبقاء هناك طويل، أمتكم آخر الأمم، وأنتم آخر أمتكم، وقد أسرع بخياركم فماذا تنظرون ؟

المعاينة فكأن قد هيهات هيهات ذهبت الدنيا بحال بالها وبقيت الأعمال قلائد فى أعناق بنى آدم، فيالها من موعظة لو وافقت من القلوب حياة، أما إنه والله لا أمة بعد أمتكم، ولا نبى بعد نبيكم، ولا كتاب بعد كتابكم، وأنتم تسوقون الناس والساعة تسوقكم، وإنما ينظربأولكم أن يلحقه آخركم.

من رأى محمداً ﷺ فقد رآه غادياً ورائحاً لم يضع لبنة على لبنه ولا قصبة على قصبة، رفع له علم فشمر إليه، فالوجاء الوجاء، والنجاء النجاء علام تعرجون؟

أتيتم ورب الكعبة، قد أسرع بخياركم وأنتم كل يوم تنظرون.

إن الله تبارك وتعالى بعث محمداً عليه السلام على علم منه، اختاره لنفسه وبعثه برسالته، وأنزل عليه كتابه، وكان صفوته من خلقه، ورسوله إلى عباده، ثم وضعه من الدنيا موضعاً ينظر إليه أهل الأرض، وآتاه منها قوتاً وبلغة. ثم قال: ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ [1] . فرغب أقوام عن عيشه وسخطوا ما رضى له ربه. فأبعدهم الله وسحقهم.

---

(١) سورة الأحزاب الآية ٢١.

يا ابن آدم طأ الأرض بقدمك فإنها عن قليل قبرك. واعلم أنك لم تزل في هدم عمرك منذ سقطت من بطن أمك، رحم الله رجلاً نظر فتفكر. وتفكر فاعتبر فأبصر فسبر، فقد أبصر أقوام لم يصبروا فذهب الجزع بقلوبهم ولم يدركوا ما طلبوا ولم يرجعوا إلى ما فارقوا.

يا ابن آدم اذكر قوله تعالى: ﴿ وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا (١٣) اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا (١٤) ﴾[١].

عدل والله عليك من جعلك حسيب على نفسك، خذوا صفاء الدنيا وادرءوا كدرها فليس الصفو ماعاد كدرا، ولا الكدر ما عاد صفوا، دعوا مايريبكم إلى مالا يريبكم، ظهر الجفاء وقلت العلماء، وعفت السنة وشاعت البدعة، لقد صحبت أقوامًا ما كانت صحبتهم إلا قرة العين وجلاء الصدور. ولقد رأيت أقواما كانوا لحسناتهم أشفق من أن ترد عليهم منكم من سيئاتكم أن تعذبوا عليها، وكانوا فيما أحل الله لهم من الدنيا أزهد منكم فيما حرم الله عليكم منها[٢].

وهكذا كان العلماء لا يخافون في الله لومة لائم، ويرون أن الدنيا مزرعة الآخرة وسبيل إليها فلم يجعلوها أكبر همهم، وجل مقصودهم، فقالوا الحق ولو كان مرا فقبله منهم الكبيروالصغير، والأمير والحقير، وكيفما تكونوا يول عليكم[٣].

---

(١) سورة الإسراء الآيتان ١٣ - ١٤.

(٢) النصيحة طويلة فمن أراد زيادة فليرجع إلى هداية المرشدين ص٢٨٨ وما بعدها.

(٣) هداية المرشدين ص ٤٠٠.

بسم الله الرحمن الرحيم

إلى العالمية

إلى

فضيلة الأستاذ الدكتور/

علي يوسف السبكي

أستاذ الدعوة والثقافة الإسلامية

جامعة الأزهر

الموضوع :- طلب الإذن للترجمة والنشر لمؤلفاتكم القيمة

سيدي وأستاذي

السلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته

بعد التحية الطيبة وأداء واجب الاحترام أفيد معاليكم علمًا بأني ابنكم في العلم شاه ولي الله بن محمد ميزشاه من أحد أبناء بنغلاديش وطالب بعض المؤلفات المنشورة باللغة البنغالية ومن المعلوم ٢ مائة مليون مسلم يتحدثون بالبنغالية، وهم من أمس الحاجة إلى المعلومات الدينية وخاصة إلى الموضوع التي ألفتم وبحثتم في "نظام الأسرة في الإسلام" وأيضا إلى كل مؤلفاتكم مثل "الرسائل النبوية" "زوجات النبي صلى الله عليه وسلم الطاهرات" "فضل العلم ومنزلة العلماء" فأريد أن أقوم بترجمة مؤلفاتكم القيمة إلى اللغة البنغالية وسننشر بإذنه الشاملة وبناء على ذالك أطلب من سماحتكم الإذن والدعاء

فالمرجوا من سماحتكم العليا بأن يتشرفنا ~~[illegible]~~ بالإذن الإنعام عليها حتى يتوفقني الله تعالى لما فيه خير للإسلام والمسلمين وجزاكم الله تعالى خيرا في الدنيا والآخرة -

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

المقدم

ابنكم في العلم

شاه ولي الله بن ميزشاه

التاريخ

١٩/٩/٢٠٠٥

Muhiuddin Khan



مجلة المدينة الشهرية
مجلة إسلامية شهرية جامعة تصدر بثقافة بنغالية

Head Office :
Madina Bhaban
38/2 Bangla Bazar
Dhaka-1100, Bangladesh
Phone : 7114555, 7119235

Branch Office :
55 B, Pu[illegible] Palton (1st flo[illegible]
Dhaka-1[illegible], Bangladesh
Phone : [illegible]
Fax : [illegible]

Madina The Monthly মাসিক মদীনা

A Largest Islamic Magazine in Bangla



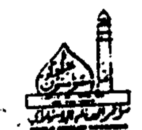
Editor : Madina The Monthly
A Largest Islamic Magazine in Bangla



Member Constituent Council
Rabita Al Alam Al Islami, Makkah
Muslim World League



Member Board of Governors
Islamic Foundation, Bangladesh



President :
Motamar Al Alam Al Islami
(W.M.C.), (Bangladesh).

সাপ্তাহিক মুসলিম জাহান

Chairman, Board of Editors
The Weekly Muslim Jahan



Executive President
Jamiat-E-Ulama Bangladesh



Chairman :
Ansarnagar Public Welfare Trust

بسم الله الرحمن الرحيم

توصية

الحمد لله الذي خلق الإنسان وعلمه والصلاة والسلام على إمام المهتدين وخاتم النبيين محمد صلى الله عليه وسلم وعلى اله الطيبين وأصحابه وأتباعه ومن دعا بدعوته واتبع طريقته إلى يوم الدين، أما بعد .
فاشهد بأن الأخ شاه محمد ولي الله بن محمد رميز شاه، العنوان: القرية: ميرزا بور، مكتب البريد: شانسه غنج، شبه المحافظة: حبيب غنج صدر، المحافظة: حبيب غنج، بنغلاديشي الجنسية.
معروف لدي شخصيا، وهو من أسرة إسلامية عريقة وشهاداته العلمية خير دليل على تفوقه في مجال العلوم والثقافة الإسلامية، وقد نجح المذكور في امتحان الداخل في العام الدراسي ١٩٩١م بتقدير جيد والعالم في العام الدراسي ١٩٩٣م بتقدير جيد والفاضل في العام الدراسي ١٩٩٥م بتقدير جيد والكامل التخصص في التفسير في العام الدراسي ١٩٩٧م بتقدير جيد جدا والكامل التخصص في الفقه الإسلامي في العام الدراسي ٢٠٠١م بتقدير جيد جدا والكامل التخصص في الحديث الشريف في العام الدراسي ٢٠٠٢م بتقدير جيد جدا من مجلس التعليم المدارس العربية بنغلاديش، وله عدة مؤلفات في المناهج التعليم المدارس الدينية تحت رعاية حكومة بنغلاديش الشعبية وكما أن المذكور إمام وخطيب في الجامع بيت المكرم، دكا، وأستاذ الحديث في مدرسة شاه علي بغدادي، دكا، بنغلاديش.

هو يتحلى بالأخلاق العالية والآداب الحسنة والخصال الحميدة والسلوك المستقيم مع التمسك بالكتاب والسنة، وأيضا هو من الشبان الذين يعملون في حقل الدعوة الإسلامية، إلى ما يصل علي أنه لم يشترك في أي عمل تخريبي ضد الحكومة والقانون وقد أعطيته هذه التوصية بناءا على طلبه وحسب معلوماتي عنه ولا أزكي على الله أحدا . نتمنى له الفلاح الكامل في الدارين ونسأل الله تعالى أن يوفق جميع جهوده لخدمة الإسلام والمسلمين.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه وسلم.

(محي الدين خان)
٢٠٠٥/٠٧/٢٦ م
عضو المجلس التأسيسي لرابطة العالم الإسلامي
مكة المكرمة

محي الدين خان
عضو المجلس التأسيسي لرابطة العالم الإسلامي
مكة المكرمة

كتب للمؤلف

[١] ثقافة إسلامية للدعاة

[٢] الرسائل النبوية.

[٣] زوجات النبى الطاهرات.

[٤] فضل العلم ومنزلة العلماء.

[٥] نظام الأسرة فى الإسلام.

[٦] نظام الحكم والإدارة فى العهد النبوى والخلافة الراشدة.

• تحت الطبع:

[١] الأمثال فى القرآن الكريم

[٢] الأوائل

فهرس الموضوعات